نحو آفاق أوسع ـ ٣

المراحل التطورية للإنسان

الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين

أبكار السقاف



أبكار السقاف

نحو آفاق أوسع ـ ٣

المراحل التطورية للإنسان

الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين



نحو آفاق أوسع - ٣

المراحل التطورية للإنسان

الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين

أبكار السقاف



ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

المحتويات

الدين عند الإغريق

الدين في العصر الهلليني الروماني

الدين عند الرومان

الفصل الأول

الدين عند الإغريق

الدين على هذه الجزر والأضفة المطبوعة الطبيعة بطابع الجمال والمنتشر عليها، في انتشار على سفوح الأوليمبس وأوديته وظلال البلوبونيس وأضفة المياه الإيجية وشواطىء آسيا الصغرى والضفة البنفسجية من مياه البحر الأبيض، شعب كوّنته من عنصرين مختلفين يد الزمن، رواية!

رواية... في سجلّ التاريخ بدأت تسطرها يد الزمن في فجر أعقب الانصباب الآري على هذه البقاع بينما راحت الذاكرة منه تستعيد صور التفكير الديني والعقائد الأول للعصور السباقة على هذا الانصباب حتى انفضت من تسطير هذه الرواية بنهاية ستنفض عنها أردية الغروب ومن حولها سينتفض الفكر من سباته يقظاً وهو يستعرض هذا السجلّ المنقسم فيه إلى خمسة أقسام تاريخ دين لئن كانت أهميته كدين قائم مفقودة، فإنما كأساس لقائم أديان وراسخ بدع ووطيد معتقدات تمور بها صفحة الحاضر تقوم له أهمية... بالفروع الآرية، التي امتدت إلى هنا من تلك الدوحة التي كانت تعيش قبائل في قفار وغابات الغرب القديم غير متنبهة إلى ما هو كائن من شأن المدنيات السامية كما إلى شأنها كان غير متنبّه الشرق القديم والفروع منها تمتد إلى مختلف الجهات وتتفرّع شتى الاتجاهات غضون الألف الثاني ق.م لينتشر بعضها على سفوح البنجاب ويتوغل البعض الآخر في تغلغل إلى أقاصي الشرق بينما تروح فروع أخرى غامرة الهضبة الإيرانية، بدأت تسجّل رواية الدين غداة إلى العنصر الآري بدأ تنبّه العنصر السامي وإلى هذه القوة الطالعة للغرب القديم بدأ من الشرق القديم تمام الانتباه.

أجل... إلى العنصر الآري كان قد بدأ من العنصر السامي من قبل بعض التنبّه لحظة اعتكرت صفحة النيل واغبرّت بالهبوب الهكسوسي له آفاق ولحظة دوّت في مسامع الشرق

القديم هدير الموجة الممتدة من قفار الشمال خلال الهبوب الحيثي على الرافدين ولكن!.. الانصباب الآري لم يُحدث في النيل والرافدين التغيّر الجوهري الذي أحدثه هنا هذا الانصباب الذي أقبل في أمواج ثلاث متتالية كل منها تحمل اسماً قبلياً بها خاص وعبر شبه جزيرة البلقان راحت تتدافع أفواجاً إلى قلب حضارة الشرق القديم لتستقر على هذه الناحية من الأرض، المنقسمة إلى شمال يغيب في غيم مقدونيا وجنوب لا يغيب في ظلال البلوبونيس وإنما يمتد غامراً الجزر الإيجية وشواطىء آسيا الصغرى شاملاً كريت، مجترفة إليها العنصر الأول من أهل البلاد الأول وفي استعلاء عليه راحت تمتزج به امتزاجاً فيها تفنيه طاوية له حضارة بعد حضارة وناشرة لنفسها حضارة ما أشرقت بمشرق الألف الأول ق.م. إلاّ وأحالت إلى ذكرى باهتة في ذاكرة التاريخ حضارة عتيقة وحضارة أعتق تطوفان في هذه الذاكرة تحت اسمي:

الحضارة المسينية، والحضارة الإيجية أو حضارة كريت.

ولكن.. على صليل المعاول الأثرية تعود الحضارة الإيجية وكما كانت لقرون من الزمن طويلة قبل الحضارة المسينية تبعث حضارة كريت التي تمثل المرحلة الأولى من الأقسام الخمسة التي ينقسم إليها هنا تاريخ الدين...

تحت أضواء هذه المعاول تنحسر كريت، حضارة التمعت في أعقاب العصر الحجري الحديث ولكن إلى العصر الحجري لا تعود منها الآثار فيد الزمن قد طبعت لها صوراً يعود بنا مرآها إلى اليقين بأنها لم تكن إلاّ حضارة يعود منها الأصل إلى دوحة في شمال إفريقيا امتدت منها فروع إلى هذه الجزيرة وفيها حلّت فليس هناك أي أثر على هذه التربة لحلكة ديجور ليل الإنسانية!

كلا.. بالتدرجي التطوّري من الخطا لم تصطبغ حضارة كريت، وكمصر التي على صفحة واديها كانت قد تركت العصور الحجرية الثلاثة آثارها قبل أن تتألق لها حضارة بـ «مينا» لم تك كريت، وإنما في العصر الذي بلغت فيه مصر حضارتها بـ «مينا»، بمتألق حضارة طلعت بـ «مينوس» كريت بل إن بمينا قد ربطت مينوس تجارة ربطت أواصرها العاصمة المصرية بعاصمة كريت فبين «أنّ» و«كنوسس» كانت الصلات التجارية قائمة غضون الألف الرابع ق.م، وهذا التاريخ المسجّل تعاصر الحضارتين هو الذي طلعت فيه كريت على صفحة التاريخ بحضارتها المتألقة التي سار بها الزمن إلى حوالي سنة ٢٨٠٠ ق.م، لتبلغ عصرها البرونزي وليواصل الزمن سيره بها بين ألوان من مد التحضر وجذره إلى حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م ليبلغها سمتها الذي منه بدأ التهاوي إلى المغيب الذي بلغته تماماً

حوالي سنة ١٤٠٠ ق.م... لتروح إلى مجرد باهت ذكرى في جبهة الزمن وقصة على شفاه التاريخ تروي: أن بين هذا الفجر وهذا الغروب نشرت وطويت كريت!.

ولكن.. لئن إلى ذكرى راحت وفي ذاكرة الزمن طويت كريت فليست إلاّ لتعيش روحاً بين جوانب الزمن بهذا التحضّر الذي نفثته في هذه الأرجاء ف «كنوسس» إنما كانت القلب النابض والبحر الإيجي إنما من هذا القلب كان الدم الفوار الذي إلى حيثما سار نبضت الحياة! لا فحسب في الجزر الإيجية ولا فحسب في الأطراف الجنوبية والوسطى من أرض يونان وإنما إلى شواطىء آسيا الصغرى حيث ربطتها أيضاً بها تجارة، فمنذ فجر القرن الخامس عشر ق.م وألوان من التحضّر تنبثق في هذه الأرجاء تأثراً بالحضارة الكريتية التي تعرفها صفحات التاريخ الديني، نسبة إلى مينوس، بالحضارة المينوية. وأما أخلد هذه الحضارات على صفحات التاريخ السياسي فقد كانت تلك التي انبثقت، حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م، في مسينيا ونعرفها في السجلات الدينية تحت اسم: **الحضارة المسينية.**

أطلال هذه الحضارة التي يُلقي عليها البلوبونيس مديد ظلّه صفحات منتشرة سطورها أضرحة ملوكها وقلاعها وتلالها لتطالعنا بها من خلال غيم الزمن حضارة تعكس لا فحسب من ألوان التحضّر المينوي منها الألوان وإنما لتأتي إلى الفكر باليقين بأن الحضارة المينوية لم تغب بمغيب كريت وإنما ظل شعاعها الغارب يخضب مسينيا كما حمل هذا الشعاع أولئك الذين ارتحلوا إليها من كريت حين لمحوا في الأفق البعيد غيوماً عرفوا بها أن قد آن لكريت آن المغيب ففي الأفق البعيد كانت قد هبّت رياح الزمن تدفع من الشمال، في لين فقوة، تلك الأمواج الثلاث الحامل كل منها اسماً قبلياً بها خاص بدأت بأفواج:

الأيونيين

كلا... إن هذه الموجة الآرية الأولى لم تقبل مكتسحة هادمة وإنما دفعتها يد الزمن في لين فزحفت مداً هادئاً وبالحضارة «المينوية المسينية» اختلطت في امتزاج وبعنصرها منها العنصر امتزج مزجاً عجيباً حتى تعذّر فيه، من بعد، استخلاص أصل لهذه الموجة يعود إلى محض آري، فالمزج بينهما قد أدغمهما في بعض إدغاماً بحيث أضحت الأيونية جزءاً من الشرق القديم فمن شفاه «هيردوتس» يأتي عن هذا المزج الحديث بأن المجموع المسيني كان أيونياً!

في لجة الشرق القديم انصبّ الأيونيون وبطابعه طبعهم الشرق القديم وفي ذوب بأهل البلاد الأول راحوا يعيشون حتى انصبت الموجة الآرية الثانية بأفواج: **الأشيائيين**

من الصحف الحيثية التي وجدت في «بوغازكوي» يطالعنا من هذه الموجة الطابع المتباين

تبايناً كلياً وطابع الموجة الآرية الأولى فعلى هذه الصحف تنتشر للأشيانيين إمبراطورية منظمة كانت لهم غضون القرن الرابع عشر ق.م، وللسبب امتدت هذه الموجة صاخبة جارفة تنشر سيادتها حيثما سارت وتبسط صولتها حيثما حلّت بهؤلاء الغزاة الذين اعتكرت بهم المياه الإيجية حوالي سنة ١٤٠٠ ق.م ذلك الاعتكار الذي سجّلته السجلات المصرية غداة إلى الشواطىء المصرية امتدّ هذا الاعتكار كأثر لاكتساح هذه الموجة كريت، فعلى الحضارة العتيقة امتدّت هذه الموجة عاتية طاغية فأسفت على أمجادها رمال الدار والتدمير!.. طمرت معقل مينوس وبمعالمها هوت تحت الرمال كريت حتى بعثتها المعاول الأثرية من جديد بينما لهمس التاريخ يرهف منا المسمع ونحن، فيها، نطل على أطلال عليها أثر الحريق، إن على هذا الدمار وهذا التدمير قد تضافر والزمن هذا الفرع الأشهب من الدوحة الآرية الحامل اسم الأشيانيين.

على شبه جزيرة المورة بدأ انصباب هذه الموجة بعجلاتها وأدواتها الحربية انصباباً أبت به إلا اكتساح من وجدت وممن وجدت كان الأيونيون حتى استقرت في مسينيا حيث بدأت على هذه الناحية من الأرض لها سيادة ف «بلوس» يطلق اسمه على الجبال المتاخمة لتحمل حتى اليوم هذه الجبال اسم البلويونيس أو جزيرة بلوس وابنه «أتريوس» يشيد قصراً أو معقلاً تقود سراديبه إلى البلاد المتاخمة، ولهذا المعقل يرث «أغاممنون» ابن أتريوس، هذا الذي نراه في مغرب القرن الثالث عشر وفجر الثاني عشر يقود الأشيانيين إلى طروادة ليبدأ بذلك تهاوي الحضارة المسينية التي كان قد أضعفها النضال بين الأشيانيين والأيونيين حتى هوت تماماً بانصباب الموجة الآرية الثالثة والأخيرة الحاملة اسم: **الدوريون**

مدمرة عاصفة انصبّت هذه الموجة فلم يكن شأن الانصباب الدوري شأن ما قد سبقه من انصباب آري بل اختلف عنها اختلافاً جوهرياً فهذه هي الموجة التي قد تغير بها وجه الدنيا وتبدل بها لون الدين، فالانصباب الدوري فيما بين مغرب الألف الثاني وسحر الألف الأول ق.م، قد غيّر تماماً ألوان البحر الإيجي وإذا كانت الموجتان السباقتان قد استمرأتا ألوان الدين القديم للبلاد واستطابتا معتقدات الدين «المينوي المسيني» فإن هذه الموجة قد تمسكت بديانتها «الآرية الهندية» وأبت إلا لديانة آباؤها الآريون، السيادة وإلاّ إحلالها في النفوس، ليبدأ بذلك التطاحن بين التفكير الديني القديم والتفكير الديني الجديد، الذي ليبلغ سيطرته وسيادته كاملة، بدأ يدمج في إفناء فيه أصول الدين القديم في ذوب للقديم وإبراز للجديد حتى تمّ تماماً إدماج الدين «المينوي المسيني» في الدين «الآري الهندي» ليطلع علينا ديناً لا فحسب مزيجاً من القديم والجديد وإنما صورة قديمة ألوانها الجديد كما تطالعنا على صفحة التاريخ الديني منه الصورة بعد قرون من الزمن ثلاثة أعقبت هذا الانصباب الذي جاء يضع

نهاية فجائية لحضارة طويلة اقتمت لمغربها الآفاق فترة من الزمن استوعبت هذه القرون الثلاثة التي سجّلتها أنفاس التاريخ بالعصور المظلمة.

هذه هي الفترة الزمنية التي جرت خلالها يد الزمن بالتغيير، فخلال هذا الليل الطويل الذي لفّ بسجفه هذه الناحية من الأرض وعليها به خيّم داكن الظلم جرت هذه اليد عاملة تدمج في الجديد كل قديم، حضارة وديناً وشعباً، وتقيم على أصول الدين القديم صرح الدين الجديد وعلى أسس الحضارة القديمة تشيد معقل الحضارة الجديدة وبالعنصر الهلليني المميز كل هذه الفروع الآرية تمزج اللاهيلليني من ذوي العنصر القديم وتكون من هذين العنصرين المختلفين شعباً واحداً أزاحت به ليل العصور المظلمة واستهلّت به فجراً فيه قدمته إلى التاريخ تحت اسم:

الإغريق

عن دنيا تغيرت منها غضون الليل طويل المعالم والألوان انحسر الفجر الجديد، فمظاهر الحضارة الجديدة التي تمثل أول لون من ألوان التحضّر الغربي إنما في الفجر الجديد بالجديد من الأشكال قد تشكلت صور الحضارة القديمة وبالطابع الهلليني قد طبعتها، ففي كل ناحية من هذه الأرجاء قد نفثت الروح الهللينية في العتيق روح الجدة!

هذه صفحة «أتيكا» ذات التربة الطينية وحيث تنتشر مدن في التفاف من حول «أثينا» المدينة التي عنها غاب أول ما غاب، حوالي ٩٠٠ ق.م، ليل العصور المظلمة وبزغ فيها أول ما بزغ نور الفجر[١].

وهذه صفحة «أركاديا» ذات التربة الصخرية حيث تقوم سبارطة وتتاخمها مسينيا ومن حوليهما تنتشر مدن.. وهذه بشواطئها أيونيا.. وهذه الجزر المتناثرة في البحر الإيجي.. وهذه بمدنها كريت.. وهذه أواسط البلاد حيث يشمخ الأوليمبس وتعانق أحضان الغمام قممه وعلى سفوحه تنتشر مدن علقت به منها الأهداب!

كل هذه الأرجاء التي إليها بدأ المد الفجري يزحف ويغيّب عنها ليل القرون المظلمة أصبحت بمدنها هيللينية الطابع هيللينية التفكير والروح فالفروع الآرية، التي كان قد تمّ لها الآن الانتشار على هذه الأرجاء، قد طبعت بطابعها هذه المدن التي لا ينحسر عنها إلى صبح الفجر الجديد إلاّ وفي كل حكم سياسي جديد وفي كل استقلال ذاتي جديد وفي كل مرتبة من الحضارة جديدة عن الأخرى تختلف.

---

(١) The Ilyad

ولكن! كل هذه المدن التي بدأت بها، بسبب استقلالها السياسي، إلى أقسام تنقسم البلاد إنما بالأخرى مرتبطة ارتباطاً دينياً وإلى بعضها بعضاً تشد وثاق وحدة عقيدية فهناك عقيدة مشتركة تجمع كل «بولس»، أو مدينة إلى الأخرى محورها دين رسمي.. دين يسود كل هذه المدن ويشد إليه منها الأواصر ويجعلها، رغم تفرّقها المذهبي وانعدام وحدتها السياسية، ذات وحدة عقيدية فهو الدين الذي يمثل القسم الثاني من التاريخ الديني في هذه البقاع والذي ضمّ البلاد في هذه المرحلة التي نعرفها بالمرحلة الأوليمبية وتعرفه سجلات الدين تحت اسم:

الدين الأوليمبي

عبر شفاه هومير، أول شاعر غربي عرفته سجلات الأدب، نصغي إلى رواية هذا الدين كما ترجعها أصداء صفحات: **الإلياذة والأوذيسية**

صفحات الهومبريات سجل الدين الرسمي!

للهوميريات نتناول في نشر لصفحات هذين السجلين الأساسيين الوحيدين للدين الرسمي اللذين ما سطرتهما اليد الهوميرية، حوالي سنة ٨٥٠ ق.م، إلاّ ومن اليد الهوميرية تناولتهما بالإجلال الأجيال وإلاّ من حوليهما راحت تطوف تصفح صفحاتيهما بالقدسية وتحفّ بسطوريهما حفيف البلاغة والإعجاز كما إلى «بزبزستراتوس» هذا الذي حكم أثينا في فترات متقطعة، فيما بين (٥٦٠ ـ ٥٢٨ ق.م)، ورفع من شأنها السياسي رفعاً حولها به من مدينة بين المدن إلى محور للمدن الإغريقية قاطبة يعود بأسبابه هذا التقديس، فإن بتسجيله هذين السجلين على البرديات بالنصوص التي نراها عليها الآن إنما قد سطر بحكمه حكم الهوميريات فقد جعلهما شرطاً أساسياً للحياة الثقافية بأن جعل تعليمهما مبدأ أساسياً لتعليم النشء في المدارس ومن ثم بدأت منذ عهده سيطرة الهوميريات على مناص التفكير الإغريقي ليظلا لحوالي ألف سنة من الزمن القاعدة الأساسية للتفكير الإغريقي في كل مرافقه واتجاهاته فقد ظلّت نصوصهما المرجع والحكم لإقرار وضع أو مسألة أو أمر بل حتى أصبحت هذه النصوص، لما حفّ به من القدسية، حرفة في أيدٍ محترفة تذهب من مدينة إلى مدينة في تلاوة وعرض ترتيلي لها بينما قد رسخ في الذهن الإغريقي بأن كل فقرة من هذه النصوص تتضمن البلاغة والإعجاز!

من ثم فإذا ما جال الفكر منا متأملاً السطور من هذيت السجلّين بين همس ودوي ذلك الإيمان الذي رسخ لأجيال في الذهن الإغريقي عنهما باحتوائهما البلاغة والإعجاز فليس إلا ليعجب من ذلك الغفو الذي غفاه العقل الإنساني على هذه الناحية من الدنيا وأطوار العمر

تقتطع به مرحلة الشباب قبل أن يلج مرحلة الكهولة ومن نطاق المرحلة الأوليمبية ينسلخ إلى رحاب المرحلة الفلسفية ويتعقّلهما فكراً ويدرك ما فيهما من التناقض في القول المنسوب إلى الإله خاصة في مشكلة الهداية والضلال فتارة يتكلّم الإله، كما في الأوذيسية، مفوضاً أمر الهداية والضلال إلى اختيار الإنسان نفسه، وتارة كما في الإلياذة، يجعل مشيئته الإلهية مصدراً للهدى والضلال!

ولكن... الفكر إذ يجول بين هذين السجلين في استعراض لهذه النصوص، التي حفرت على كل قلب إغريقي بمداد القدسية وكان حفظها عن ظهر قلب أساساً للثقافة في كل مرافقها حتى كانت تؤخذ منها الفقرات في كل مناسبة ولكل مناسبة ويستخدمها الإغريقي في كل ما شاء لما شاء، فليس إلا ليلتمع بين السطور ذوب الإشعاع «المينوي المسيني» وليس إلاّ لنلمح فناء القديم في الجديد واصطباغ التفكير الديني الأوليمبي تمام الاصطباغ بالتفكير الديني «المينوي المسيني».. فإن على أسس الدين «المينوي المسيني» لا يقوم صرح الدين الأوليمبي، فحسب كما نشاهد هذا الصرح مشيداً على صفحات الهوميريات، وإنما كما تتغلغل بنا البحوث الأثرية عن الأسس الأولى التي بُني عليها التفكير الديني في المرحلة الأوليمبية تزيح المعاول الأثرية عن هذه الأسس غبار الأزمان وينحسر الأصل من أصوله عائداً إلى الأصل «المينوي المسيني».. فتحت المعاول الأثرية تسطع الأضواء التاريخية ويتنفس الزمن محدثاً بأن الدين عند الإغريق في المرحلة الأوليمبية قد طبعه طابع التفكير الإلهي والمعتقدات الدينية للعصور البرونزية في الدين «المينوي المسيني» العائد بأصوله إلى الأسس المصرية وارتباطه بمصر ذلك الارتباط الذي يعود بأسبابه إلى تلك الصلات التجارية التي كانت قائمة بين مصر وكريت ومعاصرة حضارة «مينا» لحضارة «مينوس» كما عن هذه الحقيقة يسفر الفن الكريتي فلم يكن هذا الفن إلاّ تقليداً للمصري فنفس الأدوات الدينية التي استعملت في الطقوس الدينية المصرية هي نفسها التي استعملت في طقوس الدين المينوي، ومن ثم فإذا ما قلبت منا اليد صفحات الهوميريات وجال منا الفكر مستعرضاً الدين عند الإغريق من خلال هذه القصص الدينية التي تمور بها صفحات الإلياذة والأذويسية فليس إلا ليطالعنا، من ثنايا هذه القصص، المدد الذي بمداده سطّرت هذه القصص الدينية التي اعتقد العقل الإنساني طويلاً بقدسيتها في نطاق هذا الدين قبل أن يستفيق من وهمه ويحطم، في مرحلته الفلسفية، قيد هذا الدين وينطلق متحرراً فيسميها أساطير!

أجل... إن هذه القصص الدينية التي يضمها السجل الهوميري ونسميها اليوم أساطير هي التي قد قادتنا إلى اكتشاف ألوان التفكير الديني «المينوي المسيني» فبهدي هذه الأساطير

بحثت المعاول الأثرية عن طروادة التي حول سورها قد جرى سباق هكتور وأشيل وعن مسينيا حيث حكم أغاممنون وعن كريت حيث معقل مينوس وتحت هذه المعاول تكشفت أهمية الحضارة المينوية وأثر الدين «المينوي المسيني» في حياة هذا الدين، الدين الأوليمبي، الذي بدأ تاريخه غداة تم للفروع الآرية الانتشار على هذه الناحية من دنيا الدنيا القديمة ليحكم لردح طويل من الزمن، هذه البلاد التي أسفر عليها الفجر الجديد ومدنها منقسمة في حكمها السياسي إلى أقسام يجمع تفرقها المذهبي ويضمها ضماً بوحدة عقيدية كدين رسمي يقوم منه الصرح على أسس عبادة الإله الذي جاءت به معها الموجات الآرية واختارت له قمم الأوليمبس مهبطاً وبين غيومه القاذفة الصواعق أحلته فجعلته المؤلف السحب القاذف الصواعق ونادته باسم هو رجع الصدى للنغمة التي سمعناها على السفوح الهندية تنطلق من الحناجر الآرية ففي ترجيع لاسم «ديوش» رجعت الأرجاء الإغريقية دوياً اسم:

زيوس

محوراً للدين الرسمي يقف «زيوس» إلهاً تسود ألوهته أرجاء التفكير الإغريقي قاطبة وفي ألوهته لا يشاركه في هذا التفكير آخر، هو الإله المتفرّد بمرتبة الألوهة فهو، وحده، المستوي على العرش!

بالاستواء على العرش الإلهي انفرد زيوس فهو الرب الأكبر ورب حشد من الأرباب تحيط به طوائفها وعن المرتبة الإلهية تقف في مرتبة أدنى كوسطاء بينه وبين البشر، فكل هذه الأرباب التي يعج بها التفكير الإغريقي وتطوف طوائفها في المخيلة الإغريقية أطيافاً إنما بأمره تأتمر وله خاضعة، وله بالألوهية يعترف كل فرد من هذه الطوائف المنقسمة إلى:

«ثيو» أو: ربوبة ما بعد طبيعية

و«ديمونس» أو: ربوبة طبيعية

بقوى ما بعد طبيعية وطبيعية تؤلفان قسمي «ثيو» و«ديمونس» اعتقد الإغريق، والفرق بين هاتين «القوتين» قبل أن يتطورا فيما بعد ويمزجا مزجاً أصبحا فيه يعنيان معنى «القوة» وتصبح هذه «القوة» تعني الإله وحده واضح كل الوضوح فإن «ثيو» كلمة تعني الشيء المشخص وتقصد الكينونة الفردية ومن ثم فهي كلمة تعني كل ربوبة مكانها السماء، وأما «ديمونس» فكلمة تعني الشيء اللامشخص وتقصد قوى روحية هي نفسها نفس المظاهر والظواهر الطبيعية مما يغدو به روحاً، وليس يجسّد له كينونة مجسّدة، كل «ديمون».

وعلى أسس هذا الإيمان بهاتين «القوتين» نشأ الاعتقاد بأن لطوائفهما المقدرة والقدرة على

التدخل تدخلاً تاماً في حياة البشر وإن اختلفت ألوان هذه المقدرة وإن تباين مدى هذه القدرة فإن لـ «ثيو» التحكم في أقدار البشر.. وإن لـ «ديمونس» القدرة على تنبيه وتحذير البشر من أحكام وأقدار هذه الأقدار، عن طريق القذف في القلب، فصوت «ديمون» إنما هو هذا الإلهام المفاجىء الذي ينير أرجاء العالم الداخلي نوراً في ساعات الحاجة ولحظات المحن والذي يجلجل بين الضلوع نذيراً وبشيراً وآمراً وناهياً ورادعاً وزاجراً وقائداً إلى الطريق الصواب وهادياً إلى السبيل المستقيم.

أجل... على أسس الإيمان بقوى ما بعد طبيعية وطبيعية نشأ الاعتقاد بهاتين الربوبتين ونشأ الاعتقاد بتدخل هاتين القوتين في حياة البشر كما على أسس الإيمان بعقيدة أخرى هي أبداً محور التفكير البشري ومعقد آماله ومحط أمانيه نشأت ربوبة أخرى محورها تقديس الأبطال من القدامى ففي ظلّ هاتين الربوبتين تنتشر:

الربوبة القبلية

على أسس عقيدة الخلود نشأت عقيدة الربوبة القبلية، فليس إلا على أسس الإيمان بأن فيما وراء الحياة الأرضية حياة أخروية أرضها السماء ومكانها الرحاب الإلهي وأن من كان هنا سيداً عادلاً وبروح العدالة قد عاش حاكماً قبيلته فهو إنما يحيا هناك ويعمل ومن هناك يواصل نشاطه وقوته وتأثيره على من هنا، قد نشأت هذه الربوبة القبلية التي بسببها بنيت الأضرحة للقدامى من الأبطال وحكام القبائل ليطوف الزمن من حولها بالعقل الجماعي الذي راح يضفي على أصحابها صفة القدسية فخضاب الربوبة ويتخذ الثاوين فيها شفعاء إلى الإله المستوي على العرش المؤلف السحب القاذف الصواعق الطاوي ظلّه كل ما تعج به المخيلة الإغريقية من طوائف تؤلف هذه الأرباب المنقسمة في مراتبها إلى أقسام والقائم هو وحده حاكم الطبيعة وما وراء الطبيعة؛ زيوس!..

قديماً... قديماً قبل أن تسطر «الهوميريات» عرف الإغريق «ديوس» اسماً يعني الإله الذي تمثلته هذه القبائل الآرية متمثلاً في السماء كما أقبلت به معها تناديه «الإله السماء».. كلا!.. لم تكن السماء لزيوس من قبل مكاناً فيها له يقوم عرش وإنما زيوس نفسه كان نفس السماء فلم تفرق هذه القبائل الآرية بينه والسماء وتجعله «الإله الساكن السماء» وتناديه «يا أبانا الساكن السماء» وتجعل الأوليمبس لحكمه الشامل مكاناً إلا غداة حلّت هنا في تأثره بما قد عرفت هذه البلاد من قبل من ألوهة مكانها السماء!

كأثر لهذا التأثر تحولت إلى مكان السماء ولمست أرضها قمم الأوليمبس وإلى رجل في السماء تحول زيوس وفيها على عرش أقامه العقل على غرار عروشه الأرضية استوى

فتحولت، تبعاً لهذا التحوّل، الألوهة من معنى كانت علماً على الأبوة المتمثلة في السماء إلى صورة طابعها المكانية والجسدية والعنصرية!

في غيهب اللاتاريخ غاب من زيوس الأصل ليبرز في ضوء التاريخ إلهاً مكانه عرش السماء!

على صفحات «الهوميريات» منتشرة لزيوس هذه الصورة التي ما ارتسمت على قماش المخيلة الإغريقية إلا وانطلقت الحناجر تنادي صاحبها: **«ملك السموات!»**

نحو المعتقد «المينوي المسيني» راحت عجلة الزمن «بملك السماوات» تسير مبتعدة به عن الصفة التي حلّ بها هنا أول ما حلّ وبطابع الدين القديم تطبع منه الصورة بل تحمله الشعار الكريتي للديانة المينوية القديمة أشعاراً للتاريخ بأن الدين القديم لم يبد وإنما شع روحاً في الدين الجديد، فإن زيوس الذي يطلع على صفحات التاريخ الديني، في لابراندا، تحت نعت «زيوس لابراندوس» حاملاً الفأس الثنائي رمزاً للصاعقة وشعاراً على قدرته فليس إلاّ لتعود بنا الذاكرة إلى ما قد أزاحت عنه المعاول الأثرية غبار الأزمان من آثار العصر المينوي فإن هذا هو رمز الديانة المينوية الذي نراه مرسوماً على الأواني والحجارة الكريمة ومحفوراً على أحجار وأعمدة القصر في كنوسس وعلى توابيت العصر المينوي.

بألوان شتى من الخضاب المينوي بدأت تخضب عجلة الزمن الإله الآري كما فيه بدأت تصب وتُفني المهم والأخلد من معتقدات الدين المينوي وكأثر ملموس لهذا الإفناء كانت تلك العقيدة الكريتية التي تسجّلها:

«قصة مولد زيوس» أو «عقيدة الطفل الإلهي»

تحتل هذه القصة مكانة فريدة في سجلّ القصص الدينية الإغريقية بتحدثها عن مولد «ملك السموات» في كهف تعين مكانه في كريت وتقدم برهانها على أن هذا المولد الإلهي قد اتخذ مكاناً هذا الكهف الكريتي قولها إن من هذا الكهف يندلع، في كل عام من ذكرى هذا المولد بل في نفس اللحظة التي تمّ فيها هذا المولد، لهب ليس هو في حقيقته إلا: «الدم الذي تدفق إثر ولادة زيوس» بل في غير التفات إلى التناقض الذي تضفيه هذه القصة إذ تجعل «ملك السموات» وليداً إلهياً تسير وتخلع على ملك السموات لقب: «زيوس الطفل الإلهي»!

يقيناً إن من التناقض السافر أن يولد «ملك السموات» في كهف وأن يعبد تحت هاتين الصفتين المتناقضتين كمستو على العرش السماوي وكطفل إلهي مقر ولادته كهف في كريت، ولكن!.. المعاول الأثرية التي نفضت عن كريت غبار الأزمان تهدينا إلى سبب هذا

التناقض في التفكير الديني الإغريقي، فبهدي هذه المعاول تنتشر هذه العقيدة، عقيدة «الطفل الإلهي»، عقيدة محض كريتية وإلى العصر المينوي تعود منها الأصول، ونحن إذ نعلم أن مولد «الطفل الإلهي» لم يكن ليعني إلا مولد العام الجديد كوليد إلهي هو روح الخصب والحياة المنبثقة في كل ربيع جديد، وأن سكان كريت الأول كانوا يعيشون في الكهوف، شأن سائر أهالي العصور البرونزوية، وأن الكهوف قد اتخذت وقتذاك معابد وظلت معابد واحتفظت بقدسيتها في عصور التحضّر نعلم مدى تأصل هذه العقيدة، عقيدة «الطفل الإلهي» في تربة النفس البشرية حتى احتضنتها العاطفة الإغريقية وأبت إلا بها التشبث غداة احتل زيوس في أرجاء هذه العاطفة مكانته الجديدة كملك السموات، ولنعلم كيف ضمّت هذه العاطفة ضماً «ملك السموات» و«الطفل الإلهي» في وحدة أصبح بها «ملك السماوات» هو هذا «الطفل الإلهي»!

من ثم نعلم كيف أصبحت في المرحلة الأوليمبية، وعبادة الطفل الإلهي كان مكانها في العهود المينوية والمسينية الكهوف، عبادة «زيوس الطفل» مكانها أيضاً الكهوف ـ كالكهف القائم في قمة جبل «إيدا» في كريت، وكالكهف القائم في «ليكتوس» وكالكهف المهم الآخر «كهف إليثيا» في أمنيسوس الميناء البحري لكنوسس، وأيضاً في ذاك الكهف الصغير القائم في جبل «بوكتاس» بالقرب من كنوسس خاصة في ذلك الكهف الأهم الذي تعيّنه هذه القصة الدينية ـ ولنعلم كيف غابت، في خضم هذا المزج بين «ملك السماوات» و«الطفل الإلهي»، فوارق العبادة المنحصرة في التعبّد إلى الإله بين عبادته تحت صفته كطفل إلهي وتحت صفته كملك مستوٍ على عرش في سماء أرضها قمم الأوليمبس!

ولكن... الأوليمبس ليس إلاّ قمة لزيوس خلي مكان فما دون قممه تعجّ بطوائف تضمها تلك الربوبة التي تقف فيما وراء الطبيعة يفصلها العنصر الجنسي أيضاً إلى أرباب وربات وإليه، بكل، تربط سلسلة طويلة من القربى معقدة الحلقات... ومن أشد هذه الحلقات بالإله صلة وإليه قرباً:

أثينة

على صفحات «الهوميريات» ترتسم لأثينة صورة ألوانها طهر العذرية وإطارها بنوتها للإله ونحوها يتجه الوجه الإغريقي بكليته، حيثما كان، يتخذها درءاً لمقادير القدر وواسطة بينه والإله ويناديها في توسلاته بنعت إلى مشاعره حبيب:

العذراء سيدة السماء..

تحت هذه الصفة التي تنعطف إليها في أعماق أحاسيسها العاطفة البشرية، رسخ في

أعماق الوجدان الإغريقي حب أثينة اللاإغريقية الأصل، وغاب عنه أصل لها يعود إلى تربة أتيكا الطينية، فقديماً... قديماً قبل أن تهبط الفروع الآرية في مغرب الألف الثاني ق.م، «بالأب السماء» أرض يونان كانت هذه الناحية من الأرض أرضاً عليها معبودة «الأم الأرض» تحت اسم يعني الطينة الخصبة، وبهذا المعنى وتحت هذه الصفة عبدت «أثينة» هذه الربة التي جاءت بها تربة أتيكا الطينية وأضفت اسمها على مدينة من مدنها تعرف سجلات تاريخ المدن باسم أثينا ومنها امتدت في زحف متواصل عبادتها إلى سائر مدن هذه البلاد قبل أن تجري العجلات الآرية على أرض يونان.. فباسم إغريقي ليست أثينا المدينة وباسم إغريقي ليست أثينة الربة وإلى أصل غير هيلليني يعود من أثينة أصل تفصح عنه المعاول الأثرية في مسينيا لحظة يتنفس التاريخ الديني تحت هذه المعاول ويقدم هذه الربة معبودة تحت اسم أثينة ويعيد منها النشأة إلى الأصل المينوي، ومن ثم نفهم أن ليس إلاّ في كريت، وفي كريت كانت مرتبة الألوهة وقفاً على «الأم الأرض»، قد نشأت هذه الألوهة وانتشرت على تربة أركاديا الطينية رمزاً لجودة التربة وخصب الأرض، فإن أتيكا التي طواها من الزمن ردح وعليها منتشر الظلال السياسي الكريتي إنما بالتفكير الإلهي الكريتي كانت قد تأثرت تأثراً بسببه عبدت أثينة في العهود المسينية أصلاً يعني الأم الأرض لا كربَّة وإنما إلهة لتلتقي هذه العقيدة للحضارات الإيجية الأولى بالعقيدة الحيثية التي اقتصر التأليه فيها أيضاً على العنصر الأنثوي وعبادة الأم الأرض تحت اسم «ما» فكهنوت «ما» كان يسيطر ويحكم آسيا الصغرى قبل أن يغيب فتغيب بمغيبه «ما» في تلاش في أثينة ومن ثم فامتداد عبادة أثينة غامرة الجذر الإيجية ومجترفة إليها شواطىء آسيا الصغرى لتنتشر، بانتشار الحضارة الإيجية المتأخرة وترف في المرحلة الأوليمبية بقيام أثينا المدينة، هذه العبادة التي لم تنل منها الأيام بتهافت الحضارة المسينية حوالي الوقت الذي ألقت فيه يد الزمن البرونز وتناولت الحديد ونشرت فيه الأشرعة الفينيقية، فإن في غمرة الحياة لم تغمر أثينة ولم تنس فما زال يتحوّل إليها من هذه البلاد الوجه ولكن ليراها قد تحوّلت من «الأم الأرض» إلى العذراء سيدة السماء، ومن إلهة إلى ربّة، نعتها الجديد: ابنة الإله!

لإضفاء هذه الصفة، صفة أبوة الإله لأثينة ودمغها بدامغ التبعية للإله، عمل الخيال اللاهوتي الزيوسي عمله فقد حلق مفكراً في ابتداع وسيلة يمكنه بها إيقاف أثينة في ظلال زيوس وعاد من تحليقه ببدعة عبرها يطالعنا شطط الخيال فقد راح هذا اللاهوت يعلم:

إن أثينة كانت فكرة في جبين زيوس تطوف ما تكونت منها في هذا الجبين الصورة كاملة حتى انتفضت على إثرها من جبين زيوس وبدأت لها كينونة هي في حقيقتها لزيوس بوجودها عائدة ومن ثم فربوبتها، كفكرة في جبين الإله كانت جائلة قبل أن تكتمل منها

في هذا الجبين الصورة ومن هذا الجبين تولد، إنما للإله تابعة التحوّل، تحولت أثينة في خضم التنازع السياسي الذي أثاره الانصباب الآري، فإن الحضارة المسينية التي كان قد أضعفها النضال والنزاع بين الأيونيين والأشيانيين قد حطمها تماماً الدوريون، آخر الهابطين من العنصر الآري، هؤلاء الذين جاءوا متمسكين بالدين «الآري ـ الهندي» لأسلافهم ولم يلينوا لين الغزاة السابقين من نفس العنصر فيتخذوا الديانة المينوية عقيدة، وللسبب بدأ تخافت الديانة الإيجية نحو المغيب تخافتاً استهلّ تاريخه بأثينة فليس إلاّ أمام مد لأثينة غامر ومد لزيوس مجترف احتضن الوجدان الإغريقي أثينة احتضاناً أغرقها فيه وغيّب منها الأصل ونشرها على صفحات الهوميريات وخاصة الأوذيسية إغريقية الصورة، لتطلع على العهود التاريخية في الإطار الهوميري تحت هذه الصورة التي بها قد هوت من مرتبة الألوهة إلى مرتبة الربوبة فيها إلى قمم الأوليمبس ارتفع لاهوت يعقد صلتها بزيوس ولكن ليأبى، وقد حوّل مكانها من الأرض إلى السماء، إلاّ أن يحتفظ لها بمكانة السيادة التي كانت لها قديماً فأحلّها السماء للسماء سيدة وأقامها فيها؛ سيدة عذراء!..

وبالسيدة العذراء حفّ كهنوت وباسمها أقام «الأريكتيوس» معبداً، بقيامه على صفحة أثينا، قام لأثينة لاهوت جديد بدأت به يد الزمن تصيغ لها مذهباً راحت تجريه تياراً في مصب الدين الرسمي للبلاد...

محض ذكريات أمسى الماضي وفي أجفان زمن يذوب في حواشي القرن الثالث ق.م غابت أثينة المسينية وانتشرت أثينة المؤغرقة ربة يطوي ظلّها سائر المراحل التي تنقسم إليها أقسام الدين عند الإغريق فإلى أحكامها يرضخ، في حكمه على البشر، الإله الذي كانت قد وصلت به يد الزمن، خلال تلك الفترة التي سجلها التاريخ السياسي بالقرون الثلاثة المظلمة، صلة الأبوة أيضاً بربة أخرى غير هيللينية الأصل وفيها يتراءى طيف عيشتار، أيضاً هي سيدة عذراء:

«إفروديث»

على صفحات الهوميريات، سجلات الدين الرسمي، مسجلة لإفروديث صورة تطالعنا من خلالها إفروديث حقاً ابنة «ملك السموات»! فهي الآمرة الحاكمة على من قد حفّ بالإله من أرباب وربات، وهي المتحكمة في أرجاء السموات وإذا كان لأثينة من الألقاب «العذراء سيدة السماء» فإن لإفروديث:

العذراء ملكة السموات!

طوى الجديد القديم فطويت صفة لإفروديث كانت قد انحصرت قديماً في مظاهر الإخصاب الطبيعي وانتشرت ملكة للسموات ومن حول محاربها القائمة في ثغور «ألفيوس»

راحت الأجيال بـ «المؤمنين» تطوف وهم بهذه المحاريب يطوفون مقيدين بوهم «إيمان» جديد إلى هذه الربة التي إليها ترتفع العين منهم ليلاً في تطلّع إلى ذلك الكوكب المتلألىء المتخذ رمزاً على طهارتها حتى أمسوا لا يتذاكرونها «كربة الحقول» وإنما كملكة السماوات وابنة إلهية استولدها الإله ممن تجري باسمها اليد الهوميرية على صفحات الإلياذة تسجل الترجيع المتردد على الشفاه يناديها:

ديون

كلا.. لم تكن ديون من قبل لزيوس زوجاً وإنما كانت له أختاً وليس إلا لكي تطوى ربوبة الربة المسينية في ظلّ الإله الآري كانت قد حوّلت فئة من اللاهوت الزيوسي «ديون» هذا التحويل كي يمكن لهذه الفئة «منطقياً» أن تستولدها من الإله لأن هذا المولد كان قد اتخذ له في دائرة أخرى من دوائر اللاهوت الزيوسي صورة مخالفة وتفسيراً آخر يقول بنشأة لإفروديث لا تستسيغها هذه الفئة ولها منطقياً لا تقبل، فتلك الفئة من اللاهوت تقف في نطاق هذا الدين الذي يعيد نشأة الوجود إلى «الماء»، كما بذلك تطالعنا القصة الهوميرية والقصة الهزيودية عن هذه النشأة، تعيد مولد أفروديث إلى الماء.. فنحن إذ نصغي إلى القصة الهوميرية التي تتخذ أوقيانوس أو الماء كأصل لنشأة الوجود فليس إلا لتطالعنا أصداء تلك الفكرة التي طالعتنا في مصر القديمة وفي الرافدين كعقيدة تقول بأن من «الماء الأزلي» قد نشأ الوجود، وأن من بيضة الكون قد انبثق للإله وجود صاحت في أرجائه، به، نغمة الحياة.. ونحن إذ نصغي إلى القصة الهزيودية تحدثنا بأن؛ في البدء لم يكن هناك إلا أورانوس أو السماء ملتصقاً بـ «جيا» أو الأرض في وضع تناسلي بسببه كانت قد حملت أحشاء جَيّا بالأرباب بينما كان يحول ظهورهم هذا الالتصاق الذي فصله إرشاد «جيا» ابنها الأكبر «كرونوس» بأن قطع أعضاء أورانوس التناسلية وهكذا انفصلت السماء عن الأرض وولدت الأرباب ونشأ هذا «الماء الأزلي».. نفهم كيف أن على أسس هذه القصة الدينية التي نسميها اليوم أسطورة اتخذت تلك الفئة من اللاهوت الزيوسي قاعدة بنت عليها مولد إفروديث لتطلع على عالمها تعلم؛ أن من تلك الأعضاء التي قطعها كرونوس من جسم أبيه وألقاها في البحر تكون زبد منه ولدت إفروديث!.

هذا الشطط في الخيال الذي سجلته على نفسها هذه الناحية من اللاهوت الزيوسي وبه جاء تصويرها لنشأة الوجود ومولد إفروديث تصوير مراهق، هو الذي له استمجت تلك الناحية الأخرى المنطقية من اللاهوت والذي طلعت على عالمها تعلم؛ إن مولد إفروديث قد اتخذ مظهره الطبيعي في كل مولد فقد استولدها زيوس من ديون!

كلا.. بالشاذ لم يك على عقلية طوت الإله في المكان والزمان أن تجعل للمستوي على العرش، وهو رجل، ابنة وزوجة!.. بل إن من المنطقي أن يكون لإله صبغته العنصرية والجنسية والجسدية زوجاً، كما إلى زوج لزيوس حول لاهوت هذا الإله الآري ديون.. بيد أن سرعان ما سارت هذه الزوجة ذات الأصل الآري إلى التواري فقد دفعها إلى المؤخرة زواج اضطلع بعقده اللاهوت الزيوسي لزيوس على ذات الأصل المسيني «ربة البيت والعائلة والمودة»:

جِرَا

على قطعة فضية ألقتها إلينا المعاول الأثرية تطالعنا صورة هذا الزواج وعبر الأناشيد الدينية التي صيغت كمراسم لهذا الاحتفال، يستبين الهدف من هذا العقد الذي احتفل به اللاهوت الزيوسي في كنوسس ليعرض لنا صورة من زواج الرابطة فيه كانت محض الغرض السياسي ودون إقامته لم يحل تردد جِرا، الذي لم يكن في حقيقته إلاّ تردد كهنوتها القديم في قبول إدماج هذه الربة في الدين الدخيل، هذا التردد الذي يعطينا أيضاً صورة جلية عن لون ومدى ذلك التنازع الديني الذي كان قد استعرض غضون القرون المظلمة بين القديم والجديد من المعتقدات حتى تمّ للجديد على القديم تمام التغلّب ومثل بارز على هذا التغلّب تأتي صورة هذا الزواج الذي رضخ فيه كهنوت جِرَا للاهوت زيوس وتمّ في الإله الآري إدماج هذه الربة التي لأصلها المسيني تؤكد الحفريات الأثرية في مسينيا، بل إن من خلال تماثيلها يطالعنا التأثر المسيني بالحضارة المصرية وتشابه جِرَا بحتحور تشابهاً عجيباً، حتى إنه لينادي بأن ليست إلاّ صورة منعكسة من حتحور المصرية جِرَا المسينية!.. ثم إن هذه الرّبة، التي قد اتخذت في العهود المسينية رأس البقرة رمزاً على ربوبتها للعائلة والمودة، إنما هي نفسها التي تطالعنا في العهود الإغريقية ولها نفس الرأس الرامز على اتصافها بهذه الربوبة، بل إن أطلال معبدها الذي كان قائماً خلال العهود الإغريقية في أرجوليس ونعرفه بال «حيرايون» إنما يقوم على ربوة كان القصر المسيني عليها قائماً وكانت فيه معبودة قبل أن يعقد لها اللاهوت الزيوسي على زيوس وفي إفناء لربوبتها يحلها في قمم الأوليمبس حيث لم يبدأ بها فيه الاستقرار إلاّ ودفعت أيضاً إلى وراء زيوس الذي ليطوي في ظلّه ربة أخرى مسينية، التف من حوله مرة أخرى له لاهوت يعقد له الزواج من تلك الربة، أيضاً، غير الهللينية:

ليطو

فذة كانت طريقة اللاهوت الزيوسي في إفناء الأرباب المسينية المينوية في من أفرده بمرتبة

الألوهة فهو أمام إيمان قديم قد رسخ بين الجوانب لم يستطع الانصباب الآري له اجترافاً ولم يستطع هو له انتزاعاً اتخذ لهذا الإفناء سياسة الإدماج في صور عقد هذه الصلات متخذاً إلى هذه الغاية وسيلتين تارة عن طريق الزواج وتارة عن طريق ربط صلة من كانت قد عرفتهم البلاد قبل الانصباب الآري بربات عذراوات برابطة البنوة للإله وعلى أسس هذه القاعدة استرسل اللاهوت يدمج الأرباب المسينيين أيضاً في الإله الآري عن طريق وصل صلتهم به برابطة البنوة، فهو لا يقر «ليطو» بجانب زيوس إلاّ ويمتد يطوي في ظل الإله ربوبتين كانتا منذ القدم قد احتلتا أرجاء الوجدان البشري على هذه البقاع وبين جانبيه كان قد رسخ حبهما رسوخاً مذهلاً وعجيباً امتد مديداً مداه من بعد على مدى الأيام فقد توارثت الأجيال من بعد حبهما وظلّت وقدة هذا الحب جذوة في ناحية كبرى من أرجاء القلب البشري مشتعلة استعذبت منه الضلوع حرارتها وأشاعت في أرجائه دفئاً عنه لم يستطع استغناء، فلم يفارق الطيف من هذين الربين الوجدان البشري أبداً وبين جنبات الحاضر ما زالا يشعان ولم يتغير إلاّ، على الشفاه، منهما الاسمان!

روحاً تشع في أرجاء شاسعة من دنيا الحاضر ما زالت ربوبة هذين الربين اللذين طلع بهما اللاهوت الزيوسي بعد أن أقرّ «ليطو» بجانب زيوس فمنها لزيوس قد استولدهما وجعلهما توأمين:

أبولو وأرتميز

عن أبولو، وليد جزيرة دبلوس والثاوي في دلفي، تنفض أردية التاريخ الديني كرب متأخر التاريخ عن «الأم الكبرى» وربوبة قد انحصرت قديماً في الالتزام بإدارة حركة الليل والنهار، فهو المكلّف كان بإدارة هذه الحركة الكونية التي حوّلته بالتالي إلى التجلّي في الشمس والتي غدا له، بسببها، نعتاً اسم «فيبوس» أو الشمس، كما أن من خلال هذا التاريخ الديني تطالعنا عن تاريخ «أبولو» ومضة تذكرنا برب عبد في نواحٍ من الشرق القديم فمن الأرباب الآسيوية كان لكنعان رب عبد باسم «حول» وكانت له من الصفات صفة «أبولو»، بيد أن لا تكاد تومض هذه الومضة إلا ليغيب «حول» وينتشر «أبولو» رباً ربوبته، إلى جانب الشعر أو فصاحة اللسان، ربوبة العلاج!

لأبولو كان مناطاً إشفاء الجسد وإبراء النفس...

يقيناً إن العلاج، علاج النفس والجسد، قد لعب دوره المهم في تاريخ البشرية قاطبة غداة استهل تاريخه في العهود البدائية «بالسحرة» ثم في العهود التاريخية بالكهنة، وشأنه كان في هذه البقاع شأنه في غيرها، فقد كانت هناك قبل الانصباب الآري طوائف تقوم بهذا العمل

يكون أفرادها الكهنوت الأبولي ويتخذون محوراً «أبولو»..

بيد أن لما كان الطبيب هو نفسه الساحر من قبل فالكاهن من بعد، فقد صاحب هذا اللون من التطبيب التطلّع إلى استشفاف طوايا المستقبل وكشف طيات ما من الماضي كان قد طوي، وبالتالي التنبؤ بالآتي والإخبار بالماضي، ولما كان استطلاع الغيب ومعرفة المستتر في الضمير الإلهي من أقدار البشرية والبشر يحتم اتصال الكاهن بالمعبود وكان ذلك مقصوراً على الكهنوت الأبولي كانت، مظهراً لهذا الاتصال، حالة:

الغيبوبة

عن طريق الاتصال بالمعبود وهذا الاتصال وسيلته الغيبوبة أو بالأحرى الغياب عن دنيا البشر كان الكاهن المناط به هذا الاتصال، قبل أن يصبح من بعد وقفاً على الكاهنات، يستسلم بينما ينطلق اللسان منه يتكلم مبشّراً أو منذراً ومن حوله جموع المؤمنين بأن الصوت منه، ليس إلاّ من صوت أبولو رجع الصدى!.. ولهذا زاحمت لأبولو سيادة لزيوس أبى تجاهها اللاهوت الزيوسي إلا الاحتفاظ بها لزيوس ومن ثم راح يربط بين أبولو وزيوس برابطة محكمة الحلقات هي وإن كانت قد احتفظت في نفس الآن لأبولو بمكانته القديمة فإنما قد طوته وأظلّته بالظلال الزيوسي، فاللاهوت الزيوسي قد تناول أبولو فرفعه إلى قمم الأوليمبس وأجلسه على يمين الإله ثم على عالمه طلع معلماً:

إن إلى الإله المستوي على العرش مشدودة من أبولو الأواصر، فإنه من «ليطو» ومن ثم فهو «ابنه الحبيب» بل هو:

أبولو، الابن الإلهي الوحيد!

وناحية ديلوس راحت اليد اللاهوتية تشير تقدس هذه الجزيرة أرضاً وفي رسوخ للمعتقد القديم تردد؛ أن عليها وتحت جذع نخلة فيها ولد «الرب ابن الإله»! وهكذا بين الأراضي المقدسة، طلعت: ديلوس، أرضاً مقدسة

ثم ناحية دلفي، وفي دلفي كان قد توطد لأبولو كهنوت وإلى الصوت منه كانت دائبة الإرهاف مسامع البلاد، راحت اليد اللاهوتية تشير تقدسها أرضاً، وفي تأييد للمعتقد الجماعي المستتب بين الصدور تؤكد، أن عليها من خلال أفواه كهنوته: يتكلم الرّب ابن الإله بلسان الإله!

الطوي طوي اللاهوت الزيوسي، في زيوس، أبولو بأن جعله للإله ابناً حبيباً ووحيداً، بل لينشره منه روحاً وليجعله الآتي بالسلام على الأرض وليقول أن إذا كانت الصاعقة مظهراً لجبروت زيوس، فإن مظهراً لرحمة أبولو يتجلّى بين السحب: القوس

تحت الظلال الزيوسي أوقف اللاهوت الزيوسي أبولو وبينما غفا في الجفن الإغريقي لأبولو تاريخ وبينما ارتفعت الصلوات إلى أبولو تناديه بالابن الإلهي الوحيد تحول هو إلى أرتميز..

وأرتميز؟ أرتميز ربة من معانٍ اسمها ربوبة الأرض واسمها مشتق من كلمتين؛ «أرت ـ ميز» أو سيدة الأرض، وإلى العصر المينوي يعود منها الأصل كما قد أزاحت عن هذا الأصل وعن صفتها هذه المعاول الأثرية في كنوسس لتهدينا بدورها هذه المعاول إلى أن تبعاً لهذه الصفة امتدت لها ربوبة وانتشرت طويلاً قبل الانصباب الآري في أرجاء البلاد، وإن كانت قد استقرت عبادتها في ذلك المقر الذي كان كهنوتها فيه قد استقر، ذلك المقر الذي يجب على الذهن أن يحتفظ باسمه وألا ينساه كموطن لتحول المعتقد الواحد من اسم إلى اسم مختلف دون أن ينال المحور مساس ودون أن يشوّه الجوهر من الفكرة خدش... ذلك الموطن هو: إفسس[1].

في إفسس كان قد استقر لأرتميز لاهوت ولكن أرتميز روح تشع في كل مظاهر الطبيعة واسم عذب به شفاه الكون تتغنّى!.. فحيث الجداول الجارية وحيث الزهر المتفتح وحيث الحقول النضرة وحيث تتعانق أضواء الفجر من خلال فروع الشجر وحيث يسري النسيم بين أماسي التلال وليل الروابي.. هناك أرتميز!..

إن أرتميز روح الحياة في الطبيعة وقلب في صدر الكون بالحياة ينبض!.. من ثم فلئن كان قد استقر في إفسس لها لاهوت فإنما عبادتها قد غمرت أرجاء الوجدان البشري ونحوها يتجه الوجه يراها في كل مظهر حي، وربوبة شأنها الشأن يجب أن تدمج في الظلال الإلهي إدماجاً، ولم يك على اللاهوت الزيوسي هذا الإدماج بعسير فبه قد تكفل لحظة تحول إلى أرتميز وليجعلها للإله تابعة أوثق صلتها بزيوس بأن جعلها له ابنة وراح يصور لها صورة رسخت في أفق التفكير الديني وعنها أبداً إفسس لم تتحول والأيام من حولها تتحول، ففي إفسس عقد اللاهوت الزيوسي أصابعه وهوى راكعاً ومن ورائه العقل الجماعي يردد عنه صلاة تلك الصيغة التي ارتفعت تنادي أرتميز:

السيدة العذراء!

وخلد حب «السيدة العذراء» في القلب الإغريقي عامة وفي «إفسس» خاصة بل عقدته فيه تهاوي الأجيال في هاوية الزمن إلى عقيدة، فقد أضحت «السيدة العذراء» أحب الربات

(١) **العصر الهلليني الروماني** من هذا الكتاب.

قاطبة إلى هذا القلب وأشدهن في سويدائه رسوخاً وأكثرهن على شفاهه ذكراً!..

عقيدة! عقيدة، بسياج الصون سيجتها العاطفة البشرية وفي احتضان لها راحت الأجيال من حول هذه العاطفة تطوف وقد استقرت في إفسس، مقر ربوبة أرتميز، عقيدة السيدة العذراء، فمنذ هذه المرحلة الزمنية التي نعرفها بالمرحلة الأوليمبية حتى مغرب القرن الرابع للميلاد المسيحي وانعقاد «مجمع إفسس» المسيحي وتشريعه المناداة بمريم سيدة عذراء[1] لم يتحول قلب إفسس عن أرتميز كسيدة عذراء!

أجل.. بأرتميز كسيدة عذراء وبأبولو كابن إلهي وحيد تمّ للاهوت الزيوسي عقد الصلة بين هذين الربين المسينيين وبين الإله الآري احتفاظاً بمرتبة الألوهة لزيوس الذي جعله هذا اللاهوت للربات «العذراوات» أباً وللربات «الأمهات» زوجاً، فإن عليه لم تضن المخيلة اللاهوتية بأكثر من زوجة فما عقدت له، في كنوسس، على «حرا» بعد «ديون» وما عقدت له على «ليطو» وفي ديلوس استولدتها منه «الابن الإلهي الوحيد» و«السيدة العذراء» إلاّ وراحت، سخية، تعقد له في «إلوزيس» على:

ديمتر

إن «ديمتر» الرّبة المستقرة في المدينة المسينية إلوزيس، لتستعيد في الذاكرة ذكرى «إيزيس» بل هي إيزيس لا يحجبها الرداء الفضفاض الذي لفتها به قديماً، قبل الانصباب الآري، اليد المسينية!.. فهي هي «أم السنابل» و«ربة الحصاد» و«ربة الخلود» ومذهبها يقوم شاهداً على أن الأصل منها تربته النيل، بل إن في اسم المدينة نفسها ما ينطوي على استمداده من نفس اسم إيزيس.

طويلاً قبل أن تظل هذه الأرض الظلال الإغريقي عرفت أرض يونان وفود مصر ـ عرفتها منذ الأسرة الشمسية وفي السادسة التي تلتها، وعرفتها في القرن السادس عشر ق.م، فإن من نصوص الأسرة الطيبية هناك نصوصاً تذكر أن فئات من الحاشية العسكرية لـ «تحوت موسى الثالث» استقرت في الجزر الإيجية ومن ثم فليس من المستغرب، ومن قد ذهب إلى أرض يونان في هذه الفترات الزمنية المتقطعة إنما قد ذهب محمّلاً بعقائده، أن يكون هم أولئك المرتحلة من المصريين من قد أنشأ المدينة «إلوزيس» بمعنى المدينة الإيزيسية ـ بل إن الدليل على ذلك ليدلف من خلال احتفالات عيد هذه الربة من كل عام، فمن كل عام على تربة «إلوزيس» وفي معبد «ربة الخلود» تمثل كاهنات هذا المعبد من حول تمثال هذه

(١) العصر الهلليني الروماني من هذا الكتاب.

الربة، الحاملة في يدها سنابل القمح رمزاً على البعث أو هذه العقيدة التي استمدت مادتها من نمو النبات وبعثه من جديد، رواية البعث والخلود!

إلى طيات القدم تعود عبادة «ربة الخلود» ومن القلب البشري كانت قد تمكنت طويلاً قبل مغرب الألف الثاني ق.م فإلى عبادتها هوت الأنفس لأن عبادتها، وليس هناك من شيء أحب إلى القلب البشري من الخلود، تعد بالخلود وللسبب تجلّت عبادة «ديمتر» في أعقاب الغزو الآري سائدة تماماً أرجاء القلب البشري فعنها عقيدة القلب البشري لم يتحول وعنها لم يستطع أن يدفعه مد الدين الدخيل بل على النقيض حملت «ديمتر» في شخصيتها الدوافع التي دفعت الدين الدخيل إلى ذلك الاقتراب التقربي منها الذي دعمه اللاهوت الزيوسي ببدعة ضمّت إلى زيوس ديمتر وإلى رواية البعث ضمت رواية الاحتفال بهذا الزواج، فمن كل عام على تربة إلوزيس وفي معبد «ربة الخلود» كانت كاهنات هذا المذهب يمثلن حفلة زفاف هذه الربة إلى الإله، وفي أعقاب هذا الاحتفال كن يطوفن بالعبد الخشع يقدمن لهم سنابل القمح، ثمر هذا الزواج والرمز الرامز على البعث والخلود!..

ولكن.. على زيوس أضفت هذه الصفة صفة جديدة فبانطواء ديمتر ربة الخلود تحت جنحه أصبح هو المانح نعيم الخلود وأمسى هو الحاكم الذي يتحكم في مصير الإنسان بعد الموت، وغدا هو الباعث «المؤمنين» إلى «جزر السعداء» أو رياض الجنان والقاذف «بالكافرين» إلى هاوية الجحيم أو هذه المملكة التي جابهت فيها هذا اللاهوت ربة تحتل لها عرش بيد أن غير هياب اقترب اللاهوت الزيوسي من هذه الربة وتبعاً لطريقه الإدماجية، وقد انفضت يده من عقد زواج ديمتر بزيوس ربط، عن طريق ديمتر، صلتها بزيوس فجعلها لزيوس من ديمتر ابنة وتحت هذه الصورة تجلّت على صفحات التاريخ الديني عند الإغريق «ربة الجحيم»:

برسفونيا

وبرسفونيا أضاف التفكير اللاهوتي إلى سلسلة النسب الإلهي حلقة معقدة بعقده زواج هذه الربة من رب «عالم الموتى»:

هادس

إن «هادس» إنما يقف في هذه السلسلة عماً لبرسفونيا فإنه أخو زيوس! لم يجد اللاهوت إلا الوسيلة ملجأ حتمتها عقده لزيوس على ديمتر التي أملكت بها يمين زيوس زوجات أربع!

أجل... بديمتر أملكت يمين زيوس زوجات شرعيات أربع تقف من بينهن «ديمتر»، كديون، بمثابة الأخت الزوج والزوج الأخت، فإن اللاهوت الزيوسي الذي قد عقد لها على زيوس فجعلها له زوجاً إنما إليه قد شدّ منها الوثاق أيضاً برابطة الدم، وإلى غاية قد هدف

اللاهوت اتخذ إليها هذا الإخاء وسيلة، فهو قد أراد أن يدمج لها ربوبة في تلك التي تتجه إليها في الدين الأوليمبي الصلوات وتلتمس بها إلى زيوس الشفاعات:

سيبل

انفردت «سيبل» بمكانة لا تدانيها فيها واحدة من الربات فهي: **أم الإله!**

أم الإله؟! سؤال، عنه يأتي الجواب من نفس التفكير الإلهي الإغريقي متخذاً له قاعدة تلك القصة الدينية التي تتحدث عن نشأة الوجود..

إلى ظلمة التفكير الإلهي الإغريقي يأخذنا دافع السياسات عبر هذه القصة من قصص الدين الأوليمبي التي ترينا توافق خطى العقل البشري في نفس المراحل التطورية التي يمر بها هذا العقل، فهو على هذه الناحية من الأرض لم يختلف عن سواه في غيرها في الالتقاء عند عقيدة واحدة غداة جابهته المشاكل العقلية وامتد يحاول إدراك أصل الأشياء فهو إذ يقتضي منشأ الطبيعة الخارجية فليس إلا ليتلفت في أطوار مراحله التطورية الأولى ليقول:

لم يكن في البدء إلا؛ «كخاوس» أو الخواء!

وعلى أسس منطقه الفج راح العقل الإنساني، صبياً، تحت صبغته الآرية، يفسر نشأة الوجود فاسترسل قائلاً: وتثاءب الخواء!

ومن «متثائب الفضاء» جاءت «جيّا» أو الأرض وجاء «أورانوس» أو السماء وكانا ملتصقين حتى فصلهما كرونوس ذلك الفصل الذي ألقت على إثره «جيّا» بما قد كان في أحشائها من كائنات وانبثق الوجود واضطلع كرونوس بتنظيم هذا الكون فقيد أباه وقام هو يحكم مدار الليل والنهار.. ولكن!

وهنا تسترسل القصة الفجة التي نلمح فيها، بالرغم من فجاجتها، بذور القيم الأخلاقية الملقاة في تربة النفس البشرية قائلة: ولكن بالمثل قد عومل كرونوس فقد دارت الأيام دورتها وكما قيد أباه جاء فقيده ابنه الأكبر وحلّ محله وكان أشد منه قوة فانتظم الكون هذا النظام المشاهد وعلى ما قد انتظم قام وما زال يقوم راعياً تلحظ العالم منه اللحاظ ويلهج باسمه لسان العالم يناديه: زيوس!..

هذه القصة التي جعلت زيوس ابناً لكرونوس وجعلت كرونوس ابناً لأورانوس والتي سار بها التفكير الإلهي الآري هنا في نفس المجرى الذي سار به على السفوح الهندية عندما أحلّ «إندرا» مكان أبيه، إنما تسجل أن التفكير الإلهي عند الإغريق كان طابعه في المرحلة الأوليمبية التفكير الطبيعي المحض ولنرى أن بينما إلى الأعماق من الذكر هوى كرونوس وهوى أورانوس، قد برز زيوس لا كخالق وإنما كصانع.. كلا، لم يخلق الإله الوجود، كلا

ولا خلق الإله الإنسان فما كان الإنسان إلا من إنشاء «برومبثيوس» فليس إلا هذا الذي يقف بين الأرباب رباً هو الذي أخذ من الطين جبلة وصورها رجلاً ثم أخذ أخرى فصوّرها امرأة، وأما الألوهة فتولت بعث روح الحياة لا في هذه الصور التي صيغت من صلصال كالفخار!..

كلا!.. ليس الإله بخالق وإنما صانع استوى على عرش الألوهة ينظم الكون ولشؤون العالم يتعهد ويقوم محوراً لدين يقف فيه لا إلهاً محلياً بل **إلهاً عالمياً**!

واحداً أحداً يقف زيوس إلهاً لا يشاركه في ألوهته شريك ولا إلى هذه المرتبة يتوثب رب حتى ولا أخاه الأصغر؛ «بوزيدون»!.

شأن سائر الأرباب طراً يقف بوزيدون، هذا الذي خلقته المخيلة للمياه رباً قصر حكمه، في أيونيا كما في أركاديا وفي ثبالي، على عالم الماء فبضربة على الحجر من عصاه كان ينبجس الماء!.. يقف محكوماً نفسه بحكم الإله الذي إليه شدّ اللاهوت الزيوسي الوثاق من الأرباب والربّات وإليه قيد كل بسلسلة من القربى متعددة الحلقات صاغتها الدوافع السياسية وثبتتها أغراض التنظيم!..

وهكذا.. هكذا جمعت اليد اللاهوتية، كما إلى هذا الجمع دفعتها للسياسة دوافع الوحدة والتنظيم، متفرّق الأرباب فجمعت ما قد كان منقسماً إلى أقسام في وحدة غدت بها العبادة الموجهة إلى كل فرد من هؤلاء الأرباب، وكل هذا الحشد من الأرباب ففي ظلّ الإله يقف، إنما في حقيقتها موجهة إلى الإله حتى غدت عبادة كل لا تعد إلاّ ركناً من أركان صرح الدين الأوليمبي!

إلى كل ناحية من أنحاء البلاد وحتى الأطراف القصية امتدت اليد اللاهوتية الزيوسية فأخذت هذا الرب وتلك الربة لهذه أو تلك الناحية من هذه البلاد وربطت بسلسلة حلقاتها النسب والقربى إلى الإله هذه الربوبة المتفرقة فطوتها في طوايا الأوليمبس وغيّبت بين غيومه منها الأصل ونشرتها عائلة واحدة رأسها الإله... عائلة، يقف فيها كل فرد من أفرادها محكوماً بحكم الإله وعن طريق هذا الحكم يحكم هو ويتحكم في حياة البشر!.. وبذلك رف على البلاد حكم:

العائلة المقدسة

إلى الخيال، يافعاً، استسلم العقل البشري تحت ردائه اللاهوتي وأسلس للمخيلة منه الاستسلام!... مخيلة جنحت وعلى أجنحة الجنوح شطت بل مسرفة في شططها طاحت فبنت «السماء» وأقامت في السماء عرشاً وعليه أقرّت الإله!. وفي طوايا الأوليمبس أسكنت

«العائلة المقدسة»!.. عائلة، ما تم للاهوت تكوينها حتى رسخ في العقلية الجماعية هذا الدين الجامع المدن الإغريقية بوحدة عقيدية محورها المستوي على العرش، المؤلف السحب، المرسل الصواعق على من يشاء، الجبار المتكبر الذي تهتز من خشيته الجبال، والغني الحميد من له يرتفع الحمد عبر تسبيح الشفاه باسمه بكرة وعشياً!

أجل.. بوحدة عقيدية محورها ألوهة المستوي على العرش في السماء جمع هذا الدين، بتكوينه «العائلة المقدسة»، المدن الإغريقية قاطبة وإلى يده بهذه السلسلة التي ربط بها بين الأرباب المحلية والإله الدخيل شد إليه من العنق الجماعي العنان لنسجل هذه المرحلة الزمنية، المرحلة الأوليمبية، أن بالوحدة قد ارتبط التفكير الديني في هذه البلاد... ولكن!.. لئن بالوحدة قد ربطت هذه السلسلة التي كونت «العائلة المقدسة» المدن الإغريقية قاطبة ولئن بوحدة عقيدية قد جمعت «العائلة المقدسة» التفكير الديني ولئن وحّد هذا الدين الرسمي، بإقراره في قمم الأوليمبس إلهاً تحف به عائلة مقدسة، أرجاء البلاد بوحدة دينية بدأت بها الأيام على هذه الناحية من الدنيا تسير، فإن التفكير اللاهوتي قد سجّل على نفسه شططاً فقد طاح به الخيال وأطاح للجماعة عقل راح بإيمانه مغموراً وبدينه الرسمي مصدقاً وعلى صحة معتقداته وصواب عقائده مجمعاً غير ملتفت إلى أن هذا الدين الرسمي الذي أقرّ في قمم الأوليمبس إلهاً أحف به عائلة مقدسة إنما في غير قدسية في طوايا هذه القمم قد نشرها عائلة تحيا حياة ألوانها ما قد عرفت حياة البشر من ألوان، فعن حياة البشر لا يميز «العائلة المقدسة» إلاّ عنصر إلهي عليها قصر وبه عليها قصر الخلود، ففي شرايينها لا تجري دماء وإنما ماء الخلود وفي طعامها ما يحميها من الفناء!. لم يلتفت العقل الجماعي إلى «العائلة المقدسة» لم تكن إلاّ مخيلة مترفة أترفها ترف الخيال!

غفا عن الحقيقة العقل الجماعي بينما بدافع عمل هذه المخيلة اللاهوتية المترفة كان ينطلق من الجانب الديني لسان ارتفع يلقي «الهوميريات» نثراً يصور ألوهة وربوبة لهو الجانب المترف من البشر، تلهو وفي بطون الغيم أفرادها في ترف يعيشون لا يميزهم عن البشر للبشر غرائز وعصبيات وعواطف وللبشر ميول بل على النقيض من ذلك هم، بما لهم من قوى لقوى البشر تفوق، بهذه الغرائز والعصبيات والعواطف والميول من البشر أقوى حتى أنهم بدافع من هذه الدوافع النفسية والعاطفية والوجدانية ينشرون بين البشر ما لهواهم به يطيب الهوى من خير وشرا!..

أجل.. على أجنحة الهوى جنح التفكير اللاهوتي وطاح فأطاح للجماعة عقل راح بإيمانه مغموراً يردد «الهوميريات» نصوصاً ويأخذ العقيدة القائلة ببلاغة هذه النصوص وإعجازها

عقيدة متوارثة وعلى الإيمان القرير بهذا اللون من التفكير الديني راح يتوارث تقديس «الهوميريات» لا يجد فيما تنسبه إلى «العائلة المقدسة» من الأعمال ما ينقض قدسية هذه «العائلة المقدسة»!.. غير ملتفت إلى أن ما يضمه السجل الهوميري من الصفات المنسوبة إلى «العائلة المقدسة» إنما لصرح القانون الأخلاقي تقويض بل للأسس من هذا الصرح انتقاض خاصة فيما يتعلّق بالإله!

لا يلتفت إلى أن الإله فيه تؤثر المؤثرات التي تؤثر في الضعاف من البشر!

لا يلتفت إلى أن الإله، المستوي على العرش المرسل البرق وعداً وعلامة على قبول الدعاء وجواباً بالإيجاب والمطلق الرعد توعداً وقهقهة سخرية تحمل النقمة وتعني الانتقام والقاذف بالصواعق قذائف يرسلها على من يشاء والجبار الذي تهتز الجبال من خشيته هزاً تهزه مشاعر مقصورة على الجانب غير الناضج من عقلية للبشر فهو بعد غضب يرضى وبعد رضا يغضب، وهو لأتفه سبب يسخط ويعود وعلى سخطه يندم وهو دون أي سبب يحب ودون أي سبب يبغض وهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء!

لا يلتفت إلى أن الإله الساكن السماء ساكنة فيه عواطف الجانب الصبياني من البشر فهو يلهو بشن الحرب بين البشر ويتحيز إلى فئة دون أخرى، ويحارب من يرد بحرب من عنده يرسل رماحها من عرشه ويسخر فيها جنوداً قد عج بهم ملكوته من «قدسي أرواح»!..

إن السجل الهوميري لكل هذه الصفات الإلهية سجل!

صفحات «الهوميريات» وبالأخص صفحات الأوذيسية مرآة عليها تنعكس، في مضمار «الصفات» صورة هذا التفكير الإلهي الذي يقوم عليه صرح الدين الأوليمبي كما على هذه المرآة، أيضاً، تنعكس صور الحياة في عالم السماء عالم الأرباب وعالم الإله، فإن سطور الأوذيسية تحدثنا؛ أن قمم الأوليمبس المغطاة بالغيوم إنما أرض السماء وأن السماء «مدينة زيوس».. مدينة، أرضها ذهب وتربتها جنان لا يسمع في أرجائها إلاّ همس الجداول وخرير الماء المخرور وخفق أجنحة الطير وحفيف الشجر وتجاوب الرياح النواسم ولا يطوف فيها إلا القائمون على خدمة الإله من الولدان، هؤلاء الذين يضاعف جمالهم ما في مدينة الإله من جمال والذين نعرفهم في التاريخ الديني الإغريقي تحت اسم:

حوري[1]

يترع الولدان من الحوري «مدينة زيوس» التي تقف في مكان أعلى من «مدينة الأرباب»

(١) «Greeck Religion» By M.Nilsson

هذه المدينة المحاطة بسور أبوابه لا تفتح ولا تغلق بيد وإنما بكلمة أمر.. وعلى هذه الأبواب أفراس وأمهار مقيدة ومجنحة أو بعبارة أوضح ذوات أجنحة مطايا هي للأرباب تمتطيها في الهبوط إلى الأرض وفي الصعود ثانية إلى السماء!

من السماء ومن على عرشه يحكم الإله عالم البشر الذي إليه كلما أراد أن يتفقد شأن البشر، ينزل في الضباب وفي السماء ومن على عرشه يحكم الإله الأرباب، بل هو كرب عائلة يتحكم في أمر هذه «العائلة المقدسة» التي لطالما أجهده ويجهده من أمرها العناء ولطالما أرهقته ويرهقه من أهوائها التعب وطالما قد اعتزلها جانباً ولفترات ارتاح!

أجل... في بطون هذه القمم تجري حياة الإله والأرباب بصورة مماثلة لحياة وعواطف وأهواء وميول البشر تجعل أمر الحكم في يد الإله قدراً بل وتجعل حياة البشر في أيدي الأرباب، أيضاً، قدراً فقد ألقى الإله في أيدي هؤلاء الأرباب القدرة على الحكم والتحكم في حياة البشر كما منحهم أيضاً السيطرة على الوجود سيطرة امتدت فشملت التحكم في الزمن!

إن «أثينة» لأمر قد أطالت الليل مرة، فقصرت زمن النهار[١]!

وأن «حِرَا» لأمر، قد أسرعت بالشمس إلى الغروب مرة فأطالت زمن الليل!..

فجأ كان العقل الإنساني في مرحلته الأوليمبية فتخيل إمكان إيقاف الزمن والتحكم في مدار الليل والنهار!.. جنحت المخيلة وشطّت وطاب لها إلى الجنوح والشطط الاستسلام فاسترسلت تتخيل وتصدق ما تتخيل عن مدى وقدرة تحكم الأرباب في مصير الكائنات فقالت: إن الأرباب كثيراً ما تحتذي صنو الإله فتهبط مثله إلى الأرض في بطون الغمام لتعود إلى ملكوتها السماوي حاملة معها من الناس من شاءت له رفعاً إلى السماء عن طريق لفّهم بالغمام..

إن أثينة قد لفت بالغمام أوذيسيوس..

وإن أبولو قد لفّ أيضاً بالغمام جسد هكتور..

الشأن شأن تحكم الإله و«العائلة المقدسة» في أمر البشر!

لا غرو من ثم إن يعتقد العقل الإغريقي، وهو عبر المرحلة الأوليمبية لطور حداثته يجتاز، أن حياته إنما حياة في حقيقتها خاضعة لهذه القوى التي ليس له عليها سيطرة والتي لها عليه كل السيطرة، ولا غرو أن ينمّي فيه هذا الاعتقاد شعور الأنانية وأن تدفعه هذه الأنانية لأن

---

(١) «Greeck Religion» By M.Nilsson

يرى أن من مصلحته الشخصية والجماعية أن يتعرّف لا فحسب على مقاصد هذه القوى وإنما عليه تحتم أنانيته أن يكون على حسن صلة بها، فكيف عن نفسه منها الغضب ويستجلب إلى نفسه منها الرضا..

مشاعر.. اختلجت بها خوالج الوجدان الإغريقي فرأى نفسه بدوافعها مدفوعاً ألا يكون على هذه القوى ألباً وإنما لها مسترضياً فيكف لها نقماً ويكفل لها نعماً...

ولكف نقمة وكفل نعمة سعى العقل الحدث يقدم إلى هذه القوى ما يقدمه البشر إلى البشر عادة كوسائل لاستجلاب المحبة والرضا ولكفّ العداوة وللأمن من العدوان... من ثم كان سعي العقل الإنساني، متعثراً بردائه اللاهوتي، ومن ورائه العقل الجماعي يحذو حذوه، إلى المحارب والمعابد وقمم الجبال حاملاً الطعام والشراب تقدمات يرفعها إلى ساكني السماء!.. بل سخياً اندفع يسوق إلى معابد ساكني السماء الضحايا من الحيوان يريق منها الدماء، لنفسه تطهراً، ويوقد اللحم منها محرقات تحمله النار إلى من في السماء!

بهذه الوسائل تقدم العقل في هذه المرحلة يقدم، في أيام معلومات حددها وفي ساعات محددة عينها وفي أعياد رسمية اشترعها، إلى هذه القوى التقدمات... ويسوق الضحايا إلى معابد من في السماء فعن طريق التضحية بالضعيف من الحيوان اعتقد التفكير الفج أنه يمكنه التطهّر من إثم كان له قد ارتكب وأن ينال بغية يبتغيها وأن ينقاد إليه، طيعاً، مطلباً له يطلب...

كم مرة بعد مرة ارتقى الكهنوت الزيوسي جبل «لاكيون»، جبل زيوس في أركاديا، حتى بئر «هاجنون» يحركون قراره بغصونهم مرتلين مصلين مستغيثين بزيوس «رب الغيث» أن يرسل الغيث على أركاديا وأمامهم الضحايا من الحيوان قرابين تراق دماؤها وترفع لحومها محرقات استجلاباً لغيث «رب الغيث»؟..

وكم مرة بعد مرة دفع القحط ودفعت الحاجة بالمستغيثين برب الغيث إلى محراب زيوس القائم على جبل «بيليون» وإلى المحراب الآخر القائم على جبل «لافيستيون» يستجلبون غوث «رب الغيث» بلحوم يرفعونها إليه عبر النار محرقات؟!

كم مرة بعد مرة، وهماً، سعت الأقدام إلى محارب خالية إلاّ من الأوهام؟!

وكم مرة بعد مرة، وهماً، ارتفعت الأصوات تنادي «قوة» في فضاء فارغ منها فراغ الفراغ؟!..

وكم مرة بعد مرة، وهماً، انطلق دخان المحرقات ليضيع عبثاً بين جوانب الفضاء؟!..

وكم؟! كم مرة بعد مرة، قدّم العقل شكره ورفع رجاءه إلى هذه القوى الموهومة خلال ما قد حدده لهذا الشكر ولهذا الرجاء من مواسم أيامها أعياداً... فحين يبذر في الأرض البذور ويرجو لها في أحضان الخريف الإنماء يسعى مقدماً صلوات الرجاء مصحوبة بإراقة دماء الضحايا ورفع لحومها محرقات... وحين تنمو هذه البذور ولما بذره يحصد ويقطف منها في الربيع القطاف يسعى مقدماً صلوات الشكر، وأبداً مصحوبة هي بتقدمة الضحايا من الحيوان!..

كم خريف بعد خريف احتفل العقل الفج بعيد الـ «ثيسموفوريا»، أكثر الأعياد احتفالاً، قبل أن يحتفظ لنا الزمن بآثار الضحايا، في سنيدوس، أمام تمثال «ديمتر» ربة الخلود؟..

وكم ربيع بعد ربيع سعى العقل بالضحايا من الحيوان يريق منها الدماء ويرفع لحومها احتفالاً بعيد أرتميز، قبل أن يحتفظ لنا الزمن، في سبارطة، بآثار الضحايا في محراب «السيدة العذراء»؟..

أجل... بالوديع والضعيف من الضحايا تقدم العقل الإنساني في هذه المرحلة يقدم إلى هذه القوى مشاعره ويصوغ هذه المشاعر شعائر ما لبث أن قيّد بها نفسه وبها ألزم نفسه حتى أضحت عليه التزامات فلا غرو من ثم أن يمسي هذا الدين في صميم تكوينه، صوراً من شعائر تؤدى تكوّن:

الطقوس!..

الطقوس قوائم الدين الأوليمبي ومن الأركان القائم عليها صرحه كانت الأركان فالنطق الفج قد أقنع التفكير الفج بأن كف النقم وكفل النعم أمر ينحصر في استرضاء ساكني السماء بالطعام والشراب، فانطلق يحمل الطعام ويريق الدماء من الضحايا قرابين تقربه من ساكني السماء يرسل لحومها عبر النار محرقات ينطلق دخانها رائحة سرور إلى من في السماء!..

كلا!.. بالشاذ لم يك أن تنحصر شعائر العبادة في الدين الأوليمبي في الطقوس فبين الألوهية والأخلاق لم تك هناك صلة في هذا الدين كما بدأ بدائياً، فكما بدأ بدائياً بدأ تاريخه خالي الوفاض من قوانين أخلاقية، فالأساس الذي يقوم عليه هذا الدين والمحور الذي يلتف حوله والمسند الذي يستند عليه إنما إله مشيئته هوى وإرادته نزوة!.. إله يلهو عبثاً بالبشر!.. يسخط على من يشاء ويرضى على من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرزق من يشاء ويحرم من يشاء!..

لا ريب أن ديناً يتخذ محوراً لعبادته إلهاً شأنه الشأن ليس بينه وبين الأخلاق صلة إنما

دين بدائي، ومن ثم فليس بالشاذ أن تنحصر شعائر العبادة في الدين البدائي في مادي العبادات وأن تتخذ هذه العبادات صور الطقوس وأن تتولى جماعة الكهنوت في أدائها وطرق القيام بها على الوجه المرسوم، كما ليس بالشاذ أن تغدو الطقوس الصورة الرسمية لهذا الدين الرسمي الذي قد ابتدع له مترف الخيال!..

أجل... للدين الأوليمبي قد ابتدع مترف الخيال، من ثم لم يك بالشاذ ولهذا الدين قد أنشأت الأرستقراطية فنشأ في أحضان الترف أن يكون قاعدته إلهاً طبيعة طبيعته الجانب المترف من البشر فهو إله يغضب ويرضى وإذا ما غضب فغضبه كغضب للبشر أرعن غير حليم، وإذا ما رضي فرضاؤه كرضاء للبشر متسرع وغير رزين، ومن ثم فلم يك بالشاذ أن يعتبر العقل الحدث أحداث الأيام قضاء وحدثان الليالي قدراً!..

كلا... لم يتنبه العقل الإنساني ولم ينتبه، في هذه المرحلة، إلى النقطة الدقيقة الفاصلة بين المعنى من العناية وبين المعنى من القضاء والقدر وإلى أنه بقوله بالقضاء والقدر ينفي العناية عن المشيئة الإلهية، وإنما استرسل في غفلته إذ راح يضفي على المشيئة الإلهية صبغة مشيئته الأرستقراطية، ومن ثم شابهت المشيئة الإلهية للأرستقراطية مشيئة، بل وكما كانت للأرستقراطية سلطة التصرف في الرقيق من الإماء والعبيد كانت لساكني السماء سلطة التصرف في ساكني الأرض.. الأمر الذي أصبحت به ركناً ثابتاً من أركان هذا الدين فكرة القضاء وأمست، بسببه، لهذا الدين أساساً:

عقيدة القدر!

طبع القضاء الدين الرسمي ووسمته وصمة القدر.. وهذه أهم مميزاته كدين!

إن «الإلياذة» لهذه العقيدة سجل...

هذه حرب طروادة.. حرب أشعل وقودها بين قوم وقوم ساكنو السماء... فهذه المعارك الدموية التي تسير بذكرها النصوص الهوميرية عن حرب طروادة.. هذه الأوبئة وهذا التدمير وهذا الهلاك ليس لكل هذا من سبب إلاّ لأن النصوص تقول إن بإتمام كل هذا قد: «**تمت كلمة زيوس**»!

ثم هذا الغضب السماوي الذي نزل بالأشيانيين فأنزل عليهم النوازل في «تسعة أيام» خلالها أرسل عليهم الرب الدمار بألوان من التدمير توالت متتالية وجاءت «بعشرة آلاف نازلة» نزلت بالإغريق فبسهم بعد سهم رماهم الإله فأهلك الأنعام وبعد الأنعام أهلك الرجال فأثكل الأمهات وأرمل الزوجات ويتّم الأطفال وليس لكل هذا من معنى إلا لأن، كما تقول النصوص، بذلك قد «تمت كلمة زيوس»!..

أية قوة سماوية هذه التي فرّقت القوم بكلمة ولو شاءت لما كانت قد تفرّقت منهم الكلمة؟!

لا ريب أن بوصمة المجون والاستهتار والاستخفاف يصم «القدر» هذا الدين، فقد طبع ساكني السماء بالمجون والاستهتار بمصير البشر والاستخفاف بعواطف البشر فهذا «القدر» لا ينشر سلاماً وإنما يرمي سهامه فيرسل دماراً!.. بعث بالرجال إلى «عالم الموتى» وترك أجسادهم فريسة لجائع الحيوان ومنقض الجوارح من الطير!..

على صفحات «الإلياذة» مسطرة قصة هذا النزاع بين أغاممنون وأشيل تعرض لنا لوناً غريباً من ألوان التفكير الإلهي الذي قبلته دون ما أدنى تفكير فيه عقلية الجماعات، فالقصة تجري بمنطق معكوس وبعدالة معكوسة قائلة إن على أغاممنون قد حلّ غضب السماء... ولكن!.. بدلاً من أن تقتص السماء من أغاممنون اقتصت من قومه فأرسلت عليهم الدمار وعفت عن أغاممنون! لا لشيء إلاّ لأن، كما تقول النصوص، بذلك قد: «تمت كلمة زيوس!».

عقيدة!.. عقيدة جعلت مشيئة السماء قضاء وإرادتها قدراً فسجل العقل الإنساني بها على نفسه كبوة كباها لحظة هوى فلم يفرق بين المعنى من كلمة «العناية» والمعنى من كلمة «القدر»!

كلا.. ليس إلا في رحابه الفلسفي يستطيع العقل أن يستبين وأن يتبين مدى الفارق الجوهري بين «العناية» و«القدر»... بيد أن عن هذه المرحلة الناضجة ما زال بعيداً في مرحلته هذه التي وقف الإنسان في أحضانها يرى نفسه كأنه بخيط من الأوليمبس معلق تحركه من قدر «القدر» الأقدار!..

هذا هو الأساس من التفكير الإلهي الذي يقوم عليه صرح الدين الرسمي في المرحلة الأوليمبية والذي نقترب منه سابرين عن صلة ساكني السماء بالعالم وبالإنسان ونحن نستطلع:

مشكلة الصلة في الدين الأوليمبي

إن مشكلة «الصلة» في تاريخ التفكير الإلهي تمثل المشكلة الثالثة بعد مشكلة «الإثبات» كمشكلة أولى، وبعد مشكلة «الصفات» كمشكلة ثانية وإن كان إلى المشكلة الأولى، أهم مشكلات التفكير الإلهي قاطبة، لم يلتفت، العقل في مرحلته الراهنة كما إلى المشكلة الثانية أيضاً لم يلتفت وهو بهذه الألوان من الصفات المادية الصارخة يصف ألوهية المستوي على عرش السماء وربوبية هذه «العائلة المقدسة» التي جمعت وحدتها المدن الإغريقية بوحدة عقيدية وربطت بين أطراف البلاد المتباعدة برباط الدين الرسمي... ومن ثم كانت مشكلة

الصلة في الدين الأوليمبي اللا مشكلة، فإن جميع الأبطال يعود منهم النسب، في السجل الهوميري، إلى جيل واحد أو بالأكثر إلى ثلاثة أجيال تنتهي عند الإله أو عند رب من الأرباب، فإن زيوس الذي قد أملكت منه اليمين زوجات أربع إنما قد أملكت منه العاطفة بل الغريزة، غير هؤلاء الزوجات الشرعيات، مصطفوات من البشريات!

لمصطفاة من البشريات بعد مصطفاة اصطفى الإله لنفسه ما شاء له الاصطفاء، وثمر هذا الاصطفاء كان:

الإنسال الإلهي من البشريات

على صفحات التاريخ الديني تقف صورة بارزة لهذا الاصطفاء:

«إلكمين»

غداة هدفت الأغراض السياسية أن ترفع من شأن سبارطة لم يجد اللاهوت بدأً من أن يحول «هرقل»، هذا البطل الإسبارطي، من شخصية بشرية إلى كينونة إلهية حتى على صفحات التاريخ الديني غيب له نسب يعود بأبوته إلى «إمفيطريون» فقد أبى اللاهوت إلاّ أن يسجل أن هرقل إنما ابن الإله من زوج إمفيطريون.. المصطفاة؛ «إلكمين»!..

وعلى صفحات التاريخ الديني تقف صورة بارزة أخرى لهذا اللون من الاصطفاء ابنة إلزوبوس:

«إنيتوب»

غداة أرادت الإرادة اللاهوتية وصل صلة مؤسسي قلعة طيبة بالإله سجلت السجلات الدينية أن: لإنيتوب قد اصطفى الإله اصطفاء كانت ثمرتاه؛ إنفيون وزيثوس.

بين الكثيرين من الأبناء الإلهيين الذين جاء بهم اصطفاء الإله للمصطفوات من البشريات يقف هؤلاء الأبطال الثلاثة لا فحسب أمثلة بارزة لهذا اللون من الصلة التي تربط الإله بالبشر وإنما صور محسوسة من صور هذا الإنسال الإلهي الذي تفتق عنه الذهن اللاهوتي والذي إليه خلد العقل الجماعي حتى استقر فيه كعقيدة يزيدها رسوخاً طواف الأجيال في مدار الزمان!

بيد أن بينما راحت الأجيال تطوف ويعقد تطوافها في القلب البشري عقيدة ابن الإله من مصطفاة بعد مصطفاة من البشريات، وقف هؤلاء الأبناء الإلهيون من البشريات موقفاً أدنى من موقف ذلك «الابن الإلهي الوحيد» فلم يقف، وإن كانت كل ثمرة أتى بها اصطفاء الإله لإحدى البشريات تعتبر ابن الإله، منهم واحد موقف أبولو من الإله..

ولكن.. ليست هذه الصلة هي الصلة الوحيدة التي تربط العالم الإلهي بالعالم البشري

وإنما حذو الإله في اصطفائه للبشريات حذا الأرباب، فمن البشر كان هناك الكثيرين ممن بأبوتهم يعودون إلى «أبولو» وإلى «بوزيدون» وإلى رب بعد رب من أفراد «العائلة المقدسة»... ولما كان كل رب فإلى زيوس مشدودة منه أواصر القربى غدا الإله، كما للأرباب، للناس طراً أباً وعلى أسس هذا المنطق الديني استهلت صيغ الصلوات إلى الإله بهذا النداء: **«أبانا الذي في السموات»**

ولكن.. في نفس هذا المجرى كان يجري تفكير آخر بجانب آخر من اللاهوت تطورت فيه الناحية الفكرية تطوراً جديداً فقد وجد نفسه أنه وإن كان يحيطه محيط هذه المعتقدات وإنه وإن كانت تحدق به هذه العقائد، فإنه ليجد نفسه إلى ما وراء هذه الفكر الدينية يذهب بحثاً عن الأساس الذي يستطيع أن يقيم عليه صرحاً سليماً لدين سليم وبحثاً عن هذا الأساس دارت لوالبه الفكرية سابرة التفكير الإلهي القائم عليه هذا الدين واستدارت من حول الإله والعائلة المقدسة فوجد... وجد أن الإله لا يقوم في هذا الدين إلا لنظام الكون متعهد وإنه ليس بكلي القدرة بينما أن هناك في الكون نظاماً مشاهداً يدل على أن روح الطبيعة طبيعتها الانسجام!

بظهور هذا الانعطاف نحو النظام، في نطاق التفكير الديني، بدأ الدين يتطور، فإن الأيام التي تقترب نحو نهاية المرحلة الأوليمبية مسجلة للعقل الإنساني تطوراً وللوعي البشري نمواً وللحاسة الخلقية تفتحاً، إنما تسجل أن تبعاً لهذا التطور بدأ الدين يتطور تطوراً بدا ظهوره بظهور هذه الظاهرة التي أخذت تشتد على ظهور ظهوراً باشتداد هذا الانعطاف الوجداني نحو النظام حتى نما إلى يقين عقلي بأن هناك انسجاماً ينتظم هذا الوجود لئن ظهر بين الآن والآن منحرف فإنه أبداً غير منقوص وغير منقوض فهو القانون المنتظم القوانين، أو بعبارة أصح وأوضح هو قانون القوانين ومن ثم فيقيناً أن هناك قوة أقوى من زيوس وأقوى من كل هذه القوى التي تكونها «العائلة المقدسة» مجتمعة!.. هناك قوة، أقوى من هذه القوى الخالية من النظام الأخلاقي والتي تطبع معاملتها الفوضى واللا عدالة!.. يقيناً أن هناك قوة أقوى من زيوس فهناك نظام ينتظم الوجود.. قوة كلية القدرة غامضة ومجهولة ومبهمة ولكنها حتماً موجودة!.. يقيناً أن هناك:

«أنانكي» أو: «القوة التي لا بد أن تكون»!

إن «أنانكي» أو هذه «القوة التي لا بد أن تكون» إنما من زيوس أقوى لأن زيوس غير كلي القدرة بينما هذه القوة فكلية القدرة، ومن ثم فيقيناً أن عند هذه القوة الكلية تكون معلقة كل الأقدار، أقدار من على الأرض وأقدار من في السماء، فهي قانون له الكل خاضع

حتى.. زيوس!.. حتى زيوس، المشخص، خاضع لهذه القوة اللا مشخصة»!..

لا ريب أن العقل الإنساني قد سجل لنفسه بهذا التفكير نمواً فهذا الإدراك لقوة غير شخصية وغير مشخصة إنما يحتوي معاً على بذور الدين العقلي والفلسفة العملية فإن الفكر الإنساني بإدراكه هذا لقوة غير مشخصة واتجاهه اتجاهاً عملياً نحو التجردية وانطلاقه من قيد دين فيه التفكير الإلهي يتخذ محوراً إلهاً تقيّده الجسمية وتصبغه العنصرية ويحده المكان والزمان وتحكم مشيئته من على عرش عليه مستو نزوة الهوى التي تجعل حكمه قضاء وإرادته قدراً إلى آفاق من التفكير رحبة تطوف فيها نسائم ذلك الشيء الذي يكون في حقيقته كياننا والمصدر الصادرة عنه مشاعر القلب وخلجات الوجدان ووميض الشعور، إنما قد سجل لنفسه ارتقاء روحياً لأنه بقوله بهذا القانون إنما يعني ذلك الشيء الذي يسميه:

«نومين» أو: الروح الكونية..

تطور العقل فلج الفكر لجة المجردات واتسع ـ كنتيجة حتمية لهذا التطور ـ الأفق العقلي وأخذ في امتداد يمتد فبدأت تميد الماديات.. بدأ الإحساس المادي بالوجود يغيض ويتراجع كسراب أمام هذا الارتياد الفكري لعالم المجردات.. بل إن بهذا الإدراك التجردي وبهذا الاستشفاف الروحي لقوة مجردة عالمها العالم الخارجي والعالم الداخلي سجل العقل الإنساني لنفسه تطوراً آخر فقد سجل:

انبثاق فكرة «تميز» أو: القانون الكوني وإشراق عقيدة «دكّة» أو: العدالة العالمية

في هذه الفترة من الزمن التي اقترب فيها العهد الهوميري من مغربه، كما تتجلى مظاهر هذا الغروب في الناحية الشعرية التي يطالعنا بها اشتداد المطلب الإغريقي لتفسير عقلي للمظاهر الطبيعية ولفهم سليم لعقيدة الدين، انبثقت، لتستحوذ على التفكير الإغريقي، فكرة القانون الكوني أو قانون القوانين، وأشرقت، لترسخ في هذا التفكير، عقيدة العدالة العالمية.. كما إلى ذلك دفعت دوافع التغير الذي عرفته البلاد إبان هذا المغرب الذي تناول، خلاله، هذا التغير الشامل مرافق البلاد، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً والذي تحكمت في غضونه الأرستقراطية تحكماً استولت به على الحكم استيلاء أصبح فيه أصلح ما في البلاد من أرض ملكاً لها كما راح يعزز من شأنها استنباط النقود الذي وضعت، باستعماله، أسس الرأسمالية، فهذا التغير الشامل إنما كان العامل الذي بسببه أحدقت بالمجتمع الإغريقي حالة نفسية استشعر فيها مرارة الحرمان ولدها فيه هذا الضغط عليه من النواحي السياسية والاقتصادية للبلاد.. حالة، كانت نتيجتها الحتمية الالتجاء إلى؛ «تميز» أو القانون، والفزع إلى «دكة» أو العدالة!..

بهذا الالتجاء إلى العدالة وبهذا الفزغ إلى القانون واعتبارهما المميزين الوحيدين اللذين يميزان الإنسان عن السائمة طبع هذه الفترة بدء التأمل في أسرار الحياة ومحاولة الفكر ارتياد العالم الإلهي، فبدأت تنمو في النفس البشرية بذور الفلسفة الحاملة نواة العقيدة بقوة عالمية لا مشخصة لها مطلق القدرة ولكن عاملة بمحض قانون ولا فحسب عاملة بمحض قانون وإنما نفسها قانون القوانين..

أجل... بهذه الفكرة فكرة القوة العالمية اللا مشخصة والغامضة المبهمة المسفرة من خلال قوانين الطبيعة والتي ستكون أساساً لفكرة «القانون الطبيعي» في دائرة التفكير الفلسفي، نما الدين الأوليمبي النمو الذي يتجلى من خلال مسير الأيام، فقد بدأ يوصل الصلة بين الألوهية والأخلاق فالفكر الإغريقي قد تنبّه، والأيام ترتحل به مراحلها التطورية، إلى المعنويات والمجردات، وبهذا التنبّه انحصر تفكيره في «تميز» أو القانون المميز بين الحق والباطل وفي «دكة» أو الدقة المتمثلة في العدالة ليجد نفسه أنه بهذه الفكرة إنما ينعطف في نطاق تفكيره الديني إلى الروحيات، وكأثر لهذا التطور العقلي نرى الإله يتطور تطوراً غدا به الحاكم العادل وتبعاً لهذا التطور في التفكير الإلهي نرى «أنانكي» لم تعد القوة فوق ووراء زيوس وإنما بزيوس وحدت «أنانكي» حتى أصبحت هذه القوة تعبيراً وصورة لإرادة ومشيئة زيوس وتبعاً لذلك غدا الإله، حامياً وراعياً للأخلاق!

احتلت فكرة القانون التفكير الإغريقي فانتظم «تميز» الكون وحكمت «دكّة» هذا التفكير فحكمت العدالة العالم... وبهذا التطور تطالعنا لمحات من النصوص المتأخرة في الأوذيسية فإن اللاعدالة التي تصادفنا في «الإلياذة» لا تصادفنا في «الأوذيسية» ففي الفقرات المتأخرة من هذا السجل من «الهوميريات» نرى العدالة القصوى عقيدة مسيطرة، إذ نرى انتقال المسؤولية في دائرة الأعمال البشرية من الإله إلى الإنسان، فهناك من فقراتها فقرة ترمي الإنسان فيها بالحمق لرميه السماء بالاتهام بينما هو المسؤول عن ما قد جرّه على نفسه من عذاب، وبهذا تسير بنا إلى تلك الوحدة التي بلغها التفكير الديني الإغريقي، هذه الوحدة التي ضمت «تميز» و«دكة» إلى زيوس وصورت «دكه» كابنة لزيوس تجلس إلى جانبه تتوسل إليه إنزال العقاب بالأشرار.. ومن ثم نفهم أن الدين قد تلاقى بالأخلاق، وأن الألوهية قد أصبحت لا قوة قدسية فحسب وإنما قوة **أخلاقية**!..

وهكذا بنمو العقل نمت الحاسة الخلقية وسطعت في الأفق العقلي أضواء القيم الأخلاقية فتطور التفكير الإلهي وتبعاً لتطوره تطور الدين.. تطور تطوراً اتخذ أولى مظاهره في الطقوس فالطقوس، متطورة، تكلف المرء بتكاليف جديدة وتلزمه بجديد التزامات أبرزها

التطهر البدني الذي امتد، تدريجياً، من الخارج إلى الداخل.. ومن الجسد إلى النفس!.. بل أصبح الطهر الداخلي، طهر النفس، أساساً للتطهر الخارجي أو طهارة البدن.

إن القوة الحاكمة الطبيعة الخارجية لا بدّ لها أيضاً أن تحكم الطبيعة الداخلية، عالم الخلق، فإن في هذه القوة مفرغ الكون والكائنات.. ومن ثم قام قوياً على تربة النفس الإغريقية: صرح القانون الأخلاقي.

في طيات الطوية البشرية.. في الداخل.. في أرجاء النفس مسطرة بين الجوانح مبادىء هذا القانون، القانون الأخلاقي القائم على أساسي القانون الكوني والعدالة العالمية، كأن أرجاء الداخل مرآة تعكس الموجود في الخارج!.. فليست إلاّ صورة من «تميز» ومن «دكة» في الخارج مبادىء القانون الأخلاقي في الداخل!

من ثم فيقيناً!.. يقيناً أن القوة العالمية اللامشخصة المسفرة من خلال قوانين الطبيعة تحكم الطبيعة الداخلية عالم الخلق!..

فكرة، لم تحرم في أفق التفكير الإغريقي إلا لترسخ فيه عقيدة، ومن ثم فتجاوب هذا القانون في الدين الأوليمبي وتلك الفكرة التي سيظهر فيها رفض العقل الإغريقي التفرقة بين الطبيعة والإنسان، فليس إلا بسبب هذه العقيدة التي جاء بها تنبه الفكر إلى هذه القوة العالمية اللاشخصية التي أصبحت بها الألوهة قوة أخلاقية وحامية للقانون الأخلاقي، كان أن وصل العقل العالم الداخلي بالعالم الخارجي وجعل هذين العالمين محكومين بقوانينها وأجرى القلم على صحفه مملياً نصوص هذه الشريعة، شريعة القانون الأخلاقي في الداخل إملاءً بدأت به عند الإغريق صياغة:

الشرائع

في هذه الفترة الزمنية التي تطور فيها التفكير الديني هذا التطور والتي وضعت في غضونها أسس القانون المدني وتطورت فيها، في رضوخ لسنة الكون التطورية، القوانين وسجلت يد الزمن انسلاخ مستجد التقاليد والعادات من قديم العادات والتقاليد شرع العقل الإغريقي يشترع شرائع شتى لم تكن موادها إلاّ صورة منعكسة لمرآة القانون الأخلاقي في الداخل..

كلا... قط لم ينسب العقل الإغريقي، مشرعاً، شريعة من شرائعه إلى مصدر خارجي ولا قط ادعى أن عليه أنزلت من الخارج أو إليه بها جاء وحي منزل. كلا!.. فليست هناك بين شرائع المشرّعين التي حملت أسماء؛ دراكو، كاروندياس، جالوكس، ليكرجوس، وسولون شريعة نسبها مشرعها إلى المصدر السماوي وإنما كل شريعة كانت فيضاً من منبع الداخل!..

فليس إلاّ غداة نما الضمير الإنساني في هذه الناحية من دنيا العالم القديم طلعت علينا الشرائع الوضعية، فإن الضمير الإنساني الذي نما وفي أثينا، سنة ٦٢١ ق.م، تمثل بالمشرّعين أول ما تمثل، وطلع علينا بلائحة قوانين تضع سنن الأحكام الجنائية فليس إلاّ ليطلع علينا بشريعة لا ينسبها مشرّعها إلى الإله وإنما إلى حكم العقل فيه في صدوع لأحكام القانون الأخلاقي في الداخل، فهي شريعة لا تحمل إلاّ اسم مشرّعها كما نعرفها تحت اسم:

شريعة دراكو

«ك» «حمورابي» يقف دراكو بين المشرّعين الصادقين مشرّعاً صادقاً، فهو لا ينسب إلى الإله شريعته ولا يدّعي أن الإله قد أملى نصوصها عليه إملاء وإنما يعلنها شريعة وضعية مصدرها العقل وحده، هذا الشيء الوحيد الذي عليه اعتمد دراكو اعتماد ذاك الذي جاء بتلك الشريعة الأخرى التي تطلع علينا، حوالي سنة ٥٩٤ ق.م تحت اسم:

شريعة سولون

إن هذه الشريعة، التي تقف في اسمى مكان وقفت فيه الشرائع كافة، لا فحسب لمنحها الحرية للفرد وإنما لأنها الشريعة التي حوّلت الكائن البشري إلى مرتبة أشعرته فيها بالفردية واحترام كينونته كشخص له ما للغير من حق وحقوق، فولدت فيه ذلك الشعور الذي ظلّ للإغريق الطابع من بعد رغم تحول الأحوال السياسية إلى لون بعد لون ومن حال إلى حال، إنما هي شريعة لم تلجىء حدة الظروف التي جابهت مشرعها إلى إسنادها إلى السماء!.. كلا، فليس إلاّ إلى نفسه قد أسند سولون هذه الشريعة التي جاءت في عهد وليد عهود من الشقاق السياسي والاضطهاد الإقطاعي، كما عنه عهداً يتحدث التاريخ السياسي الإغريقي عندما يحدثنا عن أجيال عاش غضونها الأثينيون في شر الإقطاع يضطهد الأشراف من الملاّك الجانب الآخر الذي يمثل من صرح ثرائهم المادي الأساس، وأن لأجيال قاست «أتيكا» بممالكها المتفرقة، التي تجمعها جميعاً زعامة واحدة معقودة لملك أثينا، جوراً لم ينقض بنزع أثينا النظام الملكي واستعاضتها عن الملكية بتسعة زعماء «أراكون» يتغيرون كل عام، بل ظل الإقطاع يقتطع البلاد حتى حبا لتوطيد السلام وكف الشقاء، شرعت هذه السنن والقوانين التي طلعت بها على دنيا القانون «شريعة سولون» تشعر الفرد بفرديته وتنفث حياة العزة في الروح المعنوية لهذا الشعب المحكوم دينياً بأحكام الدين الأوليمبي... وهكذا ترى أن هذه الشريعة التي جاءت في عهد طابعه الاضطهاد الإقطاعي ومظهره الشقاق السياسي إنما هي شريعة وضعية لم تلجىء حدة الظروف التي جابهت المشرع إلى إسنادها إلى مسند إلهي، ولا يتخذ على ذلك حجة قوله إن هدفه كان في هذا الإسناد أن يكفل من العقل الجماعي

لأوامر هذه الشريعة إصغاء.. كلا فقد أبى الضمير أن يتخذ الوهم إلى القلب الجماعي طريقاً فأبى إلاّ القول الحق وإلاّ المنطق الصحيح السليم، فقال بها شريعة وضعية مصدرها وحي العقل!

وكشريعة دراكو وكشريعة سولون تجيء تلك الشريعة الأخرى التي كانت إسبارطة بها محكومة:

شريعة ليكرجوس

إن هذه الشريعة تعتلي الذرى من قمم القيم الأخلاقية، فهي الشريعة التي أرسخت في النفس البشرية قواعد الأخلاق وكانت موادها صوراً كاملة للفضيلة وألزمت الفرد الالتزام التام بالتمسك بمبادىء القانون الأخلاقي... هذه الشريعة شريعة، أيضاً، وضعية وبنفسها إلى نفسها أيضاً تستند ولم تلجىء أيضاً مشرعها إلى إسنادها إلى السماء وإنما كغيره من المشرّعين من الإغريق لم يدع أنها عليه أنزلت من السماء بل رفعها هو إلى السماء!

قط إلى السماء مصدراً لم يدع المشرّعون من الإغريق نزول الشرائع وإنما إلى السماء رفع المشرّعون الشرائع، فإن الإله الذي قد أصبح في الدوائر العقلية راعياً وحامياً للقانون الأخلاقي، وأمسى يقف حاكماً عادلاً يطبّق قوانين العدالة هو الذي أوجب أن تسير هذه التشاريع وفقاً للعدالة... ومن ثم كان من البديهي أن يتوخى المشرّع البحث ليضع قوانين شريعته وفقاً لقوانين العدالة الإلهية وأن يطمئن إلى أن الإله قد أقرّ لها مبادىء، وأما كيف يمكن أن يعرف المشرّع أن الإله قد أقرّ مبادىء شريعته فسؤال جوابه:

المذهب الأبولي

لم تعرف الإغريق شريعة سماوية ولم يدع أحد منهم أن له قد تجلى الإله أو كلمه بكلام ألف شريعة، وإنما قد عرفت الإغريق صلة إلهية أو بالأحرى وساطة إلهية بها تسترشد... كلا.. بالمعنى الذي عرفته أديان للشرق القديم من تجلٍ ومكالمة لا تصادفنا في التاريخ الديني عند الإغريق دعوة شأنها هذا الشأن، فلا يصادفنا منذ مشرق المرحلة الأوليمبية إلاّ الاهتمام بالأحلام، بل لقد استرعت الأحلام في العهود التاريخية الاهتمام الأكبر وحسبت أنها رسالات نذر وبشائر من العالم الإلهي، كما لهذا تسجل الإلياذة، ولكن.. خلال هذه المرحلة التي حكمت فيها العائلة المقدسة تمام الحكم أطراف البلاد وألصق اللاهوت الزيوسي بزيوس أبوة أبولو وعنت الأعناق إلى «الابن الإلهي الوحيد»، الذي استقرت عبادته في دلفي والتف من حوله كهنوت به بدأ يجري في مجرى الدين الرسمي لأبولو مذهباً، عرفت الإغريق لوناً من ألوان الاتصال الإلهي منتشراً على صفحات التاريخ الديني باسم:

الوحي الدلفي

منذ القدم عرف أبولو رباً ربوبته ربوبة العلاج، ومن ثم كان مناطاً للكهنوت الأبولي أمر العلاج، علاج النفس والجسد معاً فإن لما كان العلاج قد لعب دوره المهم في تاريخ البشرية قاطبة مذ استهل تاريخه في العهود البدائية بالسحرة حتى تطور في العهود التاريخية، بتطور السحرة إلى كهنة، وغدا صفة تابعة للكهنوت فليس إلاّ ليغدو بل ليظل وقفاً على الكهنوت الأبولي الذي يطلع على التاريخ وقد تميز عن سواه من سائر الطوائف الكهنوتية للمذاهب الأخرى بنزعة صوفية اشتدت على ظهوره ظهوراً غداة اتخذت مظهرها البارز بذلك الأدب الشعري في تلك الفترة الزمنية التي بدأ فيها التطهر الداخلي يلعب دوره في تاريخ التفكير الديني، فليس إلاّ ممثلاً للنزعة الصوفية وقف، بين سائر طوائف الكهنوت، الكهنوت الأبولي لا فحسب باستناده إلى قاعدة عندها تلتقي القيم الأخلاقية وإنما بنفثه في أرجاء العصر أرج العدالة وندائه الكل بتطبيق القيم الأخلاقية، فإن المطلب الأخلاقي للعصر وصيحته للعدالة التي بدأ بها مظهر التطهر الداخلي يتخذ مظهره السافر لم تك إلاّ صيحة ولدت في معقل الكهنوت الأبولي وانطلقت مدوية من أرجائه ترج الأرجاء الإغريقية، بل إن هذه الصيحة لم تكن بدورها إلاّ تعبيراً عن هذه النزعة الصوفية التي نمت وتطورت وأضفت على أفراد هذا الكهنوت الصبغة الصوفية التي تميزوا بها، ومن ثم انحصرت مطالب الكهنوت الأبولي في بلوغ غاية واحدة وهي:

تطهير النفس

وإلى التطهر النفسي اتخذ الكهنوت الأبولي الوسيلة الوحيدة التي لا يمكن إلاّ بها تطهير النفس وهي:

إرضاخ الجسد لحكم النفس

ولإرضاخ الجسد لحكم النفس أخذ الكهنوت الأبولي نفسه بالشدة فكان التهجّد وكان التقشف وكان الصيام...

وعن طريق هذه الوسائل من العزوف عن رغائب الجسد ورغبات الغريزة أمكن للكهنوت الأبولي إعمال النفس وإرضاخ الجسد لحكم هذه النفس التي بدأت مظاهر سيطرتها على الجسد تتخذ تلك الظاهرة التي تعرفها طرائق المذاهب الصوفية قاطبة، الحديث منها والقديم والديني منها والفلسفي... بدأت مظاهر هذه السيطرة تتخذ تلك الصور، التي تقرّها المذاهب الصوفية كافة، من ألوان «الجذب» والوقوع في تلك «الغيبوبة اليقظة» التي تستطيع النفس خلالها أن تطوف حيثما شاءت في رحب رحاب هذا الوجود والاتصال بالعالم

الإلهي بينما تروح، والجسد لها أداة، تروي بلسان الجسد مشاهدها في هذين العالمين في استعراض لما قد مضى ولما هو آتٍ من أحداث!

ولما قد مضى ولما هو آتٍ من أحداث البشرية والبشر تستطيع النفس، في حالتي الغيبوبة والجذب، المعرفة.. فليست أحداث البشرية والبشر إلاّ أجزاء صورة كبرى يضمها إطار الوجود... لا غرو من ثم أن يصبح فناً في أيدي الكهنوت الأبولي أمر:

التنبؤ الغيبوبي

تولى أمر التنبؤ الغيبوبي تلك الناحية من المتنبئة المعروفين باسم «باكس» من طوائف الكهنوت الأبولي ليقتصر أمر هذا التنبؤ من بعد على الكاهنات المعروفات باسم «سبيلا» وليتخذ بمظهره الرسمي غداة شيد اللاهوت الأبولي في دلفي «معبد الوحي» وبدأ يختار الواحدة بعد الأخرى من كاهنات هذا المذهب من قد وجد أن فيها قد توافرت شروط الوساطة التي تمكنها من الاتصال بالرب ابن الإله ليصبح لها نعتاً اسم «بثيا» أو المتكلمة بلسان الوحي..

من خلال شفاه «بثيا» كان أبولو يبلغ إلى كهنوته أمر الإله...

ومن خلال شفاه الكهنوت الأبولي كانت المسامع الإغريقية قاطبة تصغي إلى أمر الإله...

للمخيلة تعيد المعاول الأثرية المشهد القديم جديداً فإن، من أحدث الحفريات التي أجريت في دلفي، حيث كان مقاماً «معبد الوحي» ينحسر، أمام المخيلة هذا الجزء من «أديتون»، أو قدس الأقداس، في داخل الـ «صلا» أو المصلى في المعبد... وإلى داخل تلك الحجرة الحجرية الصغيرة وأمام المنضدة المرتفعة ترى المخيلة في مرآة الماضي الكهنوت الأبولي حافاً من حول «بثيا» يصغي مرهفاً إلى ما تلقيه من كلم يصاحبه الاعتقاد بأنه ترجيح لما تتلقاه، في غيبوبتها، كوحي من السماء!

من «أبولو» يجيء في «بيت دلفي» الجواب عن كل سؤال إما بالسلب أو بالإيجاب وبالموافقة أو بالرفض، فمن «دلفي» جاء الإقرار بصلاحية الشرائع غداة للشرائع الوضعية عضد من أبولو الوحي ولكن!.. هنا يجب أن نتنبّه إلى الفرق الجوهري بين شريعة منزلة وبين شريعة وضعية ترفع ويسأل عنها الرب ابن الإله أعليها يوافق الإله أم لها يرفض!..

وبهذه الظاهرة بدأ انتظام حلقات الأجيال في سلسلة الزمان وإلى أبولو، هذا الفرد البارز من «العائلة المقدسة» المعطي جيد النصح، قد التفت الإغريق من كل أنحائها، بل من الأراضي التي امتد إليها التأثير الإغريقي تحولت إلى أبولو المشاعر تطلب منه المعونة بالرأي، ومسترشدة بدأت، في استهلال كل ربيع، إلى دلفي تدلف الوفود حتى ازدحم اليوم السابع

من شهر بيزوس، اليوم الوحيد من كل عام المخصص لالتماس النصح، بطوائف الناس الطالبين النصح والمصغين لأوامر الرب ابن الإله: **«المتكلم بلسان الإله»**

لا غرو من ثم أن يكون الوحي الدلفي، والمذهب الأبولي مذهب نصح وإرشاد، سبباً في انبثاق الشعور بالواجب... الواجب نحو الغير ونحو النفس.

إن على النفس نحو نفسها واجباً ينحصر في التطهر الداخلي، فمن أرجاء **«معبد الوحي»** انطلق الصوت منادياً إليه الإنسان بأن التطهر الداخلي ينحصر في: **«التفكير الطاهر»!...**

وإن على النفس نحو الغير واجباً يعبده طريق هو: **«اتباع الصالح من تقاليد القدامى»**

بهاتين الوسيلتين اتخذ المذهب الأبولي طريقه إلى داخل النفس البشرية، فقد وصل بين الإنسان و«عالم القدامى» بصلة جعلها صلة احتذاء وتقليد للصالح من التقاليد، الأمر الذي كان من جرائه أن عمّ تقديس القدامى في الفترة الزمنية التي سيطر فيها الوحي الدلفي على البلاد، وليس هذا فحسب وإنما في خضوع لأمر أبولو، من كان له وحده الحكم في تأييد أو نفي قدسية من كان قد حفّ باسمه منذ القدم حفيف التقديس، برزت شخصيات كان قد خضبها العقل الجماعي منذ القدم بخضاب القدسية، ومن أبرز هؤلاء الذين أثبت لهم الوحي الدلفي صفة القدسية بل رفعهم إلى مرتبة القديسين:

كليوميدس

وسم الوحي الأبولي كليوميدس ورسمه بصبغة التقديس ورفعه إلى مرتبة القديسين كأثر لما كان قد علق في العقلية الجماعية عن كليوميدس، فإن إعلاء هذه الشخصية إلى مرتبة القديسين يعطينا فكرة عن طبيعة العقل الجماعي الذي تعكس مخيلته، أبداً، كل قديم بمرآة التضخيم.. فمن حول هذه الشخصية كان العقل الجماعي قد طوّف وتخيل وقصّ وآمن بما قد قصّ وبما قد تخيّل حتى أمست لديه عن هذه الشخصية عقيدة تتخلص، إلى جانب ما قد حفّ بسيرتها من سير الخوارق أو المعجزات، في الإيمان بأن هناك معجزة كبرى اختتمت بها حياة كليوميدس على الأرض وهي أن جسده قد اختفى، مباشرة، بعد وفاته!

أين؟.. كلا!.. لا يسألن الفكر العقل الجماعي إلى أين ذهب كليوميدس جسداً، فالجواب من الصفوف الجماعية قد انطلق حاراً قبل كل سؤال تترع نبراته الإيمان بأنه قد: صعد إلى السماء!

هذا هو السبب الذي دفع الوحي الأبولي إلى رسم كليوميدس قديساً.

ولكن!.. لئن كان العقل الجماعي قد راح يجسم في مرآة مخيلته صور القدامى فليس إلاّ ليترك هذا التجسيم أثره العميق في أرجاء هذه العقلية الجماعية، فإن عن طريق التقليد

واحتذاء الخطى واقتفاء الجليل من الأعمال بدأت تنمو في تربة العقل الجماعي بذور الواجب نحو الغير كما بدأت في نفس الوقت تنمو في تربة النفس بذور الواجب نحو النفس.... فإلى العالم الداخلي امتد مبضع أبولو يستأصل من الإنسان الشر وينمّي بين جوانبه الخير ويضطلع بنشر السلام بين الفرد والفرد وبين الفرد ونظرته إلى العالم، فهو يصل برابط الإخاء بين الفرد والفرد من جهة وهو من جهة أخرى يعقد بصلة المحبة وثيق الصلة بين الإله والإنسان... وعن طريق هذه الصلة، الرابطة بين الألوهة والإنسان من جانب ومن جانب آخر بين الإنسان والإنسان، تغلغل المذهب الأبولي إلى داخل النفس يمسح عنها دماء الخطايا والجرائم بمسحة التسامح والسماح ويطهرها، بعامل الندم، من أوحال الإثم ويعالج منها أوجاع العار ويبلسم المغفرة والغفران، الأمر الذي أدى إلى ظهور لون عجيب من التسامح والغفران اتخذ مظهره السافر في المعاملات بين الفرد والفرد، قط هو غير عسير على النفس، في حالة ترفعها عن دنايا الدنيويات، أن تطبقه تمام التطبيق.

أجل... ببلسم المغفرة والغفران امتدت اليد الأبولية إلى النفس تمسح عنها بمسحة السماح ألطاخ الإثم ووصمات الخطايا بأن امتدت تقتلع الأسباب التي تؤدي إلى وصم النفس نفسها بهذه الوصمات، ولهذا اتخذ أول مظهر من مظاهر هذا العلاج النفسي استئصال الشعور بالانتقام.. وإلى هذه الغاية كانت الوسيلة؛ إلغاء قانون الثأر المتمثل في شريعة «المثل بالمثل» القائلة بأن عيناً بعين وسناً بسن ودماً بدم!

إن الانتقام لا يجر وراءه إلاّ العداء، ومن ثم فإن محاولة محو جريمة بجريمة أخرى إنما منطق أجوف والمنطق الأجوف إنما منطق مرفوض!

ليفهم العالم قاطبة أن الهفوات بل الآثام والإيذاء والجرائم التي يرتكبها الكثيرون من البشر، سواء كان ذلك عمداً أم عفواً، ليست في مداها الحقيقي إلاّ نتيجة أمراض تصيب النفس، ومن ثم يقيناً أن علاج الجريمة ليس العقاب بمثلها وإنما يكون علاجها ومحاولة محو أثرها عن طريق إشعار مرتكبها بفداحة ما ارتكب إشعاراً يثيبه **إلى رشده** وإلى التماس التوبة!

إن باب التوبة على مصراعيه مفتوح يكفل لكل من يلجه المغفرة والغفران، والمذهب الأبولي يأخذ بيدك إلى هذا الباب ويكفل لك محو كل ما قد سبق أن أتيت من ذنب!

كأثر لهذا التكفّل بمحو الذنوب وتخليص الإنسان من جرائر الخطايا عرف أبولو بأنه: «رب المغفرة والغفران»

وكأثر لهذا التكفّل امتدت ربوبة أبولو من شفاء الجسد إلى شفاء النفس الامتداد الذي

كان من جرائه أن تطور القانون المدني تطوراً لم يك السبب فيه إلاّ هذا الوحي الدالف من دلفي بإلغائه تمام الإلغاء قانون الثأر وتشريعه قانون السماح وإقامته مبدأ الحب.

لا غرو من ثم أن نرى، كأثر لهذا التكفّل بمغفرة الذنوب عن طريق التوبة، الأرجاء العاطفية من النفس الإغريقية قد هفت إلى المذهب الأبولي وأن ترى أن قد التفت من حول أبولو القلوب يجتذبها إليه مذهبه هذا الكافل لمن اتبعه نيل المغفرة والغفران، بل أن نرى بالتالي أن قد تمت للمذهب الأبولي القدرة على تهذيب النفس وتعبيد الطريق الأسمى للأخلاق بابتعاده نفسه عن نطاق صيغ الطقوس المادية، من ألوان المقايضة وصور التقرّب بالقرابين، إلى رحاب مبادىء أخلاقية حرص الأبوليون على مراعاتها تمام المراعاة، بل وتنافسوا في تطبيقها على أنفسهم تطبيقاً وقف بسببه الكهنوت الأبولي مثلاً رائعاً على بلوغ النفس تلك المرحلة التي يتم لها ببلوغها تمام السيطرة على الجسد.. سيطرة، لحقت بأسمائهم من جرائها شهرة المقدرة على إتيان الخوارق أو المعجزات!..

أجل... بشخصيات جمّة من الأبوليين، أو أتباع هذا المذهب الذي ارتفع بالنفس حتى الحد الذي استطاعت فيه إرضاخ الجسد لعملها، لحقت شهرة المقدرة على إتيان المعجزات... ومن أشهر الشخصيات التي لحقت بها هذه الشهرة كانت تلك التي حملت أسماء:

هرموتيموس وأريسطياس وإبيمنيدس

بين هؤلاء الثلاثة يقف إبيمنيدس موقفاً عجيباً، فإن هذا الصوفي الكريتي الذي نراه بل ونحسّه عبر عبير باقة فواحة العطر تؤلفها مجموعات غير قليلة من الشعر الذي إليه ينسب والذي قدّم أثينا، قبل الحروب الفارسية بعشر سنوات، لينشر شريعة الغفران إنما قد تناولت قدرته المفرطة على الجسد ألوان الأساطير فبه حف العقل الجماعي وباسمه حاك قصة خرافية هي:

قصة الكهف

عن ناحية دقيقة من طبيعة العقل الجماعي تكشف لنا هذه القصة المتخذة محوراً هذه الشخصية التاريخية التي كانت النفس فيها مسيطرة إلى حد القدرة على تنويم الجسد والوقوع في تلك «الغيبوبة اليقظة» التي تعرفها الطرائق الصوفية على اختلاف مذاهبها وتباين ألوانها، فالمخيلة الجماعية قد أحاطت بهذه الشخصية، التي يبدو لنا أنها قد استطاعت أن تصل إلى تلك الحالة من حالات «الجذب» التي لا يعرفها إلا الصوفي ولا يقرّ بها غير الصوفي، وراحت تتحدث بحديث لا ينفيه المنطق البديهي فحسب وإنما يدحضه الواقع، فهي في غير مبالاة بالسنن الطبيعية المحكوم بها الكائن الحي تقول: إن إبيمنيدس قد ظلّ نائماً في كهف حقبة من الزمن بلغت خمسين سنة ازدادت سبعاً!

اللامنطقي من القصص واللامعقول من الروايات ألحق العقل الجماعي بالمذهب الأبولي ألواناً من هذه القصص وألواناً من هذه الروايات، فإن من حول قدرة الرّب ابن الإله قد راح يتخيّل ويجنح منه الخيال ويتخذ موضوعاً لهذه القصص شخصيات تاريخية.. ومن أبرز هذه الشخصيات التي اتخذها موضوعاً لتجلّي المقدرة الأبولية كان ذلك الذي حكم ليديا وأخضع لحكمه السياسي أيونيا وطلع على سجلات التاريخ السياسي الإغريقي تحت اسم «كروسوس» فإن لأهميته السياسية اتخذ هذا العاهل، الذي كان صديقاً شخصياً لسولون، محوراً لكثير من أقاصيص العقل الجماعي، وأوقع هذه الأقاصيص في هذا الصدد تلك القصة التي تقول:

إن بمعجزة قد نجا كروسوس، من النار.. فبمعجزة جعل الرب ابن الإله النار برداً وسلاماً على.. كروسوس!

الكثير الشتى من القصص حاك العقل الجماعي من حول أبولو ومن حول الأبوليين وعن مبدئه العقل الجماعي قط لم يشذ، فهو من حيث أراد أن يخضب هذه الشخصيات بخضاب القدسية قد ضلّ فخضبها بخضاب الأساطير!

ولكن!.. لئن حاك العقل الجماعي من حول أبولو والأبوليين خيوط الأساطير، فإن المذهب الأبولي كان قد تمكن من أن يومض في أرجاء النفس الإغريقية أضواء الفضيلة وأن يبقي في أعماق النفس هذه الجذوة أبداً مشتعلة... كما على ذلك قد ساعدت طبيعة المذهب الأبولي بتميزه، عن سواه من المذاهب الدينية الإغريقية، بالطابع التبشيري!

بمبشريه راح هذا المذهب يرسخ في الطوية الإغريقية حب الفضيلة ليزيد هذا الحب في أعماق هذه الطوية رسوخاً على رسوخ اتجاه الوجه الإغريقي في ملماته وشدائده إلى الوحي الدالف من «دلفي»، فإن لهذا الصوت، الذي صاحبه الاعتقاد بأن عليه قد اقتصر صحيح الوحي، كان أبلغ الأثر في إنماء بذور الفضيلة والخير في تربة النفس الإغريقية، وليس هذا فحسب وإنما كان أيضاً السبب في اتساع رقعة الإغريق السياسية، فليس إلاّ رضوخاً وإصغاء للوحي الدلفي كانت المدن تنشأ وتخط، وليس إلاّ بوحي الوحي الدلفي كان الاستعمار الإغريقي، غضون سيطرة هذا الوحي على البلاد، يمتد وينتشر. فلا غرو من ثم، وشأن هذا الوحي الشأن، أن ترسخ في القلب الإغريقي مبادىء هذا المذهب وأن تحنو الضلوع حباً على القائم باسمه، كما لم يك بالغريب على الإغريقي أن يرى نفسه أنه في نفس الوقت الذي يتجه بمسمعه إلى دلفي إنما يتجه بمشاعره إلى ديلوس «مهد أبولو» ولكن! ليرى نفسه أنه إذا ما اتجه إلى ديلوس فليس إلاّ لتعصف به أشواق صارخات لا يروى منها الظمأ إلاّ أن

يرى نفسه يسير في جموع الحجيج مطوّقاً بأرض هذه الجزيرة المقدسة بقدسية «الرب ابن الإله» الذي ولد على تربتها تحت جذع نخلة.. متذاكراً ذكرى هذا المولد الإلهي المانح الإنسان رباً للمغفرة والغفران وله من أثقال الخطايا مخلّصاً!

ولكن!.. القلب البشري أبداً لا يرتوي فهو دفاق الحب متّقد الحس ملتهب الشوق تتسارع نبضاته لذكر كل بعيد وعن هذه السنة القلب الإغريقي لم يحد، فهو لا يكاد يروي بهذا الحج ظمأ القلب إلى أبولو إلاّ لتندلع في أعماقه من جديد لهب أشواق أخرى تؤججها نفس هذه الذكرى ولكن ناحية ناحية أخرى، فللقلب تهز هزاً ذكرى تلك التي يجري لها أيضاً في الدين الرسمي رسمي مذهب يحمل اسم:

المذهب الأرتميزي

منذ وصلت يد اللاهوت الزيوسي هذه الربة، العائد منها الأصل إلى العصر المينوي، بالإله واحتفظت لها بخصائصها القديمة وراحت ترسم لها صورة استمدت ألوانها من حنايا الوجدان وأحاطتها بإطار صاغته من معدن الطهر الصافي ومذ في إفسس خلّدت من حول هذه الربة ناحية من هذا اللاهوت تكوَّن به لها كهنوت وقام به لاهوت بها خاص، ومنذ عقد هذا اللاهوت أصابعه وأمام هذه الصورة القائمة رمزاً للطهر هوى راكعاً ومن ورائه العقل الجماعي يردد عنه تلك الصلاة التي ارتفعت إلى أرتميز تناديها «السيدة العذراء» فسجلت لها صفة هي إلى القلب البشري أبداً حبيبة بدأ الوجه الإغريقي يتحول من كل صوب وناحية هذه الربة تحولاً تناوله بالتعهد هذا اللاهوت الذي أجرى في الدين الرسمي لها مذهباً سجلت به يد الزمن:

عبادة «السيدة العذراء» في إفسس

باستقرار الكهنوت الأرتميزي في إفسس استقرت، في إفسس، عبادة «السيدة العذراء» استقراراً عجيباً كان السبب الذي لعب به هذا المذهب خطير دوره في تاريخ التفكير الديني والمعتقدات الدينية، فقد تركت هذه العقيدة، عقيدة السيدة العذراء، أثرها العميق في أعماق القلب البشري ورسخت في سويدائه رسوخاً مذهلاً أبداً لم يبد والأيام في هاوية الزمن تتهاوى وفي تبدد تبيد، فقد خلدت هذه العقيدة في عمق أعماق القلب خلوداً لم تستطع الأجيال لها إفناءً وخاصة حيث استقرت هذه العبادة في إفسس!

بيد أن لئن كانت في إفسس قد خلدت عقيدة «السيدة العذراء» كما استقر لها في القلب الإغريقي مذهب، فإن إلى هذا المذهب قد لجت عوامل التطور في استجابة لصيحة العصر المطالبة الإنسان بالتطهر الداخلي، حتى أننا نرى كهنوت هذا المذهب لا يتشدد

فحسب في إلزام نفسه بالتطهر الخارجي وبالتطهر الداخلي الذي توجبه طبيعة هذا المذهب المتخذ محوراً سيدة عذراء، بل هو يحتم على أتباع هذا المذهب الالتزام بمطلق الطهارتين... طهارة الجسد وطهارة النفس!..

في إلزام المرء الالتزام بالتطهر الداخلي إلى جانب التطهر الخارجي زاحم المذهب الأرتميزي المذهب الأبولي ولكن في غير مزاحمة له كمذهب يجري في خضم الدين الأوليمبي، فإن إذا كان مذهب «الرب ابن الإله» مذهباً جارياً في الدين الرسمي ومقرّه دلفي فمذهب «السيدة العذراء» إنما مذهب رسمي جارٍ في الدين الرسمي ومقرّه إفسس لا ينافسه في القلب البشري إلاّ مذهب تلك السيدة العذراء الأخرى التي يجري لها، أيضاً، في الدين الرسمي مذهب يحمل اسم:

المذهب الإفروديثي

مذ أوثق اللاهوت الزيوسي بالإله صلة إفروديث ومن أحضان الطبيعة انتزعها فأقرها رحاب السماوات ومنذ انسلخت من هذا اللاهوت طوائف لزمت محارب هذه السيدة العذراء ومنذ طوفت طوائف اللاهوت من حول هذه المحارب القائمة في ثغور «إلفيوس» وقامت على أنغام الجداول الجارية تتعهد لها عبادة، بدأ يتكون باسم إفروديث مذهب اتخذ مجراه في خضم الدين الرسمي بأتباع لهج منهم الثغر تسبيحاً باسمها ربة عذراء وسيدة للسماوات زاحم مذهب «سيدة ثغور إلفيوس» مذهب «سيدة إفسس»!. مزاحمة كانت السبب في التطور الذي تطوره هذا المذهب وآل إليه من بعد غداة سجل العقل البشري خطواته بالفلاسفة الأخلاقيين، فليس إلاّ كنتيجة حتمية كان هذا التطور لما كان قد أصبح به لسيدة السماوات من كهانة تشترط على المنخرط في سلك هذا المذهب مطلق الطهارتين حتى أمسى مذهب «سيدة السماوات» مذهباً يحتم على أتباعه لا فحسب الطهر الخارجي وإنما **الطهر الداخلي**.

ولكن... عن مجاراة مذهب «سيدة إفسس» ارتدّ، بارتحال الأيام وذوبها في لجّة الماضي، جذراً مدّ مذهب «سيدة ثغور إلفيوس» وراح ليروح في ذوب يغيب في مجرى التيار الإفسسي هذا التيار الذي لم يزاحمه مزاحمة جدية في الرسوخ في أرجاء الوجدان البشري إلاّ مذهب تلك السيدة العذراء الأخرى التي جرى باسمها، أيضاً، في الدين الرسمي مذهب رسمي يحمل اسم:

المذهب الأثيني

إن لمذهب «أثينة» تاريخه الهام في تاريخ الدين عند الإغريق... فهو مذهب بدأ تكوّنه

والحرب على سفوح طروادة مستعرة الوطيس وبدأ رسوخه غداة سجلت اليد الهوميرية هبوط هذه الربة من السماء وتوسطها بين المحاربين ليبدأ إلى هذه الربة، المينوية الأصل، تحول الوجه الإغريقي تحولاً في خضمه بدأ التحوّل عن القديم وليشتد هذا التحول والأيام بأحداثها السياسية على صفحة هذه الناحية من الدنيا تسير وتجيء بالانتصار السياسي لأثينا على الفرس في سلاميس وتقوم للإغريق إمبراطورية عاصمتها أثينا ويقيم مقيم هذه الإمبراطورية لأثينة الربة، ربة أثينا المدينة، معبداً على الـ «إكروبوليس» يحمل اسم الـ «بارثنون»..

أجل... لم يك إلاّ بعد اندحار الفرس وسطوع أثينا عاصمة للإمبراطورية أن بدأ جدياً التفاف المدن الإغريقية إلى «أثينة» لتظل عبادتها سائدة طوال تلك الفترة الزمنية التي كانت فيها أثينا تضم مجتمعاً يعد، من حوالي ٤٨٠ إلى ٣٨٠ ق.م، أرقى مجتمع عرفته دنيا العالم القديم فلم تك سيادة أثينا بين المدن سوى سؤدد أثينة بين الربّات والسيدات العذراوات!.

من سائر أنحائه اتجه الوجه الإغريقي، باتجاهه السياسي ناحية أثينا. ناحية أثينة!... وبين سائر من قد خلقتهن المخيلة الفجّة من ربات وسيدات عذراوات وقفت، غضون هذه المرحلة السياسية، أثينة لا سيدة لأثينا فحسب وإنما سيدة العالم الإغريقي قاطبة، فإليها من كل ناحية هفا الوجدان وإلى بيتها القائم على معتليات الأكروبوليس، أو المدينة العليا، والذي انفرد بجلال بنائه من بين البيوت المقدسة طراً اشرأبت الأعناق شوقاً ليدفعها هذا الشوق إلى القيام بأداء فريضة رسمية فرضها الكهنوت الأثيني وحدد لها موعداً، في كل أربعة أعوام، يوماً جعله عيداً رسمياً لهذا الحج...

في هذا اليوم الرسمي كان الحجيج الإغريقي يسير حاجاً إلى الـ «بارثنون» هذا البيت الذي بنيت ببنائه بدعة في الدين الأوليمبي جديدة، فإلى هذا البيت المقدس كان الحجيج يسير وفي مقدمته يسير «المحمل» محفوفاً برجال الدين حاملاً الكسوة الرسمية إلى بيت «سيدة السماء»!

إن كل أربعة أعوام تحتاج «أثينة» إلى «ببلوس» أو لباس... في حياكته كانت تتشارك، غضون هذه الأعوام الأربعة، أيدي المؤمنات، حتى إذا ما تفجر فجر اليوم الموعود فعيداً يكون للربة التي إليها يزحف الحجيج بموكب نفسه مجموعة مواكب...

وهناك... هناك على سفوح ومعتليات الأكروبوليس عند البيت المقدس يطوف الحجيج ويقوم بشعائر ومناسك حجه المنتهية بذبح الذبائح ورفع القرابين وتقدمة التقدمات التي

كانت تتولى تقديمها طائفة من الكهنوت من اختصاصها كان إشعال النار على سفوح الأكروبوليس وإرسال المحرقات دخاناً يحمله الفضاء إلى سيدة السماء القائم تمثالها في الـ «بارثنون» وعليه قد خلع الجديد من اللباس، حمله إليها هذا المحمل الذي حفّت به، متبركة من كل جانب، أفواج المؤمنين!..

صورة! صورة طوتها للزمن طيات بعد أن سجلتها منه اليد فقد نشرتها للحاضر على الإفريز المحيط بأعالي جدران حرم هذا البيت المقدّس!.

ولكن.. لئن كان إلى «أثينة» قد تحول الوجه الإغريقي غضون هذه المرحلة السياسية التي تحولت فيها المدن إلى أثينا فليس إلاّ في غير تحوّل عن سيداته العذراوات كان قد انقلب إلى أثينة منه القلب، فالقلب منه قد اتسع اتساعاً ضمت جوانبه جميع تلك الربات وإلى الاتجاه بالعبادة إليهن جمعاً لم يجد غضاضة فما اختلف من مذاهبهن مذهب عن مناشدته الجانب الإنساني من الإنسان بمراعاة وتطبيق مبادىء القيم الأخلاقية، ومن ثم كانت تجري في مصب الدين الرسمي، إلى جانب المذهب الأثيني، مذاهب من قد مررن بهن من سيدات عذراوات بسببهن رسخت في الطوية الإغريقية عبادة محورها ظل، أبداً، سيدة عذراء!

أجل.. في القلب البشري عقدت عبادة «السيدات العذراوات» عقيدة محورها كانت أبداً سيدة عذراء!. عقيدة لم يكن العامل الأساسي في إرساخها في هذا القلب إلاّ لمس كل مذهب من هذه المذاهب الجانب الحسّاس من هذا القلب الملقاة في تربته بذور القيم الأخلاقية... السبب الذي رجّعت بتأثيره جوانب هذا القلب أصداء، محبة «سيدة عذراء» دوت فيه على مدار الأجيال!

ولكن... لئن كانت في القلب البشري قد عقدت هذه المذاهب محبة «سيدة عذراء» فإلى جانب هذه المذاهب الجارية كان هناك مذهب استقر بعبادته بين الجوانب وفي الطوية البشرية كان قد عقد، منذ القدم، عقيدة «السيدة الأم» بتلك الربة التي يقوم لها في الدين الرسمي مذهب يحمل اسم:

المذهب الديمتري

من الأنشودة الهوميرية المرتفعة إلى «ديمتر» والتي نظمت في «أتيكا» قبل أن تفقد «إلوزيس» استقلالها السياسي وتغمر في ظلال أثينا يطالعنا المذهب الديمتري فيطالعنا صورة منعكسة للمذهب الإيزيسي!.. الشعائر والشريعة وأصول التعبد في مذهب «ربة الخلود» الإغريقية، إنما صورة مطابقة كل التطابق للشعائر والشريعة وأصول التعبد في مذهب «ربة

الخلود» المصرية، فلم تكن الشعائر الإليوزيسية، في إلوزيس مقر المذهب الديمتري، إلاّ ترجيعاً للعقيدة المصرية المتخذة قاعدة لها «عقيدة الخلود».

أجل... أسس المذهب الديمتري عقيدة «البعث الجسدي» والوعد بحياة أخروية تعوض الخير خيراً مضاعفاً عن هذه الحياة وتمنحه كل ما قد فاته في ركبها من بهيج الألوان.. للخير حياة أخروية يحيا فيها في رحاب السماوات حياة أبدية لا يحول بينه وبين بلوغها إلاّ إلزام نفسه في حياته الأرضية بأصول عبادة «ربة الخلود» وأصل هذه الأصول الطهارة بنوعيها، المادي والمعنوي:

الطهارة الجسدية والطهارة النفسية

يقيناً إن الطهارة بنوعيها الجسدي والنفسي، لم تك أصلاً في المذهب الديمتري وحده وإنما كانت أصولاً في كل المذاهب التي عرفتها الإغريق فسائر المذاهب الإغريقية قد تنافست في تطبيق هذين الأصلين على تابعيها، ولكن لم يتشدد من المذاهب مذهب التشدد الذي فرضه المذهب الديمتري على أتباعه وعلى هذا التشدد تأتي فريضة الطهارة الجسدية، مثلاً فإن كانت سائر المذاهب الإغريقية قد اشترطت على من يدخل «البيوت المقدسة» فريضة التطهر الجسدي حتى وضع بباب كل معبد وعاء ماء يمكن المتعبد من هذا التطهر قبل الدخول بل تشددت المذاهب طراً في مطلب هذا التطهر تشدداً حرمت به دخول هذه البيوت على ذوي الجنابة إلاّ بعد اغتسال تام، فإن المذهب الديمتري يتشدد في مطلب الطهارة الجسدية عن سائر المذاهب، فالشعائر الإليوزيسية تلزم المنخرط في سلك مذهب «ربة الخلود» استهلال حياته الدينية بطقوس تبدأ بأصل من أصول التعبّد جوهري فقد كان الاغتسال بالماء اغتسالاً تاماً وواجباً مرعياً اتخذ عبر الأيام صورة دينية رسمية، فعلى المنخرط في هذا المذهب أن يبدأ حياته المذهبية بالنزول في الماء الجاري لغسل ما قد سبق من الأدناس!..

أجل... إن الانخراط في سلك المذهب الديمتري إنما كان استهلاله يوماً يبدأ بهذا الاغتسال الذي كان ينزل فيه المريد إلى الماء الجاري نهراً أو بحراً لغسل ذنبه بيد أن هذا اللون الرسمي من الاغتسال كانت له نتائجه في نطاق التفكير الديني فهو الأصل والمنشأ في ابتداع:

بدعة العماد!

«العماد» السنة المرعية والأصل الأول من أصول المذهب الديمتري فهو شرط أولي من شروط الانخراط في مذهب «ربة الخلود» المستقرة بعبادتها الرسمية، منذ القدم، في إلوزيس استقراراً أمست بسببه إلوزيس، بين الأراضي المقدسة، أرضاً مقدسة، كما غدا بسببه «بيت

ديمتر» بين البيوت الحرام بيتاً حراماً، إليه يجيش بالمؤمن حيثما كان لهب الوجد المندلع من أعماق الوجدان وناحيته يشرئب منه العنق حنيناً وشوقاً يدفعه إلى زيارته فيجمع جموعه ويسير حاجاً مرة من كل عام وجهته، وهدفه غسل الذنوب، وزيارة هذه الأرض المقدسة والتبرّك بهذا البيت الحرام..

يستعرض الفكر هذا الحجيج وهو يتجمع في أثينا ويتبعه وهو إلى إلوزيس يسير، وقد اختلط فيه المؤمن القديم بالمريد الجديد، وامتزج فيه الإيمان التليد بالإيمان الجديد والقديم فيشهد مشهداً فذاً يثير في النفس روعة الخشوع، فهذا الحجيج الذي يسير بموكب تحف به حملة المشاعل لا يدخل المدينة المقدسة إلاّ، كما حتمت طقوسه الدينية، ليلاً على ضوء المشاعل.. وعلى ضوء المشاعل يسير المريد إلى حيث يسير هذا الحجيج حتى داخل «البيت الحرام»! حيث يحط «المحمل المقدس» رحاله، ليشهده بين الظلال المترامية للمشاعل ودوي تسبيح المسبحين وأنغام التراتيل وعبير الأبخرة، يقف في روعة الليل موقفاً يخفق له منه القلب وتتوهج بوهج التخيل منه المخيلة، فعن التمثال القدسي قد أزيح في الداخل ستار، تحت تأثير رؤياه وتحت هذه المؤثرات من حوله يقسم المريد أن ما قد رآه هو الحقيقة وأنها:

الرؤيا والمعاينة

راعت روعة المشهد عقل المريد!.. فبقلبه لعب وهج الأضواء على التمثال القدسي وأثملته غيوم الأبخرة المكتنفة الصورة القدسية فنفث في الحجر روحاً وآمن بالوهم مؤمناً بأن هذه هي الرؤيا وبأن هذه هي المعاينة، لا يشوب الشعور منه شك في أنه قد رأى الحقيقة القدسية وأنه قد عاين للقدسية صورة وجهاً لوجه!.. وقريراً بهذا الإيمان المستقر بين الجوانب ينطلق المريد يؤدي طقوساً أولها:

السعي

«السعي» أو هذه الشعيرة التي يستهل بها المذهب الديمتري شعائر طقوسه تمثل الحيرة البشرية حتى نهاية الحياة البشرية على الأرض... والمريد إذ يقوم، كسائر المنخرطين في سلك هذا المذهب، بهذه الشعيرة فليس إلاّ ليمثل هذه الحيرة التي لن تنتهي إلاّ بيوم عنه الحديث إلى المريد يأتي عندما يتم السعي ويجلس منصتاً إلى لاهوت يحدثه عن عودة «الروح» إلى الجسد في «يوم البعث»، وعن ألوان من السعير له تنتظر إذا ما أساء هنا العمل، وعن ألوان من النعيم إذا ما أحسن في حياته الأرضية العمل.

أجل... عقيدة «البعث» وحياة أخروية تعوض الإنسان خيراً مضاعفاً على ما في هذه الحياة أس «المذهب الديمتري» وقاعدته التي امتلك بها ناحية قوية من القلب البشري هي

تلك الناحية التي تمثل من صرح الثراء المادي الأساس المغمور، فإن كان قد جاء بالدين الأوليمبي مترف خيال أترفه الترف فإن للإغريق، ككل، لم يصبغ الترف فهناك... هناك تحت الصرح الشامخ أساس مغمور هو الجانب المجد العامل المؤلف لفئات من البشر مراحل حياتها سلسلة كفاح متواصل وجهاد مضن يمثل هذا الجانب المهضوم الحق الذي أنزلت به ألوهة الأوليمبس قضاءها وقدرها حين قسمت الرزق بين الناس فأسرفت وقترت!

هذا الجانب إنما بطبيعته ينصرف إلى هذا المذهب الذي يعده بجزاء مضاعف ويضمن له، إذا ما تبع أوامره واجتنب نواهيه حياة أخروية طبيعتها الخلود وفيها كل ما يشتهيه هنا من نعيم!

عقيدة عن الخلود تدفعنا إلى استعراض:

مشكلة النفس وعقيدة الخلود في الدين الأوليمبي

من المرحلة المسينية إلى المرحلة الأوليمبية انحدرت عن النفس عقيدة تقول بخلودها في عالم آخر فيه يتابع المرء حياته بعد رواحه في راحة الزمن بالصورة التي كان يحياها على الأرض، السبب الذي تطالعنا من جرائه القبور المسينية بحاجيات الثاوي التي وضعت معه كي يستعملها في حياته هناك.. كما أنه لهذا السبب، والموتى إنما أحياء في عالم آخر، طاحت بالعقل الإنساني خلال المرحلة المسينية، العقيدة بأن الصلة موصولة وقط غير مقطوعة بين عالم الأحياء هنا وعالم «الأحياء» هناك، ولتأت هذه العقيدة بنتيجتها الحتمية وهي أن «الموتى» إنما على دراية تامة بما يدور في عالم الأحياء هنا وأنهم يهبون في ساعات الشدة يلبّون ويساعدون من يناديهم بل يقتصون، ومن ثم نشأة تلك العقيدة الأخرى التي مررنا بها من قبل وعرفناها بالربوبية القبلية.

ولهذه العقيدة القائلة باليقظة الدائمة للنفس أو بالأحرى بتواصل الحياة باستمرارها في عالم آخر اعتنق الآريون غداة هبوطهم هذه الناحية من دنيا العالم القديم اعتناقاً احتضنته المخيلة الإغريقية وسجلته «الهوميريات» تسجيلاً نرى فيه هذه العقيدة قد أصبحت غضون العهود الإغريقية تمثل ركناً من أركان الدين الأوليمبي، فإن من مظاهر هذا الاعتقاد يطالعنا عيد كان يحتفل به كل بيت إغريقي في يوم محدد من كل سنة خصصته دنيا العالم الإغريقي لزيارة يقوم بها «الموتى» لأقربائهم، وهذا اليوم هو الذي يطالعنا في تاريخ التفكير الديني الإغريقي تحت اسم:

الـ «أنثستريا» أو «عيد الموتى»

بيد أن لهذه العقيدة المتوارثة القائلة بخلود النفس التي نعرفها عند الإغريق باسم «سيكي»

قد تناول الزمن المتغير بالتغير، فإن عن العقيدة المسينية القائلة باحتفاظ المرء بعد وفاته بصورته التي كان يحيا بها على الأرض احتفاظه، بالتالي، لما كان له من خصائص قد تغيرت غضون المرحلة الأوليمبية النظرة إلى صورة ظلالية لما كان عليه الجسد في حياته الأرضية فقد غدت النفس للجسد شبهاً ومنه تقف بمثابة الشبح، ولهذا السبب امتلاكنا لعدد غير قليل من قصص هذه المرحلة التي تقص حياة الأشباح لتطفو من بعد على وعي الأجيال كأثر للعقيدة القائلة بأن النفس تتشكل بعد تركها الجسد بصورة ظلالية معادلة لما كانت تحيا فيه من جسد، وهذا ما قد أسماه الإغريق:

«إيدلون» أو الصورة المعادلة

بيد الفن تطالعنا صورة هذه «الصورة» كما احتفظت برسمها لنا الجدران لتطالعنا صورة ظلالية ولكن مجنحة، ومعنى هذا أن «سيكي» أو النفس لها شبه الجسد المادي وخفة الهواء فالجناحان علامة على أن «سيكي» أو النفس لم تعد إلاّ «إيدلون»!..

وهكذا بـ «إيديلون» أو الصورة المعادلة تغيرت العقيدة عن النفس وعن الخلود تغيراً جوهرياً والأيام بالمرحلة الأوليمبية نحو النهاية تسير، حتى لم يبق للنفس من حقيقة إلاّ الصورة الشبحية، وحتى لم تعد «سيكي» إلاّ «إيدلون» ولا شيء قط غير ذلك، كما يطالعنا هذا التغير واضحاً عبر الصفحات التي أضيفت إلى الأوذيسية، فعبر هذه الصفحات ترى النفس ليست إلاّ محض صورة ظلية للجسد وأن «سيكي» ليست إلاّ «إيدلون»!

ظلال ولا شيء غير الظلال، إنما النفس وليست لها إلاّ من الجسد الشبه! ومن ثم فليس «للموتى» إلاّ أجسام تبدو، إذا ما قيست بالأجسام المادية، كالهواء.. أطياف تتراءى ولا تلبث أن تتلاشى.. كالحلم!..

إلى هذا اللون من ألوان التحول تحولت العقيدة عن النفس وعن الخلود لتأتي بنتيجتها المنطقية فإن النفس، وليست هي إلاّ ظلال الجسد، لا تمتلك قوة ولا تملك وعياً، ومن ثم فإن الحياة بعد الموت إنما حياة باهتة، وحياة شأنها هذا الشأن إنما حياة فارغة كأن لا وجود لها ومن ثم فإن وجوداً هذا شأنه ليس له أهمية بالنسبة للأحياء وبالتالي ليس لأصحابه مكان للتقديس!

بهذه العقيدة الجديدة أخذت العقيدة القديمة القائلة بالصلة بين الموتى والأحياء تبهت شيئاً فشيئاً حتى تناولت التقدمات التي كان يرفعها الأحياء للموتى، فقد تحول مظهرها من التقديس إلى التكريم للذكرى وبدأت الربوبية القبلية في التلاشي... فالنسيان..

بهتت الحياة بعد الموت حتى أمست وكأنها لا توجد، ومع هذا التغير الجوهري بدأت

تتغير في مملكة الأحياء العقيدة عن «مملكة الموتى».. فقد راحت المخيلة الفتية تلاحق أطياف هذا العالم الخفي لحوقاً سجل عليها جنوحاً وشططاً فالمخيلة قد تصورت، وبما قد تصورت آمنت، فآمنت بأن:

«عالم الموتى» مكانه، حيث يدفن الموتى، تحت الأرض..

وأما «ملكوت الموتى» فمملكة يحكمها أمقت الأرباب طراً: «هادس» وتشاركه في حكمه: «برسفون»!..

مملكة، طبيعتها الظلمة ويترع أرجاءها الأنين والضوضاء ولا عودة منها لمن دخلها، فعلى أبوابها الموصدة قد أقام «هادس» حراساً يحولون بين الموتى والأحياء ويحيلون حياة الموتى في هذه المملكة إلى دائم أنين ودائب عذاب!

من السهل والطبيعي كان هذا الاعتقاد لعقل فتي كان يعتبر الأرض مسطحة ويحف بها الماء من كل الجهات، بل من البديهي كان أن تسترسل المخيلة الفجة وتتخيل أن من هذه الحواف يهبط بالراحل شاطىء ينحدر به إلى العالم السفلي، كما تصوّر هذه المرحلة سطور من الأوذيسية...

إلى هذا التحول تحولت، في مغرب المرحلة الأوليمبية، العقيدة عن النفس وعن الخلود لنرى أنها ولئن كانت قد أطلقت لا العقل البشري من الخوف من سيطرة الموتى وحررته من الربوبية القبلية، فإنما قد قيدته بأصفاد الفزع من الموت تقييداً ما استشعر وطأته إلاّ وحاول جاهداً منه التخلص، ومن ثم فتحول الوجدان الإغريقي بكليته إلى كل مذهب يعد بالخلود، ولهذا السبب اشتد إخلاده إلى المذهب الديمتري في نفس الزمن الذي وجد هذا الوجدان ناحية منه، منشدها نسيان الموت وأتراح الحياة، تتحول إلى ذلك المذهب الآخر الدخيل على الإغريق:

المذهب الديونيزوسي

طويلاً... طويلاً بعد أن تكونت «العائلة المقدسة» وفي قمم الأوليمبس في لا استقرار استقرت محوراً للعبادة، أقبل من تراكيا إلى أتيكا لون من التفكير الإلهي لم يك بزيوس متصلاً وإنما محور التفكير فيه كان:

ديونيزوس

أي التاريخ تاريخ «ديونيزوس» في تراكيا وإلى أي تاريخ يعود تاريخ مقدم ديانة تراكيا إلى أتيكا؟

سؤال.. إلى تراكيا من الإغريق يأخذنا لنستبين البون الشاسع بين أتيكا وتراكيا، فمن الإغريق كانت تراكيا أقل تحضراً وعلى أرضها تعيش أمة حياتها الزراعة، وزراعتها إلى جانب الحبوب، الكروم...

وككل أمة زراعية محور التفكير الإلهي لديها معبود للزراعة يتعهدها بالنمو، يطالعنا محور التفكير الإلهي في تراكيا دياناً يتعهد البذور بالإنماء يحمل اسماً لم يجلجل في وعي الزمان إلاّ غداة اعتصرت العناقيد واكتشف من الكرم صنع النبيذ ورفعت الأقداح نخباً.. لديونيزوس!

لقد كان أول القطاف من الثمر والحبوب يصنع فطيراً في يوم محدد من كل عام نعرفه باسم «الديونوسية»، وكان لهذا الفطير معناه الديني وهو أن فيه قد شعت روح الرب وأما وقد أترعت الكؤوس رحيقاً وتقارعتها الأيدي طرباً وتساقتها الشفاه نخباً لديونيزوس فإن شعيرة بارزة من شعائر المذهب الديونيزوسي قد غدت رشف رشفات من النبيذ في الطقوس الدينية إلى جانب تناول قرص من الفطير يمثل:

العشاء الربّاني

تحت هذه الصفة طلع على سجل التاريخ الديني إله تراكيا الزراعية وعرف رباً للنبيذ من الخمر لتبدأ عبادة تستهل طقوسها بهذه المناولة... ولتستحكم عقيدة تقول إن الرب، والرب إنما في القرص من الخبز الممثل للكدح الزراعي متمثل، إنما في النبيذ روح متمثل، فإن هذه النشوة التي تسري في الأوصال ليست إلاّ لروح الإله في الأوصال سريان!

ولكن... الخمر في كل صورة من صوره وإن تفاوت تباينها فأبداً للغرائز وقود وللهب الجذوة الكامنة في قاع الوعي مطلق، واندلاع اللهب إنما للغرائز إطلاق وإطلاق الغرائز إنما من الأوضاع الخلقية تحلل وعلى القيم الأخلاقية خروج... ومن ثم فتطور الفكرة عن ديونيزوس من رب تنحصر عبادته في الكدح الزراعي إلى رب طروب ومن ثم فتطور عبادته تطوراً عكسياً أمسى به مظهرها للغريزة في الليل على الروابي الخضر إطلاقاً!

تحت هذه الصورة انساب المذهب الديونيزوسي، كمذهب تبشيري من تراكيا إلى أتيكا في زمن تاريخه قبل بدء التاريخ عند الإغريق ليطلع من بعد على العهود التاريخية، وقد تغلغل في تشعب إلى الناحية الكبرى من العقلية الجماعية الإغريقية، فإن الإغريق شعب وإن يك أكثر تحضراً من تراكيا فجماعاته مذ حلولها أرض يونان وحياتها الزراعة وتعهد الأرض حياتها، بأيامها، لا تمثل إلاّ يوماً جزاؤه قرص من الخبز ومن الكرم قطاف... وحياة شأنها هذا الشأن كان لا بدّ أن تترك انطباعاتها القاتمة في أرجاء النفس من هذه الطبقة الكادحة،

بل إن تلبد مؤثراتها منها الآفاق العقلية بغيوم داكنة تدفع هذه العقلية إلى ناحية تجد أن فيها قد وجدت لأحاسيسها صدى ومن ثم فإن العقل الشعبي المستشعر نفسه في قبضة الألوهة الأوليمبية بأن بينه وهذه الألوهة اللاانسجام واللاتجانس يجد نفسه أن عن الدين الأوليمبي قد تحولت منه المشاعر إلى هذا المذهب التبشيري الدخيل، فإن الألوهة الأوليمبية أرستقراطية الصبغة والدين الرسمي دين بالطبقة الكادحة العاملة الشعور منه غير شاعر فالأرباب فيه عواطل والإنسان لهم ملهاة، وعن هذه الصفات وهذه الاختصاصات بعيدة كل البعد لديونيزوس ربوبة إليه تجيء بمذهب ديمقراطي الصبغة، فالديونيزوسية ديانة شعبية للطبقة العاملة الحارثة الحقل القاطفة القطاف والرب فيها رب بآلام البشر دري وبأوجاع البشرية شاعر!

هذا هو العامل الجوهري الذي دفع بالعقل الجماعي الإغريقي إلى الديونيزوسية كما أرسخها فيه من بعد ذلك الحدث السياسي الذي سحب سحائب الألم على الآفاق النفسية في أثينا، فإن أيونيا التي هوت سياسياً للفرس حوالي سنة ٥٥٠ ق.م قد التفت تماماً إلى ديونيزوس ليشد إليه منها الروابط الألم النفسي الذي بها قد أحاط من جراء انهيارها السياسي، فإن الألم النفسي إذا بالجماعات أحاط فليس إلاّ ليعطل فيها عمل العقل وليس إلاّ ليدفعها إلى متجه تنشد فيه عن آلامها السلوى وسلوى الجماعات إنما، أبداً، من القيم الأخلاقية تحلل، ومن ثم استهوت الديونيزوسية بالشعائر التي بها قد أتت النفس المجهدة فاعتنقتها ديناً!..

من عالم القيود والالتزامات والتكاليف الأخلاقية أطلقت نفس أضناها الجهد العقل الجماعي فاستهوته لهذا الدين طقوس إليها من حرور الحياة هرعت النفس المجهدة تتفيأ وريف ظلال فيها تنحصر لهذا المذهب طقوس تسكب، بإطفائها لوعة الغريزة، على تباريح الحياة بلسم النسيان، ففي هذه الظلال تنحصر الطقوس الدينية في نهل للخمر وإطلاق سعير الغرائز لهباً جارفاً في حمأته تبارح المرء تباريح الحياة وأية عبادة سواها تمنحه منشدة، ومنشدة النسيان؟

لا غرو من ثم وإلى ديونيزوس قد ألفتت هذه الصفات والاختصاصات العقل الشعبي الإغريقي أن نرى العاطفة من هذا القلب قد تحولت عن العائلة المقدسة تحولاً كان مظهره السافر الاستخفاف الجماعي بالعائلة المقدسة استخفافاً شمل زيوس!

ظاهرة، كان لا بد من جرائها أن يلقى ديونيزوس من الدين الأوليمبي صداً تمثل بالطبقة الأرستقراطية والجماعة الممثلة الناحية اللاهوتية فيه...

وبين هذا الصد من جهة والإقبال من جهة مرت من الزمن تلك الفترة التي سجل انتهاؤها بدء عهد:

وحدة الدين الأوليمبي والمذهب «الديونيزوسي»

في خضم ذلك الإفناء الإدماجي لرب بعد رب في ألوهة زيوس يطلع بنا الزمن على ذلك العهد الذي لم يسع الدين الرسمي إلاّ الاعتراف بديونيزوس ولكن في استعلاء عليه بإدماجه في الدين الرسمي ونشره فيه كمذهب فتناوله بالإدماج وأجراه في تياره الجاري مذهباً ولكن!.. لهذا الإدماج كان خطير أثره في العقلية البشرية، فقد طلعت به على دنيا التفكير الديني عقائد:

القلب المقدس، ابن الإله، قتل ابن الإله وبعثه، والخطيئة العالمية، وابن العذراء.

لإدماج الديونيزوسية في الدين الأوليمبي كانت الوسيلة الوحيدة توحيد لونين متنافرين في التفكير الإلهي اضطلعت بمزجهما بمهارة يد اللاهوت الزيوسي وفي انصراف عن هذا التخبط، أجمعت الجامعة الدينية الرسمية معلنة أن:

ديونيزوس ابن زيوس!

لبرسفون، ربة العالم الأرضي، اصطفى زيوس وجاء منها بابن هو ديونيزوس...

وتسترسل الشفاه اللاهوتية تقص:

إن زيوس أراد أن يجعل ابنه هذا ملك الأرض.. لكن!..

وهنا يهوي اللاهوت إلى بدعة بعد بدعة، فهو كي يجعل هذا اللون من التفكير الديني مقبولاً تحيك منه المخيلة لهذا الميلاد قصة ما انتهت من سردها إلى العقل الجماعي منه الشفاه إلاّ وتناولها بكليته العقل الجماعي يأخذها بصورتها، في غير تنبه إلى ألوانها المتنافرة، عقيدة دينية لا يمسها من الشك منه مساس، فاللاهوت إنما من حيث قد توقف للحظة قد استأنف الحديث يقول:

ولكن!... بين إرادة زيوس إقامة ديونيزوس ملكاً على الأرض قد حالت حوائل فقد قتل ابن الإله!.. قتله سكان الأرض الأول إلاّ أن سليماً ظل القلب.. «القلب المقدس»!.. وإلى زيوس حملت أثينة هذا القلب القدسي... وأراد زيوس الإله أن يعيد إلى ديونيزوس الرب الحياة.

ولإعادة الحياة إلى الرب اتخذ الإله وسيلته فقد منح الإله «القلب المقدس» إلى «سميل» ومنها، عذراء لم يمسسها بشر، ولد من جديد ديونيزوس الرب ابن الإله!

بهذا التوحيد الإدماجي ذاب المذهب الديونيزوسي في الدين الرسمي... ولكن بهذه القصة ألقيت على الكاهل البشري جريمة قتل «ابن الإله» فألقيت عليه ثقل خطيئة عالمية!.. وبهذه القصة التي تقول بإحياء الأب السماوي «لابنه الحبيب» بعد قتله، بمعجزة، بها قام ابن لإله من الموتى حياً جرت العقيدة الديونيزوسية في الدين الرسمي مذهباً رسمياً!..

وهكذا رسخ المذهب الديونيزوسي في القلب الإغريقي وراح يزحف إلى الأرجاء الإغريقية حتى بلغ دلفي.. وهناك على قمة جبل «بارناسوس» نرى صورة تلك الاحتفالات التي لا يرهف بنا إلى المحتفلين بها منا السمع إلاّ لنسمع أفواج «المؤمنين» يتذاكرون ذكرى هذا الرب محدثين:

إن من «العذراء» ولد «ابن الإله» «صاحب القلب المقدس» ووليداً، وضع في مذود من القش...

وإن إلى الحياة عاد «ابن الإله» بعد موته وبعث حياً قبل أن يثوي مرة أخرى ويدفن في دلفي كما عن مثواه يتحدث «فيلوكورس» ويعينه ضريحاً يقوم في معبد دلفي!..

هكذا إلى القلب الإغريقي لج المذهب الديونيزوسي وجرى في دينه الرسمي مذهباً رسمياً دعامته هذه القصة، بل بالأحرى هذه الأسطورة أو البدعة التي جعلت ديونيزوس ابناً للإله من عذراء وحملت العالم أثقال «الخطيئة العالمية»!

ولكن... هذه «الخطيئة» التي أثقلت الكاهل البشري بجريمة قتل «ابن الإله» قد حولت التفكير الإلهي في نطاق هذا الدين إلى لون صافٍ يجافي كل المجافاة عكر تلك الشعائر التي عرفت بها الديونيزوسية به أتى استشعار الندم على ما قد اقترفت البشرية من خطيئة لن يمحوها إلاّ العزوف عن الدنيا وطلب الغفران!..

بالناحية المرهفة من الوجدان أحدقت عقيدة الخطيئة العالمية وعقدت في طواياها عقدة أن النوع البشري قد ورث بقتله ابن الإله عالمي خطيئة!

تحت ثقل «الخطيئة»، والشعور بالخطيئة للشعور إثقال، استشعر العقل الندم.. وبالندم بدأت أرجاء المذهب الديونيزوسي تصطبغ بألوان قزحية تتنافر كل التنافر وما كان قد اصطبغ به من ألوان، فبينما كانت الجماعات تنطلق من المعبد إلى العراء إلى حيث يمضي عنها الليل وهي تحطم، بتأثير الخمر وسكر الحواس، باسم الدين صروح الأخلاق، راحت الناحية الكهنوتية في هذا الدين والممثلة للناحية التفكيرية فيه ترفع يدها فتحول صورة العبادة إلى لون طاهر به خضبت النفس بلون الزهد اليوبانيشادي والطهر اليوجي وبه تحول

ديونيزوس تحولاً جوهرياً، فقد اكتنفته شفافية تطالعنا مكتملة عبر ذلك الإصلاح الديني في مذهبه والذي به يطالعنا:

المذهب الأورفيّ في المذهب الديونيزوسي

بـ «أورفس» من على إفريز السيكيونيان أو بيت النفائس العائد بتاريخه إلى ما قبل منتصف القرن السادس ق.م، نراه مصوراً والذي من شفاه أبيكوس الشاعر نسمع في أعقاب الحرب الفارسية اسمه دوياً، تحولت الديونيزوسية من مواطن الزلل إلى مواطن الصواب، فقد أحال أورفس النار الغريزية إلى نور روحاني استمد مدده من المذهب الديمتري بما جاء به من عقيدة تنحصر في «الخلود».

من تلك الآي المنقوشة على صحف من الذهب نثرتها المعاول الأثرية من القبور الأورفية للقرن الثالث ق.م في جنوبي وادي التيبر ومن تلك الوثيقة، وثيقة بندار، العائدة بتاريخها إلى سنة ٤٧٢ ق.م، التي احتفظ لنا بها الزمن تطالعنا للأورفية تعاليم تتخذ أساساً لها ومحوراً عقيدة الخلود، ولكن لئن انبثقت الأورفية من الأصول الديونيزوسية ومن الديمترية استمدت المدد بما أتت به من مواد، فإنها تطالعنا بعقيدة عن النفس فيها من رجع الصدى الهندي اليوبانيشادي ترجيع، فنظرتها إلى الخلود إنما تتخذ أساساً:

عقيدة الصيرورة!

تسجل «وثيقة بندار» العائدة بتاريخها إلى سنة ٤٧٢ ق.م هذه العقيدة، فعلى صفحاتها نقرأ:

«لأولئك الذين عاشوا حياة أرضية رضية ووفوا بالعهد حياة أخروية جافة من الدمع... أن من آمن واتقى وعاش عيشة فاضلة فله العالم العلوي مكان وليس إلاّ بعد حيوات ثلاث يحياها على الأرض طبقاً لقانون الصيرورة!».

أجل... إن الصيرورة الأورفية صيرورة تمثل رجع الصدى اليوبانيشادي، فهي عقيدة تقول بعودة النفس إلى جسم آخر في حياة أرضية لتلقى على ما قد قدمت من أعمال الجزاء من ثواب أو عقاب، وقد تقتصر هذه العودة على ثلاث حيوات تجعل الأورفية الحياة الفاضلة لها شرطاً، وقد تتكرر هذه العودة إلى ما لا حصر له من المرات، وقد تتعدد صور الجسم حسب ما قد أتى المرء من الأعمال، ولكن الأورفية إذ تعتنق هذه العقيدة القائلة بجوهرية النفس وتعدد الأجسام فليس ذلك إلاّ أثر يعود بأسبابه إلى تلك البدعة القائلة بولادة ديونيزوس من عذراء ودلالة تدلنا على مدى تغلغل بل ورسوخ هذه البدعة الدينية في النفس الأورفية فليس إلاّ على أسس الأسطورة التي قد جرت تقول إن الرّب الإله قد أرسل شواظاً من نار قتل

قتلة ديونيزوس، وإن من هذا الرماد المتخلف تشكل جسم الإنسان، قد أقامت الأورفية في نظرتها إلى الإنسان قاعدة إليها استندت وارتفع صوتها يقول: إن الإنسان مكوّن من عنصر روحي قدسي هو قبس من هذه النار الإلهية ومن عنصر مادي هو من مادة قتلة ديونيزوس!..

وعلى هذه الأسس استرسل المنطق الأورفي يقول:

ومن ثم فالكائن الحي ثنائي وللسبب تشتمل طبيعته على النقيضين، وعلى هذا التناقض الإنسان نفسه دليل وبرهان، فهو بقدر ما فيه من وضيع الميول فيه من سامي الميول وليس لذلك تفسير إلاّ أنه ذو جبلة من الأرض وذات من السماء!

من هذه النقطة العميقة تشيد الأورفية فلسفتها الصوفية إذ تقول:

ومن ثم فإن على الإنسان واجباً ينحصر في انتزاع ذاته من هذه الجبلة الطينية التي تقيد رغباتها منه الذات، ذات العنصر الإلهي، الآتي على حقيقة طبيعتها قدسية البرهان في صورة نزوعها الدائم إلى العودة إلى عالمها القدسي وتلهفها الدائب إلى الاتحاد «بالذات الإلهية».

وهنا... هنا نلج إلى لب الصوفية الأورفية ونحن نصغي إليها تقول:

يقيناً إن على الإنسان، هذا الكائن الحي المقيد إلى عجلة دوراتها حلقات متتابعة من الولادة والموت، قد تمتد إلى ما لا حصر لها من المرات حتى ينطلق من هذا الأسر إلى الحياة الحقيقية ومقرها السماء، السعي إلى هذا الاتحاد الذي إليه في حنين وفي تعطش تتوثب منه الروح والذي متى بلغه تحررت منه النفس من ربقة الصيرورة ومحن الحياة الأرضية ونير نيران الألم.

من الانطلاق من هذا الأسر، أسر الصيرورة وقيود المحن وأصفاد الألم، لن يتمكن الكائن الحي إلاّ متى لذاته أطلق من أسر الماديات وعاش حياة تجردية خالصة التجرد إلاّ من المجردات!... وحينذاك.. حينذاك فقط يتحد الإنسان بالإله!.. ومتى بالإله اتحد، غدا **إلهياً** على الأرض!.. غدا صورة للإله على الأرض متجسدة!

وهكذا يطالعنا المحور الذي يستدير من حوله المذهب الأورفي والمنحصر في:

«الاتحاد الإنساني بالإلهي»

الاتحاد الإنساني بالإلهي، أو اتحاد الإنسان بالإله، إنما الغاية التي ينحصر فيها الهدف الأورفي، ولبلوغ هذه الغاية وسيلة تتلخص في: الطهر

الطهر بكليته وبما يحمل من معاني التطهر من الأدناس، وذلك لن يتوفر إلاّ بتجنب الشر بجميع أنواعه وأنواع خاصة من الأرجاس غنية عن التعريف، كالفاحشة والسرقة، وخاصة

كل ما يتنافى وقانون العدالة، فمطلب الأورفية ومبدؤها إنما العدالة... متى طبق الإنسان العدالة على نفسه قبل أن يطبقها على الآخرين فحينذاك... حينذاك فقط يذوب العنصر الأرضي ويشع في سطوع العنصر الإلهي!.

حالة... حالة، متى بلغها المرء أو بالأحرى حلّ فيها أو فيه حلّت أصبح فيها والإله واحداً أحداً وتلك هي: **«الوحدة»**!

بالوحدة يبلغ المرء مرتبة حري به، وهو إليها قد صار، أن يشير إلى الذات منه معرّفاً: **إني إلهي!**

بديونيزوس قد تشبّه، فحقاً له من ثم أن يقول: إني شبيه ديونيزوس على الأرض!

كلا!... بل يغدو له الحق أن يقول: **أنا ديونيزوس!**

بتصور الأورفية «الطهر» كوسيلة إلى هدف جعلته الاتحاد «بالذات» للذات بلغت الأورفية الذرى من ذروة القيم الأخلاقية التي بسببها تحولت الشعائر الديونيزوسية من طقوس غريزية إلى طقوس روحية تدرّجت في مراتب الشفافية حتى بلغت الدرجة التي عكست فيها آلام كل كائن حي، ومن ثم تجنبت الأورفية قتل الحيوان فقد عاف المريد الأورفي في تذوق اللحم لا فحسب فجاً بل وناضجاً، كما للنبيذ خمراً لم يعد المريد الأورفي يجرع لاهياً وإنما برشف رشفات منه في القداس الديني، رمزاً إلى روح ديونيزوس وإلى النشوة الإلهية نشوة الحياة والشباب الخالد المتجدد على مدى الأيام، اكتفى!...

وبتصور الأورفية لحياة أخروية، مكانها السماء وإرجاؤها الجزاء من ثواب وعقاب إلى عدالة إلهية، تحولت إلى الأورفية ناحية قوية من القلب الإغريقي طبعه هذا التحول بطابع استسلام لتصاريف الأيام عجيب، كما فجّر في أعماقه تيار الحب دفاقاً يجري كل متجه راوياً جميع صور الكائنات بالرحمة والتعاطف والإخاء حتى أمسى الأورفي يتسم بطابع من الهدوء النفسي هو وليد هذه العقيدة التي عرفت أدوار التطهير والتكفير وأحالت الجزاء إلى العدالة الإلهية وجعلت الجزاء رهيناً لمكان، مكانه «فيما بعد»!

أجل... أرجأت الأورفية الجزاء إلى «فيما بعد» وفي «فيما بعد» انحصر منها في العدالة الرجاء. ولكن!.. النفس الأورفية التي آمنت بحياة أبدية في عالم آخر مكانه العالم العلوي إنما من حول هذا العالم قد أطلقت للمخيلة منها العنان، فهذا العالم العلوي الذي قد جعلته مكاناً للمتقين إنما قد جعلته مكاناً لإطفاء لظى الغرائز التي كانت قد قيدتها عن الانطلاق هنا مطالب التقى!.. جعلته مكاناً لوليمة أبدية للراح والقصف والغناء وجعلت حياة المتقين فيه حياة ثمل أبدي، فقد جعلته مكاناً لأنهر من الخمر!.

كلا.. ليس من الغريب أن تجيء عن المكان العلوي هذه العقيدة في هذا المذهب الصوفي الذي تميز أفراده بالتقوى الشديدة حتى حسبوا أنهم أفضل من سواهم من سائر الناس لا فحسب بشعيرة التطهر التي صاحبهم عنها الاعتقاد بأن من لم يؤدها فسيذهب إلى العالم الآخر غير طاهر حتى اعتزل الأورفي غير الأورفي اعتزالاً ميز هذا المذهب بالعزلة عن الناس وباعتزال الناس.

كلا... ليس من الغريب، تحت أضواء علم النفس، أن تتصور المخيلة الأورفية جنة المأوى مكاناً يجري الخمر فيها أنهراً لأن الاعتقاد بجنة شأنها الشأن إنما من رواسب الاعتقاد القديم بديونيزوس، فإن لما كان ديونيزوس في الأصل رباً للخمر فقد ظل، في أعماق النفس الأورفية، مكانه مكاناً للخمر!..

في جنة رب الأصل منه للخمر رباً كان لا بد أن تكون النتيجة الحتمية، في تفكير المتخذين هذا الرب محوراً للعبادة، جنة يجري فيها الخمر أنهراً، وأن تكون هذه الجنة للمتقين جزاء حتى ما كان سعى الأورفي في دنياه تقياً إلا أملاً في المتع التي سيلقاها «فيما بعد» في هذه الجنة الثملة بما يعبق في أنحائها من فوح الخمر والتي كانت صور ما فيها من متع بين عينيه وهو يصلي تطوف!.

من اللامنطقي أن يكون العالم العلوي جنة فيها الخمر أنهراً تجري لمن اتقى هنا وعاف تناول الخمر وأن تكون مجالاً لإطلاق غرائز كانت قد قيدتها هنا قيود الفضيلة، ولو سأل المريد الأورفي نفسه هذا السؤال لهان عليه مذهبه، ولكن لا يسع الفكر إلاّ أن يرى بأن هذه الجنة كانت تستجيب وطبيعة هؤلاء الذين ما زالت أطيافهم بنا تطوف بين جدران المقابر الأورفية التي فيها قد وجدنا الكثير من الصفائح التي تصور صور هذا العالم الآخر وأهمها «صفائح بتاليا» التي وصلت إلينا، دون غيرها من الصفائح التي تناولت يد الزمن بعض فقراتها بالمحو كاملة، فعليها ترتسم صور هذا المكان العلوي الذي جعلت الماء فيه بارداً والظل فيه ممدوداً ظليلاً والذي ينافر في تكوينه وفي طبيعته العالم السفلي أو أسفل سافلين المؤلف من درائك للعذاب ومكان للأشقياء ولمن لم يكن نقياً فيه تمور للزبانية موراً وفيه يحوم السموم والريح اليحموم وبه يحدق من جميع جوانبه لهب الجحيم!.

ولكن!.. بتصوير الأورفية للطبيعة الداخلية التصوير الذي جعلت فيه النفس قبساً قدسياً وجعلتها جزءاً من «الوحدة الكلية» انبثق تيار تفكير جديد ابتدأ ينظر نظرة لم ينظرها العقل الإنساني من قبل في علاقة الإنسان بالعالم والعالم بالإنسان، فهو تيار قد تحول تحولاً بنا عن التيار الجماعي بمجافاته ميل الجماعات إلى الإيمان المتوارث واعتناقه المعرفة الأورفية وترديده عنها قولها:

إن الحقيقة هي أن الكل إنما في حقيقته، كالإله، روح!.. ولما كان لا شيء ما خلا الروح فالحقيقة، فإن الحقيقة هي أن: **«الكل في الإله»!**

بعثت هذه العقيدة الصوفية، القائلة بالكل في الإله، نزعة فكرية في الأرجاء العقلية لدنيا القرن السابع ق.م استحوذت على العقل الإنساني حتى سقراط.. فحتى سقراط لم يحد الفكر الإنساني عن أن يرى أن الإله هو المحور الجامع بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية أو النفس، وأن هناك بين الطبيعة والنفس الإنسانية والنفس الكونية أو الإله وحدة، موقناً أن الإله، لاشتماله نفسه على الحياة، مشتمل على هذه الطبيعة الحية النابضة بأنفاس الحياة!..

عبر هذا التيار وعلى أنغام هديره المتغني بأن «الكل في الواحد» بدأ مشرق الفلسفة، فإن «الوحدة الأورفية» هي التي مهّدت الأسباب لبزوغ تلك الفلسفات التي أثبت بها العقل الإنساني وجوده والتي صبغها التوحيد بين الطبيعة الخارجية والداخلية والألوهة، فليس إلاّ كأثر لهذه «الوحدة الأورفية» أن بدأ الفكر الإنساني انتفاضاته ونفض عن جفنيه وسن الليل الطويل وسبات مراحل الحداثة وتمرده على قيود القديم وتحرره منها ليطالعنا بفكر النضوج التي بدأت تسجل له وهو من مضيق الخيال الديني يخرج خارجاً على الدين الرسمي إلى رحاب الفكر الحر... لحظة انقشع ديجور العصور المظلمة لهذه البلاد وذاب السحر في فجر به أسفر للإغريق:

الفجر الفكري في أيونيا

هبّ العقل، والليل قد انقشع وانحسر السحر عن ألوان من الأنوار تفجر الفجر، يسجل من الخطى خطى حف بها من التاريخ الديني همس ما لبث أن انساب دوياً يتجاوب أن العقل قد بدأ يلعب في تاريخ الدين دوره الأهم والأخطر، فالعقل قد وثب ناهضاً وناهضاً امتد يتساءل «من أين؟.. وإلى أين؟..» فيلقى من الأسئلة هذا السؤال الذي سجل انبثاق:

العهد الفلسفي

استهل العهد الفلسفي تاريخه لحظة وقف العقل الإنساني أمام الطبيعة يستعرض هذا الدين الذي وجد نفسه فيه وليداً ويسبر له عن هذا الأساس الذي يقوم عليه صرح كل دين عقائد، وفي أرجاء دنياه تلفت والأيام به تجتاز من مراحل التعقل والاتزان والمنطق هذه المرحلة الزمنية، فوجد نفسه لئن كان يحيطه محيط فيه البلاد تنقسم سياسياً إلى أقسام، فإن كل مدينة بالأخرى مرتبطة وإلى بعضها بعضاً تشد الوثاق وحدة دينية لدين رسمي قد ضمّ لشتى المذاهب والصرح منه يقوم على أساس عبادة القاذف الصواعق، المؤلف السحب،

المستوي على العرش، الجبار المتكبر، الإله الذي تعرفه البلاد باسم «زيوس».. وتلفت العقل فوجد أن بين يديه لهذا الدين الرسمي سجلات؛ الهوميريات..

وفي سبر صابر تناول العقل الإنساني الهوميريات وقلب في محصٍ منها الصفحات فوجد سجلاً تؤلفه قصص!... وفي هذه القصص وبينها جال منه التفكير فاسترعى انتباهه أول ما استرعى من هذه القصص قصص «المعجزات»!

وأطرق مفكراً فوجد.. وجد أن في هذه القصص التي تنقسم إلى قسمين، القسم المتعلق بالطبيعة وما بعد الطبيعة والقسم المتعلق بالربوبة القبلية، قد تعثر العقل طفلاً وصبياً كبا، فقد تناول الطبيعة وما بعد الطبيعة ومشكلة الألوهة بتفسير يستجيب لمراحله التطورية وليداً ويافعاً فإنه قد قصّ قصصاً هي، بما تشتمل عليه من فجاجة، البرهان القاطع على فجاجته، وهي بما تضمه من غضاضة الدليل القوي على غضاضته وإن التفكير منه كان فجاً وغضاً!..

أَوَشك؟!.. يقيناً إن بالإيجاب يأتي الجواب فإن هذه القصص، قصص «المعجزات» بألوانها المتضاربة إنما تؤلف بكليتها اللامعقول واللامنطقي من الأحداث، فإن من هذه القصص، قصصاً محورها؛ الإنسال الإلهي والولادة الإعجازية!... الخلق المفاجىء!.. ابتلاع الوحش الإنسان ولفظه إياه حياً!.. إحياء الموتى!..

يقيناً من ثم!.. يقيناً إليه لا يتسرب شك أن هذه القصص الدينية ليست في مداها الحقيقي إلاّ... أساطير!..

ونحّى العقل الإنساني الهوميريات وعن هذه القصص الدينية التي تتحدث عن الخوارق أو «المعجزات» وجد نفسه، في مرحلة نضوجه، يشيح وتتهامس أفكاره: إنها ليست إلاّ نتاج مخيلة حدثة ومحض أساطير، وليسير على أسس هذا المنطق الرصين تفكيره رصيناً يرى: إن للدين الرسمي قد طاح تفكير فأطاح للجماعة عقل راح بإيمانه مغموراً يأخذ العقيدة عن السلف وعلى الإيمان بهذا اللون من التفكير الديني مجمع وحجته، لدى كل جدل، ما تلقيه شفاهه من نصوص الهوميريات لا تصرفه حجة عقلية عن وهم الإيمان بقدسية هذين الكتابين، كلا ولا يحوله منطق من الاعتقاد بأن السطور منهما تتضمن البلاغة والإعجاز، بل إن العقل الجماعي في وهمه هذا يتمرّغ سعيداً، فقد طاحت بلبه طرباً القصص التي تسجلها الهوميريات عن حياة «العائلة المقدسة» بما تضم هذه العائلة من أرباب وربات في التفاف من حول المستوي على العرش!.

يقيناً إن الدين الرسمي قد طاح عن الصواب تفكير باتخاذه دعامة له عائلة هي لا تختلف في اعتقاده عن البشر في شيء إلاّ بأن أفرادها خُلَّد وأن القوى منهم لقوى البشر تفوق، أما أخلاقياً

فلا شيء عن هذه العائلة يقال إلاّ أنها على أسوأ مثال من العيوب الخلقية وإلاّ أن في أخلاقها كل ما يقوّض صرح القانون الأخلاقي وللأسس منه ينقض وخاصة فيما يتعلق بالإله!.

إن فكرة الألوهية في الدين الرسمي بعيدة عن التنزيه، فذا هو إله الدين الرسمي.. إله، فيه تؤثر المؤثرات التي تؤثر في الضعاف من البشر!

إله الدين الرسمي إله يسترضى عن طريق تقديم القرابين إليه ترسل الضحايا محرقات وإليه ترتفع طيبة الرائحة ذكية الريح عبر الفضاء استرضاءً!..

إله الدين الرسمي إله، إليه مسترضية تسعى الجماعات يدفعها إليه الإيمان بأنه الساكن السماء والراكب متن السحاب، ويسوقها إليه الاعتقاد بأنه جبار، تهتز من خشيته الجبال، وأنه يرسل البرق ابتسام وعد بقبول الدعاء وجواباً بالإيجاب، وأنه يطلق الرعد قهقهة توعد، وأن الصاعقة في يده قذيفة يرسلها على من يشاء!

من ثم يقيناً!.. يقيناً إن الدين الرسمي دين واهي الأساس ضعيف الأركان باتخاذه محوراً إلهاً عنه جرت النصوص الهوميرية تنعته هذه النعوت التي تصفه بالجسدية والعنصرية والمكانية!.. فإن إلهاً شأنه الشأن إنما هزأ تهزه للبشر مشاعر وميلاً تميل به للبشر ميول وحتماً ساكنة فيه عواطف البشر فهو عرضة للغضب والرضا والسخط والندم وهذه صفات تتنافى وما يليق بمرتبة الألوهية!..

وجانباً طوى الفكر الهوميريات وعن ما قد حاكته المخيلة الدينية قديماً عن الإله ونشأة الوجود والأرباب وجد نفسه تمام الإشاحة يشيح... ومشيحاً عن الدين الرسمي الأوليمبي خرج ينظر إلى الوجود نظرة منهجها البرهنة والاستقراء والسير على طرق من متسلسل المنطق، فخرج يؤلف النظريات ويقيمها على الاستنتاج وينهج بها المنهج القائم على الحد والاستدلال والبرهان... فلقد نما بتطور العقل الإنساني التفكير النمو الذي سجل له لا فحسب انسلاخه عن الدين الرسمي ليسجل المرحلة الثالثة التي ينقسم إليها تاريخ التفكير الديني عند الإغريق وإنما استهلاله المرحلة الأولى من المراحل الثلاث التي ينقسم إليها تاريخ التفكير العلمي عند الإغريق والتي استهلها آتياً بالفلسفة...

وفي أحضان الفلسفة تعرض التفكير الفلسفي لنفس المشاكل التي تعرض لها الدين، بيد أن التفسير العقلي للتفسير الديني جاء مخالفاً تمام الاختلاف، ومن ثم بدأ انشقاق الهوة بل ميدها إلى هاوية تفصل فصلاً تاماً بين العقل الناضج والدين القائم.

بدأت هذه الهوة ترتسم بمعاول تلك الفلسفة التي تعتبر الأولى في تاريخ الفلسفات عند الإغريق والتي سجلت:

التفكير الديني في الفلسفة الطبيعية

في أيونيا، هذه الناحية من الشاطىء الغربي لآسيا الصغرى، سجل العقل الإنساني بلوغه طور النضوج ومن ثم انسلاخه عن طور الوهم وتصديق الأوهام، وعلى شاطئها الممثل المحور الاقتصادي بأهم مدينة تجارية فيه «مليطس» طلع مستشرقاً بتفكيره الوجود، غير معتمد على نقل أو نص، فاستحال عليه قبول دين يقوم على أسس الاعتقاد بإله على عرش قد استوى للسحب يؤلف وعلى من يشاء، هوى، يرسل الصواعق... ومستقيماً استقام لا يسلك ملتوي السبل، وليموّه يؤول ويحول صريح النصوص الهوميرية فيقول إن القول إنما مجاز...

كلا... متحرراً من قيود العقائد المتوارثة وقف العقل أمام الطبيعة يستشرف منها الأرجاء فلم يرَ فيها مكاناً لألوهة خالقة فالخلق إنما إلى الوجود بالعدم يعود بينما هذه هي الطبيعة أمامنا ومن حولنا منتشرة تعلن طبيعتها عن طبيعتها، فكل مظهر من مظاهرها يقف شاهداً على أن طبيعتها السرمدية وأن لا بداية لها ولا نهاية، كلا ولا عدم فيها ولا من عدم هي قد وجدت فإن العدم إنما بوجودها معدوم!.. ها هي ذي في وضوح تتجلى مترعة زاخرة تمور بالحياة وكل شيء فيها فروح تتفاوت مرتبته في مرتبة الحياة، وصوت الحقيقة في أرجائها يتجاوب معلناً أن كل شيء فيها حي لأنها هي نفسها نفس الحياة!

من ثم، والطبيعة نفسها هي الحياة وكل ما في الوجود من متعدد صور فحيّ بهذه «الحياة» وليس في حقيقته إلاّ منها وفيها مظاهر وظواهر، فإن الحقيقة هي أن رغم تعدد الظواهر والمظاهر واختلاف الأشياء فإنها: الوحدة!

طبعت الفلسفة الطبيعية الطبيعة بطابع الحياة واستنتجت، رغم التعدد واختلاف الأشياء، أن الوجود تنتظمه «الوحدة»... وعند هذه النظرة التي لم تر ألوهة خارج الطبيعة تلاقت في توافق خطى الطبيعيين الأول أو أصحاب «الطبيعة الحية» ومن أرجاء مدرستهم انساب صوتهم يعلن دنياهم أن: «الكل في الوحدة»!.

من أرجاء الصرح الأيوني ارتفع لأول مرة الصوت العقلي جهيراً رزيناً يقول: يقيناً إن الصرح الذي يعيش في أرجائه الدين الرسمي وهم لبنته أوهام إذ ليس للألوهة ولا للربوبية الأوليمبية وجود!.. إنما يوجد للوجود إله واحد هو روح الطبيعة فإن:

«إلى الوحدة.. وإلى الوحدة كل تعدد يعود!..»

طالس

في «وحدة» يلتقي الكل، فإن كل هذه المظاهر المتعددة والمظاهر المتباينة والأشياء المختلفة

والأشكال المتضادة ليست إلاّ صور حقيقة واحدة من حولها تتجمع الأدلة والبراهين لتعلن أنها: «الماء»!..

يقيناً إن طالس لم يخرج من سلطان الفكرة الدينية المسيطرة على عصره والعائدة بنشأتها إلى العقيدتين المصرية والبابلية فإن ملطس، هذه المدينة التي كانت تعتبر، منذ مشرقها في القرن السابع حتى مغربها في القرن الخامس ق.م، مركزاً للثقافة في العالم الهيلليني بسبب قيامها كقاعدة تجارية لا فحسب لكثير من المدن والمستعمرات الإغريقية حتى البحر الأسود وإنما لمدن كثيرة تقع على شواطىء البحر الأبيض في امتداد نحو النيل كانت مرتبطة سياسياً بليديا وهذه كانت على صلات ثقافية ببابل لارتباطها والحضارة البابلية الآخرة بمعاهدات تجارية ومنها نفسه أتى طالس بعلم الفلك، ثم هو لمصر قد زار ومنها أتى بمقاييس المثلثات والأبعاد أو علم الهندسة، ومن هنا أعاد طالس هذه الوحدة إلى الماء وقال كما قال الأولون: إن الماء أصل كل شيء، فإذا غلظ فهو هواء أو بخار أو نار، وإنما هو بنسخه لألوهة خالقه وألوهة طبيعية وقوله بالوجود الطبيعي الحي قد قدم لأول مرة في التاريخ الفكري محاولة تفسر الوجود تفسيراً علمياً حلّ محل الأساطير لأنه وإن ردد قول القدامى وقال إن الماء أصل كل شيء فإنه لم يعن بالماء المعنى الذي عناه القدامى وإنما اتخذ الماء منشأً لهذه الوحدة الطبيعية وأساساً لهذا الوجود الطبيعي الحي، فهو بنفثه في المادة الحياة وتعليمه أن الروح تحرك المادة وما من متحرك إلا وهو ذو روح أو منقاد لذي روح إنما يقول إن الحياة أو الروح لم تجىء خلقاً ولا إلى هذا العالم من عالم خارجي قد أتت، وإنما الحياة هي طبيعة الطبيعة نفسها والمادة شيء حي وإن هذه الحياة في الطبيعة هي أصل الوحدة وإليها كل تعدد يعود، فليس هناك إله خارج الطبيعة للطبيعة قد خلق، فإن الطبيعة شيء حي وكل ما فيها فبحياتها حي، كما أن ليس هناك إله من الطبيعة قد انبثق وانتظم من بعد فيها النظام، فإن المنطق ليرفض القول بألوهة شأنها الشأن هي بانبثاقها من الطبيعة تأتي بعد الطبيعة في الترتيب وتكون بالتالي، لانبثاقها من الطبيعة، أقل من الطبيعة شأناً.. فليس هناك إلاّ الروح من روح الطبيعة وحياة هذه الروح هي هذه الحياة التي تعود إليها هذه «الوحدة»!.

وبالرأي القائل بالوحدة تجاوبت الأرجاء الأيونية إيجاباً لتتردد في أرجائها الأصداء بأصوات علا من بينها صوت يؤكد هذه «الوحدة» ولكن على المنشأ منها يعترض قائلاً:

يقيناً إنها «الوحدة» ولكن كيف يجزم طالس أن المنشأ إنما الماء وأمامه للوجود عناصر أخرى لا يمثل الماء إلاّ أحدها؟!

أجل... لقد ترك العقل في خطوته الطالسية القصص الدينية واستغرقت الطبيعة تعقلاته

فاستخلص «الوحدة» وإلى مبدأ واحد أعاد أصل الأشياء. ولكن!.. إلى عنصر معين بالكيف عين المبدأ الأول بتأثره خطى القدامى ووقوفه عند «الماء» حداً، فكيف يمكن إرجاء الأشياء إلى عنصر معين بالكيف والعنصر الواحد لا يكفي لإثبات هذا التغير المستقر في الطبيعة، والتغير إنما طبيعة الطبيعة؟..

الماء قط لا يمكن أن يكون للوجود أصلاً ولا يصح أن يكون للأشياء مبدأ وإنما لا بد من أصل آخر هو من حيث الكيف معين ومن حيث الكم هو غير محدود، حتى يمكن أن ينشأ منه هذا التغير اللامحدود في هذا الوجود المحدود وأن يحدث فيه التحول إلى العناصر التي نعرفها في مكونات الطبيعة من تراب ونار وهواء وماء وهذا يحتم أن يكون هذا الأصل لكل عنصر حاوٍ ومن أصول الأشياء مزيج ومن ثم، والماء إنما عنصر من العناصر المعروفة في مكونات الطبيعة، واهية بل وفي تلاشٍ تتلاشى العقيدة القديمة المتخذة الماء أصلاً لكل شيء!

لأول مرة في تاريخ التفكير البشري يعلن بالفكر أن الماء إنما عنصر والعنصر قط لا يصح أن يكون مبدأ وقط لا يمكن أن تكون الحقيقة القصوى هي هذا العنصر الطبيعي وأن من الماء لم ينشأ كل شيء حي، وإنما في الماء تشكلت الحياة صوراً بدأت بالحيوانات المائية ومن هذه تطور البعض فكان البرمائي الذي بدوره تطور أيضاً حتى بلغت الحياة الصورة البشرية، ليجهر بأنه التطور وليس الخلق!.

ولأول مرة خلف العقل وراءه، باللامحدود، ديناً يقول بالماء وإلى رحاب أوسع انطلق فعاد بهذا «المزيج المركب» من أصل كل عنصر وقال إن الحركة منه حركة حية عملها آلي المظهر وأما طبيعتها فالعدالة، ومن ثم. والمبدأ الأول قد تحتم أن يكون أصلاً لكل عنصر وفيه يحدث التحوّل إلى العناصر التي نعرفها في مكونات الطبيعة، فيقيناً إن المبدأ الأول ليس الماء وإنما: «أبيرون» أو اللامحدود

بشيء مادي ليس «الأبيرون» فليس هو المادة متصفة بصفات اللامحدودية فليس اللامحدود شيئاً واحداً متجانساً وإنما مزيج من أصول الأشياء فهو شيء ليس له خصائص ولكنه نفسه حاو للتضاد.. هو شيء فيه تتجمّع هذه الأصول بعضها إلى بعض وفيه بعضها عن بعض تنفصل وأما كيف تتجمّع هذه الأصول وكيف تنفصل وكيف قبل أن يكون الانحلال تتكون الأشياء فذلك إنما رضوخ لحركة سرمدية فإنما اللامحدود متحرك وطبيعته حركة دائرية ودورية ليس لها بدء ولا نهاية، تخلخلها وتكاثفها دون سبب ظاهر متمايز يكون الكائنات والمكونات، فإن الحركة الدائرية في اللامحدود تجمع هذه الأصول والحركة

الدورية تفصلها بعضها عن بعض، وعلى شكل آلي تسير الحركة في اللامحدود ولكن!.. اللامحدود نفسه إنما قوة حيوية نفسها القانون الطبيعي ونفسها العدالة فإن هذه القوة إنما عن نفسها تعلن بما في الطبيعة من قانون يعادل الميزان فإن في الطبيعة «دكة» أو ميزان دقيق كلي الدقة، وهذه الدقة إنما شيء لا يعني إلا «تميز» أو العدالة فيقيناً من ثم إن إلى اللامحدود تعود «الوحدة» وإن الإله روح الطبيعة:

«ولكنه الوحدة **اللامحدودة** بل واللانهائي، الواحد لأنه حي.. ولأن ليس لتلك الحياة نهائية!..».

أنكسمندر

باللامحدود جاء العقل بفلسفة هي ولئن حد اللامحدود فيها تفكيره عن سؤال وما الحركة وما منشأها فاتخذ الحركة على أنها ظاهرة موجودة وجود الأبيرون فإنه قد سجل خطوة تقدمية بعدم وقوفه عند الماء حداً واجتيازه الماء ونفثه في الطبيعة حياة، فجاء بنظرة جاوبها بالإيجاب من داخل الصرح الأيوني صوت ارتفع يقول:

يقيناً إن الإله روح الطبيعة ويقيناً إنها «الوحدة» ويقيناً إن الماء قط لا يصح أن يكون مبدأ أول فإنما هي كبوة كباها العقل إذ بخطى القدامى تعثر وإنما يتحتم أن يكون المبدأ الأول أولاً: أزلياً أبدياً قادراً على النفوذ في جميع أجزاء الكون متحركاً باستمرار إذ تتحتم أن تكون طبيعة هذا المبدأ الحياة وبمعنى أصح أن يكون من الوجود بمثابة النفس. ولما كان لا شيء كالهواء بالنفس أشبه بل وهواء إنما النفس فإن الطبيعة شيء حتى ونفسها نفس، فاللامحدود إنما: الهواء!..

ها هي ذي الطبيعة وها هو ذا بموجوداته الوجود وهذه هي مظاهره وظواهره تأتي بالجواب إلى العقل المتقصي أصول الأشياء بأن بالتخلخل والتكاثف للهواء تتكون أصول الأشياء، ومن ثم فليحمل الهواء حيثما هبّ القول بأن المبدأ الأول إنما مبدأ معين بالكيف في دائرة غير معينة بالكيف هي اللامحدود، فاللامحدود إنما الهواء ومن ثم فيقيناً إن الإله روح الطبيعة و:

«إنه الهواء اللانهائي!..»

انكسمنيس

اعتبر العقل الإنساني في خطوته الراهنة النفس «هواء» وأن الهواء روح الوجود فطبع الطبيعة الخارجية بطابع الطبيعة الداخلية ولكنه وإن سجل على نفسه نفس العثرة التي استهل بها «طالس» نظرته فإنما قد سجل في نفس الوقت لنفسه تحرراً، واستقامة ضمت إلى ما قد سبقاها من خطوتين فكونت وإياهما ثالوثاً سجل في التاريخ الفلسفي فلسفة واحدة فلم

تختلف النظرات الثلاث من حول مبدأ واحد عن اعتبار الطبيعة واحدة وقوة وحيوية باطنة، والعدالة فيها قانون هو الذي يدفعها إلى التطور على نحو آلي المظهر حتى أن كل ظاهرة إلى ظاهرة تقود وكل سبب فلسبب سبب فطبعت الوجود بالحياة ونفثت فيه روحاً قانونه العدالة، ومن هنا نرى أن الفلسفة الطبيعية لم تك قط مادية فلم تسكن النظرة منها إلى الطبيعة، وهي صاحبة المادة الحية، إلاّ نظرة حيرى أمام طبيعة روحها الحياة ليس فيها مكان لألوهة خالقة بها أديان للشرق القديم تقوم ولا لألوهة طبيعية بها دينها الرسمي يقول فقد هوت أمامها العقيدة الهوميرية للدين الأوليمبي الرسمي القائلة بإله عنصره الجسدية وتحده المكانية وحياته دورات في مدار الأيام وله تقيد قيود المكان والزمان، وحلّ مكانها لديها تفكير ديني جديد قاعدته عقيدة تقول بإله هو من الطبيعة الروح والحياة، ومن ثم مهد الطبيعيون الأول الطريق لتفسير للطبيعة يقوم على أسباب طبيعية كانت نتيجة نشأة «العلم الطبيعي» فلم ينشأ هذا العلم إلا بهذه الفلسفة التي حاولت تفسير نشأة الوجود تفسيراً علمياً بعيداً عن قصص الدين وروايات السلف فكانت المحاولة محاولة قادتها إلى الإدلاء برأيها فاسترسلت تحدث عن كيف نظم الكون وتماسكته العدالة ولتقودها هذه المحاولة، وليس إلاّ عن المصدر الصوفي الأورفي قد تحدرت الفلسفة الطبيعية، إلى القول بأن هناك رابطاً يترابط به الكون، هو يقيناً:

«دِكِة» أو: القانون الكلي الدقيق

إلى فكرة «القانون الكلي» تطورت بنمو العقل «عقيدة القدر» فتحولت من عقيدة رضخ التفكير في نطاقها لفكرة أن المرء في أفعاله ليس مخيراً إلى فكرة آمن الفكر في رحابها أن هناك قانوناً عاماً يسير الأشياء ومبدأه الطريق المستقيم وأن واجب الإنسان ينحصر إزائه أن يسير في حياته سيراً مستقيماً لا انحراف فيه هو وفقاً لمقتضيات هذا القانون!.. فكرة، ما برقت في أرجاء العقل الإنساني وفي تبلور فيه التمعت إلاّ لتضيء هذه الأرجاء وعليه تستحوذ وإلاّ ليجد نفسه في رحابه الفلسفي نحو هذا «القانون الكلي» يتجه لا عابداً وإنما سابراً باحثاً لا متزلفاً وإنما متأملاً متمعناً لا يصوغ له الكلم تسابيح جوفاء وإنما منطقي يتعقله فيعود باليقين أن هذا القانون الكلي هو الرابط بين الأسباب والمسببات والذي على ما استن من سنن يسير الوجود وتسير الحياة... فكرة ما لبثت أن تحددت وفي الأرجاء العقلية رسخت كعقيدة طالعت العالم الفلسفي تحت اسم:

«العدالة السكونية»

أس التفكير الأيوني فكرة «العدالة» لتكون من بعد أس التفكير الإغريقي قاطبة فقد غدت

«العدالة الكونية» للأيونيين عقيدة خاصة وغدا «القانون الكلي» لديهم هو كل الوجود فقد حلّ هذا «القانون» لديهم محل الإله المستوي على العرش، وفي أفق تفكيرهم ارتسمت عن هذا «القانون» فكرة لم يروه تحتها إلاّ قوة لا تتمثل كما في الدين الرسمي في إله مشخص وإنما قوة عليا هي غير مشخصة بها يتماسك الوجود وليست هي في ما وراء الطبيعة وإنما في الطبيعة ذاتها، وعلى هذه النظرة تأتي هذه الفلسفة ببرهانها فتقول إن البرهان يأتي من نفس الطبيعة، فإن هذا القانون السرمدي إنما يتحول إلى العناصر التي نعرفها في مكونات الطبيعة وهذه إلى بعض تتحول بمقادير هي في تعادلها صورة منعكسة للعدالة وهذا هو القانون الطبيعي الذي للعدالة يعادل والذي بالعدالة يتميز:

«تميز» أو الميزان!

جافى العقل الإنساني في فلسفته الطبيعية التفكير الجماعي ومعتقد الدين الرسمي، فهو باعتناقه لفكرة القانون الطبيعي والوحدة الطبيعية الحية واتخاذه فكرة «العدالة» عقيدة في تفكيره أساسية قد نفى نفياً غير مباشر عقيدة القدر للدين الرسمي، ومن ثم فبديهي أن تكون نظرته هذه الناضجة نظرة لا تقر معتقدات الدين الرسمي بل ومنها متحررة كل التحرر تتحرر، وبديهي أن يوقن منه القلب بأن لا قربان لإثم غافر وإنما الجزاء من جنس العمل يسير طبيعياً وفقاً لقانون العدالة ومن ثم فإعلانه أن:

القانون الطبيعي هو شريعة الكون

يقيناً إن شريعة الكون إنما هذا القانون الطبيعي!. فإن هذا القانون الطبيعي روحه العدالة!..

وللعدالة تناول العقل بالتعريف، والفلسفة العقلية التي يمثلها لا تقبل إلا التوحيد، بأنها صارم قانون يخضع له الكون بمكوناته وكائناته أتم خضوع فإن كل ظاهرة من ظواهر «القانون الطبيعي» تتنفس بالعدالة وكل مظهر من مظاهره يتضوع بروح العدالة وقانون روحه العدالة إنما قانون أخلاقي يحتم على المرء السير ومقتضاه لأن الانحراف عنه إلى الهلاك يؤدي.. ومن ثم فإن هذا القانون الصارم هو نفسه:

«القانون الأخلاقي»

بالأخلاقيات خضب الفكر الناضج له ديناً به خاصاً، كما استخلص أن الخير للوجود صفة من حيث إنه اتباع القانون الكلي أو القانون العام، قانون العدالة... وهكذا نرى أن «العدالة» في رحاب التطور الفكري لهذه الفلسفة التي نشأ فيها التفكير الأخلاقي قد لعبت الأهم من أدوارها بل ولنراها قد طبعت بمؤثراتها التفكير الفلسفي طوال العهود السابقة على

سقراط وامتدت فخضبت ما قد جاء بعد سقراط من فلسفات... لعبت هذه العقيدة الفلسفية الأهم من أدوارها حين آمن العقل أن العدالة تقتضي العقاب فربطت الجريمة بالعقاب والعقاب بالجريمة وحين أمام الشر المترع الوجود تنادى العقل؛ أن الشر المترع العالم إنما **ضرورة**، فما الشر في حقيقة مداه إلا عبارة عن **التكفير** الذي يكفر به المرء عن ما قد ارتكب من أخطاء... وبذلك جعل العقل في فلسفته الطبيعية الشر لا طبيعة للوجود وإنما ممثل فيه للعقاب في صورة التكفير!

نظرة، بها أتى الفلاسفة الأيونيون وفيها وجدوا لمشكلة الخير والشر حلاً ليجري على أسسها منهم المنطق مسترسلاً يقول:

إن الشر المترع الوجود والممثل العقاب في صورة التكفير موجود لأن الوجود، **بطبيعته، خطيئة!**.

الوجود، بطبيعته، خطيئة لأن في الوجود معنى لطرد الوجود والحلول محله، فالولادة تقتضي الفناء والفناء فساد.. ومن ثم فحتماً أن يكون الكون دورة دورية يفنى فيها عالم ليولد عالم جديد، والكون والكائن صنوان... ولكن!... نشأة الكون وفناؤه وإفساده إنما أمر تقتضيه «العدالة» بما تقتضيه من ثواب وعقاب فإن العدالة علة أخلاقية هي نفسها شريعة الكون المحكوم بها الكون والكائن سواء والمنتشرة في صورة **القانون الطبيعي**!..

إلى «العدالة» انتهى العقل الإنساني في فلسفته الراهنة فآمن بأن طبيعة الطبيعة الحية وطبيعة الحياة نفسها «قانون» صارم عادل، فقد نظر إلى العدالة نظرة لا يتولاها الاعتبار الشخصي ومن ثم كان اقتناعه بأنها قط غير متروكة إلى هوى الهوى الفردي.. ثم استدار ومن هذه «الوحدة» التي اكتشف لها قانوناً اتخذ مما تمليه عليه من التزامات لنفسه ديناً فآمن بأن:

الدين هو القانون الطبيعي

لقد أيقن العقل الإنساني في طور نضوجه الراهن أن «العدالة» التي تحكم العالم الخارجي تحكم أيضاً العالم الداخلي وأن ليس من ثمة تفرقة بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية، فلا غرو من ثم أن يضحي للدين لديه معنى يتلخص في السير وفق شريعة الكون المنتشرة في هذا القانون الطبيعي المنتشر بدوره عن سنن تنحصر في مبدأ واحد يمكن تلخيصه بأنه: **الطريق المستقيم**

رسخت فكرة «القانون الطبيعي» في أفق العقل الإنساني ناضجاً واحتلت من أرجاء الفكر الأيوني التفكير فانتفت من مخيلته في محو صور ما قد رسمه العقل، حدثاً، كدين وبفكرة «القانون الطبيعي» انتفت لديه للدين القائم عقائد من أهمها كان انتفاء الطقوس،

ومن ثم بدأت تبهت حتى تلاشت تماماً القيمة التي يوليها الدين الرسمي للطقوس وأضحت عقيدة القرابين التي يقدمها العقل الجماعي لغفران الخطايا والآثام محل سخريته، وبالتالي برزت فكرة كانت حتماً أن تكون النتيجة الحتمية ليقينه بأن هناك قانوناً طبيعياً ينتظم الكون هي هذه التي سجل بها التاريخ الفكري أن:

أهم مستحدثات الفلسفة الطبيعية أو التفكير الديني الفلسفي الطبيعي:

انتفاء المعجزات!..

محال!... محال أن يعيش الاعتقاد بأن للطبيعة قانوناً، السنن فيه علل تابعة لمعلولات ومسببات ناتجة عن أسباب، جنباً إلى جنب مع الاعتقاد بالمعجزات التي يقول بها الدين الرسمي فالقانون الطبيعي إنما معناه انتظام نظام دقيق في الطبيعة أو بعبارة أكثر وضوحاً معناه أن الطبيعة طبيعتها النظام بينما الخوارق أو المعجزات فمعناها الفوضى واللانظام.. أما إذا كان هناك حقيقة قد حدث في الطبيعة حدث يعده الدين ومن ورائه العقل الجماعي خارقة أو معجزة فذلك إنما شاهد ودليل يقوم لا على أن الحدث معجزة وإنما على عجز الإدراك عن فهم وتفسير حقيقة هذا الحدث الطبيعي!

بهذه المعاول العقلية التي هوت على ما تمور به صفحات «الهوميريات» من قصص المعجزات، غداة بدا للعقل النظام المنتظم الكون فبدأ العلم، بدأت ترتسم الهوة الفاصلة بين البناء اللاهوتي للدين الرسمي والصرح العقلي للعقل، فقد شق «القانون الطبيعي» بين البناء اللاهوتي والفلسفة هوة كانت المعاول فيها هذه الفكر... فِكَر العقل الإنساني بالأيونيين بناة الفلسفة الطبيعية التي نفت نفياً باتاً وقوع «المعجزات» والذين قد توقفت منهم الخطى، فجأة، بالغزو الفارسي لأيونيا..

في سجل التاريخ السياسي صفحات عليها يرتسم امتداد الظل الفارسي على عالم الشرق القديم مقترباً إلى هذه المنطقة الإغريقية من النصف الغربي من آسيا الصغرى، حيث تقع مملكة ليديا وعلى عرشها كروسوس، بسيروس ٥٥٠ ق.م.. وليمتد هذا الظل بقمبيز بإخضاعه مصر وليشتد وضوحاً، حوالي ٥٢٢ ق.م، بداريوس الأول من به نشأت أول إمبراطورية آرية طوى جناحها الإمبراطوريات السامية وساد ظلّها عالم تلك الدنيا الممتدة من الإندوس عبر الدردنيل إلى النيل في اجتراف لأيونيا، ولكن.. هذا الظل الواصل إيران بالهند بمصر ببابل بالإغريق لم يبتر بين حلقات الفكر وإنما هو قد وصل هذه الحلقات سلاسل لا تتوقف عند الحلقة التي توقفت لديها، بمكسمانيس، الفلسفة الأيونية فلم يكن التوقف الفكري توقفاً في المجرى وإنما تحول إلى مجرى آخر سببته نفس هذه الأحداث السياسية التي

أقبلت بنسائم فكرية بها تأثر التفكير البشري وخاصة تحت مظهره الإغريقي أكبر تأثير فهذه النسائم التي أقبلت من الهند أقبلت فاغمة ترسل في الآفاق الإغريقية أرجاء فواحاً من عطر تلك الصوفية التي شفت فاستفّت من ثنايا الماديات بوارق الروحيات والتي ساعدت على اجتذاب التفكير الإغريقي إليها قد عملت هذه الأحداث بما ولدته في أعماق الشعور الإغريقي وقرار لا شعوره بألا استقرار وألا طمأنينة في خضم هذا التطاحن السياسي على الدنيا الذي كان سبباً أصاب منه النفس بهزة الصدمات!...

والهزات والصدمات النفسية؟..

الصدمات والهزات النفسية إنما للمشاعر الروحية أبداً إطلاق وللإحساس الصوفي دائماً إنماء وإحياء وللسبب، تلا الانهزام السياسي الأيوني امتداداً لموجة زهد اشتد خلالها إخلاد العاطفة الإغريقية إلى الديونيزوسية في صورتها المتطورة تلتها يقظة وانتعاش للأورفية فبعثت من مضجعها تلك «الوحدة الصوفية» وتجاوبت قوية في الآفاق نسائم «الكل في الواحد» تجاوباً ضاعفت من قوتها النسائم الهندية الصوفية حتى تلفتت النفس إلى نفسها لترى نفسها أنها حقاً نفحة قدسية!... بيد أن أبرز أثر تركته هذه الموجة الروحية كانت تلك الخطوة التي تركت للفاتحين اليونان الصغرى واتجهت إلى اليونان الكبرى وإلى الشاطىء الجنوبي لوادي التيبر، حيث انتزعت من المدن الإغريقية مدناً أبرزها كعبة العلاج والمعالجة كروتون.. ففي كروتون خلا العقل إلى نفسه فصفا ومن خلال هذا الصفاء العقلي صفت منه النفس وفي ثنايا هذا الصفو تحول من جديد إلى الحقيقة من الطبيعة مستشفاً، سابراً هذا الأساس الذي يقوم عليه صرح الدين في النفس البشرية فكان ذلك السبر الذي سجل مواصلة العقل الإنساني لخطواته واقترابه من هذا الأساس برياضياته التي وضعت أسس «العلم الطبيعي الرياضي» وشيدت في سجل المذاهب الدينية:

المذهب الفيثاغوري أو الدين الرياضي الصوفي

بفيثاغور، حوالي سنة ٤٨٠ ق.م، متمثلاً العقل الإنساني خطى على الأجيال فخطى بفكر عمله الرياضة وبنفس الزهد لها طابع والصوفية لها في الطبع طبيعة ومن ثم اجتمع للعقل في هذه الخطوة العلم الرياضي والفلسفة الصوفية فكونا مذهباً به جاءت نفس الظاهرة التي بها انبثقت من الديونيزوسية الأورفية فإن كان المذهب الأورفي ليس إلا كتجديد أو إصلاح في الدين الديونيزوسي كان قد انبثق فليس إلاّ كتجديد وإصلاح في الأورفية قد انبثق المذهب الفيثاغوري غداة أرهفت من فيثاغور المسامع إلى ما من ثنايا الأفق عليه يطلع من عطر هبات الصوفية الهندية وغداة إليها مشرئبة منه النفس قد تشربت لها تعاليم

واستوعب منه الفكر لها أهداف، فألقى على كتفيه الأردية الصوفية وتحول إلى المذهب الأورفي فتناوله بالإصلاح لينقلب الإصلاح من مذهب إلى مذهب ما لبث أن غدا ديناً، الشريعة فيه التزامات والالتزامات فيه تكاليف.

إن فيثاغور فيلسوف منه الآداب سمَت وفيه التقوى صحّت رياضي اللوالب الفكرية، مشبوب العاطفة الدينية، ومن ثم جمعت عاطفته ديناً وفلسفة وعلماً، هذا هو الدافع الذي تحت تأثيره اتخذ الصوفية ديناً، ولكن! إذا ما اتخذ العقل الصوفية الفلسفية ديناً فليس ذلك معناه إلا الإشاحة عن الدين الرسمي!.

وعن الدين الرسمي أشاحت النظرة الفيثاغورية نافرة لا فحسب من صور العبادات فيه وإنما عن لون التفكير الإلهي فيه، وبقدر ما نفرت من عقيدة ألوهة متجسدة بقدر ما اجتذبتها الألوهة في الأورفية وبقدر ما راقت لها منها فكرة «الواحد» فاتخذت «الواحد الأورفي» لفلسفتها أساساً، فإن الإله الذي تعترف بوجوده الصوفية الفلسفية إنما: **المجرد!**

«بالمجرد» غدا الكون لدى الفيثاغورية شيئاً تنتظمه «الوحدة» وغدت لديها هذه الوحدة مطوية في الإله!..

على هذا الأساس الثابت للعقيدة الصوفية قام فيثاغور متأملاً ظاهرة الدين متقصياً ماهية هذه الحاسة المستقرة بين الجوانب التي يقوم عليها صرح كل دين فاتجه سابراً الطبيعة، فوجد أن نظرة «الفلسفة الطبيعية» إلى الوجود، تلك التي إلى الطبيعة بها قد جاء العقل في أيونيا، إنما قد قصرت على اعتبار الإله في الطبيعة وأن الطبيعة هي الحقيقة الواحدة..

ولكن!. الطبيعة إنما يكوِّنها انسجام، به نفس «التفكير الطبيعي» معترف فإن الانسجام نفسه سبب لما تستدير عليه دائرة الطبيعة من الأسباب ونفسه عن نفسه يتنفس عبر أنفاس هذه الحركة الكونية مفصحاً بأن السبب للأسباب أو بالأحرى سبب الأسباب إنما: **الانسجام!**

هو من ثم هذا.. «الانسجام»؟...

سؤال، أطلق العقل يرتاد آفاق الكون باحثاً عن الجواب وفي أرجاء الكون طوف العقل متخذاً «عين النفس» أو البصيرة في تطوافه أداة و«بعين النفس» لا «عين الجسد» افترع العقل الطبيعة فعاد مقتنعاً يقول يقيناً إن الانسجام ظاهرة سببها: العدد!...

وعلى قاعدة هذا اليقين استرسل يشيد فلسفته فيقول: إذا كان الانسجام في الكون ظاهرة سببها العدد فإن مفتاح الطبيعة إنما: **الأعداد!**

إلى «عين النفس» تسفر عن طبيعتها الطبيعة بأنها ليست كما فسرها الطبيعيون أصحاب الطبيعة الحية بحقيقة لا تخرج بظواهرها ومظاهرها عن دائرة الأسباب، فليس للأجسام الطبيعية خصائصها البادية للحواس وإنما كل ما فيها فانسجام سببه الأعداد فإن «العدد» مفتاح الطبيعة والعدد إنما هو المكون للطبيعة والآتي بالوجود إلى الوجود.... فيقيناً أن:

«مبادىء الأعداد هي عناصر الموجودات والموجودات أعداد»!

فيثاغور

أسقط العقل في خطوته الراهنة من الأجسام الطبيعية خصائصها البادية للحواس ولم يحتفظ لها إلاّ بما فيها من انسجام عبر عنه «بالأعداد» فشيد الصرح الرياضي للوجود وابتناه بناء محكماً لبنته الحساب ومادته «الأعداد»!..

بهذا اللون من الفلسفة التي تفتقت عنها مخيلة فيها تلاقى للفلك البابلي لباب وللهند صوفية وحساب جاءت إلى العالم الإغريقي الفيثاغورية ولكنها لم تقف عند ما قد اتخذته، بالانسجام، للطبيعة من أساس بل على نفس هذا الأساس امتدت فقسمت «الأعداد» إلى فرادى وثنائيات ثم لهذه «الأعداد» جاءت بتعريف عبرت عنه بقولها إن:

جوهر الأشياء هو العدد ومن ثم فالأعداد: «جواهر»

«جواهر» إنما الأعداد وللأعداد تؤلف هذه «الجواهر» وبنسبة بعضها إلى بعض تتألف الأجسام الطبيعية وسائر ما للطبيعة من مختلف المظاهر والظواهر وبتشكلها أشكالاً يتشكل هذا العالم، من ثم فما الطبيعة إلاّ عالم، المرئي فيه محض وهم!.. عالم، خصائصه البادية للعيان والملموسة للحواس ليست سوى: «ظلال»!

إلى هذه النتيجة المنطقية التي تحتمها طبيعة النفس الصوفية وطابع التفكير الرياضي انتهى العقل الإنساني، فهو أمام «الوحدة الأيونية» قد وقف غير مقتنع «بالأسباب» فتخطى دائرة الأسباب إلى رحاب أوسع إليها قاده منطق هو وإن كان من فكرة «العدالة الأيونية» مستمد فإنه لا يقف عند الحد الذي وقفت لديه الفلسفة الأيونية وإنما من نفس هذه الفكرة يتخذ حجة يمتد بها إلى مداها المنطقي فيقول: إذا كانت العدالة شريعة الوجود فالعدالة من ثم سباقة على الطبيعة أو ما نسميه بالمادة!.

والعدالة؟ إن العدالة إنما **قانون**!.

والقانون؟. القانون إنما **عمل فكر**!.

من ثم والقانون إنما عمل فكر فيقيناً إن هناك فكراً **سباقاً** على الطبيعة وأعمال الطبيعة به

تغدو الطبيعة شيئاً تابعاً لمشيئة مفكرة والمشيئة المفكرة إنما: «عقل»!

ما هي من ثم ماهية هذا العقل؟

سؤال، إذا ألقيناه فليس إلاّ من ثنايا هذا العالم نفسه يأتينا الجواب، فإن هذا العالم المرئي إنما بخصائصه البادية للعيان والملموسة للحواس ليس سوى ظلال والظلال؟... الظلال لا يتأتى إلاّ من مصدر نوري، ومن ثم يكون الوجود ظلالاً لحقيقة هي تلك «الوحدة» وهي السبب لهذا «الانسجام» ويكون هذا العالم ليس إلا إشعاعاً متكسراً من سرمدي نور هو نفسه ذاك العقل السباق على الطبيعة ويقيناً إن هذا العقل إنما.. الإله!

أفرغ العقل الإنساني، تحت مظهره الفيثاغوري، الطبيعة في تلك «الوحدة» وجعل هذه الوحدة فكراً سباقاً على الطبيعة وأيقن أن هذا «الفكر» إنما نفسه «الإله» وعاد بالوجود إلى محض ظلال جعله صادراً عن مصدر نوري جعله مصدراً لهذا الانسجام وجعل هذا المصدر نفس الإله ثم تحول ينتزع البراهين ويقدم على صواب فلسفته البرهان فيقول:

إن الانسجام إنما برهان وجود تلك «الوحدة» وإن هذه «الوحدة» إنما برهان على صفات الإله **كمحض خير**.. وبرهان على ماهيته **كمحض نور**... وبرهان قاطع على وجوده **كواحد**:

«ولا بد أن يكون الإله واحداً!».

فيثاغور

ومفسرة لنشأة هذه الكثرة من تلك «الوحدة» تمتد الفيثاغورية فتقول: إن عن هذه الوحدة قد نشأت ثنائية انفصلت بدورها إلى كثرة هي هذا الوجود بأشيائه، أو بالأحرى هي هذا: «الهيولى» أو: المادة

وبالتكثر، عن طريق هذه الثنائية، صدر الشر، ومن ثم فسبب الشر في الوجود... هذا بينما ظلت الوحدة لا يمس وحدانيتها مساس ومن ثم فاتصافها المحض بالخيرية اتصافاً هو نفسه للإله صفة يتجلّى بها الإله مصدر الخير في الوجود...

وهنا يسترسل الفكر الفيثاغوري فيقول: إن بينما أضحت الثنائية تقابل «الهيولى» أو المادة، أضحت الوحدة، بهذا الانفصال، تقابل الصورة... وهذه الصورة المجردة هي؛ **الإله!**

صورة مجردة إنما الإله نفسها، وهي ذاك العقل السباق على الطبيعة، **فكر مجرد** ـ ونفسها، وماهية هذه الوحدة المنافرة لظلمة المادة محض نور، **محض نور** ونفسها، ولا شيء

في هذا العالم الوهمي حقيقة إلاّ النفس، فهي هذا الشيء الفاهم الوهم والفاهم الوهم إنما قط شيء غير وهم، **نفس**!..

حتى المدى امتد العقل الإنساني وبقدر ما امتد بقدر ما عن الدين الأوليمبي أشاح مستنكراً ألوهة يحدها المكان والزمان على عرش تقوم ولها من الأيام أيام ومن الأزمان زمن، فجاء بنظرة وسيلتها إلى الحقيقة لم تك «عين الجسد» وإنما «عين الروح» عين صفت فعكست عالماً طبيعته التجريد وفي رحاب فيض من صفو الانسجام الصوفي عادت بالمرئي إلى ظلال لحقيقة لا مرئية فتجلت لها الطبيعة ليست إلاّ إشعاعاً متكسراً من سرمدي نور نفسه. ولا شيء في هذا العالم الوهمي حقيقة إلاّ النفس، نفس فأيقنت أن الإله، الصورة المجردة والمحض فكر، إنما **نفس**!

فلسفة، تمثل فيما تلاقي الشعور الصوفي، بالشعور العلمي والعقلي تلاقياً ارتفع بها حتى الأفق الذي تجلى لها فيه هذا العالم عالماً سرابياً، تجلياً كانت نتيجته الحتمية الاعتراف بوجود النفس والإيقان بأنها هي الشيء الحقيقي الوحيد في هذا الوجود المتماسك بوحدة هي «الكل»، ولما كان الإله هو هذه «الوحدة» فإن الإله يكون، يقيناً، هو هذا؛ «الكل»!..

الكل إنما الإله والكل فيه موراً يمور ومن ثم، والإله هو «الكل» والكل فيه يمور، فالإله هو للكل كل ومن الكل للكل مصدر ـ ولما كان الكل يتكون من نفوس فإن الإله ـ وهو النفس، يكون: **نفس النفوس!**

باطل من ثم التقرّب بالقرابين وحرق المحرقات، وواهية لعبادات الدين الرسمي طقوس مادية يتخذها الإنسان لوصل صلته بالإله فالصلة إنما، والإله نفس والإنسان في حقيقته نفس، دائماً موصولة!.

أيها السائل عن الصلة!. ألا تتنبه إلى طبيعتك وأنك نفس وأنك **من النفس** التي يسميها الإله نفس؟.

أتسأل بعدُ ما الصلة وسؤالك نفسه إنما به اتصال؟!

إن الإله مجرد ومحض خير وصور العبادات في الدين الرسمي تتنافى وما للألوهة من صفات التجريد والخيرية، ومن ثم فالعبادة الصحيحة إنما تلك المنسجمة وما في روح الكون من الانسجام وهذه تنحصر في: **الطهر والخير**

الطهر والخير طبيعتان أساسيتان للنفس ومن صفاتها صفتان جوهريتان وفيها هما أصيلتان فإن النفس، وهي جزء من «النفس»، بطبيعتها طاهرة وبطبيعتها خيرة ولا يحول بينها

وإطلاق هذه الطاقة المختزنة فيها إلاّ؛ التحرر من ربقة الجسد «الهيولى» الصيغة أو بالأحرى المادي الطبيعة!.

صفا العقل الإنساني في راهن تفكيره فأدرك تفاهة صور العبادات في الدين الرسمي إدراكاً أعلن به رأيه جهارة واستبدل بالطقوس المادية طهارة الروح وعمل الخير، ومن ثم فلئن كانت أهم مستحدثات الفلسفة الطبيعية هي انتفاء المعجزات فإن من أهم مستحدثات الفلسفة الرياضية:

انتفاء الطقوس أو العبادات في صورها المادية!...

هذه هي الفلسفة وهذه هي التعاليم التي استهل فيثاغور إلقاءها في المسمع الزمني فشيد مذهباً صوفياً جعل الطهر فيه على المريد التزاماً وعمل الخير فيه على التابع له تكليفاً غداة إلى رحاب هذا المذهب توارد المريدون وتتابع الأتباع يعتنقونه ديناً، ثم وإلى من قد احتوتهم حلقات مذهبه من جماعة، تحول فيثاغور يربط بينهم برابطة عُقدتها الإخاء الصوفي ويرسلهم مبشرين مرددين عنه في الوعي العالمي النداء مطالباً: بالإخوة العالمية، والإخاء العالمي!.

الإخوة العالمية أو الإخاء العالمي حجر الأساس في هذا المذهب وشرط أولي من شروط الانخراط في سلك الفيثاغورية، وعلى المريد تطبيقه تطبيقاً تاماً حيثما ذهب وحيثما في أي بقعة من بقاع الأرض حلّ ففريضة عليه الاضطلاع بنشر هذه التعاليم التي راح يطبقها فيما بين التُبَّع فيثاغور لما جاء به من مذهب أقام له أصولاً وتشاريع بما قد أقام فيه من معتقدات أهمها:

خلود النفس

خلود النفس إنما المحور الذي تستدير من حوله الفلسفة الفيثاغورية، وجوهرية الذات أو الشخصية وبقاؤها إنما المعتقد الذي يمثل الجوهر من لب التعاليم في هذه الخطوة الرياضية التي وجهت الفلسفة الإغريقية وجهتها العقلية والروحية، كما تجلت من بعد بالسقراطية والأفلاطونية والأرسطية وبالفيثاغوريين الأول، وكما تركت في الأجواء الفكرية حتى القرن الرابع ب.م منها التأثير والأثر فليس إلاّ عن طريقها وليس إلاّ بسببها كان تأثير الرياضيات في الفلسفة، فهي أمام هذه المشكلة التي تمثل الأعقد من المشكلات الدينية قد أدلت برأيها غداة اقترب مشيدها سابراً الكائن الحي فأعلن:

إن الإنسان في حقيقته إنما نفس ومن ثم فإن بموت الكائن لا تموت الكينونة!

بموت الجسد لا تموت النفس أو الذات وأنى للنفس فناء والنفس، كجزء من «سرمدي

النور» بطبيعتها خالدة وعلى ذلك دليل الأدلة العقلية المرتدة عنها أدلة الحواس!

إن «الموت» إنما ظاهرة وعلى المرء ألا يأخذ الظاهرة على علاتها وإنما شأنه كرياضي، التغلغل فيما وراء الظاهرة إلى الحقيقة، لو تغلغل التغلغل للمس من نفسه النفس ولوجد ما يعود به مردداً الصدى من هذه التعاليم المنادية الإنسان:

يا أيها الإنسان:

إنك، أيها الكائن في هذا العالم، عن هذا العالم غريب! إنك نفس في داخل جسد هو القبر الحقيقي والسجن لك أنت أيها النفس!. أنت لست بجسد فموت الجسد لا ينالك، بل على النقيض فإن، وأنت النفس، موت الجسد للنفس إطلاق وللتفكير انطلاق!

إلى أين؟!

كلا لا تسألن إلى أين قبل أن تعلم أن للكون قانوناً اسمه «العدالة» وعلى أعمالك يجازي معاقباً ومثيباً...

أما وقد علمت الآن أن للكون قانوناً اسمه العدالة، وأما وقد علمت الآن أن الجسد سجن وأنك في نطاق هذا السجن تعيش أنت النفس، فاعلم أنك إلى النطاق الجسدي ستظل تقيدك إليه ما تأتي به من أعمال، فإلى هذا النطاق ستعود بك «عجلة الولادة» من جديد، فمن جديد ستعود بك دورة الزمن، حتماً، للجزاء سواء كان ثواباً أو عقاباً حتى يتم لك التطهر، ولما كان العذاب لتطهير النفس وسيلة فإن بالنفس الخالدة سيهبط الموت إلى الجحيم فيطهرها العذاب ثم إلى الأرض تعود فتحل جسماً آخر تحتم صورته ولون حياته ما قد سبق لك من أعمال ولما تزل بين الأرض والجحيم تتردد حتى يتم لك التطهير التام!..

عبق الأرج اليوبانيشادي الهاب من السفوح الهندية وتضوع فواحاً في أرجاء المخيلة الفيثاغورية وامتزج بعبير الأورفية منه العبير فتداخلت لديها «مشكلة النفس» في «مشكلة الثواب والعقاب» لتأتي كنتيجة حتمية:

عقيدة الصيرورة

«الصيرورة الفيثاغورية» مزيج من الصيرورتين، الأورفية واليوبانيشادية... نفس الأصول الأورفية ولكن نفس العوامل الروحية التي لمسناها في الهند باليوبانيشاديين الأول نلمسها في الفيثاغورية الأولى ـ نفس فكرة الصيرورة التي رددت في أنحاء الشرق القديم ـ وأضحت محوراً للتفكير الفلسفي الهندي والدين الهندوكي من بعد تتجاوب في هذا اللون من التفكير الفلسفي عند الإغريق وترديد سفوح الهملايا تردد سفوح الأوليمبس والبليبونيس مدوية؛ إن النفس خالدة ولكنها أسيرة الصيرورة!

أي شيء من أسر الصيرورة للنفس مطلق وللنفس محرر؟.. من أسر عجلة الصيرورة يحرر النفس ويطلق شيئاً واحداً هو:

الانسجام والانسجام!

أيها المستفسر عن ماهية وكيفية هذا الانسجام و«الانسجام»... أنسيت أن «الانسجام» إنما الكمال وأنه قانون الوجود وأن هذا القانون إنما العدالة والخير؟.. بيد أنك ما زلت تريد إيضاحاً أكثر، فإليك الإيضاح:

إن الانسجام و«الانسجام» يتلخص في الإصغاء إلى صوت بين جوانبك تسميه «الضمير» أبداً هو في داخلك يدوي آمراً بالخير ودائماً هو عليك يحتم؛ **حسن النية**.

أصغ إليه!.. أصغ إلى هذا الصوت الداخلي وسر وفقاً لما يمليه عليك من شريعة، فليس من محرر ومطلق من عجلة الصيرورة إلا؛ أداء الخير وحسن النية واعلم أن:

الدين هو الانسجام و«الانسجام»

بهذه التعاليم تحولت الفيثاغورية من مذهب فلسفي إلى مذهب ديني بتحتيمها على كل فرد في هذه الجماعة الدينية فريضة هو مكلف بأدائها... إن المريد أو المنخرط في سلك هذا المذهب مكلف بأن يقوم خلال تأملاته الخاصة بامتحان دقيق لنواياه وهذه هي الصلاة اليومية المفروضة على التابع هذا المذهب... صلاة، ليست هي غير عملية تقيدها كما في الدين الأوليمبي حركات وتلاوة مصطلح صيغ، وإنما هي صلاة عملية تنشر روح الحب والإخاء والسلام في مجتمع عالمي إليه امتدت النظرة الفيثاغورية فاحتضنته منها العاطفة بحب سخي شمل صور كائناته قاطبة دعمه صوتها الهاتف في أرجاء دنياها يعلم اللاتفرقة بين عنصر وعنصر وجنس وجنس. بل إن النظرة الفيثاغورية قد شفت فسمت بالطبقات في هذا المجتمع إلى نظام محض اشتراكي وكي تضمن ضمه بوحدة أُخوية سنّت على الفيثاغوري التخلّي التام عن الممتلكات الشخصية والترك الكامل للثراء المادي، فالمال الخاص بين الأُخوة مشاع!

ضمّت الفيثاغورية المجتمع البشري إلى بعضه بعضاً وبلحمة الأُخوة لحمت بين أفراده برباط صاغت مادته من أعماق النفس، فلا غرو من ثم أن تستجيب إلى مبادئها كل نفس استشعرت من ماهيتها النفس وأن تعتنقها ديناً تلك الفئات من الإغريق التي ولعت بالرياضيات واعتبرت الرياضة المفتاح للغز الوجود، وتلك الفئات الأخرى التي أدركت صواب المبادىء الفيثاغورية ومدى الأثر الذي ستتركه غداة ينمو العالم فيطبق مبادىء هذه الأخوة العالمية!..

الاضطلاع اضطلعت الفيثاغورية، هذه الفلسفة التي أنشأت مدرسة رياضية ووضعت حجر الأساس في صرح العلم الرياضي، بنشر روح الحب والسلام والإخاء العالمي فجاءت بمذهب تحول بالأتباع إلى دين طابعه محض صوفي فلسفي أساسه عقيدة «الوحدة الحلولية» ومن مستحدثاته انتفاء الطقوس أو العبادات في صورتها المادية وأما أهم مستحدث فيه فهو:

الاعتراف بفناء الجسد وخلود النفس!

ولكن... هذا المذهب الذي لم يرَ حقيقة غير الحقيقة الإلهية المنبثة في الكون كله بقوله بوحدة الوجود الحلولية أو حلول الروح الإلهية في الإنسان حتى يصبح الإنسان أكثر من إنسان وأقل من إله، والذي حلّ، كفلسفة رياضية، مكان الأيونية بإحلاله الأعداد مكان العناصر كمبادىء أولية وإعادته إليها الوجود باعتبارها أقانيم غداة، قال إن علة الانسجام إنما في الـ «بيرس» أو العدد وإنه هو الذي ينظم «الهيولى» المضطرب أو المادة الهوجاء في الـ «أبيرون» أو اللامحدود حتى بدأت الطبيعة تفهم كعالمٍ لا يسبر بسبر مظاهره وظواهره وإنما بعمليات رياضية، وبذلك حلّ لحل لغز الوجود، بدلاً من العمليات الطبيعية، للرياضة حساب ـ عالم ـ يكفيك كدح الذهن وقدح الخيال، فلمعرفة طبيعته القصوى يكفي تخطيط بضعة أعداد فالطبيعة إنما لغز رياضي حلّه للرياضة مفتاح!. هذا المذهب الذي يعود بنشأته إلى عمل فكر تجلّى له الوجود شبكة رياضية إنما قد تناول منشأه التغير، فإن هذا المذهب الذي جعل الدين شيئاً يتلخص في حسن النية وجعل الصلاة فيه محض تأمل وامتحان دقيق للنوايا والذي قد سارت به الأيام حتى القرن الرابع ب.م واعتنقه ديناً عن التبع تبع فبعدت بينه والمصدر قرون من الزمن، إنما قد باعدت بينه وصورته الأولى بدع أدخلها على هذا المذهب لا التبع الأول وإنما تبع التبع، فمن المفارقات المذهلة أن يلحق بمؤسس هذا المذهب القائم على الرياضيات، وهو الذي علم أن النفس نفحة قدسية ومن الكل جزء، التحول الذي آل إليه في المذهب الأورفي وفي الدين الأوليمبي، فقد أبى المذهب الأورفي إلا احتضان من تناوله بالإصلاح فحوله إلى نبي وأبى الدين الرسمي للبلاد، والطب بالفلسفة عهد ذاك مزيج، إلاّ ضمه إليه ومسحه بمسحة الربوبية، وهكذا حجب أتباع فيثاغور، فيثاغور الذي علينا يطلع عبر التاريخ الديني وقد غدا في المذهب الأورفي نبياً في يده «السحر» و«المعجزات» وفي الدين الأوليمبي ابن رب وحفيد إله!... أبت المخيلة المقدسة في كل من الأورفية والأوليمبية إلاّ أن تحل مؤسس الرياضيات والمتمسك بقانون طبيعي روحه الانسجام والتمسك به نفي للمعجزات إلى نبي، وإلاّ إلحاق السحر به، وإلاّ في يده إلقاء المعجزات، وإلاّ نفي أبوة «منيساركوس» له وبه إلحاق أبوة أبولو!...

كلا، إلى نفسه بين التبع لم يدع فيثاغور الادعاء وأنى له أن يدعي هذا وهو الذي علم وعلم ما للألوهة من صفة التجريد وأن المرء هو الذي بنفسه إلى الإله يرتفع وأن العدالة الإلهية تأبى لواحد على آخر تفضيلاً، ولكن أبى تبع التبع من الأورفيين إلاّ به إلحاق النبوة وأبى تبع التبع من الأوليمبيين إلاّ به إلحاق أبوة أبولو وهكذا من حيث أبى الأتباع إلاّ له تبجيلاً حولوه من شخصية تاريخية إلى شخصية أسطورية في دين كان موقف فيثاغور التفكيري منه مثلاً للتفكير الذي به يطالعنا:

التفكير الديني في فلسفة ما بعد الطبيعة

في النصف الأخير من القرن السادس ق.م تمثل العقل الإنساني بشخصية تطلع علينا عبر التاريخ الفكري تحمل اسم «كسينوفان» والعقل الإنساني إذ بكسينوفان، (٥٧٠ ـ ٤٨٠ ق.م)، يتمثل وعلى الأجيال يخطو، فليس إلاّ لتطالعنا خطوة خطت على الزمن فحفرت أسس «علم ما بعد الطبيعة» غداة تركت للفاتحين أيونيا وفي إيليا، جنوبي وادي التيبر، استقرت فأقامت مدرسة كانت أول مدرسة علمت «علم ما بعد الطبيعة» ولكن العقل الإنساني إذ بكسينوفان يتمثل، فليس إلاّ لتطالعنا خطوة جامعة بين الأيونية والفيثاغورية ومن ثم فجامعة بين الطبيعة وما بعد الطبيعة في وحدة، فإن صاحب هذه الفلسفة الأولى في ما بعد الطبيعة إنما أورفي النزعة فيثاغوري الروح لم يعجم منه الفكر الطبيعة إلاّ لتقوده إلى ما وراءها وإلاّ ليعود منها باليقين مؤمناً أن القانون الطبيعي إنما متثمل في الوحدة الجامعة الطبيعة، إلى ما بعد الطبيعة طبعت الوحدة الأورفية التفكير الإيلي في الطبيعة وما بعد الطبيعة ومن ثم لمبدئها القائل بأن «الكل في الواحد» جاوب منه الجواب بالإيجاب فردد:

«الكل إنما **واحد** والواحد إنما **الإله**»

كسينوفان

يقيناً؛ «إن الكل هو الواحد والواحد هو الكل! وإنه الحقيقة القصوى وإنه الكمال!».

كسينوفان

«للكل في الواحد» الأورفي جاء الجواب بالإيجاب بيد أن بمؤسس التفكير الإيلي شف الأفق الفكري واتسع منحسراً عن أفق جديد حوى الطبيعة وما بعد الطبيعة والزمن وما وراء الزمن والفضاء وما وراء الفضاء، ومن ثم فتحول العقل الإنساني نقطة التحول الحاسمة في تاريخ التفكير الفلسفي الإغريقي في المرحلة السابقة على سقراط، فهو قد لجّ عالم ما بعد الطبيعة لجاً لم يصده فيه شيء فحسب بل على النقيض احتواه هذا العالم وانتشر له كسر

مد واحتضنه كوحدة وأودع في أعماق يقينه اليقين أن الحقيقة قد خلت إلاّ من الوحدة المستعصية على التفرقة بين العالمين، فعاد من هذه اللجة المشعشعة بضياء الانسجام وطلع على عالمه معلناً:

إن الحقيقة إنما سرمد يضم الزمن وما وراء الزمن ويحوي الفضاء وما وراء الفضاء... سرمد جامع بين الطبيعة وما بعد الطبيعة بوحدة وإلى وحدته هو، كمصدر لهما، الأسباب من وحدة هذين العالمين تعود فبوحدته هو هما وحدة وكلاهما في هذه الوحدة المتسمة بطابع الانسجام ساكن ومن ثم فيقيناً أن:

«الانسجام هو الإله!»

كسينوفان

يقيناً إنها نفس النغمة الأورفية بنفس النغمة الصوفية ولكن الفكر الإنساني يرددها الآن تحت معنى جديد... فالعقل في هذه الخطوة قد تجاوز الظواهر الحسية التي وقف عندها بالأيونيين وتخطى ماهيات الرياضة التي وقف عندها بفيثاغور وبالفيثاغوريين وللجج الموضوع الأول للعقل لج فاحتواه سرمد احتضنته منه «الوحدة» وأسكنته إليها منها سكينة وله حدث فيها لها سكون بأن الحقيقة خلت إلاّ من وحدة أنفاسها السكينة وطبيعتها السكون، وما الكثرة المتغيرة والمادة المتحركة والصور المتعاقبة إلاّ مظاهر لهذه الوحدة ومنها ظواهر، فعاد ينادي:

يقيناً؛ «إن الأشياء عالم واحد»

كسينوفان

أجل... لقد ردّ فيثاغور من قبل الوجود إلى «الوحدة» ولكن فيثاغور إنما بقوله إن عن «الوحدة» قد نشأت الثنائية والثنائية هي «الهيولى» أو المادة أو الصورة إنما قد جعل الإله يقابل الصورة وبذلك غدت الأشياء تشاركاً فيما بين الإله والهيولى بينما أن الأشياء إنما عالم واحد!.

تحت هذا المعنى الجديد تتضح النزعة الواقعية أتم وضوح في هذه الفلسفة لا باستخفافها فحسب بعقيدة الصيرورة الفيثاغورية وبمناهج التصوف الفيثاغوري وما سوى ما في غير الفيثاغورية من مناهج التصوف وإنما بعدم تمسكها إلاّ بالفكرة الأساسية للتفكير الصوفي وهي «وحدة الوجود»، فإن النزعة الصوفية الفلسفية لتتجلى في أجلى تجليها عند كسينوفان بتوحيده بين الطبيعة وما بعد الطبيعة وتحدثه عنهما باعتبارهما «وحدة» هي «الانسجام» وأن الانسجام هو الإله الذي جعل الطبيعة منه شيئاً ولم يجعله من الطبيعة شيئاً فبالألوهة إلى

مقام الطبيعة لم تهو هذه الفلسفة وإنما، والألوهة لديها هي «الكل» والعالم بكليته في هذا «الكل» موراً يمور، رفعت مقام الطبيعة وجعلتها شيئاً من الإله!

كلا!... بالألوهة إلى مقام الطبيعة لم يهو الفكر الإنساني في راهن تفكيره إذ يقول:

«إن الانسجام هو الإله فهو الطبيعة والطبيعة هو»

كسينوفان

كلا... فهو إنما يردف؛

«إنما الإله هو الانسجام في الطبيعة، وللانسجام **خاصية العقل**!..»

كسينوفان

من ثم فيقيناً أن العقل الإنساني في خطوته الكسينوفانية لم يهو بإعادته الانسجام في الطبيعة إلى عامل عقلي تعلنه فلسفته فتعلم:

أن لهذا الانسجام في الطبيعة خاصية هي: **«العقل»**!.

قط لم يهو العقل الإنساني في راهن فلسفته بإفراغه الوجود في موجد رأى العالم فيه ورآه في العالم فبألوهيته إلى مقام الطبيعة لم يهو وإنما إليه رفع الطبيعة وجعلها منه ظاهرة للحس البشري محسوسة!. وقط لم يهو بمزجه بين الطبيعة وما بعد الطبيعة في هذه «الوحدة» التي أعلنها «وحدة عاقلة» وجعل حياتها للحياة وللعقل مصدراً!. قط لم يهو وهو إلى هذا «المصدر الحي» قد أضاف صفة العقل فخرج عن «الوحدة الطبيعية الحية» إلى «وحدة ما بعد طبيعية عاقلة» وهو يسترسل مقدماً على تفكيره الإلهي البرهان فيقول:

برهان قاطع يأتي هذا «الانسجام» على وجود هذا «العقل» المنتظم الطبيعة وما بعد الطبيعة في وحدة تعود بأسبابها إليه كواحد ودليل بيِّن يأتي هذا «الانسجام» على أنه المنشيء، بتفكيره، هذه الحركة الكونية المشاهدة التي يقف هو منها بمثابة: **«المحرك»**

والمحرك!... «المحرك» إنما غير متحرك فمنشيء الحركة لا يتحرك!.. ومن ثم فهو: الثبات!..

والثابت!.. الثابت لا يتغير ومن ثم فهو: **اللامتغير!**..

واللامتغير؟.. اللامتغير إنما غير حادث ومن ثم فالإله إنما: **السرمدي!**.

والسرمدي؟.. السرمدي إنما قديم ومن ثم فهو: **القديم!**

على اتصاف الإله بالقدم يقدم العقل الإنساني في راهن نظرته البرهان فيقول إن الإله سرمدي قديم لأن كل ما هو حادث ففانٍ والفناء صفة لا تتناسب والإله!..

حتى المرتقى من التفكير الإلهي ارتقى العقل الإنساني في رحابه الفلسفي ليأتي هذا الارتقاء الفكري، وعلى أسس التفكير الإلهي يقوم صرح التفكير الديني، بنتيجته الحتمية في تفكيره الديني فمن حول نفسه تلفت العقل فوجد نفسه يعتنق ديناً شخصياً به تفكيره إليه قد أتى فجرده كل التجرد من الدين الرسمي الذي وجد نفسه فيه وليداً!..

بهذا الدين الشخصي الجديد الذي فجره في حنايا وجدانه منه الإدراك لقوة غير مشخصة وجد العقل الإنساني نفسه لا فحسب يبتعد عن دين محور المعتقد الإلهي فيه قوة مشخصة، وإنما يجافي منه المعتقد للدين الرسمي معتقداً سجله «الهوميريات» أو هذان السجلان اللذان لصفحاتهما لا تنشر اليد منه وتطوى إلاّ ليعود التفكير منه باليقين بأن:

هذين السجلين المغلفين بغلاف العصمة ليسا بكل ما قد حويا من قصص خضبت بالقدسية إلاّ سجل تعثر العقل الإنساني يافعاً وصبياً، وأن السطور منهما الحافّ بها دويُّ البلاغة والإعجاز ليست في مداها الحقيقي إلاّ محاولته الاهتداء إلى الحقيقة من أمر الطبيعة وإلاّ تلك المحاولات التي اتجهت به، في مشكلة ما بعد الطبيعة، نحو القوة الغامضة المبهمة والمسفرة من خلال قوانين الطبيعة فخالها وهو على مدارج الحداثة يحبو مستوية على عرش تؤلف السحب وترسل الصواعق ليتجه نحوها عابداً عبادة محض ساذجة وكل الفطرة فطرية فمن مظاهر هذه العبادة الساذجة والفطرية تأتي هذه الصلوات التي تؤدى تراتيل ونصوصاً تحفظ وتردد!.. ومن ثم فيقيناً إن الدين الرسمي، الدين القائم الذي يدين به العقل الجماعي وبه يؤمن أنه الدين الحق، ليس بالدين الحق!..

يقيناً إن الدين الرسمي ليس بالدين الحق فإن الصرح منه إنما يتخذ قوائم ألوهة إله تقيده، باستوائه على عرش الجسمية وتحده بهذا الاستواء على عرش، المكانية وتصمه، بتصويره رجلاً، العنصرية!.. ثم إن إله الدين الرسمي إله تلعب به أهواء الهوى فهو يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويرزق من يشاء ويحرم من يشاء ولواحد يختار ولآخر ينبذ ولبعض يحب ولبعض يمقت وهذه صفات كلها مجتمعة تجافي وما تتسم به الألوهة الصحيحة من تنزيه وعدالة وقدرة ومقدرة... ومن ثم فيقيناً إن إلهاً ماهيته هذه الماهية إنما تهوي بألوهته ما يلحقه به الدين الرسمي من صفات ليهوي على إثره صرح الدين الرسمي أنقاضاً!.

إن الدين الرسمي يصور الإله تصويراً ألوانه من العواطف والغرائز البشرية ألوان!. وعن هذا الأفق المحدود يبتعد الفكر الفلسفي المتحرر من عقائد متوارثة هي عليه، بتوارثها، مفروضة!.. يبتعد منزهاً الإله عن الشبه والتشبيه، وثابت إنما الفكر في تجريده الإله من

الصفات البشرية وفي تنزيهه له من التشبيه فلا ينزهه مرة ويعود فيقول قولاً آخر ينقض ما قد سبق منه من قول! كلا فإنما للفكر إله عن إله الدين الرسمي جد قصي!...

حتى المنتهى من أعماق التفكير الرصين انتهى بالعقل الإنساني ناضجاً التفكير ليتجه منه هذا التفكير، في راهن نظرته هذه التي ينكر فيها «التعدد» ويقول «بالوحدة» ويرد الكل إلى «الواحد»، إلى أن يجرد هذا «الواحد» من الصفات البشرية والصورة الإنسانية ويعتبره حقيقة مجردة لا تتسم بسمات الجسمية والعنصرية وعليه لا تنطبق المكانية، وليتجلى له كلاً، كله فكر وكله سمع وكله بصر كلاً، هو للكل، «ككل» بقوة عقله، وهو اللامتحرك، يحرك:

«لقد صور الناس آلهتهم بصورة الإنسان، وإليهم من الإنسانية نسبوا الغرائز والعواطف ووصفوهم بالبشري من الصفات!.. إن من السخرية تصوير الإله على شكل إنسان!..»

كسينوفان

فإنما: «الإله ليس مركباً على هيئتنا ولا مفكراً مثل تفكيرنا!. مجرد هو هو فكر وسمع وبصر وكل... يحرك الكل بقوة عقله وبلا أداة وبلا عناء!»،

كسينوفان

إن الإله لدى الفكر فكر محض ومحض فكر لا يتسم بصفة الجسمية وعليه لا تنطبق المكانية، واستواء زيوس على عرش، لا يستوي! للفكر ألوهة مجردة منزهة غير مشبهة هي العقل المحرك ومن ثم فللعقل الحر دين لا يتسم بما به يتسم الدين الرسمي من عقائد ومعتقدات وصور عبادة... للعقل الحر دين العبادة فيه لا تتجه إلى ذلك المستوي على العرش الخاضع للعنصرية خضوعه للزمان والمكان ومن له من الأيام أيام تغدو بها حياته دورة في مدار الأزمان.. وإنما تتجه إلى هذا «العقل المجرد» المتسم بالثبات واللاتغير ومَن عنه ترتد صفة العنصرية ومَن عنه يرتد المكان والزمان... عبادة العقل للعقل إنما عبادة عقلية لا تلقيها الشفاه تقليداً ومحاكاة فإنما هي عبادة الفكر للفكر، عبادة الفكر للفكر لا يمكن أن تكون إلاّ عبادة محض فكرية..

لا جدل أن العبادة الصحيحة التي يجب أن توجه إلى من هو «فكر» إنما عبادة محض فكرية، وهذه تتلخص في: السعي نحو المعرفة وخالص التأمل

بالسعي نحو المعرفة وعن طريق خالص التأمل يستشعر الواحد **الواحد** استشعاراً لا فحسب للقلب مطمئناً وإنما للعقل أيضاً فستنحل أمام العقل، من تلقاء ذاتها، سائر المشاكل الدينية وخاصة أهم هذه المشاكل، مشكلة النفس... فإن هذه المشكلة التي تقف بمثابة مشكلة المشكلات الدينية لارتباطها بمشكلة الثواب والعقاب إنما أمام العقل محلولة في ضوء

العقيدة الفلسفية الآخذة بالوحدة. فالآخذ بالوحدة عقيدة تقتضي الاعتقاد بخلود النفس لارتباطها، كجزء من الكل، بالإله وهذا دليل قاطع لا فحسب على أن النفس لن ينالها فناء وإنما على أن ألوان العبادات التي تؤدى في الدين الرسمي، مخافة عقاب وأملاً في جزاء في يوم أخروي، إنما عبادة فطرية ساذجة تعلنه ديناً باطلاً إلاّ من الأوهام! من ثم فيقيناً إن الدين الرسمي باطل وقط ليس بالدين الحق!.

لأول مرة في تاريخ التفكير الإلهي والديني عند الإغريق يجابه الفكر الإنساني الدين القائم بلاهوته وكهنوته وبمن يحف به من جموع الجماعات ومن عقائده يقف موقف الكفر الصريح ويرفع صوته معلناً جهارة:

إن الدين الرسمي، الدين القائم، ليس بالدين الحق! إن الدين القائم يمثل توهم وأوهام العقل حدثاً وصبياً!.. ومن ثم فعلى العقل، ناضجاً، ألا يدين إلاّ بدين إلى تفكيره نفسه يستند نابذاً ديناً رسمياً يستند إلى تفكيرات الحداثة والصبا، متحرراً من توهمات وأوهام حومت في آفاق العقل يوم كان العقل حدثاً وسيجها بسياج القدسية غداة غدا صبياً!

نضج العقل الإنساني في راهن تفكيره فأدرك أن الدين الرسمي للبلاد دين باطل إدراكاً سجل له في تاريخ المستحدثات الفلسفية مستحدثاً جديداً، ومن ثم فلئن كان من مستحدثات التفكير الديني في «الفلسفة الطبيعية» انتفاء المعجزات وأهم مستحدثات التفكير الديني في «الفلسفة الرياضية» انتفاء الطقوس أو العبادات في صورها المادية، فإن أهم مستحدثات التفكير الديني في فلسفة ما بعد الطبيعة:

نفي الدين الرسمي للبلاد!.

ودوت ناحية من الأرجاء الفكرية الإغريقية بأن الفكر الإنساني، ناضجاً، قد نفى الدين الرسمي للبلاد بما يضم من عقائد ومعتقدات... وأنساب من هذه الناحية رجع الصدى لتتجاوب الأرجاء الفكرية قاطبة بالإيجاب وليسري فيها هذا الرجع دوياً يردد:

يقيناً!.. يقيناً إن الدين الرسمي في معتقده الإلهي قد ضلل في معتقدهم الإلهي الناس وإلى هومير وهزيود ينسب الجزء الأكبر من هذا التضليل بما قد أطلقا للخيال من عنان حاك بعد القصة القصة وكلها!. كل واحدة من هذه القصص الدينية فغير مستندة إلى العقل ومثيرة الشك ومصدرها شطحات الوهم وجامح الخيال!..

يقيناً!.. يقيناً لقد ضلل الدين الرسمي الناس وإلى النصوص الدينية يعود بأسبابه هذا التضليل، فقد باعدت هذه النصوص بين الإنسان والإله الحق من لا يجلس على عرش ولا يقذف الصواعق ومن الفكر يتجلى من ثنايا هذا الانسجام، وخاصية الانسجام العقل، «عقلاً»!.

أجل... بالإيجاب دوت الأرجاء الفكرية مستجيبة لما قد أتت به هذه الفلسفة من فكر وراحت ترجع منها الصوت أصداء تتجاوب بنفي الدين الرسمي للبلاد.. لا غرو من ثم بل ردُّ فعل طبيعي كان أن يهب الدين الرسمي تؤازره جموع الجماعات وينطلق ثائراً يرشق العقل الإنساني بسهام الكفر والإلحاد منادياً أن الفكر الإنساني قد خرج خروجاً مارقاً على موروث عقائد السلف وكفراً صريحاً بصريح قدسي النصوص قد كفر!.. ومن ثم بدأت الهوة، التي كان قد شقها الفكر في فلسفته الأولى بينه والدين الرسمي، تميد ميداً سحيقاً فصل فصلاً تاماً بين الدين الرسمي بلاهوته وكهنوته والعقل الجماعي وبين الفكر الإنساني في مرحلة نضوجه ليسجل التاريخ الديني بأن بكسينوفان نلج عهداً انقسم فيه التفكير الديني إلى:

دين الخاصة ودين العوام

بدينه الرسمي تشبث العقل الجماعي لا يرتضي لما قد ورث من دين تبديلاً!. غير دري أن ما قد ورث من دين ليس في حقيقته إلاّ فكر العقل الإنساني نفسه عندما كان على مدارج الحداثة يحبو وأنه هو الذي كان قد سيجها، حدثاً، بالقدسية وأن السلف من العقل الجماعي كان قد اعتنقها عنه ديناً.. غير دري بأن الدين الرسمي بمعتقداته التي بها هو يتشبث إنما هي أعمال مخيلة العقل في حداثته وأن العقل الإنساني قد بارح هذا الطور من الحداثة وولج مرحلة تطورية أخرى نتيجتها هذا التفكير الجديد الذي به قد أتى وهذا الدين الشخصي الجديد الذي به يدين!..

عن هذه الحقيقة غفا العقل الجماعي ومن ثم بدينه الرسمي تشبث وظلّ يواصل خطى السلف محاكاة وتقليداً، ففي معتقده قد رسخ أن الدين الرسمي، والدين الرسمي أبداً في المخيلة الجماعية الحق، إنما... الحق!...

ولكن... بهذا التشبث الجماعي بالدين المتوارث للبلاد اصطبغ الدين الرسمي بصبغة دين العوام، بينما بعيداً.. بعيداً في الطرف الآخر من الهوة السحيقة وقف العقل الإنساني مستنكراً له ديناً قيد العقل الجماعي بأصفاد الوهم وقيود وهم الإيمان ساخراً منه ديناً تؤمن به واهمة الجماعات، مؤمناً بدين شخصي إلى نفسه به أتى من ثنايا صفو الروح منه ومن خلال نضوج التفكير فيه ليصطبغ هذا الدين الشخصي، ومحوره ألوهة غير مشخصة وأصوله عبادة محض فكرية، بصبغة دين الخاصة!

أجل... بعيداً عن الدين الرسمي للبلاد بل وله مجافياً وقف الفكر الإنساني، في هذه المرحلة من نضوجه الفكري التي تمثل فيها بكسينوفان، مؤمناً بدينه العقلي إيماناً لا يعتمد

على سلف ولا على نص آخذاً المعرفة عبادة يتجه بها منه الفلك إلى من هو فكر، ومتخذاً التأمل صلاة إلى من هو مصدر وحدة العالمين وعلى هذا الإيمان المتفجر صافياً روياً من الينبوع العقلي امتد العقل الإنساني مؤكداً بشخصية أخرى فيها تمثل لحظة خطى على الزمن مسجلاً:

التفكير الديني في الفلسفة الطبيعية الصوفية

بهراقليطس، (٥٤٠ ـ ٤٧٥ ق.م)، على صفحة آسيا الصغرى متمثلاً العقل الإنساني خطى وعليه فضفاضة الأردية الصوفية ونسيجها هذه المرة محض فارسي غداة على عالمه طلع يرسل القول جهيراً ينادي؛ يقيناً إن الدين الرسمي قد ضلل العقل الجماعي، بل إن الأمر غير قاصر على الجماعات فمن المثقفين من ليسوا بأحسن حالاً من الجماعات!

إن الدين القائم قد ضلل حتى المثقفين من الناس!. تفكيراً حراً مستقلاً هم لا يفكرون ومن ثم فكل حقيقة فكرية وكل فكر عما ألفوه يظهر لديهم بمظهر خاطىء وغريب وسبب ذلك غريزة حب البقاء واللاتغير وطبيعة التشبث بتقديس كل قديم حتى وهموا أن مجرد التفكير في سبر ما هم عليه من دين إنما ضلال وأما تمحيصه فنفس الضلال!...

بالنداء، إلى الأرجاء الإغريقية قاطبة أرسل العقل الإنساني صوته وهو في «أفسس» حيث مقر عبادة «السيدة العذراء»، والسيدة العذراء في أفسس عهد ذلك «أرتميز»، قد وقف مستعرضاً هذا الدين الرسمي المؤمنة به جموع الجماعات، دين الأب السماوي الجاري فيه مذهباً مذهب السيدة العذراء.. وقف يستعرضه بفكر لديه قد غدا «القانون الطبيعي» و«الانسجام» عقيدة كما لديه قد غدا الإيمان بأن الإله ليس إلاً عقلاً مجرداً عقيدة، في مستودع الوعي منه قد استقرت.. بهذه المعتقدات العقلية التي إليه من رحاب الفلسفات الأخرى قد دلفت دنا العقل من الدين القائم ومنه اقترب سابراً، فعاد يعلن:

يقيناً إن التفكير الإلهي الفلسفي إنما عن التفكير اللاهوتي والانسياق الجماعي جد بعيد!... الدين الرسمي يصور الإله بصورة بشرية وعلى عرش يجلسه فيحصره في نطاق الكون ويجعل الكون عليه محتوياً وله حاوياً، بينما الفكر الفلسفي لا يصور الإله إلاّ بصورة تجردية تبرز بها الألوهة محتوية للكون وللكون حاوية ونفسها فيه «وحدة» وهي منه «الكل!...»

الاستهلال، استهل الفكر الهيراقليطسي تفكيره مستنكراً للدين الرسمي قيوداً في أغلالها يرسف، إلى جانب الجماعات، المثقفون ثم استدار بتفكيره باحثاً عن مادة جديدة يشيد بها لنفسه صرح دين جديد، ومن ثم تحول عاجماً الطبيعة، هذا الأساس الذي يقوم عليه صرح كل دين، وفي مسمعيه يدوي لكسينوفان صوت يقول:

«إن الحواس ترينا الأشياء على أنها متغيرة بينما الفكر منا فيكتشف أن الحقيقة إنما الثبات واللاتغير وأنه السكون»!...

السكون؟... أي سكون والأشياء إنما في مستمر حركة ومتصل تنوع ومتواصل تحول وتغير؟...

قط ليس ثمة شيء واحد ثابت والوجود، باستمرار، مستمر الحركة والتحول والتغير ولحظة واحدة الشيء الواحد عن التغير والتحول لا يتحول! كل شيء يتحرك ويتغير ومن حال إلى حال يتحول وأنت لا ترى الشيء الواحد ولا تلمس الشيء الواحد غير مرة واحدة فأنت لا تنزل النهر الواحد مرتين لأن أمواجه تطرد ولا تبقى كما لمستها في المرة الأولى، بل وأنت! أنت، نفسك، لنفسك لا تلمس إلاّ التغير والتحول فأنت تكون ثم لا تكون! من ثم أوَ «للشيء» حقيقة ثابتة حتى يصح عليه السكون؟.

يقيناً إن بالسلب يأتي الجواب فلا «شيء» ساكن ولا من الصيغ صيغة واحدة ثابتة أو دائمة الثبات، ولهذه الحقيقة يستبين الفكر منا رغم ما يكتنف الأشياء من سكون ومن ثم فإن الحواس ليست، كما قال كسينوفان، ترينا الأشياء على أنها متغيرة، وأن الفكر هو الذي يكتشف أن الحقيقة الثبات واللاتغير والسكون وإنما على النقيض فإنها هي الحواس التي ترينا الأشياء كأنها ثابتة لا متغيرة بينما الفكر منا هو الذي يستبين أن كل شيء طبيعته التغير والتحول واللاسكون ومن ثم فإن:

«الطبيعة طبيعتها التغير والحركة»!

هيراقليطس

التغير والحركة طبيعة الطبيعة!... كل شيء يتغير ويتحول بل ولا فحسب يتغير ويتحول وإنما ينقلب من حال إلى حال ومن ثم فإن:

«كل شيء لضده شامل ومحتوٍ»

هيراقليطس

لكل شيء حد لديه يتغير ومن الضد إلى الضد ينقلب إذاً فكل ضد إنما بضده مرتبط ومن ثم فإن:

«الوجود ملتقى الأضداد!»

هيراقليطس

هذه هي الطبيعة مسفرة تعلن أن «التغير» دائم التغير وأن «اللاسكون» إنما السنة التي يجري عليها الكون، فمن مظاهر هذا الكون ومن ظواهره ينبعث الصوت معلناً:

«إن الوجود وجود دفاق!»

هيراقليطس

كون كالكون لا يضحى فيه للشيء حقيقة ثابتة ومن ثم يمتنع، والعلم بالشيء لا يتألف إلاّ من قضايا ضرورية، العلم بالأشياء وبامتناع العلم بالأشياء يمتنع وصف الأشياء بخصائص ثابتة ومن ثم:

«ليس «الشيء» إلاّ ظاهرة متغيرة في وجود دفاق»

هيراقليطس

ولكن!. ثمة سؤال يجابه الفكر وعليه تجري لوالبه حيرى متسائلة:

من أي مصدر، ولكل شيء مصدر، متدفق هذا الوجود الدفاق؟!. وإلى أية حقيقة ووراء الظاهرة أبداً حقيقة، تعود بظهورها هذه الظاهرة؟!

يقيناً: «إن البصر والسمع ليس بشاهدي حق إذا كان العقل لا يستطيع أن يفسر ما ترى العين وما تسمع الأذن!»

هيراقليطس

كلا، لا جدل في أن الطبيعة صورة مدركة للحواس ولكن!. هذا الوجود في تدفقه وهذه الظاهرة بأشيائها إنما صور تصورها قوة طبيعتها تبدو إنما: الانسجام!

ولكن!. ما الانسجام وإلى «الأضداد» إنما تتحول الأضداد وبالأشياء إنما تتقابل الأشياء وليس إلاّ بهذا التضاد قد نشأ، بكائناته ومكوناته، الكون وهذه إنما نشأة تعلن أن سنة الكون؛ «سنة التنازع»!.

سؤال يلقيه الفكر في هذه الفلسفة التي بلغ فيها مرحلة من النضوج الفكري كف بها عن الاعتقاد الصبياني القديم بروحي خير وشر يتنازعان القدرة وبينهما الوجود قسم مشاع ومن ثم فتساؤله؛ إذا كان «التنازع» سنة عنها قد نشأ الوجود فهذا إنما للانسجام، كمبدأ أول، نافٍ ومنافٍ!.

فكرة، سحبت على الجبهة الهيراقليطسية سحب الحيرة وبها أفق التفكير الهيراقليطسي تجهم بيد أن سرعان ما هشت من هذا التفكير أسارير الفكر وأمامه الوجود إليه بسره يفضي مسفراً عجلة متحركة التضاد فيها أساس الانسجام وسبب النظام، فلولا النقائض لماكان النغم المنسجم ولولا التعدد لما كانت الوحدة!.. عن طبيعته القصوى أسفر للوجود وإلى العقل المتقصي جاء منه الجواب:

إن الوجود في تدفقه إنما صور تصورها قوة، يقيناً، هي؛ الانسجام!

يقيناً من ثم إن المبدأ الأول إنما «الانسجام» ومن ثم فإن التغير والحركة واللاسكون إنما في اللاتغير والسكون محض ظاهرة وإن الحقيقة ليست إلاّ وحدة ثابتة ساكنة مطلقة ينساب عبر هذا التغير منها الصوت هادراً هدير هذه الحركة الكونية يعلن أنه: التغير الدفاق في السكون المطلق!

من هذه النقطة، التي جاءت بالجديد من ألوان الفِكَر يجعلها التغير أساساً لطبيعة دفاقة في ثبات مطلق هو «الانسجام»، اتجه التفكير الهيراقليطسي اتجاهاً جديداً وبفلسفة جديدة في التفكير الإلهي أتى عبر استرساله قائلاً:

إن الانسجام إنما دليل على أن وراء الشيء المتغير والمتحول شيء لا يتحول ولا يتغير شيء لا يتطرق إليه التغير ولا يجوز عليه التحول وأنه هو القوة الكامنة في كل شيء والدائمة التدفق في كل شيء. شيء يأتي هو بالأشياء ويطوي في اللاشيئية الأشياء بينما يقف هو ثابتاً لا يتناوله التلاشي شيء قوي كامن في كل شيء وهذا شيء لا يمكن أن يكون به هذا «الشيء» إلاّ قانوناً، ومن ثم فإن هذا الانسجام إنما قانون فلا ثمة شك في أن هناك: «اللوغوس» أو؛ القانون!

هيراقليطس

يقيناً إن: «هناك المبدأ هناك القانون هناك النسب المستمرة الثابتة هناك «اللوغوس»!..

هيراقليطس

ولكن!.. اللوغوس أو القانون إنما عامل بموجب نسب مستمرة ثابتة لا متغيرة دليل هي على أنه لا فحسب قانون وإنما **قانون عام**، والقانون العام العامل بموجب النسب المستمرة الثابتة لا بد أن يكون **واحداً** وبالتالي **مبدأ واعياً** فلو لم يكن واعياً لما هيمن وبالتالي لما كان سبباً لهذا الانسجام ومن ثم فيقيناً:

إن اللوغوس **وعي عالمي**!..

والوعي العالمي؟..

الوعي العالمي يقيناً إنما؛ **الإله**؛

يقيناً: «إن اللوغوس الناموس الأعلى والقانون العام الذي يسير عليه الوجود في تغيره من ضد إلى ضد، وهو الشيء الوحيد الثابت في هذا الوجود الدائم التدفق، هو؛ **الإله**!..»

هيراقليطس

الإله هو «اللوغوس» و«اللوغوس» هو الإله!..

لا جدل في أن «اللوغوس» كلمة، في اللغة الإغريقية، تعني «الكلمة» بيد أن الهيراقليطسية تقول بها باعتبار «اللوغوس» هو القانون العام الذي يسير عليه الوجود في تغيره من ضد إلى ضد وأنه الشيء الوحيد اللامتغير في هذا الوجود المتغير، ولكن!.. باعتبار اللوغوس هو «الوعي العالمي» المتحرك به العالم وحدت الهيراقليطسية اللوغوس بالإله!.. وعلى هذا التوحيد تقدم هذه الفلسفة براهينها قائلة:

لقد اتضح لنا أن التغير مستمر ومتصل التواصل ولكننا أدركنا أن وراء هذا التغير للأشياء شيء هو العامل بالنسب المستمرة أو السنن الثابتة اللامتغيرة، ومن ثم أدركنا أن هذا الشيء هو **القانون العام** وأن هذا «القانون العام» العامل بموجب النسب المستمرة والسنن الثابتة إنما **مبدأ فكري** وأيقنا أنه مبدأ فكري فلو لم يكن وعياً لما هيمن وبالتالي لما كان سبباً للنظام وأساساً للانسجام... ومن هنا أدركنا أن هذا «المبدأ الفكري» المغيِّر والمحوِّل لا يجوز عليه بأي حال التغير والتحول وأنه **واحد** وبهذا الإدراك لهذا «المبدأ الفكري» أنه **«واحد»** أدركنا أنه هو هذا القانون وأن وحدته وحدة الأضداد لنعود باليقين بأن وراء هذا التضاد تقف تلك الوحدة الأساسية الكائنة في كل شيء، وأن هذه الوحدة هي «اللوغوس»! اللوغوس من ثم هو هذا الشيء الكامن في كل شيء، فإن اللوغوس هو تلك القوة الذاتية الحية في كل شيء والحي بها كل شيء، فلو لم يكن حياً لما كانت قد أترعت الوجود روح الحياة ولما كانت قد تضوعت في أرجائه أنفاس الأحياء، ومن ثم لما كان الإله هو نفس هذه القوة الذاتية الحية في كل شيء والحي بها كل شيء فإن الإله هو اللوغوس واللوغوس هو الإله من بالتالي يغدو، وهو المبدأ الفكري، إنما مبدأ حي. ثم، والمبدأ الحي إنما نفس، فإن هذه النفس إنما: نفس كلية!..

التوحيد وحدت الهيراقليطسية اللوغوس بالإله فوحدت بالإله الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية من الإنسان، ثم تحولت تبحث عن ماهية هذه الوحدة بين الطبيعتين فلجّت، والسبب إنما مطوي في ماهية الإله، لجة البحث عن «الماهية» على متن لوالب فكرية دارت تتساءل:

ترى ما ماهية الإله؟ ما الماهية من هذه القوة الذاتية الحية الكامنة في كل شيء؟..

سؤال لم يجل في الأفق الفكري الهيراقليطسي وعليه في إلحاح تدور منه اللوالب الفكرية إلاّ ليجد أن الماهية إنما **«طاقة»**.. **«طاقة»** لا يجد الفكر أصح تشبيهاً لها من النار ولا يجد لقوتها وكمونها تعبيراً أوفى من التعبير عنها بالنار، فانساب من شفتيه عنها التعريف:

«إنها النار!..»

هيراقليطس

ولكن!..

ناراً هي لا كالنار وليست هي بالنار!.. ليس المعنى الحي المادي كما يدرك الحس النار الحسية فإن:

«هذه النار هي الشيء الحي النافث في الوجود الحياة والتي نفسها نفس الحياة فهي متغلغلة في كل شيء ومنها شيء لا يخلو، فإنها اللوغوس هذا الوعي العالمي الذي كلهب رقيق يكتنف كل عمليات هذا التدفق السرمدي!».

هيراقليطس

عن طريق الإدراك الوجداني إن لم يكن عن طريق الاستدلال المنطقي وجد هيراقليطس أن في التغير تكمن طاقة صور بها الأشياء تصويراً حسياً لم يجد اسماً يعبر عنه إلاّ هذا الاسم الذي جاء مع الفاتحين من الهضبة الإيرانية والمتخذ لديهم على المبدأ الكوني رمزاً وهذا هو الأثر الفارسي في هذه الفلسفة التي نلمس تأثرها بهذه العقيدة الفارسية هذا التأثر غداة أعلنت أن الماهية من هذا «الوعي العالمي» الذي تسميه منا الشفاه الإله والذي قد أدرك منا الإدراك أنه هو اللوغوس، إنما «سرمدي النار»!

على أسس هذا التفكير استرسل الفكر الهيراقليطسي يرى:

أن عن هذه «النار السرمدية»، هذه «الطاقة» المتغلغلة والكامنة في كل شيء التي لئن عبر عنها بالنار فهي ليست كالنار ولا بالنار هي، قد صدر بكائناته ومكوناته الكون فإنما هي الماهية من «اللوغوس» هذا الشيء الوحيد الثابت في هذا الوجود الدفاق ومن هو إنما:

«الإله... المبدأ الفكري والوعي العالمي الذي عن أزليته صدوراً قد صدر بموجوداته الوجود!»

هيراقليطس

شفّت هذه النظرة الصوفية بتغلغلها إلى ما وراء الأشياء المتغيرة ولمسها في التغير اللاتغير واستشفاف العقل واستشعار الوجدان منها أن في التغير تكمن «الطاقة» التي لم تجد اسماً أكثر إفصاحاً عنها من النار، فبهذه «النار» قد رحّب الأفق أمام الفكر واتسع اتساعاً لم يتسعه من ذي قبل، إذ ملأ أرجاءه قانون عامل بنسب مستمرة هي السنن الطبيعية الثابتة اللامتغيرة في ثنايا نفس التغير والدالة على أنه «قانون عام»... وبهذا «القانون العام» رحب

الأفق فانحسر عن أفق جديد رأى العقل فيه أن تفكيره قد غدا أشد صفاء وأن لوالبه الفكرية قد غدت أكثر عملاً، فهي قد قادته إلى الرحاب الذي أيقن فيه أن هذا «القانون العام» العامل بموجب النسب المستمرة الثابتة إنما «**مبدأ واعٍ**» فلو لم يك واعياً لما كان يهيمن على الوجود هذه الهيمنة الرابطة الكل بوحدة لها الكل يرضخ وأنه، بالتالي، «**مبدأ حي**» فلو لم يك حياً لما كانت هذه الحياة التي يمور بها الكون موراً ويعج بها عجاً ومن ثم فإيمانه بأن هذه «النار» إنما الماهية من هذه النفس الكلية، الوعي العالمي، الإله، القانون العام الذي تسير عليه الطبيعة من ضد إلى ضد والمهيمن على الوجود بسنن بسببها لم يجد الفكر أصح تسمية له من:

اللوغوس!

تحت هذا المعنى تنادي العقل الإنساني في راهن فلسفته أن «اللوغوس» هو مساك الوجود وأنه هو النظام الذي يحيط به ويتغلغل فيه، وتحت هذا المعنى استرسل يقول إن اللوغوس لا يضع إلاّ الصالح من الأمور، بيد أن ليجد نفسه قد تهافت الصوت منه فجأة فلوالبه الفكرية قد تمهلت تسائله:

إذا كان اللوغوس أو القانون العام مساك الوجود وأساس النظام المحيط به والمتغلغل فيه وإذا كان لا يضع إلاّ الصالح من الأمور فما الشر؟!

الشر؟! سؤال عنه الإجابة، يقيناً، تأتي من نفس ثناياه!. فإننا إذا كنا قد استبنا أن الكون محكوم بقانون أفلا نستبين أن القانون إنما كلمة معناها العدالة وأن العدالة إنما صورة للخير؟!

إن اللوغوس إنما القانون والقانون إنما بروح الخير يتنفس ومن ثم فليس للشر في الوجود إلاّ **صفة باطلة** يغدو بها ليس للشر مكان إلاّ في وهم الإنسان!

«إن عند الإله كل شيء خير وجميل ولكن الناس هم الذين يعتبرون بعض الأمور خيراً وبعضها شراً!»

هيراقليطس

الأنانية طبيعة الإنسان!.. إن الإنسان إذا أراد شيئاً وله لم ينل فذلك عنده شر!.. ألا يلتفت الإنسان إلى نفسه فيدرك أن من الصالح له ألا ينال كل ما إليه يتوثب ويصبو؟!

ثم كيف يكون للشر صفة حقيقية والإله هو اللوغوس واللوغوس هو الإله؟!... يقيناً إن الإله هو الخير لأنه هو اللوغوس، فاللوغوس إنما النظام الذي يضع كل شيء في موضعه والآتي بدوره برهاناً لا فحسب على اتصاف الإله بصفة العدالة وإنما على أن الإله مجسم في هذه العدالة الكونية، فإن هذا الجيشان الدائم المستخرج من كل شيء ضده والذي تتم

به الألفة إنما البرهان على هذه العدالة لأن هذه الألفة بين الأضداد المتقابلة لا تتم إلاّ بميزان العدل الذي لا يني ولا يغفل عن تسوية المقادير وزيادة الناقص ونقص الزائد مما يدل دلالة قاطعة على وجود عدل مصدره الإله وهذا دليل يحتم الإيمان بأن:

«الإله، لا شك، مساك العدل في الكون!»

هيراقليطس

من ثم فيقيناً.. يقيناً ترتد عنه موجة الشك في أن الإله، وهو المبدأ الأزلي الذي عنه قد صدر الوجود وهو نفس القانون، إنما: الخير!.

لا ثمة شك أن العقل الإنساني في فلسفته الصوفية الراهنة قد شف شفوفاً نأى به عن أهواء الهوى ونزعات الأنانية، فاستشف أن طبيعة الوجود إنما الخير وأن الشر صفة فيه باطلة، استشفافه أن الوجود مترابط بوحدة مصدرها هذا المبدأ الفكري الأزلي الخير والعادل الذي استشفه نفساً كلية ماهيتها نار سرمدية عنها قد صدر الكون بكائناته ومكوناته صدوراً تنتفي به نفياً قاطعاً عقيدة الخلق الدينية، فهو إنما بفلسفته قد جاء بشيراً بعقيدة الصدور الصوفية غداة أرسل الصوت منه جهيراً يعلن:

«أن الطبيعة لم يخلقها خالق!... أن الإله ليس بخالق!... أن الوجود لم يخلق وإنما كان مُذ الأزل ويكون الآن ويظل كائناً في كل آن!.. وسيكون سرمداً بأنفاس سرمدي النار!».

هيراقليطس

عن الإله الكون بكائناته ومكوناته قد صدر ومن ثم فإن الطبيعة، هذه الصورة المدركة للحواس، إنما في حقيقتها صورة مجسّمة من «النار»!...

بصورها وبمظاهرها المختلفة والشتى هذه الصورة إنما صورة الإله.. فإن:

«كل شيء إنما مظهر من «النار»!..»

هيراقليطس

أوشك؟! «إن الإله هو الطبيعة!.. هو الطبيعة ذات المظاهر الشتى!. إنه يتخذ المظاهر والأشكال على اختلاف هذه المظاهر والأشكال، فهذه المظاهر والأشكال الشتى إنما تقف من الإله تماماً كالنار التي إذا ما أضيفت إلى شيء فإنها تتخذ اسم الشيء المحرق بها!... كالنار وهي تمتزج بالأبازير فيسمى كل منها باسمه لا باسم النار!»

هيراقليطس

من ثم يا أيها المسائل؛ أموجود إله أم ليس لإله وجود وإذا كان له وجود فأين هو؟...

ويا أيها الباحث ما من الإله الماهية، ويا أيها الحائر عن الصلة بينك وإياه وبينه والعالم... كفاك سؤالاً وكفاك بحثاً وحيرة فإن العقل الإنساني، في مرحلته هذه الناضجة، لك يقول: إنه موجود!...

موجود هو... أمامك الطبيعة سفر مسفر، على صفحاته المنتشرة مسجل له وجود... موجود هو في هذا «الانسجام» المترابط به الكون والمثبت له وجود وأما ما منه الماهية فإن ماهيته مسفرة من خلال هذه «الوحدة» عبر أنفاس هذه الحياة وأما الصلة بينك وإياه وبينه والعالم فموصولة رباطها هذا «الانسجام» ولحمتها هذه «الوحدة» ومظهرها هذه النفوس، فإن كل نفس إنما «الجزء» وهو «الكل» وصلة الجزء بالكل أبداً موصولة في غير حاجة إلى وسيط أو هادٍ!

من ثم لا تسألن أين الإله ولا ما منه «الماهية» ولا كيف الصلة، فإنك للماهية لامس وبالصلة شاعر وإن العين منك، في كل حركة من حركاتها، لألوهته ترى!...

كلا!... كلا، إنك لن ترى الإله جسداً، في السماء على عرش قد استوى، فالإله الحق إنما عن إله الدين الرسمي للبلاد كل الاختلاف مختلف وإنما، وهو الروح النابضة في كل شيء، روحاً أنت له ترى!...

في إطار الطبيعة، وعلى قماش هذه الصورة، المدركة للحواس، أنت ترى الإله... في هذه الصورة. بصورها الشتى، تراه وبها تراه ففي هذه الصورة متجلي الإله!.. خذ مثلاً، الليل والنهار... لا تسل ما هو الليل وما هو النهار فإن:

«الإله هو الليل وهو النهار!.»

هيراقليطس

وخذ مثلاً آخر... لا تسل ما هو الصيف وما هو الشتاء فإن:

«الإله هو الصيف وهو الشتاء!..»

هيراقليطس

من ثم أقلع عن فِكَر الحداثة اقتلع كل ما قد أودعه الدين الرسمي بين جانبيك من عقائد ومعتقدات ومن نفسك استأصل وهم هذا الدين الذي يتشبث به العوام!.. كف موج المخيلة منك عن تخيل إله إليه جنحت المخيلة الهوميرية والهزيودية فصورته جسداً في السماء على عرش قد استوى واعلم؛ أنك إذا تشبث منك التفكير بدين العوام وخال منك الخيال للإله هذه الصورة فآثم أنت وعن الصواب منحرف ونصيبك من الإيمان، الحق وهم الإيمان فإن

الصورة التي يتشبث بها الدين الرسمي على أنها الصورة الحقيقية للإله إنما صورة صورها العقل الإنساني نفسه يوم كان حدثاً تلعب بمخيلته أوهام الحداثة وتطفو على صفحة ذهنه الغض أطياف الصبا!...

بل وأنى؟! أنى يمكن للعقل منك، ناضجاً، الإيمان بأن للإله جسداً وفي السماء له عرش فتحده، وهو الوعي العالمي، بالمكان والزمان؟! وأنى يمكن لك، ناضجاً، الإيمان بأن له يداً يرسل بها الصواعق قذائف على من يشاء فتصمه، وهو المبدأ السرمدي الخير، بالشر وأهواء الهوى؟!...

من ثم فما لك؟!. ما لك ولعثرات الصبا وأوهام الحداثة وما لك وللدين الرسمي المتشبثة به الجماعات أنت تقتفي دون تمحيص ودون تفكير؟...

ألق ما في يدك من صحف سيّجت بالقدسية منها النصوص وحف بالسطور منها وهم البلاغة والإعجاز وقلب صفحات سفر بانتشار الطبيعة منتشرة في وضوح وإيضاح منه السطور!..

الإشاحة عن الدين الرسمي للبلاد أشاح الآتي بهذه الفلسفة فأشاح إلى دين شخصي أومض جذوته بين ضلوعه منه رصين التفكير لحظة بوهج القدسية ككل توهج أمام ناظريه الوجود!... تلاشت لديه التمييزات الفاصلة بين الشيء والشيء والجنس والجنس والنوع والنوع و**بالكل** ارتبط الجزء!... تلاشت الفواصل بين «الكل» و«الجزء» تلاشياً أصبح به الدين الرسمي ديناً باطلاً وصور العبادة فيه صوراً يطوف من حولها السذج وبالتالي أضحى الدين الحق لديه ديناً يتلخص في الإيمان بهذا «الوعي العالمي» إيماناً يتجه به إلى عبادة عقلية هي عبادة «الجزء» «للكل»، وعبادة الجزء للكل إنما عبادة تحتم السير وفق مقتضيات عدالة هذا «الكل» وإلى هذه العبادة طريق هو:

المعرفة

باتخاذ المعرفة وسيلة إلي عبادة «الكل» يسجل العقل الإنساني لنفسه، في مرحلة نضوجه هذه، استقامة واتجاهاً دينياً جديداً بعد به عن عثرات الطفولة وكبوات الشباب بعد كبوات الصبا، وباعد بينه وما قد جاء به في تلك المراحل من أوهام تعهدها بالصون لاهوت صاغها ديناً رسمياً به تشبثت الجماعات، وأتى لنفسه بدين عقلي ما استوثق من صحته حتى قام يؤكد بطلان الدين الرسمي من الحق ويمتد فيطوح «بالهوميريات» داحضاً ما قد جاء فيها من قصص دينية حفت بالقدسية فسجل بذلك، إلى جانب المستحدثات التي جاءت بها في دائرة التفكير الديني فلسفات له قد سبقت، مستحدثاً جديداً فلئن كان أهم مستحدثات

الفلسفة الإيلية، فلسفة ما بعد الطبيعة، نفي الدين الرسمي للبلاد، فإن من أهم مستحدثات الفلسفة الطبيعية الصوفية:

الإطاحة بالـ «هوميريات»!... السجلات القائم عليها صرح الدين الرسمي!

بالسجلات التي حف بها من دوي القرون دوي البلاغة والإعجاز طوح العقل الإنساني في فلسفته الراهنة، فإن النمو العقلي عند الإغريق قد بلغ المرحلة التي بها قد جابهته وله تكشفت ما يشتمل عليه هذا الدين من عيوب ومن ثم فتوجيهه جهارة إليه النقد وتنديده بصور العبادة فيه وإطاحته بالهوميريات وصيحته في أرجاء دنياه معلماً:

إن العبادة التي يجب أن توجه إلى الإله، المبدأ الفكري، إنما حتماً محض فكرية فلا قرابين ولا محرقات ولا بيوت مقدسة بها يطوف ولا صلوات مادية قوامها صيغ تتلى وكلمات، نغماً، ترتل!.. وكل ذلك يؤديه الناس دفعاً لعقاب وأملاً في ثواب في يوم أخروي المكان فيه ينقسم إلى فردوس وجحيم!. يقيناً إن الدين الرسمي قد ضلل الناس بهذه الأوهام!...

واهمة إنما كل هذه الجماعات في إيمانها بأن هناك بعد موت نشوراً، فإن الجسم بعد موت إلى حياة لن يعود فليس هناك بعد فناء الجسم للجسم نشوراً. بعد فناء لن تكسى رميم العظام لحماً فالقول إنما قول فطري تلفظه طبيعة الطبيعة والأخذ به إنما نفي لفكرة «العدالة الكونية»!

إلى نفي هذا المعتقد للدين الرسمي للبلاد القائل بالبعث الجسدي قادت عقيدة «العدالة الكونية» الفلسفة الهيراقليطسية، فلقد رسخت هذه العقيدة الأيونية في هذه الفلسفة رسوخاً قادها بالتالي إلى تناول مشكلة النفس على ضوء عقيدتها هي القائلة «بالوحدة» ومن ثم فارتفاع صوتها معلماً ينادي:

يا أيها المُسائل عن النفس ما هي ومن أين صارت وإلى أين منها المصير... كلا، عن النفس لا تسل طالما أن بين جانبيك قد رسخت عقيدة الوحدة!.. بل وكيف تسأل النفس نفسها من أين قد صرت وما مني المصير وقد أدركت أنها من هذه «الوحدة» مظهراً ومن هذا «الكل» جزءاً؟!.. إنها «من الكل» جزء ومن ثم فهي وحدة والإله ولما كان على الإله لا يجوز الفناء فإن عليها لا يجوز الفناء!

إن النفس، لأنها جزء من الكل، غير مقيدة بقيود هذا الجسد الطبيعي.. وهي، لأنها غير مقيدة بقوة الجسم الطبيعي، **خالدة**.. ومن ثم فيقيناً أن ليس للجسد نشور بعد فناء لن يصيب النفس التي من «الكل» قد صارت وإلى «الكل» سيسير بها المصير.. وهكذا تطالعنا

هذه الفلسفة بمستحدث في دائرة التفكير الديني جديد يقول **بفناء الجسد وخلود النفس!**

ولكن!... هنا تجابه التفكير الهيراقليطسي مشكلة من مشاكل التفكير الديني جوهرية وتطالبه منه اللوالب أن يجد حلاً لهذه المشكلة... مشكلة الثواب والعقاب.

أمام هذه المشكلة أطرق الفكر الهيراقليطسي مفكراً:

يقيناً إن «الوحدة» إنما عدالة والعدالة الكونية تقتضي الثواب وتحتم العقاب بيد أن الطبيعة إنما وحدة والإله، فليس هناك، يقيناً، مكان لجنة كجنة الأورفية فيها يثاب المرء على أعماله وليس هناك مكان لنار كنار الأورفية فيها يعاقب على أعماله الإنسان، فهذا إنما معتقد فطري لا يؤمن به إلاّ السذج!. وهنا، هنا وجد التفكير الهيراقليطسي نفسه إلى تيار الفيثاغورية يتجه ولكن ليأتي بفلسفة من فكرة العدالة الأيونية مستمدة، فقد جرت لوالبه الفكرية ترى أن الفلسفة الأيونية إنما، بانكسمندر، قد قالت بدورات كونية هي للتطهير والتكفير عندما ردّت الأحياء كلها إلى مادة أولية ليست الماء ولا عنصراً آخر فهي عندما قالت إن الماء لو كان أصلاً لهذه العناصر لغلب عليها وطواها، فهي إذن كلها سواء في الانتساب إلى أصل أقدم منها هي فيه تتمازج ويود كل عنصر منها أن يجور على حصة غيره في الوجود، فإذا خرج بها الشطط عن سواء الاعتدال عادت كلها إلى معدنها الأول وزالت الفوارق بين الأجسام والأحياء لتعود إلى الوجود من جديد، وهكذا دواليك في حركة دائمة سرمدية قد قالت إن على هذا تكون هذه الحركة السرمدية إنما دورات كونية هي للتطهير والتفكير، فإن إلى الأصل الذي خرجت منه الأشياء تعود كرة أخرى كما قضى عليها تكفيراً وفقاً لقضاء العدالة...

على أسس هذه العقيدة جرى التفكير الهيراقليطسي يقول:

إننا إذا فهمنا أن الكون إنما وحدة وأن الوحدة إنما تلك النار السرمدية وفهمنا أنها وحدة جامعة بقوة حيوية باطنة تدفعها إلى التطور على نحو آلي بمجرد اجتماع أجزائها وتفرقها وتخلخلها وتكاثفها دون علة فاعلية متمايزة فتكوّن منها الموجودات وتنحل إليها ثم تكوّن وتنحل إلى غير ما نهاية، وإننا إذا ذكرنا أن الكون ليس إلا من مظاهر هذه «النار السرمدية» مظهراً لعلمنا أن العالم حقيقة دورة دورية، فإن «بالنار» يتحول اللامحسوس إلى محسوس وتخلص النار شيئاً فشيئاً مما إليه تحولت حتى يأتي وقت لا يبقى فيه سوى «النار»... وهذا الدور المتكرر سرمداً إنما نفسه **ضرورة أخلاقية** لتعلقه بمشكلة الثواب والعقاب...

الحل الفلسفي لهذه المشكلة الجوهرية كان الحل في التفكير الديني لهذه الفلسفة التي بلهب القدسية قد توهج أمامها الوجود فربطها أشد الارتباط بالنزعة الصوفية التي تتجلى

على أتمها في ربطها الجزء «بالكل» و«الكل» بالجزء الربط الذي غدت به صلة الجزء بالكل موصولة وصلاً به غدا الدين لديها يتلخص في خالص عبادة روحية عملية شريعتها السعي نحو المعرفة والصلاة فيها تتحول من صيغ تتلى ونصوص ترتل إلى محض تأمل وعمل فكري.. تأمل النفس في النفس وإعمال الفكر في أعمال هذا «الوعي العالمي» المكتنف الوجود في سيره من ضد إلى ضد والمهيمن عليه بهذا «القانون العام» أو: «اللوغوس»!...

وتجاه «اللوغوس» الوعي العالمي المتحرك به العالم وقف العقل الإنساني فيه مفكراً يرسل العبادة إليه تفكيراً خالصاً وتأملاً عميقاً ومن حوله زمن إليه يصغي وترجع أرجاء دنياه عنه هذه الكلمة دوياً... دوياً ما راح في آفاق الأجيال يتردد حتى غفل الوعي من الأجيال عن أصل معناها الهيراقليطسي فانفصل «المبدأ الفكري» عن «اللوغوس» انفصالاً فصل اللوغوس عن الإله وسادت العقلية البشرية الفكرة، واللوغوس إنما الكلمة باللغة الإغريقية، بأن الإله إنما مهيمن على الوجود بكلمة هي هذا «اللوغوس»!... وهكذا بدأ في سجل التاريخ الديني منشأ عقيدة:

«الكلمة»

«بالكلمة» رجّع في وعي الزمن نغم رن في «منف» والتاريخ فجر على تربة النيل... نغم راح يتردد على الإجلال وتردده الأجيال، فقد راقت للعقلية البشرية منه الفكرة فضمتها إليها عقيدة تجاوبت بها آفاقها مؤمنة بأن اللوغوس إنما الكلمة التي أنشأ الإله بها كل شيء وأن لولاه أو لولاها لما كان هناك الوجود ولما كانت هناك الحياة!

كلا!.. لا جدل ولا جدال في أن إلى التفكير الهيراقليطسي تعود كل العودة نشأة «عقيدة اللوغوس» أو «عقيدة الكلمة» كلا لا جدل أيضاً ولا جدال في أن الأجيال وهي تتهاوى في هاوية الزمن قد هوت بهذه الفلسفة التي كانت من نتاج العقل الإنساني وحده فقد أساءت فهم هذه العقيدة على صورتها الهيراقليطسية إساءة انحرفت بها عن المعنى الصحيح الذي عنتها تحته هذه الفلسفة التي لم يحتفظ الوعي البشري منها إلاّ باسم اللوغوس كما عكست معناه من هذا الوعي الأفهام لتلعب هذه «الكلمة» خطير دورها في التفكير الديني من بعد غداة اصطبغت بصبغة القداسة بعد أن غابت هذه الفلسفة وطواها عن الوعي الجماعي ما كانت قد جاءت به في دائرة التفكير الديني من مستحدثات بها بدأت تميد أكثر ميداً الهوة التي تفصل بين المعتقد الجماعي للدين الرسمي المصور الإله تصويراً مادياً وبين المعتقد الفلسفي المصور الإله تصويراً تجردياً من مادته شاد العقل الإنساني لنفسه في مرحلة نضوجه الراهنة ديناً عقلياً عماده الفكر وعمدته التأمل، لا يعتمد على

سلف ولا يتخذ عمدة قديم النصوص... ديناً على هذه الخطوة العقلية لم يقتصر وعندها لم يتوقف أو يقف، فإنما عليه وافق من العقل الإنساني المنطق بخطوة له تالية سجل بها:

التفكير الديني في فلسفة الوحدة الكونية

في النصف الأول من القرن الخامس ق.م وفي إيليا تمثل العقل الإنساني بـ «بارمنيدس» فتمثل فكراً يزن بميزان المنطق الآراء من غيره والرأي من نفسه، فبه أتى المنطق ومنه اتخذ لأول مرة مسبراً لعلم ما بعد الطبيعة ومعولاً في سبر الطبيعة أو الأساس الذي يقوم عليه صرح كل دين.

وعلى متن المنطق، والزمن من حول العقل يسجل عهداً فيه أصبحت الرياضة الفيثاغورية علم العصر، والرياضة عهد ذاك والصوفية مزيج، أجال بارمنيدس منه تفكير سجل شخصيته بأعظم ممثل للفلسفة الإيلية وسجل فلسفته بفلسفة مثلت الثمرة الناضجة في شجرة الفيثاغورية.. فالتفكير البارمنيدسي قد عجم الطبيعة ولجها فلج إلى ما وراء الطبيعة على جناح ثابت من علم المنطق.

في الطبيعة جال الفكر البارمنيدسي وفي طبيعتها جرى منه التفكير وأمامه يجري؛ «التغير» و«التنوع» و«التعدد» و«الحركة» مظاهر، يضمها مظهر؛ **الزمن!**

ومن الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة وراء هذه المظاهر امتد يحمله على شعاع فكري طليق جناح المنطق عبر «طريق الحق».. ذلك الطريق الذي إليه خلد غداة قسم تعاليمه إلى قسمين وبجانبه وضع «طريق الرأي»... وفي «طريق الحق» حتى النهاية سار لتكتنفه في هذه النهاية تلك «الوحدة» ولتحتضنه إليها احتضاناً فاحتضنه من سكونها سكون واحتوته من سكينتها سكينة إلى أعماق النفس من نفسه دفعته فعاد من تجربته بمذهب ما دعم له منه المنطق إلاّ لتجري يده، شعراً، تسجل هذه التجربة وتودع هذا المذهب في كتابه الذي اتخذ له عنواناً: «عن الطبيعة»...

عبر سطور «عن الطبيعة» ينطلق الصوت البارمنيدسي رهيفاً يعلن رأيه لحظة عاد من تجربته ينادي:

يقيناً إنها الوحدة الكونية وإن الوجود طبيعته السرمدية أزلاً كان وأبداً سيكون!... وأما المظاهر في الطبيعة وأما المحسوسات المتشكلة في إطار التغير والتنوع والتعدد وأما الحركة القائمة على الزمن فكلها من مدركات الحواس...

والحواس؟... «إن الحواس خادعة!.. ومن ثم فالمحسوسات مجرد وهم!».

بارمنيدس

يقيناً إن «التغير» و«التنوع» و«التعدد» إنما ظواهر.... والظواهر إنما بِسِمَة الحقيقة لا تتسم، وإذا كان الشيء بسمة الحقيقة لا يتسم فهو، منطقياً، إنما وهم!...

كل هذه الظواهر من ثم وهم!.. وهم هي لأن الجوهر الذي يتألف منه الشيء إنما حقيقة وعلى الحقيقة لا يجوز التغير والتنوع والتعدد!...

من هذه النقطة الجوهرية في تاريخ التفكير الإنساني يسترسل المنطق الرصين رصيناً ويحاج قائلاً:

إننا إذا كنا قد استبنا أن «التغير» مجرد وهم وبالتالي وهم محض كل هذه المحسوسات وإذا كان عن طبيعته قد تكشف للعقل الوجود وأسفر عن طبيعة طبيعتها السرمدية وإن أزلاً هو موجود وأبداً هو سيوجد أفلا يقودنا المنطق إلى اليقين بأن هناك حتماً وراء هذا التغير وهذه المحسوسات السارية والصور العابرة حقيقة كامنة هي المصدر اللامتغير لهذا «التغير» وهي الرحاب المشتمل على السكون المطلق المنبعثة منه هذه «الحركة»؟.. وإذا كنا قد استبنا أن هناك حقيقة كامنة وراء هذه الظواهر أفلا يقودنا المنطق أيضاً إلى اليقين بأن هذه الحقيقة إنما واحدة وأنها تتسم بسمة الوحدة وأنها «مبدأ واحد»؟!.. ثم ألا يقودنا المنطق بالتالي، والمبدأ الواحد إنما **واحد**، إلى يقين تعلنه منا الشفاه قائلة:

«إن الحقيقة الواحدة ليست إلا **الواحد**...».

بارمنيدس

يقيناً منطقياً إن هناك حقيقة واحدة كامنة وراء التغير ماهيتها السرمدية أزلاً موجودة وأبداً ستوجد وبرهان سرمديتها هذه سرمدية هذا الوجود، ويقيناً إن هذه الحقيقة الواحدة ليست إلاّ «الواحد» «الواحد» الكامن وراء هذا التغير الذي يمور به الوجود والذي إلى معرفة به أدق يقودنا أيضاً المنطق ليعود باليقين سرمدية الوجود إنما، وهو الحقيقة السرمدية، من سرمديته مستمدة!.. وإذا كانت سرمدية الوجود مستمدة من سرمدية «الواحد» من ليس الوجود إلاّ منه مظهراً فإن الوجود يغدو، بالتالي، مستمداً لوجوده من وجوده، **كفيض منه متتابع**!... من ثم فيقيناً إن الوجود إنما من «الواحد» متتابع فيض!...

فيض متتابع من **الواحد** إنما الوجود...

بما بعد الطبيعة وحدت الطبيعة وردت إلى فيض متتابع من «الواحد» من هو نفسه إنما هذه الحقيقة الكامنة وراء مظاهر الظواهر ثم من هذه النقطة التي سجلت للعقل الإنساني في فلسفته الراهنة عمقاً فلسفياً وتعمقاً فكرياً أدرك به، بهذه الوسيلة ذات النوعين من المعرفة اليقينية والظنية، الوجود شيئاً مجرداً وليس قط هو الحقيقة ذاتها فاستخلص معنى الوجود

مجرداً من كل تعيين وأدركه فيضاً متتابعاً من «الواحد» استرسل المنطق البارمنيدسي سابراً «الحركة» سبراً ما إليه اطمأن منه الفكر إلاّ وهب يلقي إلى العالم الفكري بلب فلسفته فيقول:

ظاهرة، كظواهر التغير والتنوع والتعدد، من فيض هذه الحقيقة المتتابع إنما **«الحركة»**!

من خلال فيض الحقيقة المتتابع يشق العقل البشري طريقه ولما كان العقل مجاله الأغراض العملية فهو هو الذي يشكل من غيري منها ما يسميه بأشياء مادية!.. إنه هو الذي ينسق ويصور ولكن!... تنسيقاته وتصوراته ليس لها وجود حقيقي فإنما هي **صور مفروضة عليه** لتلائم أغراضه العملية، بيد أن لما كانت الظواهر تعكس عليه الحقيقة كما تتراءى الصور في صقال المرأة فإنه، رغم تفريقه بين الحالات النفسية الطارئة على الوعي، يتوهم أن هذه وتلك الصور هي الحقيقة!

ظواهر وهمية لحقيقة واحدة كل من التغير والتنوع والتعدد!. ظواهر وهمية في دوامة وهمية هي ظاهرة «الحركة» فإن:

«الحركة وهم محض ومحض وهم!..»

بارمنيدس

أوَشَكٌ في أن «الحركة» وهم محض؟..

يقيناً إن «الحركة» وهم محض لأن «الحركة» إنما قائمة على الزمن والزمن إنما مؤلف من آنات غير متجزئة ينتفي بوجودها للزمن وجود!.. ومن ثم وللزمن ينفي المنطق وجوداً فإن:

«الزمن مجرد وهم!»

بارمنيدس

سراب يلتمع على تربة اللازمن إنما الزمن وكالزمن يغدو المكان!.. إن المكان متألف من أمكنة غير متجزئة ينتفي بوجودها للمكان وجود ومن ثم وللمكان ينفي المنطق وجوداً فإن:

«المكان وهم وهم!»

بارمنيدس

لأن كليهما قائم على الحركة، والحركة؟.. محض وهم!..

سراب الزمن وسراب المكان وليس للسراب من حقيقة!.. سراب، لا يقترب الفكر منه له سابراً إلاّ ليعود باليقين معلناً أن بانتفاء الزمن ينتفي المكان!

ومن ثم فمنطقياً أن ليس هو إلاّ العقل!.. العقل نفسه لخطئه مصدر الخطأ، فالعقل يقسم ما هو غير قابل للتقسيم!. يقسم الزمن وبتقسيمه الزمن يقسم المكان وأمثال هذه التقسيمات لا أساس لها من الصحة طالما أن الحقيقة هي أن الحركة ممتنعة تمام الامتناع لقيامها على الزمن!..

وعلى أن الحركة محض وهم تنتزع هذه الفلسفة من الينبوع المنطقي البرهان فتقول: إن «الحركة» ممتنعة لأن «الحركة» إنما تستلزم وجود فضاء فارغ يتحرك فيه الشيء ولكن الشيء إنما وهم، ومن ثم فالفضاء الفارغ إنما في حقيقته اللافراغ لأن العدم، بوجود الوجود، معدوم فإن:

«العدم لا يمكن أن يكون ولا يمكن أن يتحدث به وهو ليس وجوداً والشيء الوحيد هو الوجود».

بارمنيدس

إلى ما وراء الطبيعة اتخذ العقل المنطق طريقاً فيه تجرد له الوجود مجرداً من اللامجردات فتجلي شيئاً مجرداً الحركة منه والتغير والتنوع والتكثر فيه وهم يقفو وهماً. تجلى شيئاً مجرداً منتفياً فيه الزمان والمكان... وأما هو، هذا المجرد أو هذا الوجود فإنه هو الشيء الحق!.. ومن هذه النقطة انعطف المنطق ليقول؛ ومن ثم ولا شيء يوجد ما عدا هذا الوجود المجرد فهو، يقيناً، الموجود الحق!.. وليسترسل المنطق الرصين رصيناً فيقول: وما دام أن هذا الموجود المجرد هو الموجود الحق فإن يقيناً أن العدم، بوجود الوجود، معدوم!

أوشك؟!.. إن عن طبيعته قد أفصح الوجود بأن طبيعته السرمدية وأزلاً موجود وأنه بوجود «الواحد السرمدي» سرمداً هو موجود موجود هو لم يسبقه عدم لأن إذا كان قد سبق الوجود عدم فإن إلى عدم لا بد أن يكون المآل وإلى فناء لا بد أن ينتهي الوجود، وهذا إنما قد ثبتت استحالته لأن العدم، بوجود هذا «الواحد السرمدي» معدوم ومن ثم فإن الفضاء الفارغ معدوم!. ولما كان الفضاء الفارغ معدوماً فهذا إنما يحتم، منطقياً، أن يكون الوجود كروي المليء غير متجزىء طبيعته اللاتغير ومطلق السكون!

وهنا... هنا ألا نستبين، والفضاء الفارغ معدوم، أن بانتفاء الزمن، ينتفي المكان وندرك إدراكاً يقينياً أن المكان ليس إلاّ بناء وهمياً في رحاب اللامكان؟!...

من ثم فيقيناً إن اللاتغير واللاحركة واللازمن واللامكان طبيعة الوجود... هذا الوجود الموجود الحق المسفر من خلال هذه الظواهر والمظاهر والمستمد وجوده من وجود «الواحد» كفيض منه متتابع!..

على هذه الأسس امتد المنطق مداه وعاد باليقين بأن كوناً هذه حقيقته إنما يغدو، في حقيقته، لأنه مكون من هذا الفيض المتتابع للواحد السرمدي؛ **ظاهرة قدسية!**

ظاهرة قدسية إنما الكون!..

ظاهرة مصدرها تلك الحقيقة السرمدية القصوى التي لا يستعصي علينا، عصيانه من قبل، التعرف على ماهيتها والصلة بينها والكائن وبالتالي الصلة بينها والكون، هذه الصلة التي يقوم عليها في النفس البشرية صرح الدين، فإننا إذا علمنا أن الوجود ظاهرة قدسية وأن هذه الظاهرة في مداها الحقيقي إنما اللاتغير واللاحركة لتبينا أن الحقيقة ليست، كما قال هيراقليطس، وحدة الأضداد ما دام أن هناك «واحد» تنفي وحدته وجود الأضداد... فطالما أنه لا وجود لغير «الواحد» فإن كل وجود غيره وكل ما نراه من التعدد والتغير إنما هو وهم الحس وخداع الظواهر فلا تغيير ولا تضاد كما يقول هيراقليطس، وإنما هي حالة واحدة نراها على درجات ونحسبها لذلك من قبيل الأضداد فالبرد قلة في درجة الحرارة والظلام قلة في درجة الإضاءة والمرض قلة في درجة الصحة ومن هذا القبيل إنما جميع الأضداد!. باطل من ثم، منطقياً، التغير لأن؛ «كيف يتأتى أن الشيء الذي هو كائن يفقد الكينونة؟. وكيف يتأتى أن يكون بعد أن لم يكن؟ فإذا حدث هذا الشيء فلا بدّ قبل حدوثه من زمن لم يكن فيه، وكذلك يقال إذا كان حدوثه سيبدأ في المستقبل وأين تبحث عن أصل الشيء الذي هو كائن؟ وكيف ومتى يحدث نماؤه؟ لا أرى لك أن تقول إنه يأتي من لا شيء، فإن اللاشيء لا يقبل التعبير ولا يقبل التفكير!.»

بارمنيدس

من ثم فيقيناً؛ «إن الحقيقة ليست كما اعتبرت الهيراقليطسية ملتقى الأضداد فليست هناك أضداد وإنما الحقيقة ليست إلاّ الواحد والواحد صفته السرمدية واللاتغير وطبيعته مطلق سكون!.. عمله محض عقلي وماهيته شيء مجرد وماهية الشيء المجرد إنما **نفس!...**»

بارمنيدس

لقد قدم العقل الإنساني في فلسفته الراهنة، في دائرة الطبيعة، البرهان المنطقي على أن الكثرة كثرة وهمية في هذا الموجود الحق وعلى أسس هذا البرهان الذي نأى به عن المنهج التجريبي، في غير اعتماد على ما ترى العين وما تسمع الأذن وما يحس الحس ناقضاً بذلك أدلة الأيونيين، يلج دائرة ما بعد الطبيعة ويعود معلناً؛ إن هذا «الواحد المجرد» هو الحق وهذا الحق المجرد الواحد هو: الإله!...

الإله من ثم إنما **حقيقة الكون**!. وعلى هذا الأساس يكون الإله ليس خالقاً للكون وبالتالي يكون:

وليس في الحقيقة هناك زمن ليس للواحد الحق زمن!..

وليس في الحقيقة هناك مكان ليس للواحد الحق مكان!..

وليس في الحقيقة هناك صورة ليس للواحد الحق صورة!..

مجرد الإله الحق ومن ثم فمنزه عن الجسدية والمكانية وعن التجلي والرؤية والكلام!.

مجرد الإله الحق ومن ثم فمجرد من العنصرية تجريداً ينادي، والإله هو حقيقة الكون تلك الحقيقة الساكنة المجردة التي جاء عنها منه الوصف بأنها ككرة محيطة لا تقبل التجزئة لأن كلها حاضر في كل جزء منها، أن الإله ليس رجلاً!..

عن الإله نفى بارمنيدس الجسدية والعنصرية وبنفيه عن الإله هذه الصفات بلغ العقل الإنساني من النضوج الفكري مرحلة قلما شارفها في غير هذه البقاع، بل وعلى هذه البقاع كانت وإن لم تكن كل الجدة جديدة غريبة، فعهد هذه الفلسفة كان لهذه البقاع عهد فيه التفكير الإلهي في دائرة الدين الرسمي يناقض هذه الفلسفة تمام المناقضة، فالإله لديه زمن وأيام ومكان وعنصرية ويقف تحت صورة رجل لمصطفاة بعد مصطفاة يختار وعلى الأرض يأتي له هذا الاصطفاء بابن بعد ابن!.. ومن ثم فلئن كانت أهم مستحدثات الفلسفة الكسينوفانية نفي الدين الرسمي للبلاد ولئن كان من أهم مستحدثات الفلسفة الهيراقليطسية الإطاحة بالسجلين القائم عليهما الدين الرسمي للبلاد فإن أهم مستحدثات التفكير الديني في الفلسفة البارمنيدسية:

نفي المكانية والزمنية والجسدية والعنصرية عن الإله

عن الألوهة انتفت إلاّ التجردية من الصفات وللفكر تجلت الحقيقة السرمدية نفساً. من ثم أي الصلة «الصلة». وعلى «الصلة» إنما يقوم الدين؟. وأي الدين هو الدين الحق الذي يمكن أن تتخذه النفس لعبادة «النفس»؟..

أسئلة يسألها الفكر لهذه الفلسفة عليها من أنفاسها يأتي جلياً في تساؤل الجواب:

أو سؤال ما «الصلة» ومن الفيض المتتابع من هذه «النفس» إنما، بما ينبض في أرجائه من حياة هي هذه النفوس، هذا الوجود؟!..

من ثم أو سؤال ما «الصلة» وقبس من هذا الفيض المتتابع لهذه «النفس» إنما كل نفس؟!..

إن النفس، كقبس من هذا الفيض الذي لن يلحقها بسببه، فناء موصولة منها بالمصدر الصلة لا يحجب هذه الصلة عن النفس إلاّ ما يغشى النفس من أوهام التفرقة، وأما الدين فليس الدين إلاّ إحساساً فطرياً بهذه «النفس» في النفس ومن ثم فإن الدين الحق إنما الدين الذي يسعى بالنفس، إلى توثيق هذا الرباط وتدعيم هذه الصلة «بالنفس» عن طريق: المعرفة

أيها السائل؛ ما هو هذا الدين الحق الذي يقود الواحد إلى توثيق صلته بالواحد؟. إليك من المنطق الجواب:

إن الدين الحق إنما دين عقلي يتلخص في خالص عبادة روحية، شريعتها إصفاء النفس وإصفاء الفكر وأما أركانه فالمعرفة والصلاة فيه إنما عبادة لا تحتاج إلى وقت محدد وساعة معينة ونصوص متوارثة تتوارثها عن الشفاه محاكاة وتقليداً، والفكر عن معناها لاهٍ، وإنما هي سبح الفكر، متى شاء وأنى شاء وحيثما كان، في لجة هذه «النفس» التي لا يحتاج الإنسان في الاتصال بها إلى وسيط أو هادٍ، فصلته بها إنما أبداً موصولة بهذه «الوحدة» التي يقف هو منها بمثابة القطرة لا من الخضم وإنما في الخضم!..

من ثنايا نفس شاعرة استشعرت للكون حقيقة تمكن بها منها الوثاق وبوسيلة منطق عماده التفكير جاء العقل الإنساني في هذه المرحلة التطورية من تمام نضوجه بدين عقلي عماده النفس وفي النفس أركانه تقوم على عقيدة «الوحدة» هذه العقيدة التي بني بها مذهباً عُد صاحبه مصلحاً للمذهب الفيثاغوري والثاني بين الفلاسفة الدينيين من الإغريق ولتحتل هذه العقيدة أفق التفكير الفلسفي ولتستغرق تأملاته غداة من جديد طوف بها العقل الإنساني لها سابراً بخطوة أخرى وقف فيها حائراً تجاه هذه الوحدة التي اختلفتا في تصويرها «فلسفة السكون» ومن قبل «فلسفة الحركة» هذه الخطوة التي سجلت:

التفكير الديني في فلسفة الأضداد

على سفح القمم الصفراء في أكراجاس على الشاطىء الجنوبي من صقلية واجهت الحيرة العقل الإنساني في تمثله بـ «أمباذوقلس»، (٤٩٦ ـ ٤٣٢ ق.م)، الذي ازدهرت آراؤه في النصف الأخير من القرن الخامس ق.م والذي طلع على صفحة الزمن، والمعارف لم تك قد بلغت المرحلة التي يصح أن يحدث فيها تخصص في الفروع فانطوت جميع البحوث الخاصة بالطبيعة وما وراء الطبيعة والدين تحت عنوان الفلسفة، بشخصية تشابكت فيها فروع العلوم الشتى، فقد امتدت وسجلت خطوة طبية حفرت بها مدرسة بنت الصرح الذي أظل أفلاطون ومن بعد أرسطو والذي وجده مشيداً، من بعد، أبقراط، وأودعت في وعي الأجيال

القول بالدورة الدموية وبأن للنبات، كالإنسان، جنسين ـ وامتدت فلكية لحظة أصغت إلى صوت يهبّ عليها من سفوح الأكروبولس، سيطالعنا في الخطوة العقلية التالية، فقامت تُردّد نفس القول وتشير إلى القمر مهيبة بمن يعتبر القمر وجهاً قدسياً يُعبد أن ليس القمر للضوء مصدراً وإنما هو للضوء، الذي يستغرق مسيره زمناً، عاكساً ـ وامتدت أيضاً تلج عالم الحياة وتاريخ البشرية بعلم استرعتها فيه بأشكالها الكائنات وبأجناسها للحياة صور فوضعت عن التطور نظرية هي وإن تلك فجة فإنها قد انتهت إلى إكمال القول الهيراقليطسي، القائل بأن الحياة تنازع، بقولها إن: البقاء للأصلح.

بهذه الشخصية التي تشابكت فيها فروع العلوم الشتى التي وجدناها من قبل في فيثاغور والتي تشابكت فيها أيضاً متباين الميول الفكرية ومختلف النزعات الدينية، فالأورفية قد خَضّبت منها الحداثة وبالفيثاغورية ناضجة قد خُضِّب منها التفكير، حائراً وقف العقل الإنساني وبين جانبيه مضطرم الشعور الديني جيّاشاً يتأمل صرح هذه «الوحدة» التي يقوم على أصولها للفكر دين.. كلا، لا جَدَل أن من الضروري التفرقة التاريخية بين العلم والفلسفة والدين، لكن لما كان على أسس التفكير العلمي والفلسفي قد شيّد الدين فلا بدّ لنا أن نمرّ على هذا التفكير الذي تفتّق عنه الذهن الإمباذوقليسي عبر قلم في يده جَرَى يُسجّل هذه الفِكرة، كبارمنيدس، شعراً وهو «للتغير» أو «للحركة الهيراقليطسية» يتأمل وبعد تأمل إلى الثبات أو «السكون البارمنيدسي» يلج ليجد أن الوجود في مداه الحقيقي إنما الثبات والسكون ولكن التغير في هذا الثبات والسكون ممكن ومن ثم علا صوته يمزج التغير في الثبات والثبات في التغير وينادي: إنه الثبات في التغيُّر والتغير في الثبات..

يقيناً إن القول ما قالت به «فلسفة السكون» فإن الوجود في مداه الحقيقي هو الثبات، ويقيناً إن القول ما قالت به «فلسفة التغير» فإن، هذا الوجود إنما مكون من عناصر أربعة هي الهواء والنار والماء والتراب، وإن من امتزاج هذه العناصر تأتي الأشياء وتتشكل هذه الصور المتغيرة، ولكن! هذا يُحتم وجود أصل ثابت كامل هو الكل الكامل وهو هو هذا الثبات الساكن اللاّمتغيِّر..

ويقيناً إن القول ما قالت به «فلسفة السكون» فلا فراغ هناك لأن هذا «الفضاء» الذي تحسبه العين فراغاً ليس فراغاً!.. ليس هو فراغاً لاشتماله على العناصر الأربعة التي تتضافر فتكوِّن فيه الأشياء والتي هي منه تمثّل: **الأصول**

من ثمّ، وأُصول الأشياء إنما مزيج من العناصر الأربعة المعروفة والمادة إنما مكوّنة من هذه العناصر، تكون هذه الأصول في مداها الحقيقي ليست إلاّ مادة، حتى الهواء!

إن المادة إنما من هذه العناصر الأربعة المعروفة مكوّنة ومن ثمّ فحتماً أن تكون المادة شيئاً دقيقاً.. **كالهباء!**

كالهباء!. شيء دقيق في مدى تكوينها الحقيقي إنما المادة ومن ثم فحتماً أن تكون هذه «الأصول» مكوّنة من: **جزئيات**

حتماً تكون «الأُصول» مكوّنة في جزئيات بل وحتماً أن يكون كل عنصر مكوناً من جزئيات صغيرة وأن يكون بين كل جزء وَجزء توحد مسام وأن يكون بين الجزئيات المختلفة في العنصر الواحد والجزئيات الأخرى في العنصر الآخر **سيّال** يجري مستمراً به تتكون هذه الأشياء المرئية ذات الصُور المتغيرة!.. ومن ثم فليس هناك ثمة شك في أن هناك تغيراً ولكن «التغير» لا تغير في «الكيف» وإنما في «الكم» وإذاً فالتغير ليس إلاّ تغيراً في الحوادث الجزئية وليس في الوجود ككل. كلا ليس «التغير» في الوجود ككل وإنما هو، والكل كامل، هو في داخل الكل الكامل وذا هو التغير والثبات أو بالأحرى الثبات في التغير والتغير في الثبات!

جمع الوجود الإمباذوقليسي الوجودين البارمنيدسي والهيراقليطسي فجمع في وحدة «الحركة» و«السكون» وأتى بوحدة الأضداد في توفيق أسفر فيه الوجود عن وجود ثابت فيه التغير ممكن وفي رحاب ما قد جاء به من وجود انطلق شارحاً ليأتي شرحه بالجديد في الفلسفة من النظريات عَبْر استرساله مُعَلِّماً:

ما الوجود الساكن الثابت إلاّ مكوّن من جزئيات المزيج الرباعي العناصر وما التغير فيه إلاّ بسبب وجود سيّال، كالسيّال الهيراقليطسي، مستمر التدفّق بين الجزئيات بعضها وبعض، فما التغير إلاّ اجتماع جزئيات العنصر الواحد بجزئيات العنصر الآخر وانفصال جزئيات العنصر الواحد عن جزئيات العنصر الآخر، وأما كيف يتم هذا الاجتماع والانفصال وتكوّن الحركة وكيف من أصول الأشياء تتكون الأشياء فإن ذلك يُحتم وجود علّة!. علّة لا بدّ أن تكون ثنائية القوى متنافرة الصفات، كالمحبة والكراهية، بيد أن وهاتان الصفتان إنما صفتان متنافرتان فمن ثم يقيناً إن:

«العلة وجود قوتين كبيرتين «المحبة والكراهية» تعمل المحبة على الجمع بين الجزئيات المتشابهة وتعمل الكراهية على الفصل بينهما»

إمباذوقليس

عرف العقل قُوَى السلب والإيجاب ولكن عبّر عنهما بالحب والكراهية، أما كيف جرى لأول مرة في السكون المطلق التغير اللاّمطلق فسؤال عليه يجيب العقل بأن:

«كان المزيج بعضه ببعض مختلطاً وإلى بعض مجتمعاً فقد كان: «مجمًا!»

إمباذوقليس

ولكن... هذه الفلسفة القائلة بال «مجمًا» أو المجموع والمسمّية ال «مجمًا» الواحد، لا ترفع هذا الواحد إلى إله، فإن العقل الذي جاء في فلسفته الراهنة رافضاً وحدة الوجود وقائلاً بالعِلّة الثنائية القُوَى إنما يقف فلا يراها إلاّ علّة سرمدية تنتظم دورة دائرتها سجل ينتظمها الحظ والحاجة وغايتها اللاّغاية، ومن ثم فهو يقف بهذا المزيج، الذي يتبع فيه فلسفة متقدمة فيصوره بكرة، تتقاذفه أنواع الحيرة ليتردّد بين ضلوعه من الحيرة دويٌّ يتساءل:

إلى مَنْ إذن، وهذه العلّة ليست إلهاً، يجد الوجدان وجْداً والوجدان إنما مُتْرَع بالوجد إلى علّة يستشعرها الأصل من الوجود وبسببها تُطوِّف في أُفق النفس نسائم الدين؟.

سؤالٌ، أطلقته أنواع هذه الحيرة للعقل الإنساني لتكون نفسها الدافع إلى السعي به نحو المعرفة ومن ثمّ كان سبره أهم مشاكل الدين إشكالاً:

مشكلة النفس

إلى المرفأ الفيثاغوري لجأت من أنواع الحيرة هذه الفلسفة فضمّتها إليها الفيثاغورية ومن ثمّ فإن ماهية النفس لدى هذه الفلسفة التي اتخذت المذهب الفيثاغوري ديناً رأي الفيثاغورية نفسها كما إلى هذا الرأي ضمّت أيضاً الرأي الهيراقليطسي فهي في اتباع الدورة الهيراقليطسية ترى أن الوجود دائرة دائرة الرحى وأن «القانون الطبيعي» في هذا الوجود هو القانون الدائر العجلة، فلا قربان من ثم من إثم غافر ولا محرقة تحول وإنزال العقوبة بالمستحق العقاب، فكل شيء بقانون طبيعي لا تحول في سننه يسير والأعمال تُحتم في داخل هذه الدائرة الثواب والعقاب، ومن ثم ففي أخذٍ بالدورة الهيراقليطسية أخذت بالعقيدة الفيثاغورية القائلة «بالصيرورة» واتخذتها عقيدة منادية بأن التطهُّر عن طريق الصيرورة إنما واجب حتمي على النفس، ومن هذه القاعدة العقيدية اتخذت مسنداً لتقول: من ثمّ، والنفس في جسدٍ بعد جسد تحلّ، فإن النفس شيء غير الجسد!

يقيناً إن الجسد إنما شيء غير النفس وإلى برهان ليست هذه التفرقة بحاجة فإن كل كائن يستشعر هذه التفرقة في كينونته وفي جوهر تكوينه باستشعاره سعير النزاع بين نوازع الجسد ومنازع النفس وليس هذا النزاع إلاّ لأن الجسد جبلة من طين وماء وأن النفس شيء عن هذه الجبلة الطينية غريب... ولكن!.. لا الطين ولا الماء اللذين بذكريهما تجري للدين الرسمي قصة عن النشأة تقول بعقيدة الخلق الفجائي للإنسان!.. كلا.. إن العقيدة الدينية،

عقيدة «الخلق الفجائي»، القائلة بأن من طين الأرض أخذ «بروموثي» جبلة صوّرها ثم نفخ فيها نسمة حياة فكان الإنسان، إنما عقيدة ساذجة هي أثر لفكرة فطرية جاء بها العقل الإنساني في حداثته وتركها لدين رسمي بها يتشبث وبها في التصاق به تدين الجماعات، بينما بعيداً عنها يقف العقل الإنساني نامياً يتخذ الطبيعة، لا الدين الرسمي في سبره هذه النشأة مرجعاً وعلى الطبيعة يُقبل لسننها دارساً مستخلصاً من هذه السنن كيفية كان إيجاد الإنسان ليرى أن عقيدة الخلق الفجائي إنما عقيدة تنقضها من أساسها الأدلّة العلمية المستخلصة من قانون الطبيعة وسننها، فإن كل ظاهرة حيوية تسبقها مقدّمات وأسباب ممّا يجعل الخلق الفجائي الذي يقول به الدين الرسمي في إيجاد الإنسان فجأة، بدون سابق حوادث وأسباب، للسنن الطبيعية مخالفاً ولقانون الطبيعة نافياً ومن ثم فالقول الديني قول لدى العقل الناضج منقوض ومرفوض!.

إن للعقل الناضج أدلّة تقود إلى الاعتقاد العقلي بأن؛ الحياة نواة نمت في انبثاق من تربة الزمن وأن التطوّر مفتاح الوجود وأن ليس الجسد من الإنسان إلاّ صورة رسمتها بألوان شتى من الكائنات ريشة التطوُّر في صياغة من أدنى درجات الحيوان، فإن في الأصل تطوّرت الحياة وأشكالاً تشكّلت فتنوّعت أنواعاً لا حصر لها حتى الإنسان!

عن التطوُّر الطبيعيّ، الكوني والكائني أدرك العقل الإنساني، في هذه المرحلة من تفكيره الناضج، لمحات قادته إلى استخلاص فلسفة إيجاد انبثاقية تطورية فحفر أولى الخطى التي نحت عن دين ينسب الإنسان في نطاقه إلى جسمه صفات القدسية إلى رحاب علميّ يؤكد أن من الحيوان أتى الجسد من الإنسان لا عن طريق الخلق والخلق الفجائي وإنما عن طريق التطور والتطور الانبثاقي!

بتقصّيه السنن من قانون الطبيعة وإدراكه من ورائها أن الحياة نواة وأن التطوّر مفتاح الوجود ونفيه الخلق الفجائي بلغ العقل الإنساني من البحث العلمي مرحلة فاجأ بها الدين الرسمي بعقيدة لا فحسب على عقيدته غريبة وإنما لعقيدة من عقائده الأساسية نافية، ومن ثم فلئن كان أهم مستحدثات «فلسفة الحركة» تجريد السجلّين القائم عليهما الدين الرسمي من صبغة القدسية ولئن كان من أهم مستحدثات «فلسفة السكون» تجريد الألوهة إلاّ من المجردات فإن أهم مستحدثات «فلسفة الأضداد» في التفكير الديني:

نفي الخلق الفجائي للإنسان والقول بالتطور!

عرف العقل الإنساني في راهن فلسفته هذه المعرفة فبعد عن الأُسطورة وعن فِكَر وتخيّلات مراحل حداثته نأى. فنأى عن الدين الرسمي واعتنق ديناً شخصياً أساسه المعرفة

وفي رحاب هذه المعرفة أدرك للنفس خلوداً ولكن لتتطوّر لديه هذه الفكرة إلى القول بالحلول فقد هبّ صاحبها يقول عن نفسه إنه مشتمل على روح الإله ومن ثم فهو رب!

وهكذا من حول إمباذوقليس بدأ التُّبع يتتابعون له تابعين وهكذا بدأ من حوله العقل الجماعي بمجموعاته يتجمع به يتمسّح ومنه يلتمس البركة والرضوان ويروي عنه المعجزات الشتى وخاصة معجزات الإحياء والإشفاء، فقد لحق العقل الجماعي بهذه الخطوة العقلية مُلاحقاً يُلْحِق بصاحبها ما قد حوّله نفسه إلى أُسطورة فبإمباذوقليس أحاط العقل الجماعي يُلقي في يده ما يخاله من خوارق الطبيعة ألواناً حتى تحدّرت على الأجيال لإمباذوقليس في العقلية الجماعية صورة يُصاحبها من الدويّ الجماعي عَبْر الأجيال ترديد بأن:

لإمباذوقليس قد سُخِّر الريح يجري بأمره حيثما شاء ومتى شاء!... وإلى فتاة مَضَى على وفاتها شهر كامل أعاد إمباذوقليس الحياة!

لِمَنْ عَرف وعرَّف للريح ماهية سخَّر العقلُ الجماعي الريح!... ولِمَن أدرك أن التطور مفتاح الوجود ألقى العقل الجماعي أمر إحياء الموتى!.. كلا، بل لم يكتف العقل الجماعي بأن ألقى في يد إمباذوقليس المعجزات من السيطرة على الريح وبعث الموتى فقد تمادى مردداً:

أن إمباذوقليس ربّ ومن الإله روح!

التمادي تمادى العقلُ الجماعي بل وليمتد تماديه تمادياً عندما ضمّت فوهة إتنا إمباذوقليس وإلى رماد حوّله منها النار فقد أبى العقل الجماعي إلاّ أن يرفع صوته معلناً اعتقاده الذي سيطر سيطرة تامة على نواصي تفكيره يقول:

إن إمباذوقليس، الرب، قد صعد إلى السماء!

خرق العقل الجماعيُّ بهذه الخارقة التي خلد إليها، تحت تأثير معتقداته الدينية، للطبيعة قانوناً باعتقاده عقائد لها تنقض من الأساس للطبيعة قوانين لا تنحرف منها السنن وعنها السنن لا تحيد!.. فِجّ أبدأ العقل الجماعي ومن ثم قصور مُدركاته عن إدراك أن المعجزة الكبرى إنما تنحصر في هذا القانون الطبيعي المسفر عن منتظم السنن ومن ثم أبت منه المخيلة إلاّ أن ترى أن في خرق النظام تقع المعجزة بعد المعجزة!

وهت مداركه عن إدراك أن الريح لامرىء غير مسخّر وأن ليس لامرىء القدرة على إحياء من يكون قد مات حقاً وأن ليس هناك سماء حتى يمكن أن يصعد إليها الإنسان جسداً بل وحتى إذا قلنا تجاوزاً إن هناك سماء فإن قوانين الطبيعة تنفي نفياً قاطعاً إمكان صعود الإنسان إليها جسداً!

بعيداً عن هذه الفِكَر وقف العقل الإنساني فكراً يتأمل هذا «القانون الطبيعي» بشخصية أخرى فيها تمثّل بَمنْ به يُطالعنا:

التفكير الديني في الفلسفة الذرية

بـ «انكساجوراس» (٥٠٠ ـ ٤٢٨ ق.م)، خطى العقل الإنساني على الأجيال وهو من كلازومنية في أيونيا إلى أثينا عاصمة بريكليس يرتحل ليبذر في منتصف القرن الخامس ق.م بذور الفلسفة، الجديدة في تربة الأرض العتيقة وينقل من آسيا الصغرى إليها الفلسفة بخطوة فيها أول خطوة خالصة الفلسفة فإن العقل البشري ليتحول الآن عن أيونيا وجنوبي وادي التيبر وعن صقلية إلى المدينة التي أضحت سيدة العالم الهيلليني قاطبة، فأثينا قد شارفت العهد في الأفق السياسي السمت الذي بلغته تماماً في سنة ٤٥١ ق.م. والذي إليه دفعها انتصارها الحربي في واقعة ماراثون ٤٩٠ ق.م، ومن بعد في واقعة سلاميس ٤٨٠ ق.م هذا الانتصار الذي جاء للإغريق بإمبراطورية عاصمتها هذه المدينة التي تلقت، بسبب هذا الانتصار السياسي، المدنية من الشرق القديم...

وفي أثينا، وأثينا قد غدت الآن «عين الإغريق» والبحر الإيجي قد غدا البحيرة الأثينية، واصل العقل الإنساني خطواته يُضيف إلى سلسلة تفكيره حلقة جديدة استهلها لحظة لجّ منه الفكر الأساس الذي يقوم عليه صرح الدين فارتاد الطبيعة للطبيعة سابراً وفي الوعي منه قد رسخت فكرة «الجزئيات الإمباذوقليسية» رسوخاً دفعه إلى التساؤل:

مما إليه لا يتطرّق شكٌّ هو أن هناك عمليات طبيعية دقيقَة تدقُّ عن إدراكها مباشرة الحواس. وهذا يعني أن ليس هناك قطّ لمادة مبدأ واحد أو بالأحرى عنصر واحد عنه الطبيعة قد نشأت، وإنما لا بدّ أن تكون هناك مبادىء هي هذه «الجزئيات» وأن تكون هذه «الجزئيات» أُصول الأشياء... ولكن!.. إذا كانت أُصول المادة هذه «الجزئيات» فهذا إنما، يقيناً، يجعلها لكل شيء ومن الأشياء بمثابة: **الـ «هوميريات» أو؛ البذور!**

فكرة التمعت في الأفق الفكري الإنكساجوري فأنارت منه الأرجاء يقيناً بأن هذه «الجزئيات» إنما من الكون، بأحيائه وأشيائه، شيء بمثابة البذور وما احتل أرجاء تفكيره عن هذه الفكرة اليقين حتى هبّ سابراً هذا اليقين فتناول بالسبر هذه الهوميريات أو «البذور»...

من الناحية الطبيعية وعن طريق سبره طبيعة الأعضاء الحيوية تناول العقل بالسبر هذه «البذور» فكان السبر سبراً زاده بيقينه يقيناً، فقد ارتأى فيه ما يؤيِّد منه النظرة بأن لا بد أن تكون هذه «البذور» هي المكوِّنة الكون وأنها الأُصول من كل شيء فيه، ومن ثم انطلق في أرجاء دنياه يُعلِّم:

إن هذه الهوميريات إنما هي بذور تضمُّ، في حالة الكمون، كامل الكون!

في حالة الكمون تضمُّ هذه «البذور» كل الكون فإنها مُشتملةٌ على كل الخصائص والصفات التي إلى معرفة بها تقودنا منا الحواس.. وإذا كانت هذه «البذور» تضم في حالة الكمون كل شيء فيقيناً!.. يقيناً تكون هذه «البذور» المُكوِّنة الكون كل الدقة دقيقة وغير خلي منها أرجاء ما يبدو من إخلاء، وهذا بدوره دليل يقودنا إلى اليقين بأن هذه «البذور» متناهية في الصغر وأما في العدد فلا متناهية!

إلى ما لا نهاية تنقسم في محتوياتها هذه «البذور» جزئيات هي ولكنها جزئيات لا متناهية التجزؤ أصغر أجزاء «المادة» لها حاوٍ وعليها يحتوي فمنها هو مُكوِّن ومنه عناصرها مكوّنة، وأمّا هي فلا تشبه العناصر في شيء لأن العناصر تضمُّ صفات قليلة محدودة، بينما هذه فمشتملة على جميع الصفات والأنواع الموجودة في الطبيعة أو بالأُخرى الموجود بها هذا الوجود بكل ما يمور به هذا الوجود من مكوّنات وكائنات إنما على هذه الجزئيات مشتملٍ ومنها مكوّن فمنها مكوّن كل شيء حتى نفس الحياة، فإن هذه الذرات التي لا تعتبر إلاّ مادة صرفة إنما تعتبر عنصراً للجسم والنفس معاً وكل ما يفرّق من فارق بين ذرات الجسم وذرات النفس هو أن ذرات النفس تمتاز عن ذرات المادة بأنها مستديرة لطيفة وأسرع من تلك حركة!

في تُربة مهّدها إمباذوقليس «بالجزئيات» بَذَر إنكساجوراس «البذور» وجعلها للوجود بمكوناته وكائناته وبما يمور فيه من حياة أصولاً.. وما أينعت في الفكر الإنكساجوري هذه البذور إلاّ وجرت اللوالب الفكرية من هذا الفكر ترسم صورة لإيجاد الوجود يطالعنا في ثناياها القول بأن:

كانت «البذور» بعضها ببعض مُخْتَلطة وفي حالة «المجْما» ولكنها كانت في حالة سكون، ومن ثم فطبيعياً كان أن يحدث، لينشأ الوجود، حدث.. وهذا الحدث لا يمكن أن يكون إلاّ **حركة** ومن ثم فمنطقياً أن تكون هناك حركة وأن هذا الحدث هو؛ الحركة.

لينشأ الوجود حدثت الحركة... ولكن! لئن بعيداً عن فكرة الخلق الدينية قد بعد العقل الإنساني في تفكيره ناضجاً فنأى عن عقيدة «كن فكان»، لتنافي العدم والوجود ولتنافيها وقانون الطبيعة الناطق بالتطور، فإن هنا تعترض الفكر الإنساني لأول مرة في تاريخه الفكري الهوة السحيقة التي شقّها سؤال؛ كيف بدأت، لأول مرة، «الحركة»!؟

كيف لأول مرة، ليكون الكون، انتظمت «البذور»؟. أمام هذه الهُوّة أطراف العقل مسائلاً منه الفكر فساءله التفكير:

أوَسوي «عقل»؟!

إن العقل أساس كل حركة... ومن ثم فلا بدّ أن يكون عقل قد تسبّب في إحداث «الحركة»!.. إن العقل هو مصدر كل نظام.. من ثمّ فلا بدّ أن يكون عقل قد تسبّب في إحداث «النظام»!

ومن ثم فيقيناً أن هناك قوة مُدرِكة!... هناك عقل قد تسبّب في إحداث هذه الحركة الدوّارة التي تمتد في كل اتجاه وتتسع تدريجياً تدفع ما خفّ إلى الحواف وتهبط بما ثقل في المحور، وبذلك قد تمّ الانفصال بين الهوميريات أو «البذور» التي قد انتظمت بطريقة منظمة وهذا إنما شاهد على أن هناك عملية فكرية وهذا، بالتالي، لن يكون إلاّ إذا كان هناك عقل هو هذا المحرك الحركة هذا المُنظِّمُ النظام، بل إن الحقيقة بنفسها تعلن عن نفسها بأن «الحركة» قد حرّكها **مُحرِّك** وأن «البذور» قد انتظمها مُنظِّم وأن السبب الأول في التغيُّرات الطبيعية هو هذا المحرِّك المُنظِّم، وهذا المحرِّك المُنظِّم: **عقل!**

من حركة الكون يستمد الفكر يقيناً لا يتطرّق إليه شك في أن الكون عملية فكرية، ومن ثم فيقيناً إن وراء هذا الكون عقل هو المحرِّك هذه «الحركة» وهو لهذا «النظام» منظِّم فيقيناً أن قط لا يمكن أن تكون هذه «الذرات» قد انقسمت بنفسها وبنفسها انتظمت إلى نظام وهي في الأصل كانت خليطاً وبعضها ببعض كان مزيجاً مما يعلن حاجتها إلى علة تكون نفسها قوة تستطيع إخراجها منه دون أن تكون هناك علّة يمكنها التنظيم.. علة، لن تكون إلاّ قوة ولن تكون إلاّ عاقلة حتى تستطيع تحويل الفوضى إلى نظام... ومن ثم فيقيناً إن هناك علّة وإن هذه العلة هي:

«نوس» أو؛ عقل

يقيناً؛ «إنه النوس! النوس علّة الحركة والنظام!...»

انكساجوراس

يقيناً يأتي باليقين بأن؛ «النوس» أو العقل، هو؛ الإله!»

انكساجوراس

الإله هو وحده من ثم هذه العلة الواحدة العلة العاقلة والعاقلة القُوى التي يُفصح عنها نظام الكون ونفس تكوينه الذي ينتظمه انتظام هذه «البذور» أو الذرات المكوّنة الكون بكائناته ومكوّناته والذي بدوره يُنادي أن الإله لا يمكن قط أن يكون إله الدين الرسمي الموصوم بماهية تتنافر كل التنافر، وما للإله الحق من ماهية مُستقاة من هذا الكون المُشاهد والمُفصح نظامه عن نفسه بأنه محض عملية فكرية إفصاحاً يُعلن أن ماهية الإله لا يمكن

أن تكون إلاّ عقلاً محضاً بل، ونظام العالم إنما عمليته الفكرية، يكون: **الإله إنما عقل كونيٌّ**

والعقل الكوني؟.. العقل الكوني إنما قوة مطلقة ولو لم يك قوة مطلقة لما استطاع إحداث هذه «الحركة» ومن ثم فمن صفات العقل الكوني صفة الإطلاق وإذا كانت المطلقية صفة للعقل الكوني فإنه لا يغدو صواباً نعت الدين الرسمي للإله بنعوت تصمه بصفات هي للبشر صفات كوصمه بوصمة الراحة وبوصمة التذكُّر فالراحة إنما صفة لصفة التعب تُقابل والتذكر، إنما صفة لصفة النسيان تُرادف وتتبع وإنما أصحُّ النعوت، وصفة الإطلاق للإله صفة، نعته: **المُطْلَق**

المُطْلَق؟.. المُطْلَق إنما العقل الكونيُّ والعقل؟ **العقلُ من شيء لا يتركَّب** وعلى ذلك يأتي البرهان أن كل مركب من شيء لا يوجد مساوياً لنفسه في جميع الأجزاء من حيث الكيف، ولا ينقض هذا البرهان أن على مقدار من العقل مختلف تحتوي كل الأجسام، فإن هذا المقدار مقدار كمي والكم غير الكيف ومن ثم، ولنفسه إنما العقل مساوٍ من حيث الكيف، فإن هذه المساواة تقتضي أن يكون العقل بسيطاً من ثم، والعقلُ من شيء لا يتركَّب، فإن بوهن الصفات التي يُلْحقها الدين الرسمي بالإله لا يتصف الإله الحق بل على النقيض يكون الإله، لأنه العقل الكوني ولأن من صفات العقل البساطة: **البسيط**

بسيطٌ الإله وهذه صفة تقتضي صفة أخرى، فالبساطة تقتضي القدرة ومن ثم فهو: **القدير**

والقدرة إنما صفة لصفة أخرى تستلزم وتُحتِّم فالقدرة تقتضي العِلْم ومن ثم فهو؛ **العليم.**

عليمٌ هو لأنه قدير فالقدرة ضرورة لازمة لتحقيق ما في العلم، بل إن القدرة إنما صورة تعكس ما في العلم ومن ثم فهو، كعقل كوني، عليم **وعلمه علم مطلق وكليّ.**

أجل... بسيط الإله لأنه عقل ولأن من صفات العقل البساطة، والبساطة؟.. البساطة إنما معناها اللاّتركب من شيء واللاّتركُّب إنما التجردية، فإن العقل شيء مجرد ومن ثم، والعقل شيء مجرد، فحتماً تكون ماهية هذا العقل الكوني التجردية وإذا كانت التجردية للعقل الكوني ماهية فباطل نعت الدين الرسمي للإله بصفات التجسدية والزمانية والمكانية والجسمية من استواء على عرش وتأليف للسحب وقذف بالصواعق فهذا نعت ساذج فطري وإنما أصحُّ النعوت، وصفته التجردية، نعته: **المجُرّد**

والمجُرّد؟.. المجُرّد، وهو العقل الكوني والمطلق والبسيط، مُجرّد من طبائع البشر ولطبائع البشرية كل المفارقة مُفارق لا يتّسم بما يصمه به الدين الرسمي من غضب ورضا ومُحاباة

قوم على قوم واصطفاء فرد على أفراد وإضلال بعض وهداية بعض، ومن ثم فأصحُ نعت للمجرّد يغدو، وهو المجرّد من طبائع البشر والمفارق للطبائع:

العقل الكوني المُفارِق للطبائع

حتى المدى من الرصانة المنطقية امتدّ العقل الإنساني في تفكيره الإلهي على جناح طليق من شعاع تفكير طوى أطواء الطبيعة ولجّها إلى ما وراءها فجاء بال «نوس» أو العقل وجعل هذا «العقل» كونياً مطلقاً بسيطاً مجرّداً ومُفارِقاً للطبائع به وصل المحسوس باللاّمحسوس فتخطى الهوة الفاصلة بين المحسوس واللاّمحسوس بأن جعل اللاّمحسوس للمحسوس محرِّكاً ومُنظِّماً ليدويّ، لأول مرة، في أرجاء التفكير البشري القول بوجوب وجود علّة عاقلة!.

عَقَلَ العقلُ البشري تحت مظهره الراهن وجود «واجب الوجود» وهو وإن كان لم يستطع أن يخرج عن الغلطة التي ارتكبها طالس فحصر «العقل» الذي جعله كونياً حصره المادة ذاتها إذ جعله لا نهائياً لا نهائية المادة إلاّ أنه قد سجّل أول اتجاه علميّ صحيح في دائرة العلم النظري نحو هذه الفكرة الفطرية في النفس، فهو قد أتى بعلّة عاقلة جعلها مبدأ الحياة رافضاً التفسير الطبيعي الأيوني وعن اعتبار الطبيعة مشتملة على مبدأ الحياة أشاح إشاحة هي التي قادته إلى الفصل بين المادة والعقل فصلاً قاده لأن يرى، والعقل يراه شيئاً لا محسوساً واللاّمحسوس شيء مجرّد، والمادة يراها شيئاً محسوساً والمحسوس شيء كثيف مجسّم، العقل شيء والمادة شيء آخر، ولتأت هذه النظرية بنتيجتها الحتمية فقد تحوّلت، لأول مرة، الثنائية القديمة من الخير والشر إلى هذه الثنائية الجاعلة «العقل الكوني» للمادة الكونية، التي طبعتها بطابع الأزلية، منظماً فليس إلاّ بسبب اعتبار العقل شيئاً والمادة شيئاً آخر، وليس إلاّ بسبب اعتبار «البذور» المشتملة على كل نوع جواهر لا تضم ولا تشتمل على العقل، وإن العقل الذي لا يقتصر على الإنسان وإنما هو في كل كائن حي وإن كان الإنسان أرقاها شيء يدخل في تركيب الأحياء كظاهرة لا نهائية ذاتية الحكم جاءت هذه الفلسفة بهذه الثنائية التي أعلنت بها بأن؛ النوس أو العقل والهيولى أو المادة، أزليان وجدُّ مختلفين!..

عن عقيدة الخلق الدينية نأى العقلُ البشري بالوجود فنأى به عن عدم سابق ولاحق وبالأزلية قال باعتبار اللاّمحسوس شيئاً روحانياً مجرّداً ولكن لينأى به هذا القول عن عقيدة الفيض أو الصدور، ومن ثم كان اختلاف الفلسفة الإنكساجورية عن الهيراقليطسية، فالإله لدى الإنكساجورية ليس وعياً عالمياً هو في كل شيء متغلغل وتغلغله هذا هو لإيجاد الوجود بموجوداته سبب، وإنما هو عقل كوني لا متناهٍ منتشر في كل الفضاء اللاّمتناهي

يُنظِّم كل شيء وتنظيمه هذا هو للنظام المشاهد سبب، فقد استبعد انكساجوراس أن يكون الكون المادي، والمادة يراها شيئاً مجسَّماً مشخصاً، عن نفس «العقل» قد صَدَر ومن هذا قوله بأن «العقل» للمادة قد نظَّم، إلاّ إن انكساجوراس بهذه الثنائية الواضحة بين المادة والعقل قد أجرى، لأول مرة أيضاً، تيّار الخلاء اللاّمتناهي!

ولكن... العقل الإنساني وإن كان في خطوته الراهنة قد أجرى تيّار الخلاء اللاّمتناهي وعن عقيدة الفيض أو الصدور نأى في إخلادٍ إلى عقيدة الأزلية، إلاّ أنه قد أتى بعلة عاقلة عمّم بها، بطريقة غير مباشرة، قول هيراقليطس عن «اللُّوغوس» فهو قد قال بال «نوس» وجعل «النوس» للهيولى منظماً وللحركة الدوارة علّة فاعلية إليها يعود تنظيم وترتيب «البذور» وإيجاد الأشياء منها والأحياء وليسير عبر هذه الفلسفة منطقه فيقول: إننا وقد استبنا أن من صفات العقل الكوني القدرة، فإن القدرة تقتضي التنظيم لأن العمل الأول للعقل هو التنظيم ومن ثم فالعقل الكوني إنما، يقيناً، علّة فاعلية والفعل إنما يقتضي، والفاعل علّة عاقلة، أن تكون هذه العلّة العاقلة **علّة غائية!** إن العقل الكوني إنما علّة فاعلية، وإذا كان علّة فاعلية فيتحتم أن تكون غائية فلا يفعل العقل شيئاً إلاّ لغاية! إن النظام لا يكون إلاّ حيث تكون غاية وغاية محددة الأهداف وكل هدف إلى غاية يقتضي بالضرورة عقلاً، ومن ثم فيقيناً إن العقل الكوني، العليم بكل شيء والقادر على كل شيء والمتحرك بذاته المحرِّك لما عداه، إنما **علّة غائية!**

من الكون المُشَاهد ومن مشاهده من حركته الجارية ومن أحداثه المتوالية والمتتالية التي تدلّ دلالة قاطعة على إلاّ أنه يسير في حركته إلى غاية يأتي البرهان على غائية العقل الكوني من على وجوده يأتي أيضاً هذا البرهان الغائي برهاناً ينادي بوجوده كعقل مجرّد غير مشخّص وغير مجسّد وعن إله الدين الرسمي كل الاختلاف مختلف!

قدّم العقل الإنساني في راهن فلسفته البرهان الغائي برهاناً على وجود إله وصفه بالتجرّدية وجعله عقلاً كونياً لا متناهياً لا متناهية هذا الوجود، وكنتيجة لهذه النتيجة المنطقية التي فسّرت الطبيعة والعقل تفسيراً عقلياً دوّت آفاق التفكير الفلسفي بأصداء تُردِّد أن العقل الإنساني، ناضجاً، قد أطاح بتفكير ديني ماديّ محوره إله يقول به الدين الرسمي على عرش مستو يُؤلف السحب ويُرسل الصواعق، بينما استرسل التفكير الإنكساجوري في تعقله للطبيعة مظاهر سجّلت أول شرح علمي صحيح لعلم الهيئة فليس إلاّ كأثرٍ لهذا التعقل لمظاهر الطبيعة أن أعلن:

إن الأجرام السماوية خالية من القدسية وإن الخسوف والكسوف ليسا، كما يُعلِّم الدين

الرسمي، نتائج لغضب إلهي، وإنما يقعان نتيجة لإظلال جرم لجرم في الفضاء... وإن الشمس ليست في حقيقتها إلاّ جرماً ملتهباً، كالأنجم التي لا نشعر بحرارتها الحقيقية والتي ليس في حقيقتها إلاّ كالشمس شموساً لا نتبيّنها شموساً لأبعادها الشاسعة في الفضاء.. وأما القمر فلا يخرج عن أن يكون، كالأرض، أرض فأرض إنما القمر، وأمّا ما يرتسم في دائرته فليس إلاّ جبالاً وللجبال أودية وظلال!

الاسترسال استرسل العقلُ الإنساني في شرحه العلمي ناقضاً للدين الرسمي معتقداً وآتياً بنظرية أثبتتها من بعد الأجيال علماً واقعياً ألقاه هو علماً نظرياً به أثبت سبق العلم النظري على العلم العملي غداة سجّلت يده هذا الشرح كتابة، فسجّلت أول يد امتدت جريئة غير هيابة جنون الجماعات وألقتها إلى عالم لئن كان قد هوى في رحاب تفكيره الفلسفي صرح الدين الرسمي وتقوّض أنقاضاً، فإن في هدم هذا الصرح كان قد أسهم أيضاً إنكساجوراس غداة تناول سجلات الدين الرسمي وللهوميريات نشر صفحات طالعه عليها دين تنتظمه المقايضة والطقوس ومذاهب فيه منتشرة ولجسمه تكوّن قصص السماء، ليلاً، سجّل لجانب من هذه القصص وللجانب الآخر من هذه القصص الكون، نهاراً، سجلّ!

بتفاهتها جابهت العقل الإنساني في خطوته الراهنة، مجابهتها له في خطواته السابقة، هذه القصص مجابهة أعلن على إثرها:

يقيناً إن هومير ومن بعد هزيود، قد نسبا إلى الإله كل ما هو عند الناس موضع اللّوم!

ممّا لا جدل حوله هو أن هذه القصص، قصص الاصطفاء الإلهي لمُصطفاة بعد مُصطفاة وانتشار الوفير من العدد من الربّات والحوريات والآدميات وكل منهنّ أمّ لابن إله، إنّما قصص من عمل مخيّلة فجّة! ثم... ثم إن إلى جانب هذا الجسم الذي له تُكوّن هذه القصص تقوم باسم الدين الرسمي بيوت مقدسة فيها العبادة تجري بصورة ماديّة تنهض دليلاً على أنها ليست في حقيقتها إلاّ وليدة فِكَر العقل وهو وليد!

للسبب تفه الدين الرسمي أمام العقل الإنساني في راهن خطوته وتفهت بتفاهته صُوَر العبادة فيه حتى المدى الذي دفعه يعلن، جهارة، سخريته من صُور العبادة، سخريته بالدين الرسميّ نفسه، وطبيعياً كان أن تكون النتيجة النتيجة، فإن العقل الإنساني الذي قد تمثّل بانكساجوراس فسبر للطبيعة بناءً تكشّف لديه ذرى التركيب، وأن الذرات تتحرك لتنتظم أجساماً بتأليف يُعلن حاجته إلى علّة حتماً هي قوة عاقلة حوّلت الفوضى إلى نظام، وأن هذه العلة العاقلة القوى هي هذا «النوس» أو العقل، وهذا العقل هو الإله الحق لم يسعه إلاّ أن يهوي بمعول الهدم على دين ماديّ التفكير تدين به جموع الجماعات في نفس الآن

الذي يتجه به نحو هذا «النوس»، العقل الكوني والإله المجرد، بعبادة عقلية تجرّدية تُسجّل له اعتناقه ديناً شخصياً عقليّ الأسس.. ومن ثم فإذا كانت أهمّ مستحدثات «فلسفة الأضداد» في التفكير الديني نفي الخلق الفجائي للإنسان فإن أهمّ مستحدثات «فلسفة البذور» في دائرة التفكير الدينيّ:

الاعتراف بوجوب وجود علّة عاقلة واعتناق دين عقلي الأسس...

على هذه الصخرة الشامخة في أعظم هذه السهول والقائمة في قمم الأكروبول شيّد العقل الإنساني هذا الدين الحرّ وأقام هذه العبادة الحرّة الواصلة بالعقل الكونيّ العقل من الكائن الحيّ، فقد وجد نفسه على هذه القمم يتنسّم نسائم جو سياسي حرّ الفرد فيه، كأثر لشريعة سولون، بفرديته مستقلاً لا يحول بينه وارتياده أنّى شاء من الآفاق كهنوت ولا تصدُّه عن اقتحام المجهول من اللاّهوت نصوص فلا منعة لمن ينتشر على هذه القمم من طوائف كهنوتية تعوقه وإعلان الرأي الحرّ وتقمع منه الفكر كلا تحت ضغط العقائد الدينية لم يجد الفكر الإنساني نفسه يرزح رزحه في حضارات الشرق القديم كلا ولا وجد نفسه تأسره كما أسرته في الشرق القديم للسياسة القديمة قديم اعتبارات، فللفكر لم تأسر هنا السياسة باسم الدين وباسم الدين لم تطالبه السياسة وقف تفكيره وقفاً على ما وجد عليه آباءه ونفسه فيه وليد من دين.. كلا! ليس ذلك لأن هناك لم يكن كهنوت قويّ فهناك كان كهنوت قوي ولكن! لم تك للكاهن ولا للرئيس السياسي القيادة الفكرية فإنما القيادة الفكرية كانت للفكر!.. للسبب لم يُقيّد الدين الرسمي العقل بقيودٍ صاغتها صيغ أوامر ونواه عليه تُملى باسم الدين ويضمها كتاب حفت به القدسية من كل جانب فسيّجه من المنعة سياج!... حراً طليقاً كان العقل ومن ثم فدقيق تأمله في الطبيعة وواضح تأملاته في ما بعد الطبيعة ومن ثم واضح قوله برأي حر بعد رأي حرّ وإبطاله عقائد بواطل يبطل بها دين رسميّ تدين به البلاد!

أجل... طويلاً قبل العهد البريكليسي منح الدستور الإغريقي للمواطن الحق في إعلان الرأي والعقيدة فقد عرف قيمة الرأي والعقيدة الحرة ومن ثم اعتماد الفكر الإنساني على نفسه حتى المدى الذي استطاع فيه أن ينال من صيغ عبادة تنأى بعيداً عما يجب أن تكون عليه العبادات في كون له تكشف عن بناء ذريّ التركيب فأدركه كوناً ينتظمه عقلٍ روحه قانون وللسبب شُيّدت صروح الفلسفات وللسبب هوى العقلُ الحرُّ بمعاوله هادماً الدين الرسمي وللدين الرسمي عقائد ومعتقدات...

ولكن! قفت هذه الفترة فترة شاهدت تهافت وميض العهد البريكليسي، ٤٣٠ ق.م،..

فترة فيها تهاوت، من حول الحكم المتهاوي، الدنيا «بصديق» بعد صديق ومن ثم لم يك إلاّ بسبب هذه الاعتبارات السياسية أن نحا العهد عن طابع العهود الإغريقية من احترام الفكر السياسي للفكر الفلسفي فاستُغلّت، باسم الدين، للسياسة خصومات وسُنّ قانون يعاقب كل من يتعرّض للأشياء «التي في العلى» ويهجر الأرباب الأوليمبية لتمتد، كَمَخْلَبٍ، هذه السُنة إلى هذا «الصديق» الذي استقدمه بريكليس إلى أثينا لينشر فيها الفلسفة... وكُفّر العقل الإنساني في صورة هذا الذي جاء بما نسميه الشرح العلمي الأول للعلم الفلكي واتُّخذ قوله بأن الشمس جرم ملتهب وأن القمر، كالأرض، أرض، حجة بأن على الدين الحقّ خرج إنكساجوراس!.. بالخروج عن الدين الحق أُدين إنكساجوراس ورمي، والدين الرسمي دائماً الحق، بالإلحاد في الدين الحق!

ولكن! لئن تهاوى الحكم القائم وبتهاويه تهاوى صديق له بعد صديق، ولئن اتخذ الدين الرسمي ما قد استنّ من سُنة ذريعة لإشفاء غيظ في الصدور يغلي له غليل فَرَمى بالإلحاد العقل الإنساني في صورة هذا الذي دوّى صوته، لأول مرة، في أرجاء التفكير البشري بوجوب وجود علّة عاقلة وصفها بالمطلقية والتجردية ونادى بالاتجاه إليها بعبادة تجرّدية، فإن هذه الخطوة، التي لولا بريكليس لكان مصير صاحبها مصير أصحاب الفكر الحر في كثير من العصور، لم تطوها يدُ الزمن وهي التي جاءت بدينٍ عقليّ الأُسس إلاّ بعد أن نفثت يقظة عقلية ونهضة فكرية وأنارت الأرجاء، فقد جاء تقويضها للدين الرسمي وجهرها بهدم معتقداته ممهداً لنزعةٍ تحررية جاءت في أعقاب خطوة عقلية أخرى، فإن العقل الإنساني الذي قد ألقى، بإنكساجوراس، في تربة الحياة العقلية «البذور» إنما قد امتد خطوة أخرى سابراً الأساس الذي يقوم عليه صرح الدين سبراً سجّل:

التفكير الديني في الفلسفة الذرية المادية

في لُجّة التفكير الفلسفي المُستغرق الفكر تأملاً في الوحدة والتعدُّد برز العقل الإنساني متمثلاً بالأيوني الآتي من أبديرا في تركيا «ديموقريطس» من يأتينا صوته، لأول مرة حوالي سنة ٤٦٠ ق.م، يُرجِّع صدى تعاليم راحت بعد سبر «للبذور» وعودة إلى «الجزئيات» تُؤكِّد:

إن الكون، هذا الأساس لصرح كل دين، إنما يقيناً تُكوِّنه هذه «الجزئيات» التي من أصحّ التعاريف تعريفها «بالبذور» بيْد أن والكون إنما منها متألّف ومنها مُكوَّن تكون أشبه هي من «الجزئيات» ومن «البذور» بالحروف الأبجدية... وأن تكون من هذه الحروف الأبجدية تتشكل رواية الكون!

ولكن! بالحروف الأبجدية إنما يجري مداد واحد!...

من ثم فيقيناً إن قطّ لا يمكن أن تكون هذه «الحروف»، كما يقول إنكساجوراس، متجزئة وإنما يستلزم أن تكون وحدات متناهية في الدقّة ولا متناهية في العدد، متفاوتة الحجم شكلاً ومقداراً وقط لا تختلف مطلقاً من حيث الكَيْف سرمدية وغير مخلوقة وصلبة ليس لها القدرة على التغيّر، ومن ثم فأصح وصف يفي بوصف هذه البذور أو الذرات وصف كل واحدة منها بأنها: **جوهر فرد**

غير متفاوتها الجوهر هذه «الجواهر» وتفاوتها إنما قاصر على الحجم والشكل ومنها يتألف كل ما يمور به الوجود من أشكال وأنواع وصُوَر ولا يُؤلِّف بعضها ببعض إلاّ الحركة!

بفعل الحركة تتقابل هذه «الجواهر الفردة» على أنحاء لا تُحصى فتتشابك بنتوءاتها وتتألف من مجاميع تُكوِّن الأجسام المحسوسة، وعن طريق هذا التكون أو بالأحرى بهذا التكوُّن تبرز مظاهر هذا العالم المتغيّر بما يضمه من صلدٍ جمادٍ ولهب حياة، فمنها كل شيء يتألف حتى النفس ولكن لما كانت النفس، مُجانسة للنار ونفس ما يُكوِّن النار هو نفس ما يُكوِّن النفس فإن النفس متألفة، كالنار، من الذرات صغيرة الحجم دائرية الشكل سريعة الحركة، غير تلك التي يتألف منها صلد الحجر والتي بفعل الحركة أيضاً تفترق وتنحل ليتألف غيرها فلا يرجع اختلاف الأجسام وخصائصها إلاّ إلى اختلاف الجواهر المؤلفة لها شكلاً ومقداراً، وأما الكيفيات والخصائص فليست إلاّ مجرّد؛ اصطلاح!

كلا! إن العقل الإنساني في تفكيره الراهن، وهو المُفسّر للوجود تفسيراً عقلياً، لا يقول قوله في تفسيره الصوفي إن الكيفيات والخصائص ليست إلاّ وهماً وإنما يُفسّرها باصطلاحات وليسترسل على أسس هذا التفسير يقول:

بناء الوجود لبنته «الجواهر الفردة».. لا تُؤلِّف ما فيه من صور إلاّ ما بين «الجواهر الفردة» من تآلف فمن تلاقيها يتركّب الكون وبافتراقها ينحلّ ولا تتفاوت الأجسام إلاّ بتفاوت نسباتها بعضها إلى بعض وليس إلاّ من هذه الأجسام اللاّمحسوسة الخالية من الثقل يتكون هذا المحسوس الثقيل، فإن كل مرئي ومحسوس ليس في حقيقته إلاّ انتظام «الجواهر الفردة» التي لا تختلف إلاّ في الحجم والشكل وليست الخصائص المحسوسة والبادية للحواس، من لون وطعم وشم وضوضاء خصائص في الأجسام نفسها وإنما هي أثر ائتلاف هذه الذرات على أعضاء الحواس وعلى شبكة العين! فإنها، وهي الخالية من الكيفيات، تجيء بالكيفيات البادية للحواس.

يقيناً إن العقل الإنساني في خطوته الراهنة قد أسهم مساهمة مهمة في مشكلة الخصائص ومدركات الحواس وهو يسترسل شارحاً هذه الذرات فيقول: ما الكون في

حقيقته، ومن هذه «الجواهر الفردة» قد كُوّنت الطبيعة، إلاّ بناء ذري التركيب وليست صُوره إلاّ صياغة من هذه «الجواهر الفردة» من ثم، ومن هذه «الجواهر الفردة» قد كوّنت الطبيعة، فإن، وهذه الجواهر بالطبيعة متجانسة وطبيعتها امتداد، يكون الوجود طبيعته: **امتداد**

عن طريق ائتلاف الذَّرات وانفصالها تُصوّر وتُمحى كل مظاهر هذا العالم المتغيّر وهذا يُحتِّم وجود سيالات مستمرة الجريان بين الذرات، ومن ثم فما «التغيّر» إلاّ بسبب وجود سيالات مستمرة بين الذرات بعضها وبعض، ومن ثم فلا يعدو الوجود عن أن يكون إلاّ: **امتداداً وحركة!**

ولكن! العقل الإنساني الذي وجد نفسه بديموقريطس يبلغ الحدّ من هذه النهاية، التي كان قد شقها بخطوته الإنكساجورية، لا يجد نفسه يقف أمام «منظماً» و«محركاً» و«عقلاً» كان وجوده لهذه «الحركة» سبباً وإنما يجد نفسه يقف أمام ذرّات تبدو الحركة فيها ذاتية، ومن ثم تخطيه هذه النهاية قائلاً: إن الذرات **ذاتية الحركة**

بيْدَ أن القول بالحركة الذاتية للذرّات يأتي بمشكلة جديدة فإن اتخاذ هذا القول عقيدة إنما، إلى جانب اقتضائه الأزلية، يقتضي وجود خلاء أو فارغ فضاءٍ بين هذه الذرات يمكّنها من التحرك فيه للبناء والانتظام، ومن ثم ارتفاع الصوت الديموقريطسي يؤكد القول بوجود الخلاء ولا متناهي فضاء!

لا ثمة شك في أن الكون مؤلّف من شيئين: **الجواهر الفردة والخلاء وأن الخلاء** أو الفضاء الفارغ لا متناهٍ في الامتداد وأن **الجواهر** الفردة لا متناهية في العدد وهي بما لها من حركة ذاتية ودائمة في الخلاء تنسج كل مظاهر هذا الوجود وأن من ائتلافها هذا يبنى الوجود، فإن الجوهر الفرد إنما **كتلة** وكتلة مطلقة!... كلِ ذرة من الذرات هي عالم لا يمكن ولوجه مطوي على ذاته وغير مجزأ لأنه في داخله لا يحتوي على خلاء يتجزأ رياضياً ولا يتجزأ مادياً، ومن حركته هذه السرمدية في الخلاء السرمدي بني الوجود وبنيت وتبنى مظاهره، ومن ثم فليس الوجود، والجوهر الفرد إنما كتلة مادية، بناءً رياضياً وإنما تركيب طبيعي مادّي! بناء طبيعيّ ماديّ إنما الوجود وقط ليس بناءً رياضياً فإنما قد حاكته وتحيكه حركة هذه الكتل المادية فيه والمسماة الجواهر الفردة والتي كل ذرة منها إنما في داخلها لا متغيرة والسكون البارمنيدسي لها طبيعة فيه ساكنة تمام السكون وليس الشيء الوحيد الذي فعلته وتفعله للتألف والذرات الأخرى إلاّ الحركة الذاتية، التي تؤديها في رحاب هذا الفضاء اللاّمتناهي، وأما كيف نشأت هذه الحركة الذاتية فإن في هذا الفضاء اللاّمتناهي قد تحركت الذرات حركة أفقية فاصطدمت بعضها ببعض اصطداماً نشأت عنه تلك الحركة الدوّارة

على شكل الدوّامة التي قالت بها الإمباذوقليسية والتي عنها، عن هذه الحركة الدوامية وعن طريق هذا التصادم، تتشابك الذرات وتتكوّن الأجسام الطبيعية فتتولّد شتّى الأحجام والأشكال والأنواع والأجناس ليس إلاّ تحت هذه الصورة من التكوين، قبل انفراطٍ لجديد تكوين، قد كُوّن هذا الكون المشاهد ونشأ هذا الوجود المرئي المحسوس!

ولكن! العقل البشري لا يحلّ مشكلة حتى تجابهه مشكلة أخرى فله قد لاحق في خطوته الراهنة والأيام من حوله تنفرطِ وتتجمّع إلى أعوام من الأسئلة هذا السؤال:

إذا كانت هذه الذرات قد اندفعت في حركة أفقية في رحاب هذا الفضاء اللاّمتناهي لتنشأ فيها هذه الحركة الذاتية التي تشابكت بسببها تشابكاً نشأ به الكون وبه دارت هذه الحركة الدوّارة تدير مدار الأزمان فما هو هذا **الدافع**؟..

ما هو الدافع الذي دفع هذه الذرات إلى الحركة والذي تحت تأثيره تتجمّع وتنتظم للبناء؟.

سؤال، عليه دارت اللوالب الفكرية حيْرى والعين من ديموقريطس تتطلّع إلى أفقٍ عهده لم يعد العهد الذي كان قد صاغ فيه «الجوهر الفرد» وإنما عهد فيه موجة التنافس السياسي قد امتدت زاحفة هديرها يعلن أن سعير التطاحن بين أثينا وإسبارطة الذي كان وشيك الانقداح قد انقدحت منه اللهب وتناثرت حمماً!... أفق اغبرت منه الأرجاء واقتمت منه الأعماق وملأت حواشيه من هذا التطاحن نيران حرب البلوبونيس التي اندلعت سنة ٤٣١ ق.م وتناولت مرافق الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كافة، بل إن الدخان من هذه النيران المشتعلة المترعة هذا الأفق إنما يزيد قتامها على قتامٍ قتاماً رواح بريكليس في راحة الزمن، ٤٢٩ ق.م، ويضاعفه الوباء الذي اكتسح في نفس الآن الإغريق قاطبة وخاصة أثينا والذي هوى بتعداد سكانها إلى مستوى لم ترتفع بعده إلى ما كانت عليه من قبل، فلم يترك داراً على أرضها إلاّ وطوّقها مُدمِّراً غير مبالٍ بما يتصاعد في جوانبها من تضرُّعات صارخة وتضرعات مستصرخة لا يجيبه إلاّ رهيب صمت يحوّل استصراخها صراخاً وضراعاتها عويلاً كأن الوجود من نفس به تحسُّ أو عقل له يرعى خواء وخلاء!

في هذا الأفق تلفت العقل الإنساني يستوحي لسؤاله الجواب فجابهه باقتتام اقتمت باقتتامه منه للنفس أرجاء عكس ما أمامها من حالك أحداث ليجد نفسه تحت هذا الشعور الذي يعاني فيه الفكر متضارب العناء وخليط الفِكَر يقول: **آلياً يبدو الوجود!**

كلا! بل يقيناً إن الوجود آلي الحركة خليّ الغاية مما يؤكد أن الذرات قد انتظمت وتنتظم أجساماً من تلقاء نفسها وتحركت وتتحرك هذه الحركة الذاتية من تلقاء ذاتها وليس هناك دافع لها قد دفع أو لحركتها محرِّك قد حرّك!

يقيناً إن الأرجاء الكونية خلية من قانون غائي محكوم بعقل وإلاّ ما تخبّط الكون هذا التخبّط! متخبط الكون وفيه تتحكم اللاّغاية فحتى ذاك الذي جاء بالبرهان الغائي إنما قد كُفِّر ثم وهو الذي وضع للوجود علّة عاقلة هي لإله الدين الرسمي عادمة إنما عليه قد حكم بالإعدام، مما يؤكد أن:

«ليست هناك للحركة والنظام غاية!».

ديموقريطس

«ليس هناك إلاّ ذرات محكومة بقانون طبيعي آليّ!».

ديموقريطس

قط لا يعدو الوجود عن أن يكون إلاّ امتداداً والذرات فيه ذاتية الحركة وهذا برهان على أن الكون ليس إلاّ خلاء خلّي الأرجاء من قانون عقلي، وأنه محض آليّ فنفسه على نفسه وبنفسه على نفسه هذا القانون المُشاهد شاهد فهو يسير غير آبه بالجماعات والأفراد يكتسح ويبيد وبمشاعر الأحياء غير شاعر، بل وكأنه بمشاعر هذه المشاعر مستخف وهازىء!. أوشك بعد في أن الكون من عقل خليّ وأن من قانون غائي خلاؤه خلاء؟!

التفسير فسّرت النظرة الذرّية الطبيعية الطبيعة ففسّرتها تفسيراً آلياً قائماً على أُسس المادة والحركة الذاتية محكومة بقوانين لا يمكن تفسيرها إلاّ بقوانين طبيعية ليس فيها نفس ولا وراءها عقل، وهذا تفسير يتكشّف عن نقطة ضعف في فلسفة بلغت القمة في الحركة العقلية والتأمل الفكري عن طبيعة الكون مذ بدأها هذا التفكير بطالس لقيامها على أسس التأمل في الطبيعة وآليته المشاهدة دون الاستناد إلى الحواس، ولكن لم يكن إلاّ بإيحاء وحي من تلك الأحداث أن ردّ ديموقريطس المادة إلى الامتداد دون كيفية وعلى الحركة اقتصر وجعلها «للجواهر الفردة» ذاتية ليتخذ هذا برهاناً لمذهب ذهب فيه بالآلية إلى حدّها الأقصى بإعلانه فراغ الفراغ من نفسٍ كلية سواءً أكانت هذه النفس وعياً علمياً أم عقلاً كونياً، فهو فقد وقف حائراً أمام الطبيعة يتلمّس من خلال هذه الأحداث الزمنية عقلاً فلم يجد من حوله إلاّ أنيناً وعويلاً وصخباً ودخاناً يحول بينه والإصغاء إلى شيء في طوايا نفسه يهتف بوجود مُوجِد أو منظِّم ومحرِّك.. تلمس العقل الإنساني في هذه الفوضى «عقلاً» يكون هو المنظِّم، فردّته الفوضى المستشرية حائراً حتى على تربة النفس منه امتدّت موجة الشك العارم عارمة فطغت في طغيان على الحاسة الدينية في طواياه!

أجل... إلى ظواهر الفوضى في الحياة البشرية ومظاهر الآلية والأسباب الطبيعية في الطبيعة الخارجية انصرف العقل الإنساني في نظرته الديموقريطسية انصرافاً كلياً صرفه عن

الطبيعة الداخلية، من ثم فعن النفس لديموقريطس لا تسل كلا ولا عن خلود له تسل، فليس لديه إلاّ ذرّات تتحرّك وتأتلف وتتألف مجاميع بتألفها طفت عبر الكون كينونتك وبانحلالها ستذوب ذوباً منك الكينونة وستتلاشى تلاشياً ما تسميه منك بالنفس!... عن سبر العالم الداخلي صرفته أحداث العالم الخارجي وغمرته من الطبيعة الخارجية المظاهر من الأحداث فنسي في غمرتها نفسه وغابت عنه من ذاته الذات!... غابت عن العقل الإنساني في راهن فلسفته من ذاته الذات، وبذلك بلغ النهاية التي بدأت بطالس فمنذ تفتّح العقل تحت المظهر الطالسي فكراً على نفسه يعتمد حتى الديموقريطسي لم تك الطبيعة الخارجية إلاّ مقياس الطبيعة الداخلية أو الإنسان!

حتماً من ثم كان لا بدّ من عاملٍ لإدخال الذات في دائرة تفكير الذات!

ومن ثم كان لا بدّ أن تعقب هذه الخطوة العقلية تلك الظاهرة التي تقلّب عليها مظهران مختلفان والتي كان حتماً أن يسبق مظهرها الآخر، الذي التفت فيه العقل إلى ذاته واستوعب تفكيره رحاب العالم الداخلي فسجّل تطوراً روحياً، مظهرها الأول الذي مثلته نزعة جاءت نتيجة حتمية للأوضاع السياسية التي ولدتها الإمبراطورية البريكليسية وسبّبها تواري الدويلات الذي تنافرت بسببه في تشابه للسياسة أغراض استدعت استخدام البيان استخداماً ما لبث أن امتدّ من دائرة السياسة إلى دائرة الدين، ومن دائرة الدين إلى دائرة الفلسفة لتسجّل هذه النزعة التي جاءت في النصف الثاني من القرن الخامس ق.م:

التفكير الديني في عصر التنوير

في أثينا استهلّ هذا العصر تاريخه غداة غدا البيان أمراً من الضروريات المميزة للقضايا ووقفاً على ممثلي هذه النزعة التي نعرفها بالسفسطائية التي طلعت متهكمة على ما جاء به العقل الإنساني من فِكَر وفلسفات والتي برز في دائرة التفكير الديني منها التفكير عندما انتقلت من ميدان السياسة إلى رحاب الفِكَر الدينية في الفلسفة تُلقي عليه من ألوانها ألواناً بعد أن امتدت إلى نطاق الدين الرسمي للبلاد تنزل به أعنف الحملات متخذة مسانداً لها نفس التفكير الفلسفي الذي هزّ للدين الرسمي، من قبل، صرحاً وقوّض من هذا الصرح الأركان!

من ينبوع التفكير الفلسفي المجترف للدين الرسمي عقائد والمزعزع في هدم لهذا الدين صرحاً حصر نطاقه التفكير الجماعي طويلاً استمدت هذه النزعة قوة بسببها هبّت بطلوعها على صفحة التاريخ الإغريقي رياح تكاثفت من حول «العائلة المقدسة» وبالدين الرسمي أحدقت تحاول لصرحه من النفس الجماعية اقتلاعاً، فقد هبّت هذه الرياح عنيفة تحدق،

وليس إلاّ على «العائلة المقدسة» تترابط أواصر الدين الرسمي، بالأوليمبس ومن حول أعضاء «العائلة المقدسة» تتجمّع ولعضوٍ بعد عضوٍ من هذه العائلة تُطوّح وفي هباء نثراً له تنثر! بيد أن من عجيب المفارقات أن هذه النزعة التي اتخذت مدداً نفس التفكير الفلسفي في مهاجمتها «العائلة المقدسة» إنما قد اندفعت منها الرياح عتية تُعفِّر الأفق الفلسفي بغبار التهكم والتشكيك!

على دفع هذه الرياح تدافع في تعاقبٍ «بروتاجوراس» و«جورجياس» و«هيبياس» من به تجلّى «التهكم السفسطائي» و«التشكيك السفسطائي» أتمّ تجلّ، فبهم متمثلة جاءت هذه النزعة وبهم إلى المذاهب الفلسفية امتدت تُعارض، بوسيلة البيان المعتمد على التلاعب اللفظي المستند على اشتراك الألفاظ وإبهام المعاني المبرز الشيء ونقيضه في وقت واحد كشيء واحد، مذهباً بمذهب وتُبطل مذهباً عن طريق إبطال مذهب ولتأييد حجّتها تقارع وتنتقد فلسفة بحجج فلسفة!..

للفلسفة التي استمدت منها المدد في هدمها الدين الرسمي تعرّضت هذه النزعة وبفلسفة عارضت في تهكم فلسفة فشككت العقل في العقليات بشك أشعلت سعيره من نفس جذوة العقليات، فمن الهيراقليطسية استمدّت من التغيّر المتصل والوجود الجزئي الملتقي الأضداد مدداً اتخذته لنفسها حجة وامتدت على إثره بلسان «بروتاجوراس» تتساءل:

أنى يمكن الحكم على حقيقة الوجود، وجوهر الوجود وطبيعته إنما التغيُّر؟!

إن بالفروق التكوينية والشعورية تختلف الكائنات البشرية اختلافاً كلياً ولا ثمة شيء واحد يوجد في ذاته، وإن الأشياء إنما تتعدد بالضرورة وتتناقض وهي بالنسبة لكل كائن على ما تبدو له، ومن ثم فلا يوجد شيء يمكن أن يوصف كما هو تماماً مما ينادي باليقين بأن:

«الإنسان مقياس كل شيء!»

بروتاجوراس

طويلاً عرف العقل الإنساني وعرّف أن هناك شيئاً اسمه الحقيقة المستترة وأنها ماهية يشترك فيها الناس سواء... ولكن! إذا كانت الأشياء هي بالنسبة لكل كائن على ما تبدو له ألا تغدو الحقيقة أن لا شيء هناك اسمه الحقيقة المستترة التي يشترك فيها الناس جميعاً؟! لا شيء هناك اسمه الحقيقة فإن هي إلاّ «حقائق» متعددة بتعدد الأشخاص وتعدُّد حالات الشخص الواحد وإذا تعدّدت الحقائق فيقيناً من ثم إن:

«لا شيء هناك اسمه الحقيقة!»

جورجياس

من ثم، ولا شيء هناك اسمه الحقيقة والإنسان مقياس كل شيء ولكل إنسان علم أو بالأحرى وجود هو على ما يبدو له عن الآخر مختلف، يمتنع يقيناً العلم بالوجود!

وإذا امتنع العلم بالوجود ألا يمتنع بالتالي العلم بما وراء الوجود أو بالأحرى بما نسميه الإلهيات؟...

بثمار العقل الإنساني عصف «الشك السفسطائي» بامتداده إلى دائرة الطبيعة، هذا الأساس لصرح كل دين، فشكك العقل بالعقل وليتمادى وعلى القيم الأخلاقية يتهكم «التهكم السفسطائي» منادياً بأن الطبيعة الإنسانية إنما الشهوة وأن القيم الأخلاقية إنما قيود على الإنسان فُرضت، هذا بعد أن امتدّ إلى نطاق الدين الرسمي للبلاد يُنزل به أعنف الحملات لحظة جهارة استهلت النزعة السفسطائية إلقاء تعاليمها النافية وجود «العائلة المقدسة» عن طريق تعليم النشء وتعليمهم علم البيان متخذة إلى هدفها وسيلة؛ **طريقة التشكيك**.

استهلّ هذا التشكيك في وجود الأرباب تاريخه بألمع اسم في المدرسة السفسطائية «بروتاجوراس» فقد طرح وجود الأرباب للشك عن طريق إثارة البحث في عقلية النشء عن نشأة وأصل وجود الأرباب...

وعن طريق هذا البحث في نشأة وأصل وجود أفراد «العائلة المقدسة» لجّ الشك في وجود الأرباب عقلية النشء ولينمو هذا الشك بنمو هذا النشء وليدفع بهم إلى آفاق التفكير الحر الذي عادوا منه باليقين بأن ليس هناك حقيقة للأرباب وجود، وليستهل هذا اليقين مظهره الساخر بذلك النقد الذي أخذ ينصبّ جهارة على الدين القائم انصباباً من أصحاب هذه العقلية المتحررة ومن ثم لجت، سائر طبقات العقلية الإغريقية، موجة الشك في وجود الأرباب وامتدت جارفة تكتسح لأفراد العائلة المقدسة وجوداً اكتساحاً بسببه سجّل تاريخ التفكير الديني أن أهمّ مستحدثات السفسطائية في عصر التنوير:

انهيار العائلة المقدسة!

في أفق التفكير الحر انفرط عقد «العائلة المقدسة» ومن أرجائه بدأ تلاشيها ولكن لتترك هذه الظاهرة أثرها فقد سجّل التاريخ الديني أن لعصر التنوير يعود السبب في:

سفور النزاع بين الدين الرسمي والفكر الحرّ

إن على قوائم «العائلة المقدسة» يقوم الدين القائم وانهيار «العائلة المقدسة» إنما معناه انهيار الدين الرسمي وهذا صرح «العائلة المقدسة» قد زعزعه نقد الفكر الحر وهذا الدين الرسمي قد غدا هدفاً للنقد بل وللنقد الصائب من ممثلي الفكر الحر!... أمر لم يحتمله الدين القائم

في نفس الآن الذي لا يجد في نفسه قوى تستطيع بمنطقها أن تصدّ هذا التيار النقدي ومن ثم فاندفاعه بممثليه يستمد من قوة الدولة عن نفسه دفاعاً وعضدّته الدولة فاندفع طاغياً يصول ويصلي!... إلى اتخاذ المنطق سلاحاً افتقر الدين القائم وأعوزته مقارعة الحجة بالحجة والرأي بالرأي فاتخذ دفاعه عن نفسه مظهر الانتقام وصورة الاضطهاد وتحت شعور صادق من الحمية والعصبية الدينية استهل حملته الاضطهادية ينزلها بمنشيء هذا الشك مَن كان سبباً في إثارة هذا المروق من الدين الرسمي في عقلية النشء وأُدين بروتاجوراس بتهمة الإلحاد!

وفي طغيانه وصولته تمادى الدين القائم فراح بممثليه يُنزل بممثلي الفكر الحر ألوان التنكيل والاضطهاد فلم يقتصر على رميه بروتاجوراس بتهمة الإلحاد وإنما لبعض أدان وببعض أنزل الحكم بالإعدام!

ولكن! لئن بممثليه كان الدين القائم قد صال وأصلى ومن قوة الدولة استمدّ بطشه الخفي بطشاً سافراً، فليس ذلك إلاّ ليُنبّه العقلية الحديثة إلى البحث في صحة معتقداتها الموروثة وعقائدها المتوارثة، وليس ذلك إلاّ ليزيد العقلية المتحررة تحرراً من ربقة هذا الدين الرسمي الذي يُفرض عليهم فرضاً، وليس ذلك إلاّ ليلفت العقل الإغريقي عامة إلى ضعفه ديناً أعوز ممثليه البيان وأضلّتهم الحمية وأعماهم التعصّب فتسلّحوا بالبطش والبطش ضعف سافر!.. ولكن لئن قاد حب البيان وفن الكلام وغزارة المعاني السفسطائية العقلية الإغريقية إلى البحث في أمر معتقدها الدين والتثبّت من صحة هذا الدين المتوارث القائم على عبادة «العائلة المقدسة» بالبحث في نشأة وأصل الأرباب، إلاّ أن هذا البحث قد قاد من ناحية غير مباشرة هذه العقلية إلى موقف وقفت فيه فاقدة الاتزان مفقودة التوازن بين إيمان قديم تليد وإيمان جديد عتيد تدغم القديم في الجديد وتدمغ بالجديد القديم فوقفت موقفاً سجّل:

محاولة التوفيق بين الدين الرسميّ والفكر الحر

كأثر للتشكيك السفسطائي تناولت هذه الناحية من العقلية الإغريقية المثقفة «الهوميريات» تناولاً جديداً في التصاق بالقديم وتوثُّب إلى الجديد وتحت عامل من هذه المؤثرات امتدت تُعلّق وتشرح وتفسّر تتناول فرائض الدين بالشروح وقصصه بالتفسير وعلى ألوان العبادات فيه تعلّق تحاول تطبيقاً بين ما جاء به النقل وما جاء به العقل وتوثيقاً بين ما قد ورد في هذه السجلات من قصص عن نشأة الأرباب وما قد نهلته من مصادر علم البيان، ولكن لتأتي هذه الشروح الدينية والتفاسير للقصص والتعاليق على المعتقدات بنتيجتها الحتمية التي أسفرت عن تجريد أفراد «العائلة المقدسة» من صفة الربوبية وتحولهم إلى مجرّد معانٍ ومعنويات، فقد لفت المعنى اللفظي لعصر التنوير هذه الناحية من العقلية الإغريقية إلى اسم

كل رب وربّة على حدة، فبدأت أسماء أفراد العائلة المقدسة تتخذ معنى المعنويات حتى تلاشت تماماً منها الأجساد في معاني المعنويات مما به تستحق السفسطائية، بحبها فن الكلام وتعليمها البيان، أن تُوصف بأنها مؤسسة علم الدين أو علم اللاّهوت...

يطالعنا في طليعة هذه الطبقة من المُفسّرين والشارحين لهذه السجلات الدينية التي كانت قد غدت كتاباً نصوصه تُدرّس للنشء في المدارس:

ثياجينش

استهلّ هذا المفسّر والشارح الأول شرحه التفسيري الذي حوّل الأرباب إلى المعنويات بقوله:

إن المرء إنما يعتبر خاطئاً إذا اعتبر أن للأرباب وجوداً، فإن الهوميريات إذ تقول بوجود الأرباب فإنها لم تعن قط أن للأرباب وجوداً بالمعنى الذي يفهمه سائر الناس.. كلا فإن الهوميريات لا تعني بهذه الأسماء إلاّ المعنويات!.. وعلى هذا يأتي دليلاً نفس أسماء أفراد «العائلة المقدسة» أنفسهم فأسماؤهم إنما تحمل معنى هذه المعنويات!

إن أبولو وهليوس إنما اسمان لا يعنيان إلاّ؛ النار!

إن نوزيدون اسم يعني؛ الماء!

إن أرتميز اسم يعني؛ القمر!

إن حِرا اسم يعني؛ الهواء!

إن أثينة اسم يعني؛ الحكمة!

إن إفروديت اسم يعني؛ فورة الماء فالزّبد!

وديونيزوس؟ ديونيزوس إنما اسم لا يعني قطّ إلاّ النبيذ!...

بين إيمان القلب وإيمان العقل بين العقيدة الدينية والعقيدة العقلية حاول هذا المعلّق والشارح التوفيق لا عن طريق محاولته تفسير أصل وفكرة الربوبية ونشأة أفراد العائلة المقدسة وإنما عن طريق محاولته إيجاد تفسير عقلي عن الأرباب يكون للعقل مقبولاً، فإن الإجلال والتقديس اللذين كانا قد حفّا بالهوميريات لدى سائر طبقات العقلية الدينية هما اللذان قد دفعاه إلى البحث عن معنى أعمق أو بالأحرى ابتداع حكمة خفية وراء وفي باطن وظاهر الركاكة وغريزي القصص التي جاءت بها هذه السّجلات التي حفّ بها من دَوِّي القرون دوِّي البلاغة والإعجاز.. ومن ثم تتابع في هذا الاتجاه التفسيري بعد شارح شارح كما جاء مؤيِّداً للشارح والمفسّر الأول ذاك الشارح والمفسّر الآخر من نفسه كانَ لإنكساجوراس تلميذاً:

مترودوراس

ضمنياً بكتاب سيّجه السلف بسياج المنعة جاء هذا الشارح يقول: يقيناً إن الهوميريات هي الحكمة ولكن أخطأ فهمها الناس فظنوا أن للأرباب وجوداً بينما الهوميريات لا تعني بأسماء الأرباب إلاّ المعنويات! إن هومير إنما قد استعمل كلمة «الأرباب» **كاصطلاحات** بها جاءت حكمته!

يقيناً إن الهوميريات لا تعني بأسماء الأرباب إلاّ المعنويات، فقط ليس لهؤلاء الذين تسير بأسمائهم مذاهب في الدين الرسمي بها تقوم منه القوائم وجود ماديّ بالمعنى الذي تفهمه عقلية الجماعات، فإنما هؤلاء لا يعنون إلاّ العناصر المختلفة والمتضادة في نظام الطبيعة! إنهم العناصر المتضادة في الطبيعة، هذه العناصر التي تحارب بعضها بعضاً وعلى ذلك دليل تأتي قصص حياتهم نفسها المترعة بالنضال!... إن هذا النضال لا يمحو عنهم صفة الربوبية فحسب بل ويبطلها بطلاناً تاماً فإن؛ «إذا كانت الأرباب تعمل خطأ فليسوا قط بأرباب!»

من ثنايا طبيعة أفراد «العائلة المقدسة» تنحسر الحقيقة وتتجلى مبطلة لوجودهم المادي وجوداً لتعود بهم إلى محض عناصر في الطبيعة ولا شيء سوى ذلك، فإن الرب الوارد ذكره في الفصل الثاني والعشرين من الإلياذة لا يعني إلاّ حرباً بين العناصر وحتى «أغاممنون» نفسه فاسمه اسم لا يعني إلاّ الأثير!

الاتجاه، اتجه التفكير بالشارحين والمفسّرين وبرز جلياً على صفحات تاريخ التفكير الديني بهذين الشارحين ليشتد بروزه بالشارح الآخر:

بروديكس

لمن سبقاه بالشرح جاء هذا الشارح مُعضِّداً وللقصص الدينية جاء تفسيره مؤيداً نافياً وجود «عائلة مقدسة» يؤلفها أرباب وتكوِّنها ربّات وليدوّي صوته في سائر طبقات المجتمع الإغريقي لحظة أعلن:

«إن الناس في الزمن القديم قد اعتبروا كل ما رأوه نافعاً وصالحاً لهم في حياتهم، كالقمر والشمس والنهر والينبوع والحقل والفاكهة والخبز، أرباباً إلاّ أن على بطلان هذه الربوبية تأتي أسماء الأرباب أنفسهم برهاناً ولنأخذ مثلاً «ديمتر».. إن اسم «ديمتر» لا يعني إلاّ الأرض والحصاد والخبز!»

الشروح لعقيدة الربوبية والتفاسير للقصص الدينية كانت شروح الشارحين وتفاسير المُفسّرين التي سجلت عليهم تأرجحاً بين القديم والجديد أرادت هذه الشروح تقويماً للعقيدة

الدينية عن طريق صبغها بالعقليات، بيْد أن على الرغم من محاولتها هذه التي حاولت بها الإبقاء على العقيدة الدينية ساهمت مساهمة فعلية لا إرادية في هدم صرح «العائلة المقدسة» فقد سجلّت:

تحوُّل الأرباب إلى معان ومعنويات

في أرجاء «عصر التنوير» هَوَى صرح «العائلة المقدسة» واعْتُبرَ الدين القائم بأربابه عمل مخيلة جانحة وتمّ تماماً تحوُّل أفراد هذه العائلة إلى المعنويات ليأتي هذا التحوُّل بأثره، فإن الأسس التي وضعها في هذا العصر علم البيان قد جعلت ناحية كبيرة من العقلية الإغريقية تشيح شيئاً فشيئاً عن اعتبار «العائلة المقدسة» إلاّ مجرّد معنويات وليأتي هذا الاعتبار، بالتالي، بأثره الذي يطلع علينا من ثنايا هذا العصر فقد أنار «عصر التنوير» ظلمة الماضي إنارة تلاشى بها أفراد «العائلة المقدسة» تلاشياً تحوّلت به القصص الدينية إلى محض أساطير!

من حيث لم ترد ولم تدر حوّلت هذه «الشروح» القصص الدينية إلى محض أساطير حتى إلى أطياف من خلق مخيلة فجة وجانحة تحوّلت «العائلة المقدسة» في آفاق التفكير الحر تحوُّلاً رجعته أصداءُ الآفاق الشعرية، فقد انحلّت عقدة اللِّسان الإغريقي وانطلق شعراً يُردّد:

«إن أعمال «الأرباب» خطأ كلها!

وإذا كانت أعمال الأرباب خطأ كلها فليس هناك أرباب!»

يوربيدس

عن القصص القائم عليها الدين الرسمي خلع يوربيدس دثار القدسية وجرّدها مما كان قد لفّها به القِدَم تمام التجريد فتجلّت على حقيقتها وهماً من أوهام خيال حدث فِجّ فقدت به في أرجاء التفكير الحر ما قد كان لها في النفس من روعة القديم ليسجّل تاريخ التفكير الديني أن بيوربيدس قد تحوّلت تمام التحوّل، في غضون هذه الفترة من عصر التنوير، القصص الدينية إلى ... مجرّد أساطير!. وليسجّل نفس تاريخ هذا التفكير أن أهمّ مستحدث آخر كان في غضون نفس العصر:

تحوُّل القصص الدينية إلى أساطير!

أثار عصر التنوير ناحية مهمة من أرجاء المخيّلة الإغريقية برزت بممثلي الفكر الحر مِمَّن فارق الوسنُ منهم الجفنَ وانقشعت في تبدُّدٍ عن جبينهم غيوم الوهم وأمست القصص الدينية لديهم لا تعتبر إلاّ أساطير ولينحو بهم هذا الاتجاه الجديد في التفكير منحى جديداً كان لا بدّ أن يأتي بنتائجه الحتمية التي تطالعنا على صفحة التاريخ الديني في صورة هذا النقد اللاذع الذي نحى بالهدم على الوحي الأبولي الدالف من السماء إلى دلفي.. لهدم

هذه العقيدة الفجة، عقيدة الوحي الهابط، اضطّلع «هيرودوتس» و«سوفوكليس» وبالدحض له تناولاً تناولاً رصيناً كان من أثره تهافت صوت هذا الوحي وارتداد مدّه جذراً حتى جفّ تماماً من تربة النفس منه الأثر وحتى إلى باهت ذكرى تحوّل تمام التحوّل في جفن الزمن!

ومن ثم فمستحدث آخر مهم من مستحدثات عصر التنوير كان:

تهافت صوت الوحي الدلفي!

إلى محض أساطير تحوّلت القصص الدينية بيد أن لئن كان تحوُّل القصص الدينية قد جاء بأثره في تهافت الصوت الدلفي من أرجاء التفكير الحر فإن لهذا التحوّل كان أثر أعمق وأخطر سجّلته يد «أرسطو فانس» فمن سطور «أرسطو فانس» يطالعنا التفكير الحر وقد طالعه البون البيّن بين النظرة العقلية للظواهر الطبيعية والتفسير الديني للدين الرسميّ مطالعة بها تزعزع عرش زيوس زعزعة هوى على إثرها المؤلف السحب القاذف بالصواعق من مرتبة الألوهية!

في أرجاء التفكير الحر دوّت صواباً تعقّلات العقل الإنساني في رحابه الفلسفي، مذ بدأ به التعقُّل في مشرق الفجر الفلسفي في أيونيا، دوياً أدرك به أن يستحيل على الألوهة الصحيحة أن تكون على النحو الذي يقول به الدين الرسمي للبلاد، فالإله في رحاب العقليات سواءً أكان روحاً للطبيعة أو وعياً عالمياً أو عقلاً كونياً إنما يتجلّى تحت صورة عقلية تختلف عن صورته الغريزية في نطاق الدين الرسمي والعقل المتحرر لا يرفض منه التفكير فحسب ألوهة كألوهة الدين الرسمي طابعها الجسدية والمكانية والعنصرية، وإنما لها مجاً يمجّ ولها نبذاً ينبذ! ومن ثم فمستحدث آخر من مستحدثات عصر التنوير كان هذا المستحدث الأهم والأخطر الذي سجّل:

انهيار عرش زيوس في أرجاء التفكير الحر!

يغيب في دوّي التاريخ السياسي، والفترة من الزمن تُسجّل بالفترة التي طوت حكم بريكلس ونشرت حروب البلوبونيس، الأثر الذي تركه انهيار عرش زيوس على تربة هذه المدن الإغريقية التي أخذت تتهاوى سياسياً الواحدة تلو الأخرى فانهيار «بولس» بعد «بولس» بين دوي هذه الحروب يعوقنا عن مواصلة الإصغاء إلى اللغط الذي تركه انهيار العرش الزيوسي في نطاق الدين، فحتماً كان أن يُهاجم الدين التفكير الحر وحتماً كان أن يحاول صد هذا التيار الذي اجترف القصص الدينية وحوّلها إلى أساطير وبدّد شتاتاً صوت الوحي الأبولي ودكّ عرش زيوس وهوَى به أنقاضاً، بيد أننا ولئن عاقنا دوّي هذه الحروب وهوّي هذه المدن عن مواصلة الإصغاء إلى مهاجمة الدين للفكر الحر فإننا نستطيع أن نتبين جيداً

الأثر الذي تركه عصر التنوير في مهاجمة الدين، فنحن نرى، من خلال رماد الصروح الهاوية والأنقاض المتهاوية تضاؤل وتلاشي الاحترام الجماعي لمظاهر الدين الرسمي بل ويطالعنا الاستخفاف الجماعي التام بالطقوس المادية!

هذا هو الأثر الذي تركه عصر التنوير في الدين الرسمي.. لم يستطع واهي صرح هذا الدين صموداً في وجه هذه الرياح العاصفة التي انطلقت من سِحْر البيان السفسطائي تعارض عقائد بعقائد إلاّ أن عن الصرح العقلي قد ارتدت هذه الرياح إلاّ من بعض عبث أصاب البناء الفلسفي غداة امتدّت هذه الرياح إلى دائرة الوجود ومن دائرة الوجود إلى سائر المرافق الروحية... عن الصرح الفلسفي ارتدّت عبثاً هذه الرياح لأنها قد خلطت بين العاطفة والغريزة وهوت بالطبيعة الإنسانية وجعلتها هويّ حتى شكّ، يدافع من تأثيرها، الفرد في القيم الأخلاقية شكاً تكاتفت على إبرازه والسفسطائية هذه الفترة الزمنية التي استدارت حوالي نهاية حروب البلوبونيس ورفّ فيها على أثينا الحكم الإسبارطي.. هذه الفترة الزمنية، التي اقتمت بغبار الحروب وزلزلها دوي المدن الهاوية، كانت سبباً جوهرياً لظهور أثر التشكيك السفسطائي في الطبيعة الإنسانية، وللسبب ظهرت على المجتمع الإغريقي هذه الحالة النفسية التي تصيب الجماعات، حتماً، في غمار وعقب الحروب والتي بها دائماً تنزع إلى نزعة استخفافية بالقيم الأخلاقية تدفعها إلى تحطيم ما تستشعره من قيود... هذه الحالة هي التي تملّكت، بالعقل، العقل الجماعي في غضون هذه الفترة وكانت سبباً أساسياً ساعده على الاستخفاف بالدين الرسمي استخفافاً صاحبه في نفس الآن التشكيك السفسطائي في الطبيعة الإنسانية، ومن ثم شمل انطلاق العقل الجماعي من قيود الدين الرسمي، والعقل الجماعي إذا انطلق ينطلق أبداً محموماً أرعن، استخفافاً سافراً بالقيم الأخلاقية فقد توهّمها، بعامل من حمى تمرّده وحمأة غرائزه، إنها للدين تكاليف، ومن ثم اتخذ هذا الاستخفاف بالقيم الأخلاقية لوناً تحللياً صبغ العصر بصبغة الانحلال الأخلاقي...

ولكن... لئن أصاب الشك السفسطائي الهوى الجماعي وعلى العقلية منه طفى في طُغيان حتى كان الرّد الفعلي هذا الهُوِّي في هاوية الهوى وهذا الترذي في دوامة هذا الطوفان من الانحلال الأخلاقي، فإن هذا الشك لم يصب الرحاب الفكري إلاّ بالطفيف من رشاش ما قد أرسلته من أمواج تكسّرت على الشاطىء الفكري وارتدّت عنه جذراً، لارتدادها هدير يُدوِّي بأن هذه النزعة قد انقلبت، رغم قوتها في أول مراحلها، إلى وهن فهي قد رجعت متراجعة تُعلن قصورها عن لجّ لجة الموضوع الأول للعقل منادية بأن غامضاً وشائكاً هذا الموضوع، وأن قصيرة حياة الإنسان وليس هذا فحسب وإنما على النقيض لم يك هذا الرشاش الشكي الذي أصاب الصرح الفلسفي إلاّ عاملاً لإدخال الذات، في دائرة

تفكير الذات فليس إلاّ الشك عاملاً في إدخال الذات في تفكير الذات وليس إلاّ الشك دافعاً لإلفات الإنسان إلى ذاته، فإن للتقدم الروحي، كما للعقلي، أبداً الشك مقدمة فأبداً يعقب الشك سؤال؛

تُرى ما هو وما ماهية هذا الإنسان الذي هو مقياس كل شيء وما هي منه الذات؟..

سؤال مثّل المظهر الآخر لتلك الظاهرة التي كان لا بدّ أن يتعاقب عليها مظهران لئن كان في عصر التنوير مظهرها الأول اللون السفسطائي، أو هذه النزعة التي ليست هي إلاّ من مراحل حياة العقل الإنساني مرحلة له يجتاز واجتيازه لها ضرورة حتمية، فهو لا يجتازها إلاّ لينزع عن هذه النزعة إلى نفسه وإلى نفسه يخلص خالصاً وفي نفسه يُفكّر، فإن مظهرها الآخر هو هذا المظهر الذي فيه إلى نفسه خلص العقل الإنساني وفي نفسه أرسل الفكر منه يفكّر فسجّل تطوراً روحياً لحظة شقّ طريقه إلى الظهور ليشرق هذه المرة إشراقاً اختلف منه المظهر عن المظاهر السابقة بإشراقه مثلاً بارزاً لتجسُّد الوعي الاجتماعي، فهو لا يحاول هذه المرة إلاّ أن **يجد نفسه** وإلاّ أن يستخلص من هذا الوجود **وجود نفسه**... حصر اهتمامه من هذا الوجود وفي هذا الوجود وجود نفسه ومن ثم تحوله، في خضم هذا الانحلال الأخلاقي، يلج لجة العالم الداخلي يحاول أن يتعرف بنفسه إلى نفسه محاولة اتجه بها إلى الناحية الأخلاقية ليهبّ منبهاً إلى الفضيلة وليتحوّل به التفكير الديني تحوّلاً جديداً اتخذ أبرز مظاهره بأول شخصية في المدرسة الأثينية بمن بها يطالعنا:

التفكير الديني في الفلسفة الأخلاقية

من خلال «غيوم أرسطوفانس» وعبر «ذكريات اكسينوفان» نلمح سقراط... لمّاحاً هذه الشخصية من خلال هذه «الغيوم» وعبر هذه «الذكريات» حتى تطلع علينا واضحة تمام الوضوح في أرجاء «الجمهورية الأفلاطونية» فتطالعنا شخصية عبرت مغْبَر الزمن (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق.م)، وقد حُفّت بالطهر وحفّ بها الطهر فهي تعطينا، بتغليب العقل منها على الحواس فيها، مثلاً لسلطان العقل على الجسد وفكرة عن ثنائية الجسم والنفس، تلك الثنائية التي تفصل عن الجسم النفس، وهي بوقوفها أمام «التهكم السفسطائي»، المستند على اشتراك الألفاظ وإبهام المعاني وجدله المستند على هذه الألفاظ المشتركة والمعاني المبهمة في تحاشي الحدّ الكاشف عن المغالطة، عليه متهكمة تعطينا صورة صحيحة للتهكم الرصين، فهي قد وقفت تتأمل هذا التلاعب اللفظي المغالط المبرز الشيء ونقيضه في وقت واحد كشيء واحد تأملاً عكفت على أثره تحدِّد الألفاظ والمعاني وتعنى باستخلاص الماهيات المشتركة بين الجزئيات لتصل إلى تعاريف تستخدمها في مجادلة الجدل بالجدل ودحض التهكم وهدم

الشك الهادم بتشكيكه في نفسه عن طريق الشك اللاّهادم، ومن ثم جاءت تستخدم الاستقراء فتدرّجت من الجزئيات إلى الماهيات المشتركة وللحدِّ من هذه الماهية طلبت الحدّ الكلي فوضعت للعلم مناهج استنّت بها قواعد البحث والمنطق على استخلاص الحدود والتعريفات من المشاهدات والمحسوسات وجعلت هذه الحدود أساساً للقياس وترتيب النتائج ثم المقدمات موجهة التفكير إلى الفصل بين خصائص الأشياء ومُقوّماتها توجيهاً بسببه سجّل تاريخ الفكر أن العقل الإنساني قد هبّ يُجادل «الجدل السفسطائي» «بالجدل السقراطي» ويتهكم على «التهكم السفسطائي» «بالتهكم السقراطي» ساخراً من هذه النزعة المدعية العلم دون ما علمٍ متنادياً:

حتى الآن! حتى الآن والعقل الإنساني في اقترابه نحو مشاكل العقل لم تسجّل خطاه إلاّ أن الإنسان نتاج الطبيعة وعلى هذا الأساس ربط العقل بين الطبيعة والإله والنفس، فإنه بأكثر ممن بهم قد تمثّل إنما قد جاء بوحدة مستمدة من الطبيعة الداخلية أو النفس دون التفاتٍ إلى سبر هذه الطبيعة الداخلية أو النفس! حتى الآن عن النظر إلى داخل نفسه قد صدف الإنسان!.. حتى الآن لم تك الطبيعة الخارجية إلاّ مقياس الإنسان، ومن ثم فقد آن الآن لأن تُسبر النفس!... الآن إنما الآن الذي قد آن لأن يتنبّه فيه الإنسان إلى المعنى من وراء الحكمة الدِلْفية المسطّرة على باب «بيت أبولو»: **«اعرف نفسك!»**

متى عرف الإنسان نفسه بلغ الصحيح من المعرفة، فقط لن يُتاح للإنسان معرفة العالم الخارجي إلاّ عن طريق معرفة العالم الداخلي ولكن!.. قطّ لن يُتاح للإنسان معرفة العالم الداخلي إلاّ عن طريق الطهارة الداخلية وإخماد لهب الجسد بإشعاع العقل!

لا ثمة شك في أن للتعليم الأُورفي في طهارة النفس وتغليب صوت العقل على صراخ الجسد كانت هذه الشخصية مثلاً فبها تجسّدت للأُورفية تعاليم، ومن ثم مثّلت القدسية الأورفية على أتم وجه ولكن في ابتعاد عن طقوسها وحفلاتها التطهّرية، فإنما الطهر الذي خضّب هذه الخطوة للعقل الإنساني قد انحصر في خلوص القلب وصفاء الضمير.. العقل الإنساني في تمثله بهذه الشخصية قد حصره الاهتمام في النفس وفي إقامة متصدّع قواعد الأخلاق بوقوفه في دائرة الأخلاق ينادي عصراً، استطاب لنفسه غاية غايتها اللذة السادرة حتى راح يُردِّد القول السفسطائي بأن الطبيعة الإنسانية إنما الشهوة، بأن آن له أن يُفرّق بين السادر من اللّذات والخالد منها وبالإنسان فيه يهيب:

يا أيها الإنسان! إنك روح على الحس فيك العقل منك يسيطر فغايتك من ثم غاية عقلية روحية!. إن غايتك غاية لا تتحقّق تماماً إلاّ حين **تجد نفسك** وحينذاك فقط تعرف نفسك

ولكن! لن يتحقق لك بلوغ هذه الغاية تماماً إلاّ حين يخْلُص من هذا الجسم ما هو أنت! وأنت؟.. أنت النفس! متى خلصت النفس من الجسم خلصت من شواغله وفرغت لعملها الخاصّ وعملها الخاص هو الفكر.. ولكن! حتى هذا الحين، هناك على النفس واجب هو التهيؤ لدخول عالمها، وهذا الواجب ينحصر في: الفضيلة!

إن للفضيلة ماهية تنحصر في معرفة النفس نفسها، فمتى عرفت الذات ذاتها آثرت الفضيلة لإيقانها بها لذة باقية غير سادرة، وإذا كان العقل الجماعي قد انطلق من قيود الدين الرسمي وعبث بمظاهر عباداته وطقوسه عبثاً أعقبه التحلّل من القيم الأخلاقية لتوهمه أنها للدين الرسمي تكاليف فهو واهم! واهم هو إذا حسب أن انطلاقه من الدين الرسمي للبلاد انطلاق من القيم الأخلاقية ومن الحاسة الدينية في طواياه! إن الإنسان إذا خال أن هناك لا دين فإنه واهم لأن هناك في كل نفس كامن دين لا تستطيع أي نفس لجذوته في أعماقها إخماداً ولا لبذرته من تربتها اقتلاعاً لأنه جبلّتها الحقيقية ونفس ماهيتها، فهو دين **النفس نفسها** المتمثّل في «الضمير».. هذا هو الدين الواحد الحق والذي يتشارك فيه الناس جميعاً لأنه الدين الواصل بين النفس ومصدرها أو الإله الحق!.. في كل نفس إنما هذا الدين بذرة كامنة ولكن لا يُنمّي بذرة هذا الدين الكامنة في تربة النفس إلاّ العلم بالفضيلة ومن ثم فإن: «الفضيلة عِلْم والرذيلة جهل».

سقراط

إن **مجرّد معرفة الفضيلة كافٍ لإتيانها**؛ يكفي أن يعلم الإنسان ويتعلّم الفضيلة ويُبصَّر بالخير يكفي أن يوجه إليهما حتى يعتنقها ديناً... إن كل موجود فمطبوع على طلب الخير والعدل والهرب من الشر والظلم، ومن ثم فالشر ليس إلاّ من الإنسان بنفسه جهل وبغيره جهل! وقطّ لا يمكن أن يقال إنه يرتكب الشرّ عمداً فإنه نفسٌ، والنفس قدسية المصدر والمصدر إنما العدل والخير!

«إن إنكساجوراس قد اتخذ الحكمة المتمثلة في نظام العالم وانسجامه برهاناً على وجود الإله بيد أنه لو بدّل هذا البرهان المستمد من الحكمة المتمثلة في الأنظمة الخارجية ببرهان آخر كأن قد اتخذ كبرهان على وجود اللّه هذه الخيرية المتمثلة في نفوسنا والتي يشعر كل منا بأنها تجتذبه نحو خير أعلى مطلق لكان أقرب إلى الفلسفة العقلية النقيّة المدركة بالقوة الناطقة وحدها منها إلى النظر العلمي القائم على الإحساس».

سقراط

إن الخيرية المتمثلة في نفوسنا والتي يشعر كل منا بأنها تجتذبه نحو خير أعلى مطلق

برهان على وجود مبدأ ماهيته محض خير، تتنافر ماهيته وماهية من له قد عقد القِدَم الألوهية في الأوليمبس وأحلّه السماء!

أجل... رجّع سقراط التفكير الإلهي الإنكساجوري ومن أُلوهة الدين الرسمي سخرت فلسفته في تهكم على ما قد عُقِّد في بناء هذا الدين من عقائد ومعتقدات، وفي ترجيع كامل لتعاليم إنكساجوراس رجّعت عن يقين له تعاليم، فهو عن يقين كامل يرى أن العقل الإنساني كان حدثاً حين جاء بألوهة يقوم عليها صرح الدي الرسمي للبلاد، فهي ألوهة تُسجّل هرافة الحداثة وخرافة المخيلة وإلاّ لما كان توهّم العقل طفلاً أن الإله على عرش يجلس يؤلف السحب ويرسل الصواعق على من يشاء، يغضب ويرضى، ويندم وينتقم! ودليل على فجاجة هذه الفِكَر للفكر طفلاً أنه حين نما أقلع عنها إلى تعقُّلات تسجلها له مراحل هذا النمو بانتقاده الدين الرسمي وقوله بألوهة بعيدة عن ما قد عرف الدين القائم من ألوهة ومثلاً لهذا النمو كان ذلك الذي إلى دنيا الفكر جاء «بالنوس».. إنكساجوراس الذي لم يك إلاّ:

«اليقظ بين الثُّمالى!».

سقراط

صفت النظرة السقراطية فعكست وجوداً قصر أن يكون إلاّ للخير مثالاً وفي حقيقته صورة للخير منعكسة.. صفة على الوجود يضفيها العقل البشري أبداً كلما إلى الحقيقة القصوى عمّقت منه النظرة ومنه النفس صفت!.. ومن ثم أضفاها على الوجود العقل في راهن خطوته ومن ثم مجيئه يحوّل الانتباه إلى الأخلاق!

إلى النفس حوّل سقراط انتباه العصر ومن العالم الخارجي إلى العالم الداخلي حوّل منه التفكير بإيماضه في «نظرية المعرفة» نور الفضيلة وباتخاذه الفضيلة مبدأ للمعرفة وليبرز مثلاً بارزاً لتجسّد الوعي الداخلي بخلوص المعتقد منه في أُلوهية يُعرّفها وسبابته إلى الصدر منه تشير:

«من أعماق النفس، السجينة لجسد هي فيه رهينة حتى حين، يجلجل عميق صوت أن، والمعرفة الفضيلة والفضيلة إنما الخير المحض، للوجود مبدأ هو العدل المطلق ومطلق الخير!».

أوشكٌ؟!... كلا! إنه اليقين بأنه اليقين وإلاّ ماذا عسى أن يكون تفسير هذا السعي نحو «الكمال» واطّراد المسير نحو «الخير»؟..

ليس من تفسير إلاّ أن الإله هو الخير وإلاّ أنه هو نفس الخير! برهان هذا الخير هو الطبيعة نفسها في حركتها المتجهة أبداً نحو الخير والكمال، وليس هذا إلاّ دليلاً على أنه إنما قد

تفضّل وأحسن فأوجد وجوداً يتمشى نحوه!.. نحو الكمال والخير، ومن ثم فيقيناً أن الإله إنما؛ الخير!

واهٍ وباطلٌ من ثم للدين الرسمي معتقد إلهي وببطلانه باطلة وواهية ما يؤلفه هذا الدين من صور وما يكون من مظاهر تتنافى والعدالة الإلهية من تقديم القرابين وإيقاد المحرقات وافتداء الإثم بصوم أو ضحية مع تلطخ النفس بالموبقات ولكن! يقيناً إن لئن كان باطلاً الدين الرسمي المتخذ محوراً ألوهة طابعها المكانية والعنصرية، فإن هناك ديناً صحيحاً موجوداً بين جانبي كل فرد شريعته وتكاليفة التزاماته لا تنحصر إلاّ في تقديم الضمير النقيّ للعدالة الإلهية ولا تنحصر صور العبادة فيه إلاّ في: الفضيلة!

إلى الدين المُنبجس عنه الشعور من تربة النفس اتّجه المذهب الأخلاقي السقراطي وإلى التكليف الوحيد الذي يتخذ صورة الشريعة في هذا الدين والمتلخص في إنقاء الضمير اتخذ سقراط الفضيلة فهو يراها شريعة الإله الحق لتعلنها شفتاه إنها رسالة بأدائها جاء مُكلّفاً وبالصدوع إلى القيام بها أُلقي إليه من الإله الأمر:

«إن الأمر الإلهي إلي قد صدر بإكمال رسالة الفلسفة عن طريق معرفة النفس».

سقراط

لأول مرة في سجل التاريخ العقليّ عند الإغريق تُصادفنا فكرة رسالة إلهية مما يقذف إلى الفكر بسؤال:

هل ادّعى سقراط الرسالة وإلى نفسه بالرسالة الإلهية كان داعياً ودعياً؟...

كلا!.. إن فيلسوف النفس لا يذهب إلى القول بالمكالمة من الخارج ولا يقول بأن من الخارج عليه قد تنزّل وحيٌ وإنما إلى الصدر منه تشير سبابته وتنفرج شفتاه معلنة:

إنه وحي من نبع النفس متفجّر وصاعد وأنه في الداخل ومن الداخل قد صدرت عن الدين الحق البيّنة في صورة الأمر بالصدوع إلى التبشير بشريعة الإله الحق!

وعن هذا الوحي الصاعد، والقول بالوحي الصاعد إنما للقول بالوحي المنزّل مخالف وعن المكالمة من الداخل النافية المكالمة من الخارج تحدثنا الشفاه السقراطية مُعرِّفة ماهية هذه «الرسالة»:

إن كلما أحاطت بالنفس من المِحَن محنة ومن نوازل الحياة نزلت بالنفس نازلة واقْتم للنفس أفق راحت ترتسم في أرجائه للشر صورة انساب في أرجاء الداخل ودَوَّى في آفاقه صوت عن الشر ناهياً وبالخير بشيراً.. صوت، صاحب الوعي منذ الطفولة حتى هذه الكهولة ومنه النغمة أبداً لم تتغيّر!

ولكن... ثمة سؤال آخر يسأله الفكر لسقراط؛ إلى مَنْ يُنسب هذا الصوت الذي لسقراط منذ الطفولة قد صاحب وله لم يُفارق أبداً غداة للدنيا الوعي السقراطي وعى؟...

أإلى الإله الحق ينسب سقراط هذا الصوت؟...

كلا... إلى الإله الحق لا ينسب سقراط هذا الصوت المنساب بين ضلوعه والذي كلما لاح شراً أقبل رادعاً ومن ثم بالخير بشيراً، فإنما عن ماهية هذا «الصوت» تحدثنا الرسالة السقراطية بأن:

ليس الصوت للإله الحق صوتاً فليس للإله الحق صوت وإنما الصوت صوت روح خيِّرة من أرواح الخير التي يمور بها الكون، فإن الصوت صوت واحد من الـ «ديمون»..

كلا.. بالإله ليس «ديمون» وإنما عن الإله صوت «ديمون» ترجيع!.. ليس الصوت إلاّ لديمون صوت هو هذا المنساب إلى الداخل موحياً الأمر الإلهي بالتبشير بإكمال الفلسفة ومعرفة النفس بواسطة تعلُّم الفضيلة!

هذه هي ماهية الرسالة السقراطية... رسالة لم يقل بها سقراط دالفة إليه من السماء ولم يدّع أن الأمر الإلهي إليه يأتي بصوت من الخارج هابط إليه بوحي هابطاً وإنما الصوت صوت منبجس من الداخل ويُدوّي في أرجاء القلب بشيراً بالخير، هذا الخير الذي عمل سقراط طوال حياته جاهداً في تطبيقه على نفسه ومُضطلعاً بنشره بين النشء عن طريق تحويل انتباههم إليه، والسيرة السقراطية تُعطينا مثلاً على ما قد تقدّمت الإشارة إليه من ثنائية الجسم والنفس، فالنفس منه قد تغلَّبت على قُوى الجسد حتى خَلَت من وهن عاطفي وسيرته إنما السيرة التي لا يشوبها ما يكدّرها ويُبدِّل محامدها إلى مذمة، فإنما على مبدأ واحد سارت رسالته من ترجيح النفس على الجسم ومن ترك للزخرف ونبذٍ للمال وإيقان بأن ما هو زينة الدنيا من مال وبنين فبريق خاطف، ومن ثم فمن مميزات هذه الرسالة التي تعهدت نفسية النشء ووجّهتها الوجهة الأخلاقية الصحيحة إشاحتها عن المال إشاحة تعلن ألاّ حاجة بالرسالة الروحية الصحيحة إلى المال!

هذه هي الرسالة التي راح سقراط يلقي تعاليمها في عهد انحلال أخلاقي نفسه العهد الذي استدار حوالي نهاية حروب البلوبونيس ورف فيه على أتيكا الحكم الإسبارطي الذي رغم قصر مدته كان كافياً لأن تعمل الاعتبارات السياسية وتتدخل الحزازات الشخصية فتبدل وتغيِّر الأوضاع، وتدخلت هذه الاعتبارات وعملت هذه الحزازات التي لم تجد إلاّ اتخاذ هذه التعاليم ذريعة لصبِّ غضبها فاتّهم البشير بالفضيلة بإفساد النشء، وأُدين بالشر من جاء بالخير بشيراً!

بالخير جاء بشير الفضيلة بشيراً فأحدق به الشرّ.. حدث يدفع اللوالب الفكرية إلى التساؤل؛ أين الخير؟! سؤال يلج بنا إلى:

«مشكلة الخير والشر»

لمشكلة الخير والشر في المذهب السقراطي عقيدة تتجلّى عبر مرافعته عن نفسه أمام المحكة التي وقف أمامها مُتهماً بالحيْدة عن الدين الحق وإفساد النشء.. تتجلّى هذه العقيدة ونحن إليه نصغي مترافعاً عن نفسه يقول:

«يا رجال أثينا إني أحترمكم وإني لكم محب ولكني لكم غير مطيع لأنني إنما أطيع الإله طاعة تحتِّم عليّ الاستمرار في ممارسة تدريس الفلسفة ما دمت حياً لعلمي أنها أمر الإله وليقيني بأن ليس هناك خدمة ما تؤدَّى للحكومة أجلٌ من خدمة الإله!».

سقراط

وسلس البيان يسترسل سقراط فيرسل القول يقول: «وشيء آخر عندي، لكم أقوله، هو أنكم إذا نلتم الجسد مني بالأذى، فالإيذاء لن ينالني وإنما الإيذاء لكم سينال! لأن؛ لا شر يصيب الإنسان الخيّر».

سقراط

ولكن! ها هي ذي المحاكمة تنتهي وهذا هو الحكم بإدانته ينتهي إلى أن للخارج على الدين الرسمي عقاباً الموت... وذا هو الموت بسقراط يحدق فيحدق ببشير الخير ما قد اصطلح على تعريفه بأنه شرٌّ وهكذا تتداخل مشكلة الخير والشر في التفكير الديني السقراطي في:

«مشكلة الخلود»

«الموت»: «شرٌّ»؟!

كلا! إن الموت لو كان شراً لما كان بوجوده قد سمح «الخيِّر»!

إن سقراط ليلتفت إلى محاكميه يعلن أن «الوحي الداخلي»، في غضون هذه السبعين سنة من العمر، مرّة واحدة له لم يخدع... وهذا «الصوت الداخلي» المتكلم أمام كل محنة وتجاه كل نازلة إنما الآن صامت وصمته إنما دليل سبقت عليه التجارب أن المحنة المحدقة والنازلة إنما وهم ومجرد وهم، وأن الظاهرة المتخذة صورة الشر لا تتعدّى إلاّ الظاهر وأما حقيقتها فالخير! من ثم فيقيناً إن:

«صمت هذا «الصوت» إنما إيعاز بأن الأمر الواقع لي إنما؛ خيْر ومن ثم فيكن أن أولئك الذين يظنون أن الموت شرّ إنما خاطئون!».

يقيناً إن الشرّ لن يصيب الإنسان الخيِّر سواء في الحياة أو في الموت أو بعد الموت، وإنزال الحكم بإعدام الجسد لن يصيب النفس بالعدم لأن الموت إنما موت للجسد **وقطّ لا ينال النفس!** النفس شيء والجسد شيء آخر، وهذا أمر ثابت حجّته تأتي من غرابة النفس عن الجسد وبرهانه يأتي من التضاد بين رغائب كل منهما، فكليهما في تضاد تتضاد تُختلف الرغائب والرغبات مما يعود باليقين بأن الموت إنما للجسد فقط موت وقطّ لا يتعدّى الجسد إلى النفس بل على النقيض فإن؛ موت الجسد إنما لحياة النفس إنعاش!

الموت إنما باب الخلود.. وأي متعة في عالم الجسد، ومتع عالم الجسد سادرة، لمتعة في عالم النفس، ومتع عالم الخلد خالدة، تماثل وتضارع؟

أية متعة تضارع الاجتماع بمن قد سبق من الحكماء في عالم لن يُحكم فيه على إنسان بالموت بجريمة سعيه إلى الحقيقة وقوله الحق... أية متعة المرء لها سينال في عالمٍ فيه سيواصل، حراً، بحثه عن المعرفة؟!

كلا! لا متعة في عالم النفس لجسد ليس له بعد فناء نشور، بل على النقيض فالقول بمتع جسدية في عالم الخلد إنما لدى هذه الفلسفة الأخلاقية منقوض، تنقضه الأخلاق!

من خلال الأجيال يأتينا للعقل الإنساني هذا الصوت واضحاً جلياً يُرجِّع الصوت القدسيّ المرشد في الداخل أن الدين الصحيح إنما الفضيلة وأن جزاء النفس في عالم النفس جزاء نفسي خالص!

هذا هو التفكير الديني في الخطوة الأخلاقية للعقل الإنساني والشريعة من الشرائع الشريعة التي اتخذت حجة لاتهامه بإفساد النشء بتعليمهم العلم الإنكساجوري الخالع عن الأجرام السماوية قدسيتها الموهومة، فلقد اتخذ الاتهام لدعواه مسانداً أن سقراط بمجافاته «زيوس» إلى إله لا يعرف له اسماً ولا ماهية إلاّ اسم الخيّر وماهية الخيرية قد جحد جحوداً بيّناً وعلى الدين الرسمي قد خرج أن للجاحد الدين الرسمي عقاباً عدلاً الإعدام!

وامتدت اليد السقراطية تنهل رحيق الخلود...

وهكذا احتضنت غيوم الخلد وفي أطوائها غيّبت من قد أُجرع موتاً مادياً... ولكن! «الإفساد السقراطي» ظلّ يشع روحاً ينفث في خلد النشء مجافاة ألوهة زيوس ويدفع بهم إلى استنكار هذا الدين الرسمي استنكاراً يأبى ديناً حقاً سوى الفضيلة، ليسجل سجلُ العقل البشري أن؛ أهم مستحدثات التفكير الديني في هذه الفلسفة: **خلود النفس ونفي البعث الجسديّ ودين شريعته الفضيلة ومعرفة النفس...**

وبأثرها أتت هذه المستحدثات، فلقد تبع سقراط الذي أمسى رسولاً لدينٍ عقلي شريعته

الفضيلة، أفراد تلك الطبقة التي تطلع على صفحات التاريخ الفلسفي باسم؛ السقراطيين من به يطالعنا:

التفكير الديني عند السقراطيين

إن السقراطيين إنما طبقة هي وإن اختلفت لأفرادها في اتباعهم سقراط طرقاً طلعت بها لهم مذاهب وقامت لهم بها مدارس من أولاها المدرسة «الميغارية» ومن أبرزها «المدرسة الكلبية» فإنما، جمعاً، قد ضمتهم ضماً موجة زهد بعثتها عليهم النهاية السقراطية..

أمام عالم تجري في لجة الزمن أحداثه صوراً وفيه لقي البشير بالخير هذه النهاية وقف «أقليدس» مؤسس المدرسة الميغارية يشيح عن العالم الخارجي إلى العالم الداخلي إشاحة بلغ بها يقينه اليقين بأن الوجود إنما منحسر عن حقيقة حقيقتها السكون والأبد وظاهرها متغيّر صور ومتغيّر الصور إنما وهم يقفو وهماً، ومن ثم امتزجت في أفق التفكير الميغاري البارمنيدسية بالسقراطية مزجاً استخرج به «الوحدة» في تفرقة بين الوحدة الأصيلة و«الكثرة الوهمية» فأضحت لديه العقيدة منحصرة في أن هذه الماهيات المختلفة التي يبدو بها الوجود وبه تبدو ليست إلاّ مظاهر الوحدة الأصيلة وليس لها من نعت بأوفى من أنها؛ **فِكر فِكْر!**

نعتٌ جديد للأساس الذي يقوم عليه كل دين هممت به شفتا «السقراطي الصغير» ترك أثره في الأرجاء السقراطية وخاصة في «السقراطي الكبير» من بعد.. واتجاه ديني عقلي خلّدت إليه الميغارية في إخلادٍ إلى السقراطية، فهي قد قفت أثر السقراطية في تهكمها على الدين الرسمي وجدلها. واصلت التهكم والجدل من خلال موجة هذا الزهد الذي اكتنفها والذي أرسلته النهاية السقراطية على السقراطيين كافة، بيد أن هذه الموجة لم تتخذ في الميغارية إلاّ مظهرها السلبي، وأما مظهرها الإيجابي فقد تجلّى تمام التجلّي في «الكلبية»...

كلا، لا جدال في أن نفس موقف «الميغارية» من الدين الرسمي قد وقفت «الكلبية» وإخلادها إلى الدين السقراطي المتّخذ «الضمير» شريعة يعمل العقل تبعاً لقانونها خلّدت «الكلبية» ولكن بها برز لون من ألوان الزهد له لم تشهد هذه الناحية من الدنيا من قبل.. فمضطرمة العاطفة معترمة الفكر وقفت هذه الفلسفة مشيحة تمام **الإشاحة** عن العالم الخارجي عازفة عن دنيا الناس ومُطوَّحة بمعايير البشر يدفعها إلى ذلك ما قد شهدته من مشاهد وما قد جرى أمامها من أحداث... رأت أثينا تُهْزَم سياسياً فرأت عِزّة تتقوّض ومجداً في تهاوٍ ينهار... ورأت سقراط يثوي فثوت، بثوائه، ما لديها من الآمال! هزّها رواح سقراط عن الدنيا على هذا النحو، ومن ثم فتناديها ذلك النداء الذي ما بدأ يسير همساً إلاّ ليعلو دوياً بأن للوجود حقاً صفة الخير ولكن هذه الخيرات إنما؛**جزئية!**

والجزئيات؟... إن الجزئيات ليست إلاّ مظاهر ومن ثم يجب ألاّ يغترّ الإنسان! بهذه الخيرات الجزئية يجب ألا يغترّ الإنسان فإن العالم لم تكفّ أحداثه عن الحدوث وعن الحدوث أحداثه لن تكفّ!.. حقيقته، تدفع بالنفس إلى مطلبٍ واحد يتلخّص في الخلاص ممّا يعود على النفس بالغرور، ومن ثم فإن مطلب النفس إنما من العالم؛ الخلاص:

تكشفت بسرابها الحياة وبأوهامه الدين الرسمي تكشّف فتكشفت بأوهامها البشرية وأسفرت على حقيقتها للبشر أوهام، من ثم فقيام هذه الفلسفة متهكمة تُطوّح بالثراء المادي الذي كان قد دان لها طيعاً، وأبرز مثل لهذه الفلسفة التقشفية:

ثيوجينس

ساخراً بالدين الرسمي وبما جاء به من عُرف وتقاليد طوّح «ثيوجينس» ومزدرياً الثراء الماديّ ألقى عن همّه للدنيا همّاً، وانطلق بتعاليمه هاتفاً: يا أيها الإنسان!

«حارب الخوف باللاّخوف، وأشح عن البال باللاّمبالاة؛ إن الشر إنما طوفان منبعه ينبوع الأثرة والأنانية والغيرة فلم؟! لم التفكير في دنيا كل شيء فيها، بفنائها، فان؟!

اتركها! اتركها فلن تترك إلاّ وهماً عنها أشح وعليَّ أقبِل ولي اتبع، اتبعني إلى العراء إلى حيث لا هم ولا تسهيد إلى حيث تمرح في نطاق **أخوة عالمية** يتّسع رحابها معاً للحيوان وللإنسان!»

ثيوجينس

الموقف، كان موقف هذه الفلسفة التي رأت في «الفضيلة» المعيار الحقيقي لمكارم الخلق وإن اختلفت عن التعريف السقراطي، القائل بأن الفضيلة هي المعرفة وأن مجرّد العِلْم بها كافٍ لإتيانها، إلى تعريفها بأنها لا تُعَلّم ولكنها **تُكْتَسبُ بالمران**... هذا التعريف الذي قادها لأن ترى أن الوسيلة إلى بلوغ هذه الغاية المنحصرة في الفضيلة إنما تنحصر في: **التقشّف!**

وبالتقشّف سَرَت موجة نشوةٍ في أوصال السقراطيين لتسري، كأثر لها، تلك الهبّات الصوفية في الأرجاء العقلية الإغريقية ولتبرز بأبرز السقراطيين وبأكبرهم، السقراطي الكبير، مَنْ به يطالعنا:

التفكير الديني في فلسفة «المثل»

بـ «أفلاطون» (٤٢٨ ـ ٣٤٧ ق.م) تمثّل العقل الإنساني ليحفر على الأجيال خطوة شاعرة دقّت فوازنت بين الناحيتين العقلية والروحية موازنة أعطت بها كلاً من الطبيعة

الداخلية والخارجية حقّها، ولتترك هذه الموازنة الأثر الذي منه استمدّت مذاهب شتى، من بعد، قوتها... فبهذه الفلسفة التي قامت جامعتها على صفحة الدنيا قروناً تسعة من الزمن قد خُضبّت أنحاء التفكير البشري بألوانٍ تركت أثرها فيما يقوم من أديان عالمية لعالم اليوم ـ في المسيحية المفلسفة وفي الإسلام المفلسف ـ فالفلسفة إنما فلسفة هي لئن كانت نفسها صرحاً قام على أسس ما قد جاء قبلها من فلسفات، فإنها بدورها تمثّل الأساس لصروح من التفكير الديني الفلسفي والفلسفة الخالصة، فلقد طبعت التفكير الإنساني بطابع ترك عميقاً فيه أثره الذي بدأ لحظة استهلّ صاحبها علينا مطلعه من أرجاء المدينة الطيبة «يوطوبيا» وغداة أرسخ قواعد «الجمهورية» متّخذاً لمدينته الطيِّبة في فسحة جمهوريته أساساً وقاعدة اليقين بخلود النفس...

عن أعقد المشكلات الدينية يستهل الفكر الإنساني في أرجاء «الجمهورية» الحديث بحديثٍ نفهم به أن الفكرة الأساسية في التفكير الفلسفي للعقل الإنساني في خطوته الراهنة كانت: «عقيدة خلود النفس».

يقيناً إن الإيمان بخلود النفس إنما الفكرة الأساسية التي بنيت عليها هذه الفلسفة المتخذة لها قاعدة التعاليم الفيثاغورية ومرجعاً التعليم السقراطي كأثره لتلك المحاكمة التي شهد نفسه فيها محاكمة سقراط.. لقد شهد أفلاطون تلك المحاكمة السياسية المحضة في الباطن والدينية والأخلاقية في الظاهر وأصغى إلى سقراط يصل، عن طريق النفس، الطبيعية بما بعد الطبيعة، ورآه يُفرغ بين شفتيه كأساً لم يعتقد سقراط أنه إلى فناء يحمل منه النفس وإنما إلى خالص حياة في عالم عنه راح في هذه اللحظة، التي يجزع المرء فيها عادة، يُعلِّم هادىء الجأش قرير السريرة مطمئن الفؤاد أنه فيه سيواصل منه التفكير للبحث عن المعرفة وعن الحقيقة دون أن يتعرّض له حكم بموت فلا موت هناك.. فهناك! هناك، وقد طرحت النفس هذا الجسد، هناك اللاّموت! هناك، وعن النفس قد طرح من المادة هذا الجسد، في رحاب لها رحاب ستشعُّ النفس وستنطلق حرة غير مقيّدة! هناك ستستمتع بحكمة من بهم ستلتقي، ممن إلى هناك لها قد سبق وممن تحب من الحكماء!

أجل... إن أفلاطون الذي رافق سقراط حتى النهاية قد حضر لسقراط نهاية... أفلاطون الذي شاهد في شرخ شبابه الباكر محاكمة أستاذه الشيخ وشهد الحكم فجزعت للمحاكمة والحكم منه النفس إنما قد شاهد أستاذه لا يجزع من نهاية لحلولها عادة كل فرد يجزع، رآه لا مطْمئناً فحسب وإنما مستبشراً فرحاً يستعجل هذه النهاية التي ظلّ، كما يقول، ينتظرها من أعوام العمر أعوام الوعي، كما إلى أفلاطون نفسه، دون من قد التف حوله من التلامذة

الذين لوداعه قد أقبلوا، يتلفت، ورحيق الخلود في أوصاله يسري، مطمئناً يُعَلّم: **«أن الموت ليس بشرّ»!**

«لو كان الموت شراً لما كان بوجوده قد سمح الخير!».

لهذا المشهد ولهذه الكلمة الأثر كل الأثر فيما قد طبع هذه الخطوة الفلسفية في تفكيرها الديني من طابع اتخذ محوراً وقاعدة عقيدة خلود النفس، فقد راح الصوت السقراطي في المسمع الأفلاطوني يرن همساً فدوياً ويزداد دويه والعمر بأفلاطون يرتحل مراحله ويُسلمه من شباب إلى كهولة.. عبر هذه المراحل كان الطيف السقراطي أبداً في المخيلة الأفلاطونية ماثلاً والصوت منه في مسمعيه يُردد:

يقيناً إن الموت ليس بشرّ ولو كان شراً لما كان بوجوده قد سمح هذا الذي قد تفضّل وأحسن وجاء بوجود نحو الكمال يتمشى ونحو الخير يسعى ومن ثم فليثق القلب والعقل معاً بأن الموت إنما ظاهرة وحدث في حياة النفس حري بتسميتها أو تسميته، «باب الخلود»!.

من هذه العقيدة، عقيدة خلود النفس، اتخذ أفلاطون قاعدة لفلسفته وتفكيره الديني، فإنه وهو الذي استهلّ تاريخ حياته الفكرية يتعلّم الفلسفة عن تلميذٍ لهيراقليطس، إنما قد اجتذبته الفضيلة السقراطية إلى سقراط ليظل له ملازماً حتى تلك النهاية التي اختتمت بها الحياة السقراطية على الأرض والتي دفعه مشهدها إلى عزوف عن الدنيا غريب قاده إلى ترك أثينا فترة من الزمن تجمّعت إلى ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً، طوف خلالها مغارة، مصر وجنوبي التيبر وصقلية، لتتجلى فيه إلى أثينا عائداً ومستهلاً التعليم في الأكاديمية، ٣٨٧ ق.م، قوة الجدَل الميغاري وصوفية الفيثاغورية وطابعها الرياضي وطهر الحب الأورفي، قبل أن تمتد منه اليد، كهلاً، تُكوّن «الجمهورية» وتُسجّل في أرجائها إيمانه بخلود النفس!

من أرجاء «الجمهورية» تهبُّ علينا نسمات الخُلْدِ وتتضوّع فاغمة عاطرة واليد منّا بعد نشر تطوي من أجزائها جزءاً بعد جزء وناشرة مما إلى جانبها قد تركت اليد الأفلاطونية من آثار حتى يتكاثف هذا الأرج ويحيك أمامنا عالماً لئن كلّت «عين الجسد» عن رؤيته، فإنما فيه لجّت وله طوت «عين النفس»...

من خلال هذا «العالم» نرى السقراطي الكبير لنراه قد شغل بما به لم يشغل التفكير الإغريقي فيما قبل سقراط، فهو قد عُني بمشكلةٍ تُعتبر المحور الأساسي في التفكير الديني عناية تتجلّى في برهنته على الخلود النفسي برهنة **منطقية عقلية** عنايته بتقدمة هذه البراهين

المنطقية والعقلية على أُسس حلول «لمشكلة المعرفة» وتفريقه بوضوح بين الإدراك العقلي والإدراك الحسيّ ونظرته العميقة إلى الطبيعة وعميق سبره لمشكلة الألوهية...

من «مشكلة المعرفة» اقترب أفلاطون سابراً، وقد عمرت منه النفس بطهر الحب الصوفي وبين جانبيه في تعانقٍ قد تلاقى الزهد الأوُرفي بالخير السقراطي وبدافعٍ من هذه النفس التي شفّت شفوفاً عكست للبشر أفراحاً وأتراحاً لجّ منه العقل إلى لجة البحث عن «المعرفة» في هذا الوجود الذي يطالع فيه «عين الجسد» «التغيّر الهيراقليطسي» والذي من أعماقه تستشفّ «عين النفس» «السكون البارمنيدسي»...

من خلال الحركة والتغيُّر لجّ السقراطيُّ الكبير إلى أعماق السكون واللاّتغير فاحتضنه سكون سكنت فيه لديه حركة الزمان والمكان فعاد يعلن:

يقيناً إنه التغيُّر وإنها الحركة ولكن! هذا التغيّر وهذه الحركة إنما تقعان في دائرة الحواس.. والحواس؟.. الحواس لا تعتمد إلاّ على «عين الجسد»!.

«كل ما نراه من حركةٍ وتغيُّرٍ إنما بهذه الحواس نراه... نراه بعين الجسد!».

أفلاطون

وكالبصر السمع وكالسمع إنما من الحواس كل حس فيقيناً:

«إننا لا نرى بالعينين، وإنما من خلال العينين أو عن طريق العينين إننا لا نسمع بالأذنين، وإنما من خلال أو عن طريق الأذنين وأما الذي يرى والذي يسمع فشيء متصل بالحواس اسمه **النفس**... عن طريق النفس ندرك حقيقة الشيء الذي يأتينا عن طريق أعضاء الحس... إنها النفس هي التي تجعلنا متنبهين فندرك ونُفرّق بين لا شيء والآخر، عملها آتٍ إلينا من الحواس..».

أفلاطون

التحليل، حلّل العقل الإنساني، تحت مظهره الأفلاطوني، مشكلة «المعرفة» ففرّق بين المعرفة الآتية عن طريق «عين الجسد» وتلك الآتية عن طريق «عين النفس» تفريقاً جوهرياً فرّق بوضوح بين الإدراك العقلي والإدراك الحسّي وعلّم أن «المعرفة» إنما نتيجة لعمل الذهن بواسطة الحسّ.

حتى المدى اتّسع الأفق الفكري أمام أفلاطون فحدّد «المعرفة» هذا التحديد القائل بأن المعرفة الصحيحة أو بالأصح معرفة الحقيقة لا تأتي عن طريق الوجدان، فالمعرفة الآتية عن طريق الوجدان إنما معرفة تأتي بها الحواس والبصر أو «عين الجسد»... فإن بعين الجسد

تستحيل معرفة الحقيقة الممكنة عن طريق «عين النفس»!.

وعين النفس؟... إن «عين النفس» إنما البصيرة أو الحدس!.

إلى الينبوع الأول، «عين النفس»، عاد العقل الإنساني في راهن فلسفته كنتيجة حتمية للعهد الشكيّ فالعهد الشكيّ في تاريخ التفكير الفلسفي إنما أبداً العهد السبّاق لعهد الاعتماد على البصيرة أو الحدس، والفلسفة الشكيّة إنما دائماً مقدمة للفلسفة الحدسية، فإنما يكفّ اعتماد العقل على العقل كلما إلى العقل دبّ في العقل شك فيتحول إلى النفس، ينادي:

إنها النفس! إنها النفس هي التي تقودنا إلى «المعرفة» أو بالأحرى إلى اليقين من «المعرفة» لأنها هي **نحن** حقيقة، عنها ترتد عواصف الشكوك، فإن على وجود النفس أو بالأحرى وجودنا، كنفس، تأتي الأدلة في صورة التذكُّر والتوقُّع والخيال وتتتابع في صور تلك العمليات العقلية التي تدرك به المدارك منّا المجادلات المنطقية والعمليات الرياضية... وهذه الأدلة، مجتمعة، هي نفسها برهان على أن النفس هي الفكر المحض وخالص الفكر وبرهان نفسه قاطع بأنها شيء غير الحسّ!.

من ثم فيقيناً إن؛ كل معرفة متعلّقة بالحواس غير معتمد عليها وعليها لا يمكن الاعتماد، لأن الإحساس أو الشعور ليس في حدِّ ذاته معرفة! إلى لجَّة الحقيقة لا تستطيع «عين الجسد» الولوج، وليس هذا فحسب بل إن «عين الجسد» هذه هي التي تعوقنا عن معرفة الحقيقة ومن ثم فإن: «علينا، إذا تطلبنا الحقيقة، التحرُّر من سيطرة «عين الجسد» والنظر إلى الأشياء «بعين النفس[1]!».

أفلاطون

عطّل الحواس واسبِل «عين الجسد» وأطلق «عين النفس»! على ضوء «عين النفس» سِرْ، إدراكاً وفكراً، سعياً وراء الحقيقة حتى في النظر إلى الأشياء وإلى ما يمور به الكون من مظاهر وما يحوط بك من صور... حتى:

«هذا الفضاء المترع بالأنجم هذه التي تراها بالبصر أو «عين الجسد» يجب، مع أنها أظهر الأشياء المرئية، أن يحتويها الإدراك والبصيرة لا البصر!».

أفلاطون[2]

هذه هي العقيدة الأساسية التي نجدها قاعدة للفلسفة الأفلاطونية غداة حوّلت الأفلاطونية

---

(١) «فيدون»

(٢) الجمهورية

منحها المعنى إلى التعبير الفلسفي، فإن حول هذه النقط الجوهرية، الاعتماد على «عين النفس» وفناء الجسد وخلود النفس، تشمخ أركان المذهب الأفلاطوني في نظرته إلى الطبيعة وعقيدته في ما بعد الطبيعة أو بالأحرى في فلسفته الطبيعية والإلهية ومن ثم فحري بنا، بل ولزاماً علينا، التطواف بهذه النظرة إلى الطبيعة وتعقُّل هذا التفكير الإلهي لا ليتسنى لنا فحسب فهم البراهين المنطقية والعقلية التي يقدمها أفلاطون على خلود النفس وإنما لأن براهينه على خلود النفس قائمة على أسس تفكيره الطبيعي والإلهي...

مُسبلاً «عين الجسد» ومُرسلاً «عين النفس» أطرق العقل الإنساني في ظلال شجرة الأكاديمية مُفكِّراً فتتابعت، بين بوارق المستقبل، أطياف الماضي في تلاقي وصور الحاضر...

بأطياف الماضي امتزجت للحاضر صور... صور محسوسات في تغير متصل تراءت على حقيقتها مجسّم ظلال! مجسم ضلال تتساوى وأشباح الماضي وتخبو فيها بوارق المستقبل...

صور!.. صور تقفو صوراً وإلينا لا تؤدّي الحواسُّ إلاّ صوراً زائلة من ثم، والمحسوسات في تغيُّر متصل والحواس لا تؤدي إلينا إلاّ صوراً زائلة عابرة عبر الوجود، فيقيناً إن:

«الموجودات أشباح والوجود ظلال!».

أفلاطون

ولكن! المحسوسات المستمرة التغيُّر إنما تتماشى وقوانين ثابتة لا يطرأ عليها التغيُّر كما أنها تبدو لنا في صُور كليّة لا متغيّرة مجموعها؛ الأنواع والصفات والأجناس ثم إن هذه الصور الكلّية هي التي تفيد في الحكم على المحسوسات، وعلى إدراكها تساعد!

إذاً فهذه الصور الكليّة إنما عن الأجسام مستقلة وليست لها بالذات الأجسام تشارك فيها كثيراً أو قليلاً وقط لا تبلغ إلى تحقيقها، كاملة، كما أن لا بدّ أن تكون هذه الصور الكلية هي في العقل فليس في المحسوسات قط ما هو «الإنسان» ولا ما هو «الجمال» ولا ما هو «الحب» ولا ما هو «الخير»...

من ثم فلا بدّ من علّة ثابتة تفسّر اطّراد «الصور الكليّة»!.

إزاء فكرة العلّة الثابتة فكّر الفِكْرُ الإنسانيُ، أفلاطونياً، فتشعّب به التفكير شتى المناحي وإليه أتى شتى الفِكَر ليستخلص من هذه الفِكر لنفسه إجابة فيقول:

من المحتّم أن تكون تلك المعاني الضرورية للحكم على المحسوسات موجودة في العقل قبل الإدراك الحسيّ، لأنها هي التي تجعل الحكم ممكناً... ومن المحتم أن تكون هذه المعاني

المجردة عن المادة وعوارضها، كاملة ثابتة.. ثم ولأنها من المادة مجرّدة فلا يجب أن تحصل في النفس عن الأجسام الجزئية المتغيرة، ومن ثم فإنها لا يمكن إلاّ أنها حصلت في العقل عن موجودات، تجريدها مجرّدة وكمالها كاملة وثباتها ثابتة..

لا بدّ أن تكون هذه الموجودات، وهذه الموجودات هي مبادىء المعرفة عندنا، هي أيضاً مبادىء الأجسام وأن الجسم جزء من المادة يشارك في واحد من تلك الموجودات المجرّدة فيشبّه به ويحصل على شيء من كماله وباسمه يسمى..

من ثم فالموجودات المجرّدة إنما؛ **فِكَر!**

ومن ثم فهذه الفِكَر إنما؛ **مُثُل!**

يقيناً إن الموجودات المجرّدة إنما «مُثُل» ووجود هذه «المُثُل» لا يتوقف على تفكيرنا لأننا نحن أيضاً نجيء ونروح ومنّا الجسد شبه لحقيقة فإنما لهذه «المثل» وجود مستقل، مختلف عن نوع معرفتنا لأي وجود وعن الوجود المادي شطراً مشطوراً!...

بـ «المُثُل»، شطر أفلاطون الوجود شطراً أودع في عصره فكرة أن عالم التغيُّر إنما نموذج لأشياء حقيقية وأن الطبيعة ليس لها إلاّ من الحقيقة الشبه!..

والشبه؟ الشبه إنما؛ ظلال!...

بالظلال والمُثُل شطر أفلاطون الوجود إلى قسمين فشطره إلى؛ «النفس» و«المادة»!

عن المادة شُطرت النفس بهذه «المُثُل» التي لماهيتها راحت الشفاه الأفلاطونية تشرح قائلة؛ إنها، لأنها موجودات مجرّدة، لا يتناول طبيعتها التغيّر والتحلُّ وعليها لا يجري الزمن وبالتالي لها لا يحتوي المكان... عليها لا يجري الزمان ولها لا يحتوي المكان لأن الشيء الموجود في الزمن والمكان جائز عليه التغيُّر والتحوُّل وعلى «المُثُل» لا يجوز التغير والتحوُّل!

من ثم فيقيناً إن «للمُثُل»، هذه الموجودات المجرّدة، وجوداً مستقلاً على تفكيرنا لا يتوقّف وعن نوع معرفتنا لأي وجود مختلف... الأمر الذي يصير به سؤال أين وكيف ومتى، غير جائز على الإطلاق فإنما هي:

(«مُثُل» تنتهي إلى مثال واحد هو، وإلى الجمال إنما ينزع الوجود؛ «علّة الجمال»).

أفلاطون

إلى «مثال واحد» وهو «علّة الجمال» تنتهي «المُثُل» فإن؛ «للجمال، المُتفرّق في الأشياء علّة هي المقصد الأسمى للإرادة في نزوعها إلى الكمال».

أفلاطون

لا جِدال في أن العقل الإنساني في خطوته الراهنة قد تمثّل نفساً شاعرة فليس إلاّ بهذه النفس الشاعرة قد استشعر العقل الجمال الساكن في أعماق كل شيء، ومن ثم فتعريفه هذا «المِثال» بأنه؛ علة الجمال ومن ثم فاسترسال الفكر يتساءل:

و«الجمال؟».. للجمال أوجه متعددة أبرزها:

الخير.. كلا.. بل إن الجمال إنما الخير بالذات، فإن الخير مبدأ الإيجاد والخيرية مبدأ المَنح... من ثم فلا بدّ أن يكون هذا «المِثال» الذي إليه يعود الوجود بأسباب وجوده؛ **علّة خيّرة!..**

علّة خيّرة أرادت أن تفيض خيريتها فتناولت المادة، التي قطّ لا يمكن أن تكون، وهي منبع الشر، عن هذه العلة الخيرية قد صدرت وتعهّدتها بالتنظيم... تناولت العلّة الخيرية المادة التي لا بد أن تكون بالتالي، هي عنها لم تصدر، أزليتها أزلية وبالتنظيم تعهدّتها محتذية تلك المعاني الذهنية التي لا بدّ أن تكون في الذهن منها تجول!..

للخير السقراطي والطهر الصوفي الأورفي الأثر في تكوين هذه النظرية التي قسمت الوجود إلى المحسوس أو المتغيّر المتحوّل وإلى الذهني المجتمع فيه صفات النوع المشتركة والمثالي أو الحقيقة الثابتة السرمدية المطلقة التي لا يطرأ عليها تغيّر أو فناء فشطرته إلى ثنائية بين مادة ونفس بها اختلفت الثنائية الأفلاطونية عن كل ثنائية جاءت من قبل...

أجل... حتى العهد من هذا الدور، دور المدنية كانت الإغريق تعرف ثنائية الخير والشر كالتي عرفتها من قبل في دور الحضارات، فلديها كان «أُبيلُس»، كلمة ترمز على الشر بيْد أن لأول مرة يُصاب الهدف الإنكساجوري تمام الإصابة ويُشطر شطراً واضحاً الوجود إلى مادة ونفس، وبهذا اختلفت الأفلاطونية عن كل ثنائية من قبل كفلسفة تقوم على التفرقة بين المظهر والحقيقة، فهي قد رأت أن الوجود إنما بناء في مادته الشرّ متمثل، وأن الخير يتجلى في النزوع منه إلى الروح فقادها الرأي إلى أن تقول بالأزلية على أسس منطق استحال لديه القول بالخلق لأن الخلق إنما من عدم إيجاد والعدم إنما بوجود هذه «العلّة» معدوم مما يستحيل به لا فحسب القول بالخلق وإنما يستحيل استحالة تامة القول بخلق المادة وهي أصل الشر فإن «الخيّر» لا يمكن قط أن يكون للشر سبباً مما يستحيل به استحالة قاطعة أن تكون به هذه «العلّة الخيّرة» للشرّ علّة...

من ثم وعلى «الخيّر» يستحيل أن يكون للشر سبباً، فيقيناً إن المادة، والمادة شرٌ، موجودة أزلاً وقط غير حادثة فحدوثها إنما يتنافى والخير والجمال اللذين إليهما في تعطّش يتجه الوجود ونحوهما في تطوره يسير!...

يقيناً لقد سبح الخيال الأفلاطوني إلى ذاك الذي قد جاء بالـ «نوس» وجعل العقل «للهيولى» المضطرب في «الإبرون» منظماً ليعود هذا الخيال فيودع الورق سطوراً صوّر فيها بدء التكوين شارحاً:

إن لما كان «علة الجمال» **بطبيعته** خيِّراً ولا وجود إلاّ له ولمادة أولية تهوي في فضاء مالئة بفوضويتها رحاب هذا الفضاء أراد الخيِّر أن يضع لهذه الفوضى، والفوضى شر، نهاية وحداً فتناول المادة المضطربة في هذا اللاّمحدود، بالتنظيم وبذلك تدخل التحديد في اللاّمحدود، فكلما تحدّدت المادة في الصورة قلّ شرّها وهكذا نظّم «الخيِّر» المادة الموجودة من دونه فجلّ «الخيِّر» وتعالى عن أن يكون لها خالقاً تعاليه عن أن يكون إلاّ لها صانعاً تعالى «الخيِّر» وجلّ عن أن يكون إلاّ للمادة:

«ديمورج» أو **الصانع** بالصانع وبالأزلية تجنّبت الأفلاطونية، تجنُّب فلسفات من قبلها، مشكلة الشر التي تعترض العقيدة الدينية القائلة بالخلق، بقولها:

«كلا!. خلقاً لم يُخلق الكون وله لم يُقَل «كن!. فكان» وإنما؛ «وجد الخيِّر مادة تتخبّط في فوضى وفي غير انتظام فتعهّدها بالتنظيم وأتى من اللاّنظام بنظام»[1].

أفلاطون

من الخضم المضطربة فيه في خليط وفوضى العناصر الأربعة تناول «الصانع» هذه العناصر بالتنظيم وصنعها على أشكال وبعدد... صنعها على أشكالٍ مثلثات ومخمسات مختلفة الزوايا وبتركيبها، كذرات، تكوّنت وتتكون هذه الصور المجسمة، فإن هذا الوجود المرئي المتركّب بتكوين هذه العناصر الأربعة التي ليس منها بعنصر واحد يصحُّ أن يُتخذ للوجود مبدأً إنما من صنع هذا «الصانع» لأن «الصانع»، قد أدخل هذه العناصر بنسبٍ متعادلة انتظمت بها النسبُ الكونَ في الأبعاد النجومية هذه النسب مُتجلية تجلّيها في كل جزئي من جزئيات الكون بِنِسَب ربطَ «الصانع» الكون بعضه ببعض فأتى بوجودٍ، شبكة هو رياضية!.. شبكة رياضية إنما الوجود!

من ثم يتحتم، تبعاً للقوانين، أن يكون هذا الوجود، بكليته، بما يضمه من أجرام سماوية كروي الشكل، لأن الشكل الكروي متعادل النواحي، ولما كان يتحتم أن يكون الكون كروياً فيتحتم أنه يدور بحركةٍ دائرية لأن هذه الحركة هي الأكمل، كما يتحتّم أن تكون هذه السيارات بين النجوم «الثوابت» ذات حركة دوّارة تدور حول الشمس، كما يتحتّم أن

---

(١) في تيميمة

يكون هذا الوجود كائناً حياً لأن الصانع قد أودع الوعي في النفس والنفس في الجسد مما يدلّنا على أن هذه السيارات التي تعتبرها العين الجماعية كائنات قدسية إنما أجرام مترعة بالحياة، فإن للكون قانوناً يهتف بأن الحياة ليس على الأرض وحدها مقصورة أو قاصرة!...

ولكن!... ثمة سؤال يسأله الفكر لهذه الفلسفة وهو؛ إذا كانت على مثال «المُثُل» قد صيغت الأجسام، فما هو الزمن وما هو المكان وفي عالم «المُثُل» لا زمن ولا مكان؟...

إذا كان عالم السرمد عالماً لا زمن فيه ولا مكان فما هو، في عالم التغيّر، الزمن والمكان؟...

سؤال، عليه يأتي من هذه الفلسفة الجواب بأن:

يقيناً ليس هناك في عالم السرمد زمن ولا هناك مكان، كلا ولا في فضاء الفضاء كان هناك زمن ومكان فإن قبل تنظيم المادة لم يك هناك زمن ولا مكان وإنما بتنظيم المادة وتكوينها إلى أجرام في الفضاء تجري بحركةٍ رياضية وُجِد في اللاّزمن الزمن وفي اللاّمكان المكان!...

بَيْد أن ثمة سؤالاً آخر يسأله الفكر لهذه الفلسفة وهو؛ كيف نظّم «المنظّم» هذه العناصر وبأية طريقة هو لها بهذا التنظيم قد تناول؟..

سؤال، عليه يأتي الجواب عبر اللوالب الفكرية الأفلاطونية وهي تسترسل والشفاه منها تتهامس:

يقيناً إن المادة خلقاً لم تخلق فإنما قد انتظمت بفعل مُنظِّم يتحتّم أن يكون؛ منزّهاً عن المماسة، للحركة محرك وهو عن الحركة بعيد لا يتغيّر وإنما يُجري التغير لا متحرك، وإنما العلة المحركة بل وعلّة غائية تُحرك الكون لغاية، فإنه لما كان هو «الخيِّر»، فإنه لا يتصف بصفة من صفات الغيرة، ومن ثم فقد أراد أن يكون الكون كأكمل ما يكون أراد أن يكون كل شيء خيراً وجميلاً وألا يكون هناك شرٌّ أراد أن يكون كل شيء إلى نفسه أقرب شبهاً، ومن ثم فحثيث سعينا نحو الخير واتجاهنا الدائم نحو الجمال.

أراد «الصانعُ» أن يكون كل شيء **كنفسه** فصنع العالم مُحتذياً تلك المعاني الذهنية التي في الفكر منه تجول ومن ثم:

«صنع الصانع وجوداً ليس في الإمكان أبدع مما كان!».

أفلاطون

هذا هو الوجود بصوره هو صورة من «معاني ذهنية» لحقيقة «ما بعد طبيعية» صورة

صيغت على مثال تلك «المُثُل» تلك «المعاني الذهنية»، ومن ثم فيقيناً إن هذه الصورة إنما تقف، تبعاً لذلك، كظلال مرئية لتلك الحقيقة اللاّمرئية وإذا كان الوجود إنما صورة من معاني ذهنية فيقيناً إن:

الوجود إنما ظلٌّ يتبع المُظلّ! بالظل! والمظل، ربط أفلاطون المحسوس بالمعقول ربطاً يفسِّر الخطوات التطورية الارتقائية نحو المثالية، فهو بالسكون البارمنيدسي من وراء التغير الهيراقليطسي قد جاء بقانونٍ لا يتغيّر به أضحى الوجود المتغير ظلالاً للوجود اللاّمتغيّر القائمة فيه تلك المعاني الذهنية أو «المُثُل» المنتهية إلى مثال واحد هو؛ الخيِّر!

والخيِّر؟... يقيناً إن؛ «الخيِّر هو؛ الإله!».

أفلاطون

وجهان لحقيقة واحدة واسمان لمعنى واحد الخيِّر والإله إن على وجود الإله ووجوده كخيِّرٍ يأتي:

البرهان التجرُّدي

إن البرهان التجرّدي برهان مستمد من نفس هذا الوجود ومن نفس هذه الحياة..

إلى الوجود اتّجه واسبر ماضيه وحاضره وعلى أسس الماضي ومن صرح الحاضر أشرف على فسحة المستقبل، تجد أن كل الاتجاهات قد تجمّعت وإلى اتجاهٍ واحد تسير مُتمثِّلة في هذا السعي المطرد نحو؛ **الكمال**.

وإلى الحياة اتجه واسبر، قبل الأعماق من مظاهرها، ظاهر الاتجاه تجد أن إلى غاية واحدة، هي في قرارها مستقرة، حثيثة السعي تسعى، وهل الحياة إلاّ سعي متواصل وبين الوئيد والحثيث في مسيرها تسير نحو تحقيق «الخير»؟...

تتغيّر القيم بتغير العصر والبيئة والمجتمع إلاّ؛ **الخير**:

تتغير للخير تعاريف لا تتناول منه المعنى ولا تُشوِّه منه الجوهر، فهذا الانعطاف النفسي نحو الخير في أية صورة يتخذها هذا الانعطاف نحو الخير **فإنه الخير**، وهذا الصبو النفساني إلى الجمال في أي مظهر يتخذه هذا الجمال **فهو الجمال**، وهذا السعي نحو الكمال لتحقيق العدالة وإحقاق الحق في أي مظهر تتخذه العدالة ويتخذه الحق **فإنها العدالة وإنه الحق**، كل هذه مجتمعة إنما دليل يقفو دليلاً على أن هذه المعاني موجودة لا تتغير والدليل نفسه يدل على أن وجودها يقتضي **وجود كائن** به تقوم.

إن وجود هذه المعاني يُعلن استحالة وجودها دون أن تقوم بكائن! ومن ثم، ووجود

هذه المعاني يُحتِّم وجود كائن به تقوم، فإن وجودها إنما برهان يُعلن: **إن للإله، كخيِّر، وجوداً!**

من السقراطية جاء الوحي أن الإله الخير وعلى وجوده كخير قدم العقل الإنساني في خطوته الراهنة هذا البرهان التجرّدي أو برهان ما بعد الطبيعة برهاناً ما انتزعه من المجردات إلا وقفاه ببرهان آخر على وجود الإله استمده من العالم الداخلي، من الفكر نفسه:

برهان احتواء الفكر على فكرة إله

إن احتواء الفكر على فكرة إله، نفسه على وجود الإله برهان، فإن هذا التفكير البصيري في الإله موجود، وهذه النفس الفطرية المدركة الإله موجودة، وقط لا يمكن أن يفكر الموجود باللاّموجود!

لتأييد هذا البرهان يأتي إلى العالم الداخلي من العالم الخارجي برهان آخر يعلن وجود الإله كعلة فاعلة، كقوة إيجابية مؤثرة لأن؛ كل موجود إنما موجود بعد أن لم يك، وكل ما يوجد بعد أن لم يك **لا بد لوجوده من علة مؤثرة فيه**، وهي لا تؤثر إلاّ إذا اشتملت على قوة التأثير فإن:

«كل ما ينشأ ينشأ ضرورة بفعل علة، لأن من المستحيل أن ينشأ شيء بدون علة».

أفلاطون

«وأن ما ينتج هو سابق، **بطبيعته**، على ما ينتج».

أفلاطون

«من ثم توجد قوة قادرة على فعل ما لم يك سابقاً».

أفلاطون

بهذا البرهان تأتي المشاهدات شاهدة بنشوء المعلولات من العلل ولما كانت تلك العلة إنما إيجابية ففي قدرتها إيجاد ما لم يكن موجوداً، ومن ثم فوجود هذه القوة الإلهية **أمر ثابت يوجب ثبوتها** أن هناك علة متصفة بهذه القوى الموجودة وأنها القوة القادرة على فعل ما لم يكن...! ومن ثم فالخير إنما: **القدير**

بيد أن حذار!...

كلا!... ليس «القدير» بخالق فغير حادثة مادة الوجود، ولو من عدم كانت قد خلقت لمكان الشر مخلوقاً وهذا يتنافى والخير وطبيعة الإله كخَير!...

إن الإله ليس بخالق فإنما في قمة «المثل» يقف مثالاً للخير المطلق ووجوده إنما العلة

الأساسية للكون والكائنات بوجوده كمثال يطبع في المادة صور تلك المعاني الذهنية التي في الذهن منه، كفكر، تجول وهذا برهان على أن: الإله إنما، **فكر**!...

ولكن!... برهان وجود الإله كفكر إنما يأتي من البرهان على وجوده كنفس، فإن على وجوده كنفس يأتي برهان مستمد من الطبيعة نفسها، فهذه الحركة الكونية المشاهدة ليست إلاّ لأن هناك من الجواهر نوعين؛ نوع هو ذاك الذي لا يستطيع تحريك نفسه ويحرك غيره وذلك مثل؛ النفس ونوع آخر هو ذلك الذي يستطيع مد حركته إلى غيره وغير مستطيع التحرك من نفسه وذلك مثل؛ الجسم.

يقيناً من ثم، والنفس هي التي تحرك الجسم، أن هذه الأجسام المتحركة في هذه الحركة الكونية المشاهدة، **لا بدّ لها من نفس لها تحرك** ومن ثم فالوجود معلول بحركته إلى علة محركة هي، **كعلة محركة**، لا بد أن تكون **نفساً**! مما يبرهن على أن: الإله إنما؛ **نفس**!

نفس إنما الإله لأنه هو تلك القوة القادرة الإيجابية التأثير، ثم وهو تلك القوة القادرة أو القدرة القوية التي أخرجت من الفوضى نظاماً واستنّت السنن لا يمكن أن يكون، والقدرة التي تخرج من الفوضى نظاماً وتستن سنناً لا تكون إلاّ مدبرة: **المدبر**.

ثم والقوة المدبرة التي أدخلت السنن وانتظمت النظام والقوانين والانسجام في كل جزئية من جزئيات الكون لا تكون إلاّ نفساً مفكرة مما يبرهن على أن: الإله إنما؛ **نفس مفكرة!**

والنفس المفكرة التي انتظمت الكون بنسب متعادلة وأتت بوجود هو شبكة رياضية لا تكون إلاّ نفساً عاقلة وعقلاً رياضياً مما يبرهن على أن: الإله إنما؛ **نفس عاقلة وعقل رياضي**!..

حقاً لقد اتسع الأفق الفكري اتساعاً تلألأت فيه في سطوع أضواء الفكر، بيد أن عند القول بأن هذه النفس العاقلة هي للحركة العلّة! يطرق التفكير الأفلاطوني ليرى أن من غير الممكن أن تكون هذه النفس العاقلة هي العلّة الفاعلة لاتصاف العلّة بالحركة، ومن ثم أتى إبهام فلسفته من حول هذه العلّة، فقد رأى أنه يتحتّم أن تكون العلّة الفاعلة معلولة لعلة أخرى منزهة عن الحركة! ومن ثم فليس إلاّ بهذا الإبهام القائل بأن العلّة الفاعلة هي ديمورج أو الصانع اختلط على الشراح لهذه الفلسفة نظرتها إلى الديموج أهو نفس الخير المحض أم أنه للعالم، كصانع، نفس ومن ثم يكون بكينونته كنفس العالم، هذه العلّة المحركة التي عناها أفلاطون عندما قال مختتماً فلسفته الإلهية إن: **للعالم نفس هي للحركة علّة**

ولكن!... لا جدل في أن العقل الإنساني في نظرته الأفلاطونية قد رجح بقدر ما أرهفت منه النفس، ومن ثم كان إعلانه وجود نفس عاقلة نفسها عقل رياضي هو للكون

وللكائنات العلّة الأساسية بوجوده في قمة ذلك العالم المجرد السرمدي، «عالم المثل» كمثال يطبع في المادة صور تلك المعاني الذهنية التي في الذهن منه تجول والتي أراد إبرازها حقيقة ملموسة فأخرج الكون على خير ما يكون استجابة لطبيعته الخيرة!...

إن العقل الإنساني الذي جرت منه اليد بعد «الجمهورية» فسطرت «القوانين» إنما لم يسجل إلاّ اعتباره كلمتي خير وإله معنيين لحقيقة واحدة أو بالأحرى موجود واحد هو غاية الاتجاه الفكري وغاية الشوق النفساني لأنه مثال الخير... فإنما عند نقطة واحدة تتجمع أجزاء «الجمهورية» و«القوانين» وتصر على:

«إن الإله إنما نموذج الأشياء.. إن الإله إنما الخير!».

أفلاطون

من ثم فإن الإله، بوجوده في قمة «عالم المثل» وطبعه في المادة ما في الذهن منه يجول، تلحقه ما قد تقدم من صفات، تلحقه هذه الصفات لأنه ليس بخالق ولأنه العلّة الأساسية لأن يكون الشيء، بوجوده كنفس عاقلة تطبع في المادة صور ما في الذهن منها يجول ثم!... ثم إنه بوجوده كنفس عاقلة في قمة «عالم المثل» تقودنا الأدلّة، وعالم المثل إنما شيء مجرّد، إلى برهان ينادي إن من صفات الإله **التجردية** وإن: الإله إنما؛ **فكر مجرّد!**..

والفكر المجرّد؟.. الفكر المجرّد الذي يمثل العلّة الأساسية للكون، حتماً تلحقه صفة السرمدية.. ثم هو لأنه الفكر المجري هذه الحركة وهذا التغير يتحتّم ألا يكون خاضعاً للحركة والتغير ومن ثم، وهو اللاّمتحرك اللاّمتغير، فيقيناً إن: الإله إنما؛ **السرمد**

يقيناً إن الإله، وهو الفكر المجرّد والعلّة الأساسية لأن يكون الشيء بوجوده في قمة عالم المثل فكراً مجرّداً يطبع ما في الذهن منه يجول في هذه المادة التي لأنها مبعث الشر وسببه ليس لها هو بخالق، إنما السرمد والمدبّر والمنظّم والصانع وعلّة المزج الذي تدخل به التحديد في اللاّمحدود فحدده تحديداً به تولد كل موجود، كلما دخل التحديد في اللاّمحدود، والمادة هي اللاّمحدود واللاّمحدودية هي الفوضى المتأصلة في المادة وهي لهذا منشأ الشر، قل الشر، فإن كلما تحددت المادة بالصورة قل شرها والإله وحده هو علة المزج الذي تدخل به المحدود في اللاّمحدود ويتدخل شيئاً فشيئاً حتى يمحي تماماً الشر!...

هذه هي الثنائية التي جاء بها أفلاطون ثنائية ينقسم فيها الوجود إلى طبقتين متقابلتين؛ العقل المجرّد والمادة الأولية المتصفة بالعجز لأن القدرة كلها تأتي من العقل المجرد المتصف بكمال لا يحده الزمان والمكان ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة، وبين هاتين الطبقتين كائنات على درجة تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل وتهبط بمقدار ما تأخذ من الهيولى، هذا

الهيولى مصدر هذه الظواهر المادية والتي كلها خداع وبطلان لأنها تتغير وتتراءى للحس على أشكال وأوضاع لا تصمد على حال، فإنما الصمود للعقل المجرّد وحده من فيه مستقرة «المثل» هذه المثل العليا لكل موجود يتلبس بالمادة وليس هو في حقيقته إلا محاكاة لذلك المثل الأعلى الموجود في ذلك العقل المجرد. ليس لأي موجود إلاّ صفة أو صفات ناقصة من نعوت ما ينتسب إليه من جنس أو نوع، فإنما الجنس والنوع الذي لا نقص فيه فمستقر في العقل المجرد وهكذا يكون، بالتالي، بقاء هذه الموجودات إنما بقاء في الزمن، هذا الآتي من حركة الأفلاك والذي ليس قط بمقياس هو لبقاء الإله وإنما مقياس لبقاء هذه الكائنات أو هذه الموجودات المحسوسة التي تأتي الصور منها محاكاة للموجودات المثالية التي يعقلها العقل المجرد والتي تخرج، بتلبسها بالمادة، إلى حيز هذا الوجود فتنقص، لأن التلبس بالمادة يحيطها بالغير وينضح عليها الفساد...

أجل... هذه هي الثنائية الأفلاطونية، فلسفة كان حتماً لها أن تأتي في هذا الدور من أدوار التاريخ الفكري، فتاريخ انبثاقها إنما، دائماً، وليد إحساس بالبصيرة في إحساسها بالعقل إحساس، لانعطاف عاطفي ديني، لأنها تقف بين ألوان الفلسفات فلسفة ينطوي منها الأصل في الينبوع العاطفي لقيام الصرح منها على أسس العقل معاً والبصيرة وانعطاف العاطفة منها إلى دين عقلي في استناد على المساند الأخلاقية، وللسبب فالثنائية فلسفة تبعد مسؤولية الشر عن الإله وتجعله محض خير فمثال للخير المحض، ولكن!... بهذه الفلسفة، التي تستمد من الينبوع العاطفي تبرئتها الإله من الشر ومسؤولية الشر وتصوره خيراً مطلقاً، تجابه العقل مشكلة من المشاكل العقلية دقيقة، فإننا إذا أخذنا بهذه الفلسفة واعتنقنا من عقائدها عقيدته الثنائية جابهتنا صارخة الحقيقة التي تأتي بها نفس هذه النظرة العقلية، فإن الخير ليس كينونة مطلقة، كلا بل وليس هناك كينونة مطلقة فحسب وإنما هناك شيء آخر سوى الخير للخير يناوىء وأيضاً هذا الشيء الآخر ذاتي الوجود!

ومن ثم فهذه النظرة التي تستمد من الينبوع العاطفي تبرئتها الإله وإلقائها عنه مسؤولية ما بوجوده تعترف من الشر إنما نظرة تهوي بالألوهية من حيث تحسب أنها لها ترفع وبها عن الشر تترفع، لأنها نظرة تنفي عن الإله أهم صفة من صفات الألوهية الكاملة، صفة المطلقية!

كلا، إن أفلاطون، في «الجمهورية» و«القوانين» وما سواهما مما قد سطّرت منه اليد، لم يقع في الخطأ الذي يقع فيه عادة القصي عن الفلسفة والبعيد عن رحاب المنطق... كلا، فهو لم يطلق، وهو يثني، على من جعله مثال الخير المطلق صفة الإطلاق، فإن إطلاق صفة

المطلقية على الإله الخير إنما تخبط يرفضه تفكير يتعقل المعاني لأن وصف الإله بالخيرية والمطلقية في نفس الآن إنما مزج فوضوي بين فلسفة وفلسفة الواحدة عن الأخرى تختلف، ولها تغايراً جوهرياً تغاير.. كلا!... التخبّط لم تتخبط الأفلاطونية في فلسفتها هذه الثنائية التي إلى الفلسفة المثالية في رحاب التفكير الإلهي لم تقترب إلاّ استرواحاً واستشفافاً، وصنوها كان صنو سائر ألوان الفلسفة الإغريقية فقط لم يك التفكير الإلهي الإغريقي مثالياً، وليس إلاّ المثالية من الفلسفات هي التي تقول بالمطلق، وإنما نحو المثالية في تطلّع وقفت هذه الثنائية من الفلسفات في صورتها الأفلاطونية ومن ثم فصلها الوجود إلى «مادة» و«نفس» فصلاً فصل بين الخير الشر، وبذلك أعادت لنا الصورة التي صادفتنا على الهضبة الإيرانية بزردشت لتطلع علينا نظرة تقف بالألوهة فيما دون المثالية الصوفية من الفلسفات، فهي بوصفها الإله بصفة الخيرية إنما تصف الإله بصفة التعيين والتحديد والتناهي!

أوَ جدل؟...

بالسلب يأتي الجواب فإن النظرة الثنائية، التي جعلت الهيولى أو المادة الأولية مقاومة للعقل المجرد، وقط ليست موجدة بمشيئته من العدم وليست من عدم لأنها حقيقة واقعة، إنما نظرة لئن ساعدت على تعليل النقص والشر والألم، فإنما هي بجعلها المادة بين الكمال المطلق الذي ينبغي للإله وبين عوارض القصور التي تقترن بغيره إنما نظرة تنفي عن الألوهة أهم صفة تجعل الألوهة ألوهة بالمعنى الكامل من هذه الكلمة، فهذا التصور الإله كخير مطلق ومغايرته للشر المطلق تمام المغايرة إنما ينفي عنه صفة المطلقية، والمطلقية لصفة اللاّمتناهي تتبع، وعليه يطلق صفة المتناهي تتبع، وعليه يطلق صفة المتناهي!...

بيد أن، وعلى قمم الأكروبول قد رجع العقل الإنساني دوياً ما قد دوى به قديماً على تلال آذربيجان، هناك ثمة سؤالاً يسأله الفكر لأفلاطون:

إذا كان اللاّمحدود هو الشر أفلا يغدو، بالتالي، الخير محدوداً؟...

سؤال، عليه من الأفلاطونية يأتي بالإيجاب الجواب:

يقيناً إن اللاّمحدودية أو اللانهائية ضرب من ضروب النقص، فإن بالكمال لا يوصف إلاّ ما كان تاماً من جميع الوجوه وكان فعلاً محضاً وليس فيه شيء بالقوة، ولما كان اللاّمتناهي هو اللاّمحدود وما بالقوة فإنه يقتضي أن تكون اللاّنهائية والكمال متعارضين ومن ثم فصفة حتمية «للخير» تأتي المحدودية أو التناهي!

إن الإله الحق لا يكون إلا إذا كان كاملاً من كل وجه، ومن ثم فلأنه الكامل تلحقه حتماً صفة التناهي ويقيناً يكون: الإله إنما؛ **المتناهي!**

المتناهي؟... المتناهي اللاّمتناهية والتجرّدية ويكون المتناهي هو المجرد؟.

يقيناً، لا جدل في أن المتناهي إنما المجرد.... فإنما المتناهي هو نفسه المجرد إله تنتفي عنه للدين القائم أوصاف وصفات. فالمجرّد لئن حدّه تحديد التناهي فلا تحده الجسمية ولا تصمه العنصرية ولا يحتويه المكان ولا عليه يجري الزمان. إن هذه الأوصاف الدينية لتنتفي عنه نفياً قاطعاً ويحل مكانها ما قد تقدم من البراهين الثابتة والدلائل القاطعة على أنه مجرّد **فكر مجرّد**!..

إن عن المجرّد المتناهي ترتد، بما تلحقه كنفس عاقلة من صفات، ما به من صفات يلحقها الدين الرسمي للبلاد الذي وضع إلهه فوق عرش وراح يكيل له من المحامد ما هو صارخ النقائص. فإله الدين الرسمي إله يفضل فرداً على فرد ويحابي قوماً على قوم ويدمّر القرى والمدن بما فيها من أبرياء بجريرة الأشقياء بينما من خصائص الإله الحق أنه ليس خيراً فحسب وإنما هو الخير بذاته وفي ذاته وفي كل صوره فإن:

«الإله جامع لجميع المحامدة»

أفلاطون

فإنه: «الجميل والحكيم والحاوي للمحامد والخصائص الكاملة».

أفلاطون

عن الإله ترتد ما يلحقه به الدين الرسمي من صفات هي صارخ النقص!... الإله الحق غير مستو على عرش يحده، باستوائه عليه، المكان ويجري عليه، وقد حدّه المكان، الزمان!... واهٍ للدين الرسمي قول يقول بأن للإله أيام فيجعل له بالأيام زمناً ومكاناً. لم يك هناك زمن ومكان فإنما الزمن والمكان جاءا إلى الوجود في نفس الوقت الذي تعهد الإله فيه المادة بالتنظيم، بل وينقض القول بأن للإله أياماً أن الزمن ليس إلا صورة متنقلة من صور الكائنات وقط لا تنعكس على الإله!

هرافة من ثم! هرافة بل وخرافة كبرى المعتقد الديني القائل بأن للإله مكاناً وأياماً!...

أما آن للعقل أن يدرك أن من له أيام فله زمن وأن من عليه يجوز الزمن فرهين منال الزمن؟!..

أما آن للعقل أن يدرك أن من عليه يجوز الزمن فبوهنه يناله الزمن؟.. لقد آن للإدراك أن يدرك أن من عليه يجوز الزمن فخاضع للتغير، والتغير صفة لا تلحق السرمدية!.. لا تلحق الألوهة!..

من ثم فيقيناً إن عن الإله عن المجرد عن نفس المفكرة ترتد الصفات التي يلحقها بالإله الدين الرسمي ترتد كل ما يلحقه الدين الرسمي بمن هو المدبر المنظم الصانع الذي أخرج من الفوضى نظاماً فأوجد كوناً هو بانتظامه له انتظمه المكان والزمان والسعي نحو الكمال، فالكون إنما في سعيه يسعى نحو الكمال محاولاً التشبه به هو... هو «الكمال»!..

لا جدال في العقل الأفلاطوني قد استقام بهذا النفي الذي نفى عن الإله الحق ما يلحقه به الدين الرسمي من صفات استقامة قلما بلغها العقل الإنساني في غير رحاب الفلسفة ولكن... هناك سؤالاً آخر يسأله الفكر من خلال الأجيال للعقل الإنساني تحت مظهره الأفلاطوني:

إذا كان المتناهي نفساً عاقلة وكان المنظم والمدبّر وكان الصانع بطبعه في المادة ما في الذهن منه يجول أفغائي المتناهي وهو النفس العاقلة والعقل لا يفعل شيئاً إلاّ **لغاية**؟...

بالإيجاب تجيب الأفلاطونية:

إن برهان وجوده كنفس عاقلة إنما برهان نفسه على وجوده كعلة غائية!. إن كل فعل من أفعال الطبيعة يعكس غاية وكل أمر من أمور الطبيعة يعكس مراداً... من ثم فالغاية إنما مظهر واضح في هذا التنظيم المتقن الصنع وفي هذه القوانين المنتظمة جسم الكون المفعم بالجمال والاتساق والانسجام والعدالة وكل بدوره شاهد يعلن:

إن المتناهي ذو حكمة لا متناهية والحكمة اللامتناهية لا تعمل إلاّ لغاية!..

أرهفت النفس ورجح العقل فأعلن وجود نفس عاقلة مفكرة هي للكون وللكائنات العلة الأساسية بوجودها في قمة ذلك العالم المجرّد السرمدي اللاّمتغير الكامل، عالم «المثل» كمثال يطبع في المادة صور «المثل» ولا يعمل إلاّ لغاية فما الصور الكلية الثابتة إلاّ **صوراً للمعاني الذهنية الثابتة في ذهن الإله**.. المعاني الذهنية التي أراد إبرازها حقيقة ملموسة، فأخرج الكون على خير ما يمكن استجابة لطبيعة الخيرية، وهذا يفسر تفسيراً جلياً الخطوات التطورية للكون واتجاه الكائنات نحو المثالية التي ليست في حد ذاتها إلاّ:

احتذاء الإله... فإن الإرتقاء بالميول إنما به تشبه وإن الانعطاف نحو الحب إنما به شعوراً... وهذا هو الوجود وهذا هو من قوانينه قانونه المعلن:

«إن الإله نموذج كل شيء».

أفلاطون[١]

---

(١) القوانين

الربط ربط العقل الإنساني، في نظرته الراهنة التي تجسمت لديها المعاني الذهنية البحتة وأصبح بسببها يلقب «بالإلهي»، الوجود بالإله فربط المعقول بالمحسوس ربطاً أضحى به الوجود المتغير ظلالاً يتبع المظل ومن نسيج هذا الربط شيد:

عقيدة خلود النفس

على أسس نظرية «المثل»، والوجود المتغير قد أضحى ظلالاً فيه الموجودات ثنائية التكوين، يعود أفلاطون بالنفس إلى وجود سبق ما قبل الحياة الراهنة ويقول إنها إلى عالم المادة قد هبطت من عالم المجردات، فإنها قد كانت قبل هبوطها إلى الجسد، وهي البسيطة المفارقة للمادة، موجودة في «عالم المثل» بصحبة «النفس العالمية»...

«إن النفس كانت أول أمرها في العالم المعقول خالصة من الجسم والمادة».

أفلاطون

على أسس تفريقه بين عالمي المجرّدات واللاّمجردات طبع أفلاطون النفس بالأزلية وجعل الأزلية لها طبيعة. وليسير عبر هذه التفرقة الواضحة منه المنطق يقول: إذا كانت الأزلية للنفس طبيعة والتجردية لها ماهية أفلا يقودنا التفكير؛ بالتالي؛ إن الأبدية إنما للأزلية شيء يتبع ويرادف؟!

يقيناً من ثم إن الأزلية التي للنفس طبيعة والتجرّدية التي لها ماهية إنما أساس يكفل لها الخلود!

بديهياً أن للنفس خلوداً وعلى خلودها تجيء براهين من طبيعة النفس نفسها مستمدة، فإن النفس طبيعتها البساطة هي مفارقة للمادة ومن ثم فبسيطة. وهذه البساطة هي التي تكفل لها خلوداً لا ينقضي من حيث إن البسيط لا ينحل، فإن ما كان موجوداً بذاته من دون الجسم فموجود بذاته بعد الجسم!..

وعلى خلود النفس يقدم العقل الإنساني في خطوته الراهنة بعد البرهان البرهان، فعلى فكرة الخلود النفسي يقدم الإلهي أول ما يقدم برهاناً من التعاليم السقراطية مستمداً:

برهان التضاد

إن الشيء إلى ضده، إذا ما زاد عن حده، ينقلب. وإن من الأسوأ يتولّد الأحسن ومن الأحسن يتولّد الأسوأ. هناك تبادل تام بين الأضداد والموت والحياة ضدان من ثم فهما **متعاقبان**! ويقدم:

برهان المشابهة

إن النفس إنما «للمثل» تدرك، فهي للحقائق العامة الأزلية تدرك، والشبيه وحده هو الذي

يدرك الشبيه. من ثم فما «للمثل» من ثبوت وبقاء **للنفس بقاء وثبوت!** ويقدم:

برهان المشاركة

إن النفس إنما بذاتها مشاركة للحياة وبطبيعتها منافية للموت، **فهي** بحسب مدلولها وحقيقتها **حياة**. وقط لا يمكن أن يجتمع في ماهية واحدة ضدان من ثم فالنفس **نفس الحياة**.. والحياة؟. الحياة لا يتناولها موت بحال!.. من ثم فالنفس، والنفس في كل صورة من صورها وفي كل درجة من درجاتها وفي كل نوع من أنواعها حياة، طبيعتها طبيعة تأبى العدم!.. يلحق الجسد العدم ويرديه الردى ويفنيه الفناء **وأما النفس فطبيعتها الخلود!**

عرّف العقل الإنساني، في راهن نظرته، النفس بمادة روحية مادتها غير مادة هذا العالم، فهي مادة غير «طبيعية» أو بعبارة أوضح هي: **عقل بدون مادة طبيعية!**

وهنا... هنا نلج إلى لب «المعرفة الأفلاطونية» ونحن نواصل إلى الإلهي الإصغاء وهو يسترسل يقول: إن النفس إنما عقل وإنها عقل بدون مادة طبيعية!.. عقل بدون مادة طبيعية إنما النفس وفي أول أمرها كانت في العالم المعقول، العالم الإلهي، خالصة من الجسم تشاهد «المثل». ومن ثم فيقيناً أنها كانت بالمعرفة التي تسعى هنا إليها عارفة. حتى كان، من العالم الإلهي الهبوط...

وإلى الإلهي ترهف هنا المسامع وهو عن «المعرفة» يواصل التعريف ولنا يحدث:

يقيناً إن ليس إلاّ غداة إلى الجسم هبطت النفس، كان أن عشت كثافة مادته على بصيرتها وحجبت كثافة هذه المادة روحانية عالمها وأنستها ما كانت له عارفة من المعرفة، غير أن الحواس إذ تطلعها على الجزئيات تنبه فيها علمها القديم وتستحثها على استكماله!..

هذا هو التعريف الأفلاطوني «للمعرفة» وهو للمعرفة يعرف بأن لما كانت النفس موجودة قبل الجسد فالمعرفة تغدو؛ **التذكر** ومن هنا نفهم لماذا جرى قول الإلهي بأن المعرفة إنما الفضيلة وأننا إذا بلغنا الموضوع الأخلاقي فالمشاكل حلّها يسير!. ومن ثم فالواجب يغدو إنما الانصراف عن الجزئيات، عن هذه الصور الساربة لزائل أطياف، إلى علة الجمال المستغرق في وإلى الأشياء والتعلّق بالجمال بالذات.. ومن ثم فاتجاه الأفلاطونية إلى المثالية واتجاهها بنا إلى تلك الموجة الصوفية التي تمر بنا عليها في طريقنا إلى:

مشكلة الثواب والعقاب

من العقيدة القائلة بأن النفس عقل بدون مادة يشيد الإلهي قاعدة يتخذها منه المنطق العقلي مسنداً، فهو في استناد إليها يعلن؛ أن فكرة البعث الجسدي ساقطة سقوطاً يسقط بها

بالتالي يوم حساب وميزان!.. بل ويسخر أفلاطون أشد السخرية من جنة كجنة الأورفية هي للصالحين جزاء!.. ومن هنا يعرج أفلاطون إلى النفس فيؤكد؛ أن، والنفس إنما كانت في أول أمرها خالصة من المادة، يأتي من الأدلة دليل لا ينفي عنها فحسب العدم والفناء ولا فحسب نفسه دليل على انتفاء البعث الجسدي وإنما هو دليل على أن النفس كانت للمعرفة عارفة وللفضيلة كانت مثلاً ولكن!. علقت بها بعد الهبوط أدران المادة فحجبت صفاء الطهر فيها للمادة غشاوات، فإن طالما أن النفس في داخل هذا السجن المسمى الجسد فإن العقل محروم من كامل «صوفيا» أو الصفاء العقلي المتمثل في الحكمة وحب الفلسفة...

أجل... لقد تحولت كلمة «صوفيا» الآن، زمن أفلاطون، عما عليه كانت في زمن طالس.. وفي أثينا، في عهد الفلسفة الثنائية، لم تعد تعني ما قد كانت تعنيه في أيونيا في عهد الفلسفة الطبيعية من معنى المهارة العملية، فالمعنى منها إنما العهد قد اقتصر على الصفاء العقلي المتمثل في ظاهرة الحكمة المنبثة من ذلك النوع من «التذكر».... تذكر «المعرفة» التي كانت للنفس قبل أن تغشاها كثافة المادة والتي لها ستعود بعد خلوصها من هذا الجسم وعودتها إلى عالمها، عالم الطهر والتجرّد!..

بيد أن ثمة سؤالاً آخر يسأله الفكر هنا لأفلاطون؛ أتعود كل نفس إلى عالمها؛ عالم الطهر والتجرّد، وكثير من هذه النفوس ما قد شوبته الشوائب ودنسته الأدناس ورجسته الأرجاس؟!

سؤال، عليه يعترض المنطق الأفلاطوني ويتمهل مسائلاً؛ أما علمنا أن الشرير إنما إنسان لنفسه جهل، ولا يمكن أن يقال إنه يرتكب الشر عمداً!؟

إن في الوعي منا قد ألقى التعليم السقراطي أن مرتكب الإثم إنما امرؤ ليس إلاّ نفسه قد أذى، ومن ثم فهو، بنفسه، قد حال بين نفسه وعالم الطهر... بيد أن هناك لكل سواء، لمرتكب الإثم وللمتمسك بالفضيلة، جزاء موجوداً هو بوجود العدل..

من صفحات «فيدو» إلى صفحات «تيمية» تأخذنا هذه المشكلة لنرى أن عالم الطهر قاصر على الأطهار.. قاصر عالم المجردات إلاّ على من من اللاّمجرّدات قد تجرّد. أما من عن هذه المكانة قد قصرت منه الخطى فإن له أمكنة أخرى في رحاب هذا الفضاء حيث له فيها ألوان من الحياة تأتي إليه بما قد أتى من أعمال!

ولكن حذار!.. فليس هناك نار كنار الأورفية ولا هناك كجنة الأورفية جنان!. كلا ولا هناك كما للدين الرسمي عقيدة رسمية تقول بوجود عالم آخر قد يكون الثواب والعقاب فيه كما في الدنيا جارٍ بعدل معكوس!!.

إن للدين الرسمي عن الثواب والعقاب عقيدة منها العقل الإنساني يسخر ساخراً منه ديناً رسمياً لسجلاته قد تناول دارساً فاستعرض منها النصوص التي أحاطت بها، لأزمان، البلاد وفي غير ما تفكير فيها وسبر لها راحت من وراء رجال الدين الجماعات تؤكد أن سطورها البلاغة والإعجاز والحقيقة... وهي؟! بكل ما فيها هذه السجلات ليس فيها إلاّ كل ما يثير السخرية!

أجل... لقد تناول الإلهي سجلات الدين الرسمي فسخرا!..

سخر العقل في مرحلة نضوجه من كتاب حفّت به القدسية من كل جانب وحومت من حوله همهمة البلاغة والإعجاز وأترعته قصص حقيقتها أساطير!

وبديهياً كان للعقل، ناضجاً، أن يسخر وهو يقف تجاه «القانون الطبيعي» وإزاء النظم الكونية موقف اليقين الغير المتردد ومن ثم فارتفاع صوته في غير تردد وترديده بأن المعجزات التي تدعيها هذه النصوص إنما فوضى، والفوضى إنما خرق للقانون... وقط لا يصح اتخاذ خرق لقانون على القانون دليلاً!

إن الطبيعة إنما للحقيقة كتاب منتشر المعجزات فيه هي هذه الدقة وهذه النظم المنتظم لها قانون روحه العدالة يتنافى وما يدّعيه الناس ترديداً عن السلف من قول يقول بأن ما قد ضمته هذه النصوص من معتقدات وفكر إنما قد جاء بها دين يتوارثونه دون ما أدنى سبر له أو تفكير فيه ويؤمنون واهمين بأنه الدين الحق!

وأي دين الدين الحق؟

أدين الساسة والسائرة عليه الجماعات وسجله كتاب عنه قد صاحب الاعتقاد أن سطوره البلاغة والإعجاز، ولو أمعن فيه من الحافين به تفكير لنبذوه وأدركوا أنهم كانوا بوهمهم عن حقيقته سادرين!..

يقيناً إنه لوهم في حمأته تتمرّغ الجماعات!...

وهم إنما الاعتقاد بقدسية هذا الكتاب الذي به يدين الناس دون ما سبر صحيح لصحيح محتوياته وهم، بما فاهت به لهومير وعن هومير للسلف شفاه، دون تفكير يرددون!... وأي دين هذا الدين الذي يتمرّغ في حمأته الناس؟!

وهم!.. يجب كفه بكف تدريس نصوص هذا الكتاب!... كفاً يبدأ بأولئك المحترفين لتلاوة النصوص من هم دون ما أدنى فهم لمعناها متهللين يملأهم الطرب يرتلون!

إن النصوص من هذه السجلات الدينية إنما نصوص تضلل الناس، ومن ثم يجب كفّ

تدريسها للنشء كفاً يطوح بهذا «الكتاب» الذي حفه من الأجيال آل الحقيقة وسراب البلاغة والإعجاز!...

ثم... ثم ما هذه البيوت القائمة التي إليها يسعى الناس ويحجون ويتخذونها مزاراً وبها طوافاً يطوفون وفي قمتها، في أوليمبيا، يقوم بيت الإله؟.

وما هذه القرابين التي ترتفع والمحرقات التي تحرق والأبخرة التي تتصاعد بغية وصل الصلة بالإله وكلها لا تتضوع برائحتها الآفاق إلا لتضيع عبثاً في فضاء الفضاء؟!...

أما آن للإنسان أن يدرك أن بالإله لا تصله قرابين وضحايا، أو صلاة تقيدها حركات دون ما أدنى تحرك للوجدان؟! أما آن للإنسان أن يدرك أن إنما يصل الإنسان بالإله ما في طوايا العالم الداخلي منتشر من سنن قانون أخلاقي صفحاته **الضمير**؟...

أما آن للإنسان أن يعلم أن الصلة إنما موصولة بما يقوم بين الجوانب من قائم قانون أخلاقي وما هو في أقصى الضمائر موجود؟ إن بين الطوايا قانون رحابه العالم الداخلي روحه **الخير** ومبدؤه **الحب**!..

يقيناً لئن كان العالم الخارجي كتاباً ينتشر فيه ما قد استن «البديع» من سنن، فإن العالم الداخلي إنما طريق إلى الطريق المستقيم، يقود!.. إن «البديع» إنما قد أبدع الابداع وفي كل جزئية من جزئيات الكون توخى الجمال ولكل شيء قد هيأ وظيفته التي له تصلح ولهذا السبب يأتي، كلما حاول الكائن الحي الانحراف أو انحرف وعن الطريق المستقيم حاد، الصوت الآتي من طوايا الجوانب وعمق أعماق الصدور بالردع أو بالتأنيب والتبكيت!..

من ثم فالعبادة لا تنحصر في محرقة وتقدمة وقربان وحج وإنما العبادة عبادة روحية تنطلق بالنفس إلى رحاب من هو! «النفس العالمية»... إن «النفس العالمية» إنما الخير والحب ولما كانت النفس فطرتها الخير وطبيعتها الحب فإن العبادة الصحيحة والوحيدة المكلفة بها النفس إنما عبادة من هو نفس «الخير» وذات «الحب»، وهذه تنحصر في: **أداء الخير**، وفي؛ **الحب**!..

هذا هو الدين الذي جاء به الإلهي... دين، مثل الثمرة الناضجة في شجرة الأكاديمية التي حيثما امتد منها الظل راح فوح هذه الثمرة يهب ويتضوع عطراً شذياً يعبق في النفس منه اليقين بأن لئن كان أهم مستحدثات هذه الفلسفة، في دائرة الطبيعة، «عالم المثل» وفي تفكيرها الإلهي نفي الخلق والقول بالسرمدية أو الأزلية، فإن أهم مستحدثاتها في تفكيرها الديني: **خلود النفس ودين صوفي عقلي الأسس قانونه الضمير وشريعته الخير ومبدؤه الحب**!..

هذا هو الدين الشخصي الذي به قد جاء «الإلهي» ممثلاً بلوغ النهاية من تلك الموجة التي دفعتها الفلسفة السقراطية تجترف إليها العقلية الإغريقية اجترافاً، فليس إلاّ بهذه الموجة التي بلغت قمتها بالأفلاطونية كان أن تضوعت من جديد فاغمة وهبّت قوية على دنيا الدين والفكر الحر معاً، الصوفية الإغريقية مضمخة بعطر الحب الأفلاطوني!

لا ثمة شك في أن الينبوع الأول الذي عبر تدفقه وجريه سار الفكر من الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة إنما **البصيرة**. هذا هو المجرى الذي لا يجب أن يحيد عنه الإنسان إذا ما أراد من الحقيقة الاقتراب، فكالبصر إنما البصيرة إذا كان البصر «عين الجسد» فالبصيرة «عين النفس». ذلك بعالم الظلال بصير، وهذه بعالم المثل أو بالأحرى عالم الحقيقة بصيرة ومن ثم **فهي لا تقع إلاّ على الحقيقة**.

ولكن... الصوفية الأفلاطونية إنما عن سواها من الصوفيات العقلية تختلف، فلقد رأينا الصوفية العقلية في الهند والصين فرأيناها تتطور إلى أرحب آفاق الصفاء النفسي والعقلي في العهد الذي بدأت النسائم هنا تعبق بأنسامها، فمنذ القرن السادس ق.م والشواطىء من هذه الناحية من الدنيا بنسائم الصوفية تتعطر ولكن لتبلغ أقصى مراحل تطورها هنا بهذه الفلسفة التي اتجهت ناحية المثالية وإن تلك بلوغاً كاملاً لها لم تبلغ، ومن ثم لم يأت اللون منها إطلاقي التقشف كاللون اللاوتسي وكاللون اليوبانيشادي وإنما أتى اللون منها لوناً اعتدالياً... ففي «فيدو» تجيء شريعة هذا الدين الصوفي لنرى أن الفيلسوف إنما من على نفسه طبيعة اللذات لا يحرم ولكن بطريقة وبصورة معتدلة فيستعبد ملذاتها ولا يضحي لملذاته عبداً!...

كلا... لطبيعي الملذات لا يحرم المذهب الأفلاطوني، ولكن! الشيء الذي له شريعته تحرم وتعتبره منافياً لأصولها ومبادئها هو أن يشعر المرء بأنه إلى الجسد مقيد، فالمذهب الأفلاطوني في نزعته الصوفية لا يطلب إلاّ التحرر النفسي من قيد السيطرة الجسدية وهو في مطلبه هذا شبيه بالبوذية الأصيلة واليوجية في دورها الأول وزردشية زردشت من حيث إنه لا يكلف النفس إلاّ إصفاء ذاتها ومن حيث إنه لا يكلف أحداً بتكاليف مادية، وإذا كانت كل هذه المذاهب تستنكر الصوم فإن المذهب الأفلاطوني لا يكلف المريد صوماً فعن الصوم ليس هناك تلميح، بل على النقيض نرى أن على الفيلسوف تزويد جسمه بما إليه يحتاج من وقود كي يتمكن من التفكير الجلي. ليس هناك من المحرمات التي يحرمها هذا المذهب إلاّ التفريط في واجب الجسد وإلا الإفراط في سادر الملذات، فإن التفريط كالإفراط سواء الواحد كالآخر إنما بين العقل وعمله الفكري يحول فليس على الإنسان أن يتبع إلاّ:

شريعة الاعتدال

عبر صفحات «فيدو» يحدثنا الإلهي عن مذهبه ليحدثنا أن للتابع هذه الشريعة المعتدلة تضم مدينته الطيبة «يوطوبيا» في دنيا «جمهوريته»، هذه «الجمهورية» التي يرى الإلهي كواضع لدستورها والمؤسس مدينتها أن السبب الأساسي للنزاع الجماعي وللخصومات السياسية إنما الأنانية والجشع المادي، والدليل على ذلك أن نفسية الفلاسفة لا تشوبها هذه النزعات ولا تشوبها هذه النوازع. ومن ثم فالحكم السياسي في أرجاء «الجمهورية» يجب أن يكون للحكماء، للفلاسفة يجب أن يكون حكم الجماعات، لأن مجتمع المدينة الطيبة اشتراكي الروح والطابع فلا ملكية فيه للفرد إلاّ بالقدر الذي تتطلبه الأمور الضرورية للمعاش، فلا فقر هناك في المدينة الطيبة كلا ولا هناك في دنيا «الجمهورية» مادي ثراء، فإن الفقر المادي كمادي الثراء، كلاهما للنفس وللخلق مفسد!... ومن ثم فالثراء والفقر شيئان ليس لهما في المدينة الطيبة وجود. كما أن للمرأة في دنيا «الجمهورية» تمام المساواة والرجل وهذا على عكس ما قد جرت به أقلام تصم الأفلاطونية بما عنه تترفع كفلسفة ساوت بين العنصرين في الحقوق والاعتبارات وجعلت الحكم في دنيا اللاّمجردات خاضعاً لحكم العقل المجرّد!...

بيد أن هذه الصوفية التي تتضوع فاغمة منها الهبات في أرجاء «الجمهورية» ويسود الاعتدال فيها كشريعة في مذهب روحه الخيّر وقانونه الحب إما، بما به قد أتت فلسفتها من ربطه المحسوس بالمعقول وقولها بالمظلّ والمظلّ ووصفها الإله بنفس عاقلة جعلتها العلّة الفاعلة للحركة وللتغير وبما به قد أتت من صورة واضحة من ثنائية بين النفس والجسم، قد أثارت الفكر وأطلقته بالأسئلة. فهي بربطها المحسوس بالمعقول والعالم بالمعلوم وهي بقولها بوجود نفس روحية بسيطة للمادة مفارقة كانت قبل هبوطها موجودة بصحبة «نفس العالم» وهي بوضعها قاعدة ثنائية الكائن الحي قد أثارت الفكر الإنساني وبعثت فيه بسؤال:

وكيف يمكن لهذين المتباينين، المجرّد واللاّمجرد، التعاون وكيف، إذا كانا مستقلين، قد اتحدا؟!

سؤال.... جوابه كان:

التفكير الديني في الفلسفة الواقعية

متسائلاً هب العقل الإنساني متمثلاً، بعد «الإلهي»، «بالعقل» لتطالعنا لأول مرة في تاريخ العقل البشري أولى الخطى العلمية نحو «علم الحياة» كما قد سجلتها منه اليد بتلك «الرسائل» السابرة ماهيات الجسم والنفس والعقل وبذلك «المنطق» المقسم المحدد وبتلك «الرسالات» المنتظمة التي لعبت دورها في المسيحية ومن بعد في الإسلام...

بـ «أرسطو»، (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م)، تساءل العقل الإنساني وهو في فناء «اللوقيون» يتمشى:

إن «الإلهي» يقول بثنائية تؤلف النفس والجسم على أسس قوله بالمظل والمظل... أيقيناً إن الوجود ظلال والموجودات أشباح تقابلها «مثل»؟.

وبين الحثيث من الخطى ووئيدها راح ظلال «المعلم الأول» كما سيلقبه من بعد من نعرفه بالمعلم الثاني أو الكندي، يظل فناء اللوقيين ذرعاً والفكر منه لتعاليم الأكاديمية يستعرض فرافعاً ناظريه إلى وجود راح يجول فيه منه التفكير، فرآه وجوداً تكونه: صورة، ومادة، وحركة

يقيناً إن الوجود وجود، لئن كان ساكناً فيه السكون فإن في أرجائه يجري هديراً تيار الحركة مادتها هذه المادة وصورتها هذه الصور!..

وللشتى والمتباين من ألوان الفلسفات التي أتى بها الفلاسفة عن الوجود، هذا الأساس الذي يقوم عليه صرح الدين، راح «العقل» يستحضر ويستعرض فلم يسترعه منها إلاّ واحدة بالتغير تقول وأخرى تقول بمحض السكون...

إن الوجود البارمنيدسي وجود له ماهية متحققة في الخارج على مثال تحققه في الذهن، ساكنة فيه الوحدة وبالوحدة ساكن فيه السكون... ويقيناً إننا إذا إلى الأعماق تعمقنا وعمقنا نجد أن في الأعماق ساكناً عميق السكون.

وإن الوجود الهيراقليطسي وجود صاخب الكثرة فيه ساكنة وبالكثرة ساكن فيه اللاّسكون... ويقيناً أن الحركة موجودة فجلية هي للعيان وملموسة هي للوجدان وشواهد على وجودها أحوال الانتقال من حال إلى حال ومن فكرة إلى فكرة وإلى خيال من خيال... ودليل على وجودها هو أننا أمام حالات التحول هذه ندرك أن في الوجود ثمة حقيقة واحدة ملموسة هي؛ التغير.

والتغير؟.. التغير إنما انتقال... من ثم أيمكن أن يكون الانتقال انتقالاً من العدم إلى الوجود ومن الوجود إلى عدم، وضدان إنما العدم والوجود؟...

ضدان إنما الوجود والعدم... أيمكن من ثم أن يستحيل إلى ضد الضد؟..

كلا!.... إن الاحتمال احتمال مستحيل تنقضه البداهة. والفرض فرض يعوزه المنطق. فإن التغير من ضد إلى ضد إنما يتم من حالة يمكن أن يطلق عليها معنيان؛ بمعنى أنها وجود. وبمعنى آخر أنها لا وجود أو بمعنى أصح هي حالة وجود **بالقوة** وعدم بالفعل، وحالة وجود **بالفعل**.

التغير من ثم إنما انتقال من حالة الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل...

ثم... إن التغير إنما يجري دائماً بين ضدين لا يتحول أحدهما إلى الآخر، مما يوجب أن يتعاقبا على شيء يظل ثابتاً طوال هذا التغير ويكون نفسه مقوماً للجسم ومبدأ فيه وهذا الشيء يصح أن نسميه: «هيولى» أو مادة.

ولكن!.. ليست «الهيولى» هي هذه المادة الطبيعية المتشكلة كلا وإنما كما كانت هذه المادة عندما كانت مادة أولى وأصلاً غير معين مما يصح أن نسمي هذا الهيولى: مادة أولية.

ومن ثم فإن هذه المادة الأولية، لما كانت غير معينة في نفسها ومن ثم ليست بماهية ولا ماهية لها ولا كيفية ولا يمكن أن تكون شيئاً داخلاً في المقولات التي هي أقسام الوجود، حتماً تكون أو بالأصح قد كانت قوة صرفة «إمكانية». أمامها نرانا مسوقين إلى القول، ليصح لنا تفسير التغير، بأن حتماً يكون من مبادىء الجسم هذا الهيولى وبه تشترك الأجسام جميعاً في كونها أجساماً...

ولكن!... القول بالهيولى هذا القول بأنه مادة أولية غير معينة وبها تشترك الأجسام في كونها أجساماً إنما قول يتطلب القول بمبدأ آخر يفسّر لنا ظاهرة أو حقيقة أخرى، وهي مشاهد التمايز أو التغاير بين جسم وجسم. ومن ثم فإن هذا المبدأ، وهو العلّة للآثار الخاصة بكل شيء على حدة، هو ما يصح أن نسميه: **«الصورة»**

ومن ثم فالمادة والصورة يتمايزان في الذهن ولا ينفصلان في الواقع، فلا الهيولى وحده يوجد ولا كذلك الصورة التي هي إحدى مبادىء الأجسام وحدها توجد، فإن باتحاد هذين المبدأين، المادة الأولية والصورة، اتحاداً جوهرياً يتكون لنا كائن واحد هو في كل منهما ناقص في ذاته وإلى الآخر مفتقر وله متمم... أفيمكن بعد ذلك القول بأن الوجود ظلال والموجودات الطبيعية أشباح تقابلها «مثل»؟...

أنى؟!... والهيولى إنما جزء المحسوسات؟...

الهيولى إنما من المحسوسات جزء لأن قط لا يوجد موجود إلاّ في مادة معينة وإذا كانت «المثل» حقائق الأشياء فكيف يمكن أن تكون مجرّدة؟..

وإذا قلنا إن بتحقق «المثل» في مبدأ تصبح محسوسة وجزئية فلم تكن مثلاً ولا حقائق!.. من ثم سواء أكانت من المادة مجرّدة «المثل» أو كانت في مادة متحققة فقول غير مقبول منطقياً لأن في تجريد «المثل» من المادة معارضة لطبيعة الأشياء التي تمثلها.. وفي تحقق المثل في مادة واستحالتها إلى جزئية محسوسة تستحيل معارضة لما لها من صفات. ومن ثم فالمنطق يعلن جهيراً بطلان «المثل»!..

منطقياً استرسل «العقل» ولحججه على نقض صرح «المثل» هبّ يحتج محاجاً؛ «أن من المعاني الكلية لما يدل على أشياء بغيرها موجودة يستحيل أن تقابلها مثل أو يقابلها مثال كالأشكال الرياضية وكالألوان.. والشكل إنما شكل شيء بالضرورة، لا بالذات».

ولكن... لئن استرسل «العقل» هذا الاسترسال المنطقي فليس إلاّ ليسبح منه التفكير فكراً يتساءل:

بيد أن هناك من المعاني معاني هي محض ذهنية وفي الذهن موجودة فأي اعتراض منطقي يمكن أن يقدم على أن المعاني جميعاً توجد في العقل دون أن تقابلها «مثل»؟..

ومفكراً أطرق «العقل» فطرق أفقاً ما احتواه منه الرحاب إلاّ ليعود معلناً:

إن الحقيقة هي أن المحسوسات موجودات بكل معاني الكلمة، وما المادة الكلية إلاّ **موجودات ذهنية** يجرّدها من المحسوسات العقل!..

ليس من ثمة شك أن الجسم الطبيعي **شيء حقيقي** ولكن!... كل جسم إنما عن الآخر يتمايز تمايزاً أساسياً وذلك دليل على أن هناك اختلافاً جوهرياً في الخصائص الجوهرية. وبرهان في آن الآن على بطلان مبدأ ترتيبها من عنصر واحد معين، مثلاً كالماء.. وقط لا يمكن أن يكون ذلك ولو كان لكان المعنى أن هناك اختلافاً في المقدار والشكل يحدث في الخصائص الجوهرية اختلافاً، وذلك إنما لا يناقض فحسب ما تشهد به المشاهد الصحيحة بل تنقضه من أساسه صحيح المشاهدات. ومن ثم فلا بد من أن تكون هناك وحدة متماسكة بها يتماسك الجسم الطبيعي فبدون هذه الوحدة تصبح الأجسام الطبيعية آلية محضة ليس لها من وحدة إلاّ تلك الوحدة العرضية الناشئة من اجتماع الأجزاء، وليس لها من فعل خاص إلاّ ذلك العقل الناتج عن تفاعل الأجزاء. فأنّى؟! أنّى يكون الأمر ولكل جسم طبيعي خصائص وأفعال لا تفسر بالمادة وحدها وإنما **بمبدأ داخلي** يرد المادة، المنبسطة في المكان شيئاً واحداً. والبرهان على ذلك إنما نفس الكائن الحي!

الكائن الحي، نفسه على وجود هذا المبدأ الداخلي برهان فإنه، وهو هذه الكينونة المتعددة الأجزاء والوظائف، ينمو من باطن وما كان ليتسنى له «النمو» لو جرّد إلا من مجرد مجموعة أعضاء!..

من ثم فيقيناً إن هناك **مبدأ داخلياً**، وإن هذا المبدأ الداخلي هو المبدأ المتركب منه الوجود. مبدأ، هو الذي يعين المادة ويعطيها ماهية خاصة ويجعلها شيئاً واحداً وهي ما نتعقله في الأجسام. ومن ثم فيقيناً إن الجسم الطبيعي مركب من: هيولى وصورة

ومن ثم فإذا كان الهيولى هو هذه المادة الأولية غير المعينة أصلاً والتي بها تشترك

الأجسام جميعاً في كونها أجساماً فإن «الصورة» **هي هذا المبدأ**. الصورة هي هذا المبدأ الذي يعين الهيولى ويعطيه ماهية خاصة ويجعله شيئاً واحداً وهي ما نتعقله في الأجسام!..

أجل... لقد أخذ «الإلهي» الأشياء المدركة بالحس فعمّمها ودعاها ثابتة لا تحس وليس عند الإلهي الآمن حيث التخصيص والتعميم فارقاً بين الشيء ومثاله ولكن!... الأشياء إنما تدرك بالحس و«المثل» هي صور من الأشياء، وليست الأشياء صوراً من المثل!.

بالمعترضات اعترض على «الإلهي» «العقل» ناقضاً، بنقده «نظرية المثل»، «المثل» فانتقض بذلك نظرية من مادتها شاد جديد نظرية، فقد كان هذا النقد الناقض أساساً لما قد أتى به من فلسفة تقوم منها القوائم على:

نظرية وحدة المادة والصورة

يقيناً إنها ثنائية وهمية هذه التي تؤلف المادة والصورة. فإن المادة والصورة **وحدة** ومن كليهما يتكون، في الخارج، كل موجود. وليستا منفصلتين **إلاّ** في الذهن الذي ليس إلاّ على هذا الشكل يحتويهما له فهم..

يقيناً، ليست هناك صورة من غير مادة ولا هناك مادة من غير صورة بيد أن الصورة ليست الشكل!.. الصورة لا تعني الشكل وإنما الصورة تعني جميع صفات الشيء، كما تعني أيضاً العلاقة بين أجزاء الشيء وعلاقة كل جزء بالكل. أما المادة فهي ما اتصف بهذه الصفات وأشباهها!..

لا جدال أن من المنبع الأفلاطوني استمد أرسطو لتصوير الوجود ألواناً بها رسم للطبيعة صورة بيد أن في إطار من المنطق!..

أجل... بألوان الأفلاطونية رسم أرسطو للطبيعة صورة حفّها منه المنطق بإطار وتجاهها.... تجاه هذه الصورة الأفلاطونية المادة والمدد اتجه «العقل» إلى «الإلهي»، الذي قد فرّق بين النفس والجسد وترك للأجيال أعوص سؤال في أدق المشكلات الدينية، يجيب:

إن النفس ليست للجسد شيئاً مغايراً فنفسها نفس «الصورة» نفسها نفس «الشكل» نفسها نفس «الحياة الداخلية». هي مغلفة بالجسد والجسد بها مغلف فكلاهما في الآخر متغلغل وفي حقيقته شيء واحد!...

إن الهيولى ليس مادة أولية إلاّ بالقياس إلى الشكل الذي يتخذه ومن ثم فيكون، بهذا الاعتبار، مادة ثانية وشكلها «صورة عرضية» ولكنها في ذاتها مركبة من مادة أولى بالإطلاق ومن صورة جوهرية. وباتحاد هذين المبدأين يتكون ذلك الكائن الواحد الذي يقوم نفسه شاهداً على أن كلاً منهما ناقص في ذاته وفي افتقار إلى الآخر وله متمم ومن ثم فتمايزهما

في الفكر واتحادهما في الواقع فلا للهيولى وحده وجود ولا للصورة وحدها دون الهيولى وجود..

وهنا يستدرك «العقل» فيعلن: إنما الصورة هي الصورة الطبيعية ليس إلاّ!..

الصورة الطبيعية هي طبيعة الشيء ومجموعة مختلف الصفات وبنسبتها إلى الهيولى تختلف أنواع الموجودات!..

إلى تمايز الصور لا إلى اختلاف في شكل المادة ومقدارها أرجعت الأرسطية تمايز الخصائص والأفعال، وجعلت ذلك لاطراد الصور تفسيراً فلقد تجلى لها العالم مجموعة صور معقولة وكلها، بحسب صورتها وطبيعتها لا بحسب مادتها وكميتها، إنما تعمل. بيد أن ما صور أرسطو «الصورة» حتى جابهه سؤال: وما أصل «الصورة»؟..

إلى الهيولى نظر أرسطو باعتبار الهيولى مادة غير معينة، وتبعاً لهذه النظرة اعتبر هذه المادة غير المعينة ليست بذات ماهية، كما أن لا كمية لها ولا كيفية، كما لا يمكن لها أن تكون شيئاً داخلاً في المقولات التي هي أقسام الوجود. ومن ثم فهي قوة صرفة «إمكانية» فهي إمكانية وإمكانية وجود. وبذلك أضفى على المادة وجوداً جعلها به، تحت هذه الصورة من وجودها الإمكاني، تقف في مرتبة تسمح لها أن تتعشق «الصورة» لتحصل على الوجود الحقيقي. وهذا التعشّق المستمر من المادة نحو «الصورة» والسعي للحصول عليها إنما نوع من الحركة فهو:

«فعل ما هو بالقوة، من حيث هو بالقوة!»

أرسطو

من ثم فالوجود إنما صرح يقوم على أسس ثلاثية القواعد:

مادة يتوارد عليها التغير

وصورة يتحقق بها التمايز

وحركة بها تحصل المادة على الصورة

ومن مجموع هذه الأشياء الثلاثة يتكون ما يعبر عنه بالوجود المرئي المحسوس أو الطبيعة!

التحديد حدد «العقل» تعريفه للمادة وللصورة وبالحركة التي بها تحصل المادة على الصورة قال، ليسترسل معرفاً «هذه الحركة الكونية» بأن:

«الحركة» هي سير المادة إلى الصورة. وأن إلى أنواع أربعة تنقسم الحركة. فهناك الحركة التي تؤثر في عنصر الشيء إيجاداً أو إعداماً. والحركة التي تغير الكيف. والحركة التي تغير

الكم. وأما الحركة الأخيرة وهي الأهم فإنها حركة الانتقال أو تغير المكان... وأما الحركة نفسها، فبكليتها، إنما دليل على أن الهيولى قديم والصورة كذلك قديمة، دليل يؤكد أن الطبيعة طبيعتها؛ **الأزلية**!..

من ثم، على انتفاء الخلق في الطبيعة أو خلق الطبيعة وعلى حقيقة الأزلية إنما «الحركة» برهان، فإن على أزلية الحركة يمكن الاستدلال المنطقي من طريقين:

من طريق ملاحظة المحرك والمتحرك.

إننا إذا فرضنا أن «الحركة» حادثة أو مخلوقة فالمعنى إنما أن أول حركة بعد الحدوث لا تكون مسبوقة بحركة أصلاً!... ولكن... المنطق يحتم بأن لا بد أن لكل حركة من محرك ومتحرك به **تقوم**..

وهذا المحرك والمتحرك؟.

إن هذا المحرك والمتحرك اللذان قامت بهما أول حركة فرضت لا يخلوان عن أما أن يكونا قديمين أو حادثين. فاحتمال أنهما حادثان يؤدي إلى الخلف وذلك لأن حدوثهما لا بد أن يكون بحركة وتكون تلك الحركة سابقة على الحركة منهما وعلى ذلك لا تكون الحركة منهما أول حركة والمفروض أنها أول حركة!

وأما احتمال أنهما قديمان فأمر لا يخرج عن أن يكون في طبيعة أحدهما أن يحرك والآخر أن يتحرك. فلو كان الأول هو الواقع فلا يتصور الحدوث حينئذٍ لوجوب وجود المعلول عند تمام العلّة. وإذا كان الثاني احتاجت أول حركة لكي تحدث منهما إلى حركة قبلها تحدث فيها علية الحركة فتكون هذه الحركة الأخيرة سابقة في الوجود على ما فرضناه أول حركة!..

من ثم، وكلا الاحتمالين باطل، فإن الحركة غير حادثة أو مخلوقة وإنما أزلية. وإذا كانت أزلية فحتماً أبدية ومن ثم فسرمدية!..

عن طريق ملاحظة المحرّك المتحرّك جاءنا البرهان المنطقي على أزلية الحركة وسرمدية الوجود وللبرهان يؤيد برهان آخر إلينا يأتي: من طريق الزمن

إن الزمن مكوّن من آنات والآن إنما وسط بين مدتين هما نهاية الماضي وبداية المستقبل من ثم فكل آن إنما فرض لأجل أن يكون له بعد، ويكون له قبل مسبوقاً أبداً بماضٍ وهذا إنما معناه الزمن، أفنشك بعد ذلك في قدم الزمن؟.

ثم إذا كان زمن مقياس الحركة هو، كما في واقع، قديم غير حادث فذلك نفسه

إنما على ما قد سبق من أدلة يأتي كدليل على أن الحركة قديمة وأن الوجود تنتظمه الأزلية!..

أزلية إنما «الحركة الكونية» ليس في ذلك من شك ولكن!.. كيف تتحرك هذه «الحركة» وأي شيء لهذه الحركة محرِّك؟.. أيمكن أن تكون العلّة وجودها محتوية؟...

سؤال تساءله «العقل» ولنفسه عبر منطقه بالنفي أجاب:

قطّ لا يمكن أن تكون «الحركة» لعلّة وجودها محتوية والبرهان على بطلان هذا الافتراض يأتي من ثنايا نفس «الحركة»، فإن كل تغيّر كوني وكائني إنما يتجه نحو **«الأفضل»** ويحدث قصد **«الكمال»** من ثم فمنطقياً أن لهذه «الحركة» علّة هي: **الكمال**!..

قط من المُحال احتواء المفضول على الأفضل والكامل على الأكمل، من ثم فمن المحال اشتمال المعلول على علّته واحتواء الأثر على مؤثره، فذلك معناه أن المؤثرات جزء من أثرها والقول إنما قول مرفوض يرفضه رصين المنطق ومن ثم فالنتيجة الحتمية لما قد سبق من استنتاج تعلن:

أن هذه الحركة الأزلية، ليست إلاّ؛ **ظاهرة**.. ظاهرة من ثم إنما الطبيعة!.

والظاهرة؟... الظاهرة إنما مطبوعة بطابع الافتقار إلى علّة هي لظهورها سبب، ومن ثم فإن الطبيعة مطبوعة بطابع الافتقار إلى علّة عنها فائقة، ومن ثم فيقيناً إن لهذه الظاهرة؛ علّة!..

إن لكل حركة في دائرة الطبيعة علّة وكل علّة إلى علّة معلولة بيد أن كل هذه العلل فثانوية ومن ثم فمن المستحيل، وثانوية العلل إنما لما قبلها معلولة، حلّ مشكلة «الحركة» عن طريق العلل الطبيعية استحالة ينادي بها للمنطق قانون يتجه نفسه باحثاً إلى علة ما بعد طبيعية هي للعلة الطبيعية العلّة ليعود معلناً:

إن للمنطق قانوناً يُحتِّم، ولأزلي الحركة مشكلة لا يمكن حلّها عن طريق العلل الثانوية، إن للحركة الأزلية علّة مباشرة ومن ثم، وحركة الطبيعة بفعل محرّك أول كافية بتحريك سائر ظواهرها الطبيعية فللطبيعة يقيناً: **مُحرِّك أول**

للكون محرِّك أول ولكن!.. لئن كان قد أيقن العقل أن للكون محركاً أول فإن هذا اليقين إنما يدفعه إلى التساؤل؛ كيف يحرِّك «المحرِّك الأول» الكون؟..

كيف يحرِّك «المحرِّك الأول» الكون وقد ثبت لدينا أن الحركة الكونية إنما أزلية؟!. **وأطرق «العقل» يُفكر لتجري لوالبه الفكرية تسجِّل:**

إن مادة الوجود الأزلية الحركة إنما مادة قابلة للانفعال ولا حدّ لها ولا اسم ولا وصف إلاّ الأزلية وعلى أزليتها قد رأينا الحركة تأتي كدليل يتلخّص في أن كل أمر يمكن انتقاله من حيز القوة إلى حيز الفعل لا بدّ له من الانتقال وإلاّ حدث فراغ ووقوف في الكون، وعلى ذلك تكون «الحركة» مستمرة في العالم ولولا هذه الحركة المستمرة لما قد حدث متتالي التحوُّلات الواجبة لإيجاد الوجود، ومن ثم فالوجود يكون حتماً قد نشأ عن طريق؛ **«النمو الطبيعي»**.

بديهياً إن ما الموجودات إلاّ عبارة عن تولُّد الموجودات وخروج بعضها من بعض، ومن ثم فيقيناً؛ أن العالم ليس إلاّ سلسلة من ترقٍ للمادة من صورة إلى صورة منها أرقى أو بالأحرى درجات أو منازل، فما كان من الأشياء في منزلة عالية يكون قد غلبت صورته مادته، وما كان من الأشياء في الأدنى من المنازل يكون قد غلبت مادته صورته، حتى إذا وصلنا إلى نهاية الحضيض وصلنا إلى مادة لا صورة لها هي؛ **مادة محضة** وإذا الذروة العليا بلغنا وجدنا صورة لا مادة لها هي؛ صورة محضة!...

برباط التأثير والمؤثر ربط «العقل» أجزاء العالم أو الهيولى والصورة على أسس منطق رأى العالم إنما مراتب وكل مرتبة فمادة لما فوقها وصورة لما تحتها، فنحن إذا صعدنا في الارتقاء إلى هذه الذروة العليا للموجودات لبلغنا الصورة المحضة ونحن إذا هبطنا إلى نهاية ذلك الحضيض للموجودات لبلغنا المادة المحضة التي نراها، منطقياً، تحاول أن ترتقي إلى المعدنية ثم إلى الحيوانية ثم إلى الإنسانية وبذلك نرى أن كلما قرب الشيء من كمال الصورة كان أقرب إلى الحقيقة أو الصورة المحضة!... ومن ثم فسعي الإنسانية، للتشبّه بهذه «الصورة المحضة» وسعيها نحو الكمال بتوثّبها نحو الفضائل واتجاهها نحو الخير والمُثُل العليا كما يجتذبها إليه دافع هو تلك «العلّة» التي تقف من العالم بمثابة «المحُرِّك»!..

بَيْدَ أن حذار!...

إن القولَ القولُ لا يعني بأن «المحرِّك» يدفع إليه العالم دفعاً بدفعة آلية من خلفه، كلا ولا كما يذهب أفلاطون إلى أن العالم «نفساً» هي للحركة العلة، وإنما... إنما «المحرِّك» يدفع العالم إليه دفعاً كمحرِّك وجوده إنما العلّة للحركة لأنه هو تلك الصورة المحضة!... تلك الصورة المجرّدة من المادة والقائمة في ذروة سلسلة الموجودات والتي تسميها الشفاه: **الإله!**

«إن العلّة المحرِّكة هي نفس الإله!».

أرسطو

لقد ثبت لدينا أن الحركة الكونية أزلية وثبت لدينا أن هذه الحركة لا تقوم إلاّ بمحرك

وثبت لدينا أن لدائرة الأسباب في الطبيعة سبباً، ومن ثم فيقيناً إن **المحرّك الأزليّ** قد سبَقَ وجوده وجود الكون **كأسبقية المُقدّمة النتيجة!**

كيف؟!... سؤالٌ، يأتي عليه مما قد ثبت لدينا من الأدلة الجواب، فلقد ثبت لدينا أن «الحركة الكونية» أزلية كما أننا قد أدركنا، منطقياً، أن الوجود إنما سلسلة ترقٍ في الفِكَر وأن الكون في حركته يتّجه صوب الأفضل وأن التغيُّر فيه ينحو قصد الكمال ومن ثم فيقيناً، وللحركة الكونية وجود الإله إنما سبب، أن **العالم مدفوع بطبيعته إلى الإله عن طريق جذبه الطبيعي إليه!...**

عن طريق جذبه الطبيعي إليه، وللحركة الكونية وجوده سبب، يجتذب الإله الوجود فإن؛ «الإله هو الذروة العليا للموجودات الصورة المحضة والمجرّدة التي يتّجه إليه بطبيعة وجوده الوجود!».

أرسطو

من ثم فيقيناً إن للكون الأزليّ الحركة محرّك أزليّ سبق وجوده وجود الوجود كأسبقية المقدمة النتيجة!.. محرّك هو نفسه مَنْ يتجه إليه بطبيعته منا الفكر وتنعته منا الشفاه بالإله!..

ولكن!... أليست هناك من البراهين براهين يستطيع أن يقدِّمها العقل على أن للكون إلهاً؟!..

كلاًّ!.. على وجود الإله ليس من العسير تقديم البراهين التي لا تقود فحسب إلى إثبات وجوده وإنما، بالتالي، تقود إلى التعرّف على صفاته التي تجتمع كلها في صفة الكمال، فإن اتصاف الإله بصفة الكمال، التي سنتثبّت منها بعد، إنما نفسها صفة تنفي عنه صفة الخلق وبالتالي تنفي أن الوجود خلقاً قد خُلق، لأن لو كان الوجود مخلوقاً لكان الإله الذي له قد خلق، ولكان، وهو الكمال، قد خلقه كاملاً، وإنما.. إنما الوجود ناقص ولنموّه يستكمِل عن طريق الارتقاء، فهو كون يرتقي وعن طريق نشدان الرقي يتطوّر نحو الكمال الذي إليه تتجه قاطبة العِلَلْ الغائية، فهذا النشدان المتواصل نحو بلوغ الكمال في صورة الترقي والرقي إنما البرهان على انتفاء الخلق عن من هو «الكمال»!..

يقيناً إن الخلق أمر لا يرفضه المنطق فحسب وإنما البداهة فإن الخلق يسبقه العدم والعدم إنما بوجود المحرّك الأزلي والحركة الأزلية معدومة، بل إن من هذه الحركة الأزلية يأتي البرهان النافي نفياً قاطعاً أن لا وجود لألوهة طبيعية فحسب إنما لا وجود لألوهة خالقة في نفس الوقت الذي يبرهن على وجود إله سرمديّ لا يمت بوجوده وبصفاته إلى إله الدين الرسمي، بل إن هذا البرهان إنما مقدمة تسبق البراهين التي تثبت له وجوداً وأولها:

البرهان المنطقي على إثبات وجود الإله

إن المنطق يقتضي، والحركة أزلية والمحرِّك أزليّ، **أزلية ما بعد الطبيعة** وهذا مستمدٌّ مما لدينا قد ثبت من أن السكون البارمنيدسيّ واللاّتغيّر واللاّحركة والثبات طبيعة ما بعد الطبيعة أو هذا العالم السرمديّ، ومن ثم فقانون المنطق يقتضي أن يكون هذا «المحرك» الممدُّ الحركة بالحركة؛ ثابتاً وغير متحرِّك!...

ثابت «المُحرِّك» وغير متحرِّك لأن لو كان «المحرِّك» متحرِّكاً لاقتضى افتقاره بدوره إلى محرِّك وهذا المحرِّك بدوره مفتقر إلى محرِّك وكل محرِّك فمفتقر إلى محرِّك وهكذا حتى نسير في حلقات التسلسل ولكن!. السلسلة لا يمكن إلى غير ما نهاية لها امتداد ومن ثم فلا يمكن إلاّ أن يكون «المحرِّك» ثابتاً وغير متحرِّكٍ!...

ثم إن «الحركة» إنما انتقال من حالة إلى حالة والتغيُّر إنما تحوُّل من حال إلى حال، وهاتان صفتان لو أمكن اتصاف الإله بهما لاتّصف بما يُحتّمانه من صفات!... لو اتّصف الإله بهما لأمكن انتقاله من الحالة التي هو عليها إلى حالة أخرى، والانتقال من حالة إلى حالة إنما لا يكون إلاّ إلى حالة إمّا أسوأ وإما مماثلة أو خيراً منها وكل؛ إنما على الإله محال!.. محال، لأن إذا كانت أسوأ فقد اتّصف الإله بالنقص والنقص منافٍ للأُلوهية!.. وإذا كانت مماثلة كانت الحركة عبثاً لأنها لا تنتج شيئاً، والعبث ينافي الألوهية، وإذا كانت خيراً جاز على الإله الاستكمال والاستكمال منافٍ للأُلوهية لأن من خاصية الإله الكمال!.. ومن ثم، والحركة آتية بالتغيُّر والتغيُّر صفة لا يخلص كائن من الكائنات الخاضع لها عن الانحصار في دائرة مقيّدة، فغير جائز على الإله التغيُّر والتحوُّل من حال به إلى حال يغدو شأنه في كل يوم حالاً بعد حال ومن ثم، والمحرِّك منزَّه عن كل حركة، فإنه يقيناً:

المحرِّك اللاّمتحرك والمغيِّر اللاّمتغيِّر. إن المنطق ليقود العقل إلى وجوب الاعتراف بأن المحرِّك غير متحرِّك وأن المغيِّر غيرِ متغيِّر وأن قد خلت أرجاء الكون إلاّ من أُلوهيته!.. خالية بل وخلاء أرجاء الكون إلاّ من أُلوهية إله واحد لا يقف بجانبه إله ولا يوجد في مرتبة منه أدنى له شريك وإنما هو الواحد الأحد وأوحد بسيط غير مركب أو مشخّص وعلى هذه الوحدانية الخالصة والبساطة المتناهية يأتي بين براهين الإثبات:

البرهان المنطقي على وحدانية الإله وبساطته

إن على وحدانية الإله وحدانية خالصة تأتي هذه العلل الطبيعية الثانوية وانتظامها وتناسب الحركات بعضها ببعض برهاناً منطقياً على وحدانية الإله، فهذه الوحدة الطبيعية المُشاهدة إنما شاهدة تقوم على استحالة قيام هذه الحركات إلاّ إذا كان المحرِّك واحداً!.. وهذا برهان كان

يقود إلى الإيمان، والمحرّك إنما الإله، بأن الإله إنما؛ **واحد أحد**.. ثم إن بدورها هذه الوحدة الطبيعية تقود إلى التعرُّف على ماهيته التي تتجلّى واضحة، والإله هو الذروة العليا للموجودات والصورة المحضة، إنها؛ **البساطة**.

البساطة من ثم للإله ماهية ماهية.. لئن كانت مستمدة من وقوفه في الذروة العليا للموجودات كصورة محضة، فإنها تُحتِّم أن يكون الإله وحدة لا تداخلها «الكثرة»!..

أحد من ثم وبسيطٌ الإله لا تداخله الكثرة بوجه عام فليس فيه من الكثرة شيء **لأن لو** كان فيه شيء من الكثرة لداخله شيء من المادة والتغيُّر أي لكان مُركباً ولكان، وإمكان الوجود وجواز الانحلال إلى كل مركب متوقِّف على وجود أجزائه، صائراً إلى الانحلال ومن ثم فلا يكون **الواحد إلاّ بسيطاً**!...

على وجود إله لا ينتمي إلى إله الدين الرسمي بصلة تأتي براهين الإثبات المثبتة له وجوداً أزلياً سرمدياً والدالة على ماهية له وصفات هي الثبات واللاّمتغير والوحدة والبساطة وهذه بدورها إنما براهين بها يرتدّ عنه الزمن وبها ترتد عنه العنصرية وهي بارتدادها عنه يرتد عنه التشخُّص!.

موجود إنما إله إليه يجذب وجوده الأزلي العالم الأزلي، فكلاهما لا أول له في الزمن وغير حادث، وكلاهما لا نهاية له فليس هناك لإله صفته السرمدية نهاية وليس هناك، ووجود العالم بوجود الإله مرتبط، للعالم نهاية إذ لو له كانت نهاية لكانت نهايته صورة مجرّدة وهذا يتنافى والمنطق لارتباط وجود العالم، الذي قد استبناه أزلياً ومن ثم سرمدياً، بوجود من هو «الصورة المجردة» ولاستبانتنا بهذه الحركة الكونية أزلية المحرّك وسرمديته ومن اللاّمنطق ألاّ تكون علّة الحركة السرمدية سرمدية؟ ومن ثم فسرمدية الحركة دليل على أن المحرّك إنما سرمدي سرمدية لازمة له بها عنه يرتد المكان ارتداد الزمان!...

وأي زمن يمكن أن يكون للإله وهو السرمدي علّة الحركة السرمدية المنبثق في نطاقها الزمن؟!.

أي زمن يمكن أن يكون للإله وهو اللاّمتغيِّر، والتغيُّر إنما انتقال من حال بالقوة إلى حال بالفعل وهذا على الإله محال لأنه؛ **فعل محض**؟

بل وكيف يمكن له التغيّر وهو البسيط والبسيط لا أجزاء له لأن التركيب يقتضي الإمكان من ناحية ولأن كل مركّب لا بدّ أن يكون متناهياً من ناحية أخرى، وليس من الأشياء المتناهية شيء له قوة لا نهائية بها يمكن أن تحدث هذه الحركة السرمدية ومن ثم فمنطقياً:

إن الإله؛ **بسيط** ومنطقياً، وبسيط إنما الإله أن؛ ليس للإله **جسم**!..

يقيناً إن الإله غير مشخّص ولا جسم له يستوي به على عرش لأن الجسم مركّب من أجزاء وعلى الهيولى مشتمل والسرمديّ إنما فعل محض لا أجزاء له، فهو الصورة المجرّدة القائمة في ذروة الموجودات والمتصفة بالكمال والتي نحوها يسير الوجود، وبهذا قد جاءتنا الأدلّة المنطقية التي بها قد استبنا أن الوجود إنما سلسلة ترق للمادة من صورة أرقى، مما تدنوها وأكثر تطوراً، وأنه إنما درجات متدرّجة ومتدرّج الرقي، وأن ما كان من الأشياء في درجة دنيا يكون قد غلبت مادته صورته، وما كان من الأشياء في درجة عالية يكون قد غلبت صورته مادته، حتى إذا وصلنا إلى نهاية الحضيض لموجودات وجدنا مادة لا صورة لها، وإذا ارتقينا إلى الذروة العليا للموجودات وجدنا صورة محضة لا مادة لها:

«وهذه الصورة المحضة التي لا مادة لها هي؛ الإله!».

أرسطو

كيف يمكن من ثم أن يكون الإله مشخصاً وأن يكون له جسم وهو الصورة المجرّدة وليس هناك من صورة لا مادة لها إلاّ؛ هو!... صورة مجرّدة إنما الإله... ومن ثم حتماً، وليس الإله صورة لمادة، تكون التجرّدية للإله صفة تعلن:

أن الإله إنما؛ **المجرّد** والمجرّد؟...

إن المنطق ليسترسل مداه المنطقي فيرى أن الإله، لكونه صورة مجرّدة فلم يكن صورة لمادة، إنما، **صورة الصورة**!

وصورة الصورة؟...

إن المنطق ليسترسل استرسالاً فيرى أن كون الإله «صورة الصورة» يستلزم أن يكون فعلاً محضاً ولما كان فعلاً محضاً فحتماً، وهو علّة العلل الطبيعية التي بانتظامها وتناسب حركاتها بعضها ببعض قد أتانا البرهان على وحدانيته، يكون محض عقلٍ ومن ثم فيقيناً؛ «إن الإله **عقلٌ!**»

أرسطو

عقلٌ إنما الإله وإذا كان الإله عقلاً فإنه، بكونه عقلاً، يغدو بالتالي؛ **فكراً**.

فكرٌ إنما الإله وإذا كان الإله فكراً فإنه، لكونه صورة الصورة، يكون! **فكرة الفكرة!**

من ثم فالإله، بدليل هذه الأدلة المنطقية، يكون؛ «الصورة المجرّدة»، و«صورة الصورة» و«فكرة الفكرة»!...

ثم.. ثم إن الإله، بوجوده كصورة الصورة أو بالأحرى كفكر محض ومحض فكر، يغدو؛ **هو المُفكِّر والمُفكَّر فيه!**

الإله هو المفكِّر والمُفكَّر فيه لأنه يفكِّر في نفسه وبنفسه وعلى ذلك يأتي مثلاً الفكر من الإنسان، فكما أن الفكر من الإنسان يفكر في شيء فإن الإله، كفكر محض ومحض فكر، يفكِّر في الفِكْر.. فإنه بتفكيره في الفِكْر؛ **لا يفكِّر في شيء خارج عنه**!.

قط لا يفكِّر الإله في شيء خارج عنه فلقد استبنّا أنه؛ **عقل** وإذا كنّا قد استبنّا أن الإله عقل فليس إلاّ لنستبين أنه يعقل ذاته فيكون بذلك؛ **عاقلاً** وفي الوقت نفسه يكون؛ **معقولاً** وعلى هذه الأسس يغدو؛ **عقلاً وعاقلاً ومعقولاً**.

العقل والعاقل والمعقول إنما لا يفكر في شيء خارج عنه، ومن ثم فمنطقياً أن؛ **ليس للإله بالكثرة المتغيّرة والعالم الخارجي علم**...

أنّى يمكن أن يكون للإله بالعالم الخارجي علمٌ وذلك يؤدي إلى التكثُّر في ذاته وإلى الكلال؟!.. أنّى وهو إذا عقل الأشياء صار عنها منفصلاً وصار لها فيه تأثير مما يؤدي إلى إدخال التغيُّر والإمكان فيه وذلك قطعاً محال على من هو **فعل محض**!..

إن القول بأن للإله علماً بالأشياء الخارجية عن ذاته إنما قصور إدراكي بمستلزمات الألوهة الصحيحة، فالقول إنما يؤدي إلى منطق يحاج بأن لو كان له بالأشياء الخارجية عن ذاته علم لوجب أن يكون علمه من هذه الأشياء الخارجة عن ذاته مستفاداً، لأنه ليس إلاّ بوجود تلك الأشياء يكون عالماً بل إن القول قول يؤدي إلى المنطق القائل بأن الإله قد صار، لكي يكون عالماً إلى غيره محتاجاً!... وهذا منطق يتنافى وما للألوهة من كمال المكانة بما يحمله القول من معنى إدخال المادة في ذات الإله!..

إن المادة هي الإمكان.. ومن ثم فلو احتاج الإله إلى الأشياء الخارجة لحصول العلم لكان للاستحالة قابلاً وللتغيّر راضخاً، وقد تقدّم بطلان الاستحالة وعنه انتفى التغيُّر... بل قد لحقت به البساطة وعرفنا أن «الواحد» إنما الأحد البسيط، ومن ثم فيقيناً:

«إن العقل والعاقل والمعقول» **لغيره لا يعقل**!.

«الأحدُ البسيط» لا يعلم غير «الأحدِ البسيط» و«الذاتُ».

لا تعلم إلاّ منها «الذات» و«العقل» لا يعلم إلاّ منه «العقل»!. من ثم يغدو «العقل والعاقل والمعقول» إنما:

عِلْم وعَالِم ومن ذاته معلوم! حتى المدى من الامتداد المنطقي المحكم امتد «العقلُ» وإلى

النتيجة الحتمية من المنطق العقلي، قاد المنطقُ «العقل» ومن ثم فاسترساله شارحاً وماهية الفكر إنما حياة، بأن:

«الحياة أيضاً من صفات الإله، فإن فعل العقل حياة والإله هو ذلك الفعل وفعله الصادر عن ذاته إنما، حياة كاملة سرمدية!».

أرسطو

إلى تعقُّله لذاته أو بالأحرى إلى علمه بذاته تعود حياة الإله حياة هي بلا تفكيرها في شيء خارج عنها تحيا حياة سعادة سرمدية، مصدرها ما لها من العلم بكمال ذاتها، فالعلم بالكمال إنما السعادة الحقيقية.. تفكيرها الدائم دائم التفكير في سعادتها فإن:

«فعل العقل هو أفضل فعل وأكثر اللذات لذة!... فإذا كان الإله دائماً في تلك الحالة الفاضلة، التي تكون لنا أحياناً، كان ذلك مما يُثير العجب فينا وإذا كان في حالة أفضل أثار ذلك عجباً أعظم ولكن الإله، بالفعل، في حالة أفضل».

أرسطو

منطقياً إن طبيعة «الذات الإلهية» هذه الماهية فإن:

«الإله، كفكر محض، دائم التأمل في ذات ذاته ـ ولأن تفكيره الذاتي، كمحض الذاتي ـ كمحض فكر، مُنصبٌ على الذات منه، فمنطقياً إنه لا علم له بالعالم وأنّى أن يكون العالم، هذا اللاّكامل الساعي نحو الكمال، موضوع العلم الإلهي والكمال إنما عن إدراك اللاّكامل منزّه»!؟

أرسطو

لا ثمة شك في أن «العقل» إنما بمنطقه قد استرسل رصيناً، بيد أن ثمة سؤالاً يسأله العقل من خلال الأجيال، «للعقل»:

كيف يمكن أن يكون «العقل والعاقل والمعقول» والحي حياة سرمدية سعيدة سرمدية السعادة لاستمدادها من تعقله لذاته لغيره لا يعقل وأن يكون «العلم والعالم والمعلوم» بوجود العالم لا يعلم؟!...

وإلى العقل من خلال الأجيال يأتي من «العقل» الجوانب:

يقيناً إن «العلم والعالم والمعلوم» لغيره لا يعلم لأنه الكمال!... لا يعلم «العلم والعالم والمعلوم» إلاّ منه الذات!.. ويقيناً إن «العقل والعاقل والمعقول» لغيره لا يعقل لأنه «العقل الأسمى» وموضوع «العقل الأسمى» لا يمكن أن يكون أجزاء هذا العالم الناقص!.. أو

يناسب مقام الإله إدخال عقله فيما هو أدنى مرتبة منه في الوجود؟! إن الإله إنما المنزّه والكمال فكيف يعلم المنزّه عن كدر المادة ما في عالم المادة من أكدار؟!

كيف يعلم من هو «الكمال»، ومن ثم فالمنزّه عن الفواحش والأدناس والجزئيات الجنسية، هذه الأدناس والفواحش والجزئيات الجنسية؟!.. كيف يعلم «الكمال» هذه النقائص من غير أن تستلزم نقصاً فيه ومن غير أن تنقص من صفاته شيئاً؟! يقيناً إن إدخال ما يمور به العالم من فواحش وأدناس وجزئيات جنسية في علم الإله إنما للكمال انتقاص!.

ولكن!. ثمة سؤال آخر يسأله «للعقل» العقل؛ أليس في عدم علم الإله بالعالم إنما لألوهيته انتقاص؟..

ومن خلال الأجيال يأتي إلى العقل من «العقل» الجواب بالنفي يجيب؛ كلا ليس عدم علم الإله بالأشياء يستلزم فيه نقصاً، فموضوع «العقل الأسمى» يجب أن يكون هو الموجود الأسمى وليس من الموجودات أسمى من الذات الإلهية!.. ومن ثمّ فتأييد منطقيّ للمنطق نفسه يأتي القول بأن الذات الإلهية موضوع العقل الإلهي!. ميزة الإله هي أن لا يكون له علم بالمفردات الحِسيّة ولا بالجواهر العقلية المتركب منها عالم المفارقات!..

كلا!.. لا ينبغي للصفاء الإلهي الاعتكار بمعكّرات عالم في حمأة الدنيويات يتمرّغ!. كلا ولا ينبغي للصفاء الإلهي التكدّر والاكتدار بما في هذا العالم من مكدرات!.. كلا ولا يمكن أن تلحق دناءة هذا العالم وأدناسه طهر «الصورة السرمدية» ولا أن يشوب للعالم أوشاب وأرجاس علم هذه الصورة السرمدية!..

من ثم فيقيناً!.. يقيناً بأن لا تلحق العلم الإلهي المفردات الحسيّة ولا الجواهر العقلية المتركّب منها عالم المفارقات وإن على الذات من الإله إنما منصبٌّ التفكير من الإله في الذات!.. ومن ثم فحتماً، ولا علم للإله بعالم المفارقات، تكون لهذه الصورة السرمدية، **العزلة** سمة ومن ثم يكون يقيناً؛ أن العزلة الذاتية سمة هذه الصورة السرمدية!...

بإطار العزلة الذاتية أحاط العقل «العقل والعاقل والمعقول»...

ولكن!... أليس في هذا قطعٌ للصلة بين الإله والعالم أو بالأحرى بين المحرّك والكون الذي به يتحرّك؟...

إن عند «المحرّك الأول» إنما قد انتهى أرسطو فجعله للحركة الكونية الأزلية سبباً أزلياً سبق وجوده وجود الطبيعة سبْق المقدمة النتيجة، بيد أن ما انتهى «العقل» إلى هذه النهاية إلاّ لينتهي إلى القول بنفيه الصلة بين المحرّك والمحرَّك.. فكيف؟!.

كيف يمكن أن تنتفي الصلة بين المحرّك والكون الذي يحرّك؟!.

كيف يمكن للمحرِّك أن يكون في نفس الآن محرِّكاً حركة عنه ينتفي بها العلم؟!.
وكيف، والحركة الكونية البادية بها كينونته إنما هو لها كعلّةٍ غائية يحرِّك؟!

وكيف؟!. كيف يمكن للمحرِّك، كغائي علَّة، للحركة تحريكاً دون ما علم منه بهذا التحرك؟!..

كيف؟! وإذا انتفى عن «المحرِّك» العلم بالحركة الكونية انتفت العناية الإلهية وغاضت المشيئة الإلهية وبطل التدبير الإلهي!.

وإذا انتفت العناية وانتفت المشيئة وانتفى التدبير! فما سرُّ هذا النظام المشاهد الدّال على الدّقة الكاملة وما سرّ هذا الكدح الكادح في حثّ حثيث نحو الكمال؟!

أسئلة يسألها العقل وعنها يجيب «العقل»:

إن من التعثُّر العقلي أن يُلحِق العقلُ الإنساني بالإله صفات العناية والتدبير والمشيئة، بل ومن الوهن أن يصل بهذه الصفات بينه والعالم!... إلاّ بتريث العقل الإنساني ومفكراً يتأنّى ليرى أن لو لحقت العناية والتدبير والمشيئة العالم لكان كاملاً، ولعكس صورة المُعني والمُشيء والمُدبِّر؟ وذا هو العالم ناقص غير كامل وكادح السعي نحو الكمال..

منطقياً من ثم أن هذا النظام المشاهد خليٌ من عناية ومشيئة وتدبير وليس فيه أيّ دخل للعلم الإلهي، فإنّما إلينا قد دلف اليقين بأن السبب هو، **الاستعداد الطبيعي** الموجود في كل جزئية من أجزاء المادة واندفاعها القاصر الدافع لها دائماً إلى الانتقال من القوة إلى الفعل...

لقد مرّ بنا أن الحركة أنواع ولقد مرّ بنا أن الحركة هي سير المادة إلى الصورة ومن ثم فهذه الحركة الكونية ليس لها من سبب إلاّ المادة القابلة للانفعال فليس إلاّ بسبب هذه القابلية في المادة يكون في أجزاء المادة وجزئياتها استعداد طبيعي إلى الانتقال من القوة إلى الفعل، وهذا الاستعداد منشأه هذا الشوق الطبيعي الموجود في كل جزئية من أجزاء وجزئيات المادة وهذا **شوق قاهر** يخرج بها من حيز القوة إلى حيز الفعل في صورة **«الحركة»**.

هذه الحركة، التي تضفي على حركة التطوُّر مظهر الآلية إنما مدفوعة بهذا الشوق الطبيعي وعلى هذه الأسس، فليس للعلم الإلهي بالعالم علم ولا للإرادة الإلهية في حركته عناية وتدبير.

قطّ ليس للحركة منشأ إلاّ الاستعداد الطبيعي الموجود في الطبيعة ومن ثم فالترقّي وانتظام المادة والنظام الكوني الذي تشهد به المشاهدة إنما مرجعه إلى الشوق الطبيعي الموجود في

كل جزئية من جزئيات المادة الكونية، وهذا هو سبب ارتقائها التطوّري أنواعاً وأجناساً نحو الصورة السرمدية!

والشوق؟... الشوق إنما تعبير ظاهر عن كامن العشق، ومن ثم فكل هذه الحركات كل حركات هذه الحركة الكونية إنما مدفوعة بالعشق!. كل العلل بالإله تتعلّق وكل الأشياء نحوه تتجه وهو؟... هو، **تحت هذا المعني، المحرّك يحرّك العالم؛ إنه الصورة السرمديّة التي يتجه إليها الوجود وهو بهذا المعنى العلّة الغائية**، إن ثم فيقيناً إنه لا يدفع العالم دفعة غائية من خلفه بل إنه إليه، بوجوده ككمالٍ، إلى الكمال له يجذب!.

ليوقن اليقين أن هذا «الشوق الطبيعي» الموجود في مكوّنات المادة هو سبب ترقي الموجودات وتحوّلها من طور إلى طور لا تحوّلاً نوعياً وإنما إلى ترقٍ فكري، فلقد اتّضح لليقين أن الشيء كلما قرب من كمال الصورة السرمدية كان إلى الحقيقة أقرب وعلى أسس هذا اليقين أدرك الفكر أن الإله محض فكر والعلّة الغائية، وأنه إذا كان فكراً محضاً وغائي علّة كان هو غاية الغايات الساعي إليها الوجود والقاصد لها كل موجود، فيكون أن الشيء كلما قرب من كمال الصورة ازداد وعياً بوجود هذه الصورة السرمدية، ومن ثم فعمران القلب الإنساني بالعشق الإلهي مهما تفاوتت في أرجاء هذا القلب من هذا العشق الألوان!...

هذا العشق الإلهي المختلجة به الخوالج البشرية والمندلع أواراً لظياً بين الضلوع والحامل الفكر من عالم اللاّمجردات إلى عالم الفكر المجرّد ليس إلاّ **صورة متطورة** من ذلك **«الاستعداد الطبيعي»** في أجزاء المادة!.. هذا التعطّش الروحي والتلهّف النفسي إلى الاتصال بالذات الإلهية، الذي يتخذ مظهر الدين والذي يتغيّر منه اللون والطابع تبعاً لتطور العقل الإنساني، ليس إلاّ **صورة منطقية** من ذلك «الشوق الطبيعي» الموجود في أجزاء المادة!... فليس للإله علم بهذا الحب الذي تختلف درجاته تبعاً لاختلاف الدرجات التطورية، التي تتدرّج فيها الكائنات والذي تتباين حدته بين الضلوع تبعاً لتباين الدرجات التطورية والذي كلما ارتقى الفكر الإنساني اشتد له في النفس لظيّ لا يعود بسببه إلاّ إلى اقترابه قدماً نحو تلك «الصورة السرمدية»... ومن هنا نعلم، والكون منشأه المنشأ وتطوّره التطور والإنسان فيه الإنسان، أن «العلم والعالم والمعلوم»، لا علم له بالمفردات الحسيّة ولا بالجواهر العقلية المؤلف منها عالم المفارقات، وإذا علمنا ذلك ألا نفهم أن هناك صفة حتمية للإله يحتّمها وجود هذا الشوق الطبيعي فنفهم أن؛ الإله؛ **«عشق وعاشق ومعشوق»**!

عشق إنما الإله وعاشق ومعشوق، فإن العالم إليه بدافع الشوق مدفوع!... ثم... ثم وهو

العشق الذي لا علم له بعالم المفارقات فإن «للذات».. عاشقة «الذات»! لذاته يعشق الإله وهي له معشوقة وهو كذلك معشوق للعالم المتجه إليه كعلّة غائية.. وإذا كان الإله عشقاً وعاشقاً ومعشوقاً أفلا يغدو حباً بل وذات الحب؟.. ومن ثم فيقيناً:

إن الإله؛ **الحبُّ**! الحب والحب المجرّد إنما الإله!.. كحب، إليه يجذب العالم وهذا هو السرُّ في انجذاب العالم وسعيه واتجاهه نحو الكمال!...

والكمال والحب؟.. إن «الحب» هو «الكمال» و«الكمال» هو «الحب»!.. ومن ثم والكمال والحب إنما صفتان حتميتان لصفة الخير فيكون: **الإله؛ خيراً محضاً!**

الصورة، صوّر «العقل» للإله، للإله جعل «العقل» الكمال وجعله الخير فارتفع به عن النقائص وعن العلم بنقائص هذا العالم ارتفع به عن العناية به وجعل الكون بمكوناته المتطلّع إليه المحبّ له العاشق له فجعل الصلة بينه والكون بمكوناته وكائناته موصولة لا برباط الخلق والعناية والتدبير وإنما برباط العشق والمحبّة!

لا ثمة شك في أن إلى أقصى أبعاد السموّ النفساني قد سما بنظرته هذه «العقل» فهو أمام ما تمور به حياة الكائنات الشتّى بشتّى النقائص قد ترفع بالإله عن العلم بها وإلاّ لما كان بوجودها قد سمح الإله وهو الكمال والخير والحب!...

على هذه الأسس المنطقية سار «العقل» في فناء اللُّوقيون يعلّم وتم حوله للأجيال صدى عنه يردِّد:

ليس للإله أي تدبير في هذا النظام الكونيّ ولا عناية له في هذا العالم الساعي نحو الكمال.. كلا!.. ليست هي المشيئة الإلهية التي أرادت للكون أن يكون فكان.. كلا!... ليست هي الإرادة الإلهية التي أرادت أن يكون هناك باطل وأن يُسقى ثرى الثرى بسفك الدماء!... كلا!.. ليست هي الإرادة الإلهية التي صوّرت، إلى جانب الجميل من الصور الحيّة، البشع المشوّه من الصور!.. كلا ليست هي العناية الإلهية التي أوجدت موجودات يرعى بين جنباتها الظلم والجشع والحسد وأخرى يثقلها العذاب وترزح العمر تحت قيود الشقوة!.. كلا!... بل إن في هذا السعيّ الساعي في استطراد نحو الكمال لمحو الظلم وإفناء الباطل وإحقاق الحق متمثلاً في اشتراع السنن والقوانين إنما الدليل على انتفاء الإرادة والعناية والتدبير!..

كلا!.. ليس من هو «الحب» و«الخير» و«الكمال» «بالقدر» حتى يمنح هذا دون ذاك نعمة وسعادة وينزل بالآخر نقمة وعذاباً وشقاءً!... كلا!. ليس «الحب» هو «القدر» حتى يقسِّم الأرزاق ويهدي من له يريد هدى ويضلّ من لم يرد له إلاّ ضلالاً!

أوَ من المنطق أن يوجد «الكمال» عالماً ناقصاً ثم يدفعه نحو الكمال؟... أم من المنطق أن

يوجد «الحبّ» كائنات يُنازع بعضها بعضاً ويُشقي بظلم الأشرار فيها منها الأخيار؟!... يقيناً إن بالسلب يأتي الجواب في نفس الوقت الذي يأتينا باليقين بأن، وإلى الكمال يتجه العالم وإلى الإله كعلّة غائية تتجه إليه العلل وبه تتعلّق، الإله إنما بشيء لا يتعلّق ولا بالعالم وموجوداته له صلة!.. فقط!.. قطّ لا بالعلم ولا بالتدبير ولا بالعناية كما قط ليس بالمماسة للإله بالوجود وبالموجودات له صلة، وإنما **بوجوده كجوهر** الكمال ومصدر الخير ونبع للحبّ نحوه، في اتجاهٍ إلى المثل العليا، يسير بمكوناته وكائناته الكون!

ولكن حذار!.. كلا، لا يتسرّبن إلى الفكر أن هناك فصلاً بين الإله والطبيعة، بمكوّناتها وكائناتها، وما بعد الطبيعة وإلاّ اتصال لأحدهما بالآخر!.. كلا!... كلا، فبين عالم الحس وعالم المعاني أو اليقين ليس هناك تفرقة، فلا يقف الإله مقابلاً للمادة في فاصل عن الطبيعة فتكون هناك ما بعد طبيعة، كلا!.. ليس هناك شيء اسمه في الحقيقة الطبيعة وليس هناك شيء اسمه ما بعد الطبيعة، فإنما هي سلسلة واحدة مختلفة المراتب والدرجات تغدو بها ما نسميه بالطبيعة وما بعد الطبيعة؛ **وحدة**!... وحدة هي تنتظم الكون مرئية ولا مرئية!. وحدة هي تقف في حضيض نهايتها مادة لا صورة لها وفي أعلى ذروة موجوداتها صورة محضة لا مادة لها هي الإله!...

ومن ثم فلئن عن الإله علم الكون قد انتفى نفياً ينفي عنه بالكون له عناية فليس هذا بتراً لصلة الإله بالكون وللكون بالإله، فإنما ليس إلاّ بالمعنى الذي يفهمه الدين الرسمي وتستسيغه عقلية الجماعات من التجلّي والرؤيا والمكالمة ودالف الوحي قد تقطّعت أواصر الصلة، فالصلة موصولة والعناية متوفّرة بالمعنى العقلي المفهوم لفهم لا يسترسل منه التفكير على أسس المنطق إلاّ ويعقل هذا اللون من الصلة وهذا اللون من العناية بتعقّله إن لم يك الوجود إلاّ لأن الإله موجود وأن للكون لا ينتظم قانون إلاّ بسبب وجود «الكامل»، كما أن العقل لم يك إلاّ لأن الإله عقل!.

ولكن!... ثمة سؤال يسأله العقل «للعقل»؛ إذا كان الكون إنما إلى هذه الصورة المحضة يسعى متطوراً أفليس من الممكن أن يصل إلى هذه المرتبة، عبر مراحل التطور، من الكائنات كائن؟!..

سؤال، عليه بالنفي على أُسسٍ من رصين المنطق يأتي الجواب:

كلا! إلى هذه المرتبة لن يصل كائن لأنها للإله وحده!.. الواحد، وحده، هو هذه الصورة التي من المادة مجرّدة!... إن العالم يتطوّر قدماً ولكن العملية قط لن تنتهي!... لن تنتهي لأنها عملية تطوّرية، فالعملية التطورية لا نهاية لها!.. ومن ثم فمن الإله سنقترب ولكن قط لمرتبته لن نبلغ!.

إذن!.. إذن ما نحن؟!..

سؤال، يدفع بالفكر منّا، على هذه الأسس المنطقية، إلى لجّ تلك المشكلة التي قامت بسببها، بين الفلسفات، الفلسفة الأرسطية:

مشكلة النفس.. النفس؟!... يقيناً إنها مشكلة!.. مشكلة، ليس إلاّ بسببها قد ارتاد «العقل» العقليُّ من الآفاق وليس إلاّ بغية حلّها قد سبَر «العقل» للعقل وللجسم مهايا، وليس إلاّ بعد سبر لهذه المهايا كان التفاته إلى من حوله في فناء «اللُّوقيون» مشية يتمشّى معلّماً يُجيب:

«إن النفس صورة الجسم».

أرسطو[1]

أولم نعلم أن الجسم الطبيعي إنما مركّب من مبدأين؛ **هيولى وصورة**؟..

لقد علمنا أن بالهيولى، أو المادة، تشترك الأجسام جميعاً في كونها أجساماً، ولقد علّمنا أن الصورة هي المبدأ الذي يُعيِّن المادة ويعطيها ماهية خاصة ويجعلها شيئاً واحداً وهو ما نتعقله في الأجسام، ولقد علمنا أن باتحاد هذين المبدأين، وقد عرفنا أنهما ليسا إلاّ في الذهن منفصلين وأنهما يتميزان بالفكر وأما في الواقع فغير متمايزين، يتكوَّن كائن واحد هو هذا الكائن الحيّ الذي نراه ممثّلاً سواءً في سوانا وفينا، ومن ثم أفلا نعلم بالتالي أن النفس ليست شيئاً آخر مختلفاً عن الجسم بل إن النفس نفس صورة الجسم؟...

بيدَ أن لا ينبغي أن يغيب عن الذهن منّا أن الصورة ليست الشكل وإنّما نفس النفس.. النفس هي الحياة الداخلية للجسم التي تجعله، ككل، كلاًّ... فإن أي عضو من أعضاء الجسم، رغم سلامته، يكون عاطلاً إذا لم تسْر فيه هذه النفس التي تضمُّ أجزاءه المختلفة ومختلف أعضائه وتنتظمها إلى وحدة، ومن ثم «فبالصورة» يعني القول جميع صفات الشيء، أما «الهيولى» فما قد اتصف بهذه الصفات، وهكذا ندرك أن النفس صورة الجسم وأنها مطابقة له تمام المطابقة، فإن الصورة تُكسب الجوهرية وهذا الشيء المُكسب الجوهرية هو ما نسميه؛ **النفس**.

بالإجابة جاءت الفلسفة الواقعية بنقدها الفلسفة الثنائية عندما جاء نقدها بأدلّة دلائلها المنطق ناقضاً «المُثُل» هذا النقض الذي صوّر الأشياء، التي كانت قد حوّلتها الثنائية إلى أشباه حقائق في «الواقعية» واقعية بتعليمه أن للوجود بموجوداته أصلين متلازمين بالطبع، المادة

---

(١) عن «النفس» لأرسطو

الأولى غير المُعيّنة أصلاً والصورة وهي مجموعة الصفات المختلفة، وإن ما اختلاف أنواع الموجودات إلاّ تبعاً لاختلاف نسبة الصورة في الهيولى وهذه النسب المتفاوتة نراها متمثلة في أجزاء ثلاثة: النامية، والحسية، والناطقة.

نظرة عن النفس جاء بها «العقل» بعد طويل سبرٍ للمهايا وبعد ردحٍ من الزمن انفرطت منه الأيام منذ بدأ في فناء اللُّوقيون يتمشّى، فقد تجمّعت إلى سنين لتنتشر الآن عن آنٍ فيه قد تمّ له سبر الجسم عضوياً فتنفّست الأعضاء منه عن النفس إنها الروح في الجسم أو بالأحرى روح الجسم، فالنفس الجامعة للقوى أو مجموعة القوات إنما مبدأ الأفعال الحيوية، فمن ثم فالنفس والجسم ليسا شيئين مختلفين...

التحليل، حلّل «العقل» النفس وهو يبحث بدقةٍ الأسس العضوية لمختلف حركات النفس، ومن هنا كان انعطاف فلسفته لتحدّث عن تلك القوة التي تتخيّل الأشياء وتُصوّرها وعن تلك القوة التي تحتفظ بالصور في الذهن لتظهرها عندما يدعوها داعٍ، كما يطالعنا ذلك من تلك «الرسالات»، التي لعبت دقيق أدوارها في المشاكل الدينية في المسيحية والإسلام، الخاصة بالرؤيا والوحي... وكما بذلك التحليل الدقيق للمخيّلة والحافظة ينعطف «العقل» من القوة التي تحرّك الجسم وتدرك المحسّات أو؛ النفس إلى تلك القوة المفكِّرة أو العقل!

إلى «العقل» نصغي، واليد منّا تُقلّب صفحات رسالاته، فنسمعه يقول:

إن في الكائن الحي، المركّب من هيولى ونفس نفسها ليست إلاّ للهيولى صورة ونفسها ليست إلا مبدأ الأفعال الحيوية فيه، يوجد شيء آخر عن الهيولى والصورة جدّ مختلف هو هذه؛ **القوة المفكِّرة**.

إن هناك شيئاً آخر غير مبدأ الأفعال الحيوية أو النفس أو هذه القوة المحركة للجسم المدركة المحسّات... هذا الشيء الآخر هو مبدأ **الفِكَر التجرُّدية** هو تلك القوة المدركة المجرّدات أو؛ **العقل**.

وللعقل عمل رفيع هو؛ الفِكْر.

والفكر؟.. إن الفكر، هذا العمل الخاّص بالعقل، إنما عمله غير عمل الجسم، فعمله عمل رفيع به مقطوعة بين العقل والجسم أواصر الصلة ومُتقَطِعة بأسبابها الأسباب، فليس للعقل بالجسم وبحواس الجسم صلة وعن عمل حواس الجسم مختلفة للعقل أعمال، فإن للعقل، بالفكر، **عملاً خاصاً له يزاول من غير عضو**.

ما النفس، والقول إنما قول يفرق تفريقاً واضحاً بين النفس والعقل؟...

«يقيناً!... ليس لدينا حتى الآن بيّنة على ماهية العقل أو هذه القوة المفكّرة... بيد أن العقل يبدو لنا، وإن يك مختلفاً كثيراً عن النفس، **فَمِنْ نفس النفس...**».

أرسطو[1]

الحديث، في عن «النفس»، عن النفس يتحدث أرسطو مفرّقاً بين النفس والعقل في غير فصل لكليهما عن الآخر، فهو وإن كان بينهما قد فرّق فإنه بينهما لم يفصل وليس إلاّ ليبدو له أن العقل وإن يك شيئاً آخر عن النفس:

«فإنه يبدو أنه جوهر مستقل مغروس في النفس».

أرسطو

كلا، إن أرسطو لا يقف من هذه المشكلة موقفاً معقداً فيتركنا تسائل أبذرة العقل في تربة النفس ومتطوراً في هذه التربة نما؟. وإنما من المشكلة يقفٍ أرسطو موقفاً صريحاً نفهمه تمام الفهم إذا أصغينا إليه تمام الإصغاء وهو عن هذه القوة المفكِرة يحدثنا: **إن العقل عنصر إلهي في الإنسان!**

«لأن؛ العقل إنما الجانب منّا الذي يفهم الرياضيات والفلسفة... مواضيعه لا زمنية ومن ثم فهو نفسه **لا زمني!**»

أرسطو

على أسسٍ من قواعد التعقُّل يقول «العقل» القول فللنفس، وليس إلاّ الناطقة فبارزة فيها هذه القوة المفكرة، قد تناول ليعود إلينا محدثاً:

«إن النفس الناطقة ثنائية الانقسام إلى: **عقل منفعل وعقل بالفعل.**

إن «العقل المنفعل» عقل «لا عاقل» متمثِّل في الغرائز وبدوره ثنائي الانقسام، فهو موجود في النبات وسائر الكائنات..

وإن «العقل بالفعل» عقل «عاقل» فهو المتمثل في الفكر... ومن ثم فهو موجود في الأقلية من الشر!...

يقيناً إن «الإلهي» كان على حق حينما قسّم النفس إلى جزأين، حاسة ونامية، فللواحدة إذ نقسّم فليس إلاّ لنراها في النبات وسائر الأحياء، وللأخرى إذ نقسّم فليس إلاّ لنراها في الأقلية من البشر، وفي هذا ما يؤكد لنا أن العالم متدرّج في الرقي وأن الأنواع فيه تنقسم

(١) عن «النفس» لأرسطو

إلى أقسام يقف النبات في أحط درجات الجسم العضوي ثم يليه في الرقي الحيوان لزيادته عليه بالحس، ويتبع وجود الحسّ الشعور باللذة والألم لأن اللذة إحساس سارٌ ونقيضه الألم، ويتبع هذا وجود الدافع إلى البحث عن اللذة وتجنّب الألم وهذا لن يكون إلاّ بالقدرة على الحركة التي للحيوان دون النبات... ثم يلي الحيوان في الرقي؛ الإنسان.

حيوان ناطق من ثم إنما الإنسان له ما للحيوان والنبات من تغذية وإنسال بيد أن المميز للإنسان عن الحيوان هو؛ العقل!.

والآن؟. لقد انقسمت أمامنا «النفس الناطقة» إلى؛ «عقل بالفعل» و«عقل منفعل» لنرى؛ أن «العقل المنفعل» هو هذا المتمثّل في العقل الجماعي أو هذا الجانب المسوق بسياط الغريزة، هذا الجانب من البشر الذي لا يقبل إلاّ ما قد دلف إليه من أديان وعقائد والذي بما فُرض عليه أو توارثه عن آبائه من دين يدين دون ما أدنى تفكير، ولنرى أن النفس العاقلة أو «العقل بالفعل» هو هذا المتمثّل في الفكر أو هذا الجانب الفردي، هذا الجانب من البشر الذي لا يقبل ما قد دلف إليه من السلف ولا يؤمن بما قد وجد نفسه فيه وليداً من دين ومعتقدات وعقائد إلاّ بعد السبر الصابر واليقين المنتزعِ من براثن الشكِ انتزاعاً عقلياً، فإن حياة «العقل بالفعل» إنما منحصرة في التفكر... والتفكر؟... إن التفكر حياة قدسية بالنسبة إلى حياة الجسد!.. ومن ثم فالعقل شيء قدسي بالنسبة إلى الجسد وعمله عمل قدسي بالنسبة إلى عمل البشر ومن ثم، والفكر شيء قدسيّ، فأفضل الأشياء فينا إنما هو هذه القوة المفكِّرة التي تفوق قواها للجسد قُوى!.

ناحية واحدة من نشاط العقل ظلّت محض روحية، بروحيتها تعترف هذه الفلسفة فتقول: لقد تبيّن لنا تماماً أن العقل لا يحتاج في عمله إلى عضو، من ثم فإن التفكير في الفكر أو بالأحرى تفكير الفكر في الفكر ليس مادياً وعلى هذا الأساس فإن المنطق يقود العقل إلى اليقين بأن هذا الشيء **العامل بدون عضو واللاّمحتاج إلى عضو في عمله والجافي بحاجاته حاجات الجسد** هذا الجزء العاقل من النفس الناطقة هذه النفس العاقلة **قطّ لا يمكن لها أن تموت!**

أجل... إن في النفس الناطقة تتلاقى وظائف النفس النامية علّة الاغتذاء والحياة ووظائف النفس الحاسة المتّصلة بالجسم مباشرة والممثّلة الصورة من الجسم كله، فالقُوى المختلفة للنفس الناطقة إنما لأعضاء الجسم المختلفة صُوَر!. كل قوة فيها فللعضو من الجسم صورة، مثلاً كقوة الإبصار فقوة الإبصار للحدقة صورة كلا.. لا تُدرك قوة الإبصار من غير الحدقة ولا الحدقة من غير الإبصار تُدرك وهذا ليس إلاّ لأن القوة والعضو يؤلفان شيئاً واحداً، فالحسّ

إنما قوة متحدة بعضو... ولكن!. لئن في النفس الناطقة تتلاقى هذه الوظائف للنفس النامية والحاسة فإنها عنهما تتميّز بما تجمع من وظيفتين بها خاصتين؛ **الإرادة والعقل.**

إن للعقل، ولعقل قوة إدراك المجرّدات، فعلين آخرين هما: **الحكم والاستدلال أو تأليف** المعاني المجرّدة في قضايا وأقيسة للانتقال من المعلوم إلى المجهول، من هنا نعلم تمام العلم أن الصلة بين الجسم والعقل مقطوعة، فإن العقل يدرك الماهيات جميعاً محسوسة ومعقولة بينما الحسّ لا يدرك سوى المحسوسات!.. بينما كل حسّ يدرك موضوعاً خاصاً ولا يدرك سواه، كما تشارك العين قوة الإبصار، **فإن العقل غير متحد بعضو له في فعله يشارك!...**

إن من شأن العضو أن يعيِّن القوة المتحدة به إلى موضوع من جنسه أو مادي محسوس يكون بينه وبين تركيب العضو نسبة كالنسبة التي بين العين واللون، بيد أن هذا هو العقل فإنه، إلى جانب إدراكه الماهيات المحسوسة، يدرك الماهيات المعقولة من ثم فيقيناً إن العقل إنما؛ **مجرّد كلِّي** ومن ثم فالعقل، هذا المجرّد تجريداً كلياً، إنما؛ **مُفَارِق.**

إذن، أية ماهية يمكن أن تكون لهذا المجرّد الكلي والمفارق ماهية؟.. يقيناً... يقيناً يقوم على أسس المنطق أن العقل لما كان مجرّداً كلياً وكان مفارقاً فإن الماهية منه، وهو المفارق، إنما ماهية روحية!. ومن ثم فيقيناً؛ **إن العقل عنصر روحي**

أجل.. إن النفس من الجسم صورة وبالعقل متحدة اتحاداً جوهرياً وثمرة هذا الاتحاد؛ التعقُّل، فالتعقّل إنما إلى الصورة الخيالية في حاجة لتدرك منها المعنى الكلي والمخيلة، مرآة العقل، إنما من قوى النفس الحاسة قوة موضوعاتها حسية مدركة بعوارضها المحسوسة ولها في المخ مركز ومن ثم فالتعقّل، إلى جانب كونه بالنفس خاص، إنما بالتخيل له وثيق صلة ولا يتحقق التخيل بدون جسم ولكن! للعقل، كما قد تقدّم، فعل خاص له **من غير عضو يزاول**، ومن ثم «فالموت» ليس في حقيقته إلاّ ظاهرة تنفصل بها عن الجسم النفس وتبقى **خالدة، فهي**؛ من حيث إن لها فعلاً خاصاً تزاوله من غير عضو، طبيعتها؛ **الخلود**!.

هذا هو برهان الخلود العقليّ الأرسطي فليس إلاّ:

«لأن للعقل بالفكر عملاً خاصاً يزاوله عن غير عضو فإنه غير خاضع للفساد أو الفناء!».

أرسطو

هذا العمل الخاص الذي تزاوله هذه القوة المفكِّرة من غير عضوٍ إنما وحده عنوان خلودها ودليل بقائها فإن في:

«اختلافها عن الفانية من حيث إنها أبدية لأنها هي وحدها لها القدرة على الوجود بدون

أية قوة أخرى... لا كتلك الأعضاء الأخرى التي قد بيّنا عدم قدرتها على البقاء»!.

أرسطو

فإن الجسد ما خلا النفس العاقلة!..

ليس إلاّ للعقل أو بالأحرى «النفس العاقلة» تعترف الأرسطية بالخلود فتنأى بذلك عن معتقدات للفيثاغورية بالصيرورة الأورفية تقول بل ومستنكرة تسخر من معتقدات للأكاديمية ترى أن النفس في كل صورة من صورها وفي كل درجة من درجاتها وفي كل نوع من أنواعها فحياة وإن طبيعتها طبيعة لا يطبعها العدم!... ولكن بين الخلود النفسي الأفلاطوني المانح كل حيّ الخلود، والخلود العقلي الأرسطي المتأبي إلاّ للعاقل خلوداً، تأخذنا المشكلة إلى المقارنة بينهما فنرى أن «عين النفس» التي قالت بها الأفلاطونية، وعين النفس هي البصيرة والبصيرة هي العقل في حالات صفوه، ليست إلاّ هذه الناحية العاقلة من النفس الناطقة التي تسميها الأرسطية بالنفس العاقلة!... بل ولتلج بنا هذه المقارنة إلى أفق عميق فيه تمور في مزيج نسائم الوحدة الصوفية ولكن بصبغة بحت عقلية، فالأفق إنما «للعقل» رحاب له لم يلج إلاّ وعاد قائلاً إن خلود العقل ليس خلوداً فردياً وإنما قسم من خلود الإله!...

وهكذا نرى أن هذه الفلسفة لم تشارف مشارف الوحدة الخالصة ولا بإبهام لمست منها الشواطىء ولا اقتنعت بالوقوف على شاطىء اللاّنهاية تسمع هدير الهمس بالخلود، وإنما لهذا الخضمّ لجت ومنه رجعت تُرجِّع أنغاماً محض عقلية تتغنّى بخلود العقل!...

أيُّ اتجاه ديني من ثم تتجه إليه هذه الفلسفة وليس إلاّ للعقل لديها خلود؟...

على أسس فلسفتها في الطبيعة وتفكيرها الإلهي نستبين تفكيرها الديني، فلديها الكون إنما تنتظمه سنّة التطور لديها الكون إنما سلسلة ترق للمادة من صورة إلى صورة إليه أرقى في حضيض الحضيض مادة لا صورة لها وفي ذروة الذروة صورة لا مادة لها، وكلما قرب الشيء من كمال الصورة كان إلى الحقيقة أقرب، وعلى أسس نظرتها هذه ترى الأرسطية أن هذا التطوّر يُضعف المادة ويقوّي الصورة، واطّراد هذا الرقيّ عقلاً يوصل إلى إبهات الهيولى وإبراز الصورة... ومن ثم، واطراد هذا الرقي عقلاً يوصلنا إلى إبهات المادة وتبلور الصورة منّا، فعلينا يضحى واجباً يتلخص في تعهّد هذه الناحية العاقلة فينا حتى لا تطمس وهذا بدوره يحتّم علينا أن نحيا حياة عقلية عملها الفكر مظهرها الطهارة وجوهرها القدسية، فحياة العقل إنما حياة قدسية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني الاتزان أو الاعتدال:

«حياة كالحياة قد تكون كثيرة على الإنسان ولكن!. إذا كان العقل شيئاً قدسياً بالنسبة

إلى الجسد فبالتالي تكون حياته شيئاً قدسياً بالنسبة إلى حياة الجسد، ولذلك لا ينبغي لنا اتباع أولئك الناصحين لنا بأن علينا، بكوننا بشراً، التفكير في الأمور البشرية وأن علينا، بكوننا فانين، التفكير في الأشياء الفانية!.. وإنما الواجب علينا يحتّم أن نذهب إلى أقصى حدود قدرتنا العقلية وطاقتنا الفكرية بأن نجعل أنفسنا خالدين فنعيش وفقاً لمقتضيات أفضل الأشياء فينا، هذا العنصر القويّ الذي تفوق القوى منه كل شيء!»

على الإنسان الالتفات إلى هذا العنصر القدسي فيه عن طريق تقويته والاستزادة من مضاعفة تقويته، فهذا العنصر الإلهي فيه إنما منه **العنصر الخالد**!. على الإنسان تقوية هذا العنصر الروحي فيه لأنه الوسيلة التي تقوده إلى الغاية من حقيقة وجوده والتي حين يبلغها فوجوده، كشخصية، يكف!.. يكف لأنه فيها قد **أصبح جوهراً مدْرِكاً**!... أمّا بأية الوسائل نستطيع أن ننمّي هذه الحاسة القدسية فينا فسؤال يأخذنا إلى الناحية الأخلاقية من هذه الفلسفة وإلى مشكلة أخرى من المشاكل الدينية؛ مشكلة الخير والشرّ

لقد تناول «العقل» العقل وسبر للعقل مرآة وللعقل مستودع، وحفيف شجرة الأكاديمية به يحف وهمسها يتجاوب في أرجاء نفسه بكلمة واحدة يُردّد؛ **الخير**.

الخير؟!... فما هو «الخير»؟ إن الإنسان إنما لغاية يعمل، وقد تكون هذه الغاية لغيرها وسيلة، بيد أن هناك في النهاية غاية أخيرة ليست لشيء وسيلة وهذه؛ **غاية الغايات**.

وغاية الغايات إنما معنى قد تضافرت التعاريف على تسميته؛ **السعادة** والسعادة اسم بقدر اتفاق الناس على أنه غاية الغايات فاختلافهم لفهم معناه، فهم في فهم السعادة على اختلاف!... الجانب الأكبر منهم يراها في حياة الجسد!... ولكن سعادة الإنسان ليست في لذة حواسه فحسب لأن الإحساس بالحواس وحدها هو وظيفة الحيوان ولأن في لذة الحواس وفي حياة الجسد إنّما يكمن ذلك الشيء الذي نسميه؛ **الشرّ**!

أوشكّ في أن الشرّ وليد حياة الجسد وأن حياة الجسد وظيفة الحيوان؟!.. يقيناً بالسلب يأتي الجواب لأن وظيفة الإنسان غير وظيفة الحيوان، فللإنسان وظيفة أخرى بها عن الحيوان يتميز وهي **العقل**، وفي حياة العقل يكمن ذلك الشيء الذي نسميه؛ **الخير**!

هذا هو الخير وهذا هو الشر... ليس لهما من سبب إلاّ الإنسان نفسه:

«فإن عمل الجسد بالشرّ آت وعمل العقل هو؛ الخير!».

يقيناً إن الإنسان حيوان ناطق ولكنه حيوان ذو عقل يفرّق تمام التفريق بين الخير والشر تفرقة مستمدة من إدراكه لما هو بالخير آتٍ ولما هو آتٍ بالشر، وإلاّ لما كان سعيه إلى إقامة صروح القيم الأخلاقية ومناداته بوجوب اتباع الفضيلة!.. بيد أن لما كان في النوع الراقي منه

ما في الأدنى، فالفضيلة تنقسم إلى نوعين يتجاوبان وقسمي النفس ومن ثم انقسامها إلى؛ **عقلية وأخلاقية.**

«الفضيلة العقلية» إنما الفضيلة المستجيبة «للعقل الفاعل» أو النفس العاقلة، ومن ثم فهي نوع رفيع لخضوع رغبات الحسّ لحكم العقل، نوع رفيع هي لأنها تتوافر فقط في حياة العقل والتفكير والفلسفة، ونوع رفيع هي لأن إخضاع الحسّ لحكم العقل طبيعة فيها ونوع رفيع هي لأنها حياة الفكر الخالص ونوع رفيع لأنها شبيهة بحياة الإله، فإنه لمّا كانت حياة الإله حياة الفكر الخالص فحياة الفكر الخالص إنما تشبّه بالإله!..

و«الفضيلة الأخلاقية» إنما الفضيلة المستجيبة «للعقل المنفعل» المتعلّق بالغذاء والحسّ ومن ثم خضوع الفضيلة في هذا القسم للشهوات.

ولكن! هنا يجب أن نتنبَّه ونفهم أن الفضيلة الأخلاقية ليست في الإفراط في منازلة الشهوة حتى تثوي، فالشهوة في الإنسان عنصر أساسي وهدمها إنما لعنصر هام من عناصر تكوينه هدم، وإنما الشيء الذي يجب أن نتنبّه إليه هو أن الإفراط كالتفريط، كلاهما غلو والغلو رذيلة!.. ومن ثم فالفضيلة الأخلاقية إنما تنحصر في الأخذ من الأمور **بالوسط**، فالفضيلة الأخلاقية إنما وسط بين رذيلتين، والوسط إنما الاتزان أو؛ **الاعتدال.**

إن «الإلهي» قد قال إن سقراط يقول إن الفضيلة في المعرفة، فإن المعرفة وحدها كافية للاهتداء إلى الطريق المستقيم، وإن الإنسان إذا فكّر تفكيراً مستقيماً سار حتماً في الطريق المستقيم، وهذا قول إنما يستند على أساس أن معرفة الفضيلة كافية لإتيانها، ولكن!.. للقول السقراطي تنافي ما عنه طوايا الطوّية البشرية تنتشر، فالشهوة في الإنسان إنما **عامل** فاللشهوة مغريات وتاريخها على الإنسان التغلُّب، فإلى المعرفة قد يهتدي الإنسان ولكن الاهتداء إلى المعرفة وحده ليس كافياً للسير في الطريق المستقيم!.. وللتفكير قد يحسن الإنسان وإلى الصواب قد يهتدي ولكن عليه تتغلّب بمغرياتها الشهوة فتجترفه!.. ومن ثم فليس هناك من وسيلة إلى الفضيلة إلاّ التغلُّب على الجسد **وإخضاع الشهوات للعقل** وهذا الإخضاع لا يتسنّى إلاّ **بوسيلة العادة**، وإلاّ عن طريق ترويض الشهوة وتذليلها بضبط النفس وتحكيم **العقل والاستماع إلى أوامره ونواهيه!..**

هذه هي الفضيلة الصحيحة وهذا هو طريقها الطارق الطريق المستقيم المنتهي إلى السعادة، فإن الفضيلة العقلية ليست إلاّ نتيجة للفضائل الخلقية وليس إلاّ من هذين النوعين معاً تتكون وتتحقق؛ السعادة!

يقيناً إن تبعاً لما به تأتي مراحل الحياة من أحداث تختلف معايير السعادة، كما أن بالنسبة إلى كل إنسان عن الآخر تختلف من السعادة المقاييس، فلأحداث الحياة ولظروفها الخارجية في السعادة أثر، فالفقر المادي حائل والثراء قد يحول ومرض الجسد حائل ومرض العاطفة قد يحول... ولكن! كل هذه فوسائل للسعادة لا **السعادة ذاتها**!... السعادة ذاتها لا تكون إلاّ لمن عن طريق العادة قد عوّد إرضاخ الجسم منه للعقل فيه في حالة المرض وللصحة وفي حالة الفقر والثراء على سواء وفي حالة تحقق الأماني أو منها الحرمان، بل إن الحرمان في كثيرٍ من الأحيان قد يكون وسيلة إلى السعادة في ذاتها، فالسعادة في ذاتها ليست إلاّ وليدة تحكم العقل في أهواء الهوى... ومن ثم فالهدى إلى الطريق المستقيم إنما أمر متروك للإنسان **وعليه بنفسه إليه الاهتداء**!..

أوَ متروك للإنسان أمر الاهتداء بنفسه إلى الطريق المستقيم؟...

سؤال، للجواب عنه تأخذنا هذه الفلسفة إلى مشكلة أخرى من مشاكل التفكير الديني:

مشكلة الجبر والاختيار

إن الإنسان مخيّر بين عمل الخير وعمل الشر، فعلى إتيان كل منهما هو قادر ومن ثم فنقضاً للقول السقراطي بأن التفكير الصحيح يستتبع العمل الصالح، تقول الأرسطية: إن أداة العمل الصالح إنما **الإرادة**.

«إن الإرادة هي القوة النازعة إلى الخير المعلوم بالعقل، ولما كان المعلوم بالعقل هو خير معنوي روحي كالفضيلة ومحبة الإله فلا بدّ أن تكون الإرادة كذلك **روحية تتبع إدراك العقل** كما يتّبع النزوع الحسيّ إلى اللذة إدراك الحواس!».

أرسطو

حرٌّ الإنسان في اختيار أي الطريقين شاء ففيه من القُوَى تلك القوة التي تهديه، **فطرياً**، إلى الطريق المستقيم وهذه القوة الفطرية في الإنسان تعلن بأن الإنسان غير محتاج إلاّ إلى **نفسه** في أمري الهدى والضلال، وإلى تعليمه الفضيلة ليس بمحتاج إلى مرشد أو هادٍ!

لا ثمة شك في أن الذروة العليا من الشعور بالكرامة الإنسانية قد ذهبت الأرسطية بجعلها الإنسان حراً في اختيار أي الطريقين شاء وإن إلى أشف الآفاق النفسية قد سمت بإحساسها بهذا الإحساس الفطري في النفس ولكن!... الأرسطية إذ تذهب في فلسفتها الأخلاقية هذا المذهب إنما تأخذنا إلى تلك المشكلة الدقيقة من مشاكل كل دين «منزّل» والتي تُمثّل الأساس من صرح الرسالة والنبوّة لأن كل دين «منزّل» فأساس قيامه قائم على التسليم بالوحي الهابط وقبوله عقلاً، وأمّا إنكاره «الوحي الهابط» واستبعاده أصلاً فهدم

لأقوى مستند عليه يستند الدين المنزّل وليس ذلك فحسب وإنما لصرحه هدم من الأساس...

على هذه المشكلة الدقيقة هناك رسالتان، مما قد تركت اليد الأرسطية من رسائل، تلقيان ضوئيهما هما اللتان بهما تنتشر:

النظرية الأرسطية في الأحلام

بين الرسائل الأرسطية رسالة «الأحلام» ورسالة «التنبؤ بواسطة النوم» عبرهما يأخذنا أرسطو وبنا يلج عالم النوم ويكشف لنا عما يجري في عالم النوم من أحداث نسميها عند يقظة الجسد؛ أحلام...

عن طريق ما قد جاء به عن الناس من علم إلى عالم الأحلام يأخذنا أرسطو ومن فناء اللُّوقيون يأتي إلينا صوته محدثاً:

إن في النفس الناطقة عقلين فيهما؛ «العقل المنفعل» وهو عقل منفعل لأنه يتأثر بالماهية المجرّدة كما يتأثر الحسّ بموضوعه، فيعقله ويتعقله، **فهو عقل يُدْرِك**، وفيها؛ «العقل الفعّال» وهو عقل فعّال لأن فعله بالقياس إلى الماهية شبيه بفعل الضوء بالقياس إلى الألوان إذ يحوّلها من ألوان «بالقوة» إلى ألوان «بالفعل» فهو عقل **يُجرِّد**.

والتجريد والتعقُّل فعلان **متمايزان**. التجريد شرط التعقُّل، وكما أنه لا بدّ لحصول الإحساس من تأثر الحسّ بالمحسوس، فإنه لا بدّ لحصول التعقُّل من تأثر العقل بالماهية.

أجل... إن الإحساس إنما إدراك شيء حقيقي أما الماهية فإن العقل عليها يحصل بتجريدها من المادة وتعقلُّها خالصة من كل عرف شخصي، ومن ثم فإدراك الماهية لاحق لإدراك الشيء الجزئي، لا عليه، كما قد ظنّ «الإلهي» سابقاً!..

ثم... إن التجريد إنما درجات...

في الدرجة الأولى يجرّد العقل ماهية الجسم الطبيعي مما يلابسها من الأعراض والصفات الشخصية، وبهذه الدرجة يلج «علم الطبيعة»، وفي الدرجة التالية يجرّد العقل من الجسم السطوح والحجوم والخطوط، وبهذه الدرجة يلج «العلم الرياضي»، وفي الدرجة الأخيرة يترك العقل الشكل والمادة بالإطلاق، ولا يستبقي من شيء إلاّ كونه موجوداً والمعاني اللازمة للوجود كالجوهر والعرض والعِلّة والمعلول والممكن والضروري، فإن كل موجود إنما جوهر وعرض وعلّة ومعلول وممكن وضرورة وبهذه الدرجة يلج «علم ما بعد الطبيعة»..

تحت هذه الأضواء تتكشف لنا الأحلام فنراه، تبعاً لهذه الدرجات، أنواعاً وأقساماً ولتطالعنا منها الأقسام والأنواع جلية، ونحن نقترب عبر هذه الأضواء من النوم ومن النائم.. من النائم نقترب فنرى أن النوم فقد الإحساس وأن الحلم إنما صورة ناتجة عن المخيلة التي تعظم قوتها أثناء النوم على أثر تخيلها عن أعمال اليقظة.

إن حياتنا اليومية إنما سجل يسجّل أن الحواس منّا تحْدِث فينا آثاراً بعد زوال الأشياء المحسّة، وهذه الآثار الخارجية التي يأتي بها التأييد على أن الإحساسات إنما تترك فينا واضح آثار تعطينا فكرة واضحة عن آثارها الداخلية التي ارتسمت على مرآة العقل أو المخيّل والتي بها تحتفظ المخيلة وتبرزها عند المناسب الظروف، ومن ثم فالحلم ليس إلا صورة ناتجة عن المخيلة التي تعظم قوتها على أثر تخلصها من أعمال اليقظة.

الأحلام من ثم إنما إحساسات سابقة أو بالأحرى وبعبارة أدق منطقاً وتعريفاً ما الأحلام إلاّ صور ذهنية لهذه الإحساسات تشكّلها المخيلة بأشكال مختلفة!.. الإحساسات وحدها هي التي تؤثر في المخيلة فهناك الإحساسات العضوية أثناء اليوم، وهذه قد تؤثر في الأحلام، وهناك الإحساسات العاطفية أثناء اليقظة وهذه قد تؤثر أثناء النوم، فإن للميول وللعواطف دخل كبير في الأحلام ممّا يغدو به سهلاً وغير عسير تفسير الحلم إذا عرفنا الإحساسات والظواهر النفسية المحيطة بكل حلم، بل إن من هذه الأحلام ليأتي عوناً للطبيب في معالجة مرضاه، فبسؤال المريض عن بعض أحلامه يشخّص الداء.. ولكن!. ليست الإحساسات العضوية والإحساسات العاطفية وحدها هي التي تؤثر في المخيلة فإن إلى جانب هذه الأحلام التي تأتي كأثر من آثار المخيلة ونتيجة من نتائجها وللعواطف وللميول وللطبائع والأمزجة أثر في تكوينها وتشكيلها، هناك أحلام أخرى!.. أحلام لا تستقرىء الأحداث **وإنما تقرأ المستقبل وواضحاً تراه!..**

أوَشكٌّ؟!.. إننا إذا تذكّرنا **ماهية الزمن** فانتشر لنا الزمن صفحة منتشر عليها الماضي والحاضر والمستقبل أدركنا أن التنبؤ بواسطة النوم أمر غير عسير!... أمّا كيف؟.. فسؤال يحمل في ثناياه عنه الجواب، فإن عن «العقل الفعّال» و«العقل الفعّال»، عالمه عالم ما بعد الطبيعة، تنقل المخيلة القوية صورٌ للحقائق التي تظهر على صورة رؤيا أو حلم!

ولكن!.. قط لن تتوفر لكل إنسان هذه المخيلة القوية فهي لن تتوفر إلاّ باتباع الفضيلة وإلاّ لمن فيه تمّت شروط العقلية الفضيلة وأصبحت حياته الشخصية للقيم الأخلاقية مثلاً!..

من ثم ينتفي بذلك الرأي الديني والمعتقد الشائع بأن هذا اللون من الأحلام وهذا النوع من الرؤى وحي من الإله!

يقيناً إنه لحدّ فاصل هذا الذي يبتر بتراً كلياً بين الرؤيا الناتجة عن عمل «العقل الفعّال» الذي يعكس صور ما في عالمه، عالم الحقيقة، وبين المعتقد الديني الشائع، لأن بينما الدين لا يجعل لهذه الرؤى شروطاً فإن العقل يجعل لها شروطاً مظهرها الفضيلة الأخلاقية وجوهرها الفضيلة العقلية، وعلى هذه الأسس رفض «العقل» أن تكون الرؤيا وحياً من عند الإله رفضاً باعد بينه والدين الرسمي للبلاد، فبعيدة إنما فِكَر التفكير الديني في المذهب الأرسطي عن التفسيرات الدينية للدين الرسمي وشروحه القائمة على غامض تعاريف واهية المنطق لافتقارها إلى العقليات!.. كلا ليست النزعة الواقعية هي التي تغلبت على أرسطو في دراساته النفسية، كما عليه استولت في بحوثه الطبيعية والأخلاقية، وإنما هي نزعة عقلية منطقية يقوم منها الصرح على متين أساس، فهو يرفض أن تكون الرؤيا وحياً من الإله على أسس أن هذا الرفض إنما يقوم على أن العقل ينمو وينمّى حتى درجة التشبّه بالإله!...

ومن ثم فالرؤيا إنما استشفاف وغُلوٌّ جاء به الاستعلاء عن الدنايا والانطلاق الفكري والعملي من دنيا الدنيويات، وقط لا يمكن أن يكون هذا النوع من الرؤى إلاّ نتيجة لهذا الاستشفاف العقلي والعلو النفسي والاستعلاء الخلقي، لأن العقل لا يستطيع أن يسلم بأن الإله قد فضّل بعضاً على بعض وأفاض فيضه على بعض وأغلق فيضه عن بعض وخاصة إذا كان في حياة من قيل عنهم إنه قد أفاض عليهم بعداً جوهرياً عن أبسط قواعد الأخلاق!.

التهاوي، في ظلال الفلسفات، تهاوى الصرح المشيد من وحي السماء بل وميداً ماد من هذا الصرح الأساس، فشقّ هوة هي تلك التي يقف فيها العقل الإنساني في جانب الفلسفة العقلية والصوفية بقسميها العقلي والروحي، وفي الجانب الآخر العقل الجماعي من وراء الدين الأوليمبي أو الدين الرسمي للبلاد!.

أجل.. ليس هناك بين الفلسفات فلسفة جاءت تُؤيِّد للدين الرسمي معتقده القائل بالوحي الدالف من السماء بل كل منها قد جعلت هذا النوع من الوحي مستحيلاً استحالة قاطعة!. لا لأن «العدالة» نفسها تحتّم هذا التحتيم فحسب وإنما لأن كمال الإله وتنزّهه يحول وما يصاحب هذا المعتقد من فكرة تفضيل فردٍ ليس له فضل مكتسب على آخرين قد اكتسبوا الفضائل!. كما تنتفي، بالتالي، بانتفاء «الوحي الهابط» عقيدة التجلّي والرؤية والمكالمة وما شاكل هذه المشاكل من مشاكل الدين.

وهكذا نرى أن للدين الرسمي، والدين الرسمي سجّل تعثُّر العقل البشري يافعاً، قد غاير تفكير العقل الناضج مغايرة كلية، ومن ثم فإشاحته وعدم اعترافه بما في الدين الرسمي من ألوان العبادات وشكلياتها من صور مادية تسجّل هذا التعثّر العقلي والوقوف في درجة

متأخرة من التطور الفكري!.. ولكن!.. «العقل» أمام هذه الألوان من عبادات الدين الرسمي وما يضمه من شكليات وصور لا يقف موقفاً سلبياً وإنما يستمد لهذه المظاهر تفسيراً يقوم على أسس تفكيره الفلسفي فيقول: إن هذه الشكليات والصور من ألوان العبادة التي يؤديها العقل الجماعي في محيط دينه الرسمي ويرى فيها التعبير نفسه من أوارٍ وحب وانجذاب نحو فكرة الإله ليست إلاّ تعبيراً عمّا يجيش في النفس البشرية من انجذاب فطري نحو «الصورة المجرّدة» المتحرّك نحوها الكون بدافع العشق فليس السرّ، سرّ هذا الانجذاب الفطري، عائداً إلاّ إلى وجود تلك «الصورة المحضة» التي لا تشوبها المادة و«المعنى المجرّد» الذي لا يقوم في جسدٍ ومن هو في وحدته «علم وعالم ومعلوم» و«عقل وعاقل ومعقول» و«عشق وعاشق ومعشوق» ومن نحوه يتحرّك الوجود بدافع هذا العشق صورة هذه العشق هي هذا الانجذاب للعقل البشريّ نحو المحرّك اللاّمتحرّك، فالعقل إنما عنصر قدسي وهذا العنصر هو الذي يبعث في الموجودات الشوق إلى مصدرها الأول ويبعث فيها السعي إلى التشبه بعلتها الأولى فتتحرك وتعلو بالحركة تقرّباً إلى الصورة القدسية التي لا تشوبها شائبة من عجز المادة!... هذا هو سرّ هذا الانجذاب الفطري للنفس نحو الإله من هو قِبلَة العالم التي يتجه إليها العالم شوقاً!... وللسبب اتجاه العقل البشري في كل مرحلة من مراحل حياته نحو هذه «الفكرة المعيّنة» وللسبب اختلاف الصور من هذه «الصورة المجرّدة» واختلاف الفِكَر عن هذه «الفكرة المعينة» في كل مرحلة من مراحل حياة العقل البشري!.. فالفِكْرة عن هذه «الصورة السرمدية» لدى العقل حدثاً تتجسّم إلى جسمية ومن ثم تحوله، بالعبادة إليها، إلى التقدمات والقرابين والمحرقات والضحايا.. والفكرة عن هذه «الفكرة المعينة» والعقل البشري لمراحل الشباب يجتاز تصطبغ بصبغة مادية بحتة ومن ثم تحوله، بالعبادة إليها، إلى الشكليات!.. أما حين يبلغ العقل مرحلة النضوج المتمثلة في التفكير الفلسفي ويعلم أن الإله منزّه عن هذا العبث فإنه يقلع عن أوهام الحداثة ويكفّ عما قد أتى به من ترهات وشكليات، ففي هذه المرحلة قد تجرّد لديه **الواحد** من اللاّمجردات وله تجلّى عقلاً وعلماً وحباً، ومن ثمّ فتجرُّد العقل من مادي العبادات وتحوّله، بالعبادة إليه، إلى الحب! للعقل، ناضجاً، غدا الحب ديناً فقد علم أن السبب في ما تمور به الجوانب من لظى إنما وجود ذلك «العشق»!. علم أن سبب هذا الحب إنما وجود ذلك «الحب»!.. علم العقل العلم فاتسعت أمامه الآفاق وباللون الصوفي اصطبغت منها الأرجاء ومن جوانبها انسابت تلك النغمة العذبة المتغنية بالحب!..

والحبُّ؟.. الحب متى عمر به القلب سكنت فيه الفضيلة وغدت فيه وأضحى الواجب

ينحصر في عمل الخير، فالإرادة قد غدت رهينة العقل الذي قد غدا بدوره منحصر التفكير بالحب وفي الحب!.. هذه هي العبادة الصحيحة وهذا هو الدين الصحيح!. كلا، لا تكليف بشكلي صلاة ولا فريضة بمادي صوم ولا تلاوة مصطلح صيغ، فإن العبادة ليست في نشاط الجسد وإنما **في نشاط النفس**، ولذلك فأبرز ناحية من نواحي هذه العبادة تنحصر في **المعرفة**، وأما قواعد هذا اللون من التعبّد وأركانه فكل ما يستتبع المعنى من كلمة... **الحب**!.

هذا هو التفكير الديني، جوهراً، في هذه الفلسفة التي بلغت السمت في مدرسة أثينا الكبرى والتي جاءت تتناول المشاكل الطبيعية ومشكلات ما بعد الطبيعة بحلول مثلّت نفسها أهم المستحدثات في تاريخ التاريخ الفكري، فمن أعماق هذه الفلسفة ينبعث الصوت معلناً: لئن كانت أهم مستحدثات «فلسفة المُثل» خلود النفس ودين صوفي عقلي الأسس قانونه الضمير وشريعته الخير ومبدؤه الحب، فإن أهم مستحدثات «فلسفة المنطق» في التفكير الديني:

الخلود العقلي ودين عقلي قانونه العقل وشريعته الحب!

فريدة تقف بين كل ما قد سبقها من فلسفات هذه الفلسفة التي اتخذت العقل مادة لتفكيرها الديني ومنه شيدت ديناً عقلياً شريعته الحب فنأت بذلك عن فِكَرٍ متوارثة وأبت في رفضٍ أن تشايع الدين الشائع على أسس منطقها الذي استرسل رصيناً ينادي: إن الدين الشائع لا يشايع الحقيقة!. الدين الشائع لا يشايع الحقيقة لأنه يستحيل على الألوهة أن تكون على نحو الصورة التي يقول بها الدين الرسمي للبلاد!. فإن للدين الرسمي القائم ألوهة يستنكفها المنطق ومن العقل تعقلات الفكر، فللألوهة في هذا الدين تجري في خلط صفة لاهوتية بعد صفة أخرى والقول بالواحدة والأخذ بها إنما للأخرى نفي ودحض وإلغاء!..

يقيناً لقد سجّل الفكر الإنساني خطوة فريدة بهذه الفلسفة التي لم تتجه فلسفة قبلها اتجاهها الداحض الإيمان الجماعي المستمد من العقيدة الرسمية للبلاد القائلة بأن الإله يحكم العالم من على عرش في السماء!.. وكيف يمكن إلاّ أن يُعمل «العقل» معول الهدم في صرح الدين الرسمي للبلاد ولإله الدين الرسمي القائم قد نفى وارتفعت منه المقلتان عابدة إلهاً نزّهه منه الفكر عن المكانية والجسدية والعنصرية والاستواء على عرش وعن كل ما قد ألحقه به الدين الرسمي من صفات!... نزّهه عن المكانية فنزّهه عن المحدودية ونزّهه عن الجسمانية فنزّهه عن المكالمة وعن الكلام وعن وحي من لدنه يهبط على إنسان!.. نزّهه عن

العنصرية فنزّهه عن عواطف للبشر وغرائز وللبشر صفات تنتشر في محاباة فردٍ على فردٍ وفي الغضب والرضا والندم والسخط والانتقام!..

لا غرو من ثم أن يهوي العقل الإنساني، وهو الذي قد توسّع فيما بعد الطبيعة توسعاً لم يسبقه إليه أحد ووضع للجدل معياره الذي سمي بعد ذلك بعلم المنطق وفَصَل بين الحدود وأقام القواعد الأولى على أساس صحيح، بمعول الهدم على الدين الرسمي للبلاد ولمعتقداته تمام الدحض يدحض وأمامه قد تلاشى إله دين الصورة الأولمبية له صورة فالعقل الذي قد خلص إلى الفلسفة هذا الخلوص حتى غدا الإله عنده هو العلة الأولى والمحرّك الأول والعشق والعلم والحب والكامل والمنزّه عن النقص والتركيب والتعدد والمستغني بوجوده عن كل موجود والسابق للعالم في وجوده سبق العلة لا سبق الزمان، لأن الزمان حركة العالم فهو لا يسبقه إلاّ كما تسبق المقدمة النتيجة في الفكر ولكنها لا تسبقها في الترتيب الزمني، إنما قط لا يرتضي منه التفكير كألوهة الدين الرسمي ألوهة وقط لا يرتضي لنفسه ديناً الدين الرسمي للبلاد!... لا يرتضي لنفسه ديناً إلاّ هذا الدين العقلي الذي جاءت به إليه تعقّلاته في هذا المغرب السياسي لأثينا والذي به قد تمّت تعقلات العقل الإغريقي منذ بدأ هذا التعقُّل في مشرق الفجر الفكري في أيونيا

حتى المدى امتد العقل الإنساني على هذه الجزر والأودية والضفاف والسفوح مذ تفتّح أمامه، في أيونيا، رحاب الأُفق عن رحب آفاق حملته حتى هذه الفلسفة النامية التي سجّلت تقدماً تطورياً اختلف التفكير الديني فيه عنه مذ بدأ في مشرق الفجر الفكري في أيونيا، فلقد نما العقل الإنساني وبنموه نمت منه النفس، ومن ثم تجلّى الإله تحت هذه الصورة التي تختلف عن صورة له كان في طفولته قد حاكها الفكر وفي الفكر كانت قد عقدتها فجاجة النفس!.. بيد أن لما كان ليس إلاّ للعقل نامياً يتجلّى الإله تحت هذه الصورة التجرّدية فإن عن هذه الفلسفة أشاحت الجماعات وإلى ما توارثته من عقيدة إلهية ماهيتها التجسّدية والعنصرية خلّدت فخلّدت إلى إله له من البشر الصورة ومن البشر الطباع!.. وبهذه الصورة البحت مادية ظلّ العقل الجماعي مستمسكاً يتمسّك يراها الصورة الصحيحة لصحيح الألوهة!...

ومن ثم عن هذه الفلسفة، التي جاءت تنظر إلى العالم نظرة عقلية محضة وتقيم تفكيراً دينياً على أسس نظرة عجمت الوجود عجماً فاحصاً فرأته كل البعد قد بعد عن نظرة الدين الرسمي، أشاح الدين الرسمي ومن ورائه جموع الجماعات والزمن بأيامه يطوف باللوقيون ويجيء بما جاء به من أحداث سياسية أتت بالجديد من الأوضاع التي بها تغيرت للإغريق

من الدنيا الدنيا برز هذا التغير بهزيمة اسبارطة لأثينا، ٤٠٤ ق.م، ومناولة الحكومة القائمة، بالأعضاء الثلاثين، سقراط رحيق الخلود، فمذ ذلك الحين كفّت أثينا عن أن يكون لها في التاريخ الإغريقي أهمية سياسية كالتي كانت لها من قبل، كأن برواح سقراط عن الدنيا كان معقوداً للمجد السياسي الإغريقي نهاية!...

أجل... لقد تلت هذه الفترة فترات لمعت في الأفق الأثيني أضواء السلام، ولكن هذه الأضواء كانت هبات الذبالة قبيل الانطفاء فقدتها فتت وراحت ذوباً في العاصفة المقبلة من الشمال بتلك الموجة الحاملة اسم مقدونيا والتي بما قد جاءت به هذه الموجة من أحداث سارت دنيا الأُحداث... فبواقعة كيرونيا، ٣٣٨ ق.م، هزمت أثينا... ومن ٣٣٥ ق.م إلى ٣٢٣ ق.م سجّلت يد الزمن أن الفترة من دنيا السياسة قد غيرت للإغريق وجه الدنيا، فالفترة إنما الفترة التي قد استغرق مشرقها صعود شمس الإسكندر وانتشارها على حضارات الدنيا القديمة شاملة الهضبة الإيرانية وأودية الفرات والنيل والأُندوس ومغيبها كان المغيب الذي انقسمت به امبراطوريته إلى ممالك... والفترة من هذه الاثنتي عشرة سنة التي لوح فيها السيف المقدوني وهوى، كانت نفس الاثنتي عشرة سنة التي انقضت والظل الأرسطي يذرع فناء اللوقيون مشياً ليهدأ ليلاً فتمشي يده على الورق تسجل تلك الكتب والرسائل التي إليها عبر الزمن أرسلتها تحمل إلى الأجيال أنفس تراث. ولكن!... الثورة الأثينية التي قد اندلعت برواح الاسكندر في راحة الزمن قد تحولت عاتية تقصف بمن بالاسكندر كانت قد وصلت الصلة، ومن ثم فشمولها أرسطو من لم تك لإدانته وسيلة إلاّ الإدانة الدينية... وتحت دفع القبضة السياسية امتدت القبضة الدينية قوية تشير إلى أرسطو قائلة: إن من رسائله رسالة «عن السموات» تقول: إن الشمس ليس برب، كلا ولا القمر... وإن السموات كاملة الاستدارة!... والقول إنما قول لمعتقد الدين الرسمي كل المخالفة مخالف، وفي هذا الدليل التام على الخروج على الدين وعلى الالحاد قاطع البرهان..

وامتدت القبضة السياسية، إثر هذا التصريح الديني، تريد أن تطوي «العقل» في قبضتها ولكن سرعان ما ارتدت خواء فأثينا كان قد ترك «العقل»!... فسجل تاريخ الفكر:

المغرب الفكري في أثينا:

عن أثينا، هاجراً أشاح «العقل» وعن «العقل» أشاحت، في تهاويها أثينا بل عن الأرسطية أشاحت متهاوية الدنيا الإغريقية و«بولس» بعد «بولس» تتهاوى وتهوى وتستحيل إلى ذكرى باهتة تطوف بإبهام على جبهة الزمان!... بيد أن بهوي المدن، بدأت في

البروز فالوضوح تلك الظاهرة التي تجيء بها هزات العاطفة وانهزام الأعصاب وفقدان الثقة بالخيرية البشرية..

أجل.. هذه هي الفترة الزمنية التي بدأت في التبلور فيها تلك الظاهرة التي تمثل القسم الرابع من الأقسام الخمسة التي ينقسم إليها تاريخ الدين عند الإغريق، بل وبرزت هذه الظاهرة في هذا الأفق الزمني كمقدمة سبّاقة للقسم الذي ينقسم إليه أيضاً تاريخ الدين عند الإغريق، سنرى، على أتمها، هذه الظاهرة التي ولدتها كما في ثنايا العصر الهيلليني الروماني هزات العاطفة وانهزام الأعصاب وفقدان الثقة بالخيرية البشرية. فقد صاحب الانهيار الأوليمبي للمدن وانحلال الروابط السياسية انتعاش ديني طابعه القديم والقدم وانحراف جارف نحو معتقدات القدامى لتتلاقى في اختلاط غريب وتختلط في مزج عجيب الفكر الدينية للديانة الإيجية بالديانة الأوليمبية بالتفكير الديني الفلسفي بالعقيدة الديونيزوسية فأبرز مظاهر هذه الظاهرة ظهور تلك «المذاهب الفدائية» التي راحت الجموع الجماعية لها تعتنق من جديد ومن جديد راحت أصوات الجماعات ترجع عقيدة الخطيئة العالمية وتدفعها هزات العاطفة إلى التنادي بالخلاص.. فسجل التاريخ:

دوي الأرجاء الإغريقية في غسق الغروب بالمذاهب الفدائية:

عمت عقيدة الخطيئة المتنادية بالخلاص أرجاء التفكير الديني، وبلهب الغروب تتوهج الآفاق، فدوّت آفاق الغروب تردّد في تهافت النداء... وبين دوي لا يتخافت أصداء إلاّ ليتجاوب دوياً ترجيعه عقيدة «الخطيئة العالمية» وفكرة «الخلاص» وبين خفق القلب الجماعي بحب صاحب «القلب المقدس» الرب ابن الإله وابن العذراء وبين تهامس الصوت الدلفي وتوهج أضواء شموع، في أفسس، تلفح بلهب الحب الطاهر قلوب الركع أمام محراب «السيدة العذراء» وبين أنغام الأناشيد المرتفعة، عبر عبير الأبخرة، صلوات إلى «الأب السماوي» و«العائلة المقدسة» وبين ترجيع لقصص كان الشعر اليوربيدسي قد حولها في دائرة التفكير الفلسفي، حوالي القرن الخامس ق.م، إلى أساطير بين هذه الأضواء وهذه الأناشيد وهذه التسابيح تدوي أرجاء العصر أن العقلية الإغريقية قد أصيبت بظاهرة وهن!.. فمن جديد عاد المجتمع الإغريقي، في انصراف عن فِكَر الفكر الإنساني، إلى قديم عقائده، ومن جديد عاد العقل الجماعي بمعتقداته الدينية القديم يتثبت!.. لا يرتضي القلب منه عن هذه المعتقدات الواهية بديلاً!.. وعلى هذا المنوال بدأت تسير من حول العقل الجماعي الأيام وتتحول إلى أجيال والعين منه عالقة بالسماء!.. مؤمناً بالسماء مكاناً وملكوتاً لإله فيها مستوٍ على عرش! لا يرتضي منه الإيمان إلاّ عقيدة الملك المستوي على العرش المؤلف السحب

المزلزل الجبال، المتصدعة من خشيته الشواهق والقاذف بالصواعق على من يشاء بين دوي هذا العصر العالق الأهداب بالسماء يعتقدها مكاناً صلباً وفيها الإله مستوٍ على عرش ومن حوله تحف «العائلة المقدسة» وبين ارتياح الراحة على الراحة أمام محراب «السيدة العذراء» وبين رشف قطرات من النبيذ في المجامع الدينية تمثل الروح من الرب ابن الإله وابن العذراء، وبين انسدال الجفن على الجفن وانفراج الشفاه عن همهمات تنساب تسبيحاً باسم المخلص المانح البشر الخلود تمتد تيارات المذاهب الفدائية بألوانها الشرقية وتتحدر بنغم واحد يدوي صداه، بين تهافت أضواء العصر وخفق غسق الغروب، هادراً بنشيد الغفران والخلاص والخلود!.

الفصل الثاني:

الدين في العصر الهلليني الروماني

العصر الذي جرت أحداثه السياسية فقسّمته إلى أطوار عهود ثلاثة استوعبت من الزمن قروناً مشرقها القرن الرابع ق.م. ومغربها السابع ب.م. رواية! رواية أهميتها منحصرة في أن الأطوار الثلاثة التي إليها ينقسم العصر تمثل المرحلة الزمنية التي سجل مشرقها الفترة المهيئة لانبثاق المسيحية كمذهب جرى في مزدحم المجرى الديني للعصر الخصب بالتيارات الدينية المتعارضة والمذاهب الفدائية الغامرة، وسجل مغربها تحول هذا المذهب في معترك الخصم السياسي إلى دين رسمي حلّ محل المذاهب الفدائية القديمة واحتل ـ حتى اليوم ـ مكانة قديم الأديان فما زال الزمن لسجل هذا الدين ناشراً كدين يقف بين الأديان العالمية، اليوم، عالياً.

من ثم إلى أهمية هذا العصر ينبهنا للفكر الإنساني تاريخ لأن العصر، إنما الحلقة الواصلة بين ما قد سبقه من عصور حتى عصرنا.. فالعصر إنما الحلقة الجامعة بين المعتقدات والفِكَر المصرية والبابلية والهندية والصينية والفارسية والإغريقية وبين ما به يصطبغ عصرنا من عقائد وفكر، فنحن إذا لجحنا لجّة هذا العصر فليس إلاّ لينتشر بأديانه ومذاهبه ومعقد عقائده ومعتقداته، وليس إلاّ لينتشر بفلسفاته وفكره ونظرياته وحر آرائه، وليس إلاّ لينتشر عصراً يمثل نفسه عصارة عصور تنصب عصارتها في حاضر عصرنا بهذا الدين الحامل اسم المسيحية والذي ولد في أحضانه كمذهب، وكمذهب فدائي بين مذاهبه الفدائية جرى وفي أحضانه نما إلى دين ولأديانه ولمذاهبه اجترف طاوياً ما قد عرف العصر من دين إلى جانب دين ومن مذهب إلى جانب مذهب، ومن ثم فحتماً تطواف الفكر منا بأطوار هذا العصر، الممثل البيئة التي جاءت فيها المسيحية وفيها حتى السيادة نمت، التطواف الذي يأخذنا أولاً إلى المرور على:

التفكير الديني في الطور الأول للعصر

التفكير الديني في هذا الطور، منذ مشرقه في القرن الرابع ق.م، حتى مغربه في النصف الثاني من القرن الأول ق.م، قصة على شفاه الزمن يرَوْيها تبدأ أنفاس التاريخ راوية:

إن بتهاوي المدن الإغريقية وانهيار دنيا تلك الدنيا بين يدي الإسكندر تحطم الحاجز بين الشرق والغرب فانحسرت أرجاء العالم القديم عن عالم جديد تجاوبت في آفاقه شتى الآراء والفِكَر ولكن لتتلاقى في تنافر بل في اصطدام متباين العقائد ومتنافر الأديان.

عن الشتّى من المذاهب المتشابهة وعن ألوان من الأديان المتباينة تمام التباين ينتشر نطاق الإمبراطورية المقدونية الواسعة النطاق المظلة شمال شرقي إفريقيا وآسيا الوسطى طاوية النيل والرافدين والهضبة الإيرانية والبنجاب، ففي كل رقعة من هذه الرقاع دين بمذاهبه وقصصه ومعتقداته إن لم يك عن الآخر جد مختلف فإنما عن الآخر قد علق به من الإيمان، إيمان أنه دون سواه الدين الحق!...

كل هذه الرقاع، فللإسكندر رقعة عليها الظل السياسي منه يمتد ناشراً لعالم ذلك العالم عالماً واحداً ومن ثم إصغاء المسمع البشري في كل هذه الرقاع إلى هدير فكر دينية تجيء إليه تحت أسماء:

الأوزيرية: إن هذا المذهب الذي تفجّرت عنه تربة النيل لم يعد مقصوراً على ضفاف النيل منه الهدير وإنما يمتد في هذا الطور منه التيار ليجري حتى الدانوب وحتى الراين والرون والتيمز والتيبر وحتى قزوين والبحر الأسود بهدير رنينه إلى القلب البشري حبيب، فهو يرجع في الوعي الزمني من جديد ذكرى ملتهبة تفجر في أعماق الحنايا دفاقاً ينبوع الحنين الدفيق، فالمذهب إنما مذهب محوره سيد شهيد من الموتى بعث وفي اليوم الثالث جسداً قام، وإلى أبيه السماوي صعد إلى السماء... مانحاً، بخلوده، كل من به يؤمن وعلى شريعته يسير، منحة الخلود!.

والإيزيية: وهذا مذهب أيضاً من النيل، بامتداد الأوزيرية، امتد غامراً البقاع التي غمرتها الأوزيرية ولامتداده أيضاً رنين يكرر في وعي العصر ذكرى وجد الوجدان البشري بتلك الصورة التي حف بها منذ القديم الطهر من كل جانب، فالمحور من هذا المذهب إنما؛ فكرة طهر جسّدها الخيال وصيرها للسماء سيدة وأبى، تحت ضغط في فيض الشعور، إلاّ أن يجعلها أمّاً لروح قدس به حملت من روح قدسي بطريقة إعجازية!.... واتباعها، ونفسه إنما اتباع لأوزير، يعد صريح الوعد بمنحة الخلود!...

والمردوقية وهذا دين من الرافدين حتى وادي اليرموك والأورنتس وضفاف الأردن

وسفوح سيناء قد امتد يهز أيضاً المشاعر البشرية ويلهب فيها لظية ذكرى محورها؛ رب بعث، نفسه ابن الإله، ومن الموتى جسداً أيضاً، قد قام!.

والديونيزوسية وهذا المذهب تكون إلى دين، أيضاً، يجري على تربة الزمن في هذا التطور مجترفاً أجزاءً مهمة من آسيا الصغرى في انتشار على شواطىء البحر الأبيض وحيثما جرى وحيثما انتشر فليس إلاّ ليزيد نبضات القلب خفقاً لذكرى؛ رب بعث ومن الموتى، أيضاً، جسداً قام، وإلى الحياة من جديد عاد نفسه «المخلص» صاحب «القلب المقدس» ونفسه ابن الإله الأب، وابن سميل المصطفاة من البشر، «السيدة العذراء» الأم، ونفسه، «الطفل الإلهي» الذي، بقتله، حمل البشر إثم خطيئة عالمية لا يلقيها عن كاهلهم إلاّ اتباعه التوبة والغفران والخلاص ووعد بسعيد الخلود الذي إليه تُمهِّد صور من الشعائر الدينية تتلخص في «العماد» وفي مناولة الكاهن للتابع قطرات من النبيذ تمثل الروح من ابن العذراء!... جرعات يناولها الكاهن للتائب والداخل في هذا الدين فيسري فيه من روح ابن الإله روح تأبى عليه إلاّ الخلود!...

والبوذية: والبوذية التي تتحرك الآن نحو السمت «كمذهب أكبر» إنما تُقبل في هذا الطور ومن الهند لتخضب آفاق اليهودية والهلال الخصيب وتنفث في أرجاء هذه الآفاق يقظة الالتفات إلى عقيدة التجسّد الإلهي على الأرض، فالمحور من المهايانا أو هذا المذهب الأكبر في البوذية إنما؛ إله تجسّد على الأرض فصار بشراً! فكوليد من عذارء، تجسد الإله على الأرض بشراً لخلاص الإنسان من العذاب!

كل هذه المذاهب والأديان فمذاهب وأديان فدائية تكوّن خضماً هائلاً من المعتقدات والفكر وعلى رقعة الإسكندر، الضامة رقاع عالمي الشرق والغرب القديم، تجري في تزاحم منها التيارات وتتلاقى في تنافر وتصادم عجيب لتكوّن دوامة فكرية كان حتماً أن يتأثر بها التفكير السياسي ولها يعمل حساباً دقيقاً، ففي لجة هذه الدوامة وجد الإسكندر نفسه فيها قد ألقاه حكمه السياسي إلقاءً بسببه يرضخ إلى الحكم الديني للأمم التي يحكمها رضوخاً بسببه حفر في الذهن البشري اسم الإسكندر مخضباً بخضاب أسطوري!...

أجل... ليس كالدين للتملك وسيلة ومن ثم سعى الفاتح السياسي بنفسه لاجتذاب نفسه إلى ما على رقعته منتشر من أمم اختلفت لدى كل منها، في دينها، عن العقيدة العقيدة، وعن المعتقد المعتقد.. فمن مصر، وفي مصر عقيدة متوارثة مكنها اللاهوت فرسخت في العقلية الدينية والجماعية لها مكانة بها غدت للتغير لا تخضع بتغير شخصية بعد شخصية، ينساب الإعلان؛ إن الإسكندر إنما أيضاً «ابن الإله»... وأن الإله، بنفسه، قد اعترف لرجاله

هذا الاعتراف الذي تسجله النصوص بأن الإله للإسكندر، عند زيارته «بيته»، قد حياه قائلاً: «لأعطينك ملك رع وملك حور ولأعطينك قوة وأمنحك البلاد، **تعال يا ابني الحبيب**».

من مصر انساب هذا الإعلان حيث رجّعته فيها قبولاً شفاه عن شفاه وحيث، تحت غمرة من الإيمان الجديدة، راحت الشفاه الإغريقية تضيف إلى تلك القصص التي نسميها اليوم أساطير خرافية لخرافة كبرى قصة جديدة تقول؛ إلى نسبة الإسكندر إلى فيليب الثاني غير صحيحة، فإنما بمعجزة كانت ولادته من مصطفاة أخرى عن الإله بين نساء العالمين. إن الإله قد اصطفى «أوليمبيا»، والإسكندر إنما ثمرة ذلك الاصطفاء!

للإعلان المنساب من مصر جاوبت بالإيجاب للإغريق أرجاء آفاقها تتجاوب بالمعتقدات الراسخة بين الجوانب الجماعية للدين الأوليمبي، ففي هذه الجوانب كان راسخاً المعتقد القائل بالاصطفاء الإلهي للبشريات وبالإنسال الإلهي من البشريات!

وللإعلان المنساب من النيل جاوبت أيضاً على الهضبة الإيرانية أرجاء جعلت الإسكندر حيث هناك الحق الإلهي حق للحاكم مستن ومسنون، ظلاً للإله على الأرض!

للإله طلع الفاتح في مصر ابناً وفي إيران للإله ظلاً ليطلع على الفرات وعلى المفرق منه ذلك التاج الذي أزاحت يد الزمن عنه بين الرافدين سجف الأجيال ورأيناه مصوراً في آثارها على مفرق الأرباب، فعرفناه تاجاً خاصاً بكل رب ابن إله، فهو التاج الذي حمله «شار جاني شار علي» أو سرجون الأول رأس عقاد، ويحمله الإسكندر في هذا الطور الذي ليس إلاّ بسبب شكل هذا التاج القدسي قد عرف الإسكندر «بذي القرنين» وليظل هذا اللقب بالإسكندر عالقاً ويد الزمن على ضفاف الفرات في راحتها تطويه ليغيب عن الدنيا بين همس باسمه يحف في رقعة من معتقداتها إمكان الصعود جسداً إلى السماء. إن محاولة قد جرت للإلقاء به في الفرات حتى يستطيع الجيل أن يؤمن ويودع في صدر الأجيال الإيمان بأن الإسكندر، ابن الإله، قد صعد جسداً إلى السماء!

مثلاً واقعياً لمذاهب العصر وأديانه جاء الإسكندر ليمثل المحاولة الأولى لربط هذه الرقاع برابط وحدة سياسية دينية تضمها منه الشخصية.

أجل... برابط وحدة سياسية يكون لها الدين الواحد مظهراً، امتدت يد الزمن تحاول الربط بين شاسع رقاع الإسكندر في غضون السنوات العشر التي استغرقت إظلال الظل المقدوني لآسيا الوسطى وشمال شرقي إفريقيا، لتشتد هذه المحاولة على الأيام ظهوراً والأيام تطوي صفحة الإمبراطورية المقدونية وتنشر صفحات سيادات ثلاث لنشرهن اكفهرت للسياسة آفاق وقفت فيها المحن المحِن وفي أرجائها سحب الأسى سحائب سحبه حتى تبدى

العالم كأنه النهاية ليقذف إلى الأرجاء الوجدانية بسؤال؛ أية خطيئة أتاها العالم حتى يستحق كل هذا العذاب؟!

سؤال، ما دوّى خفقاً في الأرجاء الوجدانية إلاّ ليجاوبه إلى الخلاص مطلباً أخذ يتدافع في هذه الأرجاء منه الدوي والأيام تسير وتتجمع إلى قرون تتعاقب على الأقسام الثلاثة التي إليها انقسمت الإمبراطورية المقدونية، فإن في أجزاء هذه الإمبراطورية التي انقسمت إلى ممالك كانت قد عمّت، بهذا الانقسام، الفوضى واضطربت باضطراب الأحوال السياسية للمجتمع أحوال اضطراباً عقد في النفس البشرية ذلك الخوف الذي رماها به انهيار المدن الإغريقية.. خوف لا من الماضي ولا من المستقبل فحسب وإنما من الحاضر! الحاضر الحالك الذي يدفعها، تحت ضغط من الشعور الحائر، إلى الاتجاه إلى مغاور الانطواء على النفس وإلى الالتجاء إلى كهوف ذاتية يشقها منها القلق ويخلدها إليها منها الاضطراب تتلمس فيها العقيدة الصحيحة التي تستطيع أن ترد إليها مسلوب الطمأنينة ومن ثم اتسام النفس البشرية في هذا الطور بالتردد بين مذهب ومذهب وعقيدة وعقيدة، فمسلوبة الطمأنينة قد وقفت موزعة العاطفة بين دين ودين يتنازعها من دين دين وينزعها من دين دين! حائرة بين كل هذه الأديان والمذاهب الفدائية وقفت يزيدها على حيرة حيرة أن كل هذه الأديان والمذاهب المنتشرة، رغم تباين الواحد عن الآخر تمام التباين، إنما تلتقي عند فكرة واحدة تقول بالتوبة والخلاص والخلود، ففي كل دين على حدة تجد ما لها يستهوي ويجتذب من وعد يعد الغفران والخلاص والخلود!

فترة من الزمن بالنفس البشرية مرت، كان أبرز ظواهرها الاضطراب الوجداني والتشتت النفسي والحيرة العقلية بين مذهب ومذهب ودين ودين... ومن ثم فوقوف العقل الإنساني في أحضانها ينظر إلى هذه الظواهر متهكماً، فسجلت نظرته تلك النظرة التي مررنا بها لماحاً في أعقاب السقراطية والتي تطالعنا في هذا الطور لتسجل في سجل «الفلسفات»:

«التفكير الديني في الفلسفة التهكمية»

التهكُّم حالة نفِسية تحلّ بالتفكير البشري عندما تصيب النفس هزة وتوحش أرجاء القلب بفراغ يتركه غياب حبيب.. حالة هي تصيب النفس عند غروب كل أمل بعد إشراق له وهاج!.. حالة، يجترف النفس فيها عن هذا العالم يأس جارف يشعر به المرء أنه، وإن كان يعلم ماذا إليه العالم في احتياج وماذا إليه الإنسان في حاجة، قد فقد بالنسبة إلى العالم وبالنسبة إلى الإنسان كل أمل!... ولكن لهذه الحالة التي تجترفه من العالم إنما بقدر ما تباعد بينه وبين عالم آخر فيه يرى أنه لا يفتقد ما قد فقدنا هنا من

سعادة.. هذه الحالة التي أتت «بالتهكمية» وهذا هو العالم الذي أتى بالتهكمية كفلسفة سجلها التفكير البشري في غضون القرن الثالث ق.م، متمثلاً بأنتيثينس.. إن أنتيثينس، الذي قد شاهد نهاية سقراط، أستاذه، وشاهد انهيار المدن الإغريقية، إنما بموت سقراط قد ماتت لديه الدنيا وبانهيار المدن الإغريقية قد انهارت له آمال.. وعى منه الوعي مآل البشر وتكشفت لديه بسرائها الدنيا فزهد فيها وعافها وخلع عنه في ازدراء ما عليه كانت قد خلعت من مادتها من ثري رداء ونادى بالانطلاق إلى أحضان الطبيعة والإشاحة عن المال وإقامة شريعة الإخاء وهجر كل هذه المذاهب وعن الدين الرسمي إلى دين شخصي لا ينبجس إلاّ من منبع الذات، مرجعاً نفس التعاليم الكسينوفانية بأن الإله الحق ليس له صورة ولا يمكن أن تراه العين البشرية، وبذلك أتى بدين لا تطالعنا منه المبادىء والأصول جلية ولا تتمثل وتتخذ فلسفتها العملية واضحة إلاّ بثيوجينس، من على شهرة أستاذه قد غلبت شهرته هو وأصبح اسمه على «التهكمية» علماً غداة عن التقاليد ومعروف العادات أشاح مشيحاً عن الدين القائم وما يتبع الدين القائم من طقوس وتكاليف.. وزاهداً، عاش يرى أن إلى الطبيعة يجب الانطلاق حيث ليس إلاّ في فسحتها يتبين للإنسان أن الدين الحق ينحصر في الإخاء والمساواة واللاملكية وحرية العقيدة وأن الشريعة الصحيحة، شريعة هذا الدين، إنما، **الفضيلة!**

الفضيلة! الفضيلة إنما الأساس الذي يقوم عليه، في ثبات، صرح الحرية الفكرية والقيم الأخلاقية وكامل الانطلاق من قيد الشهوات والتحرر كامل التحرر من الخوف، فإن الانطلاق إلى الطبيعة إنما معناه، **الفضيلة.**

وإلى عالمه اتجه من هذه الفلسفة الصوت متهكماً على فكرة القرابين ساخراً من أمر الضحايا منادياً باحترام كل مظهر من مظاهر الحياة شاملاً برحمته كل كائن حي له يعلم.

إن العالم إنما إخوة.. إخاء لا يقتصر فحسب على البشرية وإنما يمتد فيشمل كل كائن تحت أية صورة من الصور كانت منه الكينونة!

كنور شقّ سجف الظلمة وأنار، للمحة، الآفاق أشرقت هذه الفلسفة، التي عاصر مؤسسها سقراط وعاصر ناشرها أرسطو، على أرجاء العصر الهلليني الروماني كمذهب ديني يعلم الزهد وإلى القلب الإنساني يشق تياره بين المذاهب طريقه محرراً الإنسان من قيد الانطواء على النفس ولا يكف عنه فحسب موجة الاعتقاد بأن العالم شر وإنما يحمله عبر هذه الموجة إلى رحاب الاعتماد على النفس والثقة بالنفس بتعاليم انطلقت تنادي:

يا أيها الإنسان!... إن عليك أن تتعلم كيف تكون عن العالم مستقلاً.. ولن تكون عن

العالم مستقلاً إلاّ **بالفضيلة**!.. فليس هناك من خير إيجابي إلاّ في الفضيلة، فالفضيلة تعلم الرضا والقناعة والترك!.. اترك الدنيا، فتركها إنما للشر ترك!...

بالتهكمية ألقى العقل الإنساني في تربة القرن الثالث ق.م، وخاصة في الإسكندرية بذور الرضا والقناعة والترك ولهذه البذور نما مسير الأيام، فمسير الأيام قد سار إلى كل مكان بتلك المواعظ التي نشرها العقل في خطوته التهكمية غداة سطرها معلّماً الإنسان؛ **اللامبالاة!**

يا أيها الإنسان!...

لم بالك تلقي إلى يومك وغدك ولم لبالك تبلبل أمور المعاش؟

انظر! كل شيء فيما حولك ينخر فيه سوس الخراب!.. إذاً! ألق عن بالك «هنا».... وألق ببالك إلى «هناك»... هناك، لا يصدأ عمل ولا في شيء ينخر سوس الخراب!... هناك الحياة!... ومن ثم فاترك «المال» واتبعني!

أرِح فكرك من عناء التفكير فيما حدث بالأمس وفيما يأتي به اليوم وفيما قد أتى به الغد، فأحداث الأمس قد مضت وأحداث اليوم ستمضي، تماماً كما مضت أحداث الأمس وأحداث الغد ستمضي، تماماً كما ستمضي أحداث اليوم... كل سارب سرْب السراب!...

إلى «اللامبالاة» بما قد تجيء به أحداث اليوم والغد ألقى العقل الإنساني، في رحاب فلسفته الراهنة، عن باله البلبال غضون هذه الفترة المتغضنة في جبين الزمان التي اقتمت باضطراب الأحوال السياسية منها الآفاق حتى لاح أن «الشر» قد نفث في الوجود لافح أنفاسه دافعاً نبضات القلب البشري إلى التدافع وجلاً، بسببه، بدأ الفكر البشري ينصرف عن التفكير في الطبيعة وما بعد الطبيعة إلى التفكير في مطلب النجاة من هذا «الشقاء» همُّه، في عالم طبيعته الألم، تلمس أطياف الاطمئنان!

لا ثمة شك في أن في عالم طابعه الشقاء وطبيعته الألم كان حتماً أن يتحول العقل الإنساني إلى السلوك الشخصي والعمل وأن يهب فيبني مسلكاً سلوكياً يستطيع أن يضمن به لنفسه طمأنينة إيجابية... طمأنينة، لا بدّ كان أن يختلف منها في كل فلسفة الطابع تبعاً لاختلاف نظرته في كل فلسفة عن الأخرى وليمثل هذا الاختلاف الجوهري في هذا الطور فلسفتان.. ففي هذه الفترة، وجبهة الزمن معقده وثغره عن البشاشة فاتر، سجل العقلُ الإنساني من الفلسفات فلسفتين جاءتا تمثلان تمام التمثيل حالة العصر الفكرية والنفسية فجاءتا تمثلان جزراً ومداً على الشاطىء الفكري لفلسفات غاربة... جاءت إحداهما تسجل

حالة الاضطراب الفكري الذي يصيب العقل في حالة انهزام الأعصاب وفقدان الثقة بالخيرية البشرية فمثلت جزراً يطالعنا عبر:

التفكير الديني الآبيقوري

بـ «أبيقور»، (٣٧٠ ـ ٢٤١ ق.م)، جاء العقل الإنساني يمثل لحظة من لحظات الألم التفكيري، فمثل نزعة من نزعات الإلحاد الملازمة دور المدنية في كل حضارة يصاحب بها العقل اليقين بأن العالم طابعه الشقاء وطبيعته الألم، ولكن لا ليرسل القول على علاّته وهناً وإنما ليتخذ لرأيه أسساً الطبيعة ذاتها، هذا الأساس الذي يقوم عليه صرح كل تفكير ديني فإلى الطبيعة الخارجية اتجه يستعرض ما قاله عنها الفلاسفة القدامى ومن ثم فتطوافه بألوان من الوجود ذلك التطواف الذي، بسببه، اجتذبته إليها الديموقرايطسية ففيها قد وجد لحالته تجاوباً ولآرائه مرجعاً ولأفكاره تأييداً... ومن ثم فالتصاقه بهذه الفلسفة، التي جاءت في فترة زمنية كانت قد اقتمت فيها أيضاً الآفاق وترجيعه لها أصداء في هذه الفترة التي اقتمت فيها أيضاً الآفاق ولكن ليشيّد من مادتها تفكيراً جديداً يتخذه أساساً لتفكيره الديني، فهو في تأييد للنظرية الديموقرايطسية القائلة «بالجوهر الفرد» يسير منطقه قائلاً:

يقيناً إن الوجود ذري التكوين ولبنته «الجواهر الفردة»... إلاّ أن عن «الجواهر» قد نفى «ديموقريطس» الثقل ولحركتها علة لم يعين غير أن قال إن هذه الحركة تتم على خط مستقيم ولكن!.. لا بد من أن يكون الثقل للجواهر **خاصية** وأن يكون هذا الثقل علة الحركة التي لا بد أن تتم من أعلى إلى أدنى وأن يكون بهذا السقوط تنحرف «الجواهر» من تلقاء **نفسها** فتتلاقى، فليس إلاّ بهذا التلاقي **الذاتي** تتألف الأشياء ويتكون هذا الكون!...

تماماً كما قد ضاق الوجود الديموقرايطسي من قبل، ضاق الوجود الأبيقوري عن عقل فيه أو وراءه له منظماً!....

الجزر المادي على الشاطىء الفكري لفلسفات القدامى تمثل هذه الفلسفة لتقف في الموضع الوسط بين المدرسة الرواقية ومدرسة أثينا الكبرى وعلى الأخص الأرسطية... فالقول «بالجوهر الفرد» إنما معناه القول بالجزء اللامتجزىء من «المادة»، كما أن القول بانحراف «الجواهر» من تلقاء نفسها وتشكلها من تلقاء ذاتها إلى أشياء إنما قول لا يضفي على الوجود صفة الكثرة فحسب وإنما يترك وجوده لفعل **المصادفة المحضة!**

أي البراهين تقدمه الأبيقورية على أن الوجود قد أتت به الصدفة المحضة وأنه خلي من عقل فيه له منظم أو وراءه له قد نظم؟!...

البرهان؟.. البرهان إنما؛ **نحن**

إن الإرادة فينا ليست إلاّ انحراف الجواهر في الإنسان، فإن ما هو في عالم الطبيعة الخارجية جارٍ ففي العالم الداخلي أو الطبيعة البشرية جارٍ!

ومن هنا تتحول الأبيقورية بالإنسان إلى الناحية الأخلاقية وإلى السلوك الشخصي والعمل محاولة أن تقوده إلى ما ينشد من طمأنينة فتتخذ لمذهبها الأخلاقي، والحرية الأخلاقية ضرورية، والطبيعة الخارجية أساساً للطبيعة البشرية ومن ثم طلوعها على عالمها ناهية عن الإفراط وعن التفريط معلمةِ؛ **الاعتدال**.

إن الاعتدال خير وسيلة تكفل للمرء حياة مطمئنة هادئة مقصورة هي على هذا النطاق من الوجود فليس هناك «فيما بعد» ولا هناك بعد هذه الحياة حياة!... فليس بالوجود قد أتت إلاّ محض مصادفة! المصادفة المحضة به قد صدفت وليس إلاّ الصدف فيه إنما ما نعرفه «بالقانون»!...

أوشك في أن الصدفة المحضة هي التي قد أوجدت الوجود وأن الصدف فيه إنما هي ما نعرفه «بالقانون»؟! البرهان؟... البرهان إنما؛ الشر المسفر في كل ناحية من أنحاء الوجود.. بمنطقه اقتنع أبيقور!. وتجاه «الشر المسفر» في وجود الصدفة المحضة به قد صدفت والصدف فيه هي ما نعرفه بالقانون انحنى، والقلم في يده يجري يسطر «عن القدسية» سابراً للدين الرسمي للبلاد مشكلات تجمعت لديه في:

«مشكلة العناية وعقيدة العدالة»

ما زال حفيف أوراق «عن القدسية» يرجع الصوت الأبيقوري نداءً يتساءل:

«وأين العناية»؟!...

أين «العناية» في عالم الشرُّ فيه قد استشرى، وهذه مشاهداته تشهد أن الشر قوي وغلاّب، وأن مصير الخير أسوأ مآلاً من مصير الأشرار؟... أين «العناية» والحياة إنما، في حقيقتها، معاناة العناء؟!

كان حتماً أن يجيء من العقلُ الإنساني في راهن فلسفته هذا الجواب وفي عالمه الداخلي قد تلفت أبيقور فوجد نفسه يعيش بجسم سقيم قد أسقم النفس منه له سقم!.. وكان حتماً أن يقتنع منه المنطق بهذا وفي عالمه الخارجي يتلفت منه التفكير فلا يجد إلاّ عصراً طبيعته الاقتتام وريح أحداثه ترجع ما بين الجوانب من أنين... فأين «العناية» وأين «العدالة»؟!...

أين «العدالة» والحياة إنما أحداث وأحداث الحياة إنما نوازل تقفو نوازل وبلاءٍ تتدافع بها

بليات، وخليّ الوفاض يقف الإنسان مقيداً بسلسلة حلقاتها آلام... حقيقة تعلن؛ أن العناية وهم من الأوهام؟!...

يقيناً إن «العدالة» من وضع العقل البشري وليست قط بنظام طبيعي فليس للطبيعة نظام!....

أي البراهين تقدمه الأبيقورية على أن العالم من عناية خلاء ومن عدالة خواء؟..

البرهان؟... العالم بأحداثه يقدم البرهان على انتفاء «العناية» وبطلان «العدالة» ومن ثم فلا ألوهة هناك!.... لا ألوهة هناك، فلو كانت هناك ألوهة لكانت بالعالم تعنى!.. ولو كان هناك إله لعني بأمر هذا العالم ولكان أكثر اكتراثاً، فإن أحداث العالم تعلن أن الوجود إنما يطبعه اللااكتراث!..

عن إله، قط لا تتنفس أرجاء الكون، فالكون خلاء إلا من مادة وحركة وهذه هي أحداث العصر تحدث أن القانون الطبيعي إنما «المنفعة»، ومن ثم فإن «العناية» إنما كلمة جوفاء ومثلها «العدالة»!. كلمة، قط ليس لها في عالم الحقيقة مكان، وإلاّ فأين هذه العدالة وأين هذه العناية وأين هذا الإله في عالم الأمور فيه تجري عفو السجية بغير تقدير ولا حاجة إلى تقدير والإنسان فيه يقف حيواناً أعزل؟!..

وهم محض «الألوهة»!.. ووهم محض «العناية»!.. ووهم محض «العدالة»!...

إلى محض وهم ردّت الأبيقورية الألوهة والعناية والعدالة ولكن... هذه النظرة الإلحادية ترى رأياً جدّي الاختلاف عن سواها من المذاهب الإلحادية فهي، وهي فلسفة يقوم مذهبها الأخلاقي على الاعتدال، تقول:

إن الإنسان في حاجة إلى تجسيم آماله وتصوير أمانيه في صورة مثالية عُليا، وهذه الصورة المثالية العليا حريّ بنا أن نسميها الإله.. ولكن لماذا؟... لماذا تتجه محاولات، بقدر ما تُحاول إثبات وجود إله، تحاول أن تنفي وجود أرباب، وما الأرباب إلاّ كالإله!.. مجسّم آمال ومصور معانٍ؟!.

أوَ هناك أدل على أن الألوهية والربوبية مجسم آمال وتصوير أمانٍ من تصوير الدين الرسمي لها بصور بشرية؟... وليس ذلك إلاّ لأن الإنسان لا يستطيع أن يتصور الألوهية والربوبية، وهي من وحي أمانيه وآماله، إلاّ على هذا النحو الإنساني!

من ثم فالإله كالأرباب والأرباب كالإله، **آمال مجسّمة وأمانٍ مصورة** فلا حقيقة لوجود إله ولا لوجود أرباب ولكن! لكي يكون في العالم جمال علينا أن ننظر إلى الإله وإلى الأرباب باعتبارهم موجودين وكأنهم هم، بالفعل هذه الصورة للفضيلة وللجمال وكأنهم،

في الواقع، يقيمون فوق الكون في نعم وفرح صافٍ وأنهم من مادة لطيفة كالأثير.. وإن كان كل منهم في الحقيقة ليس له وجود!

ولكن ليس للوجدان البشري أن يضطرب خوفاً وأمامه قد خلا الوجود من إله ومن ملجأ إليه يفزع!... فليس في الحقيقة للخوف من سبب، لأن هناك من شر الشر ملجأ.. كلا. ليس الدين الرسمي الملجأ بل إن هذا الدين نفسه إنما لعقدة الخوف سبب فإنه بتصويره «الموت» وتحدثه عن حياة الموتى وما ينتظر الإنسان من محن، يبعد عن القلب البشري صحيح الاطمئنان!... إن الإنسان لو علم الحقيقة فعلم أن ليست هناك «قوى» حتى في شؤونه تتدخل، لحلّت للخوف عقدة في طواياه معقودة.. ومن ثم يجب تخليص الإنسان من هذه الخرافة بمحو الدين الرسمي!

ليعلم الإنسان أن «الموت» إنما انعدام الحس والشعور وأن ليس بعد هذه الحياة هناك حياة... وليثق بهذا القول فإن لهذه الحقيقة تعلم الطبيعيات... ليعلم الإنسان أن هذه العقيدة، عقيدة «الخلود الجسدي»، ليست إلاّ وهماً دينياً سيطر على المخيلة البشرية في طفولتها وما زال يولد فيها راهن الإيمان بالخلود... ليعلم أن كالخلود الجسدي إنما «الخلود النفسي»... فالخلود، بصورتيه، إنما وهم من الأوهام!

ليصرف الإنسان عن ذهنه وهم حياة «هناك» فيصرف عن التفكير منه وهم جحيم وفكرة قصاص.. وأي المخاوف للإنسان يخشى وليس له من حياة إلاّ الحياة الدنيا؟! ثم.. أي الدواعي تدعو إلى الصلاة وتقديم التقدمات والتقرّب بالقرابين، وإلى من؟!.. إلى من ولمن؟!.. وليس هناك في الحقيقة كينونة قدسية أو ذات إلهية إليها الإنسان يصلي ولها التقدمات يقدم وإليها القرابين يرفع!

لحل «عقدة الخوف» تناولت الأبيقورية نفس ما وجدت نفسها فيه وليدة من دين، دين في أحضانه تفتحت عينا أبيقور، طفلاً، على طوائف المقرئين فوعى منه الوعي، يافعاً، لهذه الطوائف ضرر إلقائها بهذه القراءات، التي لا تتناول شيئاً أكثر من ذكر الموت، الرعب في القلوب وليرى، ناضجاً، أن الدين الرسمي لا يمنح القلب البشري ما فيه من طمأنينة يرغب فاتخذ لهدمه أداة عقيدة الخلود ولكن.. ليأخذ بيد الإنسان إلى طريق يعدل من نشأته ويعطيه وسيلة تصرفه عن مخاوفه، فهو يطرق به طريق السعادة ويجعل لهذا الطريق شرطاً؛ البعد عن الإفراط والتفريط فالحرية الأخلاقية التي تراها الأبيقورية لمذهبها الأخلاقي أساساً تتخذها هنا أصولاً لتفكيرها الديني وتنحصر في فلسفتها القائلة:

إن الحياة إنما حياة على الدنيا مقصورة، ومقصورة على عالم ليست العدالة له سمة بيد

أن عالم الخوف والموت إنما فقد الإحساس بالألم؟! وإذا خاف منا أحد فليس عليه إلاّ تجنّب الخوف بالصبر!..

ليعش الإنسان هادئاً منحصر الاهتمام في طلب النجاة من الألم همه سعادة العيش والمطلب إنما مطلب لن يبلغه المرء إلاّ عن طريق الاتزان في العمل والاعتدال في السلوك وإلى هذا الطريق تهدي البداهة... كلا لا منطق ولا رياضة وإنما البديهة، وحدها، إلى هذا الطريق تؤدي! فبديهي أن الاتزان إنما للنجاة سبب وأن الاعتدال إنما للألم درء وأن التفريط والإفراط كلاهما للألم جلاّب.. وهكذا، عن طريق «الاعتدال» يعيش الإنسان سعيداً في عالم شقاء مطمئناً في عالم فناء وإن تك سعادته نسبية وإن يك اطمئنانه السلبي من الاطمئنان، وإلاّ فأنى يمكن أن يكون هناك اطمئنان إيجابي في عالم له المصادفة المحضة قد أوجدت وبه الصدفة المحضة تسير؟!

إلى إيجاد هذا النوع من الطمأنينة السلبية والسعادة النسبية انصرفت الأبيقورية ومن ثم كان انصرافها عن بحوث ما بعد الطبيعة انصرافاً كلياً، بل إنها للمنطق والطبيعة ونظرية المعرفة لم تتناول إلاّ بالقدر الذي رأته ضرورياً لإقامة مذهبها في الأخلاق وإن كانت قد اتخذت الفلسفة دعامة لأسس مذهبها الاجتماعي الذي على الرغم من أنه لا يرى العدالة نظاماً ينتظم الوجود، فإنه يجيء بنظام عملي لإسعاد هذه البشرية التعسة التي لتعاستها الدين الرسمي لا يستأصل بل وبتعاستها لا يبالي وليس لديه لأوجاعها إسكان إلا كلمتا؛ **القضاء والقدر!..**

كل نازلة بالبشر تنزل، لا يحاول الدين الرسمي لها استئصالاً وإنما يحيلها إلى سبب واحد اسمه لديه؛**القدر!**

كل جرح لدماء القلب البشري يستنزف لا يكفه الدين الرسمي إلا بكلمة؛ **القضاء!..**

يقيناً إن على الجرح الدامي تهبط كلمة «القضاء والقدر» بلسماً بيد أنها للداء لا تداوي وللعلة لا تستأصل!...

للسبب، أعرضت الأبيقورية عن الدين القائم وإن كانت خوفاً من صولته لم تجهر بهذا الإعراض الذي لم يخف على عصر وقفت فيه تسجل لحظة من لحظات الألم التفكيري في نفس الوقت الذي وقفت فيه تسجل نزعة الإلحاد الملازمة دور المدنية في كل حضارة، الدور الذي يفقد فيه الوجدان الإيمان بالقديم فقداً يتجه به حتماً إلى السلوك والأخلاق ويرسم لنفسه إلى الخلاص طريقاً كان حتماً أن تشقه الأبيقورية لحظة آلمها الألم البشري فتنادت نافية «العناية» ساخرة من «العدالة» مستنكرة «الألوهية»، وعائدة بالوجود إلى محض مصادفة

ومنادية إلى المصادفات فيه هي ما نسميه، وهماً، بالقانون، وواهمين نخال أنه محكوم بعقل، والحقيقة أن أرجاء الوجود إنما فراغ من عقل أو روح!

لا «عناية»؟! ولا «قانون»؟! ولا «عقل»؟!...

متسائلاً هب العقل الإنساني جفلاً بالفينيقي الهابط من جزيرة أفروديث، أثينا، من به قد سُجّل:

التفكير الديني الرواقي في دوره الأول

بـ «زينو» (٣٣٦ ـ ٢٦٤ ق.م)، جاء العقل الإنساني يمثل حالة السكينة الفكرية التي تكتنف العقل أبداً في أعقاب حالة الاضطراب ويصور حالة الهدوء النفسي الذي يغمر الوجدان في غمرة كل مدٍّ يعقب جزراً...

أجل... بالضوء المتهافت في حواشي القرن الثالث ق.م. والعصر وليد زمن انهيار المدن الإغريقية وهوي الإمبراطورية المقدونية وانقسامها إلى أقسام بسببه طوفت في آفاق دنيا تلك الدنيا أطياف حلكة وسمت العهد بسمة الفوضى والاضطراب فوسمت الطبيعة البشرية بانهزام الأعصاب وضعف الإيمان بالخيرية البشرية كان لا بد، في عصر صبغته الصبغة والروح منه الروح، أن يطلع العقل البشري مسجلاً ارتهانه لحالة نفسية الأملِ والقنوط من أحولها حالتان فلا يضيق الأفق وتزعزع منه الأرجاء عواصف قنوط عميق إلاّ ليرحب ويملأ منه الرحاب أريج شذى لنسائم إيمان دفيق...

حالتان تناوبتا على العقل الإنساني غضون هذا الطور فعلا الجزر المادي النافي ضمنياً للإله وجوداً امتد العقل الإنساني يمثل مداً وهو يشيد فلسفة أخلاقية تعتبر سقراط لمذهبها رسولاً جاء بالفضيلة لشريعتها تشريعاً... ومن ثم فوثبته التساؤلية وجفله من نظرة مادية تركت الوجود لهوج المصادفة ونفت عنه وجود عقلٍ وراءه أو فيه له قد انتظم أو ينظم!

من ثم كان حتماً أن يطوف «زينو» بفلسفات القدامى ولها في استيعاب يستعرض فاسترعته من الفلسفات واحدة تعلّم اللامبالاة وأخرى تعيد نشأة الوجود إلى «اللوغوس»...

وعلى أسس عقلية وقف «زينو» في تأييد لبارمنيدس ينفي «الجوهر الفرد» الأبيقوري وعلى الوحدة الكونية وانتفاء التعدد والتغير أو الحركة يقدم البرهان فيقول:

إن الشيء الكثير، إذا كانت كثرته بالامتداد، يكون قابلاً للقسمة إلى شطرين وكل شطر منهما قابل للقسمة إلى شطرين وهكذا إلى غير ما نهاية وهذا **مستحيل**!.. مستحيل **لأن** المحدود لا يقبل القسمة بغير حدود!

أما إذا قلنا إن الجزء الذي تنتهي إليه هذه القسمة لا يقبل القسمة فهذا، أيضاً، **مستحيل!** مستحيل **لأن** هذا الجزء ذو امتداد وكل ذي امتداد ينقسم إلى نصفين!

وكالكثرة بالامتداد إنما الكثرة بالعدد، فإن الأعداد بعضها عن بعض منفصل وبين كل منفصلين مسافة تقبل القسمة ولا تزال تقبلها على النحو الذي تقدم في كثرة الامتداد!

وكذلك تنتفي الحركة لأن التغير إنما يقوم عليها ولأن الحركة لا تنتهي إلى غايتها إلاّ إذا قطعت نصف المسافة ثم النصف إلى غير نهاية، ومن التناقض أن يقال إن حركة تنتهي بلا نهاية!

وهنا يستمد «زينو» من الإنكساجورية المدد فيقول بأن الحس ضال في تصور المادة والفضاء وأن إلى غيرها ما نهاية إنما متجزئة من المادة الأجزاء.. وليربط «زينو» بين هذه الأجزاء أمدته الهيراقليطسية بالشيء الحي المشتمل على قانون وعقل القوة التي لم يجد لها هيراقليطس غير هذا التعبير الذي يرجعه زينو فيرجع به النغم القديم جديداً، نغم ما انساب من شفتي زينو إلاّ ودوّى في أروقة الرواقية منه الدوي وانساب إلى خارجها ينادي عالمه؛ أن الأساس الذي يقوم عليه صرح الدين إنما: **«النار العاقلة»**!

يقيناً إن بهذه «النار»، المشتملة على قانون والعاملة بموجب عقل إنما يتكون هذا الكل الواحد المتماسك ويتماسك الوجود، وتترابط وترتبط من أجزاء الكون الأجزاء!

بهذه «النار العاقلة» وضعت الرواقية الأبيقورية في موضع النفي واستبدلت الكثرة، التي تركتها الأبيقورية لفعل المصادفة دون ما رابط ولا قانون، بوحدة تربط «النار العاقلة» بين متفرق أجزائها وتجعل من الوجود كلاً واحداً قائماً بعقل كلي فيه منبث هو القانون في هذا الوجود!... ومن ثم فاتساع الأفق الرواقي لما عنه قد ضاق الأفق الأبيقوري وامتداد الأفق الرواقي حتى المدى الذي تنفس عن إله نفسه نفس النار العاقلة المشتملة على هذا القانون الذي يتماسك بسننه الوجود!

أي البراهين تستطيع أن تقدمه الرواقية على وجود إله نفسه نفس النار العاقلة؟!

البرهان؟... البرهان، إنما:

«البرهان النفسي أو برهان الاتفاق العام على وجود الإله»

لهذا البرهان القديم، المتلخص في عالمية الاتفاق في إيمان بوجود إله، تقدم الرواقية... فتنهج أولاً منهج الفيثاغورية وتعلن في أرجاء القرن الثالث ق.م ما له قد رددت أصداء القرون التالية:

إن العالم كائن حيّ!..

ومن هذه النقطة تنعطف الرواقية وتنهج المنهج الأفلاطوني فتعلن: إن، كما للجسم نفس، للكون نفساً ونفس العالم إنما؛ **الإله!**

ولكن!.. ليس كما يقول أفلاطون بأن الإله جوهر منزّه عن المادة وإنما هو جوهر ذو مادة لأن الكون!.. كله إنما قوام جوهر الإله ولأن الإله إنما يتخلل أجزاء الكون!... هذه هي ماهية هذه «النفس» وطبيعتها وهذا هو من هذا «الجوهر» الجوهر!..

أجل... رأى العقل الإنساني، تحت مظهره الرواقي، العالم مجموعة من القوى الباطنة فيه بالذات واعتبر هذه القوى ليست بكميات صرفة وإنما قوى حقيقية تؤثر فيه رآه عالماً جسمانياً فيه تشيع عديد قوى منه تجعله كلاً حياً مطلقاً!.. وهذه إنما نظرة إذ تعتبر الوجود وجوداً باطناً في ذاته فليس إلاّ على أسس هذا الاعتبار تسترسل وتقول بالانبثاق أو الصدور وبوحدة وجود حلولية على أساس أن الإله هو القوة الحالة في جميع أجزاء المادة التي منها يتكوّن الوجود!..

يقيناً إن طبيعة الكون إنما حياة من ثم فالوجود أو الكون إنما حيوان حي واحد وكحيوان حي واحد، تتخلله قوة واحدة كاملة تنظم جميع أجزائه وهذه القوة هي والإله شيء واحد لأن الكون، إنما قد وجد عن طريق الانبثاق ومن ثم فهذا الكون هذا الكل الحي الكامل، هو الإله!..

ولسائلها؛ ما الإله وما منه الماهية؟ تجيب الرواقية في هذه الدور الشرقي والأول من تاريخها:

إن الإله ليس بخالق منشىء للعالم من العدم، لأن شيئاً لا يحدث من لا شيء، وإنما الإله هو المادة المنفعلة أصل الموجودات والوجود، إنما النار وأصل النار إنما الهيولى والإله هو العقل الفاعل والهيولى أو الوجود ومن ثم فإن الإله والوجود شيء واحد ومن ثم فماهية الإله إنما من الوجود الماهية!...

ليس إلاّ تحت هذا المعنى وليس إلاّ بهذا المعنى رددت الأرجاء الفلسفية أن الرواقية تجعل الإله مادياً...

أجل.. مادي إنما الإله لدى الرواقية، في طورها هذا الأول، بيد أن المادية الرواقية ليست بالمعنى المفهوم لدينا الآن من المادية، وإنما هي مادية تحت هذا المعنى على أساس أن الإله هو هذه القوة الحالة في جميع أجزاء المادة التي يتكون منها الكون، هذه القوة التي تسميها الرواقية «النار»... ومن ثم فليس الإله بمادة خالصة على أساس أن هذه «النار» ليست بمادة خالصة وإنما، وطبيعة هذه النار الحياة، هو جوهر ماهيته القوة..

بين الإله والطبيعة لم تفصل الرواقية بهذه «النار العاقلة» وإنما بينهما مزجت، فقد أحلت الإله في الكون وجعلت الكون منه الكينونة!.. بهذه «النار العاقلة» أحلت الإله في الوجود وأحلت الوجود في الإله فجعلتهما موجوداً واحداً وربطت بين الأجزاء في وحدة وجعلت «الكل» في هذه الوحدة، بكله وبكليته، موراً يمور!..

عن عقيدة «الوحدة الحلولية» تنفست أروقة الرواقية!.. بهذه الوحدة الحلولية جاءت الرواقية حين رأت، كمذهب أخلاقي، أن أساس الأخلاق إنما حرية الإرادة التي استنت لها قانوناً عينته **بالواجب**، فبالواجب قد قالت حين أيقنت أن في الطبيعة قانوناً هو عقل وأن الإنسان عنه ليس بمستقل بل هو منه جزء به مترابط تمام الارتباط وأن واجب الإنسان، وهو من الطبيعة جزء، أن يحيا وفق هذا القانون أو العقل فإن أي انحراف عن «القانون الكلي» فتمرّد على القانون الكلي وإن أية حيدة عن العقل الكلي فعصيان للعقل الكلي وبهذا وضعت الرواقية **السعادة في الواجب**.

بوحدة الوجود الحلولية قد جاءت الرواقية حين جاءت تضع السعادة في الواجب، واجب المطابقة بين الإرادة الكلية والإرادة البشرية.. بيد أن بهذا القول بل بالأحرى بهذه الفلسفة، فلسفة الوحدة الحلولية، جاءت الرواقية بأخطر طابع فكري في العصر الهيلليني الروماني طبع طابعه الأجيال المتعاقبة في غضون العصر وألهب من الإنسان العاطفة والفكر، فالرواقية بوضعها لمذهبها الأخلاقي «النار العاقلة» أساساً إنما قد أشعلت في هذا الأساس «النار» الهيراقليطسية و«النار» الهيراقليطسية إنما: **«اللوغوس»**!

و«اللوغوس»؟... اللوغوس إنما: **«الكلمة»**!

النار الهيراقليطسية هي «الكلمة» الكلمة الحالة في كل شيء، ومن ثم ففي كل مكان!... فهي الباطنة في الموجودات لأنها الحافظة لها كلها باعتبارها القوة الرابطة بين الأجزاء المختلفة للموجودات والعلة المشتركة المقومة لجميع الأشياء! والاعتبار الهيراقليطسي للوغوس، اعتبرت الرواقية، وللكلمة رددت، فرددت أروقتها:

يقيناً! إن «اللوغوس» هو: **«الكلمة!..»**

في خلط بين «اللوغوس» و«الكلمة» رددت شفاه الكلمة «باللوغوس» و«بالكلمة» ومن ثم كان أن سجل هذا الطور:

تحول «اللوغوس» الهيراقليطسي إلى «الكلمة» الرواقية

للرواقية راقت من الفِكَر الفلسفية الفكرة الهيراقليطسية، فاتخذتها لمذهبها أساساً سجل تحول اللوغوس الهيراقليطسي إلى الكلمة الرواقية... بيد أن عند اعتبار «اللوغوس» القانون

الجاري على أساسه أنواع التغير المتضاد في الوجود لم تقف الرواقية موقف الهيراقليطسية فلم تقف عند اعتباره مبدأ الانقسام العائد إلى وحدة، وإنما من هذه النقطة الجوهرية استرسل منها التفكير فرأى؛ أن إذا كانت «الكلمة» هي القوة الحالة في جميع أجزاء المادة المتكون منها الكون وأن لعلل الوجود هي علة طبيعتها السرمدية إذ لا فناء في الكون وإنما المشخصيات الظاهرية ليست إلاّ تجدداً للمظاهر المتباينة، وأن إذا كان الوجود تؤلفه وحدة وليس الإله والوجود إلاّ موجوداً واحداً، وأن إذا كان الإله هو القوة الحالة في جميع أجزاء المادة ولعلل الوجود هو علة عاقلة طبيعتها السرمدية واللافناء، فإن هذا العقل، والوجود غير قائم إلاّ بعقل فيه منبث، هو نفسه «الكلمة»!. ومن ثم فيقيناً إن:

«الكلمة» هي؛ «اللّه»!..

إن الوجود إنما محكوم بـ «نوموس»[1] أو الناموس وهذا الناموس إنما الناموس الأخلاقي ولما كان الناموس إنما مرادف للعقل الحق[2] أو الكلمة الحقة ولما كان هذا العقل هو الذي يقوم على تصريف مقادير الكون من ثم فاللّه و«العقل» كلمتان متساويتا التعريف لمعنى واحد وتدلان على موجود واحد هو والوجود شيء واحد، فلقد كان هذا الوجود الواحد منفرداً فشاء أن يكون كوناً فأصبح هواءً وأصبح الهواء ماءً وجرت في الماء مادة الحياة أو كلمة الحياة، تماماً[3] كما تجري مادة التوليد من الأحياء، فبرزت منها الأشياء وهي العناصر الأربعة ثم برزت، بتركيب هذه العناصر، الأشياء كلها على نحو تطوري ليس له من سبب إلاّ لأن الإله إنما فيها حالٌ!..

أجل... على أساس أن الإله هو القوة العاقلة الحالة في جميع أجزاء المادة المتكون منها الكون وأن «الكلمة» هي القوة الحالة في جميع أجزاء الكون تحولت «الكلمة» من مبدأ إلى «إله» وسجل تاريخ التفكير الديني:

تحول «الكلمة» إلى «إله»

حوّلت الرواقية «الكلمة» إلى إله وبذلك طبعت الفترة المهيئة لانبثاق المسيحية بأخطر طابع فكري!.. فما تهامست بهذا اليقين الأروقة الرواقية حتى انساب إلى خارجها دوياً يعلن للمسمع البشري تحول «الكلمة» الهيراقليطسية من مبدأ في الهيراقليطسية إلى إله في الرواقية... نغمة استعذبها المسمع من العصر وبين جوانب القلب البشري راحت ترن رنيناً يرجع:

---

(١) Nomes

(٢) Orthoslogos

(٣) Spermatikos Logos

يقيناً إن الوجود هو؛ «الكلمة» وإن «الكلمة» هي: **«اللّه»**!

وهكذا من مبدأ إلى إله تحولت «الكلمة» في الدور الراهن للرواقية، دورها الأول الشرقي السوري، كما بها استمسكت وتمسكت في دورها الآخر، الدور الغربي الروماني هذا التمسك الذي سجل:

المزج التام بين «اللوغوس» و«الكلمة» و«الإله»

يقيناً إن على الرواقية في دوريها، الشرقي السوري والغربي الروماني، قد خلفت الصوفية طابعها وفي دوريها هذين لها قد راق أن ترى الوجود بالقدسية يتوهج، ومن نبع صفاء صوفيتها نبتت عقيدتها بأن الكون نفحة قدسية صدرت عن طريق الانبثاق، ولتقوم هذه العقيدة أساساً لتفكيرها الديني القائل بالظهور الإلهي في كل شيء أو بالأحرى بالحلول الإلهي في كل شيء...

بين الطبيعة وما بعد الطبيعة مزجت الرواقية مزجاً جعلت به كلاهما، الإله والوجود، موجوداً واحداً في الآخر موجود.. في العالم أحلّت الإله وفي الإله أحلّت العالم ومن ثم جاءت نظرته إلى الوجود بوحدة حلولية ما لبثت أن استرسلت حتى مداها المنطقي واتخذت الطبيعة الحتمية في النظرة إلى الإنسان، فإنه إذا كان الإله حالاً في العالم الصادر عنه صدوراً انبثاقياً فإن الإنسان، والإنسان إنما مظهر لهذه الوحدة الحلولية ومنها جزء، يقف بمثابة القبس من الإله ومن ثم فلئن كانت الرواقية قد نظرت إلى العالم كـ «وحدة» فإنها قد نظرت إلى الإنسان كـ «ابن اللّه»...

وإلى الرواقية في استجابة التفتت الناحية الروحية من العصر... عصر طاب للناحية الروحية فيه تنسم نسائم القدسية التي تبعثها فواحة أروقة الرواقية، فقد أطرب من هذه النواحي المخيلة أن ترى نفسها والإله واحداً أحداً فراحت في ثقة تأبى الجدل وفي إيمان يتأبى الشك تتحدث عن الكون والكائن حديثاً ألهبه دفء الإيمان، فهي إذا ما تحدثت عن الإنسان قالت: إن الإنسان والإنسان ابن اللّه... وإذا ما تحدثت عن الكون قالت: إن روح الوجود إنما «الكلمة» والكلمة هي **اللّه**!

ومن هذه «العقيدة الكلية» للكون أقامت الرواقية لتفكيرها الديني أركاناً فعلى أسس عقيدتها القائلة «بالحلول» جرى منطقها يجترف كل ما يعترضه من مشكلات دينية، ولما كانت من أهم المشكلات الدينية في هذا الطور من العصر مشكلة «العناية» فقد عجمها المنطق الرواقي عجماً عاد على إثره يقول: يقيناً إن الأبيقورية كانت على ضلال حينما نادت باللاعناية وإنها على وهن كانت حينما ضاق أمامها رحاب الوجود عن عقل فيه منبث ـ

فهذا هو العالم!.. إن العالم إنما جسم حي نفسه «النار العاقلة» أو الإله وأنفاسه إنما هذا القانون!.. وهذا هو الإنسان!. إن الإنسان إنما مظهر لهذه لوحدة ومنها هو جزء وكجزء منها هو أوثق الارتباط بها مرتبط!.. خاطئة بل وضعيفة كانت الأبيقورية باتخاذها على انتفاء «العناية» وجود الألم برهاناً فلقد وصمها الجبن أمام الألم!

وما «الألم»؟ إن الألم إنما عرض ينشأ حين يحل بالإنسان ما يضاد طبيعته، طبيعته هذه المحض إلهية التي لا تقبل قدسيتها إلاّ الطهر... والألم إنما ظاهرة تحدث دائماً في أعقاب انحراف الإنسان عن طبيعته الأصيلة أو بعبارة أوضح إهماله الجانب القدسي من كينونته الروحية فالألم لا يحدث إلاّ حينما للإرادة الكلية **تناوىء** الإرادة من الإنسان وعلى القانون الكلي يتمرّد منه العقل متوهماً أن له عن سائر الوجود استقلالاً!...

المنشأ نشأة الألم!.. وإذا كان الألم منشأه النشأة فالألم حتماً ينتفي حين تنسجم الطبيعة من الإنسان وطبيعة الطبيعة... وهذا الانسجام للطبيعة الإنسانية وطبيعة الطبيعة المحض إلهية، التي لا تقبل قدسيتها إلاّ الطهر، يتلخص في تطبيق شروط ذلك المبدأ المنحصر في: **الفضيلة!**

يقيناً إن الفضيلة لضوء يشع في أرجاء الداخل ويذيب الألم ذوباً! فإننا إذا كنا قد تبينا أن الإله عن العالم غير منفصل ونفس العالم إنما هو، وإننا إذا كنا قد أدركنا أن النفس منا منه قبس ومن نفسه نفس، وإننا إذا كنا قد فهمنا أن كل شيء إنما أجزاء من نظام واحد نسميه الطبيعة أفلا ندرك أن الإنسان لن يبلغ تلك الغاية التي يتبدّد فيها الألم والتي اصطلحنا على تسميتها السعادة إلاّ إذا انسجمت منه الطبيعة وطبيعة الطبيعة وأصبحت **الفضيلة** له سجية؟!

إن أحداث الحياة إنما على ذلك دليل وبرهان بل ونفس الحياة على ذلك تشهد فالمشاهدات تشهد بأن عرضاً زائلاً في حياة المرء كل شيء ما عدا النفس! كل شيء من هذه المشخصات الظاهرية، التي ليست في حقيقتها إلاّ تجدد للمظاهر المتباينة، إنما عرض زائل والعرض الزائل ليس له في الحقيقة قيمة الشيء الباقي بقاء النفس نفسها، فالنفس لأنها من نفس العنصر الخالد جزء ليست بعرض زائل وإنما حقيقة خالدة!... النفس حقيقة خالدة لأن من عنصر الأثير إنما منها العنصر هي شيء باقٍ والشيء الوحيد الباقي بقاؤها إنما الخلق المتلخص في الفضيلة. فالفضيلة طبيعة النفس لأنها طبيعة طبيعتها المحض إلهية التي يجب أن تلتفت إليها وهي تجتاز هذه المرحلة من عمرها على الأرض في نطاق جسد عليه يجب أن تتعالى بما تمتلكه من قدرة روحية فالفضيلة لا تعتمد في استكمالها عبر هذه المرحلة من رحلة الحياة إلاّ على الإنسان نفسه فالفضيلة إنما **وليدة الإرادة!**

إن السعادة والشقاء، وصنوهما تماماً الخير والشر، **لا يتوقفان إلاّ على الإنسان نفسه** بقدر ما يقترب الإنسان في الفضيلة أو عنها يُنأى فليس هناك من حائل يحول الإنسان عن الفضيلة أو الانسجام والطبيعة... كلا، لا إنكار في أن الحياة أحداث وأن من الأحداث ويلات ولكن عن طلب الفضيلة لا شيء هناك يستطيع أن يعوق الإنسان!. بل أي العوائق يمكن أن يكون للإنسان عن الفضيلة عائقاً؟

لا ثمة شك في أن عن طلب الفضيلة لا عائق يعوق الإنسان، فالفضيلة ممكنة في مادي الفقر وفي مادي الثراء وفي الصحة وفي المرض وتحت وابل من نوازل الحياة وويلاتها!.. قد يصبح المرء بعد ثراء مادي فقيراً وقد يضحي بعد صحة الجسم مريضاً وقد يتهم ظلماً وظلماً يدان بل عليه بالموت قد يحكم ظلماً.. كسقراط!.. كل هذا لن يحول بينه والفضيلة أو الانسجام والطبيعة!.. كل هذا لن يحول بينه ومجابهة الفقر والحرمان والشدائد والمرض! كل هذا لن يحول بينه وبين الفضيلة بل ولا يحول بينه واستقبال الموت بنبل وبنفس راضية مطمئنة، كسقراط! أي عائق من ثم يعوق الإنسان عن الفضيلة وهي إنما وليدة الإرادة؟

وليدة الإرادة الشخصية إنما الفضيلة، وسهلة هي تستطيع الإرادة لها تطبيقاً لأنها طبيعة النفس! وعلى ذلك يأتي دليل «القانون الأخلاقي» في الداخل! ومن هنا نفهم أنه ليس هناك من عائق يعوق الإنسان عن طلب الفضيلة، بل ليست هناك قوة تستطيع أن تحول بينه وبين الفضيلة حتى ولا الإله لأنها **طبيعة الإله**!

من ثم ليس هناك في الحياة للحياة حدث يستطيع أن يحول بين الإنسان والانسجام والطبيعة والعودة إليها **بالمطبع**... ومن هنا نفهم أنه إذا كانت للحياة نوازل وأحداث فإن هذا لا يبرر قط أن يفقد الإنسان توازنه ولا اتزانه يفقد فينفي «العناية» ويستنكر وجود إله!... إن من يستنكر وجود إله فإنه لوجوده نفسه ينكر ولتفكيره ينفي ولكينونته يبيد! بل أنّى يمكن للعقل أن ينفي وجود إله والأدلة العقلية تترى وتقدم البرهان على أن ليس للعقل وجود إلاّ لأن «العقل الكلي» موجود؟! بل وكيف يمكن للعقل أن ينكر «العناية والأدلة تقفو الأدلة وتؤيدها القوانين الكونية على أن هذا «العقل الكلي»، المنبث في الكون والحال في كل جزئياته والرابط بين أجزائه برباط نفسه قانون، إنما **إرادة عاقلة**؟!. إرادة عاقلة قد استنّت سنناً عليها الكون قاطبة يسير سيراً يعلن أن كل شيء فمن الأزل مرسوم!.. وإذن فما هذه الانفعالات بمجدية شيئاً في دفع المرسوم وتصريف الأحداث!.. وإذن فالحكيم إنما من يربط «بالإرادة الكلية» إرادته، ويرضخ «للإرادة الكلية» له إرادة ولا يجزع إذا ما هزته بأحداثها الحياة! بل لم الخوف والجزع من حدث يصيب أو نازلة تنزل و«الإرادة الكلية» إنما إرادة

عاقلة؟! من ثم فلا مدعاة للخوف والجزع فحسب بل إن، والإرادة الكلية عاقلة، يغدو من الجبن الهلع لمرض ونكبة وتنغيص الحياة بالخوف والحزن واليأس ما دامت كل هذه الأحداث أشياء جزئية زائلة!.. ومن من الناس لم يصبه الألم وأعقب هذا الألم السرور ليعقبه من بعد ألم وليعقبه من بعد سرور؟

إن الحياة شاطىء عليه يتعاقب لأحداثها مدٌّ ولأحداثها جزر و«الإرادة الكلية» قد رسمت منذ الأزل، لغاية لها، الحياة بهذه الألوان!... ومن ثم فواجب الإنسان أن يربط منه الإرادة بهذه «الإرادة الكلية العاقلة» التي قد استنّت هذه السنن التي عليها عجلة الحياة تسير!. وواجب الإنسان الاطمئنان إليها إرادة عاقلة لا يطيح بها هوى يطيح بالإنسان فيهلع لمرض ويجزع لنكبة ويقضي مراحل حياته على الأرض بالخوف والحزن واليأس، وهو لو علم أن حياته الحقيقية إنما حياة النفس وأن عن حياة النفس يرتد الموت والألم لاطمئنان وجابه أحداث هذه الحياة بنفس مطمئنة وراضية، فإن كل هذه الأحداث الدنيوية التي يهلع منها الإنسان ويجزع ويتملكه بسببها اليأس والألم إنما تنحصر تحت مظهر واحد يتمثل في تلك النهاية الطبيعية التي تصيب كل حي والتي نسميها الموت..

والموت؟.. أيها السائل؛ ما الموت؟!.. لك أنادي:

يا أيها اليائس الحائر والمتألم لنهاية تراها في «الموت» ويا أيها السائل عن النفس ما من النفس الماهية.. إليك الجواب؛ إن النفس من الإله وإنها كالإله. كلاهما حقيقة والحقيقة إنما ماهية خالدة!. من أي شيء، من ثم، أنت تخشى والحقيقة القصوى من طبيعتك إنما هذا الشيء الخالد؟!

لا تخف!.. لا تخف من هذه الظاهرة التي تحسب أن فيها لشخصيتك فناء وهي إنما تحمل في ثناياها بوارق البقاء ووراء مظاهر ظلمتها تسطع أضواء الخلود!... لا تخف و«الإرادة الكلية» إرادة عاقلة!.. لا تخف فلا مدعاة للخوف منها ولا من أحداث الحياة جزع!.. دع الاطمئنان وتام الاطمئنان يلج منك القلب فإن، وإرادتها إنما عاقل إرادة، كل شيء في حقيقته القصوى إنما؛ الخير!

أي شيء من ثم تخشى والخير إنما الغاية؟...

واجب الإنسان من ثم إرضاخ إرادته إرضاخاً كلياً «للإرادة الكلية» وربطها «بالإرادة الكلية» ربطاً محكماً فلا ترضخ من الإنسان «للإرادة الكلية» الإرادة ولا بالإرادة الكلية ترتبط إلا ويسمو الإنسان السمو الذي يجد به نفسه قد ارتفع لا فحسب إلى حيث لا خوف ولا حزن ولا يأس وإنما إلى أفق طمأنينة تامة وكامل اطمئنان، وبذلك يبلغ من

الطمأنينة درجتها الإيجابية التي يطل بها للأبيقورية قول يقول بسعادة الحواس، فقد بلغ هذه الدرجة التي أصبح يدرك بها أن السعادة إنما **سعادة النفس** وأن اللذة الحقيقية إنما تلك الناجمة عن إحساس الروح بالروح فقد أصبح، في هذه الدرجة، ما هو بالذات!.. ومن هناك!... من مرتفعات هذه الطمأنينة يستشرف الإنسان عالماً يعيش فيه بجسد طبيعته الفناء والخوف والحزن واليأس فيه من مظاهره زائل أعراض، فينعطف على الأحداث الدنيوية؛ **باللامبالاة!**

عبْر هذا التيار التفكيري انعطف البال الرواقي نحو «اللاّمبالاة» بما تجيء به الحياة من أحداث.. وبانعطاف البال من الرواقية نحو «اللاّمبالاة» تبعت الرواقية الفلسفة التي عرّفناها باسم «التهكمية»، وجاءت بعقيدة اعتبرت أن فيها الحل لمشكلة تجابهنا أبداً في كل دين:

مشكلة الجبرية والاختيار

أساس من أسس الرواقية، كمذهب، ومبدأ من مبادئها عنه خلال تاريخها الطويل لم تحد هو هذه العقيدة القائلة بالجبرية الكونية والاختيار الكائني، فالرواقية يجعلها الخير غاية ويجعلها الإرادة الإنسانية إلى هذه الغاية وسيلة أداتها الفضيلة، بينما كل شيء فمنذ الأزل مرسوم، قد جعلت الجبرية أساساً للكون وجعلت الكائن مختاراً في هذه الجبرية التي تحكم الكون... هذا الكون الذي يتعاقب في وجوده دورة بعد دورة أو بالأحرى هذا الوجود الذي تكوِّنه «النار العاقلة» والذي فيه كانت قد سكنت، بفعل هذه «النار العاقلة» جميع خصائص الموجودات الحاضرة وأسبابها ومقاديرها والذي يفعل هذا «العقل الشكلي» وتقديره يشمل هذا الوجود ويشمل موجوداته قضاء مبرم وقانون محكم، فما هذا الوجود إلاّ مدينة يسهر عليها هذا «العقل» حتى تتم دورتها الحتمية وتنتهي باحتراق عام فسينتهي هذا الوجود بحريق عام وتسكن في ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها ومن جديد سيعود الوجود كرة بعد كرة بفعل هذا العقل وتقديره هذا العقل الحال في كل شيء والرابط بين الكائنات بوحدة يجب أن يتنبّه إليها كل إنسان فيعلم أن الكائنات إنما إخوة وأن بين الإخوة يجب أن يرفرف الحب ويُخيِّم السلام!..

هذا هو النداء الذي أطلقته الرواقية من أروقتها وأرسلته همساً ينساب في أرجاء عصرٍ اشتد إليها بهذا النداء منه الالتفات فالرواقية وإن كانت، كفلسفة، لم تقف في المرتبة التي وقفت فيها الفلسفات التي أعقبت السقراطية، كالأفلاطونية والأرسطية، فإنما هي مذهب وافق الروح المعنوية لعصر مطلبه، في خضمّ هذا الخوف الطمأنينة، ومنشده في معترم هذه الفوضى العارمة، السلام ومن هنا كان التفات العصر إليها يراها مذهباً صالحاً، ومن ثم كان

التصاق الناحية الروحية بها ومن ثم كان إليها إخلاد الأفئدة حيثما كانت تنبض في أرجاء هذا العصر بل وإليه مذهباً يمنح الإنسان كل ما هو إليه مُتعطّش وجد إنسان العصر الهيلليني الروماني نفسه يشتدّ إخلاداً لا سيما وقد رآها قوية تقوم وعلى أسس فلسفتها الحلولية تنادي أنها:

«الوحدة العالمية»!..

على أسس أن الإله حالٌ في هذا العالم ارتفع الصوت الرواقي نغماً يهز الحنايا ويستنبت في تربة النفس البشرية بذرة الوحدة العالمية معلناً في أرجاء دنياه: **«إنّ الأرض مدينة الإله!...»**

وعلى أسس أن الكائن الحيّ قبس من الإله استرسل الصوت الرواقي عذباً يعلن دوياً في آفاق عالمه:

«الإخاء العالمي»!

إن الكون إنما مظهر من مظاهر الإله، في الإله يمور موراً، وفيه موراً يمور الإله.. وإذن فالأرض إنما مدينة واحدة «مدينة الإله»... كلا!. لا حواجز تُفرِّق أرجاء هذه الأرض إلى مواطن ومهاجر!.. كلا ولا تفرق البشر للبشر ألوان وأجناس، فكلٌّ إنسان إنما في هذه المدينة الكبرى قبس من الإله ومن الإثم ألا يعتبر كل واحد نفسه واحداً والكل!...

مهما نأت الشقة وبعد المكان واختلف عن اللون اللون وتباين الجنس عن الجنس فإن الإنسان، وهو من الإله القبس ومنه يقف بمثابة الابن، إنما للإنسان أخ!.. الكلٌّ في «مدينة الإله» إخوة!.. ومن ثم، وبين الإخوة يجب أن يسود التعاون ويجب أن يرفرف السلام، فإن هناك على الإنسان فريضة تنحصر في أن يعتبر نفسه واحداً والكل وأن يبادر بتطبيق شريعة الإخوة العالمية بإظهار مظهر الإخاء لكل كائن على الأرض دنا هذا الكائن في الدرجة أم علا، ومظهر الإخاء هذا إنما ينحصر في؛ **«المحبة»**!..

بهذه النغمة، نغمة الإخاء العالمي والمحبة العالمية، حوّلت «الحلولية الرواقية» الرواقية إلى الناحية الاجتماعية فأقامت، على أسس فلسفتها الحلولية، القائمة على عقيدة أن الحياة وحدة، مذهباً اجتماعياً تستند منه الأركان إلى أن، ما دامت الحياة وحدة فإن؛ وطن الرواقي العالم!. وطن الرواقي كل مكان!... حيثما حلّ الرواقيُّ فعليه ألاّ يستشعر غربة في مكان وألاّ يشعر بغرابةٍ نحو أي إنسان، فالناس في كل بقعة من بقاع الأرض إنما تربطه وإياهم رابطة الإخاء، فالرواقي إنما فرد تضمه أسرة كبرى إليها يجب أن تنعطف منه العواطف بالحب والسلام!... وكإشعار لقيام هذا المذهب اتخذت الرواقية لها شعاراً هذا الاصطلاح:

«المحبة في اللّه!»

إلى مذهب، اجتماعي حوّلت «المحبة في اللّه» الرواقية تحوّلاً حوّلها عن المنطق والمعرفة الطبيعية إلى الناحية الأخلاقية فما عنت الرواقية بالمنطق والمعرفة الطبيعية إلاّ كوسيلة ومقدّمة لما اتخذته له من غاية تنحصر في الأخلاق حتى غدت المعرفة الطبيعية أو المنطقية ليست إلاّ وسيلة إلى إيجاد الفضيلة الأخلاقية وحتى أصبح المعيار المنطقي إنما الفضيلة الأخلاقية المستمدة لا من تقاليد الدين الرسمي وإنما من **القانون الأخلاقي في الداخل**، هذا القانون الذي اتخذته الرواقية شريعة لمذهبها الذي دعمته بما استمدته من «التهكمية» من مواد، فقد اتخذت الرواقية «اللاّمبالاة» وسيلة لترويض نفسها على ألوان من التقوى والعصمة الأخلاقية حتى وقف الرواقي في أرجاء عصره مثلاً فريداً للتقوى وللعصمة الأخلاقية وصورة متحققة «للمحبة في اللّه»!...

مثلاً فريداً للقيم الأخلاقية وصورة متحققة للقيم الروحية وقف الرواقي في أرجاء دنياه كأثر لهذه «المحبة» التي بقدر ما اجتذبته إليها اجتذبته بعيداً عن تقاليد الدين الرسمي وفرائض مذاهب العصر الفدائية حتى أشاح عنها إشاحة أعلنت اعتناقه عقيدته الفلسفية له ديناً واتخاذه مذهبه الاجتماعي لهذا الدين شريعة موادها سنن «القانون الأخلاقي» في الداخل..

أجل.. عن الدين الرسمي والمذاهب الفدائية للعصر أشاحت الرواقية بل وقفت من الدين الرسمي وتقاليده موقفاً سافر العداء اختلف جوهري الاختلاف عن موقف الأبيقورية إزاءه، فهي تستُّر الأبيقورية لم تتستر ومثلها لم تقم بالشعائر الدينية خشية إثارة العامة وإنما قوية وقفت تعلن جهراً عنه الإشاحة وتعلن مذهبها المتخذ شعاراً له «المحبة في اللّه» ديناً صحيحاً لا تنحصر تكاليفه في طقوس وقرابين ومحرقات!... كلا ولا في مكان من حوله خشعاً يُطوف الناس!.. كلا ولا في معبد يلعب سحر التراتيل فيه بعقول الناس!... كلا!.. فقد أبت الرواقية كل الإباء إقامة البيوت للّه وأرسلت صوتها جهيراً يعلن في أرجاء دنياها؛ أن بيت **الإله إنما القلب**!

ولم المعبد والإله في كل مكان؟... في أرجاء العالم الخارجي وفي أرجاء العالم الداخلي على سواء موجود إنما الإله!... حينما تلفتّ فالإله هناك!. في لمحات الشفق وفي خفقات الغسق، أجل في الآفاق ناظريك بل في كل آن من آناء الليل والنهار أجل في الآفاق منك البصر، تراه!... بل أنت تراه في نفسك!... ساكن هو بين الضلوع وخفقات القلب منك ليست إلاّ منه الأنفاس!.. خاطبه! حادثه! فأنت في كل آن تستطيع به الاتصال!.. دون وسيط بل في كل مكان وآن أنت تستطيع به الاتصال فأنت، وأنت منه القبس، إنما تقف

منه بمثابة الابن وهو إنما يقف منك بمثابة الأب فهو «الكلمة» الحالة في كل شيء وفي كل مكان وآن...

من ثم.. لا في مكان رسمي ولا في معبد ولا عبر طقوس ولا عن طريق قرابين ومادي شعائر يصح للرواقي أن يتجه إلى «العقل الكلي» عابداً، وإنما لعبادة «العقل الكلي» على الرواقي أن يتخذ القلب مكاناً وأن يعتنق القانون الأخلاقي في الداخل ديناً شريعته تنحصر في تطبيق مبدأ:

«الإخاء العالمي والمحبة في الله!»

بهذه الفِكَر الإلهية والمبادىء الاجتماعية التي فجّرتها «العقيدة الحلولية» في القلب الرواقي انبجس في تربة هذا القلب ينبوع الحب واسترسل دفاقاً سخياً ينعطف كل منعطف ويشمل بأجمعه العالم وبأجمعها الكائنات ويرن صداه خريراً شجياً على صفحات السجلات الرواقية التي أترعتها التأملات العميقة في «محبة الله»!...

عبْر السجلاّت الرواقية التي ناولتنا إياها يد الزمن تأتي إلينا أنغام هذه «المحبة في الله» في صورة تلك التسابيح التي استرسلت صداحة من الحناجر الرواقية ترسل في أرجاء عالم مضطرب معترم الفوضى عارم بالعداء نسائم الطمأنينة وتنفث في أعطافه أنفاس المحبة وروح السلام وتعقد فيما بينه عروة الإخوة العالمية!..

وعبْر هذه السجلات التي يفوح منها قوياً عبير الأرج المتأرج بروح «المحبة في الله» والعاطر بشذى السلام والإخاء العالمي تطالعنا لتبهرنا تلك الطاقة الروحية التي فجّرتها الرواقية عن قوة هائلة أضاءت عالم عالمها كان حتماً أن يلتفت إليها مجتمع الطور الأول للعصر الهلليني الروماني يراها، بما تحمله من عناصر دينية ومبادىء اجتماعية، تعطي الإنسان كل ما هو إليه احتياج وحاجة...

أجل.. بهذه الفِكَر الدينية المتخذة «الكلمة» محوراً وهذه المبادىء الاجتماعية المتخذة «الإخاء العالمي» مذهباً استهوت الرواقية عالم عالمها... وإليها تواتر الالتفات العقلي كفلسفة عقلية وكمذهب اجتماعي حتى أضحى أكثر خلفاء الإسكندر رواقيين وحتى أمسى الجانب الأكبر من مجتمع العصر الهلليني الروماني رواقياً عقيدته الدينية محورها «الكلمة» وعقيدته الاجتماعية طابعها الزهد في الحياة واللامبالاة بأحداثها، وأما الروح منه فقد عانقت «الإخوة العالمية» وعانقتها «المحبة في الله»!...

ظاهرة انحسر عنها أفق العصر الهلليني الروماني، وأومضت في أرجاء الطور الأول منه أضواء الروح، فهي ظاهرة أنارت أرجاء العصر وبدّدت الحلكة فيه وأشعلت في أطواء الطوية

البشرية نوراً بدّد، حيثما شعّ، ظلام الوهم فبهذه الظاهرة تمّ انحلال الإيمان القديم بالدين الرسمي وحلّ محله إيمان عميق بهذا المذهب الذي بقدر ما إلى تعاليمه أصغت النفس الإنسانية فليس إلاّ لترجّع أصداء مبدئه الآخذ على نفسه الارتفاع بالإنسان فوق دنايا الدنيويات بالترفع عن هذه الدنايا بالفضيلة، فليس إلاّ بهذه التعاليم العقلية الروحية والروحية العقلية أخذ المدُّ الرواقي يمتد وللدين الرسمي يكتسح ولمذهب بعد مذهب يجترف حتى، كأثر لهذا الامتداد، سادت أرجاء العصر الهلليني الروماني «العقيدة الحلولية» أو النظرية الكلية للكون وحتى رسخ وطيداً في تفكير العصر الإيمان بعقيدة «الكلمة»!... «الكلمة» التي كانت قد تحوّلت من مبدأ تحولاً غدت به «اللّه»!

ولكن.. لئن كان الجانب الأكبر من عالم الهيلليني الروماني قد أصبح رواقياً ولئن كانت «عقيدة الكلمة» قد بدأت تسيطر على تفكير العصر فإن الرواقية التي جاءت تعارض الأبيقورية إنما قد أجرت بهذا الاعتراض في ناحية من الفكر الإنساني متعارض الفِكَر ومصطدم التيارات ليجد العقل الإنساني نفسه يقف بين تيارين!.. بين تيار الجزر الماديّ الآبيقوري وتيار المدّ الروحي الرواقي وجد العقل الإنساني نفسه يقف حائر النظرة بين النظرتين... النظرة الذرية والنظرة الكلّية للكون لا يدري أيتهما الأصوب!

أمام عقيدة ذرّية مادية للكون بالأزلية تقول وعقيدة روحية كلّية للكون تقول بالانبثاق وتجاه فلسفة للعصر باسم «التهكمية» تقوم بدأت بالفكر الإنساني تسير الأيام عن سعير فكري ألهب في أرجائه للشك رياحاً ما لبثت حتى استحالت عواصف دفعته على رمال الزمن دفعاً فسجلت خطوته:

ب «فيرو»، (٣٦٠ ـ ٢٧٠ ق.م)، وجد العقل الإنساني نفسه تدفعه في ظلال الأكاديمية رياح الشك دفعاً بلغ به حد اعتناق الشك في المعرفة حسية وعقلية معاً، بالعقل بلغ الشك حده العاصف أمام الرأيين؛ الرواقي، والآبيقوري، المتعارضين تعارضاً لا يمكن بينهما التوفيق فحسب وإنما بينهما لا يمكن قط استخلاص رأي أو فكرة تستطيع أن تحلّ الإشكال!

فقط لا يمكن، بحال، التوفيق بين الضرورة الموجودة في الطبيعة عند الرواقية وبين الحرية وجانب الاتفاق الكبير عند الآبيقورية وما إليه هذا التعارض يميل من أن «المعرفة» غير ممكنة!... ومن ثم، أمام آراء تشعبت والتعريف اللاّمباشر عرفت أن «المعرفة لا تعرف»، كان حتماً أن يتعثر العقل الإنساني ويعلن لشكه نتائج فينادي: إن المعرفة غير ممكنة!.. وإذا كانت المعرفة غير ممكنة فسيان العلم والجهل ومن ثم فسواء العالم والجاهل.. كلاهما لا يعرف، في الحقيقة، الحقيقة المجرّدة!

بالعقل، من كل جانب، أحدقت الشكوك ومنها وجد نفسه لا يستطيع المهرب، ولا منها إلى ملجأ يستطيع أن يفزع!. فالدين «المعتمد» قد أمسى غير معتمد، وفي آن الآن غدت «المعرفة» لا تعرف.. فزعاً في مهبّ هذه العواصف الشكية تحسس العقل من نفسه مكامن القوى فوجد نفسه خائر القوى، وخائر القوى تحسس موضع الطمأنينة من نفسه فتجاوب في صدره نداء يطلب لنفسه رحمة رحمة الطمأنينة!...

كلا!... إلى طمأنينة إيجابية إليه يأتي بها البحث والتقصّي، الفكر الشّاكُّ لم يطلب!. فقد إيمانه القديم بالدين وبإمكان المعرفة فقداً فقد به الافتقاد لإيمان جديد ومن ثم فمطلبه الآن؛ الطمأنينة السلبية!.. ومن ثم فتسجيله على نفسه ذلك الموقف الذي يصادفنا في تاريخ التفكير الديني عندما تصطدم بالعقائد الدينية ناحية من العقلية هي ولئن بلغت من الثقافة الحدّ الذي تبيّنت فيه تفاهة الدين «المعتمد» أو ما قد وجدت نفسها فيه وليدة من دين فإنها تتخذ من الدين المعتمد درءاً تدرأ به العواصف عن شكِّها!. هذا هو الموقف الذي وقفته «الشكيّة» في طورها هذا الأول، فبينما وقفت فيما بين نفسها مستخفة الطوّية بالدين المعتمد هبّت مُظهرة له في الظاهر شديد الاحترام!

في غير إيمان بالدين الرسمي، أظهر العقل الإنساني في خطوته الشكِّية بالدين الرسمي للأديان وفي غير اعتقاد بعقائد الدين الرسمي أظهر العقل الشّاك بعقائد الدين الرسمي الاعتقاد وفي غير ما شعور بشعائر الدين الرسمي أدّى الشعائر، بل في سلك رجال الدين للدين القائم انخرط، وأقام نفسه رجل دين!

أجل... في غير إيمان بالدين أقام العقل، شاكاً، شعائر الدين... إلى البيوت «المقدّسة»، في غير تخلُّف، اختلف، وللصلاة، في غير تهاون، صلى بل وتمادى في تضليله الناس فأقام من نفسه للدين القائم كهنوتاً ولم ير في الأمر أي تثريب، فالمنطق من تفكيره قد جرى على؛ أن الدين الرسمي لئن كان كدين واهي الأساس وواهي الصرح فإنه يضم المجتمع بوحدة عقيدية، إذن ما الضرر وللمجتمع هو ينتظم والدولة القائمة إنما به قائمة؟؟!

الموقف، وقف العقل في راهن نظرته أمام الدين الرسمي طوى في طويته به استخفافه بينما أظهر له في الظاهر شديد احترام لم يقتصر على دين من أديان العصر الهلليني الروماني دون آخر، فلكل دين أظهر من الاحترام ما لا يضمره له من احترام بل في كل بلد فيه حل تقلّد للكهنوتية مراتب وادّعى دينه له ديناً وبذلك وقف العقل في الفلسفة الشكيّة الموقف الذي له يأبى في حالة تعقّله وكامل وعيه... بيد أن رغم ذلك فإن الشكية، كالفلسفة، وجدت لها مناصرين لأن فلسفتها إنما تزيح عن كاهل الفكر أعباء التفكير في إيجاد حلول

للمشكلات العقلية، فهي تجاه أية مشكلة لا تقف الموقف العلمي الساعي ببحوثه نحو المعرفة، كلا ولا تقف الموقف الفلسفي الساعي بتعقلات منطقه نحو المعرفة، وإنما تقف الموقف الذي يؤكد أن المعرفة لن تبلغ، وأن المشكلة لن تحلّ، ومن ثم فالأخذ بالواقع إنما الأجدى!.. ولكن.. الشكية ولئن كان لها شأنها في التفكير لأنها مدرسة اللاّأدرية وتأثيرها ملحوظ في بعض ما قد عرف التاريخ الفكري من فلسفات، إلاّ أن من هذه النقطة التي تستمدّ، كفلسفة، لها منطق مطلبه الطمأنينة السلبية تحمل الشكّية في عنصرها بذور فنائها كما إليها في دورها الراهن قد أسرع بهذا الفناء مطلبها للطمأنينة السلبية...

أجل... بانحصار مطلب «الشكيّة» في الطمأنينة السلبية حملت الشكّية في عنصرها بذور فنائها لأن الطمأنينة السلبية إنما حالة لا يستطيع العقل الإنساني الاطمئنان إليها أو السكون في أحضانها طويلاً، فطبيعته إنما التقصي والعمل ومن ثم فميله عن النوع السلبي في شكيته إلى النوع الإيجابي الذي يطالعنا متمثلاً تماماً في ظلال الأكاديمية بـ «أرسيزيلاس»، (٣١٥م ـ ٢٤٠ق.م)، لحظة أجال أرسيزيلاس منه النظر في هذه الأديان والمذاهب، المتخذة محوراً إلهاً قط لا يستطيع أن يقبل العقل له وجوداً، واندفع يتساءل:

إن وجود الإله ليس بأمر ظاهر ولذا فإن إثبات وجود هذا الأساس الذي تقوم عليه صروح الأديان إنما أمر يتطلّب تقديم البرهان بعد البرهان وليس مما قد قُدّم من البراهين برهان قاطع الإقناع!.. وحتى! حتى إذا افترضنا وجود إله فإننا له لن نعرف!.. لن نعرف صفاته ما لم نعرف ذاته... وذاته؟... ذاته، إذا وُجدت، فذات خفية محتجبة!..

ثم!.. طويلاً قد أجهد العقل الإنساني نفسه وراء محاولته التثبُّت من وجود إله حتى أجهده الإجهاد!. فما له؟ ما له يجهد نفسه حتى المدى محاولاً إثبات وجود إله؟! وما له، ما له يضفي على هذا الإله صفة الخير ويجعله نفسه نفس الخير؟!.. ألا يرى العقل هذا الشرّ المترع الكون ويرى فيه الدليل القاطع على انتفاء العدالة وبطلان الرعاية؟! أليس المرض والألم براهين ثابتة على فقدان المنهج الثابت في الكون أم ليس في هذه الأدلة البرهان القاطع على انتفاء وجود إله؟!..

شاكاً ومُتشككاً ومشككاً وقف العقل الإنساني وهو، في ظلال الأكاديمية الأولى، بهذه الشخصية يتمثَّل قاطعاً برأيه على فقدان المنهج الثابت في الكون يقدّم برهان النفي على وجود إله ولكن!.. هذا البرهان، برهان النفي المحاول إبطال براهين الإثبات، إنما برهان لا يقبله العقل الإنساني إلاّ تحت ثقل من وطأة الإرهاق التي تحل به في أعقاب كل فترة زمنية سطّر تاريخها القائم من الأحداث السياسية كهذه الأحداث التي أصابت في هذه الفترة

الزمنية صميم الحياة الإغريقية عامة وطبعت التفكير الفلسفي خاصة بطابع الاضطراب، فالسيادة الرومانية التي بدأت في القرن الثاني ق.م، قد بسطت ظلّها على الإغريق، ١٤٦ ق.م، وهذا هو الدور الذي للشكّية من أرسيزيلاس تناول؛ «كرنيادس» أهم شخصية أوجدتها الأكاديمية في مضيق الشك!..

بنقد المعتقد الإلهي الرواقي بدأ بكرنيادس النقد الشكي لعقيدة الألوهية عبْر منطق له جرى قائلاً:

إن الفكر الإنساني إنما يقع في بيِّن التناقض إذا ما حاول وصف الإله بصفات إيجابية... مثلاً كوصفه له بالحياة...

ألا يرى الفكر الإنساني أنه إذا كان الإله يتصف بالحياة، اتصف قطعاً بكل صفات ما هو متصف بالحياة؟!

إن كل ما هو متصف بالحياة قطعاً، متصف بالإحساس فكل حي حسّاس؛ ومن ثم فيكون للإله، تبعاً لاتصافه بالحياة، ما للإنسان من إحساسات!

والإحساس؟ الإحساس بالإحساسات يحدث شعوراً من شأنه أن يحدث تغيّراً فيه ومن ثم يتضح تماماً أنه إذا كان الإله متصفاً بالحياة فهو متصف بالتغير من حيث إنه خاضع للتأثر والحال الحال بالنسبة إلى بقية أنواع الحس!.. بل إننا إذا نظرنا إلى الحسّ من حيث طبيعته وجدنا أن الحس يقتضي ويتضمن من هذه الناحية تغيراً، ومن ثم فإذا كان الإله بالحياة متصفاً فهو حتماً إنما راضخ للتغير والراضخ للتغير والقابل له لا يمكن أن يكون أزلياً أبدياً!.. قط لا يكون ولا يمكن أن يكون الراضخ للتغير سرمدياً... ومن ثم فإن فكرة اتصاف الإله بالحياة تتناقض تناقضاً بيناً والطبيعة الأولى للإله!

عن «الإله» ترتد من ثم صفة الحياة كما عنه أيضاً ترتدّ صفتا التناهي واللاّتناهي!.. فقط! قطّ لا يمكن أن يكون الإله لا متناهياً لأنه إذا كان لا متناهياً فلن يكون ذا روح!

قطّ لا يمكن أن يكون الإله متناهياً لأنه إذا كان متناهياً فسيكون جزءاً من شيء منه أكبر يستطيع له احتواء وبالتالي سيكون نفسه لهذا الشيء الأكبر منه خاضعاً، ومن ثم فإن فكرة المتناهي واللاّمتناهي تتناقض وطبيعة الألوهة!..

ثم... إذا ارتدت عن الإله صفتا التناهي واللاّتناهي فحتماً ترتد عنه أيضاً صفتا اللاّتجرّدية والتجرّدية!..

قطّ لايمكن أن يكون الإله متصفاً بالجسمية لأن الجسم فانٍ وللألوهة إنما، منطقياً، غير قابلة للفناء!. ومن ثم ففكرة أو عقيدة الجسمية تتناقض تناقضاً جوهرياً وطبيعة الألوهة!.

كما أن قطّ لا يمكن أن يتصف الإله بالتجرّدية أو اللاّجسمية!.. قطّ لا يمكن أن يوصف الإله بأنه لا جسمي لأن اللاّجسمي، تبعاً للمذهب الرواقي، هو الذي لا يفعل، ومن ثم فالصفة إنما تتنافى والعقل والعقل إنما صفة أولى من صفات الألوهة!..

من ثم فيقيناً! يقيناً إن الفكر الإنساني، إنما يقع في بيّن التناقض إذا ما حاول أن يصف الإله بصفات إيجابية بل كل التخبّط، إنما الفكر الإنساني يتخبط إذا ما وصفه بإيجابي الصفات إلاّ إذا فهم وفهّم أن هذه الصفات ليست كصفات البشر وبذلك ينهج منهجاً يضيف فيه إلى الإله صفات كلها؛ سُلُوب!

إلى هذه المرحلة من التطور تطوّرت «الشكّية» منذ «فيرو» حتى «كرنيادس» ومن ثم كانت أن حملت في تطورها هذا عنصر فنائها، فهذا التطور إنما قد خفف من قديم حدتها، وبعض التلاشي تلاشى غلوائها هذا الذي تجلّى أول ما تجلّى بـ «أرسيزيلاس» الذي مال إلى نوع من الفعلية تقول بلا حاجة الحكيم من أجل أن يفعل إلى المعلومات اليقينية، فهو إنما يستطيع الاكتفاء من أجل الحاجة العملية بالأقوال المحتملة والظنيات كلا!.. إن أرسيزيلاس لا ينكر كل معرفة وإنما يضطر من الناحية العلمية إلى القول بالظنّيات مما من شأنه أن يؤدي إلى إمكان العمل إلاّ أن بكرنيادس نرى أن «الشكّية» قد تطوّرت إلى الحدّ الذي أعلنت فيه أن من الأشياء ما لا يمكن معرفته وإنما يمكن معرفته وإنما يمكن معرفة أرجحية البعض على البعض الآخر!...

هذه هي «الرياح الشكّية» التي هبّت في أرجاء هذا الطور وراحت إلى حيث جلس «الإلهي» وتمشى «العقل» تخفق دوياً في أرجاء «الأكاديمية» وفسحات «الرواقيون» تعلن فقدانها تعريف «المعرفة» واتخاذها الشك في المعرفة، سواء أكانت حسّية أو عقلية، مذهباً يهوي بعقيدة «المثُل» ويستنكر قيمة «الكليات»!

ولكن!.. سرعان ما هدأت هذه العاصفة العاتية وإلى الزوال كان حتماً لها المصير وكأثر لرواحها وجد العقل الإنساني نفسه يلقي بنفسه في أحضان الاسترخاء.. وهنا في أحضان الاسترخاء استرخى العقل فهبّت من مضجعها قديم الذكريات وحومت في أفق مخيلته للماضي أطياف، فجلس... جلس، وصروح الماضي أمامه قد غدت ركاماً، يلاحق منه التفكير للماضي صوراً وللماضي يستعرض أحداثاً...

هذه هي الفترة التي بُعثت خلالها «الفيثاغورية» تحت لون جديد... وهذه هي الفترة التي تنازعت العقل غضونها من المذاهب مذاهب نفسها بقايا مذاهب!

ولكن! هذه الفترة التي هدأ فيها السعير الشكيُّ وضعفت فيها، بعد تضاعف، الرياح الشكية إنما هي أيضاً الفترة التي سجّلت فيها يد الزمن:

انحسار الرياح الشكّية عن رسوخ الرواقية

على صلد الصخر الرواقي تكسّرت في تبدّد الرياح الشكّية التي كانت قد تدافعت عواصف أزيزها الإلحاد!.. وأمام ما قد شيّدته الرواقية من صرح ثبّت اللوغوس أركانه ووطّدت «المحبة في اللّه» قوائمه ارتدّت في ارتداد هذه الموجة الشكية لتروح فتتلاشى شيئاً فشيئاً وذوباً تذوب في الموجة الرواقية الممتدة من الطور الأول للعصر غامرة الطور الثاني من أرجاء الشرق القديم عامة والإسكندرية خاصة، حيث لم يتخلّ الجانب الأكبر من المجتمع فيها عن الرواقية بل في إخلاد إليها ظلّ في مهب الرياح الشكية يردد كلمتها «بالكلمة» ترديداً إليه يعود السبب الجوهري في رسوخ الرواقية بمبادئها وتعاليمها في الوعي البشري والأيام عبر الزمن تسير من منتصف القرن الثاني ق.م حتى منتصف الثالث ب.م وتسجّل:

التفكير الديني في الطور الثاني للعصر الهلليني الروماني

أهم الظواهر طُرّاً في هذا الطور، الذي انبثقت فيه المسيحية، وفيه إلى مذهب نمت، وفيه تطورت من مذهب عن الموسوية انسلخ إلى دين، ظاهرتان:

رسوخ المذاهب الفدائية في النطاق الديني وسيادة المذهب الرواقي في الرحب العقلي

إلى المذاهب الفدائية سكن القلب، وإلى المذهب الرواقي خلد العقل وعبر هذين التيارين وجد إنسان هذا الطور نفسه قسماً بينهما مشاعاً، القلب منه إلى ما تحتويه المذاهب الفدائية من عقائد منجذب، وإلى الرواقية النفس منه مستجيبة، ولكن!... ليجد في نفس الوقت أن بقدر ما تستحكم في طواياه عقائد مذاهبه الفدائية فإن إلى الرواقية منه أيضاً، إلى جانب العقل، القلب يسكن ويستكين...

بـ **«كليانثاس»**، (٣٣١ ـ ٢٣٢ ق.م)، تطالعنا واضحة تمام الوضوح هذه النزعة، فبه قد امتدت من آسيا الصغرى الرواقية وبمدد منها سرى في كل أرجاء هذا الطور ترديده عنها بأن اللّه روح يسري في جميع أجزاء الكون وأن من ذلك الروح إنما كل روح قبس ـ وأن الوجود تنتظمه دورات ـ وأن من «النار العاقلة» تبدأ جميع الأشياء وإلى النار تعود..

لا ثمة شك في أن إمام اللاّهوتيين في المذهب الرواقي كان كليانثاس!.. فقد أسهب في إقامة الأدلة على وجود اللّه إسهاباً لاهوتياً ومن براهينه اللاهوتية قوله: إن اختلاف المزايا والطبائع يستدعي تمييز بعضها على بعض وأن يكون بعضها أفضل من الجميع مثلاً؛ الفرس أفضل من السلحفاة والأسد أفضل من الثور، والثور من الحمار، وليس على الأرض ما هو أفضل من الإنسان، ولكن الإنسان مع ذلك لا يرتقي إلى المنزلة الفضلى ولا يسلم من الضعف، فليس هو مثال الكمال بين الموجودات. ومن ثم لا بدّ أن يكون الموجود الحي

الكامل شيئاً غير الإنسان وأن يكون موجوداً مستكملاً للفضائل منزهاً عن كل ضعف ومثل هذا الموجود يطابق صفات الإله فالإله من ثم موجود!

وأنّى! أنّى يمكن للعقل في حالة تعقّله أن ينفي وجود إله وأمامه من مسببات الإيمان بوجود إله هذا النظام الكوني المحكم الذي يملأ النفس رهبة أمام أسرار الوجود وروائع ظواهره والذي يبدو للنظر في حركات الأجرام السماوية ومواعيد الأفلاك والبروج مما يرفض العقل حدوثه بالمصادفة والاتفاق!... بل لا يرفض العقل حدوث هذا النظام بالمصادفة والاتفاق فحسب وإنما.. إنما العقل لا يسعه، وهو الذي يرى في كل دقيقة الدقة المتناهية، إلاّ أن يعلن أن اللّه إنما روح متغلغل في الوجود، وأنه يقيناً إنما؛ «الكلمة»!..

عبر هذا الصوت المنطلق قوياً في أرجاء عصره يؤكد في الذاكرة ذكرى «الكلمة» استرسل المدُّ الرواقي زاحفاً إلى حيثما التقط المسمع البشري هذا الصوت لتغمر، من جرائه الرواقية أرجاء العصر غمراً تاماً ولترسخ بين جوانبه عقيدة «الكلمة»!

أجل... مذ القرن الثالث ق.م بدأ التاريخ رسوخ المذهب الرواقي في العقلية البشرية رسوخاً ازداد والأيام تسجل الطور الذي ساد فيه هذا المذهب الرحاب العقلي ومنه امتد يسيطر سيطرة تامة على أرجاء التفكير الديني لتلجّ هذا التفكير الديني عقيدة «الكلمة» وعليه تسيطر، فإن سيطرة المذهب الرواقي إنما معناها سيطرة عقيدة **«الكلمة»**

استهوت «الكلمة» التفكير الديني للعصر ومن ورائه العقل الجماعي فامتلكت عقيدة «الكلمة» العنان من العقلية البشرية في سائر مراتب تفكيرها وعقدت في طواياها «العقيدة الحلولية» في الوجود، وبعد النظرة الذرّية اعتنق العصر العقيدة الكلية للكون وبسبب هذه العقيدة القائلة بأن الوجود منشؤه «الكلمة» بدأت الأيام من هذه النقطة الجوهرية تسجّل تحوّل الرواقية تمام التحوّل من فلسفة إلى مذهب ديني امتد غامراً الطور الثاني من هذا العصر الذي عبثاً نحاول أن يصغي فيه إلى شيء آخر غير لهج الألسن «بالكلمة» وتجاوب الدوي الفكري والديني والجماعيّ بعقيدة «الكلمة»!..

سادت عقيدة «الكلمة» أرجاء التفكير البشري ومن ثم مثّل هذا الطور سيطرة الرواقية المتأخرة، ففي هذا الطور رجعت الناحية اللاهوتية المتأثرة بالفِكَر الدينية للقدامى ومن ورائها العقل الجماعي أصداءَ عقيدة الناحية الفكرية المتأثرة بالرواقية، ومن ثم فدوّى الطور بعقيدة «الكلمة» ووقوفه عند اعتبارها أصل الوجود ومنشؤه ولكن!.. بين هذا الدوّي يلتقط المسمع تعريفاً جديداً «للكلمة» ينساب من أروقة الرواقية، فالتعريف الرواقي «للكلمة» في هذا الطور قد طلع يقول:

إن «الكلمة»، والكلمة هي اللّه واللّه روح الوجود، إنما: **روح قدس!**

رفرف «الروح القدس» وعلى أفق التفكير البشري بسط جناحيه!.. بسط جناحيه غداة همهمت مياه البحر الأبيض باسم الإسكندر على شاطىء به طلعت بين المدن، الإسكندرية... فمذ أصبحت الإسكندرية مركزاً للحياة الفكرية الإغريقية تبعاً لقيامها قاعدة للحياة التجارية الشرقية، بدأت سيطرة الرواقية سيطرة تامة تطالعنا مكتملة باستهلال الحكم البطليموسي غداة بدأ هذا الحكم بالاستفادة من النظريات الدينية والسياسية لمصر القديمة تلك الاستفادة التي طلع بها على دنيا الدين:

الدين السرابيسي

للبطالمة انتشر على وادي النيل حكم حلّ فوجده للوادي ديناً محوره «آمن» والمذهب السائد فيه مذهب أوزير... ووجد عن أوزير قصة إليه تأتي متطورة في صورتها المتأخرة محورها عائلة مقدسة يؤلفها ثالوث مكوّن من الأب والأم وابن هو من الروح القدس وليد، ونفسه «الروح القدس»... ووجد أن العناصر المهمة المكوّنة للقصة إنما الولادة الإعجازية بين أحراش الدلتا للروح القدس وإحياء «السيد الشهيد» من الموتى رباً وصعوده إلى مملكة أبيه السماوي، يستقرُّ فيها منه المقام ملكاً يمنح التابعين مذهبه منحة الخلود!

وجد الحكم البطليموسي أن هذا المذهب إنما مذهب لا فحسب يجترف وادياً يتراجع أمامه ما قد حمله معه من دين وإنما هذا المذهب قد امتد إلى ناحية قوية من القلب الإغريقي وليجد أن «أوزير» قد احتل هذا القلب الذي حلّ فيه مذ القدم زيوس!

إلى جانب زيوس حلّ في القلب الإغريقي النابض في أحضان الإسكندرية أوزير ليحل في هذا القلب أيضاً، تبعاً لحلول ملك الموتى فيه، راعي المقابر؛ «أبيس».

لا ثمة شك في أن هذه إنما ظاهرة تنادي بالحاجة إلى وحدة دينية تضم برباط واحد إلى العنصر الأصيل العنصر الدخيل... فليس إلاّ بسبب هذه الظاهرة أطرق من البطالمة الأول ممّن حمل اسم بطليموس ومَنْ به بدأت مظاهر الاستفادة من النظريات السياسية المصرية... إطراقة أعقبها اجتماع «تيموثي» اللاهوتي الإغريقي بـ «هانيتو» اللاّهوتي المصري ليعقب هذا التداول الديني ذلك النصّ في اللاّهوت الذي جاء بتحريف للألوهة جديد حوّر فيه اسم أوزير واسم زيوس وأضيف إليهما أبيس ليطلع على الدنيا «إله السماء» تحت اسم جديد أعلنته معاً أنفاس اللاّهوت المصري والإغريقي تحت اسم: **سرابيسي**

أنشأت الدوافع السياسية للحكم البطليموسي هذه الألوهة التي ما رفعت عنها أيدي اللاّهوت المصري والإغريقي على مسرح التفكير الديني الستار إلاّ وخاشعاً مبهوراً وقف

العقل الجماعي الإغريقي معاً والمصري يحني، اعترافاً بها، أمامها الهامات!. فللإغريقي قد طاب أن يرى أوزير ممثلاً في إلهه المستوي على عرش السماء وللمصري قد أرضي أن يرى أوزير يحتلّ عرش السماء!.

أجل... لأوزير ظلّت التسمية على ما هي عليه عند الكهنوت المصري وفي المعابد المصرية، وإنما عند العقل الجماعي المصري والإغريقي طغى اسم سرابيس على اسم زيوس واسم أوزير ومن ثم تشابك الأيدي، مصرية وإغريقية، وانطلاق الحناجر بمتباين اللهجات تنادي الإله الجديد نداءها التقليدي القديم: «**يا أبانا!**»

وإلى «الأب السماوي» ارتفعت التسابيح في أرجاء الوادي تتغنى: «نحن أبناؤك!..» «إننا في حفظك ورعايتك أيها المخلص!»

من اليد البطليموسية رشف الوادي من جديد الرحيق العتيق فترنّحت أعطاف الوادي طرباً بألوهة سرابيس!...

وخوفاً على هذه الظاهرة من الزوال أسرع مؤلفو هذه الألوهة إلى صبغها بصبغة الواقع عن طريق تدعيمها وتثبيتها في هذه النفس النشوانة بتأثير الخمر القديم الذي تنهله في كأس جديد، فأقاموا في عاصمتي الوادي لسرابيس بيتاً بعد آخر، ففي مصر الفرعونية أقاموا في «منفس» لسرابيس بيتاً وفي مصر البطليموسية أقاموا في الإسكندرية له بيتاً آخر يحمل اسم الـ «سرابيوم» الذي لم يكتمل منه البناء إلاّ وأعلنت أنفاس الزمن قيام دين بشرعيته قد اعترف الحكم القائم فأعلن أنه الدين الرسمي للوادي!...

عبثاً عن جديد يُطوِّف الفِكْرُ في صرح هذا الدين الذي رفّ على البلاد طوال الحكم البطليموسي منذ المشرق منه حتى المغيب (٣٢٣ ـ ٣٠ ق.م) فانتشر لقرابة ثلاثة قرون من الزمن ديناً رسمياً!.. عبثاً يطوِّف الفكرُ في صرح هذا الدين بحثاً عن جديد في الأساس وعن جديد في الأركان، فلا يرى إلاّ صورة من القديم!..

إن سرابيس إنما أوزير!.. ومن ثم فالأسس والأركان من هذا الصرح إنما بحت أوزيري!.. كل عقائد المذهب الأوزيري من بعث جسدي ومحاكمة وحساب وميزان وجحيم وجنة، إنما بالدين السرابيسي ترجّع في وعي الأجيال أصداء!.. أصداء لا ترجّع في هذا الوعي ذكرى أوزير فحسب وإنما تؤكد وتمكّن العقيدة الأوزيرية بهذه الديانة التي ردّدت في مسمع دنيا تلك الدنيا دوياً عقيدة الخلود الجسدي والإيمان بسيد شهيد أحياه أبوه السماوي ومن الموتى في اليوم الثالث جسداً قام!. ومن ثم احتلّت التفكير الديني ومن ورائه العقل الجماعي فكرة «ملكوت السماء» و«أحضان الأب السماوي» وليصرفه هذا التفكير إلى الانصراف

بالتفكير عن هذا العالم إلى عالم «فيما بعد»!..

إن الحياة ليست رهينة الحاضر، رهينة الآن، رهينة هذا الزمن رهينة الأُمس واليوم والغد كلا!. وإنما الحياة رهينة «فيما بعد».. من ثم فعن الأُمس واليوم والغد أشِح ببالك إلى «يوم» لا محالة آتٍ!.. «يوم»، فيه سيلقى كل امرىء أعماله حاضرة ليلقى جزاءً عدلاً على كل ما قد صنعت يداه وقدّمته من خير وشر فإنما مادي سعير وجحيم وإما للخلد جنات وحسْي نعيم.. ولكن!

لا يثقلن منك أنك بالآثام مثقل فللتوبة باب أبداً غير موصَد وعلى مصراعيه دائماً مفتوح فهناك طريق للغفران من الآثام واقتلاع الغرور من القلب هو:

اتباع القانون الأخلاقي الأوزيري

بهذه المعتقدات، عقيدة التوبة والخلاص والغفران و«ملكوت سماوي» فيه عن هذا العالم عوض ووقفٌ هو على التابع القانون الأخلاقي الأوزيري المتلخص في «الفضيلة» والمطالب الإنسان بأن يحيا حياة منتظمة معتدلة روحها المحبّة والسماح ونبذ دنيويّ الملذات انتظاراً لما تأتي به الحياة «فيما بعد»، ضمت الوحدة العقيدية إلى المصري الإغريقي لتسير بهما العهود السياسية للحكم البطليموسي هادئة في ظلال هذا الدين الذي صبغت نظرته إلى «فيما بعد» كل ما جابهه من المشكلات بصبغة محض أوزيرية، ومن أهمّ هذه المشكلات مشكلة الخير والشر، فقد غدا الخير والشر حقيقتين محصورتين في الانحراف أو في الاتباع للقانون الأخلاقي الأوزيري.. وكذلك الجزاء من ثواب وعقاب قد غدا أيضاً رهين «فيما بعد».. لا هنا وإنما هناك فإما جحيم فعدم وإما نعيم في عالم خُلد!...

أجل... بهذه المعتقدات استقرّ الزحف الديني السرابيسي في سويداء القلوب، فليس إلاّ بمنحة الخلود يعد هذا الدين النفس المرهقة من اتباعه ويجعل شرطاً للخلود الابتعاد عن الآثام ومن الشرّ الخلاص، فإن الذي يحيا حياة منتظمة مقدسة روحها التماشي وفق القانون القديم للعدالة فالخلاص لا محالة النهاية وأما المنتهى فالخلود!.. وللسبب كان لهذا الدين المراسم خفية يترقى فيها المريد على أيدي الكهان والرؤساء في المحاريب السرّية وأول هذه المراسيم صلاة القبول ـ التطهير ـ وصلاة البعث التي يهب فيها المريد يطلب الحياة بالروح طالباً الخلاص من قيود الجسد وشهوات الغرائز، بعدها يعتبر من الواصلين إلى مرتبة الصالحين!

بهذه الفكرة، فكرة الخلاص من الآثام والخلود لم تضم الديانة السرابيسية إلى المصري الإغريقي فحسب، وإنما إليها أيضاً اجتذبت بقصة مددها محض عاطفي من على هذه الصفحة من الدنيا كان منتشراً غير الإغريقي وغير المصري من العناصر التي أقبلت بها إلى

الإسكندرية مطالب العيش والتجارة ليجد العصر نفسه يعيش في أرجاء دين يقوم منه الصرح على أساس محض عاطفي فمادته الجوهرية تكوّنها أصول تقوم على عقيدة أساسية بها تطالعنا التيارات المذهبية التي أجراها على صفحة العصر هذا الدين.. فكأثر لانتشار هذا الدين ديناً رسمياً للبلاد في غضون القرون الأولى لقبل المسيحية وقبيلها ودوّي الأرض بعبادة ترتفع عبر الأناشيد إلى أوزير تناديه «يا أبانا الذي في السماء» وتتجه نحوه الدعوات تستصرخه سيداً شهيداً ومخلِّصاً الناس من العذاب ومانحاً الخلود رسخ بعقائده المذهب الأوزيري في وعي الزمن، ومن ثم كان حتماً أن تجري في نفس تيار هذا الدين ألوان من العبادات محورها المذاهب التابعة للمذهب الأوزيري، فتبعاً لتحول الوجه الإغريقي نحو رب الخلود تحوّل، حيثما امتدت للإغريق ظلال، هذا الوجه إلى «إيزي» ولكن ليضيف إليها من اللِّسان «السين اليونانية» ويناديها:

إيزيس

كأثر لانتشار الدين السرابيسي انتفضت من طيّات القدم «إيزي» وانفضّت عنها أردية الزمن تحت اسم إيزيس لتحتل أفق التفكير الديني في عالم العصر الهلليني الروماني بل لتسود من هذا الأفق الأرجاء سيادة سجّلت:

امتداد مدّ المذهب الإيزيسي

كأثر لانتشار السرابيسية ديناً رسمياً للبلاد طلعت «إيزيس» لتحتلّ أفق التفكير الدينيّ في هذا الطور من العصر سيدة واحدة للسماء!. فقد أشرقت إيزيس كفكرة تجسّمت فيها المعالم الروحية والمُثل العليا للقِيَم الإنسانية ومن ثم تحولت إلى صورة متجسّدة للطهر!... صورة!. نحوها راح يتجه من الإنسان الوجه يتلمسها في ما قد أشاد لها الحكم البطليموسي من بيوت انتشرت في أرجاء جزر البحر الإيجي والشواطىء الإغريقية وآسيا الصغرى وامتدت إلى حيث ما زال أحدها قائماً حتى اليوم في جزيرة فيلة وهو الذي نسميه الآن قصر «أنس الوجود».. وبهذه الصورة انتشرت لإيزيس عبادة لا فحسب لأن مذهبها يعد تابعه وعداً قاطعاً بسعادة العالم الآخر حيث الحسنات تضاعف والسيئات تجازى بمثلها، وإنما لأن بقيام السرابيسية ديناً رسمياً كان حتماً أن تقوم إيزيس وفي أفق المخيّلة الدينية للعصر الهلليني الروماني كان حتماً لها أن تحتل سيادة السماء!

أجل... كأثر لارتفاع الشأن من أوزيرس، فوق ما كان له من الشأن عند المصري، عند الإغريقي أو بالأحرى عند البطالمة وعاصمتهم قد أضحت حاضرة للحضارة الإغريقية ومركز الدين الرسمي، ارتفع شأن إيزيس وكأثر لهذا الارتفاع بدأ الظلّ الإيزيسي ينتشر على المُدن

الآسيوية المنتشرة تحت الظلال البطليموسي، فالسجلات الرسمية لهذا العصر بالإضافة إلى ما قد تركه هذا العصر من تماثيلها المنتشرة في أرجاء دنيا تلك الدنيا ترينا أن المدن الواقعة تحت الظل السياسي المصري قد ألحقت بإيزيس كل ما قد عرفت السماء من سيدات بل وفيها في إفناء أدمجت كل ما قد ساد مخيلتها من قبل من سيدات للسماء.. وأبرز مثل لهذا الإدماج الإفنائي همس شفاه العصر بنعوت لإيزيس جديدة، ففي ديلوس أصبحت إيزيس «إيزيس أفروديث» وفي أرجاء العالم الإغريقي أصبحت «إيزيس أثينة» و«إيزيس ارتميز» و«إيزيس هيكات».. ولتبرز هذه العقيدة التي عقّدتها العاطفة في أعماق القلب البشري وتتخذ لها صوراً عدة، ففي هذا العصر اتجه إلى إيزيس الجانب الأكبر من القلب البشريّ وإليها، صورة للطهر مجسّمة، هفا تتدافع نبضاته باسمها تسبيحاً، فالطهر الخالص يجري في مذهبها شريعة تُكلِّف تكريس الحياة للطهارة الداخلية...

صورة!.. صورة، إليها صبا القلب الإنساني وأشعلت في سويدائه للطهر نوراً لا فحسب في الثغر المترنّم باسم الإسكندر وإنما في أثينا وفي قبرص وصقلية وإنطاكية في امتداد إلى ضفاف التيبر وقزوين غامرة بعد شواطىء البحر الأبيض شواطىء البحر الأسود!... في كل هذه الأرجاء الشاسعة من الدنيا القديمة خفق القلب البشري بحب إيزيس، وخفقت بخفقة بين الجوانب لهب الحب الطاهر دافعة الراحة إلى الالتقاء بالراحة لتعقد الأصابع وتسبل الجفون وترتسم على الجبين لإيزيس صورة ما يعلقه لها على صدره من أيقونات ويهوى بخيال يروح لها عابداً من خلال تماثيلها القائمة في بيتها وفي المحاريب!.. صورة!. توقد لهب الشعور وتومض وميض الطهر. فبالصورة تحفّ مشعلة الشموع، والزهر أمامها ملقى، وبها يحفّ كهنوت لها محلّق الرؤوس مكرّس الحياة **للرهبانية**، يرسل الصلوات والأناشيد تسابيح من حناجره نغماً يرجعه رحاب المعبد وتعيده أصداءً رنانة متسع الأبهاء وبمنح البركة القدسية ينهي هذا الكهنوت قداساً استهله برش «الماء المقدس».. **قطرات** تُرش على «المؤمن» تطهيراً له ومن الخطيئة والإثم فيها له تعميد وعماد!

صورة، لسيدة السماء المصرية حفرت في مخيلة العصر حفراً وعلى أرجائه بسطت لها ظلال فإلى حيثما امتدت من الإغريق الظلال، امتدت «إيزيس» طاوية ما قد عرف من سيدات عذراوات!...

الإشراق أشرقت «سيدة السماء» المصرية فبهت في أرجاء العصر ما قد عرفت منه المخيلة من سيدات للسماء ومن سيدات عذراوات... في «إيزيس» طُويت سيدات السماء وعذراوات وانتشرت في آفاق العصر الهلليني الروماني «إيزيس» **سيدة واحدة للسماء!..**

أجل... تحت هذا اللون من الانتشار انتشرت في دنيا العصر الهلليني الروماني عبادة سيدة السماء إيزيس، وامتداد الظل السياسي الإغريقي للعصر امتدت هذه العبادة لا فحسب حتى روما من شواطىء آسيا الوسطى وأحواض البحر الأبيض المتوسط وإنما حتى ضفاف قزوين وشواطىء البحر الأسود... وليبقى هذا الانتشار على أشده منذ القرن الثاني ق.م حتى القرن الرابع ب.م حتى عهد تطور المسيحية من مذهب وقيامها ديناً رسمياً عهد حلّت محل سيدة السماء إيزيس سيدة السماء مريم...

أنفاس العصر نفسه سِجلٌ لهذه الظاهرة التي لا ثمة شك أنها تطلعنا على ناحية عميقة من النفسية البشرية، والعقلية البشرية لا فحسب في الناحية اللاّهوتية للعصر الهلليني الروماني خاصة وإنما في الجماعية عامة، فالظاهرة تعطينا فكرة جلية وواضحة تمام الوضوح على أن العقيدة شيء والشخصيات الممثلة لهذه العقيدة شيء آخر، فهذه العقيدة، عقيدة سيدة السماء، قد عاشت وبتغير الشخصيات لم تتأثر وفي هذا إنما البرهان القاطع على أن العقيدة تعيش وأن الأفراد تتغير وتتبدّل، وأن بهذا التغير والتبدّل للأشخاص، العقيدة قط لا تتأثر، فإن الماضي لا يفنى إلاّ إدماجاً ولا يذوب منه الشعاع إلاّ إشعاعاً!

حتى عهد انتصار المسيحية وقيامها ديناً رسمياً، حلّت بقيامه مريم محل إيزيس، ظلّت سيادة السماء وقفاً على إيزيس، وطويلاً قبل أن ينقلب القلب إلى مريم ظل لإيزيس مكاناً!. ومحباً وولهاً بل ومؤلهاً عابداً إيزيس ظل الفكر غضون القرون الأولى للعصر الهلليني الروماني عابداً!. خاشعاً يخفق لمرأى الصورة منها في مجامعه الدينية تمثالاً يفجر في تربة النفس ينبوع حنين دافق يجري نحوها متجهاً وبها يحيط، فلقدميها يحمل الهلال، كأثر لإفناء هيكاتي سيدة السماء البيزنطية فيها، بينما على ذراعيها فمحمول الأُقنوم الثالث في «الثالوث» الطفل الإلهي الممثل روح القدس؛ **الكلمة**!

إن الطفل الإلهي هو «حور» من قد عرفته مصر القديمة «بابن إيزي»... ومن عنه تجري القصة الدينية الأوزيرية في صورتها الجديدة القائلة، بمدد من القديم: إن سيدة السماء قد حملت به بطريقة إعجازية... ومن ارتفع منه الشأن في أرجاء العقلية الإغريقية كأثر لارتفاع شأن إيزيس فإن باحتلال إيزيس أرجاء العصر الهلليني الروماني سيدة للسماء تحوّل إلى «حور» الانتباه التحول الذي حوّل منه الاسم المصري «حر ـ با ـ خرد» إلى اللهجة الإغريقية فغدا «هر ـ بو ـ كرات» أو هربوقراط، وغدا يُمَثَّل واضعاً سبابته على فيه علامة على أنه «الكلمة»!

وفي مَنْ عن القديم ردّدت شفاه العصر الجديد تناديه «ابن إيزيس» أدمج، إدماج سيدات

السماء في إيزيس، أبناء الإله واحداً بعد واحد... قفا في التلاشي ابن الإله بعد ابن إله وغاب كل في «حور» مَنْ، كما تدوّي ترجيعاً القصة الدينية المعتمدة للعصر، به حملت سيدة السماء حملاً إعجازياً ليخرج إلى الوجود للإله ابناً وحيداً وحبيباً هو في نفس الوقت، كأثر لسيادة التفكير الرواقي؛ «**الكلمة**»...

هذا هو السبب الذي وقفت به في إطار العصر الهلليني الروماني، سيدة السماء العذراء إيزيس صورة مجسمة للطهر تهز أغوار القلب حباً لاهفاً عارماً وتومض في شعاب النفس حنيناً لاهباً أبداً جذوته من بعد لم تخبو، فبين ذراعيها الطفل الإلهي ابن الإله «الكلمة» محمول ولقدميها حامل الهلال!

صورة! في مخيلة العصر حفرت منها الآثار حفراً بتماثيلها التي أترعت أرجاء العصر تعلن أنها عقيدة احتلّت العصر احتلالاً راسخاً وعلى نواحي التفكير فيه سيطرت تمام السيطرة فإلى «سيدة السماء» الواقفة على الهلال تحمل الطفل الإلهي، المُمثّل «الكلمة» بين ذراعيها قد شخص البصر خاشعاً وبها علق الوجدان عابداً وإليها إخلاداً خلدت النفس!.. إليها خلدت النفس فلها، عقيدة، أبداً لم تجف وعنها أبداً الجفن الإنساني من بعد لم يغف!.. لم يغف الإنسان إلاّ عنها صورة ظلّ بها الجفن منه عالقاً ويد الزمن تستبدل لها أسماء وتغير منها الأشخاص!...

هذه هي التيارات المذهبية التي تكوّن الأسس المحض عاطفية لصرح الدين السرابيسي، والتي تطالعنا بها مادته الجوهرية كما تكوّنها أصول تقوم على عقيدة تمثل القاعدة الأساسية لهذا الدين ومحورها:

ثالوث الإسكندرية

حتماً كان والقلب من العصر يتقاسمه حور وإيزيس وأوزيرس أو سرابيس أن يطلع، بمطلع الدين السرابيسي، على دنيا هذا العصر ثالوث جديد من مادة القديم مستمد وفي جدته غير جديد، تكونه:

«العائلة المقدسة»

و«العائلة المقدسة» تنحصر العصر في:

سرابيس؛ كأب سماوي

وإيزيس؛ كأم إلهية

وحور؛ كطفل إلهي

«عائلة مقدسة» أفرادها أشخاص ثلاثة، الأب والأم والابن.. «عائلة» ما حلّت القلب إلاّ واحتلت منه الأرجاء بمعتقداتها المنحصرة في أب سماوي، وسيدة سماء عذراء وكلمة هي روح قدس هو المحور من هذه المعتقدات.. «عائلة» سيدها سيد شهيد بُعث بعد موت، ومن الموتى قام وصعد جسداً إلى ملكوت السماء من الألم مخلّصاً ومانحاً الناس منحة الخلود «عائلة» بها عقدت بين جوانب العصر:

«عقيدة الثالوث الأقدس»

في هذا «الثالوث الأقدس» يقف، في النطاق اللاهوتي، الإله والكلمة نهاية الطرفين تحت المعنى الرواقي من التعبير من أن الكلمة هي اللّه واللّه هو الكلمة ولكن عن هذه الناحية اللاّهوتية المتأثرة بالرواقية شذّت المجموعة الجماعية فلم ترَ في أقانيم هذا «الثالوث الأقدس» إلاّ أفراداً منفصلة بعضها عن بعض!..

ومن ثم فإذا ما طالعنا في أرجاء العصر هذا «الثالوث الأقدس» فليس إلاّ لنفرّق فيه بين المجموعة الجماعية التي رأت فيه أباً سماوياً وأما إلهية وابناً وُلِدَ بطريقة إعجازية، وبين الناحية اللاّهوتية التي لم ترَ فيه إلاّ أقانيم منتشرة في وحدة وإلاّ مظاهر لواحد كرسيه السماء وبالأبوة تناديه، واحد، فيه ترى «الكلمة» التي تعتبرها بمثابة «الروح القدس» وفي آن الآن بمثابة «الابن» ولكن!. في خلط يجيء إلينا مختلطاً الصوت اللاّهوتي بالصوت الجماعي دوياً يُردِّد الكلمة «بالكلمة» وأن «الكلمة» هي اللّه، واللّه هو «الكلمة» التي، كمبدأ لنشأة الوجود، تقف من الإله بمثابة «الروح القدس» وفي آن الآن بمثابة «الابن»!

بين «حور الأوزيري» و«الكلمة الرواقية» مزج اللاّهوت فعقد «ثالوث الإسكندرية» وأودع في وعي الوعي الجماعي «الكلمة الرواقية» ممزوجة بروح الإله ومشخّصة في حور كابن الإله!.. وبذلك حفر اللاّهوت في وعي الأجيال عقيدة تركت خطير أثرها في مرافق التفكير البشري في هذا الطور المستوعب قروناً ثلاثاً من الزمن انبثقت خلالها المسيحية وخلالها نمت من مذهب إلى دين، فإن بهذه العقيدة التي عقد اللاّهوت بها عرى وحدة دينية ضمّ بها إليه أواصر البلاد التي ترامى عليها للإغريق سياسي ظلال استحكمت عقيدة «الكلمة»، تحت هذا اللون من المزج اللاّهوتي، في العقلية البشرية استحكاماً سيطر على سائر مرافق التفكير الديني، وباستحكامها استحكمت عقائد تمثل من هذا الدين حجارة الأساس ولبنتها الخوارق المتلخصة في صور الولادة الإعجازية والصعود بعد الموت جسداً إلى السماء!. فلقد جاء هذا المزج اللاّهوتي بأهم ظاهرة بل وأخطرها وأعمقها تحكمت في سائر المرافق الحيوية لهذا العصر الذي استحكمت بل وتحكمت في تفكيره عقيدة «الكلمة»!...

لا ثمة شك في أن هذه الظاهرة أهم الظواهر طُراً في هذا العصر الممثّل المصب المتجمعة فيه تيارات الماضي تجمّعاً بسببه ازدحمت العقائد الدينية والفكر والفلسفة ازدحاماً لم تعل في خضمه إلاّ الكلمة «بالكلمة»!.. فقد علا، بين تياراته الهادرة بسيدٍ شهيد وبسيدة سماء وبابن إله هو من الروح القدس وليد وفي نفس الآن هو «الكلمة»، التيار الهادر باسم «الكلمة» وبالدوي الفكري والديني والجماعي «بالكلمة» تجاوبت الأصداء تجاوباً لئن اختلف منه الرنين باختلاف المرتبة العقلية لهذه الجماعات، فاختلفت بذلك منها الكلمة في ماهية «الكلمة» إلاّ أن هذا الهدير لم يرجع إلاّ أصداء كلمة واحدة لم تختلف من حولها العقلية البشرية في هذا الطور من العصر ولا عند إجماعها على الإيمان بأن أصل الوجود ومنشأه وروحه إنما؛ «الكلمة»!...

وهكذا نرى أن الإيمان «بالكلمة» كان أهم العناصر الأساسية لشروط الإيمان الصحيح كما كان عنصراً هاماً في تركيب الدين السرابيسي... هذا الدين الذي ظلّ ديناً رسمياً غضون القرون الزمنية التي استوعبت للبطالسة، منذ الشروق حتى الغروب، عهوداً نشرها رواح الإسكندر واختتمتها واقعة «أكتيوم»، (٣١ ـ ٣٠ ق.م)،... فبهذه الواقعة امتدت يد الزمن وطوت صفحة السيادة المقدونية فطوت بذلك تماماً صفحة السيادة الإغريقية ناشرة على رمال الإسكندرية الظلّ الروماني الذي ما بدأ يزحف ومُستعمراً يمتد ويترامى إلاّ ليشهد العالم عالم الاستعمار الروماني، وليشهد بهذا اللون الاستعماري الذي شاهد به لوناً من الحكم السياسي مغايراً للقديم لوناً من التفكير الديني بمعتقداته وعقائده جديداً يسجله الزمن تحت اسم:

الفصل الثالث:

الدين عند الرومان

من شفاه الزمن نصغي إلى رواية هذا الدين وحتماً علينا أن نصغي إلى رواية هذا الدين وأن نستوعب له نشأة وله تطوراً لما قد ترك من آثارٍ تطفو في كثير من معتقدات حاضرنا وتُمثّل من هذا الدين الرواسب..

إلى هذه الشفاه نصغي وهي تحدثنا؛ قديماً.. قديماً من قلب «الألب» ومن تلك الدوحة الآرية التي كانت تتفرع بين قفار الشمال وغاباته امتدت فروع من بينها هذا الفرع الحامل اسم «الإيطال» وعلى «التلال السبعة» وضفة «النهر المقدس» تجمعت فكوّن تجمّعها إلى جانب العائلة العائلة، وبذلك نشأ إلى جانب المجتمع القديم الحامل اسم «الأتروسكان» مجتمع جديد بأصله إلى «رومولوس» و«رموس» يعود مجتمع جديد لم يسجل في سجل التاريخ له نشأة إلاّ غداة بنى، ٧٣٢ ق.م، مدينة حمّلها اسميهما ولكن!. ليس إلاّ لترجّع نسائم «التلال السبعة» وهمهمة «النهر المقدس» حيرة العقل الإنساني وهو على مدارج الحداثة يحبو وفي آفاق مجتمعه الجديد يتلفت بحثاً عن شيء مجهول يجد التفكير منه إليه منجذباً.. شيء يحسُّه في أرجاء عالمه الداخلي حيثما في أرجاء عالمه الخارجي تلفّت، شيء يستشعره حيثما في كل مكان كان كأن هذا الشيء المجهول «روح» بين جانبيه ترفرف وعلى العالم ترفّ وتحوّم منها الأنفاس في كل مكان!... بل وكأن هذه «الروح» في نفس الآن «**قوة**» وعليها دليل هذه القدرة التي تعلن عن نفسها في كل مظهر وفي كل ظاهرة!.. بل وكأن هذه القوة في نفس الآن «إرادة» وعلى ذلك دليل هذه الحركة المشاهدة والأحداث الجارية بشتى الألوان على الكون وعلى الكائنات!..

الحيرة حار العقل الإنساني وهو عبر مدارج الحداثة يحبو على ضفاف التيبر وسفوح الألب، بينما كانت هذه الفروع على «التلال السبعة» تتجمّع إلى عائلات تكوّنها قبائل

مكوّنة مجتمعاً جديداً ليجد العقل فيه نفسه، تحت تأثير ما يستشعره من شيء مجهول، تنفرج منه الشفاه عن كلمة من معانيها معنى القوة الإلهية المجهولة ومن مدلولاتها أن الكون محكوم بروح تتصف بالقوة والإرادة.. فقد انفرجت شفتاه عن:

«نومين» أو: روح!

إلى هذه الحاسّة المستقرة بين الجوانب البشرية والتي تدفع التفكير إلى الاقتراب منها بالبحث عن معرفة مصدرها، هذا المصدر الذي يجد الفكر نفسه إليه منجذباً، جاء إلى العقل الإنساني من نفسه الجواب في باكر تاريخه على هذه التلال وليستقر على هذا الجواب منه اليقين وليجري بمدد، من هذا اليقين الجوهري منطقه يسجّل:

إن «نومين»، أو القوة الإلهية المجهولة، إنما روح ساكن في كل مظهرٍ وظاهرة من مظاهر هذه الطبيعة وظواهرها... روح يتجلّى في كل مظهر عن طريق؛ **حركته**، ويتجلّى في كل حدث عن طريق **عمله**، ومن ثم فيقيناً أن كل مظهر وظاهرة وكل شيء في الطبيعة موجود لي إلاّ من هذه القوة المجهولة:

«تجلّيات»

هذه صفحة الفضاء وهذه فسحات الأرض مسارح تتجلّى عليها طبيعة صاحب هذه «التجلّيات»!..

من ثم، وكل مظهر إنما يُمثّل «تجلّياً» لناحية من قوى هذه القوة المجهولة التحديد المبهمة المصدر، بدأ العقل يحدّد هذه «التجلّيات» بطريقة تمكنه من تمييز هذه الاختصاصات حتى يتمكن من فهم نوايا هذه القوة المجهولة بالنسبة إليه.. ومن ثم بدأ يضفي على كل مظهر وظاهرة اسماً خاصاً مستهلاً بإطلاق اسم على أبرز مظهر لهذه القوة لحظة علقت عيناه بالسماء والروح منه تستشعرها روحاً على العالم يرفرف وكأنه من الكائنات بمثابة الأب فتمتمت شفتاه تسميه:

«أيوبيتر»!.

برز «أيوبيتر» لـ «نومين» ممثّلاً وعليه علماً فتجسّم الاسم إلى شيء مرئي ما لبث أن طوفت من حوله الأيام تذيب فيه «نومين» حتى تلاشى «نومين» تمام التلاشي في «أيوبيتر» وحتى خيّم «أيوبيتر» على البشر أباً ارتفعت نحوه الأناشيد تناديه؛ الأب السماء والسماء الأب..

كلا.. إن «أيوبيتر» إنما اسم لم يحمل، حمله من بعد معنى الجبّار المستوي على عرش السماء غداة تحوّل في مجرى الأيام منه الاسم إلى؛ جوبيتر كلا ولم يُؤد من المعاني إلاّ

معنى السماء الأب تحت صورة هذه الروح التي نظر إليها هذا العنصر كشيء مجهول ساكن في كل ما يتراءى من مظاهر الطبيعة ورآها رغم احتجابها في جوهرها، تتجلّى في كل مظهر عن طريق حركته فعرف أن كل ما يعرف عن «نومين» إنما هي أعماله ولما كانت أعمال هذه القوة المبهمة المصدر والمجهولة التحديد مظاهر شتّى، فقد شطرها إلى قوى عدّة وجعل كل منها إنما من هذه القوة المجهولة «تجلّيات»!... ومن ثم، وكل مظهر إنما يمثّل ناحية من قوى هذه القوة، أضحى بهذا التحديد لاختصاصاتها لكل شيء اسم خاص بسببه رفّت، إلى جانب الألوهة الحاملة اسم أيوبيتر، على المخيلة أطياف قوى عديدة سجّلت على هذه التلال:

نشأة الربوبة الطبيعية بتعدُّد ما تضمه الطبيعة من المظاهر المختلفة وما تشتمل عليه من الظواهر المتباينة تعدّدت للرومان ربوبية وأترعت «التلال السبعة» أطياف الأرباب والربّات ولكن!. لم يتصوّر الرومان أن نسباً يربط بين طوائف هذه الأرباب كلا ولا مكاناً فيه يعقدون مجالسهم كلا ولا لهم كينونة ذاتية مستقلة هي عن الإله.. فما كانت الكلمة المعروفة للتعبير عنهم إلاّ «التجلّيات».. تجلّيات قوة إلهية مجهولة يقف ممثِّلاً لها «أيوبيتر» مَن عليه غدت مقصورة مرتبة الألوهية ومن عليه غدا لقب؛ **السماء الأب!**

رمزاً على القوة الإلهية المجهولة احتل «أيوبيتر» آفاق الفضاء وتجلّى على صفحة السماء إلهاً ولكن!.. ما تجلّى التجليّ إلاّ لتحصر السماء ألوهة هذا الإله وإلاّ ليجنح من البشر الخيال فيصوّر على «التلال السبعة» للسماء الأب صورة على غرار الصورة البشرية ويجلسه، وعلى ضفة التيبر يقوم عرش أرضي، على عرش في السماء! وإلاّ ليضفي عليه، وقد أقامه على عرش السماء مَلِكاً للكون، أبرز صفة من صفات الجبلة الرومانية فوصفه بالجبروت وعرّفه بالجبّار وناداه باسم جديد علم هو على هذه الصفة!.. فقد انفرجت الشفاه تنادي أيوبيتر:

جوبيتر!

ونحو «جوبيتر»، وقد استقرّ له عرش السماء سلطان، راح من الإنسان اللِّسان بنعت لملك الكون جديد، حتمه انحصار الإله في جسدية ومكانية، فالنعت قد تحوّل من «السماء الأب» إلى: **«الأب الذي في السماء!»**

وانطلق الصوت ينادي «الأب السماوي» بتعريف لغويّ كانت تُرجِّعه أصداء الفروع الآرية حينما حلّت، فبينما كانت سفوح الهمالايا تعرِّف الإله بـ «ديوش» وبينما في أودية الأوليمبس كان يتجاوب الترديد بـ«زيوس» تجاوبت أودية التيبر تعرِّف جوبيتر بأنه؛ «ديو»!...

بانبثاق جوبيتر وبانحصار الألوهة فيه، انحصاراً سيطر به على كل ما يتجلّى في الطبيعة من قوى تتراوح منها الخصائص بين مظاهر الشر والخير، تمثّلت في كينونته كل ما يتمثّل في طبائع هذه الربوبة الموزعة الاختصاصات والصفات، وبدأ العقل الإنساني على هذه التلال التزلّف إلى هذا الإله والاتجاه إليه بالتوسُّل والدعاء متخذاً إليه وسائل هذه الطائفة من «التجلّيات» التي كانت قد سميت بأسماء مختلفة حدّدت به اختصاصاتها كقوى تتراوح منها الخصائص أيضاً بين الخير والشر وبذلك بدأ: **الدين**

أجل.. هكذا بدأ الدين فقد أقام هذا الشعور الدافع الإنسان إلى الاعتراف بخضوعه إلى قوة خارجة عن إرادته، **الدين**!.. فقد بدأت، بالاتجاه إلى الإله كقوة مطلقة وإلى الأرباب كقوى مستمدة القوى من تلك القوة وهي بذلك تستطيع أن تعمل للناس للخير والشر؛ **العبادة**.

واتخذت العبادة أول مظهر رسمي من مظاهر الدين عند الرومان غداة وقف العقل الإنساني، تضطرم بين جانبيه غاية واحدة تتلخص في تحقيق أمانيه.. وأمانيه؟ أمانيه، وهو لمدارج الحداثة يرتقي وبعد منه النفس لم تنم فتطلب المعرفة وتسمو فتعرف الحب، لم تتجاوز ولم تنحصر **إلاّ في** مطلب **المال والبنين**.. لا ثمة شك في أن من علامة الحداثة أن يطلب العقل هذين المطلبين وأن ينحصر منه الإيمان في أن من عنه قد رضي الإله ورضيت هذه «التجليات» للإله، التي يسميها أرباباً، مُنِحَ هذه الأمنية! لا غرو من ثم أن إذا ما إلى تحقيق الأمنية سعى العقل فليس إلاّ ليتخذ إلى **«القَوى»** هذه القُوى زلفى وليس إلاّ ليتجه إليها «كوسطاء» بالتوسل وبالدعاء!. بل وحتماً كان أن ينحت لهؤلاء «الوسطاء» تماثيل تقرّبها من ذهنه كي تكون قبلة له كلما شاء إلى واحدٍ منها الاتجاه في تزلّفه بها إلى الإله وكلما ومتزلفاً، إلى المُتَزلّف إليه، أرسل الصلاة بها متوسلاً!.. بل وإليها راح يسعى بوسائله المستجيبة تمام الاستجابة إلى الدرجة التطوّرية التي كان في غضون تلك الفترة من الزمن لها يجتاز، ففي هذه الفترة من تاريخ حداثته، والعقل في فترات حداثته إنما أبداً بالطعام يهتم، انحصرت التقدّمات في الطعام وانحصر الاسترضاء في إقامة الولائم للإله وللأرباب، بتضحية الحيوان وإرسالها محرقات إلى هذه «التجلّيات» وإلى «الأب السماوي» الذي قد احتلّ عرش السماء!.

ولكن!. لمّا لم يسع العقل بتقدماته هذه إلاّ كلما شاء تنفيذ رغبة تعتلج بين حناياه فقد طلع ديناً **طبيعته** المقايضة، والمقايضة إنما تشترط طقوساً، ومن ثم يطالعنا الهيكل من الدين تؤلفه محض طقوس!..

البدء بدأ الدين عند الرومان فبدأ بدائياً وفي نطاق العائلة الواحدة كُونت منه الأصول

قبل أن يمتد من العائلة إلى المجتمع وقبل أن يتّسع بأسباب أهمها الفِكَرُ الجديدة التي أوجدتها مطالب جديدة بها أتى اتصال هذا العنصر بأمم ذات فِكَر مُغايرة وذات معتقدات وثقافات أيضاً مغايرة.. إلاّ أن هذا الدين ظلّ محتفظاً بطابعه القديم، فإنه كما بدأ بدائياً بدأ أيضاً بدائياً له لاهوت وفي نطاق العائلة الواحدة انحصر لهذا اللاّهوت كهنوت، فقد كانت الكهانة في نطاق العائلة أمراً مقصوراً على رئيس العائلة أو، الأب.

«الأب» كان الكاهن والكاهن كان الأب.. ما يُشرِّعه «الأب» في العائلة فالشريعة في السماء، وما يربطه «الأب» على الأرض فالمربوط في السماء وما يحله «الأب» على الأرض فالمحلول في السماء!... رهين يدي «الأب» وصل الصِلَة بين الأرض والسماء بكلمات كان ينتظمها ويتلوها وبشعائر كان بها يقوم في غرفة من داره خصصت للتعبّد كانت تعرف باسم «الكنيسة» أو كنيسة العائلة.. وهذه الكنيسة كان يتركها «الأب» إرثاً ينحدر منه، «كأب»، إلى الابن مَن بدوره يغدو «أباً» ومَن، تحت هذه الصفة، كان يتوارث صبغة القداسة التي كانت تخضب كل أبٍ، ومن ثم فالنعت التقليدي لكل «أب» كان هذا الذي تحدّر على الأجيال وتوارثه رجال اللاّهوت الغربي فالنعت كان؛ «الأب المقدّس»!

وعَبْر الأجيال ومن جيل إلى جيل انحدر هذا النعتُ التقليدي حتى أصبح نعتاً رسمياً لرأس اللاّهوت غداة تكوّنت دولة محكومة بحكم حاكم قبضت قبضته على زمام الدنيا والدين معاً وهذه مرتبة بها غدا، بحكم مركزه الذي عقد بوحدة أمري الدين والدنيا؛ «أب الآباء» مَن، بحكم مركزه الديني أيضاً، غدا يُنعت «الأب الإلهي» ومن، بحكم مركزه السياسي، قامت من حوله حاشية ولكن غلب الطابع الديني فكوّنت كهانة انتشرت عن كهنوت طلعت به طائفة «الآباء» مِن الأحبار، مَن بالتفافهم من حول هذا الحاكم، الذي غدا «الحبر الأعظم» وأمسى يُلقّب «بالأب الإلهي» واحتلّ عرش الدين والدنيا، تكوّن صرح الدين الرسميّ للبلاد!...

النشأة كانت نشأة الدين الرسمي عند الرومان وإلى هذا اللون من التطور تطور ويدُ الزمن برواية هذا الشعب تسير عَبْر العهود السياسية لهذه الناحية من دنيا الغرب القديم.. ولكن للدين، كعقيدة، لم يتسع تاريخ هذا الشعب لأن يُسجِّل العقل الإنساني فيه محاولة تمكنه من الاقتراب جدياً لحلِّ مشكلة من المشكلات، فتاريخه السياسي المنقسم إلى عصور ثلاثة، عهد الملوك (٧٥٣ ـ ٥١٠) فعهد الجمهورية (٥٠٩ ـ ٢٧ ق.م) فعهد الإمبراطورية (٢٧ ق.م ـ ٢٠٦ ب.م)، إنما سجلّ نزاع استهل في عهد الملوك بين السادة من الأتروسكان والعامّة من اللاّتين، قفاه نزاع بين الأشراف والعامة لم ينته عن تمكين السيادة

لروما وطلوع عهد الجمهورية إلاّ لينادي بكفاح بين روما وقرطاجنة ففتوح مقدونيا وآسيا فعصر الثورات وكلّها، حتى عهد الإمبراطورية، مراحل كفاح سياسي مضن بسببه انتفت من حياة العقل الإنساني في هذا الشعب الراحة الذهنية، ولهذا السبب شحّ من حياته الفكرية النتاج، ولهذا السبب اتسم التفكير الديني بتفكير موزّع بين تأثر بالاتروسكان ومحاكاة وتشبّه تقليدي بالإغريق نفسه، خاضع لإملاء الكهنوت أو طائفة «الآباء المقدسين» من الأحبار الذين أصبحت لهم مراكز مقرُّها حبريات أو كليات كهنوتية ملحقة «بالكلية اللاّهوتية الكبرى» مقرّ «الحبر الأعظم» مَنْ مِنْ حوله تلتف الأحبار مرهفة منهم المسامع لتلقي الأوامر الصادرة من شفتيه، ومَنْ في تنفيذ لتعاليمه وصدوع بأوامره تتعهّد أمور الدين، فهذه الطبقة من الأحبار هي التي تُعيِّنُ الأعياد وتضع التشاريع وتسنُّ القوانين، ومن أشهر هذه التشاريع كانت تلك الشريعة التي حُفرت على الألواح الحجرية ونعرفها تحت اسم؛ «ألواح الوصايا الاثنتي عشرة» ومن أشهر هذه القوانين كان «**القانون الإلهي**»[1].

كلا، إلى الإله لا يُنسب «القانون الإلهي» فلم يدّع الرومان أن هناك شريعة سماوية عليهم أُنزلت كلا ولا إلى الإله تُنسب «ألواح الوصايا الاثنتي عشرة» فما حمل الرومان ألواحاً طلعوا بها إلى العالم قائلين إنها ألواح مكتوبة بيد الإله وإنما كلاهما، القانون الإلهي وألواح الوصايا، قوانين وضعية وتشاريع مُقننة أملتها عادات السلف وشرّعتها للقدامى تقاليد وكُتبت بيدٍ لاهوتية لم تنتحل زوراً اسم الإله! فليس «القانون الإلهي» إلاّ كألواح الوصايا، التي سنّت حوالي سنة ٤٥ ق.م، من وضع البشر ووحيها تقاليد القدامى، فما المواد في هذه الألواح إلاّ أحكاماً موجزة شديدة هي أحكام حكّام عشرة جروا فيها على عادات السلف وتقنين جاف صلب يناسب طبيعة هذا الشعب الذي خضع تمام الخضوع لتفكيرات يمثلها أتمّ تمثيل صاحب هذه الشخصية التي تلاقى فيها الحكم الديني بالحكم المدني، الملك والحبر الأعظم، ومَنْ مِنْ حوله تتألف هيئة لاهوتية تنقسم إلى طبقات لم يقتصر حكمها على أمور الدين، فقد كان يجري اختيار أفرادها ممّن كانوا يقومون بجميع وظائف الدولة ومن سائر طبقات المجتمع، ولم تشذ عن هذه القاعدة إلاّ طبقة لاهوتية واحدة قُصِر انتخاب أفرادها من بين الطبقة الأرستقراطية كما قُصِر عدد أفرادها على اثني عشر.. وهذه الطبقة الأرستقراطية من الكهنوت التي يؤلفها اثنا عشر فرداً ونعرفها تحت اسم «إخوة أرفال» قد أظلّت سائر طبقات الكهنوت بتعاليمها التي ظلّت حتى سنة ٢٤١ ب.م، تتحكّم في سائر مرافق التفكير الروماني تحكّماً تركت به في هذا التفكير أثرها عن طريق ما كانت تحتفل به كل عام من

(١) «Iusdivinum»

عيد مؤلف من أربعة أيام تُقام خلالها شعائر شتّى أهمها تلك الشعيرة الشبيهة؛ بالعشاء الربّانيّ!...

عن هذه الحقيقة تتنفّس أرجاء هذا العصر مُحدثة بأن تمام الخضوع خضع التفكير الديني عند الرومان لإملاء «إخوة أرفال» من بطبقتهم سارت الأيام عَبْر الموجة السياسية الرومانية التي كانت تمتد صاخبة خلال القرن الثاني والأول ق.م وخاصة في غضون تلك الفترة من الزمن التي كان التبدّل الاجتماعي يتّخذ فيها مكانه كنتيجة حتمية لعهد الفتوح بزوال الطبقة الوسطى وبروز طبقة النبلاء... هذه الطبقة التي كوّن ظهورها ظاهرة من ظواهر هذا العصر خطيرة، فهي إنّما هذه الطبقة المؤلفة من تلك الفئات التي يجب على الذهن الالتفات إليها تمام الالتفات.. فالظلّ السياسي الروماني الذي قد امتد فغمر دنيا تلك الدنيا إنما قد أتى بأخطر ظاهرة وأقوى عامل في هدم سيادته وانتشار المسيحية كدين، فهذه الظاهرة إنما يمثّل تكوُّنها تكوُّن: «**طبقة العبيد**»!

في سجلّ التاريخ السياسي للعصر تنتشر قصة تكوّن هذه الطبقة لتطالعنا على صفحات هذا السجلّ نفسه قصتها مسطّرة بدمائها!... لكن لتنتشر أيضاً في سجلّ التاريخ الديني بهذه الطبقة قصة أخرى بما تركته نفسها في هذا التاريخ من أثر حوّل هذا التفكير من مجرى قديم إلى مجرى جديد وإن كان في جدته كل الجدة غير جديد.. فإن تكوُّن هذه الطبقة من الرقيق، ومنهم من كان من حاملي الفلسفة ومن أصحاب الديانات المختلفة والمذاهب المتباينة، قد أتى بأخطر عامل في مزج الديانات والفِكَر بالفِكر والعقائد بالعقائد مزجاً ينحسر عنه تاريخ هذه المرحلة الزمنية من الطور الثاني للعصر التي كانت روما قد غصّت فيها بالواردين عليها ممن تسحبهم قيود الأسر من ورثة الفِكَر القديمة وحملة معتقدات قديم الأديان ولمّا كانت «طبقة العبيد» في العالم الروماني تكوِّن عدداً أكثر من الأحرار، ولما كان من علائم الفقر الماديّ في روما أن يمتلك المرء من العبيد ثلاثة نعلم أيّ الأثر كان أثر هذه الطبقة في الأجواء الرومانية!... فبهذه الطبقة الدخيلة لم تدخل فحسب مذاهب قديمة على الأجواء الجديدة وإنما في هذه الأجواء تلاقت المذاهب طراً لتنتشر لا فحسب مزيجاً بل وخليطاً في دنيا السيادة الرومانية ولتأتي، كأثر لها، الانقلابات الدينية والعقلية التي شاهدها العصر وأول الأمثلة على هذا يأتي:

امتزاج التفكير الديني الإغريقي بالروماني

حتى عهد الفتوح لم يك بين التفكير الإغريقي والروماني صلة، وإنما بالفتوح دخلت القصص الدينية الإغريقية، التي نسميها اليوم أساطير، التفكير الديني الروماني الذي لم

يُعانقها بها مفتتناً إلاّ ليعتنقها عقائد كان من أثرها أن مُزج بين جوبيتر وزيوس!.. بل كنتيجة لدخول هذه القصص دخل مذهب الابن الإلهي، الوليد تحت جزع النخلة، نطاق التفكير الديني الروماني، كما تبعاً لامتداد هذه الموجة، دخل مذهب الابن الإلهي الآخر صاحب «القلب المقدّس» الوليد من سيدة عذراء ولكن! لا ليرسل هذا المذهب، مذهب ديونيزوس، ظلّه على أرجاء التفكير الروماني فحسب، بل رسوخ السرابيسية على شواطىء البحر الأبيض رسخ في دنيا آسيا الصغرى في إظلالٍ لعالم العالم الروماني فالطور الثاني من العصر إنما يسجل:

انتشار الديونيزوسية في أرجاء العالم الروماني

بقصتها العاطفية دخلت الديونيزوسية، سنة ١٨٦ ق.م، روما لتجترف إليها عاطفة تفتقد اللون العاطفي في دينها الرسميّ ولتهز بما تحمله من معان أوتار القلب الروماني حتى شغف من هذا القلب الشغاف بحبّ عذراء لها الإله قد اصطفى ومنها جاء بوليدٍ حقاً شرعاً من حقوقه تسميته؛ «ابن الإله»...

كلا، لا جدال في أن صرح الدين الأوليمبي إنما يضمُّ ألواناً من التجسّد الإلهي لمصطفاة بعد مصطفاة وإنساله منهم ابناً بعد ابن والصنو كان أيضاً قد غدا لدى الرومان، فهناك «أتيس» ابن العذراء «نانا» بيد أن ليس في واحدة من هذه الألوان من الحنان المجتذب العاطفة إلى الانعطاف إليه ما في مذهب هذا الربّ ابن الإله!.. هذا «الذي قتله» أسلاف البشر، ولم يسلم منه إلاّ القلب القدسي.. هذا الرب الابن الذي حنا عليه «الإله الأب» وأعاده **بمعجزة** إلى الحياة!..

بما يحمله من سحر يستدر من الحنايا الحنان ويُوقد فيها وقدة الحنين اجتذب هذا المذهب إليه العاطفة الرومانية بل قيّدها إليه بما قد أودعه في الوجدان الجماعي منها من عقيدة أُلقت على أسلاف العالم البشر مسؤولية قتل «ابن الإله» حتى وجد البشر أنفسهم قد أُورثوا أوزار «خطيئة عالمية» لن ينجيهم منها إلاّ اتباع هذا المذهب الذي تقوم الأصول منه على عقيدتي؛ **الخطيئة والغفران**!. وبهاتين العقيدتين رسخ في العقلية الجماعية هذا المذهب ولترسخ برسوخه في العقلية الجماعية معتقدات تنحصر في الخوارق أو المعجزات.. وأهم هذه المعجزات أو الخوارق:

تحوُّل الماء إلى نبيذ!..

إطعام جمع غفير في القفر بتحويل القليل من الطعام إلى الكثير!.. والإشفاء!

بهذه «المعجزات» التي آمن بصحتها العقل الجماعي وصدّق أن «الرب ابن الإله وابن

العذراء» بها قد قام، قام لهذا المذهب في القلب الجماعي صرح ما قامت في هذا القلب منه القوائم إلاّ ليجد الوجه الجماعي نفسه يتجه ويشرئب منه العنق شوقاً إلى «طرسوس».. حيث يقوم «البيت الأكبر» لعبادة الرب ابن الإله وابن العذراء!... فإلى «طرسوس»، حيث من بعد وُلد بولس «القديس» وحيث تطوّرت من بعد المسيحية تطوراً من أهم تطوراتها، اتجهت ناحية قوية من الطور الثاني لهذا العصر، لم يصرفها عنه إلاّ مسيحية نمت من بعد وتطوّرت على يدي «بولس» من مذهبٍ إلى دين!..

أجل!.. كانت الديونيزوسية، غضون الطور الذي بدأت فيه بذرة المسيحية في التكوُّن، نامية الظلّ وريفة الظلال يتفيأ القلب الإنساني في ظلالها من حرور الحياة فيئاً يجد فيه نفسه قد وجد ما قد جدّ إليه من حاجة!.. لم يزاحم التيار منها في هذا القلب تياراً آخر من الأديان والمذاهب العديدة، التي تلاقت بهذه الفتوح التي كوّنت «طبقة العبيد»، إلاّ ذلك الدين المنساب من ذلك الصدر المتغنّي الثغر أبداً باسم الإسكندر وإلاّ ذلك المذهب الذي تفتّحت عنه تربة النيل ليطالعنا بهذه المزاحمة:

تلاقي التيارين؛ الديونيزوسيّ والسرابيسيّ وامتداد المدّ الإيزيسي غامراً عالم العالم الروماني

للتيّار الديونيزوسي زاحم التيار السرابيسي «ولابن عذراء» زاحم «سيد شهيد» إلى القلب أيضاً كان قد لجّ بقصته العاطفية التي تملأ القلب حنيناً وتثير من عواطفه دفّاق العواطف فقصته العاطفية محورها قتل ومن الموت، **في اليوم الثالث**، بعث وصعود إلى السماء لخلود في رحاب «الأب السماوي» مانحاً الناس الخلود فهو «**المخلِّص**» الذي جاء يخلِّص الناس من العدم ومن العذاب وعبادته، التي تتلخّص في الاستجابة للقانون الأخلاقي المتلخّص في السعي الجدي نحو تحقيق الطهر الكامل للجسد والنفس، إنما وعد للإنسان بتعويضه عن هذه الحياة، المفتقدة الراحة، عالماً يلقى فيه السعادة وفيه يجد ما قد جدّ عنه بحثه هنا عبثاً!..

هذه هي الفترة الزمنية التي إلى قلب عالم العالم الروماني لجّ فيها «السيد الشهيد» وهذه هي الفترة الزمنية التي لجّت فيه إلى هذا القلب أيضاً «سيدة السماء»؛ «إيزيس» فقد امتد المذهب الإيزيسي عبر التيار السرابيسي غامراً هذا العالم بعبادته التي تتلخّص في الاستجابة للقانون الأخلاقي المتلخّص أيضاً في السعي الجدي نحو تحقيق الطهر الكامل للجسد معاً والنفس، الأمر الذي غدا به عنوان الاستقامة الخلقية ومعيار الفضيلة النفسية لكهنوت «سيدة السماء» نذر العفة والانخراط في الرهبانية والسعي في أرجاء الأرض بالتبشير بمذهبها الواعد تابعه الخلاص والخلود!..

بهذه العقائد، عقيدة البعث الجسدي والخلاص من الذنوب، وبهذا الاطمئنان إلى حياة أخروية فيها تعود الروح في يوم قيامة إلى ما قد تركت من جسد فتعيش منّعمة في مملكة «السيد الشهيد»، امتلكت السرابيسية ناحية قوية من الوجدان البشري للعصر وامتدت غامرة ضفاف التيبر وإلى حيث امتد لهذه الديانة ظلال يطالعنا من أثرها واضح الأثر في صور الرسوم والتماثيل والكتابات التي إلينا عبر الأجيال تُلقيها تربة البلاد الواقعة على نهر الدانوب والراين وفي واديَيْ التيمز والسين وعلى سفوح البيرانس في امتدادٍ إلى حيثما امتد من قبل الظلّ السياسي الإغريقي، ولتظل ممتلكة الوجدان في كل الأرجاء، منذ القرن الرابع ق.م حتى القرن الرابع ب.م..

حتى قرون ثلاثة على وجود المسيحية، لا انتشارها، كان هذا الدين منتشراً باسطاً منه الظلّ القوي مديداً على عالم السيادة الرومانية ومؤكداً في الوعي الجماعي ذكراه بما كان له يقام من الاحتفال العام بعيد كل عام، «فللسيد الشهيد» عيد كان يستمر ثلاثة أيام يؤدّي غضونها رجال الدين في أرجاء البقاع اللاّمصرية نفس ما كان يؤديه رجال الدين في البيوت المقدسة المصرية، فشعيرة كانت على رجال الكهنوت القيام بتمثيلية تُعيد إلى الذاكرة البشرية ذكرى قتل «السيد الشهيد» وقيامه من الموت.. في اليوم الأول قُتِلَ «السيد الشهيد» وفي اليوم الثالث رُدّ إلى الحياة فمن الموت في اليوم الثالث قام ليصعد جسداً إلى السماء!

وكما «للسيد الشهيد» كان عيد، كان في السنة «لسيدة السماء» عيدان[1] تحتفل بهما مدن العالم الشرقي ومدن العالم الغربي الواقعة تحت الظلّ الإيزيسي وفي هذين العيدين كان يعاد ويستَعاد ذكرى الحمل الإعجازي من «الروح القدس» وذكرى هذه الولادة بين أحراش الدلتا وأكوام القش وأنفاس البقرة المقدسة لوليد نفسه قدسي روح، فهو «الكلمة»!.. هو «الكلمة» فتماثيله المترعة أرجاء العصر والتي تحتفظ بها متاحف الحاضر والتي تمثله واضعاً سبابته على فيه تدلُّ على أنه يمثّل: «الكلمة»!.

في غضون القرن الأخير من الجمهورية الرومانية انتشر المذهب الإيزيسي، إلى جانب السرابيسية والديونيزوسية، على أشد ما يكون انتشاراً، فإلى كل قد هفت ناحية من قلب يفتقد العناصر العاطفية في دينه الرسمي الذي جاء ينظر إلى الإيمان باعتباره صلة عقد بين القوى الكونية والقوى الكائنية حيث على الإنسان، إذا أراد العيش في سلام، مراعاة شعائر الطقوس والقيام بمرسوم الفروض أو التقدمات وهذه إنما مقايضة! مقايضة فقد بها دينه التأثير على العاطفة وفي الناحية الوجدانية غدا لا يثير أيّ اهتمام، وخاصة أن فكرة الخلود فيه فكرة

(١) أحدهما في شهر نوفمبر والآخر في شهر مارس

مظلمة محورها وإن يلك بقاء النفس بعد موت الجسد إلاّ أن حياتها حياة مبهمة، فهي إذا كانت خيرة ذهبت لتحيا تحت الأرض، وإذا كانت شريرة فإنها إلى الأرض تعود روح شرّ تدخل الرعب على قلوب الأحياء... وليس في هذا الوعد بالخلود روح الحياة التي ينفثها الدين السرابيسي والمذهب الإيزيسي، كلا ولا التي تبعثها الدينوزيسية من الوعد بالبعث الجسديّ وبحياة أخروية مكانها السماء في مملكة الأب السماوي. لهذا السبب حتماً كان أن تهفو إلى هذه التيارات المتدفقة إلى قلب العالم من القلب الروماني جوانب ما تحوّلت إليها وفي مجراها سارت إلا لتجد أن دينها الرسمي قد بدأ يفقد له عليها سيطرة، فقد بدأت الأيام بهذه الجوانب تنصرف عن دينها إلى هذه العقائد الآتية إليها بوعودها عن آتٍ المصير فيه سيكون الخلود والغفران انصرافاً لم يصرفها عن هذا الإيمان تنبّه الحكم القائم إلى خطر هذا التحوُّل عن الدين الرسمي! كلا! فإن بالرغم من اتخاذ الحكم القائم، بادىء ذي بدء، أشدّ الحيطة ضد السرابيسية والديونيزوسية والإيزيسية ورفضه إقامة بيوت لها داخل الحدود المقدسة لمدينة روما. وبالرغم من انعكاس آية التسامح الديني الذي كان طابع الطابع الروماني قديماً خاصة في الثلث الأخير من القرن الخامس ق.م عكساً انقلبت به الأوضاع إلى لونٍ من التزمّت الديني مقيت فإن الوجدان الروماني لم ينصرف عن هذه الأديان الدخيلة انصراف القبضة الحاكمة له إلى الزود عن دينها الرسميّ الذي وإن كانت له لا تحمي فيما بينها ونفسها فليس إلاّ لتضع هذا المبدأ القائل؛ إن هذا الدين بما يحمل من تراهات وبما تحمل شعائره من خرافات وأوهام إنما ضرورة لازمة للناس ولصالح الجمهور... كنظام سياسيّ!..

على عاتقها ألقت هذه الطبقة الحاكمة حماية السياسة عن طريق الدين و«لصالح الجمهور» نظّمت على صرح الكابيتول صفوفها تنظيماً كوّن جماعة شبيهة بالأكليروس لها سلطتها الدينية كما لها امتيازاتها المدنية، ولا ينحصر الواجب الأول عليها إزاء القبضة الحاكمة إلاّ في الدفاع عن الإيمان وحماية الدين الرسمي عن طريق صدّ هذه التيارات الدينية الدخيلة المجترفة إليها من القلب الروماني ذلك الجانب الممثَّل من صرح العزة الرومانية الأساس المطمور؛ **الطبقة الكادحة** خاصة وتلك الطبقة الأخرى المحرومة؛ **طبقة العبيد!**

وبين تدفق هذه التيارات المسترسلة رنيناً عذباً يجتذب إليها هذه النواحي من القلب المعذّب الممثَّل بهاتين الطبقتين وبين محاولة صدّ الدين الرسميّ لهذه التيارات الدينية راحت الأيام تسير وتصل بحلقاتها التاريخ الفاصل بين ما قبل الميلاد وبعد الميلاد المسيحي طاوية عهد الجمهورية وناشرة عهد الإمبراطورية وتسجِّل:

التفكير الديني في العهد الأغسطسي «٢٧ ق.م ـ ١٤ ب.م»

أهم العهود طراً في غضون هذا العصر هو هذا العهد!.. فهذا هو العهد الذي نبتت في أحضان تربته بذرة المسيحية والذي فيه إلى تمام التكوين كانت قد كوّنت الأمم المغلوبة سياسياً مادة الرقيق الروماني، وبذلك كانت قد نمت هذه النواة الحاملة في طيّاتها أسباب انهيار السيادة الرومانية وانتصار المسيحية كدين... بل إن العهد من أهمّ العهود طراً في هذا الطور من حيث إنه عهد دخلت فيه نطاق التفكير الديني الروماني عقائد جديدة محورها رب يموت وبعد موت يُبعث وبعد بعثٍ يصعد جسداً إلى السماء.. وهذه إنما عقائد لا مشاحة أنها كانت النتيجة الحتمية للعقائد الشرقية المسيطرة من فِكَرٍ محورها موت ربّ ابن إله وبعثه بعد الموت وصعوده جسداً إلى السماء، فالعهد إنما يسجل دخول الجديد من العقائد الشرقية في أرجاء التفكير الغربي هذه العقائد التي تطالعنا تحت صور:

عقيدة تأليه «المخلِّص» وعقيدة «رفع المخلِّص إلى السماء» وعقيدة «الرجعة»

علينا تطلع جلية هذه العقائد القديمة تحت لون من الجدة غير جديد.. فيد الزمن التي استهلت للعهد الأغسطسي نشراً بطي الجمهورية ونشر الإمبراطورية إنما قد جمعت السلطة التي كان يتقاسمها أشخاص عدة في شخص واحد تُمثله شخصية القيصر هذا الذي غدا، تبعاً للوضع الجديد، لا سيد الإمبراطورية فحسب وإنما السيد المطلق والذي، تبعاً لتخلي الشعب له عن كل سلطة، غدا حاكماً مطلقاً، كما تبعاً لهذه السلطة الإطلاقية التي جعلته مطلق التصرف اعتبر فوق القانون ومن ثم، وشخصية القيصر إنما فوق القانون، فإن من فوق القانون لا يحاكمه القانون ولذلك كان القيصر ما دام حياً لا يُحاكم... ولكن!... متى ما طوته في راحتها راحة الزمن فسرعان ما يعقد «مجلس الشيوخ» ليبحث فيما قد أتاه القيصر في حياته من أعمال وباسم الشعب يحاكمه، فإذا عليه بالإدانة حكم تبطَل جميع أعماله وتُحطَّم تماثيله ويمحى، من حيثما حفر، له اسم، أما إذا لأعماله أقرّ المجلس، وهذا ما كان يحدث غالباً، فسرعان ما يصدر مجلس الشيوخ قراراً بأن؛ القيصر قد أتى من الأعمال ما بسببها قد ارتقى إلى مصاف الأرباب وأن من إلى مصاف الأرباب قد رفع فلا ثمة شك أنه كان صورة تجسّدية للإله على الأرض حلّ على الأرض ليخلِّص الإنسان من العذاب... ومن ثم فهو: «**مخلِّص**»!

كل من إلى مصاف الأرباب من القياصرة ارتفع كان له من الألقاب هذا اللّقب ولُقّب؛ «**المخلِّص**»[1].

---

(١) The Cambridge ancient history «The Augustine Empire»

وممّن إلى مصاف الأرباب رُفِع كان؛ «يوليوس قيصر»... وعن قدسيته تكلم «سِنِكا» ينعته؛ «المخلّص».... وفي ١٧ سبتمبر/أيلول للعام الرابع عشر للميلاد، أي بعد المولد اليسوعي بأربعة عشر عاماً، أصدر «مجلس الشيوخ» لائحة بتأليه أغسطس كصورة تجسّدية للإله على الأرض ولقّبه؛ «المخلّص»!.. ولكن! هذا «المخلّص» لم يك مثله مثل أي مخلّص آخر!... كلا، فإن هذا «المخلّص» إنما عنه يحدثنا «هوارس» حديثاً نرى عبره أغسطس تحت صورة «فاتس» أو «النبي»، وهذه إنما صورة مزدوجة تمتزج فيها صفة الشعر بصفة «النبوة» لما قد صاحب الاعتقاد من اعتبار الشعر وحياً إلهياً وإن تك بأغسطس لم تلحق هذه الصفة إلاّ بسبب نظمه تلك الأنشودة الدينية التي تأتينا من ثنايا هذا الدين تحمل اسم «الأنشودة العالمية» والتي لا تطالعنا إلاّ ويهب من سطورها شذى العصمة الأخلاقية فاليراع الذي قد سطّرها إنّما قد سطّرها تسبيحة يطلب فيها مراعاة الشرف والفضيلة وينادي بالحب وبالسلام.. بيد أن إذ عن أغسطس يسترسل «هوراس» في حديثه فيحدثنا عنه كبانٍ «لمحراب السلام» فليس إلاّ ليصوّره صورة تجسّدية للإله على الأرض.. صورة، ما انطبعت على صفحة المخيلة الرومانية إلاّ ليجري المنطلق الروماني بأن من كان صورة تجسّدية للإله على الأرض فلا ثمة شك في أن مكانه السماء لا الأرض!.. فكرة، ما استحوذت على التفكير الروماني حتى قام شاهد بعد شاهد يشهد أنه رأى **رأي العين**، «المخلص أغسطس»، الذي قد مات، يُرْفَع جسداً حياً إلى السماء!..

أَوَشك؟! إذا كان هناك شك في ذمة القاسمين فإن موجة الشك ترتد عن «نوميروس أتيكس»!.. لقد أقسم «نوميروس أتيكس» أنه رأى رأي العين المخلّص أغسطس يرتفع بعد موته جسداً حياً إلى السماء[1]!

وصدّق العصر الهلليني الرومانيُّ هذا القَسَم!

أجل.. صدّق هذا العصر هذا القسم وآمن بتلك الأقسام كما صدّق وصادق من قبل على تأليه المخلّص يوليوس قيصر ومناداته له «ربنا قيصر»!... بل صادق العصر على تأليه أغسطس وأُقيمت له في جميع أرجاء الإمبراطورية معابد له فيها يشهد الناس بشخصية تجسدية رُفِعت جسداً إلى السماء!

أجل عُبد «المخلّص» في شخصية أغسطس بعد موته، مباشرة... وعُبد أيضاً، تحت شخصية «المخلّص»، «جيوس»[2] مباشرة بعد موته كما أن موت «كلوديوس» اتبع بتأليهه

(١) The Cambridge ancient History VX

(٢) Gaius

وعبادته والصنو صنو «نيرون»... بل إن بنيرون طلعت على الدنيا:

عقيدة «الرجْعة»

عبْر القرون نتبيّن مصدر هذه العقيدة التي لعبت خطير دورها في تاريخ المعتقدات الدينية ونحن نستعرض على صفحات التاريخ سيرة نيرون، فهي عقيدة ولدت بموت نيرون وبنيرون نفسه الذي، بعد أن راح وراحت شفة لشفة تحدِّث بأنه قد «رُفِعَ» إلى السماء، استرسلت الشفاه تحدِّث مؤكدة؛ أنه قبل أن يزول هذا الجيل من الوجود سيرى العالم، عالم العصر الهلليني الروماني، نيرون إليه عائداً هابطاً الأرض من السماء!

هذه هي نشأة «عقيدة الرجعة» التي إليها في غير تنبُّه دوّت بها شفاه العصر مسجّلة على العصر الاعتقاد بخرافة، لا فحسب لأن الزمن محدد لهبوط نيرون إنما جيل واحد، والجيل الواحد لا يتجاوز الثلاثين عاماً، وإنما لأن إلى الزمن المضروب لهذه «الرجعة» لم يلتفت انتباه العصر، فالزمن المضروب قد انتهى ولما يهبط نيرون من السماء على الأرض!

بيد أن سمة التفكير الدينيّ، في غضون هذا القرن الجامع بين ما قبل الميلاد وما بعده، السمة... فإذا كان العهد الأغسطسي إنما عهد تأليه المخلّص وبعثه بعد موته حياً ورفعه جسداً إلى السماء فإن الإيمان برجعة المخلّص إلى الأرض إنما نتيجة حتمية لمنطق العصر. فإن الدين الروماني في هذا العهد، عهد المولد اليسوعيّ، كان يتخذ هذه الصورة الجديدة ملونة بهذه العقائد أو المعتقدات التي كانت عهد ذلك تعتبر صحيحة فاللإيمان بها إنما زيغ والإيمان بها إنما صحيح الإيمان، حتى إن عابر شك بها كان يعتبر راسخ كفر...

ولكن!.. القرن الذي شاهد ألوان هذه الخرافات في النطاق الديني، إنما قد شاهد أيضاً ألواناً من التعقّل في الدوائر الفكرية، فالزمن إنما الزمن الذي تحرّر فيه التفكير من قيد التقاليد وقيود «ألواح الوصايا الاثنتي عشرة» واتخذ مرجعاً آراء عدة اشتهر أصحابها بمعرفتهم في مسائل علم الحقوق ومنهم أحبار وقناصل فأمام مسائل كثيرة لا حلّ لها في قانون من القوانين الموضوعة جرت العادة أن يُعمد إلى الأخذ برأيهم، فكانوا يكتبون آراءهم وفتاواهم وتسمى «أجوبة العقلاء»، وقد اتخذ هذا الوضع شكله الرسمي غداة عيّن أغسطس بعض هؤلاء الحكماء وقرر أن تكون أجوبتهم قانوناً يُعمل به، وبسبب ذلك صارت الحقوق علماً وعرفت الدنيا علماء الحقوق أو الفقهاء المشرّعين ممن كانوا يضعون القواعد الجديدة التي لم تصبح سارية إلاّ ونشأ بذلك علم الفقه..

أجل... إن القرن الذي شاهد الألوان الصارخة من الخرافات في النطاق الديني قد شاهد أيضاً ألواناً من رزانة التعقُّل في الدوائر الفكرية، فالفترة إنما الفترة التي شاهدت تأثر الأرجاء

بالأثر الرواقي والرواقية، حيثما انتشرت وفي أية بيئة تجاوبت، إنما التفكير منها منحصر في عالم أكبر من هذا العالم وحكومة سياسية واحدة فعليها سيطرت فكرة واحدة هي أن العالم يجب أن يكون وطناً لكل إنسان وأن يكون فيه المواطنون أخوة وسواسية في الحقوق، فإن الكون «مدينة الإله» والكل فيه إنما للإله أبناء، ومن ثم فعلى الإنسان واجب ينحصر في أن يكون أخاً للجميع وأن يكون في «مدينة الإله» المواطن الصالح.. فإن مهما تفاوتت الطبقات واختلفت الأجناس واللغات فالناس أخوة ومن ثم فباطل النزاع والشقاق وباطلة الحروب لأن الكل إنما تضمه وحدة «الكل» ووحدة الكل إنما وحدة قدسية قانونها الحب والسلام!...

هذه هي نفس الفترة التي شاهدت توهج الأرجاء قاطبة، الفكرية والدينية، باللهب الرواقي، فالفترة إنما الفترة التي سجّلت:

الرواقية الآخرة في اختتام دورها السوري وفي مستهل دورها الروماني

في حواشي القرن الثاني ق.م كانت قد أقبلت الرواقية إلى ضفاف «النهر المقدّس»... ولكن بارتحال الأيام من طور إلى آخر نراها متطورة تسير من طور إلى طور، فإن الرواقية، كفلسفة، إنما مذهب اجتماعي تقوم منه الأسس على مبدأ «أخوة عالمية» في «مجتمع عالمي» لا تُنسى فيه الأحقاد فحسب وإنما يُردُّ فيه الحقد بالحب!... وتبعاً لمبدأها هذا أقامت الرواقية قاعدة المساواة بين الكائنات.. ففي هذا المجتمع العالمي وبهذه «الأخوة العالمية» لا يوجد سيد ولا مسود، فالناس إنما «كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً، أحراراً»!..

أجل.. بـ «كريسبوس» (٢٨٤ ـ ٢٠٩ ق.م)، متطورة في دورها السوري، جاءت الرواقية وعبر صوته تعلن تفكيرها الديني القائل بأن البشرية وحدة!... وأن الشرّ بأسبابه إلى الإله لا يعود كلا ولا الألم مصدره الإله!... فإنما سبب الألم والشر ينحصر في؛ **استعباد الإنسان للإنسان!**

وبـ «بنيوتي»، حوالي ١١٠ ق.م، يبرز التطور الرواقي أوضح من ذي قبل، إذ ينهج «بنيوتي» أولاً المنهج الهيراقليطسي فيقول، إن، والخير بدون الشر منطقياً مستحيل، فإن الإنسان الخيِّر دائماً سعيد وأما الشرير فدائماً تعس!.. ثم هو ينهج بالتالي المنهج الأفلاطوني فيقول: إن النفس طبيعتها الخلود!...

ببنيوتي أُريقت في الرواقية العُصارة الأفلاطونية فتلاشت لها صبغة مادية سابقة كانت قد وافقت من قبل الهيراقليطسية في قولها إن الروح متألفة من نار مادية.. وبهذا التطوّر الذي آلت إليه الرواقية على يد «بنيوتي» اشتدّ لها في القلب الإنساني رسوخاً!... فمن «بينوتي»

أخذ «شيشيرون»، (١٤٣ ـ ١٠٦ ق.م)، من عن طريقه أصبحت الرواقية معروفة للعلم الروماني.

ولكن لئن ببنيوتي قد عرفت الرواقية طريقها إلى عالم العالم الروماني إلاّ أنه قد برز هذا التأثير أوضح بـ «بوزينديوس»، حوالي (١٣٥ ـ ٥١ ق.م)، السوري الإغريقي من عن سوريا، بغروب الإمبراطورية السلوسية، دفعته الفوضى إلى أثينا لتدفعه أثينا، بعد استفتاء للرواقية، إلى النواحي الغربية للسيادة الرومانية، ولتتطوّر على يديه، وهو الفلكي الذي قدّر بُعد الأرض عن الشمس التقدير الأصح بين التقديرات القديمة، الرواقية وتصبح أوسع أفقاً عن ذي قبل، فالرواقية متطورة على يديه قد غدت تقول إن النفس خالدة حتى الاحتراق العام.. حتى يعود كل شيء إلى مصدره ولكن ليس عوداً تستقل فيه النفس بذاتيتها وإنما عوداً إدماجياً، فهي لا تعود إلى الإله وإنما في الإله، ولكن الخلود ليس إلاّ نصيب الخيّر من راعى إقامة المبادىء الرواقية وأساسها الإخاء والحب والسلام.. ومن ثم أصبح أساساً في الرواقية تعميم الخير كهدف، ومن ثم أصبح اعتناق الرواقية معناه **إقامة صروح الإخاء والسلام والحب!**

تحت هذه الصورة المتطورة لجّت الرواقية دنيا العالم الروماني لنراها في مستهل تطورها الروماني، متمثلة بسنكا (٣ ق.م ـ ٦٥ ب.م)، من عبر صوته رفعت أيضاً صوتها في أرجاء الإمبراطورية الرومانية وأرسلته صداحاً يشدو بأنغام ما انسابت إلى حيثما امتد للمجد السياسي الروماني ظلّ، إلاّ ليعلّم العالم تعاليم تردِّد للرواقية تعاليمها بالإخوة العالمية والحبّ العالمي وعالميّ السلام!...

بهذه المبادىء الاجتماعية المُرجَّعة أصداء الرواقية دوياً انطلقت من حنجرة «سنكا» تعاليم، بسببها تنازعته المسيحية من بعد تقول «بمسيحيته» مستدلّة على ذلك بتلك المراسلات التي كانت جارية بينه وبين «بولس»، كما بسببها دوّت أرجاء العالم الروماني استجابة للتعاليم الرواقية!.. وبهذه المبادىء الاجتماعية المنادية بهذه «الإخوة العالمية» في هذا «المجتمع العالمي» الذي لا يوجد فيه سيد ولا مسود وإنما الناس سواسية، «وكما ولدتهم أمهاتهم أحراراً يجب أن يظلوا أحراراً»، تغلغلت الرواقية إلى تلك الطبقة التي كانت قد كوّنتها الفتوح، فكونت بها عبيد الدار وعبيد الريف، تغلغلها إلى ذلك الجانب الآخر من الأساس القائم عليه صرح العزة الرومانية؛ الجيش!.. وحتماً كان أن تتغلغل الرواقية هذا التغلغل، فلا غرو أن مذهباً ينادي بالحرية الفردية والاستقلال الشخصي في مجتمع طبقة العبيد تُكوّن فيه ومنه العدد الأكبر وطبقة الجيش تكوّن فيه الناصية المأسورة والأسيرة، والطبقة الشعبية تمثّل فيه ومنه

الجانب المهضوم، أن يجترف إليه اجترافاً كلياً هذه النواحي من المجتمع الروماني وأن يسير النداء في عالم ذلك العالم، سراً وجهارة وبين همس داوٍ ودويٍّ هامس، اعتناق العصر لهذا المذهب المنادي بالحب العالمي والإخوة العالمية والمحتّم على الإنسان أن يطبق نحو نفسه ونحو الغير مبادىء السماح والتسامح والحرية الفردية والسلام!

يقيناً لا ثمة شك فيه في أن ليس إلاّ بهذه المبادىء قد استهوى المذهب الرواقي القلب المتهاوي المرهق تحت أعباء الاستعباد ووطأته.. ويقيناً لا ثمة شك فيه في أن بهذه المبادىء قد استعذب القلب المعذّب النداء الرواقي الصادح بالحرية الفردية وبالمساواة بين الناس، ومن ثم فتوغل التعاليم الرواقية وإنصابها عقيدة اعتنقتها هذه النواحي المغمورة الممثّلة في حقيقتها الأساس القائم عليه صرح الاجتماع، ومن ثم فازدياد الدوي في أرجاء عالم العهد الأغسطسي بمحور العقيدة الرواقية واعتراف العهد، والعهد إنما عهد سيادة «الكلمة» والاعتقاد بأنها إنما الروح القدس، بأن؛ **«الكلمة»** هي؛ اللّه!

هذه هي الفترة من زمن هذا العصر التي شاهدت اصطباغ الأرجاء قاطبة بالخضاب الرواقيّ، وليس على ذلك دليل أدلّ من أن نرى تأثر الفكر الإنساني في تفكيره الطبيعي وما بعد الطبيعي والديني بالرواقية ولا يمثّل هذا التأثر على أوضحه إلاّ ذلك التفكير الذي جاء يمثّل حلقة الاتصال بين الدين والفلسفة:

التفكير الديني الفيلوني

على رمال الإسكندرية حيث، إلى جانب أقلية أصبحت آبيقورية انتشرت أكثرية أصبحت رواقية التقت وتلاقت الملل والنحل الشتى فتلاقي الشرق بالغرب وبالسامية امتزجت الآرية فامتزجت الفلسفة الإغريقية بالتصوّف الشرقي والصوفية الهندية ودخل التصوف الشرقي رحاب العلوم العقلية للفكر الإنساني، سارعت بالعقل الأحداث السياسية إلى حالة نفسية بتأثيرها رجع العقل الإنساني يراجع ما به هذه قد أتى في خطواته السابقة من فلسفات في استعراض لما يحيط به على هذه التربة من دين باسم السرابيسية ببيوته القائمة قائم مستعرضاً في نفس الآن ما قد وجد نفسه فيه وليداً من دينٍ ببيته، الذي كان ما زال قائماً في هذا العهد في أورشليم، قائم.. ويمثّل هذه الحالة «فيلون»، (٢٥ ق.م ـ ٥٠ ب.م). لحظة متمثلاً به العقل الإنساني جلس يستعرض هذا الاستعراض...

على الشاطىء المترنّم باسم الإسكندر جلس «فيلون» يستعرض للإغريق «عقليات» ولديه من العبرية «نقليات» سجّلها ما بين يديه من «كتاب مقدّس» ما استعرض منه الصفحات إلاّ وتنبّه!. أن العقل الإنساني في تمثّله لكل ما قد خطاه من فلسفي خطى لم يأت بكتاب

مقدّس، بل على النقيض لم يتكلّم العقل الفلسفي إلاّ باسمه دون أن يُسْند قوله إلى الإله!.. فالعقل في رحابه العقلي قد جاء بشرائع وشرّع قوانين دون أن يجعل نفسه مرسلاً ودون أن يصبغ كلمة من كلامه بِصِبغ القداسة!.. للعقل كان العقل الوحي وكان المنطق المُرْشد، ولكن!... هذا هو «العهد القديم» وإليه قد نسبت القداسة!.. وهذه هي برمتها «الأسفار الموسوية»، وإليها قد نسبت القدسية!...

وفي مجرى هذا الاستعراض للكتاب المقدس أطرق العقل الإنساني تحت صبغته الفيلونية، للدين العبري يتفهّم فيه الفحوى ويستوعب منه المعنى... لقد نشر أول ما نشر في «العهد القديم» الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى وفي مقدمة هذه الأسفار نشر «سفر التكوين».. ولكنه إذ ينشر تحت أضواء العصر الفلسفي العلمي وأضواء العقليات وخاصة الأفلاطونية والرواقية صفحات كتاب يعتبر منزلاً وبالقدسية محفوفاً، فليس إلاّ ليجد من النصوص ما لا يستطيع إلاّ نعته، صراحة، بالسذاجة!.

على صفحات «العهد القديم» وجد العقل ديناً الأركان منه قائمة على الطقوس فوجد أن التعارض بين العقيدة الفلسفية الإغريقية أو بالأحرى بين التفكير العقلي الإغريقي والقول الديني العبري بيِّن واضح، فبون بيِّن بيْن كِلاَ المعتقدين!

إلى التعارض الصارخ بين الفِكَر العقلية والعقيدة الدينية العبرية تنبّه العقل الفيلوني تنبُّهاً أطلق بين الجوانب الفيلونية دوياً هذا السؤال؛ أيهما الأحق؟! الفلسفة الإغريقية أم الدين الموسوي؟!

إن «الحقائق» الفلسفية تجعل الصلة بين الإنسان واللّه موصولة بعبادات هي محض فكرية، وأما الدين العبريّ فيجعلها رهينة طقوس! ثم.. كيف يمكن أن يكون «العهد القديم»، وهو الضّام لصورة هذه الطقوس، مقدساً؟!..

ثم.. إن الدين العبري يقول: إن اللّه جسد، والفلسفة الإغريقية تقول: إن اللّه عقل مطلق مجرّد من ملابسات المادة وهذا إنما قول به يؤمن العقل، فالعقل إنما مقتنع اقتناعاً مكيناً لا يزلزله عبث الشكوك بتنزيه اللّه عن صفات التشبيه والتجسيم، فإن وإن كان العقل لا يستطيع أن يستثبت من صفات اللّه شيئاً غير أنه موجود إلاّ أنه مقتنع تمام الاقتناع بأن الإله في وجوده الكامل المطلق إنما أعلى من أن تحدّه صفة تدركها العقول، فكيف يتأتى الاتصال عن طريق الطقوس المادية بين إله هذا شأنه وبين الكائنات التي وإن كانت مشتملة على هذه الصور المادية فإنها ذات كينونة، كينونة روحية؟!

ثم كيف يمكن أن يفهم العقل هذه الصفات وهذه الأنباء والروايات التي أُسندت إلى الإله في الكتب المنسوبة إلى موسى وفي أسفار أبناء اليهودية وإسرائيل؟!

إلى هذا التعارض البيِّن بين «العقليات الإغريقية» و«النقليات العبرية» تنبّه فيلون... ولكن!... العقل الفيلوني إذ يتنبّه لهذا التعارض ويقنعه من «العقليات الإغريقية»؟ منطق فيرفض تبعاً لذلك رفضاً قاطعاً أن يكون الإله محدوداً في مكان وزمان على أسس أن اللّه محيط بكل مكان وزمان فإنه، أيضاً يتنبّه إلى أنه إنما يتناول لقومه كتاباً يعرف له، في خضم عالمه المضطرب سياسياً وخاصة أورشليم، ما قد عرفته وما تعرفه له طائفته من أهمية، فهو إنما لقوميتها رمز ورابطة تشدّ إليها منه الوثاق من ثم، والأمر إنما الأمر، ومن الدين العبري متزعزعة إنما الأركان، فلا يمكن إلاّ إبراز هذه الأسفار الموسوية أسفاراً إلهية وإلاّ القول بأنها عن وحي صادرة، وإلاّ لتقوّض للدين العبري متزعزع أركان!

إذن! لإسرائيل عقيدة ينبغي ألاّ تُهْدَم فهدم العقيدة الدينية العبرية إنما للقومية العبرية هدم!.. عن هذه النصوص، التي وإن كانت نفسها في حقيقتها للعقيدة العبرية أيضاً هدم، ينبغي أن تُدرأ اسهام العقليات!

هذا هو الدافع الذي دفع «فيلون» إلى القيام بخطوة حاول بها جمع التفكير العقلي والفهم النقلي في بوتقة واحدة تضفي فيها «العقليات» على «النقليات» من ألوانها الألوان. وفي الواقع لم يكن هناك من سبيل للتخلّص من هذا التعارض بين الحقيقة الفلسفية العقلية وبين النصوص الدينية إلاّ تفسير النصوص المقدّسة تفسيراً يتلاءم مع «الحقائق» التي تنادي بها الفلسفة الإغريقية! لا سبيل إلاّ اتخاذ طريقة «التفسير الرمزي» في مزج النصوص الدينية! لا سبيل إلاّ تفسير النصوص الدينية تفسيراً رمزياً على أساس أنها تحتوي جميعاً على هذه الأفكار وألوان هذه العقليات التي أتت بها الفلسفة الإغريقية!

ومن ثم فامتداد اليد الفيلونية تسند الصرح المتداعي بالمدد العقلي بإمالة العقيدتين، الإغريقية والعبرية، إحداهما إلى الأخرى وبتأليف يجمع بينهما مُستهلة هذا التأليف، والعهد إنما عهد كان قد غاب فيه عن وعي الزمن الماضي، فغابت الأسس التي قامت وعليها تقوم العقيدة العبرية، إعلانها بأن «الكتاب المقدس» بالرغم مما قد جاء فيه من واضح سذاجة، إنما يقيناً مقدس! مقدس هو لأن حقيقته تنطوي على حقيقة أعمق من الحروف والنصوص التي تضمها دفتاه، فهي حقائق لا يفهمها إلاّ المستعدون لها وعلى درجات!

وارتفع الصوت الفيلوني ويده تجري تُسطّر:

أجل... ساذجة إنما النصوص من «الكتاب المقدس» وساذج إنما من أسفاره «سفر التكوين» بيد أن لا ينبغي قط أن يُؤْخَذ هذا «السفر» على ظاهره الساذج كما يأخذه البعض وهذا موضع الخطأ، فإنما للنصوص من هذا السِفْر معنى آخر هو معنى خفي!

ولإبداء هذا «المعنى الخفيّ» سلك العقل الفيلوني مسلكاً وعراً نأى به عن واضح العبارات، فقد جاء بصور هي بالخيال شبيهة وعلى أسسها أقام للنصوص الدينية الصريحة تفسيراً غاير منها الأصل والجوهر، فقد أدخل المجاز وبه تجاوز عن صريح النصوص وابتدع:

بدعة التأويل!

بأول إصحاح من سفر التكوين استهلّت بدعة التأويل تاريخها العمليّ، فعلى ما قد جاء في هذا الإصحاح من النص الصريح القائل بأن اللّه قد خلق الأرض في ستة أيام وأن خلق الأرض قد سبق خلق الشمس، هبّ فيلون مأولاً يقول:

إن من الوهن العقلي أن يُظنّ أن العالم قد خُلق في ستة أيام أي أنه قد خُلق في فضاء وزمن!... كلا!. إن النصوص إذ تذكر بأن اللّه قد خلق العالم في ستة أيام لا تقصد أياماً كأيامنا!.. لماذا؟!... لأن كل مرحلة من الزمن إنما تتألف من أيام يُكوّنها ليل ونهار وهذان لا يكونان إلاّ عن طريق حركة الشيء، ومن ثم فإذا اعترفنا بأن الأرض لم تُخلق في زمنٍ فليس إلاّ لنعترف في نفس الآن بأن موسى لم يعن بهذه الأيام الستة إلاّ رقماً رمزياً ليس إلاّ!

ثم... ثم إن هناك إصحاحاً آخر أُسيء من فهمه المعنى وهو ذاك الذي جاء فيه أن اللّه حين فرغ من عمله استراح في اليوم السابع وأنه بارك اليوم السابع وقدّسه، فهذا كَلِمٌ لا يعني قط بأن اللّه استراح وإنما معناه أن الشيء قد استراح من عملية خلقه!

بهذه الألوان من التحوير للنصوص استهلّ فيلون بدعة التأويل التي مسّت إليها الحاجة في هذا الطور من العصر، فلقد كوّنت هذه النصوص الصريحة الدافع الذي دفع «فيلون» إلى ابتداع هذا المنهج، منهج التفسير الرمزي، وبذلك شقّ طريقاً إليه لجأ وما زال يلجأ كل تفكير ديني عندما يجد أن «النصوص المقدسة» لا تتماشى والعلوم العقلية بل وتخالف معانيها، الظاهرية والباطنية، مع ما يؤدّي إليه التفكير العقليّ ولو حمّلت النصوص ما لا طاقة لها بحمله وإن أدّى ذلك إلى مغالطة ظاهرة واضحة لصريح النصوص!

يقيناً إن الأول ممّن مثّل هذه الحالة كان «فيلون»، ويقيناً إن بهذه الحالة تمثّل لأول مرة النزاع الفكري بين العقل والنقل... ولكن!... لئن كان العقل الإنساني في راهن خطوته عن قدسية كتابه المقدّس مدافعاً قد ناضل، فإنما هو لمشكلة الطبيعة وما بعد الطبيعة في التفكير الإلهي كان قد تناول وإلى الخلاص كغايةٍ، رسم طريقاً وبذلك جاء بنظرة تتعارض كل التعارض والدين العبري! فالفيلونية إنما خطوة بعدت عن جوهر ما قد جاءت عنه أشد الدفاع تدافع بجمعها جميع التيارات السابقة عليها فهي إلى جانب كونها نتيجة منطقية

لتطور الفلسفة الإغريقية في القرن الثاني والأول ق.م، خطوة جاءت بنوع له لم نألف في فلسفة الإغريق، فالمعرفة والفلسفة لا تقصد هنا لذاتها كلا ولا من أجل إقامة مذهب فلسفي وإنما من أجل تفسير نزعة دينية خاصة، فهي لا تبدأ كالفلسفة الإغريقية التي تبدأ من التفكير العقلي المجرّد وإنما نجدها فلسفة لاهوتية تعبّر عنها من العبارات هذه الصيغة القائلة «أؤمن لأتعقّل»!

لا ثمة شك في أن «فيلون» إنما عمّا قد جاء أشد الدفاع عنه يدافع قد نأى وهو في أحضان عصره، المتنادي بالخلاص، يرسم إلى الخلاص طريقاً، في مداه يتلفّت حائر العقيدة الدينية في أمر دينه الذي وجد نفسه تجاهه يقف موقفاً صعباً!... فإن العقل الإنساني في راهن خطوته قد فقد في ضوء فلسفاته المعنى القديم للدين.. فقد، بجديد إيمانه بالعقليات، إيمانه القديم بالنصوص، فنظرته الفلسفية إلى الألوهة إنما لعقيدته الدينية قد غايرت مغايرة كلية!... إلى الإله غدا ينظر لا كقوة عليا حولها تحوّم منه الآمال والأماني، كلا!.. فالإله قد أصبح، تبعاً لنظرته الأخلاقية، وسيلة ومحققاً للخلاص الأخلاقي، وتبعاً لذلك أمسى الدين لديه هو الأخلاق، منظوراً إليه من زاوية ينحصر فيها المعني أن الدين وسيلة للخلاص!.. ومن ثم فإذا ما إلى الخلاص رسم «فيلون» طريقاً فليس إلاّ لينظر إلى الخلاص نظرة انحصرت فيها غاية الفلسفة في أن تكون مؤدية إلى الخلاص بالمعنى الصوفي الذي يدرك به الفكر تخلّص المُتناهي من حالة التناهي للوصول إلى اللاّمتناهي!

أوَشك؟! إن للخلاص إنما ينشد الإنسان، فالخلاص إنما منشد به نبضات القلب وجداً تتسارع وتخفق. بيد أن الخلاص لا يتلخّص في النحو الذي له يفهم الفهم الديني ومن ورائه الجماعي بتأدية مادي شعائر والقيام بمفروض طقوس، كلا وإنما الخلاص يتلخّص في؛ **الفناء في ذات الإله... ومن ثمّ** إلى الخلاص، كغاية، هناك وسيلة تنحصر في؛ **«التشبّه بالإله»**.

إلى «التشبّه بالإله» على الناشد الخلاص مجاهدة النفس، فإنه متى بدأ هذا الجهاد واتجه الاتجاه وللمحاولة حاول مريداً التخلّص من نزعاته الدنيوية تخلّص تدريجياً من الجهل الحالّ به وحلّ في حال «العلم» ومتى حلّ في حال «العلم» قاده العلم إلى «اللطف» وقاده «اللطف» إلى «القداسة» وقادته القداسة إلى الخلاص، والخلاص إنما حالة الفناء في الإله!

هذا هو الطريق السليم إلى الخلاص!. غير موصَد!. فغير موصد الطريق إلى القداسة فليس إلى الخلاص إلاّ هذا الطريق ودرجاته ثلاث:

«المجاهدة» و«العلم» و«اللطف» الواهب للقداسة

إذن.. يا أيها الإنسان!

من الدرجة الأولى الخاصة بالمريدين، حاول إلى الثانية الوثوب فإنك في حالة «العلم» تصل إلى إدراك الخلاص بطريقة واعية تستطيع أن تعرف تماماً الطريق المؤدي إلى الدرجة الثالثة وهي درجة القداسة، وهذه إنما الدرجة الخاصة «بالكمال»... والكمال إنما درجة إذا ما بلغتها حلّت بك من حالات الوجد الصوفي حالة تستطيع بها، أنت الإنسان، أن تعاين الحقيقة وتدرك أن الدين الحق إنما الدين الخليّ من الطقوس وأن التكليف الوحيد في هذا الدين إنما يتلخص في مجاهدة النفس!

بعد جهد جهيد من محاولة إعلاء كلمة النصوص على العقليات وقف «فيلون» بعيداً عن دنيا الطقوس يدين بدين صوفي والزمن من حوله يسجّل فترة زمنية في أرجائها يتلفّت «فيلون» فلا تطالعه إلاّ؛ «الكلمة»!...

كل ما حول العقل الإنساني في هذا الطور لا يردد إلاّ الكلمة «بالكلمة»!... العالم قد أضحى يردّد كلمة الرواقية «بالكلمة»!.. لا غرو إذن أن نرى العقل الإنساني المتلفت في أرجاء هذا العالم المخضّب «بالكلمة» يجد نفسه قد تمكنت منه وفيه قد عقّدت إلى عقيدة عقيدة «الكلمة»!.. ولكن!.. من جديد يعود إلى التأويل فيلون، فإن التفكير منه وإن يك بالأفلاطونية قد اصطبغ والفيثاغورية الحديثة له طابع، فهو إنما يخطو في نطاق دين له قد ورث وعلى بنائه المتصدع من الانهيار يخشى.. فإسرائيل في هذا الطور من العصر إنما مشتتة بينها وبين نفسها في الداخل ويزيدها على تشتت تشتتاً ابتعاث تلك العقيدة القديمة التي كان محورها «زربابل» في شخصية تطلع باسم «يسوع»، ومن ثم فإذا ما تناول فيلون «الكلمة» فليس إلاّ ليتناولها في تحوير تأويليّ وبقدر المستطاع يخرجها تخريجاً يتفق وما يرمي إليه من هدف يُراعي فيه التوفيق بين الرأي الفلسفي الرواقي والمعتقد الديني العبري، ومن ثم كان تنحّيه عن أن يقول «بالكلم» مقالة الرواقية إنها اللّه وإنما، على هدي الأفلاطونية في نظرتها إلى «المُثل» والفيثاغورية الحديثة في تحدثها عن «الواحد»، راح يمزج بين الإله و«الكلمة» مزجاً استخلاصياً فجعل «الكلمة» ليست أزلية كأزلية الإله كلا ولا هي فناء البشر به فانية وإنما.. إنما جعلها بين بين فقد جعلها عن اللّه قد صدرت وبذلك غدت «الكلمة» الواسطة بين الإله والإنسان!

«إن اللّه أحد ولكنه بقدرته خيِّر وحاكم، فبالخير صنع العالم وبالحكم يُديره ويُدبِّره ولكن!.. هناك شيء ثالث يجمع بين هاتين القدرتين وهو «اللّوغوس» أو «الكلمة»!... لأن اللّه، بالكلمة، يجود ويحكم... و«الكلمة» كانت في عقل اللّه قبل جميع الأشياء.. وهي متجلّية في جميع الأشياء!».

بهذا التحوير التأويليّ انبثقت في سجلِّ التفكير الديني:

نظرية «الوسائط» وانقلاب «الكَلِمة» إلى قوة عاقلة ومعقولة

تناول فيلون «الكلمة الرواقية» فحوّلها إلى هذا التحوُّل الذي انقلبت به عمّا كانت عليه لدى الرواقية، ومن إله حوّلها إلى واسطة بين العالم والإله بأن جعلها وسطاً بين اللاّهوت والناسوت فقد جعلها، وهي الباطنة في جميع الموجودات، وسطاً بين الألوهة والبشرية، إذ جعلها مظهراً لصفة من صفات الإله ومن هنا استرسل يقول: إن «الكلمة» ليست صفة حالة في الإله وإنما عنه قد صدرت **صدوراً خارجياً** وعنه انفصلت فغدت في درجة أدنى بالنسبة إليه!.. ومن ثم فمن اليقين أن «الكلمة» إنما بين الألوهة البشرية وسط!. ولكن!. **«الكلمة»** إنما في نفس الوقت من صفات الإله المنحصرة في العلم صفة، فعلم الإله إذن؛ **«الكَلِمة»**!.

إلى هذا التحول تحولت «الكلمة الرواقية» أو «اللُّوغوس الهيراقليطسي» وبهذا الجمع بين النظريات غدت «الكلمة» في النظرة الفيلونية **«كلمة خالقة»**!.. تماماً كما كانت الكلمة الخالقة، «مخروو»، الممثلة للقدرة الإلهية في اللاّهوت المنفي لمصر القديمة تحولت على نفس التربة المصرية بفيلون «الكلمة» فصارت الكلمة الخالقة الممثلة للقدرة الإلهية!.. فإلى معقول أفلاطوني حوّل فيلون «اللُّوغوس الهيراقليطسي» وبذلك تحولت «الكلمة الرواقية» تبعاً لذلك إلى صورة جديدة نراها فيها قد أصبحت في وقت واحد قوة **عاقلة ومعقولة!**

أجل.. غدا «اللُّوغوس» في النظرة الفيلونية، تماماً «كالمُثُل» الأفلاطونية.. فغدا معقولاً!.. ثم لتثبيت صلة اللُّوغوس بالإله وبالتالي بالكون وقف العقل الفيلوني ذلك الموقف الذي كان من أثره أن تم تحول «الكلمة» إلى ابن الإله، ففيلون إنما قد استرسل في شرحه يقول:

إن «اللُّوغوس» ليس أزلياً كالإله!. كلا وليس اللُّوغوس فانياً كالأشياء، وإنما.. إنما هو في مركز بيْن بيْن ومن ثم فإنه، وهو الذي عن الإله قد صدر صدوراً خارجياً وعنه انفصل وغدا في مرتبة دنيا بالنسبة إلى الإله، يكون قد ولده الإله.. ووليد الإله إنما يقيناً: **ابن الإله!** بيد أن هنا.. هنا يسأل الفكر عبر الأجيال فيلون:

إذن.. أتبعاً لذلك يكون «للكلمة»، و«الكلمة» إنما مبدأ الوجود، بدلاًّ؟!

ولكن! للمعنى من وراء هذا السؤال تتنبّه الفيلونية!.. فهي إذ لا تستطيع نفي البدء، وهذا ما إليه تنتهي حتماً نظرتها، فإنها للبدء تُؤوِّل فتقول: «إن هذا البدء يجب إلاّ أن يفهم بالمعنى الزمني وإنما.. إنما من حيث المرتبة الوجودية فحسب ومن ثم يكون «للكلمة» بدلاً ولكن!. البدء إنما بدء وجودي بمعنى أن هذا البدء صادر عن الإله، ومن ثم فيقيناً أن «الكلمة» هي: **الموجود الأول**.

ولكن!.. هذا الموجود الأول إنما هو العلم!... وإذن فهذا الموجود الأول، والموجود الأول هو العلم وهو الكلمة، هو: **«العقل الأول»**!

عن «الماء» عنصراً يقول به «سفر التكوين» للوجود مبدءاً تحولت الفيلونية إلى وجودٍ حكمت أرجاءه «الكلمة» كعقل أول!... بالصور الأفلاطونية اصطبغ «اللُّوغوس» فغدا قوة عاقلة معقولة ما لبثت أن بدأت المخيلة تحيك لها صورة، فإلى التصورية قد قادت الفيلونية النتيجة الحتمية لمحاولة إدخال العقليات على الروحيات بيد أن ليأتي هذا التحوّل بمشكلة أضافت الجديد إلى المشكلات الفلسفية، فكنتيجة حتمية لهذا التأويل انبثقت:

مشكلة الوحدة الهُوّية

إن الفيلونية تجعل «اللُّوغوس» مبدأ للوجود وتجعله من صفات الإله صفة العلم وتجعله عقلاً أولَ تقول إنه قد صدر عن الإله صدوراً خارجياً، بمعنى أنه ليس صفة حالة في الإله وإنما هو شيء **منه قد انبثق** ومن ثم **عنه انفصل** ولكن!.. الفيلونية إذ تقول القول فإنما تقول قولاً يحمل بين طيّاته سافر التناقض بتفريقه بين الإله و«الكَلِمة» هذه التفرقة التي هوت «باللُّوغوس» فجعلته في مرتبة، بالنسبة إلى الإله، أدنى في نفس الوقت الذي تجعل فيه «اللُّوغوس» عن الإله قد صدر وتجعله للإله وليداً.. فكيف يمكن الجَمْع بين هاتين العقيدتين.. عقيدة الوحدة وعقيدة الهُوِّية؟!

مشكلة، ما حاكتها الفيلونية إلاّ وتنبّهت إلى التناقض فيها فهبّت تلتمس لهذا التناقض حلاً فتقسّم الكلام إلى: **كلام نفسيّ أو التغيّرات... وكلام خارجي** أو الكلام الذي يعبر عنه باللفظ أو الصوت.. وبهذا التقسيم للكلام وضعت الفيلونية أساساً إليه اطمأنت فوقفت تعلن؛ أن للإله كلاماً يقسّم إلى قسمين:

كلام نفسي هو: «الكَلِمة» أو «اللُّوغوس» باعتبار «اللُّوغوس» هو العلم الإلهي.. وبهذا يغدو اللُّوغوس هو هذه الصفة من صفات الإله لأن اللُّوغوس ليس إلاّ كلمة من هذا الكلام النفسي للإله!..

وكلام خارجي هو أيضاً **«اللُّوغوس»** باعتبار «اللُّوغوس» الصورة المعقولة.. الصورة المعقولة إنما، قطعاً ويقيناً، هي نموذج الأشياء!

من ثم فمشكلة الوحدة والهُوِّية إنما اللاّمشكلة!... فالصلة بين الإله والكَلِمة موصولة تحت ضوء هذا التقسيم! بل، اللاّتفرقة تقوم بين الوحدة والهوية!... فليس إلاّ تحت هذه الصورة من التكوين قد تكوّن الكون وبرز إلى الوجود الوجود!

الحلّ حُلّت «مشكلة الوحدة والهوية» وبهذا التقسيم الكلاميّ تبدى، في هذا العهد من تاريخ التفكير البشري، لهذه المشكلة حلاً معقولاً، كما أن بهذا الحل احتلّت «الكلمة» مكانة غدت بها رمز الصلة بين الإله والإنسان والإنسان والإله، فقد احتلت أرجاء الطور من هذا العصر عنها العقيدة بأن بسببها كان الكون وكانت الكائنات، بل إن ما الكون إلاّ بسببها كائن وما الكائنات إلاّ بسببها كائنة!

لا غرو أن تحتل هذه العقيدة عن «الكلمة» أرجاء العهد وأن يؤمن القلب من إنسان هذا الطور بأن الاتصال بينه والإله وبالتالي بين الإله والكون إنما يكون بواسطة هذا «العقل الأول» أو «الكلمة»، فالعقل إنما يصدر عن اللّه والمادة إنما تنقاد للعقل فتتحرك وتنتظم وتتعدد فيها طبقات الموجودات ومن ثم فليس إلاّ عن طريق «الكلمة»، الصلوات!

لا شك في أن الصلاة أصل من أصول العلاقة بين اللّه والإنسان، ولكن اللّه إنما يستجيب للصلاة المتجهة إليه من خلال «الكلمة»، فإن اللّه إنما يستجيب دعاء «الكلمة» لهذه الموجودات الأرضية!

وهنا.. هنا، أيضاً، يسأل الفكر فيلون:

من هو هذه «الكلمة»، و«الكلمة» قد غدت قوة عاقلة ومعقولة وغدت عقلاً أولَ عن اللّه قد صدر وعنه قد انفصل؟!.. من هو هذا «اللُّوغوس» الذي يستجيب اللّه دعاءه للموجودات الأرضية؟

ضعيفاً تصل إلينا من خلال كثافة الأجيال الإجابة الفيلونية بأن:

وهل سوى موسى؟!.. إن موسى هو «الكلمة» وهو «اللُّوغوس»!

إن موسى هو «الكلمة» أو «اللُّوغوس» الذي استجاب اللّه دعاءه في سيناء! إن موسى، الذي خلّص «شعب الرّب» من براثن العبودية، إنما هو الذي خلّص من شوائب المادة فلحق بالطبيعة الإلهية[١]!

بالإجابة جاء من الفيلونية الجواب ولكن!.. في لجة الأجيال يغيب الباقي من الجواب الفيلوني بينما كانت «الكلمة» في الرحاب الفكري قد احتلّت مكانة غدت فيها رمز الصلة بين الإله والإنسان، وبينما في الصرح الفلسفيّ كانت قد رسخت عنها نفس الفكرة والزمن الجاري يجري بها منذ فجر القرن الأول للميلاد حتى القرن الثالث للميلاد مكوِّناً هذه القرون التي كانت غضونهن المسيحية كدين، تُحاك وتضع لبنات بنائه «أناجيل» راحت

(١) Transmutatur didivinus

تسطّر في هذا الطور من العصر الهلليني الروماني وتيار الزمن يتحدّر رنيناً عبره يتحدّر الصوت الفيلوني مدوياً يردّد في مسمع الأجيال:

إن **الكلمة** هي الموجود الأول وإنها تقف وسطاً بين الألوهية والبشرية، ومن ثم فوسيطاً بين الإله والإنسان يقف «اللُّوغوس» لأنه هو الشيء الصادر عن الإله، ولمّا كان الشيء الصادر عن الإنسان إنما منه بمثابة الابن، فإن «اللُّوغوس» أو «الكلمة» إنما؛ ابن اللّه!

أجل.. تحت هذا اللون، اللون الفيلوني، احتلّت عقيدة «الكلمة» أفق التفكير البشري في هذا الطور الذي يمثّل القسم الثالث من التاريخ السياسيّ عند الرومان، فإن هذا القسم، الذي يبدأ من سنة ٢٧ ق.م وتجري فيه الأيام تسجّل للإمبراطورية القرنين الأولين اللذين بهما ترك الرومان طابعهم على الشعوب التي ألقوا عليهم ظلال فتحهم السياسي واللّذان ينتهيان باستهلال مرحلة أخرى بدأ فيها حكم الأباطرة الأنطونيين (١٣٨ ـ ١٩٣ ب.م) ورفّ غضونها على العالم السلام وأعقبته فترة من الزمن عارمة ظلّت بالفوضى حتى ٣٠٦ ب.م. فيها أصبح قسطنطين إمبراطوراً وأمست بيزنطة القسطنطينية كعاصمة للنصف الشرقي من الإمبراطورية بسببها كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية وتطورت في هذا العهد المضطرب المسيحية وانتشرت كدين، إنما قسم تكاتفت فيه للطبيعة والإنسان قُوى على صبغه بالقاتم من الألوان!... فالعصر مُترع بالقلاقل والثورات ومجتمعه في شغلٍ شاغل بحرب الطبقات!... فهو إنما القسم الذي عبره ينتشر:

التفكير الديني في الطور الثالث للعصر

عن اضمحلال القُوى الرومانية اضمحلالاً وضحت تمام الوضوح منه الظاهرة في أفق القرن الثالث م ينتشر في سجلّ التاريخ السياسيّ للطور الثاني من هذا العصر تاريخ ولا ينتشر إلاّ لتنتشر العوامل التي كانت لهذا الانهيار السياسي أسباب؛ وأهمّها تلبّد الأفق الاجتماعيّ سخطاً على السادة المستعبدين والطبقة الحاكمة، فقد اتخذ هذا السّخط مظهره السافر بتلك الطبقات التي كانت تؤلف الناحية القائم عليها الصرح الاجتماعي لتؤيدها طبيعة أعلنت سخطها بحربٍ من الأوبئة فجّر طوفان المحن وأرسله هادراً فأتى بفوضى جاءت بفتن أهلية ألهبها تمرّد العبيد على السادة وتألُّب الجيش على الأباطرة!.. هذا هو تاريخ هذا الطور في سجلّ التاريخ السياسيّ الذي جاء بانهيار السيادة الرومانية من ثم فانهزام الأعصاب وفقدان الثقة بالخيرية البشرية، وانهزام الأعصاب وافتقاد الثقة إنما ظاهرتان نتيجتهما، أبداً، انتعاش تقوى دينية مطالبها، حتماً، الخلاص!

وتجاوب في الأفق الجديد الأنين القديم جديداً ينشد مطلباً الجواب عليه كان:

التفكير الديني الأفلوطيني

عن العالم الخارجي.. عن عالم عمّت أرجاءه الفوضى وساد نواحيه الاضطراب، أشاح الفكر الإنساني متمثِّلاً بأفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠ ب.م) قطب الأفلاطونية الحديثة وأبرز مفكِّر واجه الحكمة والدين بعقل الفيلسوف وسجية المؤمن، فهو فيلسوف من صميم المتصوفة أو بالأصح هو إمام التصوف، فهو من امتزجت آراؤه بالطرق الصوفية ولا تزال بها تمتزج.. أشاح بنفسٍ إلى عالمها بها لجّ فلجّ منه الفكر إلى العالم الداخلي الذي تحيا فيه الذات.

عن المادة، وعليه قد ألقت الصوفية الصافي من ألوانها، أشاح الآتي من «ليقوبولس»، أسيوط اليوم، إلى ضفاف التيبر بعد إخلاد نيّف وعشر سنوات إلى تلك المدرسة التي كانت عبارة عن تجديد للأفلاطونية كما أسسها إلى جانب المدرسة اليهودية «أمونيوس ساكاس» هذا الذي نشأ مسيحياً ولكنه بعد دراسة للفلسفة الإغريقية والعلوم العقلية وأديان العصر تحوّل عن المسيحية تحوّلاً تاماً واعتنق الفلسفة ديناً.. وفي روما، وبعد تطواف بسوريا والعراق رغبة الوقوف على الفِكَر والمعتقدات الفارسية والهندية ظلّ أفلوطين حتى طوته للزمن راحة أرسلت إلينا ما قد تركه من فِكرٍ سجّلتها تلك الرسائل الأربع والخمسون التي كتبها وجمعها له تلميذه «فرفوريوس» موزِّعاً إياها على ستة أقسام في كل قسم تسعة رسائل بها طلعت على دنيا الفكر؛ **«التساعات»**!

من هذه «التساعات»، الرامية إلى توضيح فلسفيّ المسائل بالرجوع إلى الأفلاطونية في شيء من الاقتباس من الأرسطية والفيثاغورية والرواقية، تأتينا خلاصة التفكير الأفلوطيني في الدين.

ولكن!... ليس إلاّ على أسس التفكير في الطبيعة وفي ما وراء الطبيعة يأتينا التفكير الديني الأفلوطيني، وليس إلاّ بعد أن نستجلي من أفلوطين تفكيره في الوجود وفي ما وراء الوجود نفهم هذا التفكير الدينيّ تماماً، فليس إلاّ عندما نستعرض النظرة الأفلوطنية إلى الطبيعة وما بعد الطبيعة يستقيم أمامنا الصرح الديني الذي ارتسم على الجبهة الأفلوطنية وشمخ لدى أفلوطين في أرجاء عالمه الداخلي منه البناء...

رأى أفلوطين أن في قمة الوجود يوجد **«مبدأ الوجود»** الأول وأنه الكامل الواحد والفيّاض مَنْ مِنْ فيضه يُحدث شيئاً غيره هو بدوره أيضاً يحدث شيئاً غيره بدوره أيضاً يفيض.. ومن ثم ففي قمة الوجود الوجود يقف:

الفياض ومن «الفياض» جاء الوجود عن طريق الفيض أو الصدور!... وهكذا يتدرّج

الوجود تدرّجاً تنازلياً من الكامل إلى الناقص ومن النور إلى الظلام، ومن ثم فإن المادة، لوقوفها في آخر مراتب الوجود، آخر حلقات هذا التدرّج التنازلي ومن ثم فالمادة أصل النقص ونفس الشر!

للسبب، والمادة نفس الشر وأصل النقص، عن المادة أشاح العقل تحت مظهره هذا الصوفي واتجه إلى «الفياض» ليأخذنا إلى الرحاب الذي يقوم في أرجائه صرح ما قد شيّده من دين وإليه بنا يلجّ لنسمعه شارحاً:

إن في قمة الوجود يوجد مبدأ الوجود ومبدأ الوجود إنما الإله ومن ثم فالإله إنما؛ **الواحد!**

«الواحد»؟!... أجل.. باطل لدى الصوفية، كفلسفة، نعت الألوهة بالواحد لأن في ذلك تحديداً بيد أن عند أفلوطين قد تحوّلت المقالات الصوفية إلى تعبير فلسفيّ وللمصطلحات الفلسفية استعملت الصوفية الفلسفية الأفلوطينية، ولذلك فليس إلاّ تحت هذا التعبير استرسلت اليد الأفلوطينية تسجّل؛ من ثم فواحد إنما الإله، في الواقع وفي التصوُّر الذهني معاً، بمعنى أنه وحدة بها ترتد عنه صفات العنصرية والمكانية والجسمية، فإن «الواحد» إنما لا مركّب وثابت ولا متغيِّر!

وعلى هذه الأسس لا يجب وصف «الواحد»، وهو اللاّمركب الثابت اللاّمتغير، بوصفٍ يقتضي التكثر!... ومن ثم فبالوصف الأرسطي لا ينبغي وصفه، فيوصف أنه «عقل»، لأن وصفه بهذه الصفة يقتضي أن يتصوّر الفكر مع الإله معقولاً، ولو كان هذا المعقول ذات ذاته!.

كلا لا يجب أن يقال عن الإله إنه «معقول لنفسه» أو «معقول لذاته» أي أن نفسه لنفسه تعقل لتعقّله موضوعاً تكون به كينونته معقولة لكينونته!... كلا!... فإن هذا الوصف قط لا يمحوه من التصوُّر الذهني!

ومن ثم فوصف «الواحد» بالعقل يُوجد إشكال التعدّد والتكثُّر!... وأيضاً وصفه «بالمعقول لذاته» يقتضي، للسبب نفسه، التكثر لأنه يقتضي أن يكون هناك عقل للشيء المعقول، ولو كان هو نفسه!... ومن ثم لا يجوز، بأي حالٍ، وصف «الواحد» بأنه «عقل»!

ثم... ثم إذا كان وصف «الواحد» بالعقل يوجِد إشكال التعدُّد والتكثر، كما أن وصفه «بالمعقول لذاته» يقتضي، للسبب نفسه، التكثر فحتماً لا يجوز، بأي حال، وصف «الواحد» بأنه «فِكر»!

بيد أن تُرى؟! تُرى، ومن ينبوع المنطق قد استمد الفكر اليقين بأن «الواحد» ليس بعقل وبالتالي ليس بفكر، أيجوز وصف «الواحد» بأنه جوهر؟!

كلا! من التعثّر وصف «الواحد» بالجوهرية فالجوهرية أمر نسبيّ بالنسبة إلى الإله ووصفه بها يحتِّم تصوّر الذهن لعرض لأن الذهن لا يقف عند تصوّر الجوهر وحده بل يندفع مسترسلاً لتصوّر مقابله ومقابله إنما العرض وهذا أيضاً يقتضي التكثر!. من ثم فعن «الواحد» تنتفي صفة الجوهرية وقط لا يجوز، بأي حالٍ، وصف «الواحد» بأنه جوهر!.

إذن!... إذن، وعن «الواحد» تنتفي صفة الجوهرية وقط لا يجوز وصفه بالجوهر، أيجوز نعت «الواحد» بالكلّ ومن فيضه إنما الكلُّ قد تحدّر؟!

كلا!.. من الخطأ نعت «الواحد» بالكل لأن «الواحد» يفوق الكل:

«فإن الإله في كل شيء حاضر وفي كل مكان موجود دون أن يستدعي الأمر أن يكون هناك دخول، لا شيء منه يخلو لأنه في كل شيء، ولا مكان منه خليّ لأنه في كل مكان!..».

أفلوطين

من ثم ليكفّ للإنسان عقل عن وصف الألوهة بالإيجابيّ من الصفات، وليكفّ من الإنسان الخيال عن تصوير الإله بالمعنويات من الصور، فإن إلى «الواحد» لا يجب أن ننسب خصائص لأن من الخطأ أن ننسب إليه صفات!. ومن ثم وليست هناك صفة تفي بوصف «الواحد» وليس هناك نعت يصوره تمام التصوير فيجب ألاّ يعرف إلاّ بالبساطة واللاّتركيب وألا يُنْعتُ إلاّ: **«هو»**!

هنا يبرز الأثر البارمنيدسي جلياً بل على أشدّه عندما تسترسل المعاني الأفلوطينية تعلن بلوغ العقل الغاية القصوى في تنزيهه اللّه بقوله:

إن اللّه فوق الأشياء وفوق الصفات ولا يمكن الإخبار عنه بمفهوم يطابق ذلك الموضوع!.. فقط لا يلمس الفكر «الواحد» ولا يستطيع به الإحاطة ولا له حصراً!.. «فالواحد» هو البسيط اللاّمركب، إنما؛ اللاّمشخص واللاّمشخص إنما؛ اللاّمحدود واللاّمحدود إنما؛ **اللاّمتناهي**! واللاّمتناهي إنما الخيِّر والخيِّر إنما؛ **هو**!...

إلى نعت «الواحد» هذا النعت الذي جاء بوصف إيجابي بعد شرح سلك فيه طريق السلب، حتماً كان العقل الإنساني بأفلوطين مسوقاً! ولكن إذا ما نعت العقل «الواحد» في راهن خطوته هذا النعت وبالخيرية وصفه فليس ذلك إلاّ على معنى أن الخير هو عين ذاته لا على معنى أن الخيرية وصف قائم به!. ومن ثم، والوحدة والخيرية شيء واحد، فإن؛ الواحد هو الخير! والخير إنما هو هذا الواحد المتصف بصفة البساطة واللاّتركيب!...

مما لا شك فيه أن العقل الإنساني في راهن خطوته قد ضنّ بوحدة «الواحد» فامتد يصفه

بالبساطة واللاّتركيب وضناً بوحدته جعله غير عقل وغير فكر خشية وصفه بوصف يقتضي التكثُّر، ولكن ليجد العقل كنتيجة حتمية لهذه النظرية، إنما تجابهه مشكلة معقدة!.. فإن بانتفاء العقل والفكر عن «الواحد» إنما تنتفي عن «الواحد» الإرادة!... ولا تنتفي الإرادة فحسب وإنما ينتفي بل يبطل نعت «الواحد» بأنه موجود! لأن النعت «للواحد» بأنه الموجود إنما نعت لا يصح، لأن الموجود هو الكل الذي صدر عنه الوجود، والكلية إنما تتنافى والوحدة المطلقة!

مشكلتان!... تناولها العقل الأفلوطيني بالحلّ فهو يستقيم معلناً؛ إذن لا يجوز نعت «الواحد» بأنه الموجود وإنما هو؛ **فوق الوجود**!.

كلا ليس معنى ذلك أنه غير موجود أو أنه عدم، فإن العدم دون الوجود وليس فوق الوجود، وإنما معنى ذلك هو أن حقيقة وجوده لا تُقاس إلى الجواهر الموجودة ولا تدخل معها في جنس واحد ولا في تعريف واحد!... بل إن مما تقدم نستطيع أن نستخلص لصلة «الواحد» بالكون ماهية فنفهم أن ماهيته اللاّعِلْم بالوجود ولا يَمَنْ فيه!...

ولكن!... هنا.. من خلال التيار الزمني يسأل الفكر أفلوطين:

كيف دون ما علم عن «الواحد» صدر عن «الواحد» الوجود والوجود إنما من «الواحد» فيض؟!

أيمتد العقل الإنساني حتى المدى الذي لديه وقف بالأرسطية، أم ميله بأفلاطون بأفلوطين يميل وبه تُعرِّف الأفلاطونية الجديدة ما قد عرّفته الأفلاطونية القديمة فتقول قولها بالواحد كمبدأ أولي وتجعله في مرتبة «الديمورج» أو الصانع الوجود، فتعلّل التعليل المعقول لوحدة الوجود وبذلك تضمن «للواحد» وحدة مطلقة تمكنه من استخراج الكثرة المتغيرة من وحدته المطلقة وتقول إن من «الواحد» نشأت الكثرة؟

ولكن.. من سكينة أروقة الرواقية ينساب نداء ما زال يردِّد أن الوجود إنما الوحدة وأن الوحدة تتدرّج تنازلياً من الأعلى إلى الأدنى وأن الواحد الأعلى إنما المتولي توحيد الأدنى بفعلٍ من جانبه **إيجابي**..

وعلى التعاليم الرواقية دارت اللوالب الفكرية بالأفلوطينية متسائلة؛ أمن وحدته يخرج «الواحد» وإلى توحيد الأدنى يتنزّل؟...

تساؤل ينتشر عنه الجواب على صفحات الرسائل الأربع والخمسين من «التساعات» فحفيف أوراقها يحمل إلينا صوت أفلوطين معلماً:

إن «الواحد» من وحدته الذاتية لا يخرج!... كلا!... وإنما في وحدته الذاتية يظلّ تبعاً

لكماله الثابت اللاّتغيّري اللاّتحركي، فإنما المحقّق الوحدة في الوجود ككلٍّ وبكل ما فيه من صور **شيء** آخر غير الإرادة...

يقيناً إن المحقق الوحدة إنما شيء غير الإرادة لأن الإرادة تُحتِّم بل وتقتضي مراداً وتصوير «الواحد» مريداً يقتضي تكثراً و«الواحد» إنما غير جوهر فغير عرض، ومن ثم ليس من شك أن «الواحد» لم يوجِد الوجود إيجاداً إرادياً وإنما وُجِدَ الوجود استجابة لضرورة طبيعية ناتجةٍ عن طبيعة «الواحد»، فإن لمّا كانت طبيعة «الواحد الفيّاض» فياضة فإن الوجود إنما من فيضه فيض والإيجاد لا إرادي سببه: **الطَبْع!**

يا أيها السائل؛ كيف عن «الفيّاض» دون ما علم منه، جاء الوجود فيضاً سببه من «الواحد» «**الطبع**»؟

إليك الجواب؛ إن «الطبع» إنما ناتج عن الوحدة المتحققة في «الواحد» كنور منتشر يفيض على ما حوله دون أن ينقص منه شيء!. هذا **هو الإيجاد الطبعيّ اللاّإرادي** المنتفية به عن «الواحد» صفة الإرادة أو المشيئة في آن الآن الذي يمكن أن نقول إن هذا الإيجاد الطبعيّ اللاّإرادي إنما هو الانبثاق أو الصدور أو الفيض!

ولكن!.. ما زال الفكر لأفلوطين يسأل؛ كيف من «الفيّاض» من هو «كل» و«خيِّر» جاءت المادة والمادة، كما تراها الأفلوطينية، أصل الشر!. وكيف جاءت الكثرة والكثرة للوحدة المطلقة مخالفة؟

سؤالان، عليهما يأتينا عبر «التساعات» من الشفاه الأفلوطينية الجواب وهي تبني لفلسفتها الصدورية صرحاً به يطالعنا:

التالوث الأفلوطيني

إننا نفهم وحدة «الواحد» وصدور هذه الكثرة عن «الواحد» مع احتفاظ «الواحد» بوحدته المطلقة إذا علمنا أن الفيض المتحدّر إنما يكوّن ثالوثاً تؤلفه أقانيم قدسية ثلاثة:

الواحد، والعقل، والروح أو النفس الكونية.

يقيناً إن بإطار من الوحدة المطلقة محاطة وحدة «الواحد» ولكن! «للواحد» في تفكير ذاته في ذاته خيال! خيال، هو عن هذا التفكير ناتج وهذا الخيال المنبثق من التفكير الإلهي، انبثاقاً لا إرادياً وطبيعياً وانبثاقاً أزلياً لا يدخل في الزمان لأنه انعكاس للتفكير الإلهي، إنما يكوّن شيئاً ماهيته كماهية المُنبثق منه محض تجرّدية ماهيته بالإله شبيهة لأنه المرآة التي يرى فيها «الواحد» نفسه!... ومن ثم فيمكن، لأن هذا الشيء إنما صورة للواحد، تسميته:

«النوس» أو العقل الأول

من «الواحد الأعلى» كأقنوم أول، انبثق هذا الشيء، الذي لا يمكن إلاّ أن يكون عقلاً انبثاقاً أزلياً تبعاً لأزلية الإله وانبثاقاً لا إرادياً تبعاً لتفكير الإله، فكان الأقنوم الثاني أو العقل الأول واتخذ وجوده كانعكاس للنور الإلهي...

ولكن!. هذا الانعكاس النوري أو بالأحرى هذا الظل المنعكس للنور، ليس بالنور وإن يك به شبيهاً وإنما هو، وهو تبعاً لذلك أقلّ كمالاً من «الواحد»، يقف في مرتبة أقل في الكمالية من «الواحد» وهذه تمكّنه من قبول الكثرة.. بيد أن صلة هذا الأقنوم الثاني أو العقل القدسي أو العقل الأول الوثيقة «بالواحد» وهو المرآة التي يرى فيها «الواحد» نفسه، تجعله لا ينأى عن الوحدة مع قبوله الكثرة فهو في آن واحد؛ **عقل ومعقول** ومن ثم فهو؛ **جوهر!**

ومن ثم فإن العقل الأول أو هذا الأقنوم الثاني، لكونه عقلاً ومعقولاً وفي آن واحد جوهراً ينقسم إلى نواح ثلاث؛ **العقل العام! الكائن أو الجوهر!. والعالم المعقول!**

يقيناً إن العقل الأول أو الأقنوم الثاني إنما ينقسم في جوهره هذا الانقسام، فإنه بوقوفه كعالم معقول، تكون هذه الكثرة، هذه الكثرة المتفاوتة الدرجات واللاّمتجانسة والمتجانسة من الأجناس والمتنوعة أنواعاً والمنتشرة في العالم المعقول، إنما في حقيقتها كانت **متمركزة في «الواحد»**، فوجود الكثرة كوجود الإله أزليّ وقط ليس بحادث وليس إلاّ الفكر الإنساني هو الذي يتجه سالكاً إلى إدراكها سبيل التقسيم الأفلاطوني!

ثم إن إلى جانب هذه الناحية الممثلة العالم المعقول، يوجد الجوهر المشتملة عليه الكائنات والمحقق موضوعيتها للمعرفة، وبهذا الجوهر يتجلّى الأقنوم الأول أو «الواحد» كشيء هو حقيقة؛ **«فوق الموجود»** ويتجلّى الأقنوم الثاني كشيء هو **«ذات الوجود»**!..

ثم إن إلى جانب هاتين الناحيتين تقوم الناحية الثالثة أو العقل الكوني العام.. وهنا يجب علينا أن نتنبه! فلقد سبق للفكر الإنساني أن قال في خطوته الأفلاطونية إن العقل هو المدرِك، والوجود أو المعقول هو المدرك بيد أن ذا فتعدّد!

ثم إن الفكر الإنساني في نفس خطوته الأفلاطونية قد وضع المعقول قبل العقل وجزم بأن المعقول فعل دائم وبأن العقل هو بالقوة، ولا يصير بالفعل إلاّ باستيلائه على المعقول!

ثم إن الفكر الإنساني في خطوة أخرى سجّلها بالأرسطية يصرِّح أن المُدْرِك والمُدْرَك شيء واحد!

من مدد هاتين الخطوتين اللّتين سبقتا للفكر الإنساني هذه الخطوة جاء إلى أفلوطين المدد

ليصطبغ أمامه الصرح القديم بلون جديد فيأبى الاعتراف بمعروف خارج عن العارف، ومن ثم بالصبغة القديمة جديدة يأتي فيعلن: **«أن المعروف نفس العارف»!**

ومن ثم كان امتداد العقل الإنساني تحت مظهره الأفلوطيني يعرّف الأقنوم الثاني في ناحيته كعقل عام بأنه؛ الحاوي المحتوي على جميع عناصر العالم المعقول، وأن تعقّله «للواحد» ينتج له بنفسه معرفة، وأن معرفته بالعالم المعقول وتعقّله ذاته ينتج له التأكد المطلق من وجوده وكل ما عليه نفسه يشتمل من وجود!

بهذه الصيغة صاغ العقل الإنساني تفكيراً إلهياً جديداً ألّف فيه من العالم العقلي هيئة متعددة، فجاء بعقل **عام حاوٍ للتعدّد**، لو تعقّل أحد أفرادها نفسه تعقّل في آن الآن جميع الآخرين!...

عن «الواحد» أراد العقل، أفلوطينياً، إبعاد الكثرة فقال بصدور الكثرة باختلاف أنواعها من الأحدية المحضة.. أكنّ الكثرة في ذات الأول المحض، ونشرها منه وفيه دون مساس به، ولكن!.. لئن عن الأحدية المحضة أصدر أفلوطين الكثرة باختلاف أنواعها وفي ذات «الأول» نشرها دون ما مساس لوحدانية وحدته، فإن إرجاع الكثرة في ذات «الذات» بعد أن جعلها أحدية محضة، يوجّه الفكر إلى سؤال:

كيف، والشيء لا يفيض إلاّ بما فيه، بما ليس فيه يفيض «الواحد»؟!

على هذه المشكلة العميقة من مشكلات التفكير الإلهي الشاملة لمشكلتي الحياة والعقل تجيب الأفلوطينية؛ بأن ذلك إنما محصور في الأقنوم الثالث النفس الكونية أو؛ **الروح**!..

لقد استدللنا أن من «الواحد الفيّاض» فاض «العقل الأول» وإذا كنا قد استدللنا الاستدلال فليس إلاّ لنعلم أن «العقل الأول» قد فاض عن الإله حاملاً في طبيعته طبيعة من عنه قد فاض. ولما كانت طبيعة «الفيّاض» فياضة فقد فاض «العقل الأول» بدوره فأحدث صورة منه هي هذا الأقنوم الثالث أو الروح، فإن:

انبثاق «النوس» عن «الواحد»، عن «النوس» انبثق «الروح» وتبعاً لهذا الانبثاق انقسم إلى قسمين يحدّدهما له اتجاهان؛ أعلى وأدنى، فهو بانبثاقه من أعلى يتّجه متطلّعاً نحو الأعلى، يتجه نحو «النوس» فوقه كشيء عنه صادر وناشىء! وهو بانبثاقه عن الأعلى يتساقط منه الشعاع متحدّراً نحو الأدنى وهذا الشعاع المتساقط المتحدّر يتضاءل في ابتعاده عن الأعلى تضاؤلاً به يتكاثف، وتكاثفه هذا هو الذي يكوّن هذا الكون، هذا العالم المادي المشاهد الذي نعرفه بالطبيعة ونسميه الوجود!

ومن ثم «فالروح» إنما الصلة الواصلة بين عالمي ما بعد الطبيعة والطبيعة فهو الأقنوم الرابط

بين العالمين، وهو الواصل بين المجرّد واللاّمجرد والمحسوس واللاّمحسوس بوجوده الذي يهدينا في نفس الآن إلى أن العالمين إنما في حقيقتهما يُكوِّنان وحدة تؤلفها متفاوت الدرجات.. درجات لها قد كوّن تحدُّر الأضواء من نور «الواحد»، كمصدر أولي وكينبوع نوريٍّ منه في فيض تساقط مُتَساقط الإشعاع!..

هذا هو «الثالوث الأفلوطيني» بأقانيمه القدسية الثلاثة كما كوّنه التفكير الأفلوطيني وهو يبني لفلسفته الصدورية صرحاً به احتفظ «للواحد» بالخيرية، وبالأحدية المحضة بجعله الأقانيم متدرِّجة المراتب وكل مرتبة أقل من سابقتها في الحقيقة والكمال والخيرية فهو بعد أن جرّد «الواحد» من اللاّمجردات، من الشر له جرّد وجعل الشر، بجعله المادة الطرف الأخير في سلسلة تدرّج الأقانيم، الطرف الأخير فقد جعل الشعاع الساقط من «الواحد» بواسطة «العقل» ثم عن طريق «الروح» والسائر بعد ذلك يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تكاثف وتحوّل إلى «مادة» أصل الظلام ومنشأ الشر وبذلك صوّر تحوُّل خيرية العقل إلى شر في المادة!

لا ثمة شك في أن من نبع الصفاء النفسي انتزع أفلوطين فلسفته، فهو قد ربط الصلة بين «الواحد الأحد» المطلق الصفاء وبين الكائنات العلوية وهذه الكائنات الدنيا المركبة في الأجساد بأقنومين استمدا قدسيتهما من قدسيته كأول فيّاض، ومن ثم كان قوله إن عن «الفيّاض الأحد» فاض «العقل» وإن عن «العقل» قد فاض «الروح»، ومن «الروح» فاض ما دون «الروح» من الموجودات على الترتيب الذي يتحدّر طوراً دون طور إلى عالم الهيولى أو عالم المادة والفساد، وليس هذا الإيجاد مسألة مشيئة بل هو ضرورة لازمة من طبيعة الخير أو الإله، ولهذا جاءت الأفلوطينية فلسفة تُمثِّل تدرجاً تنازلياً من الكامل إلى الناقص ومن النور إلى الظلام ومن الحياة إلى العدم، فالمادة الطرف الأدنى في سلسلة تدرّج الموجودات والشعاع الساقط من «الأول» بواسطة «العقل» ثم عن طريق «الروح» أو «النفس الكلّية» السائر بعد ذلك في الوجود السرمدي يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى يتحوّل إلى هذه المادة التي تقف الطرف الأخير في سلسلة الموجودات بحيث تتحوّل الحقيقة التي في «العقل» إلى عدم فيها وتتحول خيرية العقل إلى شر فيها، إنما يدلّنا كيف أن عن «الأول»، من ماهيته محض نور ومن طبعه خير محض، صدرت المادة وهي لابتعادها عن «الواحد» قد غدت محض ظلام ومحض شرّ!

على هذه الأسس تهب الأفلوطينية وبعالمها تهيب له تعلّم بأن الحقيقة بألاّ اثنينية فلا اثنينية هناك وإنما وحدة وجود واحدة، بيد أن لما كان عن «الأول»، مَنْ بطبعه خير، صدرت المادة كان الشر... نفهم ذلك إذا فهمنا أنه ليس بين الطرفين، الأول والمادة، شيء مما به

يخلو من خصائص واحد منهما، فإن مع أصل الخير وجد الشر دون أن يكون الشر على الحقيقة ضداً للخير وله مناوئاً!

من هنا نفهم الأفلوطينية حين لسؤالنا تجيب؛ أن «الأول» خير محض ومحض خير بيد أن «العقل» لكونه تالياً له في المرتبة، إنما أقل منه خيرية وصنو «العقل» صنو «الروح» أو النفس الكلية، فإن النفس الكلية لما كانت تالية للعقل في المرتبة فإنها أقل منه في الخيرية، وهكذا تقلّ الخيرية بالتدريج وبالتالي تكثر الشرية بالتدريج ويكثر العدم بالتدريج ويكثر الظلام بالتدريج حتى المادة، ومن ثم فكل مرتبة من مراتب الوجود بين «الأول» والمادة تحمل نصيباً من الخير إلى جانب نصيب من الشر، ولكن النصيب من كل منهما يختلف باختلاف مرتبة الوجود قرباً من «الأول» أو عنه بعداً...

كلا، إلى نسبية لم يرد العقل الإنساني في راهن خطوته الشر وإنما ردّه إلى الظلام الناشىء عن ساقط الضوء وابتعاده عن مصدره، وبذلك سجّل في سجل التفكير الديني صفحة ما زال العطر منها متضوعاً شذى الندى، فالفلسفة والتصوُّف العقلي إنما مزيج في معالم هذه الخطوة، آخر خطوة عقلية تناولت جدياً مشكلة الدين وعجمت تمام العجم منها الأصول فجاءت تشيّد بتفكيرها الإلهي صرحاً جديداً كانت مادته رأيها الذي راحت تعلنه قائلة: إن الإله هو؛ **كل شيء** وفي آن الآن هو؛ **لا شيء**!

يقيناً إن الإله هو «لا شيء» لاستحالة تعيين شيء معيّن فيه مما يستحيل، تبعاً لهذه الاستحالة، وصفه بالرؤيا أو التجلّي وما يتبع الرؤيا أو التجلّي من المكان ومن الكلام ومن تعيين أي مكان له مكاناً...

ويقيناً إن الإله هو «كل شيء» لأنه المصدر الذي انبثق منه كل شيء...

بهذا التعقُّل الصوفي تحوّلت النظرة إلى الوجود وإلى الإنسان إلى نظرة تخالف كل الاختلاف النظرة الدينية للعصر، فالفكر إذ يرى الإله في كل شيء وإن لم يك هو كل شيء، ويراه، وهو ليس بالكل، في الكل يمور ويرى أن كل شيء في أدق الهباءات وأبعاد الفضاء فيه يمور وهو في شيء لا يمور، فليس إلاّ ليرى الوجود فيضاً من وجوده، وليس إلاّ ليرى كل كائن حي قبساً قدسياً، وليس إلاّ ليجد نفسه مؤمن القلب بهذه العقيدة التي تأخذنا إلى مشكلة أخرى دقيقة من مشكلات الدين:

مشكلة النفس

لقد علمنا أن من «الفيّاض» فاض «العقل» من بدوره أيضاً فاض فأحدث صورة منه هي «الروح»، ولقد علمنا أن هذه «الروح» أو «النفس الكلية» إنما أيضاً كالمصدر المنبثقة منه به

شبيهة وفياضة، ومن هنا نعلم أن «النفس الكلية» إنما فياضة سرمداً تبعاً لطبيعتها السرمدية وأنها كما قد فاضت تفيض وستفيض، والفيض منها إنما حتماً يكون بها شبيهاً وهذا الفيض السرمدي التابع لسرمدية هذه «النفس الكونية» إنما:

النفوس! يقيناً إن من «الروح» أو هذه «النفس الكونية» جاءت، فيضاً، النفوس، فمن الشعاع المتساقط قد تكوّنت المادة ومن فيض «النفس الكلية» انبثقت النفوس!. ومن ثم فإن النفس أو بعبارة أوضح كل نفس من هذه الكائنات إنما تحمل في طبيعتها طبيعة هذه «النفس السرمدية»، ويقيناً إن ماهية هذه «النفس الإلهية» إنما لكل نفس ماهية، ومن ثم فإن:

النفس، «كالنفس السرمدية»، سرمدية وبطبيعتها خالدة!.

سرمدية إنما كل نفس وخالدة لأنها تحمل في طبيعتها طبيعة المصدر الذي عنه قد صدرت فإن عن «النفس الكونية» قد صدرت، النفس صدور الشعاع المتساقط منها المكوِّن «المادة»، هبطت النفس مع الشعاع المتساقط المكون المادة، ومن ثم فسرُّ اتصال النفس بالمادة وسر حلولها في هذا الجسد المادي...

هذا هو السبب في استشعار النفس أن هذا الجسد المادّي إنما لها قيد... وهذا هو السبب في عميق شعورها بأن غايتها تنحصر في الخلاص والعودة إلى عالمها؛ عالم «الأول الواحد» الذي عنده قد صدرت!

إلى الخضم الذي منه قد تحدرت تريد القطرة أبداً العودة!.. هذا هو السر في اعتلاج النفس، كلما متطورة ارتقت، إلى الجمال وتلهفها لإحقاق الخير واتجاهها نحو الكمال، بل إن هذا الأوار وهذا التلهّف والشوق إلى المصدر الذي منه قد انبثقت وتسميه الإله إنما على أجنبيتها عن هذا العالم برهان بل نفسه برهان على أن هذا العالم إنما ظاهرة لحقيقة وأن الحسّ ضال في تصور المادة والفضاء!...

الحل حلّت الأفلوطينية مشكلة النفس، وأسلم الحلول في تاريخ الفلسفة القديمة كان حل الأفلوطينية، فقد ضمنت للنفس خلوداً مستمداً من سرمدية «النفس الكونية» التي منها قد انبثقت، كما قد جعلتها بطبيعتها خيّرة تبعاً لخيرية المصدر الذي عنه قد صدرت، ولكن بهذا الحلّ جابهت الفكر الأفلوطيني:

مشكلة الثواب والعقاب

انبثقت هذه المشكلة تبعاً للرأي الأفلوطيني المؤكد بأن؛ النفس، بطبيعتها كقبس قدسي، خيِّرة، ولكننا لن نفهم الحلّ الأفلوطيني لهذه المشكلة ما لم نستعرض فلسفته الأخلاقية القائلة:

يقيناً إن طبيعة النفس محض خير، فالنفس لصدورها عن الينبوع النوري إنما قطرة منيرة وهي ولانبثاقها من تلك الخيرية اللاّمحدودة لا أثر للشرور فيها وإنما اتصالها بالجسم وخضوعها لرغباته وتوهمها أن رغائبه رغائبها أصل نقائصها وشرورها وهذا هو فيها أصل الشر... ومن ثم يجب أن تنحصر غايتها في الخلاص من سيطرة الجسد وتغليب طبيعتها النيّرة على طبيعته الكثيفة، ومتى غلبت طبيعتها طبيعته انحصرت غايتها في الخلاص منه والعودة إلى الأصل إلى المصدر والاتحاد «بالواحد»، وهذا الاتحاد ممكن في راهن هذه الحياة على الأرض، فلن تهدأ النفس حتى يتم لها بمصدرها الاتحاد!..

وإلى بلوغ هذه الغاية تنحصر الوسائل في الفلسفة؛ فالفلسفة هي الوسيلة الوحيدة التي تصعد بالإنسان في مراقي التطهير الخُلُقي حتى درجة التشبّه «بالأسمى» وحينذاك يتم للنفس بالإله الاتحاد وهذه إنما مراحل تنحصر منها السبل في اتباع **«القانون الأخلاقي»**...

كلا! لا تسألن ما هو «القانون الأخلاقي» فإنه بين جانبيك موجود وعلى صفحات القلب منك مسطّر وإليه لن يهديك وسيط، فإنما القانون الأخلاقي موجود في الداخل والاستنارة «بالنور الداخلي» هي وحدها التي تهدي إلى التشبه «بالأسمى»، فليس إلاّ على هذه الأسس القويمة يقوم صرح الدين الصحيح، وليس إلاّ على هذه الأسس تستقيم أركان العبادة الصحيحة التي لا تعبِّر عنها إلا كلمة واحدة هي؛ **التسامي!**

التسامي بالنفس وتمرينها على التشبه «بالأسمى» حتى تصبح وتراً حساساً يصدح بأنغام الخير هو العبادة الصحيحة التي ينبغي أن تقدم «للواحد»، فهي أس الدين الصحيح الذي لا تضحي فيه غاية الإنسان، كجزاء، لذة حسية قاصرة على الجسد وإنما لذة وجدانية تفوق كل اللذّات، وهذه تتمثّل في فناء المحِّب في المحَب فهي حالة؛ **الفناء في الإله!**

إلى «الفناء في الإله» الفلسفة إنما وسيلة فليس ما سوى الفلسفة وسيلة إلى هذا «الفناء» الذي تنال به النفس الغبطة العظمى لأنه حال تفقد فيه النفس الشعور بذاتها وتستغرق في «الواحد الأول» استغراقاً أصح عبارة للتعبير عنه أنه: **حالة انجذاب**

كلا!... إن هذه الحالة لا تنحصر في إدراك الإدراك للإله بالإدراك والاغتباط بهذا الإدراك مع احتفاظ المدرك بشخصيته وإنما!... إنما الصوفي يفهم الصوفي حين على الصوفي يميل الصوفي هامساً، وإنما فناء كليّ للذات في «الذات» وهذا هو؛ **الاتحاد!**

إذن.. لا تسألن بعد ذلك عن «الصلة»!.. أيسأل الإنسان عن الصلة وأي الوسائل تصله «بالواحد»؟.

إن الصلة موصولة بالطبع **ولكنها** لن تصح واقعية إلاّ متى بددت النفس عن نفسها

غشاوات المادة وانداح عنها زيف الدنيويات!. إن «الصلة» إنما **بالطبع** موصولة ولكن النفس لا تحسّها إلاّ متى تحررت من سيطرة الجسد، فمتى تحرّرت غمرتها تلك اللذة الفائقة اللّذات والتي نعرفها باللذة الروحية!...

شاق وعسير بلوغ النفس هذه اللّذة الروحية من الفناء المستطاب والنفس في أسر الجسد رهينة ولكنها ممكنة الحصول إذا ائتمر الإنسان بأوامر «القانون الأخلاقي» في الداخل وانتهى بنواهيه، فإنها حالة قاصرة على من عن المادة والماديات أشاح، فإن هذه الحالة، حالة «الجذب» لا ينالها ولا بها يستمتع إلاّ من إليها متواصل السعي سعى.. من عن الشر بعد بُعداً خلّد فيه إلى الخير، ومن ثم فإن الجزاء، بما يحمله من ثواب وعقاب رهين عمل الإنسان!..

على هذه الأسس تنحلّ مشكلة الثواب والعقاب... وللسائل عن ماهية الثواب والعقاب إليه الجواب:

إنه إمّا الفناء في «الظلمة» وإما الفناء في «النور»... إما فناء في عدم وإمّا فناء غير فان في خلود!

كلا! لا تعد الأفلوطينية بجنة كجنة «إندرا» فيها تمرح الحور جزاءً للأبرار الأتقياء!.. كلا ولا بجنة كجنة «أوزير» فيها الخمور واللبن واللباس للمتقين جزاء!... كلا!.. فالعقل الإنساني وهو لهذه الفلسفة يسجّل إنما يمر في مرحلة الكهولة ففارق مرحلة المراهقة ونأى عن وقدة الشباب وأمسى يفرق بين لهب الحسّ ولهب الروح، فلم يعد النعيم لديه لذة حسية تروي منه ظمأ الغرائز وإنما لذة وجدانية تروي منه ظمأ الذات، فللذات ظمأ لا يرويه إلاّ لذة الفناء في «الذات» وغبطة اتحاد الذات **«بالذات»**!...

بيد أن حذار!.. لا يفهمنّ الإنسان أن المرمى من القول بفناء الذات في «الذات» فناء الشخصية الفردية في المصدر الذي استمدت منه وجودها.. كلا!... إن كلمة الفناء في هذا الصدد لا تحمل في طواياها المعنى المفهوم من الفناء وإنما معناها الانغمار في «المصدر» أو بعبارة أوضح انغمار النفس في مصدرها... فهو تعبير صوفي يقصد سكون النفس إلى عالم الحقيقة الذي نستطيع أن نستجلي حقيقته إذا تذكرنا أن هذا العالم الذي نعيش فيه بأجسادنا منه قد صيغ... وإذا تذكرنا ذلك فليس إلاّ لندرك أن هذا العالم المحسوس إنما من العالم العقلي المجرّد صورة، وليس إلاّ لندرك بالتالي أن عالم الحقيقة إنما مؤلف من مادة أخرى ذات لون لهذه المادة مغاير ومخالف ومن ثم، أدركنا تمام الإدراك أن هناك مادة أخرى **«غير مادية»** تُكوّن عالم المجردات غير هذه المادة «المادية» التي تكوّن عالم المحسوسات!

وعن هذه «المادة» الأخرى في عالم المجرّدات يتحدث أفلوطين وفي تبرير وجودها يقول: إنه لما كان هذا العالم المحسوس المادي صورة لذلك العالم المجرّد يتحتّم أن تكون في هذا الآخر مادة أيضاً، ولكنها على خداع لا تنطوي مثل ما عليه تنطوي مادة هذا العالم المحسوس!...

وهل من شكٍ؟! إن هذا العالم اللاّمجرّد الذي نعيش فيه بأجسادنا ليس إلاّ صورة لعالم الحقيقة الذي ليس إلاّ مجازاً مجرّداً، فإنما هو مادة نورية ومن ثم أكثر شفافية من هذه المادة الكثيفة التي ليست في حقيقتها إلاّ للصورة الحقيقية التي تقوم هناك مجرّد ظلال!.

وإذن فما لمذاهب فدائية تمور ويمور بها العصر تقول ببعثٍ للجسد وما الجسد إلاّ مادة هنا وما النفس إلاّ مادة هناك؟!

هذا هو الثواب والعقاب في هذا التفكير القائل بأن الجحيم إنما الفناء في الظلمة والظلمة عدم وإن إلى هذه النهاية لا تقود الإنسان إلاّ نفسه عن طريق اتباعه للجسد أوامر تنأى به عن «المصدر»، وأن النعيم إنما الفناء في النور والنور الحياة، وأن إلى هذه النهاية لا تقود الإنسان إلاّ نفسه أيضاً عن طريق اتباعه أوامر القانون الأخلاقي في الداخل التي تقترب به من «المصدر»...

هذا هو التفكير الديني في فلسفة نعرفها بآخر خطوة عقلية في عصر اصطبغت منه الآفاق السياسية بألوان الغروب الذي سحبه على جبهة الزمن نُذُرُ انهيار الإمبراطورية الرومانية، فإن القسم الثالث الذي ينقسم إليه التاريخ السياسي الروماني (٢٧ ق.م - ٣٠٦ ب.م) إنما يسجّل علائم هذا الانهيار الذي بدأت بوادره في القرنين الأولين للميلاد عندما في غضونهما كانت قد تحولت العاطفة البشرية المفتقدة الاطمئنان والمفقودة الطمأنينة إلى نشدان الخلاص نشداناً أثار بين جوانبها وقدة القلق فراحت حائرة بين أديان العصر ومذاهبه الفدائية يتقاذفها دين بعد دين ويمتلك منها الوجدان مذهب بعد مذهب!

ولكن!... غضون القرنين الأولين على وجود المسيحية كمذهب، لا انتشارها كدين، وغضون هذين القرنين اللذين ترك الرومان خلالهما طابعهم على الشعوب التي ألقوا عليها ظلالهم السياسي المتّسم بسمة الجبروت، الذي انقشع بالأباطرة الأنطونيين هؤلاء الذين عرف العالم في عهودهم سلاماً لم يعرفه من قبل، كان جانب كبير من العالم متأرج بأرَج الرواقية!... كانت الآفاق النفسية تتجاوب بِرَجع الصدى الرواقي المنساب من أروقتها المنتشرة أبّان هذا العصر والمتغلغلة بتعاليمها ومبدأها الاجتماعي إلى ما وراء الشغاف من

القلب البشري، فقد بلغت الرواقية المدى الذي تأثرت به القوانين الرومانية تأثراً ترك في سجلات القوانين الوضعية أثره وسجل هذا التأثر كان؛ «القانون المسطور».

أجل.. إن من هذا القانون الذي كان نتاجاً للحقوق الرومانية التي نشأت على عهد الأباطرة الأنطونيين يفوح عطراً العبير الرواقي، فليس هناك شبه بينه وبين الحقوق الرومانية القديمة بحال من الأحوال، فإن مُشرعيه قد اقتبسوا أفكار فلاسفة الإغريق وخاصة الرواقيين منهم، وفي هذا إنما شاهد يقوم على التأثر التام للعصر بالرواقية، فالقانون المسطور يضع المبدأ الرواقي أساساً لمواده وفي سجل الأحكام القانونية يسجِّل اتخاذه هذا المبدأ الذي ينص على إقامة شريعة الإخوة العالمية قاعدة لأحكامه، فهو يذهب إلى أن الحرية الشخصية حق طبيعي لكل من يولد حراً بمعنى أن العبودية مخالفة للقانون الطبيعي...

على نحو ما يأمر به العقل الناس كافة جرى «القانون المسطور»، الذي لم يبق فيه أثر للقانون الجائر المعروف بقانون الألواح الاثني عشر، يسجِّل تأثر العصر تمام التأثر في كل مناحيه بالمبدأ الرواقي وبالتعاليم الرواقية أو بالأحرى بالرواقية كمذهب من مذاهب العصر وأديانه التي كانت، لقرون، قد امتلكت من الأعنة البشرية العنان والتي شاهد بها العصر في أعقاب عهد الأنطونيين من الخلط العقيدي والمزج الفكري ما لم يشاهده عصره من قبل، ففيه مزجاً مزجت العقائد والفِكَر وفيه خلطاً اختلطت الأديان!...

أجل... لقد أعقبت عهد الأنطونيين ردّة سياسية عجيبة نشأت بأباطرة غريبي الأطوار، فقد جاء زمن على هذه الأمبراطورية والذين يدعون الحكم فيها ثلاثون إمبراطوراً انقطع كل منهم إلى ناحية من الإمبراطورية وسمى نفسه إمبراطوراً ليسمّيهم التاريخ السياسي بالثلاثين ظالماً، ففي عهدهم فشت الفوضى في مرافق الحياة كافة حتى اختنقت الآفاق بدخان هذه الفوضى العارمة التي لم يك إلاّ بسببها أن اختلطت في خلطٍ عقائد المذاهب القديمة بعقائد وقديم الأديان لتطفو على صفحة الزمن في صورة الجديد من المذاهب ولتتسم بسمة الجديد من الأديان!...

على صفحات التاريخ السياسي والديني معاً منتشرة هذه الفوضى السياسية وهذا الخلط الديني العجيب الذي كان على أشده إبّان هذه الفترة الزمنية من العصر وخاصة في القرنين الأولين ب.م، ففي غضون هذين القرنين من الزمن، اللذين سبقا انتصار المسيحية على غيرها من المذاهب والأديان، كانت النفس البشرية نفساً قلقة ومنكسرة وعلى أمرها مغلوبة، وهذه حقيقة منها نتأكد إذا تذكرنا أن الإمبراطورية الرومانية في غضون هذين القرنين بعد الميلاد كانت ولاية عبيد!.. ومن ثم فإننا، على هدي هذه الظاهرة التاريخية، لا نضع يدنا على سر انهيار الإمبراطورية الرومانية فحسب وإنما نضع يدنا على سرِّ اختلاط الأديان وانتشار

المذاهب الفدائية الواعدة بالخلاص في نفس الوقت الذي نضع فيه يدنا على سرٍّ نشأة الجديد من المذاهب وسرّ تحولها إلى أديان!

من ثم إذا كنا قد تبيّنا أن في غضون هذه الفترة الزمنية كانت الإمبراطورية الرومانية موزّعة الحكم مشتتة السياسة متهاوية القوى ومضطربة من سياستها الأحوال، فإننا من هنا نعلم أنه لما كانت المذاهب الفدائية في المدن وفي الولايات الرومانية منتشرة كما في نفس عاصمة الإمبراطورية وكانت المدينة أو الولاية مزيجاً من الديانات فقد كانت هذه المذاهب وهذه الديانات، تتنازع ويمتد بالتنازع بينها لواحدة مدّ ولأخرى جذر بقيام إمبراطور وتحيزه لها، وليس إلاّ لهذا السبب كان قد انتشر، لفترة غضون الطور الثالث من العصر الهلليني الروماني، قبل إعلان المسيحية ديناً رسمياً:

الدين الميتهري

لفترة قصيرة أضحت الميتهرية ديناً رسمياً غضون السنين الأخيرة من القرن الثالث ب.م وإلى جانب أوزيرس وإيزيس شق «ميتهرا» إلى الوجدان طريقه حتى رفّت عبادته على أرجاء الإمبراطورية وأرعت الأرجاء معابده التي اتخذت شكل مغاور كانت تؤدى فيها أمام المذابح شعائر أشبه هي بالشعائر المسيحية من أي دينٍ غيرها... فالصور من هذه الشعائر إنما عماد وولائم مقدسة ومسحة وتوبة وحفلات لتزكية النفس تحتِّم على المؤمن الاتشاح بالأبيض من ألوان الثياب!..

أجل.. لقد انتشرت الميتهرية في العالم الغربي من قبل وإلى قلب العالم الغربي كانت من قبل قد لجّت بعد حملات «بومبي» الآسيوية وتدفق الآسيويون من جنوده إلى حواضر آسيا الصغرى، فقد وجد الأباطرة أن في دين «ميتهرا» تأييداً لسلطانهم لأنه كان يرفع سلطان الملوك إلى عرش السماء، وحجتهم في ذلك أن «ميتهرا»، وهو إنما الشمس، يشع عليهم قبساً من نوره وهالة من بركته فيرمزون بعروشهم على الأرض إلى عرش السماء، ومن هنا كانت يقظة هذا المذهب في هذا الطور من العصر ليشيع شيوع أديان العصر ومذاهبه وليجد تأييداً في ناحية كبيرة من القلب الجماعي، لا لأنه دين توبة ومذهب كفارة وخلاص فحسب وإنما لأن في طقوس الانخراط فيه كان ما يجتذب القلب من الجماعات، فقد كان الانخراط في الدين الميتهري يبدأ بأن يحتفل بالمزيد في حفل يتناول فيه الخبز المقدس ويُمسح بالماء الطهور ويُعاد هذا الحفل على صورة أكبر كلما انتقل الميتهري من درجة إلى درجة!.. بهذه الاحتفالات احتلّت الميتهرية من أرجاء الإمبراطورية ناحية كبرى من القلب الجماعي تحولت تحاول، وقد رسبت في عقيدتها العقيدة البطليموسية القائلة بسماوات سبع، ارتقاء

«الدرجات السبع» التي جعلتها الميتهرية أمام أتباعها ليرتقوها إلى مقام العارفين الواصلين رمزاً إلى الدرجات التي تصعد عليها الروح بعد الموت من سماء إلى سماء حتى تستقر في نهاية المرتقى عند مكان الأبرار...

بهذه الاحتفالات انتشرت عبادة ميتهرا، قبيل انتصار المسيحية، بأتباعها الذين كانوا يفردون لعبادة «ميتهرا» يوم الشمس، ويوم الشمس إنما يوم الأحد من كل أسبوع!.. كما كانوا يحتفلون بمولد «ميتهرا» في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر لأن هذا الموعد، لديهم، هو موعد انتقال الشمس وتطاول ساعات النهار!

هذه لمحة من شعائر العبادة الميتهرية التي كانت منتشرة على أشدها قبيل انتصار المسيحية كدين رسمي ولكن... الميتهرية طويلاً لم تنتشر، فهي بعد أن دان بها «أورليان» وغيره من الأباطرة وجانب من الجيش بدأت تذوب في خضم هذا الاختلاط العجيب بين سائر المذاهب والأديان حتى تلاشت تماماً في الطور الذي تقدّم فوز المسيحية على غيرها، ومن أبرز الأمثلة على هذا الاختلاط والخلط الديني ما يأتينا به «اسكندر سيفير»، ففي قصر هذا الإمبراطور «الصالح التقي» كان مصلى فيه كانت تقدّم فروض العبادة إلى كل من إبراهيم وأورفس معاً، كما في هذا المصلى أيضاً عُبدا معاً أبولو ويسوع!..

ولكن!. هنا تطالعنا ظاهرة من ظواهر هذا العصر هي نتيجة حتمية لهذا الاختلاط العجيب من البديهي كانت أن تكون، فمن البديهي كان أن تختلط في المخيلة البشرية الشخصية الدينية بالشخصية الدينية وأن تختلط ببعضها القصص عن كل هذه الشخصيات ولكن!.. كل هذا الاختلاط قد ارتدّ جذراً عن عقيدة أساسية من عقائد العصر وليس هذا فحسب وإنما على النقيض كان لها مؤكداً، فإن بالرغم من اختلاط مذهب بمذهب ودين بدين وقفت ثابتة عقيدة العصر الدينية وهي تلك المتخذة محوراً مخلصاً هو رب ابن إله السماء، مات وبُعث ليمنح الناس نعمة الخلود!... وقفت ثابتة هذه العقيدة وإن تاهت العقلية البشرية فيمن عليه من «أبناء الإله» تستقر هذه الصفة!.. كما رسخت في أرجاء العصر، في ناحيته الفكرية، عقيدة العصر الصوفية وهي تلك المتخذة محوراً؛ **«الكلمة»**!

ولكن... نفس هذه الظاهرة المتسمة بمظاهر الحيرة والقلق كانت تقدمها أنفاس الزمن معلنة أن قد شاخت غضون هذا الطور من العصر قديم الأديان، وأنه قد وهن ما قد ترك القدامى من فدائي مذاهب، فالطور إنما طور فرغت أرجاء التفكير البشري فيه إلاّ من التخبّط وإلاّ من الحيرة بين مذهب ومذهب وإلاّ من التردد بين دين ودين، ففي هذا الطور من العصر الهلليني الروماني اعتصرت يد الزمن تمام الاعتصار الطمأنينة، بلونيها الإيجابي

والسلبي، من القلب الجماعي، وتركته فارغاً إلاّ من أثقال التخبّط والحيرة مثقلاً بالأثقال النفسية!... فمنذ طوت يد الزمن صفحة الإمبراطورية المقدونية ونشرت صفحات السيادات الثلاث فصفحة الإمبراطورية الرومانية ما زال وجه الأفق مكفهراً مقتمة منه الجوانب التي سحبت على الآفاق السياسية مِحناً قفتها محن سحبت سحائبها حتى تبدى العالم، أكثر من ذي قبل، كأنه النهاية، ليكرّر، أكثر من ذي قبل، مدوياً السؤال:

أية خطيئة أتاها العالم حتى يستحق كل هذا العذاب؟

قديماً كان قد دوّى في الأرجاء الوجدانية هذا السؤال وقديماً، نتيجة لفقدان الثقة بالخيرية البشرية وانهزام الأعصاب، كان قد جاء إلى الأرجاء الوجدانية الجواب في صورة ما قد انتشر من مذهب فدائية محورها موت رب وبعثه وتخليصه، بموته، الإنسان من العذاب... ولكن الشدّة ما زالت الشدّة والاقتتام ما زال الاقتتام بل على شدة تشتدّ هذه الشدّة اشتداداً وعلى اقتتام يقتم هذا الاقتتام اقتتاماً حاملاً في طواياه النذير بأن النهاية قد حلّت!...

من ثم، ومن جديد قد عصفت بالقلب الجماعي البشري هذه الحالة تمكّنت منه عقدة الخوف القديمة وبعثت جديدة اشتدّ بها مطلب الخلاص لتبعث بالتفكير، تحت ضغط من الشعور النفسي، إلى الاتجاه بالسعي مرة أخرى لا إلى حيث تتقاذف الإنسان أنواء الحيرة بين مذهب ومذهب وإنما إلى مذهب يضمن له ما قد نشده قديماً وما ينشده الآن من الخلاص!... مذهب يكفل له الخلاص من هذا العذاب النفسي في نفس الآن الذي يكفل له الضمان الاجتماعي الذي تمنحه الرواقية!.. هذه هي الحالة التي دفعت العاطفة البشرية الناشدة الطمأنينة الإيجابية إلى دين وجدت فيه، إلى جانب ما تنشده من كفارة وتوبة وخلاص المساواة والحرية الشخصية، فهو دين فيه تلاقت الفِكَر والعقائد الدينية لأديان العصر ومذاهبه الفدائية بالمبدأ الرواقي المنادي بالمحبة والإخاء العالمي والسلام...

وإلى هذا الدين الجديد، وإن يك في جوهره غير جديد، والمتّخذ أسّ المذهب الرواقي له قاعدة تحوّلت العاطفة وعليه أقبلت، فليس هناك بين المذاهب الفدائية وأديان العصر دين أو مذهب يجمع المبدأ الرواقي إلى جانب عقائده الدينية مثل هذا الدين الذي صاغ «الكَلِمة الرواقية» بشراً وأفرغ فيها كل ربّ ابن إله!... للسبب، كان حتماً أن تتحوّل العاطفة البشرية إلى هذا الدين الذي بتحوّل العاطفة إليه بدأت تتحوّل إلى ذكرى في مخيّلة الزمن الديانات الأوزيرية أو السرابيسية والإيزيسية والميتهرية، فقد بدأ يتبلور إلى حقيقة في جبهة الزمن:

الدين المسيحي في الطور الثاني من العصر الهلليني الروماني

وُلد هذا الدين كمذهب من الموسوية بدأ له تاريخ انسلاخ وفي الطور الثالث من العصر

الهلليني الروماني تحوّل إلى دينٍ... وكدين رسميّ أشرق في مغرب العصر لتُبنى له، والأيام إلى «العصور المظلمة» تسير، في النفس قواعد وأصول وأركان ولترسخ، والأيام من «العصور المظلمة» إلى «العصور الوسطى» تسير، له في القلب مكانة إليها لم يتسرّب من الفكر شك فيزعزع منه البناء إلاّ في «عصر النهضة» حين بدأ العقل الإنساني، بعد طول سبات، يتنبّه ويستفيق ليرى أن التفكير منه مقيّد بما قد توارثه بهذا الدين من عقائد تُمثّل العصارة مما قد عرف العصر الهلليني الروماني وما قبله من مذاهب وأديان...

على هدي هذه الأضواء التاريخية نرى أن من المحتّم لكي نفهم تمام الفهم المسيحية، كمذهب نشأ وتحوّل من بعد إلى دين، أن نعود فنستعرض التربة التي كانت منبتاً للمسيحية في هذه الفترة من الزمن على الخصوص، فنرى أن تربة هذه البلاد كانت منشأ الرواقية الأولى وأنها كانت على اتصال دائم بآسيا الصغرى من جهة وبالإسكندرية من جهة أخرى، وهي يومئذٍ مركز الفلسفة القائلة «بالكلمة» على أنها مبعث كل حركة ومصدر الوجود وكل موجود، وممّن فيها من كان يقول إن الحب هو أصل جميع الموجودات والرابط بين جميع الأكوان، ومنهم من وعظ بالنسك والزهد ومنهم من نادى بالإخاء وبالسلام!... بل وإلى أورشليم خاصة يجب أن نعود فنعود إلى عهود اليهودية وإلى تلك اللحظة الزمنية التي فرّقت الشعب العبري إلى موسوي ويسوعي...[١]، بل وإلى ما قبل هذه اللحظة الزمنية بقليل يجب أن نعود فنعود إلى تلك الفترة من الزمن، غضون الأسر البابلي، التي انبثقت خلالها في المخيلة العبرية «فكرة المسيح» واستحكمت فيها إلى عقيدة ملكت من الشعب العبري أرجاء التفكير حتى راح عبر الأيام ينتظر «المسيح المنتظر»!.. ليس إلاّ بعد هذا الاستعراض ينحسر:

الأساس الذي شُيِّد عليه صرح المسيحية

إن الأساس من الصرح المسيحي لم تك مادته إلاّ العقيدة القديمة التي انبثقت في أُفق الأسر البابلي بمطلب «مسيح»!... فليس إلاّ بمطلب «مسيح»، كاد أن يكون قديماً «زربابل» اشتد من جديد في العصر الهيرودي الهمس يتنادى بمسيح، أيضاً، من نسل داود... فقد اندلع الهمس في أرجاء اليهودية حمماً يُردِّد: لقد أرهق «الشعب المختار» طويلاً طويل الاستعباد وأمضه دفع الجزية بعد الجزية صاغراً لأمم عليه تتابعت أفواجها في استعباد!. حراً يريد أن يكون «شعب الرّب»! يريد أن يكون سيّداً! سيداً كأمة ذات سيادة وسؤدد وسلطان! وهذا إنما أمر، «لشعب الرّب» لن يصير إلاّ بِمَلَك من نفس إسرائيل وبالذات من «بيت داود»!

---

(١) ارجع لكتاب «الدين عند العبريين» من هذه السلسلة

ولكن!... لئن كان «شعب الرّب» متململاً يتلفّت فيما بينه ونفسه في هذه الفترة الزمنية التي اشتد فيها من قيد النير الروماني ضيقه، فليس إلاّ لتومض في أغوار نفسه ومضة من أمل فهو يرى أن الزمن قد استدار وانفرط إلى أيام تسجّل في راهن هذه الفترة عهداً هو في اعتباره رأس الألف الخامس للخليقة وهي عنده مبدأ التقويم، وهذا إنما يبعث بين جانبيه ذكرى عقيدة عامة انطوت عليها منه الجوانب في حنان... فمذ قاده موسى من أسر العبودية وحرّره وعقيدة بين جانبيه راسخة أن في مطلع كل ألف سنة لا بدّ أن يأتيه الخلاص من كل شدة به تحيق!... هذه هي العقيدة التي دفعت «بشعب الرب» في غضون هذه الفترة الزمنية لأن يرى أن هذه الشدّة الرومانية إنما علامة على أن قد آن قيام مَلِكٍ يقوم تحت صفة «مسيح»!

وخفق القلب العبري بالرجاء وتسارعت نبضاته لترتسم على الشفاه صورة واضحة من هذا الرجاء!...

كلا! بل إن الرجاء في أن اللّه سيبعث إلى «شعبه» مسيحاً ينصره على أعدائه، لا يتجدّد فحسب تحت ضغط هذا النير الروماني وإنما الرجاء قد أصبح يقيناً! قط من قبل لم يتحدّد منه الهدف تحديده في هذا العهد، العهد الأغسطسي ففي هذا العهد، كي يتثبت القلب العبري من هذا اليقين، امتدت إليه العبرية تتناول «سفر دانيال»[1] وتُقلب منه الصفحات حتى وضعت سبابتها على الإصحاح السابع من هذا السِفْر وبذلك وضعت يدها على ذلك الحلم أو تلك الرؤيا التي طلع بها على عالمه دانيال يقصّ عليه أنه قد رآها وأن «جبريل» قد فسّرها له بأنها تحمل من المعاني البشرى بأن سيقوم من «بيت داود» من سيعيد إلى «شعب الرّب» عزّته ووحدته اللتين كانتا له في عهد داود...

وبأهداب «الحلم الدانيالي» تعلّقت من اليهودية الأهداب وراحت فيها الشفاه لا تردّد في هذه الفترة الزمنية إلاّ لدانيال صوتاً يقول:

«كنت أرى في رؤى الليل، وأنا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرّبوه قدامه، فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتقيد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض!»

الآية ١٣ من الإصحاح السابع من سفر دانيال

احتل الحلم الدانيالي أفق المخيلة العبرية حتى راحت أرجاؤها تتجاوب بنغمةٍ واحدة سرت

---

(١) ارجع لكتاب «**الدين عند العبريين**» من هذه السلسلة.

في دنياها تُردِّد بأن حلم دانيال قد أمسى وشيك التحقيق.. وفي البِيَع الدينية، في الأسواق، في البيوت سَرَى التهامس وسار الهمس وانساب في آفاق البلاد دَوياً يردِّد بأن الزمن قد آن لقيام ملك من «بيت داود» ممسوحاً بمسحة موسى ليكون لشعب الرب **مسيحاً**!

في مسمع التاريخ ما زال يتردّد الهمس الجماعي الذي تردّد في هذه الفترة يتنادى بأن العهد إنما عهد تحقيق «حلم دانيال»، فهذا هو العهد الذي ارتسمت فيه على الشفاه العبرية الكلمة «بالمسيح المنتظر» حتى دوّت جنبات أورشليم وانساب منها الدويّ إلى «الجليل» وامتد إلى مهابطها حيث تقوم «الناصرة» وحيث رجع هذه الأصداء من بيوت هذه «المدينة البيضاء» بيت كان فيه يعيش من كان «سليل داود»...

أجل... إن «بيت داود» ما زال حياً و«النسل الملكي» ما زال موصولاً و«البذرة المقدسة» ما زالت تعيش وإن تلك قد هوت بها الدوائر من عرش داود إلى كرسي النجارة الذي كان من عليه يقطع أيامه يوسف حفيد زَرُبابل!. من على هذا الكرسي كانت تنصرف الأيام عن حفيد من كاد يكون مسيحاً، بل وفي كدح وراء العيش كانت تنصرف الأيام عن سليل داود ومِنْ عليه يعول هذا الفريسيُّ المذهب[1] امرأته مريم وأولاده يوسى ويهوذا وسمعان ويعقوب وأكثر من صبية وأما أكبر الأبناء فصبي يحبو على مدارج الصبا اسمه:

يسوع

أثمة شك في أن للهمس المدويّ كانت قد أرهفت المسامع من «سليل داود» ولا شك في أن مخيلته قد استعادت، وهو على كرسي النجارة يعمل، ذكرى «زربابل» وطوّفت على جبينه ذكريات ذلك الحلم القديم الذي جاء به «عيسو» وحلّق به «أرميا» وبزربابل لم يتحقق. لا غرو من ثم أن تلتمع بين ضباب الحاضر أضواء الحلم الدانيالي على جبهة يوسف وهو يهبط بيسوع، الصبي البالغ من العمر اثني عشر عاماً، أورشليم في عيد الفصح، تبعاً لتقاليد الدين العبري المحتّم على كل من بلغ هذه السن زيارة أورشليم لتصبح عليه، من بعد ذلك، فريضة مقدّسة من كل عام الحج إلى «بيت المقدس»، ولا غرو من ثم أن ينحصر همّه في التأكد من هذا الهمس المدويّ بأن قد آن الآن لقيام ملك يكون «سليل داود»... بيد أن بين وميض هذا الأمل الملتمع في غيم الفكر والأيام تترى وتسير امتدت راحة الزمن إلى يوسف فطوته تاركاً كرسي النجارة لأكبر الصبية والدارج الآن على مدارج الشباب من بدأت الأيام من حوله مسيرها متجهة به إلى الثلاثين من العمر ونهارها عليه ينقضي عائلاً

(١) ارجع لكتاب «**الدين عند العبريين**» من هذه السلسلة.

أمه وأخوته، وأما لياليه فقراءة «سفر دانيال» وسبح الجفن في هذا الهمس المشتد دوياً ينتظر «المسيح المنتظر»!

أجل.. إن الهمس المدوّي طالباً تحقيق «الحلم الدانيالي» قد اشتدّ رنيناً يلهب النفس العبرية ويثير فيها رياح الثورة النفسي حتى انطلقت تحيك المؤامرات ضد العرش الهيرودي ولكن لما كان هذا العرش يقوم على مساند الكهنوت فقد اتجهت المؤامرات إلى قلب نظام الحكم الكهنوتي وقودها هذا اليقين بأن الآن قد آن ليطلع على العالم «المسيح المنتظر» بل يؤجج هذا اليقين الحمم الثاوي تحت الرماد ويرسله لهباً لظياً كان مظهره السافر إعلان الثورة على الاستعمار الروماني.

وللثورة على الاستعمار الروماني ثار «معلّم» بعد «معلّم» أجلاهم على التاريخ بروزاً كان آخرهم، يهوذا الغولونيتي، مَنْ قام يحرّض قومه عند الشروع في الإحصاء أو تعدّد النفوس على الامتناع عن دفع الجزية إلى الرومان، فدفع الجزية إنما دليل على ذلّ الدافع وخضوعه و«شعب الرّب» يجب أن يختار الموت على الذل... لهذا السبب لقى الغولونيتي حتفه..

وبسبب هذا السبب تدافعت الفئة المتحمسة من الشباب إلى التمرّد السافر لتسفر الثورة عن التحريض بالامتناع عن دفع الجزية حتى لم يجد حاكم أورشليم وسيلة، إزاء ما قد ثار من اضطراب، إلاّ القبض على كل ثائر يعلن تمرّده على دفع الجزية، وقتله عقاباً له ولغيره ردعاً... الأمر الذي أكّد لناحية من المجتمع العبري إيمانها بأن الثورة لن تُجدي نفعاً فإنما المطلب بمثابة حروب دموية تشهرها لتحريرها أمّة ضعيفة تجاه أمة قوية.. عن مقاومة الرومان تعجز القبضة العبرية عجزاً يولّد في النفس منها اليأس من الخلاص على يدي ملك يكون شأنه كشأن داود يجرّد الكتائب ويجتاح بجنوده القلاع ويقمع أعداء «شعب الرب» بالحديد والنار!. ومن ثم فامتداد اليد العبرية إلى «كتابها المقدس» تستلهم منه حلاً لما قد تعقّد أمامها من أمور.. ومن ثم راحت لصفحاته تقلّب حتى وقفت عند «سفر زكريا»، ففي هذا السفر وجدت العقلية العبرية لرأيها تأييداً فراحت جذلة تُردّد لزكريا قولاً يقول إن الرّب يقول:

«ابتهجي جداً يا ابنة صهيون! احتفي يا أورشليم! هوذا ملكك يأتي إليك! هو عادل ومنصور! وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان!.. ويتكلّم بالسلام!.»

الإصحاح التاسع من سفر زكريا

ولكن! تحت هذا السعير من حمّى العاطفة التي تملّكتها بعقيدة «المسيح المنتظر» لم تتنبّه العقلية العبرية إلى أن هذا القول الذي انطلق من شفاه زكريا إنما كان لا يعني إلاّ ذاك الذي كان في الماضي أن يكون مسيحاً!.. لم يعن إلاّ زربابل الذي كان قد مهّد له بهذا القول

نفسه نفس زكريا!.. كلا إلى إصحاح واحدٍ من نفس «سفر زكريا» لم تتنبّه العقلية العبرية وزكريا يقول إن:

«هذه كلمة الرّب إلى زَرُبابل قائلاً: لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي!.. إن يدي زربابل قد أسستا هذا البيت فيداه تتممانه!».

الإصحاح الرابع «سفر زكريا»

كلا!.. لم تتنبّه العقلية العبرية، تحت سعير ظمئها إلى ملك من «نسلِ داود» يعيد إليها عزّتها التي كانت لها في عهد داود، إلى أن زكريا لم يعن بهذا الملك إلاّ وإلى اليهودية في عهده زربابل ومن راحَ زكريا له يُمهِّد ويؤازره «حجي» ذلك الكاهن الآخر حتى كاد أن يصبح زربابل «مسيحاً» لو لم تمتد يد «يهوشع» الكاهن الأكبر ورفقاؤه تُلقي في فجوة المجهول بزربابل وتُبدِّد الحلم الذي طاف على جبيني حجّي وزكريا طويلاً!..

كلا... إلى هذه الحقيقة لم تتنبّه العقلية العبرية وإنما عند الإصحاح التاسع من سفر زكريا وقفت في هذه الفترة الزمنية من العهود الهيرودية ليضاف إلى الهمس المدوي بمسيح منتظر القول بأن **الملك الآتي** من نسل داود سيكون وديعاً **هدفه السلام وسيدخل أورشليم راكباً على حمار ابن أتان!**

على أنغام هذا الهمس المسترسل يلقي الدعة في النفس انعطف التيار العاطفي إلى ناحية جديدة بها اصطبغ الرجاء، الذي أصبح يقيناً بين الجوانب وخلد ينتظر قيام مسيح، إلى مسيح لن يكون شأنه شأن من قام من قبل من الملوك ولن يعهد فيه ما عهده من قبل في مسحاء القوة المدمّرة والبأس الباطش، فإنما الآتي مسيح في عالم الروح؛... يكون الوداعة والسلام اصطبغت صفة «المسيح المنتظر» حتى انعقد الإيمان بين الجوانب على أن الخلاص المنتظر إنما ينحصر في خلاص النفوس والضمائر بالتوبة والتطهير... ومن ثم فانطلاق هذه الناحية من المجتمع العبري تعلن أن على «شعب الرّب» إنما حالٌ غضب الرب... غضب الربُّ على شعبه غضباً ينادي إليه شعبه بالعودة إليه عن طريق **التوبة والتطهير!**

وكما اندفع الدُعاة السياسيون من قبل في صورة «الرسل» و«الأنبياء» كحزقيال وكأشعيا، داعين في صورة التبشير إلى ملك من نسل داود، نرى الدعوة إلى ملك من «نسل داود» تهب من مضجعها القديم وتجيء جديدة تحت صورة التبشير الديني بمذهب يتخذ مظهره الواضح تلك الشخصية التي لا يمكن قط تجاهلها أو العبور بها مروراً عابراً، فليست هي بالشخصية العابرة في تاريخ تكوين الدين المسيحي وإنما الشخصية الممثّلة من الصرح

المسيحيّ نفس الأساس... فهي تلك التي انطلقت تنادي بالتوبة وتغترف الماء من مجراه وتصبه على الناس لهم تطهيراً وتعميداً تلك الحاملة اسم: **يوحنا المعمدان**.

حوالي السنة الخامسة من حكم طبريوس، ردّدت الأرجاء العبرية همساً ما لبث أن انساب ترجيعه دوياً يتجاوب باسم صاحب هذه الشخصية التي عليها تترامى أضواء التاريخ فنراها.. نراها على الشواطىء الشرقية من «البحر الميت» تطلع على «شعب الرب» ليرى هذا الشعب الذي لم يكن يعرفها إلا فرداً من الفئة الكهنوتية في ذلك الركن الديني؛ حبرون الذي كان يعرفه كأحد المنذورين منذ الطفولة للرّب، قد كان يوحنا، «نذيراً» ومن ثم فخاضع للون من التقشّف.. ولكن إذا إليه نلتفت، فليس إلاّ لنراه كأثرٍ لانسياب البوذية إلى أورشليم في هذا العصر، صورة تعكس هذا اللون من صوفيات الهند.. نراه على الضفة من نهر الأردن يحيا حياة شبيهة المظهر بتلك التي على أضفة الجانجز ونرى من حوله تُبَّع يقاسمونه هذا اللون من حياة التقشّف ويعتنقون ما قد اتخذه من مذهب أبى إلا جاف العيش وخشن اللباس! ولكن يوحنا لا يقف عند هذا اللون من التقشف ولا ينادي «بالتوبة» فحسب وإنما يحتّم على المنخرطين في مذهبه العماد بالماء.. فيأتي بشعيرة كل الجدة على الموسويين جديدة!

أجل.. إن التطهر بالماء شعيرة تعرفها الأمة العبرية من شعائر دينها وهي الوضوء قبل الصلاة، بيد أن يوحنا يأتي بهذه الشعيرة تحت صورة جديدة تتلخص في النزول إلى الماء والانغمار فيه تمام الانغمار ويجعلها شرطاً للمهتدين إلى «التوبة» من «شعب الرب» ممن قبلوا له مذهباً ويعلن أنها من الخطيئة «العماد»!

شعيرة صابئية وشبيهة بتلك التي تؤدى في مياه بنارس من أنهر الهند حيث علم «البودها»، إنما هذه الشعيرة التي يدخلها يوحنا إلى قلب الدين العبري وينشرها في تدعيم فهو إنما، بعد اختياره مركزاً لإجراء هذه الشعيرة تلك الصحراء من اليهودية الواقعة على أضفة البحر الميت، قد انتقل إلى الشواطىء الشرقية من الأردن حيث انتشرت فيها دعوته وعمّت أرجاء دنيا اليهودية!.. فالجموع ممن هزَّ منهم الوجدان هذا النداء، وخاصة من قبيلة يهوذا وبالأخص من الطبقة المهضومة، أسرعت إليه طالبة التوبة والغفران وساعية إلى العماد حتى أن الأيام عن شهور قلائل لم تنقض إلاّ و«يوحنا المعمدان» اسم في أرجاء اليهودية إلى القلب منها ليس فحسب حبيباً وإنما اسم يحسب له حساب وله يُعرف شأن، وليس ذلك إلا لأن هذه الجموع التي ليست بمجموعها إلاّ جماعة لديها كانت عقيدة شائعة، في هذا العهد، تقول «برجعة إيليا»، وتؤازر هذه العقيدة عقيدة لديها أخرى تقول القيام من الموتى

وبعث بعض القدامى من القبور لقيادة «شعب الرب»، اعتبرت «يوحنا» أنه «إيليا»!

ولكن... لئن إلى «يوحنا» التفتت هذه الجماعات ترى فيه «إيليا» قد بُعث وعاد إلى الحياة إلاّ أن من هذه الجموع كانت جماعة، وعقيدة «المسيح المنتظر» قد ملأت من الشعب العبري الجوانب، اعتبرت أن يوحنا هو؛ «المسيح المنتظر»!

ولكن! ما راح هذا الهمس يسري من حول «المعمدان» إلاّ ليهبّ من على كرسي النجارة يسوع!.. وإلاّ ليسرع لملاقاة يوحنا المعمدان طالباً منه «التعميد» لتلتقي من خلال هذا «العماد» نظرات يوحنا بنظرات يسوع... وهنا، هنا تصمت شفاه الزمن للحظة وترف على أضفة الأردن هدأة يشقّها صوت «المعمدان» في جموع المتعمدين معلناً؛ أن عن من كان في ضمير الغيب حلماً قد تنفّس الزمن!...

وإلى يوحنا تطلعت في دهشة الرؤوس العبرية!. أذهلها القول إلاّ عن الترديد فيما بينها بأن يوحنا يطلع الآن على الأتباع بأن عليهم الاستعداد لاستقبال «المسيح»!..

وبالغادين والرائحين من المتعمدين بالماء سرى الدويُّ في دنيا الشعب العبري بأن الآن قد آن لمطلع المسيح الذي سيعمد الناس لا بالماء وإنما «بالروح القدس»!

«الروح القُدُس»

يقيناً إن هذه الدعوة الطالعة ذات نغمة فريسية[1] وإلى النغمة الفريسية حتماً كان أن يتنبّه الانتباه من الصدوقيين!. ومن ثم فليس إلاّ بسبب هذا التنبّه أن هبّت، ضد هذه الدعوة الطالعة، الرؤوس العبرية، فقد أقنعها من تفكيرها المنطق بأن ما يدعو إليه يوحنا عن طريق «التوبة» ليس إلاّ وسيلة يجمع بها إلى غايته الأتباع في صورة هذه الشعيرة الجديدة من «العماد» التي ليست في حقيقتها إلاّ تمهيداً لحركة يعدّ لها يوحنا هذه النفوس الجماعية التي اكتظّت بها أضفة الأردن ويمهّد لقبولها منهم منه قول إنه هو نفسه ليس إلاّ الطريق المهيىء لمن سيأتي ليكون: «المسيح»!

وعلى هدي سياستها وعصرها، أيقنت هذه الرؤوس العبرية أن هذه الدعوة إنما حركة سياسية تتخذ هذه الشعيرة إلى غايتها وسيلة تكسب بها الأتباع، وأن الصورة الصوفية التي يطلع بها «يوحنا» إنما شخصية سياسية اندفعت باسم «التوبة» تمهّد جدّياً الطريق لخطى سليلٍ «لِزَرُبابل» وتشيد من جديد عرش داود «وبغصن» من «بيت داود»!

هذا هو الدافع الذي بسببه اقتربت الرأس الكهنوتية من الرأس الحاكمة وأدلت إليها بما

---

(١) ارجع لكتاب **«الدين عند العبريين»** من هذه السلسلة.

يتكاثف حول العرش الهيرودي من غيوم، وأن العواصف من حول هذا العرش تتجمّع بهذه الجموع التي أصبحت تردِّد عن يوحنا نداءه بالمسيح حتى أمست تجهر بالقول وهي تطوّف أورشليم واليهودية وسائر البقاع المحيطة بالأردن غير آبهة بسطوة القوة الحاكمة التي قد فهمت المغزى من أمر هذه الدعوة!.. ومن ثم لم يك يمكن بحال التغاضي عن أمر هذه الدعوة، فلقد ملأ «المتعمدون» أزقة أورشليم وأسواق اليهودية وبينهم الحديث يجري همساً وينساب ترجيعه دوياً يعلن تأهب أنفاس الزمن لإعلان مجيء «المسيح المنتظر» «ملك اليهود» الذي سيقوم من «بيت داود» فيهوي بقيامه «بيت هيرود»!!.. أمر ليس إلاّ بسببه قتل هيرود «أنتياس» يوحنا المعمدان!...

ولكن!.. الدعوة، بمصرع يوحنا، لم تمت!.. بل كان مصرع يوحنا بمثابة الشرر الذي انطلق إيذاناً ببدء تاريخ يسوع!.. فقد اندلعت لمصرع يوحنا المراجل النفسية لظيّة اللّظى تمتد لهيباً مستعراً لنرى في ضوء هذه اللهب ظلاً يسير على ما قد كان عهد يوحنا المعمدان من طرق.. ورويداً يقترب منّا هذا الظل فنرى حفيد زَرُبابل، نرى غصناً من ذلك «الغصن»، نرى النجّار الفريسيّ المذهب يسير محفوفاً بأصوات إلى حيثما سار تسير تهامسها يتجاوب ترجيعاً في أرجاء اليهودية في امتداد إلى إسرائيل يطبّق الآفاق العبرية دوياً بأن: لقد أتى «ملك اليهود» من نسل داود وجاء «المسيح المنتظر»! يسوع؟!

عبثاً تطوي اليد سجلات التاريخ السياسي بحثاً عن هذه الشخصية التي تمثّل المحور من حركة عرفناها فيما بعد بدين.

عبثاً تطوي اليد سجلاّت التاريخ السياسي بحثاً عن هذه الشخصية فلا يجيء عنها في سجل التاريخ السياسي الذكر إلاّ لماحاً من «يوسيفوس»!. فإن هذا المؤرخ العبري الذي كتب، حوالي (٧٥ ـ ٧٩ م) «حرب اليهود» وكتب، حوالي (٩٣ ـ ٩٤ م)، «القدامى» لا يذكر هذه الشخصية إلاّ على هامش سيرة أخرى يأتي بها في صدد تحدّثه عن ثورات الشعب العبري، فهو إذ يحدثنا أن «يوسى»، أخو يسوع «المسيح»، قد أدانه رأس الكهنوت العبري بالحيدة، وحكم عليه «الساندهارين» أو المجمع الديني بالإعدام وقُتِلَ رجماً بالحجارة فليس إلاّ ليجري قلم المؤرخ عن يسوع، الملقب «بالمسيح»، بالقدر اليسير فيوسيفوس لا يذكر إلاّ أن «**وكالحدث حدث آخر مؤلم انتهى بالصلب**»!

من أرجاء التاريخ السياسي للعصر الهلليني الروماني لم يأت ذكر عن هذه الشخصية الجاري باسمها في غضونه مذهب أشرق في مغربه كدين!. كلا ليس هناك أي سجلٍ سياسيٍّ من سجلات العصر يحدثنا عن هذه الشخصية، فليس هناك لهذه الشخصية تاريخ

إلاّ مما تأتينا به سطور ما يناولنا إياه هذا الدين من كتاب يعتبر المرجع الصحيح له وله صحيح سجل يحمل اسم:

العهد الجديد»

و«للعهد الجديد»، لهذا الكتاب الذي لم يكوّن ككتاب إلاّ لقرون ثلاثة خلت للميلاد، تتناول منا اليد ولكن!. لا تتناوله منا اليد إلاّ لينتشر سجلاً تؤلفه سجلاّت..

أجل.. إن «العهد الجديد» إنما كتاب لا يؤلفه «إنجيل» واحد وإنما «أناجيل أربعة». أناجيل أربعة ضمّت إليها مجموعة من «الرسائل» تؤلف من العدد ثلاثة وعشرين.. وكلها، من أناجيل ورسائل، كُتبت بأيدٍ مختلفة وفي أمكنة مختلفة وفي أزمنة مختلفة... فمن أثبت المصادر التاريخية يأتينا اليقين بأن الأناجيل الأربعة قد كتبها أتباع ليسوع بعد موت يسوع بزمن وفي أمكنة مغايرة، فتاريخ الإنجيل الأقدم الحامل اسم «مرقص»، أقل الأناجيل قراءة وإن يك في الحقيقة لقربه من المصدر ينبغي أن يكون الأهمّ الأكثر اعتماداً، يعود بتاريخه إلى حوالي سنة ٧٠ م، والثورات السياسية في الداخل وفي الخارج تتعاقب حتى تقوّض «البيت»!.

وتاريخ الأحدث من الأناجيل الحامل اسم «يوحنا»، أكثر الأناجيل قراءة وأبعدها عن المصدر ولكنه أكثرها اعتماداً، يعود إلى مطلع القرن الثاني م، حيث سطّرت منه السطور على الضوء المتلاشي للفلسفة في ذلك المركز الجغرافي من شاطىء البحر الأبيض لمزج الدين العبري بالفلسفة الإغريقية وبالمذهب الرواقي.

وأما تاريخ الآخرين من الأناجيل، فإن الثاني الحامل اسم «متّى» فليس إلاّ إلى ما بعد العام السبعين من الميلاد التاريخ منه يعود، وأما الثالث من الأناجيل الحامل اسم «لوقا»، وهو الأهم من الناحية اللاّهوتية، فليس إلاّ ملخّصاً لإنجيل مرقص!..

عن هذه الحقيقة التاريخية ينتشر تاريخ هذا «الكتاب» فليس هو إلاّ مجموعة أناجيل ضمّت إليها الرسائل الحاملة أسماء بُناة المسيحية بين بولس وبطرس إلى يعقوب ويهوذا ويوحنا الرسول ويوحنا اللاّهوتي.

يقيناً ليس إلاّ إلى أشخاص مختلفين وبأيدي مختلفة وفي أمكنة وأزمنة مختلفة يعود التاريخ من هذا الكتاب الذي، منذ ضمّت في القرن الثالث للميلاد منه الأناجيل والرسائل، بدأ على الأجيال تحدّره في غسق ذاك العصر حتى راهن هذا العصر حاملاً اسم الكتاب المقدس للدين المسيحي.. ولكن! دون أن تُنسب إليه قدسية الوحي الهابط فليس لهذا الدين كتاب تنسب إليه قدسية التنزيل!

هذا هو في ضوء التاريخ الصحيح تاريخ «العهد الجديد»[1]!.. فهو كتاب على يسوع لم يتنزّل كلا ولا ادّعى يسوع أن عليه إنجيلاً قد نزل!.. كلا ولا ادّعت كنيسة من الكنائس المسيحية طوال تاريخها هذا الادعاء وتغيّر مما ما قد جاء فيه من نصوص نصاً حتى يمكنها به أن تنسب إليه قدسية التنزيل!.

كلا!. نزيهة وقفت الكنائس المسيحية باعترافها أن هذا الكتاب ليس إلاّ مجموعة من كتابات كتبها، بعد موت يسوع، عن حياة يسوع ليسوع أتباع اختلفت باختلاف ميولهم وعهودهم إلى يسوع منهم النظرة، إلاّ أن مهما كان مدى اختلاف هذه النظرة إلى يسوع فليس هناك اختلاف في أن هناك كانت شخصية تاريخية حملت اسم يسوع وإن يك هذا الكتاب الذي يعتبر المرجع الوحيد للدين المسيحي ليس إلاّ المصدر الوحيد الذي يلقي على يسوع كشخصية تاريخية أضواء.

ليس إلاّ تحت هذه الأضواء، واليد لجزء بعد جزء من صفحات «العهد الجديد» تقلّب وتنشر من أناجيله ورسائله الصفحات، نرى يسوع ظلاً يسير على ما قد مهّد «المعمدان» من طريق ولس إلاّ عبر هذه السطور نرى يسوع يطلع علينا من ثنايا التاريخ محفوفاً بأصوات تعلن قيام ملك «لشعب الرب» من نفس «شعب الرب»!.. ملكٌ جاء من نسل داود ليعيد إلى شعب الرب عزة داود!.. ملك هو الشخصية التي فيها تحققت عقيدة «المسيح المنتظر». فإنه حفيد زربابل؛ **يسوع**..

بهذه الأصوات يطالعنا في سجل التفكير الديني:

انتصار عقيدة «المسيح المنتظر» في دائرة العقل الجماعي وإخفاقها في الدائرتين الكهنوتية والفكرية.

إلى يسوع، التارك حرفة النجارة والطالع بلقب «المسيح»، حتماً كان أن تلتفت بكليتها اليهودية وإسرائيل، وبما يضم مجتمعها من طبقات خلدت تتأمل هذا السائر في الطريق الذي قد مهّده «المعمدان» ومنه راحت تقترب ليتراوح منها الاقتراب بين سبر وامتحان وإيمان ولا إيمان..

حتماً كان أن تقترب الرؤوس العبرية من حول هذا الذي يهبط أورشليم من «كفر نعوم»، حيث كان لروحٍ قد استقر منه المقام في ذلك المكان الذي اختاره غداة ترك يوحنا بعد «التعميد» وحيث بين طبقة الصيادين، الذين يتألف منهم مجتمع كفر نعوم، كان قد ارتفع صوته بنداء اجتذب إلى كفر نعوم، بالرائحين والغادين من الصيادين، وفود اليهودية

---

(١) Introduction to The Bible-Bys. Cook

التي راحت تترى جماعات تردِّد حيثما سارت ما قد سمعت من نداء يزيده في آفاق العصر دوياً اثنا عشر تلميذاً اختارهم يسوع واختصهم بالتبشير إليه في سائر أرجاء اليهودية!.. حتماً كان أن تحف رؤوس أورشليم وتتطلع إلى هذا الهابط من «كفر نعوم» أورشليم في الوقت الذي قُتل فيه «المعمدان» وأن تقف ترقب له خطى لتراه أن يقف بين أتباعه خطيباً فتفهم، والعادة قد جرت أن لكل فرد الحرية أن يقف طيباً في الناس ويقول ما يشاء إلاّ ما مسّ الحكم الروماني وإلاّ الخوض في أمور الدين. إن يسوع قد اعتزم الخروج بدعوته من الحيز النظري إلى الحيز العلمي، فهو يجهر في عاصمة الحكم الهيرودي مؤيداً بمن حوله من جموع الشعب المؤمن به والذي إلى حيثما سار كان إليه يشير بأنه، وهو سليل داود، الملك الشرعي لليهود وأنه «المسيح المنتظر»!..

وإلى يسوع، بين الجموع المحدقة به، شقّت الرؤوس العبرية الطريق ومن حوله اقتربت، أول ما اقتربت، «شعبة الفريسية» ليطالعنا:

الاختبار الفريسي ليسوع

من متعهدي فكرة «المسيح المنتظر» ومغذيها في القلب العبري اقتربت من يسوع هذه الشعبة بيْدَ أن لتنفضّ حلقاتها ويجيء منها الجواب عن صلاحية يسوع للمشحة بالسلْب وحُجّتها: أن يسوع إنما خالي الوفاض من الشروط التي كانت قد وضعتها الفريسية كشرط ضروري لمن سيكون «المسيح المنتظر»!..

أمّا كيف؟.. فهذا سؤال جوابه ما عليه قد جرى المنطق الفريسي يقول:

يقيناً إن يسوع من نسل داود، فيسوع إنما من ذلك «الغصن» غصن وبذرة هو من «البذرة المقدسة» التي طرحت بها يد الزمن من فوق عرش في أورشليم إلى سعي في الناصرة وراء حوائج العيش وحاجات المعاش حتى هوت بها إلى احتراف النجارة، هذه الحرفة التي عن البيت الذي فيه نشأ يسوع لها قد ورث فإنه:

«هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويوسى ويهوذا وسمعان».

«الإصحاح السادس من «إنجيل مرقص»

بيْدَ أن ليست في يسوع، هذا الابن البكر من أبناء مريم، الشروط التي وضعتها الفريسية وأساس هذه الشروط حلول «روح القدس»[1] فيه الحلول الذي حق له به أن يقف بمثابة الابن من الإله!.

---

(١) ارجع لكتاب «الدين عند العبريين» من هذه السلسلة.

وبرأيها تشبثت الفريسية لم يستطع أن لا يحولها عن رأيها قول إليها يأتي من صفوف الأتباع هامساً بأن نسبة يسوع ليوسف، يوسف الذي كان قد راح الآن في راحة الزمن غير صحيحة، لأن:

«ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا، لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حُبْلى .... فيوسف رجلها إذ كان باراً ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سراً، ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأة لأن الذي حُبِل به فيها هو من **الروح القدس**!.

«الإصحاح الأول من إنجيل متى»

كلا!.. بالقول لا تقتنع هذه الطبقة المثقفة من المجتمع العبري التي كان لا بد أن يذكّرها هذا القول بكلمة قالها من قبل «فيلون» وهو نصوص العهد القديم يأوّل وللمعاني التي تحملها يحوّر، ففيلون إنما قد قال نفس القول ولكن عن صفورة زوجة موسى، قال: إن موسى قبل أن يجتمع بصفورة وجدها حُبْلى ولكن ليس من بشر!..

من ثم لم يقنع الفريسية صوت عن يسوع تحدث بصورة هذا «الحمل الإعجازي» كلا... ولا استطاعت المسامع الفريسية أن تصغي للحديث القائل أن قد:

«أُرسل جبريل الملاك من اللّه إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم، فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت في النساء.. لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند اللّه وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسميه يسوع، هذا يكون عظيماً وابن **العليّ يدعى ويعطيه الربُّ الإله كرسيَّ داود أبيه**، ويملّك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية، فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً؟ فأجاب الملاك وقال لها: «**الروح القدس يحلّ عليك**، وقوة العليّ تظللك، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى **ابن اللّه**!..».

الإصحاح الأول من «إنجيل لوقا»

قصة عن يسوع، يتهامس بها ليسوع أتباع فيأتون بحديثٍ لا تقبله «الفريسية» ولا منه يقنعها منطق يقول إن مريم إنما بيسوع، دون سائر إخوته، قد حملت من «الروح القدس» وإن ليسوع حقاً، وهو إنما من «الروح القدس» قدسي روح، أن ينعت نفسه «ابن اللّه»... كلا!.. بل «الفريسية» تزداد برأيها على استمساك استمساكاً غير آبهة بإصرار أتباع يقدّمون على رأيهم برهاناً القول بأن يسوع قد ولد ليكون:

«ملك اليهود».

الإصحاح الثاني من «سفر متى»

أوشك في أن يسوع قد وُلد ليكون؛ «ملك اليهود»؟.. إن «عيسو» إنما به قد بشّر، ففي طيات «العهد القديم» سطور من سفر هذا «النبي» تسجّل: عقيدة العذراء والتبشير بمولد عمّانويل.

إن أتباع يسوع يقولون إن ولادة يسوع قد حققت ما به قد تنبأ «النبي عيسو» فقد كانت:

«لكي يتمّ ما قيل من الرب بالنبي القائل: هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانويل الذي تفسيره اللّه معنا».

الإصحاح الأول من «إنجيل متى»

ولكن!.. الفريسية، والفريسية إنما الشعبة الممثّلة الجانب التفكيري في المجتمع العبري، تفهم المعنى من وراء هذه السطور فهماً يختلف عن ما يفهمه ليسوع أتباع يمثلون الجانب الجماعي من المجتمع العبري!.. الفريسية تفهمه فهماً بدورنا نفهمه واليد منّا تمتدّ وتتناول «العهد القديم» وتنتشر من أسفاره «سفر عيسو» بينما التفكير يستعرض من عهود «اليهودية» العهد الذي نعرفه «بالعهد الأحازيّ».. فليس إلاّ من سطور «سفر عيسو» نتبيّن أن عيسو لم يعن قط بعمانويل يسوع كلا ولا قيام «بيت داود» بل العكس وعلى النقيض كان التبشير بعمانويل لبيت داود نذير هدم!. فإن عمانويل الذي عناه «عيسو» لم يك إلاّ «ماهر سلاكي هاشباز» ابن عيسو نفسه منّ **قد حدّد «عيسو» لمولده ذلك العصر البعيد من التاريخ العبري**، العصر الذي عاش فيه عيسو نفسه في مهب تلك الأحداث السياسية التي جرت بتسطيرها يد الزمن سنة ٧٤٥ ق.م...!

للسبب، رأت هذه الناحية الفكرية من المجتمع العبري أن اتخاذ هذه النصوص القائلة بالتبشير «بمولد عمانويل» برهاناً على صحة دعوة أتباع يسوع إنما افتقار في المعرفة بالتاريخ الصحيح للعهود التي عرفها الشعب العبري بعد انقسام مملكة داود إلى إسرائيل في الشمال واليهودية في الجنوب!..

ثم!. إن عيسو، بالعذراء، قطّ لم يعن مريم.. لم يعن إلاّ من العذراوات من لها هو قد اختار ليأتي منها نفسه بما قد أتى إليه منها فعلاً بوليد حمل فعلاً نعت «عمانويل» من ثم فاقتناع الفريسية برأيها ويقينها أن هذه النصوص التي جاءت في «سفر عيسو» من «العهد القديم» عن «العذراء» وعن «عمانويل» والتي إليها يستند أتباع يسوع في أنه هو «عمانويل»

وابن عذراء إنما تقوم شاهداً على جهل الأتباع وعدم معرفتهم بحقيقة الواقع وأحداث التاريخ!..

ولكن!.. ليسوع أتباع لا يرتضون إلاّ الإيمان بأنه من «الروح القدس» وليد وبدافع هذا الإيمان يصرّون على أن مريم قد وُجدت حُبْلى قبل أن يجتمع بها يوسف وأن يوسف:

«لم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ودعا اسمه يسوع».

الإصحاح الأول من «سفر متى»

ولذلك فيقيناً أنه؛ «ابن اللّه!».

«الإصحاح الأول من إنجيل لوقا»

كلا!.. إن شعبة الفريسية، من متعهدي هذه الفكرة ومغذيها في القلب العبري، بهذا القول لا تقتنع وليس هذا فحسب وإنما هي له تنفي نفياً باتاً على أسس ما يأتي به يسوع من كلِم كل ما تضمه طواياه إنما لتعاليمها مخالف!..

أجل... إن يسوع إنما لمبادئها المتنادية بالحب والسلام وعدم مقاومة الشر، في البدء لم يعترض ولم يعارض، فمنه قد جرى القول لقولها مؤكداً: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم **لا تقاوموا الشر**».

«سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم!».

الإصحاح الخامس من «إنجيل متى»

ولكن!.. يسوع إنما على هذه المبادىء، من بعد، يعترض ولها يعارض فإنه يقول:

«لا تظنوا أني جئت لأُلقي سلاماً على الأرض! ما جئت لأُلقي سلاماً بل سيفاً؛

فإني جئت لأُفرّق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنّة ضدّ حماتها»!

الإصحاح العاشر من «إنجيل متى»

بل إن يسوع ليسترسل فيرسل القول جهيراً يقول: إني؛ «جئت لأُلقي ناراً على الأرض!..».

الإصحاح الثاني عشر من «إنجيل لوقا»

كلِمٌ به يسوع يأتي فيأتي بتعاليم لا تراها الفريسية تمام المنافرة لطبيعتها تنافر إلاّ ليسترسل منها المنطق موقناً بأن يسوع ليس إلاّ الثائر الذي اختطّ لأهدافه السياسية خطة وإلى تحقيقها

قد اتخذ بادىء ذي بدء مبادىء الفريسية وسائل!.. ومن ثم إصرار الفريسية على رفض الدعوة اليسوعية رفضاً قابلته شفاه يسوع متهمة إياها بالرياء!..

أمام هذا الاتهام أطرقت الفريسية مقتنعة تمام الاقتناع أن يسوع إنما يتخذ التسامح الفريسي وسيلة لغاية له تتلخص في قوله:

«كن مراضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه في الطريق، لئلا يسلمك الخصم إلى القاضي ويسلمك القاضي إلى الشرطي فتلقى في السجن!.».

الإصحاح الخامس من «إنجيل متى»

إن المنطق الفريسي الذي يرفض هذه السياسة إنما يرفض دعوة يسوع على أساس أن من يحل فيه «الروح القدس» يكون «الحكمة المتجسّدة» على الأرض، والحكمة إنما كامل الطهر والطهر الكامل، وهذا إنما؛ «يأكل ويشرب مع العشارين والخطاة!».

الإصحاح الثاني من «إنجيل مرقص»

إن من يحل فيه «الروح القدس» يقوم في الخطاة هادياً لا لهم رفيقاً، وهذا إنما معهم يحيا ولهم مرافقاً يعيش، معهم الخمر يشرب، ومعهم الأكل يأكل!..

إن من يحل فيه «الروح القدس» لا يمثّل إلاّ الحكمة ولا يقول إلاّ القول الحكيم، وهذا إنما يقول:

«إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت اللّه... يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به وأما العشارون والزواني فآمنوا به!».

الإصحاح الحادي والعشرون من «إنجيل متى»

إن الحكيم أو «الحكمة المتجسّدة» لا تكون، كما ترى الفريسية، سيرتها هذه السيرة كلا ولا هذا المنهج صاحبها ينهج!. ومن ثم اجتماع الفريسية حلقات وارفضاضها برفض فكرة حلول «الروح القدس» في يسوع!. ولكن لتعجزه طلبت، في ختام اختبارها له، منه على صدقه آية وهو الذي يقول عنه الأتباع إنه يقدِّم أمامهم المعجزات تلو المعجزات... بيدَ أن على هذا المطلب الفريسي جاء من يسوع الجواب:

«لماذا يطلب هذا الجيل آية؟ الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آية!».

الإصحاح الثامن من «إنجيل مرقص»

أمّا لماذا؟.. فليس إلاّ لأن الفريسية كالصدوقية؛ «جيل شرير فاسق يلتمس آية!».

الإصحاح السادس عشر من «إنجيل متى»

للسبب انفضت الفريسية بحلقاتها عن قرار تجاوب في آفاق صهيون بأن: يسوع إنما في حقيقته داعية إلى اللاّسلام في صورة المنادي إلى السلام، فإنه يبذر العداوة في صورة الدعوة إلى الحب!.. ومن ثم فيقيناً إن يسوع إنما خالي الوفاض من الشروط المطلوبة التوفّر في «المسيح المنتظر»!..

الانفضاض من حول يسوع انفضّت شعبة «الفريسية» لتقترب طائفة «الصدوقية» اقتراباً به يطالعنا:

الامتحان الصدوقي ليسوع

من حول يسوع ممتحنة اقتربت «الصدوقية»، والصدوقية إنما ورثة «بيت صدوق» ومن بيت صدوق كانت تتألف في هذا العهد الطبقة الكهنوتية.. وإلى يسوع طال إصغاء الرؤوس من هذه الطائفة التي تولّت حماية الدين الذي جاء به موسى وتعهده خليفته يشوع ابن نون.. لتنفض الانفضاض الفريسي ولكن لتعلن:

أن الدين الذي له قد بنى يشوع[1] إنما يريد له هدماً سمّيه يسوع!

لا ثمة شك في أن الصوت الصدوقي قد انطلق صادق النبرة لأن ليس إلاّ على اللوالب الفكرية كان قد جرى المنطق الصدوقيّ يقول:

إن يسوع إنما على التعاليم الموسوية خارج وعن أصول الدين العبري منحرف، فإن يسوع يبطل ما به قد أتى موسى ويهدم ما له بالصون قد تعهد يشوع!..

إن الكلم الذي ينطلق من شفتي يسوع إنما ينقض ما قد أتت به الموسوية من سنن وشرائع، فإن يسوع ينقض القوانين الموسوية ويتخذ لهذا النقض صورة التكميل إذ يقول:

«لا تظنوا أني جئت لأُنقض الناموس.. ما جئت لأُنقض بل لأكمل!.».

الإصحاح الخامس من «إنجيل متى»

في هذا التعبير الناقض، في صورة التكميل، الشريعة الموسوية ترى الصدوقية أن يسوع ليس إلاّ رجل سياسة تحاول يده أن تمتد لتناول السلطة الدينية والدنيوية معاً، فهو يعطي لنفسه حق هذا النقض للشريعة الموسوية بقوله قولاً ليس هو، في اعتبار الصدوقية، إلاّ بدعة جاء بها أصحاب الديانات الأخرى وعن أصحاب هذه الديانات اتخذتها الفريسية... ويسوع ولا يمنح نفسه هذا الحق، لأن عنه يقال إنه:

---

(١) ارجع لكتاب **الدين عند العبريين** من هذه السلسلة.

«ابن اللّه».

الإصحاح الأول من «إنجيل مرقص»

هذا هو القول الذي اتخذته الصدوقية حجة رفضت بها رفضاً باتاً الأمر من أمر يسوع، وليس إلاّ بسبب هذا القول اعتبرت يسوع خارجاً على الدين ناقضاً لشريعة في جبل سيناء وأردن أريحيا موادها من الرب إلى الآباء، عن يد موسى، قد تنزّلت!..

لا ثمة شك في أن ليس إلاّ بدافع هذا القول جرى المنطق الصدوقي يرى؛ أن يسوع إنما ينقض «شريعة الآباء» وأن على هذا النقض تأتي الأدلة!. فإن الشريعة الموسوية تشرّع في مشكلة الثواب والعقاب شريعة «المِثْل بالمِثْل» ويسوع إنما، في صورة التكميل، يتخذ المبدأ الفريسي شريعة والعمل بهذا المبدأ إنما لشريعة موسى إلغاء!.

بل إن يسوع بهذا التشريع إنما يذهب مذهباً يقيناً هو غير موسوي فهو يرجىء العقاب والثواب إلى «فيما بعد» وليس هناك في صحيح الدين العبري «فيما بعد»!... لا ولا يقف يسوع عند هذا المدى وإنما يجعل للثواب والعقاب مكاناً يقول عنه إنه ملكوت السموات وليس هناك في صحيح الدين العبري «ملكوت السموات!»...!. بل ويجعل مكاناً للعقاب نار؛ «جهنم».

الإصحاح الخامس من «إنجيل متى»

وجهنم؟! يقيناً إن اتخاذ «جهنم» مكاناً للعقاب إنما أمر إزاءه تطرق الصدوقية!.. ففي طيات «العهد القديم» وبالتحديد على صفحات «سفر أرميا» تنتشر للكهنوت الصدوقي «جهنم» مكاناً على الأرض!.. فليست «جهنم» إلاّ بقعة، يحددها الإصحاح السابع من «سفر أرميا»، في أرض رفايم غربي أورشليم، تضم وادياً ملكاً كان «لي ـ هنم» وهذا إنما في اللغة العبرية يعني «أبناء هنم»، ولم يكن هذا الوادي إلاّ مكاناً فيه كانت توقد النيران لإلقاء الضحايا!..

ثم!.. إن يسوع يجعل للثواب «ملكوت السماء» مكاناً ويقول إن هذا الملكوت إنما جنة وليس هناك في صحيح الدين العبري كالجنة «جنة»!... فإن عن «الجنة» قصة تنتشر في طيات «العهد القديم» وعلى وجه التحديد في «سفر التكوين»... على صفحات هذا السفر الأول من الأسفار الموسوية تنتشر الجنة، كجهنم، بقعة أيضاً على الأرض مكانها بين الرافدين فالنص العبري يحددها قائلاً:

«وغَرَس الربُّ الإله جنة في عدن شرقاً.. وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس، اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة...

واسم النهر الثاني جيمون، وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حداقل، وهو الجاري شرقي أشور، والنهر الرابع الفُرات»!.

الإصحاح الثاني من «سفر التكوين»

هذه «هي الجنة» التي تجري فيها الأنهار!.. وتلك هي «جهنم» الموقدة النيران!... كلاهما مكان على الأرض!.

ثم!. ثم إن يسوع لا يقول بالجنة وبالنار إلاّ لأنه يقول ببعث جسدي، وليس هناك في صحيح الدين العبري بعث للجسد!.. فإن الشريعة الموسوية في مشكلة النفس إنما ببعث جسدي في يوم قيامة فيه يجمع الأولون والآخرون لحساب يعقبه الجزاء في جنة والعقاب في جهنم، لا تعتقد!... فالقصاص إنما يتخذ مكانه هنا على الأرض وكذلك الثواب وليس المصير بعد الموت إلاّ بإلى الرقاد مع الآباء، ولن ينجو من هذا المصير إلاّ من أراد له الرب الإله الإنقاذ عن طريق رفعه إليه جسداً حياً إلى السماء... كما إليه قد رفع «أخنوخ» وكما إليه قد رفع، بعد أخنوخ، «إيليا»...

إذن... ما ليسوع يذهب مذهب الفريسية ونهج أصحاب الفلسفات والديانات الفدائية المنتشرة ينهج، في صورة التكميل يأتي بعقيدة بعث جسدي في «يوم قيامة» ويقول:

«وأما من جهة الأموات أنهم يقومون أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العليقة كيف كلّمه اللّه قائلاً أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، ليس هو إله أموات بل إله أحياء».

الإصحاح الثاني عشر من «إنجيل مرقص»

بل إن على مجيء «يوم القيامة» قد أكّد يسوع قائلاً بأن الساعة لقريبة؛ «ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت اللّه»!.

الإصحاح الأول من «إنجيل مرقص»

لا ثمة شك في أن يسوع إنما بعقيدته عن هذا «اليوم» إلى «سفر دانيال» قد عاد فسفر دانيال إنما أكثر الأسفار في عهد يسوع تلاوة ويسوع إنما حديثه يحدِّث ويقول إن علامة اقتراب «اليوم»:

«الشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه ونجوم السماء تتساقط».

الإصحاح الثالث عشر من «إنجيل مرقص»

بل ويسترسل يسوع ويقول إن في هذا «اليوم» سيرى العالم والكهنوت الصدوقي، يسوع؛ «آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد»!

الإصحاح الثالث عشر من «إنجيل مرقص»

أمّا متى هذا «اليوم» فسؤال عنه يسوع يجيب:

«الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله!.».

الإصحاح الثالث عشر من «إنجيل مرقص»

«الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله!.».

الإصحاح السابع والعشرون من «إنجيل متى»

«الحق أقول لكم إنه لا يمضي هذا الجيل حتى يكون!..».

الإصحاح الحادي والعشرون من «إنجيل لوقا»

وهل من شك؟!...

كلا!.. إن يسوع لا يقول هذا القول إلاّ ليدعمه بالتأكيد فهو يقول:

«السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول!..».

الإصحاح الثالث عشر من «إنجيل مرقص»

بل إن يسوع يقول:

«الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت اللّه قد أتى بقوة!».

الإصحاح الثامن من «إنجيل مرقص»

للسبب لم يزدد الكهنوت الصدوقي إلاّ برأيه على رفض الأمر اليسوعي تمسكاً.. وللسبب ارفضت الحلقات الصدوقية من حول يسوع ترفض له دعوة ترى فيها الحيدة عن الدين الموسوي!.. وللسبب كان انعقاد الـ «ساندهارين»، أو المجمع الديني العبري، انعقاداً أعلن على أثره إدانة يسوع بالحيدة عن الشريعة «المنزّلة» وبالمروق من الدين الموسوي!.

لا ثمة شك في أن المجمع الديني العبري إذ يُدين يسوع بالحيدة عن الشريعة «المنزلة» وبالمروق من الدين الموسوي فإنه لا يرى أنه يتهمه باطلاً وإنما يدينه حقاً فهو يرى أن يسوع عن الدين الموسوي والشريعة الموسوية قد خرج خروجاً بيّناً فهو قد أبطل «شريعة المثل بالمثل»!.. وهو قد قال بالخلود وبالبعث الجسدي في يوم القيامة!... وهو قد دخل بعقابٍ مكانه جهنم!.. وهو قد قال بثواب مكانه جنة في ملكوت السموات!... وهو قد قال إنه سيأتي في السحاب لينتشر ملكه هو، هو من يقول عن نفسه إنه ابن اللّه!

يقيناً إن يسوع، كما ترى الصدوقية، قد خرج على أصول الدين الموسوي خروجاً بيِّناً فهو إلى جانب إبطاله شريعة «المثل بالمثل» شريعة القصاص الدنيوي، يبطل أيضاً من الشرائع «شريعة السبت»، فالسبت إنما يوم مقدس لا يُعمل فيه عمل، أما يسوع فإنه لا يبطل فيه من الأعمال عملاً، وعن نفسه مدافعاً يقول إنه:

«هو رب السبت!».

الإصحاح الثاني من «إنجيل مرقص»

أجل... إن يسوع لا يبطل القرابين وللقرابين لا يتعرض.

إن يسوع لعادة من عادات الآباء لا يحاول أيضاً إبطالاً فهو، تقديسهم القَسَم، للقَسَم يُقَدس.. بيْدَ أن يسوع إنما عن الأسس من أصول الدين العبري قد تحول بإبطاله الشريعة الممثِّلة من هذا الدين قائم الأركان!. كفى يسوع بالدين الموسوي عبثاً!.. كفاه بهذا الدين عبثاً قوله عن نفسه إنه «ابن اللّه»!.. بل وكفاه عبثاً إعطاؤه نفسه سلطان غفران الخطايا فهو يقول بأن له قد أُعطي:

«سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا».

الإصحاح الثاني من «إنجيل مرقص»

كلا!.. إن هذا ليس إلاّ للسلطان الصدوقيّ تحدّياً، فإن يسوع بإعطائه نفسه سلطان غفران الخطايا إنما يأتي بدعوة حرب هي على السلطان الكهنوتي تشن...

يقيناً من ثم إن ليسوع غاية يراها «بيت صدوق» ليست عليه خفية ولا يراها إلاّ غاية تتلخّص في امتلاك يسوع لليهودية ولإسرائيل عرش إليه يتخذ ساعداً سواعد هذه الجماعات التي التفت من حوله به مؤمنة!. فهو يحاول أن ينتزع من الكهنوت ما قد امتلكت وتمتلك أياديهم من زمام يوقفهم موقف الوساطة بين الإله والإنسان وهذا إنما سافر تحدٍّ للكهنوت!... إن يسوع إنما يحاول إحلال نفسه محل هذا الكهنوت، فبينما هو يندّد بوساطة الكهنوت بين الإله والإنسان يقوم هو، فرداً واحداً، يصل بين الإله والإنسان ويعد الإنسان، جزاء تصديقه أنه «ابن اللّه» و«المسيح» والواسطة بين الإنسان والسماء، ملكاً ملكوت السماء!

يقيناً إن هذا الأمر لا يرتضيه بيت صدوق.. ولكن!...

من حول هذا الطالع من «بيت داود»، رغم قلة في المال ورقة في الحال وانغمار في رَكْب الحياة، تحف الجماعات!... فبهذه الجماعات، يطوف هذا الفرد من البيت الداودي الهاوي المتوثِّب إلى العرش وحيثما حلّ ازدادت الجماعات من حوله تجمّعاً!... فهو إذ

يطوف بالجليل والمدن العشر وأورشليم واليهودية وسائر البقاع المحيطة بالأردن، فليس إلاّ ليجتذب الجماعات إليه نداؤه المدوي:

«طوبى للمساكين!..»

كالغنم المتجمّع في أفق الفضاء نذيراً بهبوب عاصفة تتجمّع الجموع من هذه الجماعات فهي إنما تحمل في طواياها نذر ثورة شعبية لا على الوضع الاجتماعي والنظام الكهنوتي معاً فحسب، وإنما في آن الآن على الوضع السياسي الروماني فليست هي في حقيقتها الجلية إلاّ ثورة على العرش الهيرودي!.. ثورة فهمها العرش في يوحنا المعمدان من قبل، ويراها الآن حقيقة أمامه سافرة في يسوع ليرى أن انتصارها سيؤدي حتماً إلى قيام «بيت داود» وهُوي «بيت هيرود» وهذا أمر وإن كان معناه إلغاء الاستعمار الروماني لليهودية بملك جديد لليهود فليس معناه إلاّ انفلات السلطة الدينية الدنيوية من قبضة بيت صدوق!..

للسبب، وليس العرش اليهودي إلاّ دعامة لسلطان بيت صدوق، في انتصار الدين الموسوي وسياستها رفضت الصدوقية أن تؤازر يسوع في دعوته بأنه «المسيح المنتظر» بل ولها استنكرت استنكاراً أوغر الصدر الهيرودي وأوقد فيه لهب السخط ليطالعنا:

الاصطدام السياسي بين بيت هيرود وبيت داود:

بدأ هذا الاصطدام السياسي بين «بيت هيرود» و«بيت داود» يتخذ مظهره الإيجابي غداة على رفض يسوع ملكاً تدانت في تفرقِ الرؤوس العبرية وعلى رفض مسحته «مسيحاً» تكاتفت هذه الرؤوس في غير تكاتف فيما بينها غير آبهة باعتراض بعض من الشُّعبتين أبرزهما اثنان كانا إلى الدعوة من أمر يسوع بهما قد مالت الميول، فقد اعتبرا أن بيت داود، وبيت داود إسرائيلي صميم، أحق بالعرش من بيت هيرود الأُدومي الغريب عن إسرائيل.. فمن «الساندهارين» كان «نيكوديموس» ومن الصدوقيين كان ذاك الذي سيلعب دوراً خفياً في تاريخ «المسيح»، ذلك الطبيب الثري الحامل أيضاً اسم؛ «يوسف».

ومن ثم لئن كانت الرؤوس العبرية من الشعبتين قد أجمعت على ارفضاض الأمر اليسوعي بالرفض، فقد كان هناك أكثر من مؤازر له مكانته بين هذه الجموع العبرية التي انقسمت بهذا الارفضاض الرافض إلى فريقين بهما يطالعنا:

الإيمان واللاإيمان الجماعي بيسوع وانقسام الشعب العبريّ إلى: عبريٍّ موسوي وعبري يسوعي

يقيناً إن القلب العبريّ كان مهيئاً لهذه الفكرة فكرة «المسيح المنتظر»، فقد هيأته ناحية من الرؤوس العبرية إلى قبول هذه الفكرة التي وُلدت في أسر الفرات وصاغتها قيود الأسر

البالي عبْر مسير الأيام إلى عقيدة فيه استحكمت حتى غدا لا يرى نفسه إلاّ بها مؤمناً... ولكن أمام يسوع، كشخصية، انقسم هذا القلب!.. عن يسوع ارتد البعض وفي انصراف عنه انصرف ولكن في غير انصراف عن العقيدة المعقودة في طوايا هذه العقيدة التي بسببها تحدّرت هذه العقيدة منذ ذاك العصر حتى هذا العصر والوجدان العبري معقود الإيمان على انتظار «المسيح المنتظر»، بينما راح البعض الآخر في التصاق بيسوع مؤمناً، أن إليه بعد طويل انتظار جاء «المسيح المنتظر»!.

الانقسام انقسم الشعب العبري وبيسوع تفرّق إلى عبري موسوي وعبري يسوعي يمثل هذه الناحية من المجتمع العبري التي تلتف من حول يسوع به مؤمنة، فإليه منها قد اجتذب مبادىء لها يسوع يردد تقول باللاملكية والإخوة والمساواة وملكوت السماء حتى كثرت أشياعه من تلك الطبقة التي، كما يذكرها التاريخ الديني والسياسي معاً، تألف جمهورها من السوقة والعمال والعبيد من ممثلي الجانب المغمور من المجتمع، فليس إلاّ إليه من هذا الجانب الذي تعوزه السلطة قد شدّ الوثاق وجدان معقود على الإيمان «بالخوارق» أو «المعجزات»!.. ليس إلاّ عن طريق الإيمان «بالمعجزات» كان أن التصقت بيسوع هذه الجماعات وآمنت أنه «المسيح المنتظر»!.. فليس إلاّ لأنها قد رأت أن في يسوع تتحقق أمانيها اجترفها إليه إيمان تراءى فيه يسوع تارة «إيليا» وتارة «يوحنا» حتى استقر هذا الإيمان على أن يسوع هو «المسيح المنتظر»!. وأنه «ملك اليهود»! وأنه «ابن العذراء» مَن مِن شفتي «عيسو» قد جاءت قديماً عنه البشرى... ليس إلاّ بدافع هذا الإيمان الدفيق انطلق هذا القلب بإيمانه، غير مبال في سعير ثورته بكهنوتٍ يرفض مسح يسوع بالزيت المقدس «مسيحاً»، فيعلنه هو **ممسوحاً من الرب** ويأبى إلاّ مناداته النداء الذي إلينا عبر الأجيال به يصل يسوع تحت لقب: **«المسيح»**!

أجل... من فكرة اختمرت إلى عقيدة في القلب العبري قام يسوع مثلاً واقعياً حاكته الأسباب التاريخية وأبرزته للسياسة أحداث، فعلى خلع النير الروماني وإعادة «بيت داود» كان قد انحصر تفكير أتباع موسى، وإلى هذه الغاية تفاوتت منها الوسائل قبيْل العهد الأغسطسي وفي غضونه لتبرز بعده في العهد الطبري بيسوع وفيه تنحصر حتى كاد بالمسحة المقدسة يُذْهَن لو لم ترفض، تحت دافع اعتبارات خاصة الرؤوس العبرية الدعوة رفضاً سجل به التاريخ الديني العبري:

فشل فكرة «المسيح المنتظر» للمرة الثانية

بيسوع، بعد زَرُبابل تفشل مرة أخرى في النطاق الديني والسياسي العبري تحقيق فكرة

«المسيح المنتظر»، ولثاني مرة دحضت المحاولة وأخفقت!. إخفاق زربابل أخفق يسوع وتراجعت اليد من الكهنوت عن مسحه مسيحاً فتهاوت حتى التلاشي الفكرة بقيام يسوع ملكاً من إسرائيل على عرش اليهودية وإسرائيل.

ولكن!. لئن تراجعت اليد الكهنوتية عن مسح يسوع مسيحاً ولئن احتبست الأنفاس الكهنوتية عن إعلانه ملكاً، فهناك كانت الحناجر من تلك الجماعات التي حفت بيسوع داخل أورشليم قبيل عيد الفصح، وسنوات ثلاث قد مضت منذ دخلها لأول مرة، مهيئة لترسل الصوت وتعلن قيامه ملكاً!.. فهو في هذه المرة لا يدخل أورشليم كما دخلها من قبل وإنما تراه أورشليم داخلاً على «حمار ابن أتان» محفوفاً بتلك الجماعة العبرية من الأتباع وجموع في موكبه تسير تفرش ثيابها في طريقه إلى «بيت الرب» وتقطع أغصان الشجر لهذا «الغصن» الطالع من «بيت داود» وتفرشها أيضاً في الطريق إلى المعبد بينما تعلن حناجرها اختيارها لابن داود على العرش العبري ملكاً وتناديه:

«مبارك الآتي باسم الرّب، مباركة مملكة أبينا داود!...».

الإصحاح الحادي عشر من «إنجيل مرقص»

لا ثمة شك في أن للدويّ المتردد من هذه الأصوات كان حتماً أن يهب العرش ومن عليه هيرود سليل أدوم مستجيراً بالقبضة الصدوقية، وبالرأي الكهنوتي مؤيداً هوي بالقبضة الرومانية يفرّق الشعب المتجمهر من حول دعوة تعلن قيام ملك جديد من «بيت داود» يهوي بقيامه بيت هيرود!.. وقوياً هبّ العرش يقوّض بيت داود ويتوّج بالشوك من الحديد من قد أعلنته هذه الطوائف الشعبية ملكاً صلباً على الصليب!..

للحظة تصمت شفاه التاريخ وللمحات يسكن ريح الزمن ليأتي للمسمع رجع الدويّ من خليط ذلك التهامس الذي راح في أرجاء أورشليم يرج منها الأرجاء رجاً حائراً من حول هذا «الصلب»!..

إن أورشليم تعرف أن من يلقى حتفه صلباً، فعادة لا يقضي نحبه قبل مرور أيام أقلّها ثلاثة، لأن هذه الطريقة في الإعدام كان يقصد بها إنزال أقصى العذاب بأطول مدة ممكنة من التعذيب الذي يمتد عادة إلى أكثر من ثلاثة أيام أقلّها ثلاثة لأنه بعد مرور ساعات قليلة على الصلب يمكن الإسعاف الطبي بالعلاج والعودة إلى الحالة الطبيعية التي كان عليها المصلوب قبل الصلب، إلاّ مما يترك الصلب في الجسم من آثار، ويسوع؟.. يسوع لم يمكث على الصليب إلاّ ساعات قلائل وبالتحديد من الثالثة حتى التاسعة!.. ساعات ست ثم صرخ وأسبل جفنيه علامة على أنه قد قضى، في إثرها أسرع إليه يوسف الطبيب، ذلك الصاحب

الثري المادة الذي كان لشخصه خفية صديقاً وفي الخفاء لدعوته مؤيداً وعضو «السندهارين» ومن كان قد استصدر أمراً من بيلاطس، الحاكم الروماني لأورشليم، بتسلم يسوع عقب وفاته، فتسلمه وبه ذهب...

يقيناً إن هذه الساعات الست، التي كان خلالها قد استصدر يوسف أمراً بتسليم جثة يسوع لحظة وفاته، قط لا تكفي لأن يقضي على الصليب مصلوباً لا سيما وأن في يسوع لم تنفّذ العادة التي كانت تسري على كل مصلوب، فقد جرت العادة أن تكسر ساقا المصلوب توكيداً لوفاته:

«وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه».

الإصحاح التاسع عشر من «إنجيل يوحنا»

أما لماذا؟ فالجواب:

«لأنهم رأوه قد مات».

الإصحاح التاسع عشر من «إنجيل يوحنا»

«فتعجّب بيلاطس أنه مات كذا سريعاً فدعا قائد المائة وسأله هل له زمان قد مات؟ ولما عرف من قائد المائة، وهب الجسد ليوسف..».

الإصحاح الحادي عشر من «إنجيل مرقص»

وليسوع حمل الصديق الوفيُّ.. وإلى الصديق الوفي خفّ الصديق الصدوقي الآخر نيقوديموس.. وإلى الذي أنزل عن الصليب أسرع... وأما يوسف فلأنه لما كان طبيباً لفّ يسوع بما قد أتى معه من لفائف وحمله إلى حيث طُوِيَت من عمر الزمن تلك الليلة من يوم الجمعة... تلك الليلة التي هزّت أرجاء التاريخ الديني بما جرى فيها من حدث أتى بالعجيب من الحديث. فهي ليلة عنها يأتينا الحديث يقول: إن بعد أن وُهِبَ يوسف الجسد وأصبح حراً له أن يفعل فيه ما يشاء:

«وضعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخرة، ثم دحرج حجراً كبيراً على باب القبر ومضى وكانت هناك مريم المجدلية ومريم الأخرى جالستين تجاه القبر..».

الإصحاح السابع والعشرون من «إنجيل متى»

ولكن!.. «بعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب، وسالومة حنوطاً ليأتين ويدهنه، وباكر جداً في أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس وكن يقلن فيما بينهن: من يدحرج لنا الحجر عن باب القبر؟ فتطلعنا ورأينا أن الحجر قد دحرج!..

ولما دخلن القبر رأين شاباً جالساً عن اليمين لابساً حلّة بيضاء، فاندهشن فقال لهن: لا تندهشن! أنتن تطلبن يسوع الناصري المصلوب؟ قد قام! ليس هو ها هنا!.»

الإصحاح السادس عشر من «إنجيل مرقص»

أين يسوع؟!!.

كلا!.. تجاه هذا المثوى القائم في أورشليم الآن وعلى صفحة الحاضر ينتشر مقدّس مزار لا ينبغي لنا أن نقف وإنما إلى ما يضمه من غرفتين يجب أن ندخل لنتبين أيّ المكان كان المكان الذي إليه قد حمل يوسف المصلوب، فليس إلاّ حين نطوف بهاتين الغرفتين تنبعث من طوايا الماضي مجريات هذا الحدث وترتسم في وضوح صورة المريمتين بينما يطرق المسمع منّا ما قد طرق عهد ذاك مسمع أورشليم من صوت لهمّا انطلق لليلتين مضتا على الصلب يعلن أورشليم:

إن الحجر عن باب القبر قد دُحْرج وإن القبر خلي من جسد يسوع!؟!.

وارتسمت في آفاق أورشليم ألوان من الاستفهامات.. ومن النبأ لم تتحقق إلاّ لينقسم منها الرأي وإلاّ لتتباين، تبعاً لتفاوت مراتب التفكير بها، فيها الآراء ويختلف منها الحكم ليندلع فيما بينها سعير الجدل وهي تستعيد ما قد شاع من حديث مصدره شفاه المريمتين!..

ولكن.. هذا الحديث الذي عنده اتفقت المريمتان وتجاوب في آفاق أورشليم له صدى رجعته دوياً منها الأرجاء إنما قد دفع إلى مريم المجدلية، لما كان لها من أثر فلمسه واضحاً في حياة يسوع، التلامذة من أتباع يسوع وفي مقدمتهم ذاك الذي كان الأقوى من بين الاثني عشر تلميذاً الذين نقص عددهم إلى أحد عشر بعد خداع يهوذا ليسوع، ذاك الذي كان أول من حيّا يسوع به معترفاً يناديه «المسيح» وكان جزاء له أن يختاره يسوع صخرة يبني عليها كنيسته ويبدل منه الاسم من سمعان إلى بطرس وليدخل بطرس القبر فيجده خلياً إلاّ من أكفان يسوع! وهنا تتجاوب على شفاه الزمن صرخة ليأتينا من رجع أصداء التاريخ، وعينا بطرس بين الأكفان ووجه مريم تجولان، القسم الذي أرسلته المجدلية. فهي تقسم أنها رأت يسوع يقوم حياً، وأن ذلك الشاب الذي كان جالساً عن اليمين من القبر قد قال لها ولمريم الأخرى:

«اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس، إنه يسبقكم إلى الجليل هناك ترونه كما قال لكم!..».

الإصحاح السادس عشر من «إنجيل مرقص»

بوعده سيفي يسوع فالموعد للقاء إنما «الجليل» فإن من شفاه من كانت تسكب العطر

على يسوع يأتي بهذا التوكيد وهي تقسم بأن يسوع قد ترك القبر جسداً حياً وتسترسل وتحدِّث؛ بأنها ومريم الأخرى خرجتا سريعاً من القبر لتخبرا التلاميذ وفيما هما منطلقتان لاقاهما يسوع:

«وقال: سلام لكما، فتقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له فقال لهما يسوع: لا تخافا؛ اذهبا قولا لإخوتي أن يذهبوا إلى الجليل وهناك يرونني!...».

الإصحاح الثامن والعشرون من «إنجيل متى»

ولكن!.. بينما كانت المريمتان تلقيان في مسمع المخلصين من الأتباع النبأ بأن «الجليل» قد عيّنت مكاناً للقاء وبينما لم يكن قد شاع عن حدث اختفاء يسوع من مثواه هذا الحديث بعد، كانت الصدوقية في غضون هذا التهامس الذي جرى بين التلامذة مؤكداً بأن يسوع حيّ وأن الموعد للقائه «الجليل» قد أسرعت إلى الاجتماع ببيلاطس وبه أحاطت الرؤوس منها:

«قائلين: يا سيّد قد تذكرنا أن ذلك المُضِّل قال وهو حي إني بعد ثلاثة أيام أقوم، فمُر بضبط القبر إلى اليوم الثالث لئلا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه ويقولوا للشعب إنه قد قام من الأموات، فتكون الضلالة الأخيرة أشر من الأولى!».

الإصحاح السابع والعشرون من «إنجيل متى»

بيد أن بينما كانت الصدوقية تستحث بيلاطس أن يصدر أمراً بحراسة القبر كان ذلك الحدث يجري ليعود الحرس قائلين: إن تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه ولتجد أورشليم أن القبر حقيقة من يسوع قد خلا!. وليطرق المسمع من كليهما، المسمع الصدوقي والمسمع الروماني معاً، الصوت الآتي من تلك الناحية من القلب العبري، تلك التي حفّت بموكب يسوع يوم دخل أورشليم في عيد الفصح على «حمار ابن أتان» تفرش له إلى جانب أغصان الشجر ثيابها في طريقه إلى المعبد وتطلق حناجرها هاتفة بقيام «مملكة داود الآتية باسم الرب»... فمن هذه الناحية ينطلق الصوت جهيراً غير هيّاب من عصف القوة السياسية وغير مبالٍ بغضبة السلطة الدينية يعلن جهارة ما قد انتشر في أورشليم وأرجاء اليهودية وسائر بقاع إسرائيل من نبأ يقول: **إن يسوع، بعد موت، قد قام وفي اليوم الثالث صعد إلى السماء!**

نبأ ما سرى حتى سرى الدويُّ منه أصداء على شفاه مكذِّب ومصدِّق، فهو نبأ له أنكرت ناحية خفقت لنتائجه منها الأفئدة خوفاً وهو نبأ هل أيدت ناحية سكنت لنتائجه منها الأفئدة اطمئناناً فأما تلك التي خفقت خوفاً فهي تلك التي انعقد فيها اللاإيمان بيسوع وأما هذه التي سكنت اطمئناناً فهي هذه التي انعقد فيها الإيمان بيسوع كمسيح، وليس هذا

فحسب وإنما حبه وحبه حباً أبى أن يؤمن بأن يسوع قد احتجب عنها أبداً!

وبعامل هذا الحب المبني على فهم ما رمت إليه دعوة يسوع من أهداف انحصرت في إقامة حكم عالمي قانونه المساواة بين الجميع، وبدافع هذا الحب الذي ولَّد في المشاعر استشعار فقدان يسوع تدافعت هذه الناحية من القلب العبري، لا تحت ضغط من الشعور بهذا الافتقاد فحسب وإنما بدافع يقين مصدره المنطق بأن يسوع لن يطول له احتجاب، ترسل القول مؤكداً: **أنه سيرجع!**

يقيناً لقد ألهب حدث الصلب الوجدان لهذه الطبقة التي التفت من حول يسوع وأرسل حدث الاحتجاب فيها سعير الافتقاد لهذه الشخصية التي كانت من حولها تلتف ولها صاحبها يساند ويؤازر، فليس إلاّ من وهج هذه اللهب وليس إلاّ وقدة هذا السعير سُطرت في سجل الدين المسيحي:

عقيدة الرجعة اليسوعية

إن «الرجعة»، قولاً وعقيدة، إنما معنى من المعاني التي تختلج بها العاطفة الإنسانية لظاهرة تنم عن وله قلبي لإنسانٍ معيّن يأبى الإنسان تحت تأثيرها التصديق بأن نقطة الجذب في دائرة هذا المحور قد تلاشت!.. ومن ثم ففكرة «الرجعة» إنما شعور طبيعي تمليه الطبيعة البشرية على الإنسان حين يدرك الأمر الواقع فيأبى، مع اعترافه بغيبة من يجب، إلاّ رجعة مَن يحب!... وتتبلور الفكرة وتتجوهر ولا تلبث أن تتحول إلى عقبة سرعان ما تنعقد إلى عقدة نفسية تحكم الأيام أواصرها وتزيدها السنون على تمكينٍ تمكيناً، كما تبلورت وتجوهرت وتحولت إلى عقيدة انعقدت إلى عقدة في نفوس أتباع يسوع! إلاّ أن هذه الظاهرة النفسية، التي يأبى العقل تحت تأثيرها النفساني إلاّ تحديد وقت هذه الرجعة ويظل معلق الأهداب بالسماء مرتقباً عودة من يحب، فإذا انتهت الفترة المحددة ولم يرجع من له قد انتظر تأول العقل وحاول شرح العقيدة شرحاً كثيراً ما عقدت بسببه أعقد العقائد، إنما ظاهرة لئن سرى قانونها على غير إسرائيل، فليس إلا ليسري قانونها في هذا الطور على إسرائيل، ففي إسرائيل بل بالأحرى في هذه الطبقة المعيّنة من إسرائيل تعود هذه الظاهرة إلى الظهور وتتركز في شخصية يسوع.

وكعمل النار في الهشيم انسابت فكرة «الرجعة» إلى أذهان التّبع لا لتحدث عن تلك الهزة العنيفة التي كادت تصيب من معنويتهم مقتلاً غداة فُقد من بينهم من فيهم كان يفتقد وإنما لتحدِّث عندي اليقين الذي تجمعهم عند كلمة واحدة هي على شفاههم، في غير تردد، تتردد؛ أن يسوع، حتماً، سيرجع!.

حتماً سيرجع يسوع وحتماً سيهبط من السماء إلى الأرض ليحقق ذلك الحلم الذي **عاش به ومن أجله عمل وبسببه مات، حتماً سيرجع يسوع ليقيم «بيت داود» والمملكة المسيحية فيتم العمل الذي من أجله إلى الأرض كان قد جاء!**

ومن حول هذه العقيدة ترابط أتباع يسوع ولأتباع يسوع أتباع يزيدهم بها إيماناً ما عليه كانوا من بساطة، كما زادهم إلى يسوع إخلاداً ما عليه كان أكثرهم من حاله بالغة من رقة الحال، فليس إلاّ بدافع هذه البساطة في الطبع وليس إلاّ بعامل هذه الرقة في الحال كان أن وجدت التعاليم المنادية بالمساواة بينهم مرتعاً ربطت فيما بينهم برباط الوحدة الروحية ربطاً، بدأ:

تكوُّن التعاليم اليسوعية إلى مذهب وتحوّله من مذهب إلى دين يحمل اسم المسيحية

بعقيدة «الرجعة» وبما قد جاء بهذه العقيدة من عقائد تتلخص في قيام يسوع من الموت مصلوباً وصعوده ابناً إلهياً إلى السماء يجلس عن يمين أبيه السماوي حتى يحين وقت ظهوره من جديد بدأت اليسوعية تتكوّن إلى مذهب لتتحول إلى دين يحمل اسم المسيحية. فمن حول هذه الشخصية التي انقسم بها الشعب العبري إلى عبريٍّ موسوي وعبري يسوعي بدأت يد الزمن تصوغ ديناً إذا ما سبرنا منه الجوهر طالعتنا:

العوامل النفسية التي شيّدت المسيحية

ممّا لا جدل من حوله هو أن يسوع قد احتجب دون أن يترك ديناً، فلم يترك يسوع إلاّ إصلاحاً في الدين الموسوي.. بيد أن لئن كان يسوع عن العين قد توارى، ولئن كان من صفحة العهد الهيرودي قد غاب، ولئن كان عن دك عرش هيرود بعرش داود قد عجز، فإنما به «مملكة ابن داود» كانت قد قامت في صدور هذه الطوائف من الأتباع الذين ألهب حدث الصلب وما قد جاء بعد حدث الصلب من حدث الاحتجاب منهم المشاعر وأرسلهم فِرَقاً تربط فيما بينهم وحدة الهدف ويشد بعضهم إلى بعض الضعف الذي كانوا له يستشعرون، أمام الطوائف العبرية ذات الثراء وصولة السيادة الرومانية معاً ومن ثم بدأوا، بدافع هذه العوامل النفسية، يعقدون المجتمعات السرّية ويبقون على أنفسهم التعاليم المنادية بالأخوة والمساواة، فهم ينادون بعضهم بعضاً بصيغة الإخاء ويساوون فيما بينهم في الحقوق باشتراكية عجيبة شعلت في الأقصاء من ضمائرهم وقدة الإحساس بأن على عاتقهم تقع مسؤولية التبشير بهذه المبادىء التي ترددت ردحاً من الزمن على شفاه يسوع والتي لم تجد في نفوسهم مرتعاً إلاّ بدافع تلك العوامل النفسية التي عقدها بين جوانبهم الإيمان بأن يسوع كان «المسيح المنتظر» وأنه حقيق قد بعث من الموت وارتفع جسداً حياً إلى السماء!... فليس

إلاّ بدافع هذه العوامل النفسية وليس إلاّ بسببها أمسى اسم يسوع النبضات التي يعيش بها كل قلب من هذه الطائفة المحرومة التي لم ينقض عليها من عمر الزمن حوالي شهرين بعد احتجاب يسوع إلاّ وتحولت من فئة مبعثرة إلى جبهة متماسكة على استعداد تام لمواجهة أي تحد يستنكر قيام يسوع من الموت!.. فهي ترسل القول جهيراً بأن يسوع لم يك إلاّ «المسيح الموعود» وليس هذا فحسب بل وإنه، بعد موت، بعث، ليكوّن هذا القول حجر الأساس في صرح المسيحية كدين فليس إلاّ على عقيدة البعث بني صرح المسيحية كدين، كما ليس إلاّ بسبب هذه العقيدة احتل يسوع أفق المخيلة من هذه الطوائف وبدأت سيرته على الشفاه منها تُروى كقصة مادتها: **المعجزات**

كرع الصدى للإيمان الساكن في أعماق الصدور انساب من الشفاه المؤمنة إيماناً غيبياً الحديث يحدث:

إن يسوع قد حوَّل الماء نبيذاً.

إن يسوع قد سار على الماء.

أطعم حشداً من الناس بخمسة أرغفة لها قد بارك.

ليسوع كانت قوة الإشفاء من أسقام الجسد، فقد أعاد مرة البصر ومرة السمع بل ومرة أحيا أحد الأموات!..

وعن المعجزات يسترسل من الشفاه المؤمنة الحديثة في سخاء ويتخذ مداه ليستقر عند القول بأن بين ألوان من المعجزات بها أتى عاش يسوع شافياً الأسقام وضارباً الأمثال حتى ثوى سيداً شهيداً حزنت على فراقه الدنيا ولفراقه تزلزلت منها الأرجاء، فقد صاحب رحيله عنها لأورشليم زلزال!.. لكن!. علامة على خلوده تجلّى للمخلصين له من الأتباع، بعد الموت، جسداً!.. وبرهاناً على أنه سيعود ليحكم العالم ارتفع جسداً حياً إلى السماء!..

وعن هذه «المعجزات» راحت القصص تتردد على شفاه هذه الطبقة المحرومة التي تصفها الطبقة المثقفة بالسذاجة لتلعب هذه «المعجزات» دورها الواضح في إرساء قواعد المسيحية كدينٍ، فليس إلاّ بهذه «الخوارق» التي راحت بها الشفاه ترصِّع حياة يسوع وتتخذها براهيناً على صحة ولادته الإعجازية وبنوته للإله وضعت يدا بطرس قواعد الكنيسة الأولى وليس إلاّ من مادة هذه «المعجزات» اتخذ بطرس مدداً تولى به تنظيم الأتباع إلى جماعات وجعل على رأس كل جماعة قائداً ثم انعطف وتولى إرسال قوادهم في إرساليات تبشيرية إلى خارج أورشليم ليسير هو في مقدمتهم متزعماً هذه الحركة التي ازداد بها بين الطبقات المغمورة في عالم هذا الطور انتشار المسيحية.

من ثم فيقيناً إنه إذا كان عن العين قد غاب يسوع ومن صفحة العصر الهيرودي قد توارى ولم يجتمع بالخاصة من تلاميذه إلاّ مرات ثلاث بعد حدث الصلب ومنها مرة مباشرة ومرة بعد ثمانية أيام والمرة الثالثة والأخيرة التي وكل فيها إلى بطرس رعاية أتباعه والقيام بنشر تعاليمه ليحتجب بعد ذلك احتجاباً بعده عبثاً تطوف العين في أرجاء «الجليل» عنه بحثاً، فإنه قد عاش في قلب من تبعه من أتباع لم تزدهم ترحال الأيام وابتعادها بهم عنه كمحور للعقيدة إلاّ به تشبثاً وإلاّ ببعضهم بعضاً التصاقاً، فقد عملت على هذا الربط فيما بينهم «عقيدة الرجعة» التي تأصلت نفوسهم الحالمة بقيام مملكة عالمية قانونها «الحب» ومبدؤها «العدالة الاجتماعية» والتشريع فيها «الأخوة العالمية»، وأما «الاشتراكية» ففيها الحكم شريعة تطبق على الناس، مملكة يرأسها، حتى رجعة يسوع، ليسوع أتباع دفعتهم العوامل النفسية إلى القول «بالرجعة»، وإلى القول «بالمعجزات» وحولت العاطفة منهم هذه الفِكَر إلى عقائد منها تدفق ذلك اليقين إلى غمر الصدور من باقي الأتباع باسم؛ **الإيمان**.

إلى ذلك الشعور الخفي الذي شدّ أواصر الوحدة الروحية بين الأتباع باسم الإيمان المتمثل في الاعتقاد بصدق «الولادة الإعجازية» والارتفاع جسداً إلى السماء بدأ تحول الدعوة المسيحية من مذهب إصلاحي في الموسوية إلى دين مستقل وبذاته قائم، وبسبب هذا الإيمان أسست دعامة الكنيسة الأولى لهذا الدين ومن داخلها بدأت نقطة لاهوته[1]...

أجل.. ليس إلاّ بسبب هذا الإيمان المنعقد بين الحنايا على التصديق بأن يسوع كان شخصية تجسدية للإله بدأ تحول الدعوة المسيحية من مذهب إصلاحي في دينٍ محوره موسى إلى دين محوره يسوع... بيد أن النقطة الواضحة التي منها بدأت اليسوعية تتحول تمام التحول من مذهب إلى دين إنما تتمثّل في:

الدوافع السياسية التي شيّدت المسيحية

نفس عمل العوامل النفسية عملت العوامل السياسية في تشييد صرح المسيحية وتحويلها تحويلاً عملياً من مذهب إلى دينٍ وهذه إنما حقيقة لنا تتكشّف إذا توغلنا بدقة في تاريخ تكوين المسيحية في هذا الطور من العصر الذي لم يشذ بطابعه السياسي عن غيره من سائر العصور، فنحن إذا استعرضنا تاريخ تكوين المسيحية تحت الأضواء السياسية للطور فإننا لن نخرج من هذا الاستعراض إلاّ مقتنعين بأن الدعوة المسيحية لم تكن في مداها الحقيقي ثورة اجتماعية فحسب هدفها تطبيق المساواة في الحقوق بين الفرد والفرد، كلا ولم تكن ثورة سياسية فحسب هدفها تحرير «شعب الرب» من وطأة نير الاستعمار الروماني وإنما.. إنما

(١) E.B.V.5 Christianity

كانت ثورة روحية شحذت أسلحتها على النصل الرواقي حتى ليمكن اعتبار ما جاء فيها من مبادىء تشريعية امتداداً للمبادىء الرواقية من حيث إنها أرادت تحرير النفس من سلطان الجسد وأشاعت وحدة روحية تربط بين الأفراد والجماعات بها تسود العالم وحدة عالمية يصبح فيها العالم وطناً واحداً!.. وهكذا نرى أن هذه النظرة التي رمت إلى هدف ينحصر في إثارة الناحية الإنسانية في النفس البشرية إنما هدف سياسي مرماه القضاء على كافة ألوان الاستعمار وتشييد صرح حكم عالمي تربط فيه الوحدة الروحية بين الأفراد والجماعات والأمم في مملكة عالمية، منها الأطراف معقودة ليسوع من خلال خلفائه، فإن يسوع وإن كان قد قال إن مملكته ليس مكانها الأرض وإنها لا تقوم على عرش في الخارج وإنما على عرش في الداخل قوائمه القلوب، فإن من الواضح تمام الوضوح أن بقيام هذه المملكة في قلوب الناس ستخضع سياسة العالم، حيثما كان المكان من هذه القلوب، لحكم هذه القلوب فلن يكون العالم الخارجي ـ تبعاً لذلك ـ إلاّ مرآة تعكس النظام القائم في عالم الداخل!..

حتماً إذا شاعت الوحدة الروحية بين الناس ستذوب المشاحنات وتتلاشى الأحقاد وحتماً ستتخذ النظم الخارجية، تبعاً لهذه الاعتبارات الداخلية، شكل نظام واحد يستمد قوته من محور واحد تمثله ليسوع شخصية لا يمكن إلاّ الاعتراف بأنها كانت شخصية تاريخية عاشت على الأرض حقيقة وأرست قواعد الدين المسيحي، فنحن وإن كنا قد طوينا عبثاً سجلات التاريخ السياسي بحثاً عن يسوع إلاّ أن هناك على وجوده أدلة ترتد عنها الشكوك، كلا! إن أدلتنا على ذلك لا تتخذ مصدراً «الأناجيل»!.. كلا ولا تستمد مددها مما كتبه الأتباع الأول من المسيحيين!.. وإنما مما سطر غيره المسيحيين من كتّاب هذا الطور من العصر ومؤرخيه، فإن إلى جانب المؤرخ العبري يوسيفوس، الذي ولد سنة ٣٧م، والذي جاء في صدد تحدثه عن حوادث فلسطين وعن يوحنا المعمدان يذكر يسوع ودعوته إلى نفسه بأنه هو «المسيح» ويلمح في إيلام إلى صلبه في صدد ذكره إعدام يوسى، أخو يسوع، سنة ٦٢م رجماً بالحجارة متهماً بالحيدة، فيثبت بذلك لهذه الشخصية وجوداً تاريخياً يأتي الكاتب والمؤرخ الروماني «تاسيتوس» مسطراً، حوالي سنة ١٠٧ م، تعداد المسيحيين في روما وذاكراً إعدام مؤسس هذه الدعوة في اليهودية في عهد بيلاطس (٢٦ ـ ٣٦م).

من ثم فيقيناً إن دعوة الأدعياء بأن يسوع إنما شخصية أسطورية ترتد جذراً بدافع الأدلة التاريخية التي تؤكد لنا أن يسوع لم يكن قط شخصية أسطورية وإنما من حوله صيغت الأساطير بما أدخل في شخصيته من التعابير الدينية التي كانت شائعة في أديان العصر ومذاهبه وبما أدمج فيه من عقائد العصر وبما أفرغ في سيرته من قصص العصر، ذلك كان سبباً أبرز شخصية في تاريخ تكوين المسيحية كدين وحلولها محل أديان العصر ومذاهبه

الفدائية، فليس إلاّ غداة أتمت هذه الشخصية صياغة هذه الصيغة التي تحمل اسم العقيدة المسيحية يطالعنا:

تحوّل يسوع من شخصية تاريخية إلى شخصية أُسطورية

بيد أن تلك الشخصية الثرية المادة التي هبطت أورشليم من طرسوس تلك التي يذكرها التاريخ الديني ضليعة في «الموسوية» و«السرابيسية» «ديانة أوزير» أو «السيد الشهيد»، تلك العارفة، بحكم موطنها طرسوس حيث الديونيزوسية رسمي دين، بديانة ديونيزوس ابن الإله من سميل العذراء. تلك التي يصف التاريخ الديني صاحبها بفرط الذكاء وإرهاف الوعي للتغيرات السياسية والاضطرابات النفسية والتيارات الدينية إرهافاً وعى للعصر مذاهب وللعصر ديني حركات من تأويل وتحاوير وتقلبات، تذوب شخصية يسوع من قوة إلى ضعف ومن حقيقة إلى وهم... فتحت اسم «العقيدة المسيحية» التي صاغتها هذه الشخصية تطالعنا شخصية يسوع مغلفة بأغلفة هي من نسج الخيال البشري حدثاً!...

على صفحة التاريخ الديني تطلع هذه الشخصية التي إليها لم يلتفت العصر حين هبطت من طرسوس أورشليم لتدرس التلمود على جمالئيل، فإلى هذه الشخصية لم يلتفت العصر إلاّ حين بدأ باضطهادها يسوع لها تاريخ، فهي ليسوع بادىء ذي بدء أشد الاستنكار استنكرت وفي إنزال أقصى العقوبات بالمسيحيين الأُول اشتركت قبل أن نراها، تأثراً بـ «سِنِكا» الرواقي من كانت بينهما المراسلات جارية، تتحوّل فجأة، سنة ٣٥م، إلى يسوعية وتبدل الاسم منها من «شاول» إلى الذي نعرفها به:

بولس بين التيارات الفكرية

وفي الخضم الديني لزمن عهده الطور الثاني من العصر الهلليني الروماني نرى بولس يطوّف، بما حملت كينونته من شخصية سبرت نظرتها العجاج المضطرب لحاضرها، أرجاء من عالم عالمه بينما إلى ما وراء حاضره تمتد نظرته فترتسم في أُفق المخيلة منه غاية، سرعان ما هبّ يتخذ إليها الوسائل التي تتلخص في إقامة تلك «المملكة» التي سيكون هو رئيسها حتى «رجعة يسوع»!...

في تجوهر تبلورت في مخيلة بولس فكرة هذه «المملكة» التي لن تلقي ليده منها المقاليد إلاّ على أساس مادته الإيمان بيسوع إيماناً تتلاقى فيه في غير تنافر عقائد أديان العصر ومعتقداته المذهبية، ومن ثم انحصرت مهمة بولس أولاً في إيجاد معنى لتلك النهاية، التي انتهت بها ليسوع من وجه التاريخ حياة وبالتالي تفسير المعنى من وراء هذه النهاية وبذلك لا يتم فحسب إظهار يسوع بمظهر «المسيح المنتظر» وأنه حقيقة كان الملك القائد الموعود

لإسرائيل الذي قصرت عن فهمه إسرائيل وغبنت له حقوق وعسفت به القوة الحاكمة، وإنما يتم بذلك إظهار يسوع بمظهر إله على الأرض قد تجسّد لخلاص الإنسان من العذاب فكان جزاؤه العذاب في دنيا الإنسان... فإن بإظهار يسوع تحت هذا المظهر سيدب في القلب الإنساني دبيب الندم وعن طريق هذا العامل النفسي ستتأهب النفوس لقبول قيام «المملكة السماوية» التي إلى بولس سيوكل لها أمر!

في هذه الغاية انحصر هدف بولس، وإلى هذه الغاية بدأ يتخذ الوسائل التي تطالعنا عبر «رسائله» التي يضمها «العهد الجديد»، فليست السطور من هذه «الرسائل» إلاّ الأثر الذي تركته خطى بولس وهو يطوف أنحاء من عالم عالمه قرابة ربع قرن من الزمن وينظّم، حيثما حلّ، خلية من الأتباع ويجعلها على صلة بالخليات الأخرى، فحيثما كان بولس يحلّ كان يقيم كنيسة باسم يسوع ينساب إلى خارجها ما قد انساب من شفتيه في داخلها من تعاليم تسجلها بين دفتي «العهد الجديد» له «رسائل»... فعلى صفحات هذه «الرسائل» يطالعنا:

حديث بولس إلى أصحاب الدين الموسوي

إلى إصحاب الدين الموسوي إنما قوم منذ القِدَم والضمير منهم مثقل بأثقال خطيئة عالمية عليهم جناها، حسب معتقدهم، آدم ولذلك جاءت مادة أساسية من مواد الشريعة الموسوية تقول بأن الأبناء يحملون أوزار الآباء، كما أن بين الجوانب من هذا الشعب كانت معقودة عقيدة الفداء بالكباش لافتداء الخطايا، اتجه بولس يحدثهم قائلاً:

من هو كان يسوع؟!.. حقيقة إن يسوع قد انتهت له على الأرض حياة بها انتهى نهاية الخارج على القانون العبري والعاصي الثائر المتمرد على الحكم الروماني، ولكن!.. يسوع في الحقيقة لم يمت من أجل خطيئة اقترفها هو وإنما!. إنما مات من أجل خطايانا!.

خطايانا؟!.. أجل، خطايانا!. خطايانا نحن التي سببها هبوط آدم الأُرض حين طرده الإله من «جنة عدن» عقب أكله «الثمرة المحرمة»، فما هبط وحواء إلاّ ودبّ إلى نفسه الشعور بالندم الذي ولده الإحساس بما قد اقترف من خطيئة العصيان التي انحدرت إلى ذريتهما وألقت على كاهلهم لها أثقال، والتي لم يسلم منها أحد، أراد يسوع أن يفتدي البشرية بنفسه واستساغ لنفسه أن ينتهي هذه النهاية، فكان عن العالم «كبش الفداء». وما أجدره بأن ينعت: الفادي!

بمحض إرادته أراد يسوع أن يراق له دم كي يغفر الرب خطيئة «شعب الرب» فليس إلاّ بإراقة الدم تُمحى الخطايا فإن:

«بالدم وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة!..».

بولس إذن، لا ثمة شك في أن يسوع هو «المسيح الموعود» لإسرائيل:

«الذي سبق فوعد أنبياءه في الكتب المقدسة عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعيّن ابن اللّه بقوة من جهة روح القداسة، وبالقيامة من الأموات!.».

الإصحاح الأول من «رسالة بولس إلى أهل رومية»

وهكذا نرى أن؛ «اللّه بيّن محبته لنا لأنه، ونحن بعد خطاة، مات المسيح لأجلنا قد صولحنا مع اللّه بموت ابنه!..».

الإصحاح الخامس من «رسالة بولس إلى أهل رومية»

بموته، رفع يسوع عنّا أثقال خطيئة الآباء فقد ارتضى أن يكون «كبش الفداء» الذي يحمل ذنوب الناس وقبِل هذه الميتة عن طيب خاطر ليفتدينا بدمه!.. فما كان يسوع إلاّ كبش الفداء:

«الذي قدّمه اللّه كفّارة بالإيمان بدمه لإظهار برّه، من أجل الصفح عن الخطايا السالفة!..».

الإصحاح السادس من «رسالة بولس إلى أهل رومية»

أجل.. ليفتديكم، أي شعب الرّب، جاء يسوع فادياً، وافتداء لكم ارتضى «الفادي» للدم منه إهراقاً فقد كان: «لنا فيه الفداء، بدمه غفران الخطايا..!».

الإصحاح الأول من «رسالة بولس إلى أهل كولوسة»

الاسترسال استرسل الكَلِمُ من شفاه بولس ليشتدُّ إليه إرهاف المسمع العبري وهو إليه يصغي له محدثاً:

يقيناً إن بموت يسوع محيت عنكم الخطيئة وبقيامه من الموتى ضمن لكم من الموت قيام!.. إنكم تعتقدون أنه الرقود مع الآباء وأنه لا قيامة ولكن هذا إنما الخطأ:

«لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيحيا الجميع!.»

الإصحاح الخامس عشر من «رسالة بولس الأولى إلى كورنث»

«في المسيح»، وهذا إنما معناه الإيمان بيسوع كمسيح، سيحيا الجميع!.. فما كان موت يسوع هذه الميتة إلاّ ليرفع عنكم ثقل الرقاد مع الآباء وإلاّ ليضمن لكم بعثاً من التراب يليه خلود في رحاب «الأب الإلهي» في «ملكوت السموات» فما كان قيام يسوع من الموت إلاّ ليثبت لنا أنه حقيقة، من اللّه:

«ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد وتعيّن ابن اللّه بقوة من جهة روح القداسة وبالقيامة من الأموات!».

الإصحاح الأول من «رسالة بولس إلى أهل رومية»

من ثم يقيناً إن يسوع قد كان المسيح الموعود لإسرائيل... وليس هذا فحسب وإنما شخصية يسوع تلحق طبيعة هي عليه قاصرة فإنه، وهو الذي قد تعيّن ابن اللّه من جهة روح القداسة، يكون إنساناً إلهياً سبق وجوده على الأرض له في السماء وجود!.. ومن ثم فصفة حتمية تلحق بطبيعة يسوع هي صفة قدسية يجب بها اعتباره، وهو الذي قد سبق على الأرض له في السماء وجود؛ قبل كل شيء، وفوق كل شيء، وكل شيء!

إذن فلا ثمة شك في أن يسوع إلى الأرض بمحض إرادته قد أتى وارتضى لنفسه هذا التردّي واستعذب ما قد لاقى من عذاب، بل وهان عليه هذا الهوان وصنوف ذلك البلاء الذي عاناه، فلم يك من ذلك بد ما دام قد أراد تخليص الإنسان من وزر «الخطيئة العالمية»، كما لم يك لهذا الخلاص بدٌ من أن يقدِّم يسوع نفسه فداء للإنسان كي يُمنح الإنسان الخلود!... كفّ يسوع بموته الفناء عن الخلف وبموته أبطل الموت الذي كان من نصيب السلف!.. فالخلود قد أصبح من نصيب البشر:

«بظهور مخلصنا يسوع المسيح الذي أبطل الموت!».

الإصحاح الأول من «رسالة بولس الثانية إلى تيماثوس»

قط لا يمكن أن يكون بعد يسوع فناء ويسوع إنما قد كان القربان الأكبر للخلاص!!. وقطّ لا يمكن للقلب أن يثقل بثقل «الخطيئة العالمية» ويسوع إنما قد مات لغفران خطيئة الناس؟! بل وأنّى يمكن ألا تقوم، بعد ضجعة في القبر، الأجداث ويسوع إنما قد قام من ضجعة القبر لمنح الناس أبداً الحياة!.

الاتجاه اتجه بولس إلى أصحاب الدين الموسوي كما سجلت «رسائله» في آن الآن الذي سجلت فيه:

حديث بولس إلى أصحاب الدين الديونيزوسي

إلى أصحاب الدين الديونيزوسي وأصحاب هذا الدين، القائم على أُسس الاعتقاد بأن ديونيزوس ابن الإله من عذراء، إنما قوم الحنايا منهم قد احتضنت ديونيزوس بحنانٍ ليس إلاّ بسببه كانت قد رسخت له في القلب مكانة كما كانت قد قامت له عبادة انتشرت بقيام معابده وخاصة في طرسوس، موطن بولس، اتجه بولس يحدّث:

إنما يسوع هو الصورة الحقيقية بل والحقيقة الواقعية لابن الإله من عذراء!.. فإن يسوع قد عاش بيننا وبيننا قد مات وبه أمه قد حملت حملاً إعجازياً!... ومن ثم فيقيناً إنه الحقيقة الواقعية للحلم الذي قد طوّف منذ القِدَم على جبين البشرية!... وكيف لا يكون هو هذه الحقيقة وهو الذي قد جاء حقاً وحقيقة قُتل!... بل وأنّى يمكن ألاّ يكون هو الرب ابن الإله من العذراء وهو، وليس إلاّ هو، الذي قد حمّل قتلة البشر إثم خطيئة لن يفتدي البشر منها إلاّ له اتباع!.. إن اتباع يسوع، مَنْ هو الرب ابن الإله ومَن أمه مريم هي السيدة العذراء، إنما اتباع للدين الصحيح لأنه ليس إلاّ يسوع هو الذي يقف حقيقة للإله ابناً فإنه:

«هو ابن اللّه»!

الإصحاح التاسع من «أعمال الرسل»

الاتجاه اتجه بولس إلى أصحاب الدين الديونيزوسي فحدثهم هذا الحديث ليتحول بعد ذلك ناحية أخرى تسجلها فقرات من «رسائله» عليها يطالعنا:

اتجاه بولس إلى أصحاب الدين السرابيسي

إلى أصحاب الدين السرابيسي، وأصحاب الدين السرابيسي إنما قوم بين جوانبهم قد عُقدت عُقدة الإيمان بسيد شهيد ارتفع في اليوم الثالث جسداً حياً إلى السماء حيث في أحضان أبيه السماوي يحيا أبداً حياة الخلود كما رسخت بين جوانبهم أيضاً العقيدة بأن حورس أو الأقنوم الثالث في الثالوث الإسكندري قد وُلد بطريقة إعجازية من إيزيس «السيدة الطهور» وأنه روح قدسي من قدسي روح، التفت بولس يحدِّث:

إن يسوع هو «السيد الشهيد» وفي نفس الآن هو من «الروح القدس» روح!.. فإنه هو الذي بولادة إعجازية قد ولد غداة لمريم تجلّى «الروح القدس» بشراً سوِّياً وكان ثمرة هذا التجلّي يسوع روحاً قدسياً!.. وإنه هو الذي قُتل ظلماً وبعد موت، بمعجزة من أبيه السماوي، بُعث جسداً حياً وفي اليوم الثالث قام..:

«حقاً إن هذا أقامه اللّه في اليوم الثالث»!

الإصحاح العاشر من «أعمال الرسل»

يقيناً إنه يسوع، وليس إلاّ يسوع، هو الذي أقامه اللّه في «اليوم الثالث» وبه إليه في ملكوته السماوي صعد ـ ومن ثم فيقيناً أن يسوع هو «السيد الشهيد» وهذه إنما لحقيقة عنها ترتد الشكوك لأنه هو «المسيح» ولو لم يكن يسوع هو «المسيح» لما كان قد قام في اليوم

الثالث من الموت: «وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا، وباطل أيضاً إيمانكم!..».

الإصحاح الخامس عشر من «رسالة بولس إلى كورنث»

الاتجاه إلى أصحاب الدين المتخذ أُوزيريس سيداً شهيداً وحورس روحاً قدسياً وإيزيس سيدة طهور اتجه بولس فحدثهم هذا الحديث عبر فقرات من «رسالته» التي تسجل في نفس الآن:

حديث بولس إلى أصحاب الدين الجبوبتري

إلى أصحاب هذا الدين، الذي داخلته بِدَع تأليه القيصر بعد موته ومناداته بالمخلِّص واعتباره صورة تجسّدية للإله على الأرض والإيمان بأنه قد صعد جسداً حيّاً إلى السماء والاعتقاد بأنه سيرجع، التفت بولس يحدِّث:

إنما يسوع هو المخلِّص!.. فهو الذي قد كان حقيقة صورة تجسّدية للإله على الأرض لأنه هو الذي، بعد موت، قد رُفع حقيقة وحقاً جسداً حياً إلى السماء!...

أوشك؟!... كلا! لقد آزر شاهد شاهداً وعند كلمة واحدة اجتمعت شهادة الشهود!. فكلٌّ من المقرَّبين قد هبّ يشهد بأنه رأى رأي العين يسوع يصعد أمامه جسداً حياً إلى السماء!.

من ثم فإلى الوجدان لا يمكن أن تتسرَّب في صدق الشهود شكوك!.. وأنّى يمكن أن يتسرب إلى الوجدان شك في صدق الشهود ويسوع هو الذي قد جاء يخلِّص الإنسان من الآثام وكي يُكفِّر للإنسان خطايا قدّم الروح منه فداء؟!... يقيناً من ثم إن يسوع هو:

المخلِّص!... أنّى يمكن بعد أن تمتد للشك موجة أو أن ينال الفكر من هذه الموجة رشاش في أن يسوع هو المخلِّص وهو الذي لم يجيء إلاّ لخلاص الإنسان من العذاب وهو الذي لم يمت إلاّ من أجل تكفير خطايا البشر؟!.. وإذا أيقنا بأن يسوع هو المخلِّص أفلا نوقن بأنه هو من كان حقيقة صورة تجسّدية للإله على الأرض؟!. ثم ألا نؤمن بالتالي، من مدد هذا الإيمان المستمد بأن يسوع قد كان صورة تجسّدية للإله، بأنه في حقيقته لم يكن، والصورة إنما تمثّل الشيء الذي له تعكس، إلاّ إلهاً؟! من ثم... يقيناً:

«إنه إلهي يسوع المسيح!...».

الإصحاح الأول من «رسالة بولس إلى أهل رومية»

أو اعتراض؟... لا شك في أن بالسلب يأتي الجواب!.. فإن من حق يسوع أن نناديه بهذه الصفة ما دامت قد ارتدت عنا في أمر طبيعته الإلهية الشكوك وما دمنا قد آمنا:

«أنه ربنا يسوع المسيح!...».

الإصحاح الرابع من «رسالة بولس إلى فيلبي»

وأنّى يمكن أن يكون هناك اعتراض على أن «المسيح» إله وهو المخلّص الذي لم يصعد إلى السماء إلاّ ليعود ليحكم الأرض غداة يرجع هابطاً الأرض من السماء؟!..

كلا!... لا تسألن متى؟! فإن الجواب:

إن «للرجعة اليسوعية» موعداً هو نفس هذا الجيل!... أوشك؟!.. إنكم سترونه! بل سيراه العالم أجمع!... سيراه عالم هذا الطور من العصر الهلليني الروماني عائداً عن يمين القوة الإلهية ليحكم هذا العالم إلى الأبد!..

الموقف، في خضم عالمه الديني وبين التيارات الفكرية لعصره، وقف بولس فوقف موقفاً تصوره عن نفسه نفس شفتاه:

«استعبدت نفسي للجميع لأُربح الأكثرين فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس... لأربح الذين بلا ناموس»!..

الإصحاح التاسع من «رسالة بولس الأولى إلى كورنث»

في أرجاء عالمه، عالم هذا الطور من العصر الهلليني الروماني، وحيثما فيه طوف دويّ بهذه الأصداء من ألوان الحديث الصوت البولسي ليروح من هذه الأصداء الرجع يجلجل:

لم الحيرة من ثم بين المذاهب الفدائية التي يمور بها العصر موراً؟!. ولم التردد بين دين بعثٍ وخلود ودين خلود وبعث وذا هو دين يضم كل ما إليه منكم الوجدان عطش ويحتوي كل ما النفس منكم إليه في حاجة؟!..

لم الحيرة بين مذهب ومذهب ولم التردد بين دين ودين ولم الاتجاه إلى سرابيس تارة والالتجاء تارات إلى حورس وديونيزوس وذا هو يسوع؟.. إن يسوع إنما الشخصية التي تجمع كل ما تحاولون أن تجمعون فإنه هو:

القربان الأكبر للخلاص الذي قد مات لغفران خطيئة العالم وقام ليمنح الناس الخلود!..

والسيد الشهيد الذي مات وبُعث وفي اليوم الثالث صعد جسداً حياً إلى السماء!.

والطفل الإلهي وليد العذراء من الروح القدس وابن الإله!.

والمخلّص الذي مات وصعد إلى السماء ومنها سيرجع ملكاً في هذا الجيل!

وهكذا شاد بولس من الشخصية اليسوعية قاعدة عليها بنى ديناً.. وهكذا وضع بولس أُسس الكنيسة الأولى..

وكذا خرجت الدعوة اليسوعية من مذهب إصلاحي في دين قديم وانسلخت عنه فتكونت ديناً جديداً إليه بدأ القلب الجماعي، في كل هذه الأرجاء التي تجاوبت بالصدى البولسي، يهفو.. وحتماً كان أن يهفو هذا القلب إلى يسوع، فقد جعل بولس يسوع لدى النفس البشرية مقبولاً بهذا النداء الذي لئن كانت إليه قد أصغت طوائف فإنه في منأى عنه وقفت طوائف تجمع منها ببولس أفراد إليه التفتوا له يجيبون:

«أنت تهذي يا بولس!..».

الإصحاح السادس والعشرون من «أعمال الرسل»

ولكن!. هؤلاء الأفراد الذين لم تستجب منهم المشاعر إلى ما انساب من شفتي بولس إنما كانوا الأقلية بالنسبة إلى الجماعات التي إلى مواطن النفس منها قد وجد صوت بولس منفذاً، فما أطلق بولس الصوت منه إلاّ ليخاطب الجماعات بنغمة هي إلى كل هذه الطوائف الجماعية حبيبة، فليس إلاّ بهذه النغمة قد لجّ، في عصر مطلبه الخلاص أرجاء النفس المجهدة الطالبة الخلاص، فإن بولس بإعلانه أن يسوع لم يك لشعب الرب «المسيح المنتظر» فحسب وإنما كان القربان الأكبر لخلاص البشرية قد دفع تيار الإيمان بيسوع إلى هذه القلوب التي ما بدأ إليها يزحف هذا الإيمان ولها مسترسلاً يغمر إلاّ ليتدافع منه الموج ويصطفق بين صدورها هديراً، لا تصمُّ المسمع منها عن تبيُّن مختلف الانغام فيه ومتنافرها التي جمعت في شخصية واحدة عقائد عديدة إلاّ النغمة التي علت على كل هذه النغمات وراح صداها يتجاوب في كل الأنحاء هادرة بأنه ليس إلاّ لغفران خطيئة العالم وما قد جناه البشر من خطايا أرسل الإله ابنه في صورة يسوع!..

بهذه النغمة بدأ تحوُّل المسيحية في سجلّ التاريخ الديني من مذهب إلى دين جديد تحوّلاً به بدأ مزاحمته لأديان العصر ومذاهبه وخاصة الديانة الديونيزوسية والدين السرابيسي والمذهب الأوزيري، فقد اتخذ يسوع في العقلية الجديدة مكانة أوزيريس ومكانة سرابيس ومكانة حورس ومكانة ديونيزوس في العقلية القديمة، حتى إن قرناً من الزمن لم يمض على رواح يسوع في راحة الزمن إلاّ وكان للتبشير البولسي أثره الواضح ونتيجته الملموسة، فقد أصبح يسوع اسماً على شفاه آسيا الصغرى وسوريا ومقدونيا والإغريق وروما ومصر..

أجل... على شفاه هذا الطور من العصر الهلليني الروماني غدا يسوع اسماً تترنم به على اختلافها مختلف الألسن وتستعذب رنته الأسماع وتحتضن الأيدي، والأيام في تيار الزمن

سريعة تسير، إلى الصدور منها ما قد جمع، بعد بولس بحوالي قرن من الزمن، من أقسام «العهد الجديد» إلى جانب الأناجيل التي دفعت كل منخرط في المذهب الجديد إلى اليقين بأن عليه التبشير بما قد جاء فيها من تعاليم ـ ومن ثم ازداد انتشار المسيحية انتشاراً ـ تطورت به من طور المزاحمة لأديان العصر ومذاهبه إلى طور السيادة عليها جميعاً. ولكن!... لئن كانت المسيحية قد تطورت هذا التطور وحتى هذا المدى على يد بولس انتشرت فإنه لهذا التطور كان قد ساهم مساهمة فعلية من قبل ذاك الذي قام فألقى حجر الأساس لهذه القاعدة التي لها قد صاغ بولس ـ ذاك الذي أنكر يسوع وهو أمام «السندهارين» يحاكم وله، كما يذكر الإصحاح الخامس عشر من «إنجيل مرقص»، تنكّر وهو في بيت حنانيا وقيافا يقف مديناً ـ ذاك الذي نعته يسوع، كما يذكر الإصحاح السادس عشر من «إنجيل متى»، بالشيطان قبل أن يعود وينادي يسوع بالمسيح ويكافئه يسوع بأن يختاره الصخرة التي ستُبنى عليها الكنيسة المسيحية.

بطرس

يقيناً لقد كان بطرس الصخرة التي بنيت عليها الكنيسة المسيحية!.. فهو أحد القطبين اللذين بينهما قد شيّدت المسيحية، فإذا كان بولس قطباً فليس إلاّ بطرس هو هذا القطب الآخر، فإنه هو الذي بعد خمسين يوماً من «الصعود» كان يتزعم تلك الفئة من الأتباع التي أمست جبهة قوية وقفت على تام استعداد لمواجهة أي تحدٍ يستنكر بعث يسوع وصعوده جسداً إلى السماء... وهو هو الذي تولى تنظيم الأتباع وإرسال قوادهم إرساليات تبشيرية زحفت بما تحمله من مدد منه مستمد إلى ما وراء أورشليم، وهو هو الذي راح يطوف، حيثما امتدت به الخطى، مبشراً حتى سفح الأكروبول وظلالِ البارثنون وحتى التلال السبعة في روما حتى طواه فيها، سنة ٦٥م، حكم نيرون بعد أن أُلقي الصخرة التي عليها شيّد بولس الكنيسة المسيحية، فليس إلاّ من بطرس كان بولس قد استمد الفكرة التي مثّلت يسوع القربان الأكبر لخلاص البشرية لحظة ولّدت هذه الفكرة في المخيلة البطرسية قارعة الندم التي استحوذت على بطرس، لا فحسب عندما رأى يسوع على الصليب مصلوباً وإنما عندما التقت بعينه عينا يسوع، وهو الذي كان قد تنكر له عند حنانيا وله أنكر عند قيافا، في «الجليل»!. قرعت قارعة الندم صدر بطرس ويسوع يريه ما قد ترك الصلب من أثر في رسغيه فاندفع يصيح:

«أنا الشاهد لآلام المسيح!..».

الإصحاح الخامس من «رسالة بطرس الأولى»

ومؤيداً بمن حوله وقف بطرس يرسل صوته في جموع الجماعات؛ إني حقاً أقول:
«لقد تألم المسيح لأجلنا بالجسد!.».

الإصحاح الرابع من «رسالة بطرس الأولى»

فلقد «رش دم يسوع المسيح لتكثر لكم النعمة والسلام..».

الإصحاح الأول من «رسالة بطرس الأولى»

لافتدائكم أي «شعب الرب» ولافتداء جميع البشر أرسل الإله ابنه ضحية وفداء ـ لغفران خطيئة العالم وخلاصه ـ وهو الطالب الخلاص، أرسل الإله ابنه يسوع! أم هناك شك في أن يسوع هو؛ «الرب ابن اللّه»؟!.

كلا!... لأننا إذ نقول إنه ابن اللّه فإننا؛ «لم نتبع خرافات مصطنعة إذا عرفناكم بقوة ربنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنا معاينين عظمته لأنه أخذ من اللّه الأب كرامة ومجداً إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى؛ هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به.

ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلاً من السماء إذ كنا معه في الجبل المقدس!.».

الإصحاح الأول من «رسالة بطرس الثانية».

كلا.. لا يسألن الفكر بطرس لماذا إذن كان قد تنكّر ليسوع ولماذا إذن كان له قد أنكر؟.. كلا، فحسب الفكر أن يتغلغل إلى نفسية بطرس وهو إليه يصغي مهيباً بمن حوله وفيهم صائحاً:

إذن فآمنوا! آمنوا بيسوع قبل أن يرجع فيدينكم أمام محكمة الرب وإنكاركم إياه ينكركم أمام أبيه فتهوون إلى العدم!..

آمنوا أن يسوع إنما ابن اللّه وابنه الوحيد، آمنوا بالجالس الآن عن «يمين الإله» في سماء إليها أصعده حين بعد موت أحياه!...

سارعوا إلى الإيمان بيسوع فإنه آتٍ!. آتٍ وسيراه العالم أجمع آتياً عن يمين اللّه بقوة ومجد ولا تظنن أن «يوم الرجعة» بعيد فلقد اقتربت القيامة:

«أيها الأحباء إن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة، وألف سنة كيوم واحد! لا يتباطأ الرب في وعده.. سيأتي كلص في الليل يوم الرب الذي تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض... ولكننا بحسب وعده ننتظر سماوات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر..».

الإصحاح الثالث من «رسالة بطرس الثانية»

كلا... لا يسألن الفكر بطرس عمّا يعني بهذا الاحتراق العام وهذا الانحلال للعناصر، فهذا إنما ترديد للعقيدة الرواقية المنتشرة في أرجاء العصر، وإنما الفكر يتابع إصغائه إليه وهو يسمعه مسترسلاً:

آمنوا قبل أن يأتي يسوع ويراه أعداؤه آتياً في السحاب عن يمين اللّه بقوة ومجد فيُدينهم ويحاكمهم!... آمنوا به قبل أن يرجع ويحكمكم، فسيحكم يسوع هذا العالم نفسه ملكاً على عرش داود إلى الأبد!.. إلى الأبد وبذلك يكون قد جاء «ملكوت السماء»!

هذه هي النُواة التي لها في النفس الجماعية كان قد أُلقى بطرس فألقي بها هذا الذي، كما يذكر الإصحاح الثالث من «أعمال الرسل»، قد أُنزلت عليه مائدة من السماء حجر الأساس الذي شاد عليه بولس صرح الكنيسة المسيحية لتقوم على كتفيهما منها الأركان!. - فليس إلاّ ببطرس وليس إلاّ ببولس قد تحولت الدعوة اليسوعية إلى مذهب ومن مذهب إلى دين كنتيجة حتمية للتطواف الذي قام به كلاهما في شتى أرجاء الدنيا القديمة يرسلان، في صورة البشرى بقرب مجيء «ملكوت السماء»، التبشير لمملكة المسيح وينفثان هذه الدعوة في كل متجهٍ بمن تبعهما من الأتباع مبشرين و«أعمال الرسل» و«الرسائل» في «العهد الجديد» تذكر صور هذا التبشير حتى روما وتصور ألوان هذا التطواف في آسيا الصغرى وروما والبلاد الإغريقية حتى مقدونيا، لنرى أثر هذه التباشير في انضمام جماعات من أهل تلك البلاد إلى الكنيسة المسيحية التي قامت، حيثما هبط بطرس وحلّ بولس، كمكان لاجتماع الأتباع في الصلاة والاحتفال «بالعشاء السري» بينما وقف يسوع، حيثما قامت هذه الكنيسة، ممثِّلاً الصلة الواصلة بين الإله والإنسان!..

وهكذا بدأت تسير بالمسيحية الأيام وعيون المؤمنين معلقة «بالسماء» تنتظر «الرجعة» ومجيء «ملكوت السماء» حتى يطالعنا في الطور الثالث من العصر الهلليني الروماني هذا المذهب يطفو لا كمذهب جماعي ولا كعقيدة شخصية وإنما كدين!.. دين إلى نموه عملت، إلى جانب العوامل النفسية والعوامل السياسية، عوامل أخرى تطالعنا في صورة:

العوامل الاجتماعية التي شيّدت المسيحية نيف وقرون ثلاثة استغرق إنماء هذا المذهب إلى دين يبرز في الخضم الزمني للطور الثالث من العصر ديناً إليه قد اجتذب العصر... ولكننا إذا تتبعنا بدقة وإذا بصبر سبرنا غور السبب الجوهري الذي اجتذب إلى المسيحية هذا العصر وجدناه ينحصر في تبشير صاحب هذه الدعوة بنفس المبادىء الرواقية ونهجه في نظرتها الاجتماعية نفس المنهج!.. فإن السرّ في انتظار المسيحية لا ينطوي في أنها جاءت تقوِّم الناحية الأخلاقية فالناحية الأخلاقية، إنما إلى تقويمها كان قد تتابع من قبل المقومون، كلا

ولا السّر في انتشارها يقع في تبشيرها بملكوت السماء، فالملكوت السماوي على المسمع البشري لم يك بغريب كلا ولا فحسب لمناداتها بالخلود، فالخلود عقيدة في ديانات العصر الرسمية ومذاهبه الفدائية كان عقيدة أساسية!.. وإنما.. إنما المسيحية قد نجحت وانتصرت لأنها ضمّت، إلى جانب هذه العقائد، المبدأ الاجتماعي الرواقي المدوي بنداء الحرية الشخصية واللاّاستعباد والمساواة الاجتماعية والأخوية العالمية!... هذا هو السرُ في نجاح المسيحية وانتشارها كدين وخاصة بين جموع الجماعات التي عمل فيها التبشير البطرسي والبولسي، فليس إلاّ بهذه النغمة، التي رنّت في أعماق هذه الطبقة المكوّنة الناحية المهضومة بما تضم من سوقة وعمال وعبيد فاستجابت لها، حلّت المسيحية في صدور ورثة الأديان القديمة ومتوارثي المذاهب الفدائية ولكن لا لتعتنقها مذهباً اجتماعياً، شبيهاً بالرواقية، وإنما!.. إنما، والمحور من هذه التعاليم شخصية تتلاقى فيها كل المعتقدات القديمة وبها تهب على العصر هبّات انتعاش، تنفث في موروث المعتقدات روح الجدة، وجدت هذه الجماعات نفسها أنها باعتناقها المسيحية لا تفقد إيمانها القديم ولا تفقد قديم معتقداتها، كلا! وإنما على النقيض وجدت نفسها أنها باعتناقها المسيحية لا تدين فحسب بنفس معتقداتها وإنما تُدعِّم وتؤكد هذه المعتقدات بالإضافة إلى أن الإيمان بالمحور الجديد كفيل بما تنشده من مساواة اجتماعية وما إليه تصبو من حرية فردية!

هذا هو السبب الجوهري في نجاح المسيحية وهذا هو في انتصارها السرُ المتلخِّص في اتخاذها قانون الأخوة والمبدأ الاشتراكي الرواقي كتعاليم جاءت عن لسان شخصية عرفت بنوتها للإله ولم يفتقد فيها العصر عقائده الدينية ومعتقداته المذهبية!..

أجل... لا ثمة شك في أن الجانب الاشتراكي الرواقي إنما مفتاح السر الذي يطلعنا على العامل الجوهري الذي بسببه غمرت المسيحية القلب الإنساني حيثما امتد باتباعها لها تبشير به يطالعنا:

قانون الأخوة والجانب الاشتراكي في المسيحية...

بهذه الأُخوة التي تنادي بها المسيحية وتجعلها لأتباعها شريعة وبهذه المساواة التي تعلن بها حقوق الفرد وتجعل بها الأفراد سواسية وبها تساوي في الحقوق بين الطبقات قاطبة مساواة لا سيّد فيها ولا مسود ولا عبد فيها ولا أمة، اجتذبت إليها الطبقة الكادحة العاملة أو بالأحرى هذه الطبقة المغمورة التي تمثِّل الأساس من صرح الاجتماع، فقد عمل التبشير عمل البلسم في النفسية الجريحة فاجترفها إليه بهذه المبادىء الاجتماعية الآتية بنظام اجتماعي إليه وجد نفسه القلب الكسير يسكن ويستكين..

من ثم كان تكاثر المؤمنين من الطبقة المغمورة بالدين الجديد المتخذ المبدأ الرواقي لصرحه أساساً تكاثراً كان حتماً أن تلتفت إليه في تنبُّهٍ الطبقة السائدة، ولكن لا لتستنكره استنكارها له من قبل وتصفه «دين فقراء وجهلة» وإنما حذرة إليه تنبّه تخشى منه على سلطانها النتائج، فقد رأت أن في اعتناقه من هذه الطبقات الكادحة والمحرومة نذيراً بانقلاب الأوضاع الاجتماعية!.. ومن ثم حاربته كنظام اجتماعي يهدد النظام السياسي الحاضر وقط لم تحاربه كدين، فلم يك العالم الروماني بادىء ذي بدء ليعرف من أمر المسيحية إلاّ أنها للعبرية امتداد قبل أن يعرف أنها دين يعتبر قيامه لأديان العصر ومذاهبه الفدائية إفناء!.. ونفس الحالة النفسية التي امتلكت المسيحية من بعد عندما أصبحت ديناً رسمياً قام يضطهد مَنْ به لا يدين امتلكت الطبقة السائدة من الرومان ضد هذا الدين عند قيامه فحاربته وتطوّرت هذه المحاربة إلى لون من الاضطهاد تتجلّى أسبابه في ضوء التاريخ السياسي في العهد النيرونيّ من العام الرابع والستين للميلاد... فإن النار التي أضرمت في عاصمة الإمبراطورية واضطرمت فترة من الزمن استغرقت ستة أيام وعلى من استطاعت فيها أن تأتي أتت إنما السبب الحقيقي الذي ألهب الرومان غضباً حوّلهم، والمنطق منهم لا يقبل أن يدمِّر الإمبراطور الصرح الذي تقوم في أرجائه امبراطوريته فتهوي له سيادة وينهار له سلطان هو بهما جد مولع، يصبّون نقمة غضبهم على من يلقونه من المسيحيين الذين كانوا قد تكاثروا في روما والذين عليهم ألقت اليد النيرونية تبعة إحراق إمبراطوريتها!.. هذا هو السببِ الجوهري الذي جاء بأول مظهر رسمي من مظاهر الاضطهاد الذي أصاب المسيحية غداة أُلقي السبب في إحراق روما على عاتق المسيحية الممثَّلة بهذه الفئة المنتشرة في عاصمة الإمبراطورية تضمر للسيادة الرومانية العداوة وتهدف إلى تقويض الإمبراطورية القائمة لتقيم محلّها لها إمبراطورية لها حقّقت من بعد في صورة الكهنوت القائم حتى حاضر عصرنا على أنقاض «الكابيتول» من خلفاء يسوع.

للسبب، بدأ عهد التنكيل والاضطهاد الذي أصاب المسيحية وللسبب بدأ صد تيار هذا المذهب الديني المحاول هدم صرح الإمبراطورية القائمة بما اعتنقه من أصول المبدأ الرواقي، والسبب إنما السبب الذي، في ضوء التاريخ السياسي الصحيح، قد عانت بسببه المسيحية صداً!..

ولكن!. محاولات الصد من جانب وحالات الاضطراب من جانب آخر كانت بمثابة تحفيز للمسيحية على الاستمرار في امتدادها وإلقاء بذور دعوتها حيثما وجدت الفرصة السانحة وأينما لقيت التربة القابلة وبذلك ازدادت امتداداً حتى المدى الذي خشي الحكم القائم له مغبة، فوضع في القرن الثاني للميلاد وفي عهد تراجان ١١٧ م، المبدأ القائل إن اعتناق المسيحية كفر وعقوبة الكفر الإعدام!

ولكن! إلى استئصال المسيحية دونما إراقة للدماء نزع الحكم السياسي في أكثر عهوده، فإلى حالات الإعدام لم يؤد إلاّ تزمت الدهماء بينما ارتدت هذه الحالات عن أن تصيب من كان قد اعتنق المسيحية من الطبقة المثقفة، فقد قرّر الحكم القائم، المتمثّل أيضاً بتراجان نفسه، ألا يتعقبها وعلى ذلك شاهد ما قد أرسلته هذه الطبقة من «الدفاعات» التي حاولت بها دحض التهم الموجهة إليها عن طريق الإشادة بالعقيدة المسيحية في مهاجمة للامسيحي من المعتقدات... ومن ثم فهذه «الدفاعات» إنما شاهد، في ضوء التاريخ الصحيح، على أن المسيحية قد أظلّها الأمن وأنها لم تحارب، بادىء ذي بدء، كدين وإنما كمذهب اجتماعي منه خشي الحكم السياسي القائم مغبّة. وتؤيِّد هذه الشهادة أن الكنيسة في غضون ذلك العهد قد بدأت تنظِّم نفسها علانية وتنظِّم اجتماعاتها جهارة وتتعهد شؤونها الدينية دون خشية التدخّل من السلطات ولكن!... لم يبدأ من المسيحية يستتب الوطاد إلاّ برجالٍ كان التراث الفلسفي، وخاصة الرواقي المتخذ أساساً لمذهبه عقيدة اللُّوغوس أو الكلمة، لهم إرثاً وفيهم وبينهم مشاعاً غداة إلى ذلك عملت تلك الشخصية التي طلعت في مطلع القرن الثاني م. تحمل أيضاً اسم يوحنا والتي بسببها تطالعنا:

العوامل الفكرية التي دعمت المسيحية، مزج فكرة «الكلمة الرواقية» بفكرة «المسيح العبرية»، صياغة يوحنا «الكلمة» بشراً

إلى جانب العوامل الاجتماعية، التي سببت انتشار المسيحية بين الطبقات الكادحة من المجتمع، كانت هناك العوامل الفكرية التي سبّبت انتشار المسيحية بين الطبقات المثقفة والتي عملت على نشرها في هذه الناحية من مجتمع الطور الثاني للعصر الهلليني الروماني، فإنه إذا كانت المسيحية قد انتشرت في الجانب المهضوم من هذا المجتمع بأسباب أهمها ضمها لمعتقدات العصر المبدأ الاجتماعي الرواقي، فإن المسيحية لم تنتشر في الجانب المثقف من هذا المجتمع إلاّ بسبب جوهري واحد يتلخّص في:

إظهار يسوع بمظهر «اللُّوغوس» الإغريقي أو «الكلمة» الرواقية

إلى إظهار يسوع بمظهر «اللُّوغوس» الإغريقي أو «الكلمة» الرواقية يعود السبب الأساسي في إيلاج المسيحية إلى النواحي الفكرية وانتصارها في هذه النواحي كدين، كما إلى نفس العامل يعود السبب في حلولها محل ما قد عرف العصر من مذاهب فكرية وفكريّ اتجاهات... فليس حجر الأساس في بناء الصرح المسيحي في الأرجاء الفكرية إلاّ... «الكلمة»!.

في الرابع من الأناجيل المعتمدة والعائد بتاريخه إلى القرن الثاني م. والمسطّر على الضوء المتلاشي للفلسفة الإغريقية والرواقية يشمخ عالياً هذا الصرح الذي له قد بنى يوحنا.. فحتى

مجيء يوحنا كان يسوع يعتبر، في الدوائر التي اتخذته محوراً، «المسيح» شخصية دُثِّرت بالدثار الإلهي، فهو رب مات ليفتدي بنفسه الإنسان ومن الموت قام ليمنح الناس الخلود... ولكن!... بين الزمنين، زمن بولس وزمن يوحنا، تفصل للتطورات الفكرية ألوان.. فالأيام بالأيام قد سارت ومن بولس حتى يوحنا جرت وبالعين المعلّقة بالسماء قد طال انتظار «الرجعة» وقيام مملكة المسيح، ومن ثم كلّت هذه العين عن الانتظار فتراخت... وهكذا أصبح أمر «الرجعة» أمراً لئن كان غير ميؤوس فإنه قد تحوّل إلى رجاء كان نفسه السبب في تحويل هذه العقيدة إلى تيار جديد ذابت فيه عقيدة «الرجعة» في إرجاء!...

أجل... بالأيام سارت منذ بولس حتى يوحنا الأيام، فغاب زمن تطلّب فيه إظهار يسوع بالرغم من عدم مسحه باليد الكهنوتية، «بالمسيح المنتظر»، وأشرق عهد تمكنت فيه، في الدوائر الفكرية، من العقل البشري فكرة «اللُّوغوس» كواسطة بين الإله والإنسان، فكان المطلب الذي بسببه تطوّر التفكير في النطاق المسيحي إلى إظهار يسوع بأنه هو وحده الواسطة بين الإله والإنسان، ومن ثم فالمسطِّر للإنجيل الحامل اسم يوحنا الذي امتدت يده تجمع جميع التيارات السابقة، في عهد كان يدور فيه التفكير الفلسفي حول «اللُّوغوس» في انقسام إلى رأيين رئيسيين يتراءى في أحدهما «اللُّوغوس» ابن اللّه وفي الآخر نفس اللّه، وتحدَّد لهذا الجمع غاية تحصرها في يسوع وتنسج من الرواقية والفيلونية معاً دثاراً تلفه به وتجعله يتراءى هو «الكلمة» وتجعل «اللُّوغوس» فيه قد تجسّد فخضّب المسيحية بألوان الفلسفات، وإنما إلى إنجيل يوحنا يعود السبب في إيلاج المسيحية إلى النواحي الفكرية وإرساخها في هذه النواحي كدين...

تحت ضغط من روح العصر كان حتماً أن تمتد اليد التي سطّرت الإنجيل اليوحني وتنسج من المدد الرواقيّ والفيلونيّ رداء تغلّف به يسوع تغليفاً يتراءى من ورائه صورة فيها قد تجسّد «اللُّوغوس» ما دامت شرعية المسيحية، في هذا العهد الذي كان يدور فيه التفكير البشري حول «اللُّوغوس» أو «الكلمة» تتوقف على الإيمان بأن «المسيح» هو حقيقة «ابن اللّه» والواسطة الحقيقية بين الإله والإنسان!..

ومن ثم فمن مدد فيلونية جاءت تحاول مزج الدين بالفلسفة فقالت «بالكلمة» قولاً لم تقف عنده الرواقية بل امتدت فجعلت «الكلمة» اللّه، استهلّ الفكر اليوحني تسجيله تلك السطور القائلة:

«في البدء كان الكلمة ـ والكلمة كان عند اللّه ـ وكان الكلمة اللّه!..»

الإصحاح الأول من «إنجيل يوحنا»

بهذا الاستهلال المسجّل للحيرة اليوحنية بين الفيلونية والرواقية ومحاولة الجمع في وحدة غير متنافرة بين صياغتين متنافرتين؛ «الكلمة» وعقيدة «المسيح» ـ استهل يوحنا، في إشاحة عن منطق فلسفي يرفض للعقيدتين جمعاً، بشخصية يسوع «الكلمة» بشراً وفي غير حيرة بادية واصل المحاولة وجمع في وحدة العقيدتين عبر منطق له استرسل يقول:

«والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا!.»

الإصحاح الأول من «إنجيل يوحنا»

أوشك في أن «الكلمة» صارت جسداً حلّ بيننا؟! يقيناً إن بالسلب يأتي المنطق اليوحني، فمن الينبوع المنطقي للعصر يستمدّ المنطق اليوحني حجته فيرى أنه إذا كانت «الكلمة» في الاعتبار الفلسفي هي اللّه تارة وتارة ابن اللّه وإذا كان «المسيح» في الاعتبار الديني المسيحي هو اللّه وابن اللّه، فلا ثمة شك في أن عند نقطة واحدة تلتقي بالمسيحية للعصر فلسفة حتى ليتجلّى «المسيح هو نفس» «الكلمة» وأن «الكلمة» فيه قد تجسّد فصار بشراً، ومن ثم فالمنطق لا يرفض القول بأن: «المسيح» هو «الكلمة»!..

وهكذا صاغ يوحنا «الكلمة» بشراً!.. أجل... صاغ يوحنا في المسيحية «الكلمة» بشراً وجمع في شخصية واحدة «المسيح» و«الكلمة» فجمع بين عقيدتين متناقضتين، ولكنه بذلك تمكّن من إيلاج المسيحية النطاق المنطقي للاهوت العصر الهلليني الروماني وعلى ذلك لم يجد اعتراضاً، فإن للعصر منطقاً يقول بحلول اللاّهوت في الناسوت وإن في الإنساني يحلّ الإلهي، وأن افتداء البشرية من ثم الخطيئة وخلاصها بالفعل لا يتم عملياً إلاّ بموت واحد عن واحد، ومن ثم فإذا قال يوحنا إن «الكلمة» قد تجسّد فصار بشراً ليموت فيفْتَدي العالم وإنه بنفسه قد ضحّى «الكلمة» لخلاص البشرية، فليس إلاّ ليلقى من الجموع التي تؤلف الدائرة الفكرية للعصر إجماعاً على أن يسوع هو؛ «الكلمة»!

بالخضاب المنطقي لروح العصر تخضب الإنجيل اليوحني بمحاولته التوفيق بين الرواقية والفيلونية والمسيحية، فأمام فلسفة رواقية متغلغلة رسخت كلمتها في أن «الكلمة» هو اللّه ونظرة فيلونية تنحصر كلمتها في أن «الكلمة» هو ابن اللّه وفي نطاق ديانة مسيحية أول شرط من شروط الإيمان بها اعتناق عقيدتها الجوهرية بأن يسوع إنما «المسيح» وأنه ابن اللّه وفي نفس الآن نرى الإنجيل اليوحني مزيجاً من المذاهب الثلاثة وعلى صفحاته تتلاشى تمام التلاشي الفروق القائمة بين كل هذه الاتجاهات الثلاثة على حدة فعبر السطور من هذا الإنجيل نجد المنطق اليوحني يجري مسترسلاً يحاج:

إن «المسيح»، كما تؤكد المسيحية كدين، هو ابن اللّه وفي نفس الآن هو اللّه، وهذه إنما عقيدة تتفق والنظرة الفلسفية للعصر سواء اتجهت هذه النظرة إلى الرواقية أو إلى الفيلونية، فإن «الكلمة» كما تقول النظرة الفلسفية للعصر، شيء صادر عن اللّه صدوراً ذاتياً، والشيء الصادر عن المصدر إنما صنو المصدر، فإن «الكلمة» لا يحمل في طبيعته فحسب طبيعة الإله وإنما في حقيقته هو اللّه!. ثم، و«الكلمة» قد صدر عن اللّه صدوراً ذاتياً وانفصل عنه فتكون شيئاً، يكون هذا «الكلمة» هو «المسيح» ويكون المسيح، تحت هذا الاعتبار، نفسه ابن اللّه ونفس اللّه!..

هكذا من مدد الرواقية والفيلونية، سار المنطق اليوحني في الإصحاح الأول من إنجيله مسجلاً؛ في البدء كان الكلمة ـ والكلمة كان عند اللّه ـ وكان الكلمة اللّه!..

وهكذا بالصبغة الفلسفية اصطبغت الأُلوهية في أكثر الأناجيل اعتماداً ومرجعاً وبعد أن كان «الكلمة» في البدء عند اللّه، تحول فصار «الكلمة» اللّه:

«والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الأب مملوء نعمة حقاً!...».

الإصحاح الأول من «إنجيل يوحنا»

من ثم فيقيناً إن في «المسيح» قد حلّ «اللُّوغوس» وإن اللّه على الأرض، في صورة يسوع، قد تجسّد بشراً..!

الخلاصة هذا المنطق سطّر الإنجيل اليوحني فأدخل على المسيحية عنصراً دخيلاً أضحى به لها العقيدة الصحيحة في تفكيرها الإلهي ومعتقدها الديني وبذلك طلعت على دنيا العصر الهلليني الروماني:

عقيدة الثالوث والتثليث في المسيحية

إن المنطق اليوحني يجري في إنجيله مؤكِّداً أن اللّه، ومن اللّه قد انبثق «الكلمة» هو عقله الذي يقف منه بمثابة الابن، هو الابن وأن الابن، والابن وليد الروح القدس في الإله، هو اللّه!.

وعلى الأسس من هذا المنطق يسترسل التفكير اليوحني فيقول: ومن ثم، ولا فرق بين اللّه والابن والروح القدس، فإنه إذا كان اللّه هو «الواحد» فهو في الحقيقة إنما متمثِّل في أقانيم ثلاثة تكون، بين التثاليث، هذا الثالوث:

الأب والابن والروح القدس!

وإلى عقيدة عُقِّد هذا المنطق وغدا العقيدة الصحيحة في المعتقد الديني والتفكير الإلهي المسيحي...

وهكذا نرى في نطاق الدين قد رسخت «الكلمة» كأصل للوجود وأن بها قد تم تكوين ثالوث أقدس تؤلفه وحدة لا تفرقة فيها بين ما يؤلفه من ثلاثة أقانيم، فهو ثالوث يكوِّن رأس العقيدة في اللاّهوت المسيحي بتألفه من:

اللّه والكلمة، اللُّوغوس، أو المسيح، والروح القدس!

وهكذا عن طريق تجسيد «اللُّوغوس» في «المسيح» دُعمت أُلوهية يسوع، ففي الذات الإلهية عن طريق هذا التجسيد أُدمجت إدماجاً شخصية يسوع وقرّبت بين الطبيعة الإلهية والإنسانية فيه حتى الاتحاد وعن طريق هذا الاتحاد، اتخذت عقيدة تجسد «اللُّوغوس» في «المسيح» صفة شرعية جعلت القول بتأليه يسوع وبنوة يسوع للإله يبدو كل الشرعية شرعياً!.

وهل من اعتراض؟!.. يقيناً إن بالسلب يأتي أيضاً الجواب، فإن «اللُّوغوس»، «اللُّوغوس» الذي تعرفه الرواقية المنتشرة وتعرفه عنها عقلية العصر وينعته نعتها بابن اللّه أنا وأنا اللّه... هذا «اللُّوغوس» الذي كان في البدء مع اللّه والذي منه كل شيء كان والذي يضيء بنوره العالم إنما قد تجسّد في يسوع ويسوع إنما «المسيح»، ومن ثم فيقيناً إن؛ المسيح هو اللُّوغوس ابن اللّه ونفس اللّه!

بإظهار يسوع تحت هذا المظهر تنطوي أهم العوامل الفكرية في انتصار المسيحية كدين في الرحاب الفكري للعصر وحلولها محل ما قد عرف العصر من مذاهب فلسفية وفلسفي اتجاهات...

ولكن! للحظة يُطرق الفكر مفكّراً في أمر هذا «الكلمة»..

وللحظة يستغرق التفكير مستعرضاً نشأة العقيدة عن هذا «الكلمة» مذ طوّفت على الجبين البشري في مصر القديمة واحتضنها لاهوت منفِ وأصبحت في الدين المنفي جوهرية حتى تحولت في هذا الطور من العصر فتركزت في شخصية نفث بها يوحنا في العقيدة القديمة روح اليقين!.. وفي أمر هذه الصيغة التي صاغها يوحنا يطيل الفكر التأمل فيأتيه من أعماق الحقيقة سبب جوهري آخر لانتصار المسيحية على ما سواها من المذاهب العقلية والدينية وقبولها من سائر طبقات المجتمع، دينية وجماعية وفكرية... فليس إلاّ بسبب قولها «بالكلمة» وإبرازها يسوع الحقيقة الشخصية لهذه الفكرة التي عقدتها الأجيال في طيات الوجدان البشري إلى عقيدة، وليس إلاّ بسبب تحوّل «الكلمة» إلى يسوع ويسوع إلى «الكلمة» ـ

وليس إلاّ بسبب ما اتخذه «الكلمة» في أرجاء العصر من شكل ملموس تحوّل به من طيف أسطوري إلى شخصية تاريخية وجدت المسيحية طريقها إلى الوجدان واحتل القائم باسم هذا المذهب من هذا الوجدان الأركان ليبدأ بهذا الانعطاف الوجداني تاريخ رسوخ الدين المسيحي!.. ولا غرو أن يبدأ بتجسيد «الكلمة» في يسوع تاريخ رسوخ المسيحية كدين، إلى رسوخه قد هيأت عوامل أخرى ساهم في رسوخها ذلك المذهب الذي بسط على أرجاء الشرق القديم موجة أخرى طاغية من أمواج الزهد ونعرفه باسم:

«الغنوسطية» أو المعرفية

لقد تقدّم هذا المذهب أو بالأحرى هذه النزعة الصوفية مولد يسوع بزمن قصير وكان غرض مؤسسيه في مصر القديمة وسوريا وفي الإغريق استخلاص المعرفة من جميع العقائد التي كانت مرعية بين أمم هذه الحضارات ومن ثم أخذوا من العقائد والأديان والفلسفات المنتشرة وخاصة الفيثاغورية القدر الذي مكنهم من تكوين عقيدة بهم خاصة، ولهذا جاء مذهباً شبيهاً بنحل الزهاد منه بالمفكرين ولما شاعت المسيحية آمن بها أكثر **المعرفين** وأدخلوا فيها التوفيقات بين الفلسفة والدين وكان إمامهم الأكبر «فالينتيوس»، من الإغريق المتمصرين، فافتتح في روما، سنة ١٤٠م، مدرسة لتعلم مذهبه الذي تطالعنا به خلاصة المذهب المعرفي الذي يتلخص في:

إن العالم يعود بنشأته إلى أزل لم يك فيه موجوداً إلاّ:

«الأب السرمدي».

ومن «الأب السرمدي» ولد «العقل».

و«العقل»؟.. العقل ندٌّ للأب السرمدي لأنه عقله الذي تُعرِّفه «المعرفية» تحت اسم: **«الكَلِمة»**

و«الكَلِمة»؟... «الكلمة»، وقد شاعت المسيحية بين المعرفيين، قد غدت لدى هذا المذهب إنما، المسيح!

وعبد الغنوسطيون «المسيح» على أسس عقيدتهم الجوهرية بأنه هو «الكَلِمة» كأول انبثاق للألوهية ظهرَ على الأرض ليخلِّص الإنسان من الخطيئة... ولكن!.. الخطيئة لدى المذهب الغنوسطي ليس مصدرها هبوط آدم وحواء من «الجنة».. كلا! ليس الوجود لدى المعرفيين إلاّ الخير، فلقد انتقدت الغنوسطية العقائد الموسوية واستهجنت القصاص المادي واستنكرت القرابين الدموية واستخفت بالطقوس العبرية ورأت فيها بعداً عن الفضيلة وقط ليست وسيلة لكبح الغرائز بل وانتقدت قصة الخلق الموسوية وتعجبت من العقيدة التي قول إن الإله قد

ارتاح بعد خلقه العالم في ستة أيام!.. بل انتقدت قصة خلق آدم ومن ضلع آدم خلق حواء!.. واستخفت بقصة «الحية» التي «تكلمت» في الجنة!. ومن شجرة الحياة!.. وانتقدت عقيدة الخطيئة التي صُبّت على الأبناء جزاء خروج أبويهم من الجنة!.. بل انتقدت الغنوسطية العقيدة الإلهية الموسوية وقالت إن رب إسرائيل إنما خاضع لعمل العاطفة ومن ثم فهو عرضة للخطأ!.. غيور! عنايته قاصرة على شعب واحد! وليس في دينه من مظاهر الحكمة الواجبة «للأب العالمي» أو هذا «الأب السرمدي» الذي لديه كل الناس سواسية وله أبناء والذي منه وُلِد «العقل» أو «الكلمة» وتجسّد صورة بشرية لخلاص الإنسان من الخطيئة في شخصية يسوع وتحت مظهر «المسيح»!..

أجل.. في رسوخ المسيحية كدين أسهم المذهب الغنوسطي باستدارته من حول «الكلمة» واعتباره «الكلمة» صورة متجسّدة في يسوع وأن يسوع هو «المسيح»، فإن المذهب الغنوسطي الذي تفرّع إلى أكثر من خمسين فرقة ولكل فرقة من هذه الفرق كان قساوستها والتي كانت قد انتشرت غامرة أنحاء الشرق القديم تبذر حيثما انتشرت هذه العقيدة الجوهرية القائلة بأن الكلمة هو «المسيح»، إنما قد أسهم مساهمة فعلية في إرساخ المسيحية، كما إلى ذلك قد هيأ تميز أفراد هذا المذهب الورع والتقوى والزهد المضمر والبارز حتى أنهم وقفوا صورة صحيحة للقيم الأخلاقية وكانوا أجدر من سواهم بنعت أتباع يسوع، ثم إنهم لما كانوا لا يتحيزون لشعب دون شعب، فقد انتشرت بهم سريعة هذه العقيدة الأساسية حتى غمرت أجزاء من آسيا وأجزاء من مصر وحتى توطدت في روما!.. بل وكثيراً ما امتد المعرفيون إلى أقاليم الغرب ينشرون هذه العقيدة القائلة «بالكلمة» والإيمان «بالمسيح» ويمثلون امتداداً لمذهب قديم بدأ له تكوين أيضاً في النصف الأخير من القرن الثاني ق.م وكان له أعمق الأثر في قبول فكرة «المسيح» كما إلى قبول هذه الفكرة كان قد هيأ الأذهان قبل أن تطويه على شاطىء البحر الميت راحة الزمن ومن وثائقه التي وجدناها، حديثاً، في كهوف أحد عشر تقع بين أورشليم وبيت لحم نعرفه باسم:

المذهب الأسينيّ

إن «وثائق البحر الميت» التي كانت تؤلّف المكتبة الأسينية والتي كان أودعها الأسينيون صدور الكهوف، عندما هاجمهم الرومان سنة ٦٨ م، ظناً منهم أنهم إليها سيعودون فحال بينهم والعودة ضباب الزمن وطواهم ليلقي إلينا عبر المعاول الأثرية صورة من مذهب صوفي لئن انتمى أصحابه إلى الشعب العبري، فإنهم عن الموسوية قد انسلخوا بما أتوا به من تعاليم أهمها خلود النفس ويوم البعث والقصاص الأخير في يوم حساب يعاقب اللّه فيه المسيء ويثيب الخير والعدل.. هذه «الوثائق» لا تطلعنا فحسب على الشعائر التي جاء بها هذا

المذهب الذي انفرد بكهنوت به خاص وكان مؤسسه كاهن يُنعت «بالمعلِّم» راح يلقي تعاليم نجدها من بعد في المسيحية وكأنها منها رجع الصدى وأهمها شعيرة، «العماد» التي استمدها يوحنا المعمدان وإن كان قد قصرها على مرة واحدة في العمر بدلاً من تكرارها يومياً، فقد كان، كما يأتينا التأكيد من المؤرخ العبري يوسيفوس، على كل أسيني العماد فريضة كل يوم.. كلا، وإنما تطلعنا هذه «الوثائق» على شيء أهم وأخطر وهو تهيئة هذا المذهب للأذهان قبول فكرة «المسيح»، فما كان اختيار الأسينيين هذه العزلة من شاطىء البحر الميت وما كان اعتزالهم العالم وسكونهم في عزلتهم يتعبدون إلاّ انتظاراً لظهور «المسيح المنتظر» الذي بالتبشير به وإليه انطلقت حناجرهم مدوية في مستهل العهد الهيرودي، فقد بلغ هذا المذهب أوجه في عهد هيرود الأكبر الذي في عهده كان قد ولد يسوع ولتدوي من هذه الحناجر الأصداء تتردد في آفاق سوريا ويلتقطها منا المسمع ونحن نتبع خيوط الارتحال الأسيني إلى سوريا في عهد هيرود الأكبر تحت قيادة «معلم» آخر كان ينعت «النجم» توكد حيثما حلّت عقيدة ظهور «المسيح»!.

هذا هو أهم أثر تركه المذهب الأسيني بتبشيره بهذه العقيدة التي أكّدها المعرفيون الذين تجلّى بهم المذهب الغنوسطي واضحاً على صفحة التاريخ الديني في غضون القرن الثاني م. وشاع في أرجاء من الشرق القديم وأنحاء من الغرب القديم والذي، قبل أن يتهافت ويخبو في القرن الرابع، راح حيثما حلّ يساهم في نشر المسيحية وخاصة في غضون القرن الذي ازدهر فيه تمام الازدهار، القرن الثالث م. القرن الذي امتلكت المسيحية فيه ناصية التفكير للعصر امتلاكاً بدأت به لا فحسب سيادتها على مذاهب العصر الفدائية وأديانه الرسمية واتجاهاته العقلية وإنما حلولها محل كل ما قد عرف العصر من ألوان هذه الاتجاهات والمذاهب والأديان.

أجل... حتى القرن الثالث م. كان محرّماً الجهر باعتناق المسيحية والاعتراف بها رسمياً كمذهب طغى في خضم المذاهب الجارية والأديان القائمة ديناً ولكن هذا الدين كان يعمل، خلال هذه القرون، في مثابرة وجدّ وإليه يجتذب بكليتها طبقات هذا المجتمع من العصر حتى أشرق في مغرب العصر ديناً لم يحل محل أديان العصر ومذاهبه إلاّ كنتيجة حتمية لأحداث العصر التي بها تطالعنا:

العوامل السياسية والدوافع الوجدانية التي وطدت المسيحية من ثنايا التاريخ السياسي والاجتماعي للعصر

تطالعنا هذه الحقيقة التاريخة وهي أن المسيحية إنما مذهب تاريخ رسوخه كدين تاريخ

الفوضى في السياسة وشامل الاضطراب الوجداني في المجتمع، فإن القرنين الأولين للميلاد، اللذين انتهيا بالأباطرة الأنطونيين وفي غضونهما ترك الرومان أثر في العالم، قد أعقبهما قرن شمل الفوضى في السياسة والاضطراب في سائر مرافق المجتمع، وهذا نفسه هو هذا القرن الذي في غضونه تحوّل المذهب الجاري من أورشليم يحمل اسم المسيحية إلى دين بدأ، في هذا الخضم الزمنيّ وفي هذا المزدحم الهائل للمذاهب الفدائية، مزاحمته لها حتى حلّ محل أديان العصر ومذاهبه عن طريق انتشاره بين الطبقات المؤلفة الناحية الممثلة من المجتمع البشري الأساس؛ «طبقة العبيد» المتمردة على السادة، و«طبقة الجيش» الثائرة على عرش له أصبحت في ذلك العهد تمتلك وفيما بينها تنزله بيعاً في المزاد...

في هذه الفترة الزمنية التي فقدت فيها الإمبراطورية الرومانية استقلالها وبالتالي مهابتها وافتقد الكائن البشري شعوره بالحرية والاستقلال الذاتي فأضحى بؤسه الاجتماعي سبباً ليأسه النفسي وأمسى القلب الجماعي يعاني العناء، دفعت الأحوال النفسية الإنسان إلى نشدان الخلاص نشداناً تلمسه في هذه الفترة أكثر من أية فترة مضت فراح يستشعر حاجته الماسة إلى مذهب يكفل له الراحة الاجتماعية والراحة الروحية في نفس الآن... مذهب لا يفتقد فيه عقائده القديمة وفيه يجد المبدأ الرواقي الكافل الحرية الفردية والاستقلال الذاتي، وليس هناك فيما قد عرف من مذاهب فدائية وأديان، مذهب أو دين يكفل له ما تكفله له الرواقية إلا المسيحية!..

في هذه الفترة التي راح فيها الوجدان يتلمس مذهباً يجمع بين دعوته إلى التخلص من الوجود الخارجي باعتباره شراً وبين المبدأ الرواقي، فكانت حيرته بين دين ودين ومذهب ومذهب وجد نفسه تحتضنه المسيحية، فهو فيها لا يجد فحسب نفس عقائده بل على النقيض يجد فيها قد تجسّدت أمامه عقائده بالإضافة إلى أنها مذهب إليه يجيء بالمبدأ الرواقي ويتخذ لاعتناقه أساساً هذا المبدأ الكافل للفرد حريته الشخصية واستقلاله الذاتي!..

أجل... لقد لعبت المذاهب الفدائية، المتخذة محوراً ابن إله من عذراء وتجسّد رب على الأرض وموته وصعوده إلى السماء في رحاب أبيه السماوي مانحاً تابعيه نعمة الخلود ونعته «سيداً شهيداً» دورها في تشكيل الاتجاه الإيجابي نحو المسيحية، ولكن الدور الفعّال في تشكيل هذا الاتجاه إنما قد لعبه المذهب الرواقي وعلى إبراز ذلك عملت الدوافع الوجدانية فتجلت المسيحية أمام عقلية العصر ديناً فيه تلاقت أديان العصر ومذاهبه، ومن هنا كان حلولها محلها في اجتراف لها لا لأن المسيحية دين محوره في نفس الآن ابن إله وعذراء ورب على الأرض تجسّد ومات «شهيداً» وصعد إلى السماء في رحاب أبيه السماوي مانحاً

تابعيه نعمة الخلود ولا فحسب لأن هذا المحور يقوم على شخصية تنفسّت عن وجودها أرجاء العصر وإنما لأن هذا المحور، أيضاً قد تجسّدت حقيقة مشخصة العقيدة الرواقية القائلة «بالكلمة» فهو... هو «الكلمة»!... هو «الكلمة» الذي يحتم الإيمان به اعتناق المبدأ الرواقي واتخاذه شريعة الأخوة العالمية قانوناً!..

لا ثمة شك في أن السبب في اجتراف المسيحية لأديان العصر ومذاهبه يعود إلى هذه العقيدة التي عقّدها «يوحنا» في إنجيله وهي أن «المسيح» هو «الكلمة» الذي تجسّد على الأرض ليعلن قانون المساواة والأخوة على سائر القوانين، إلاّ أن على تحديد هذه الاتجاهات وهذه العوامل وتكوينها كانت قد عملت العوامل السياسية أيضاً في هذا الطور لتكون بدورها السبب الأساسي الذي نال بها الدين المسيحي على الأديان هذا الانتصار الذي عززه «ثيودور» الأول، ٢٩٤ م. غداة اعتنق المسيحية استجابة لروح العصر ومطالب السياسة، وليؤكّد هذا الانتصار ويترك طابعه على الزمن مسير الأيام من القرن الثالث إلى الرابع وسير السنين إلى السنة ٣٠٦ م، التي أصبح قسطنطين إمبراطوراً واستعاضت شفاه الزمن اسم بيزنطة بالقسطنطينية التي قامت تحمل اسم العاصمة الشرقية للإمبراطورية الرومانية، فالأيام لم تسر غضون هذه الإمبراطورية إلاّ لتطالعنا بأخطر ظاهرة حتمت رعاية المسيحية والاعتراف بها مذهباً شرعياً فإعلانها ديناً رسمياً لهذه الإمبراطورية، هذه الظاهرة لا تتجلى فحسب باجتذاب المسيحية للنفس المهضومة في أرجاء هذه الإمبراطورية بتلك المبادىء الاجتماعية المرددة التعاليم بالمساواة والإخاء والمرددة لتعاليم روحية تنادي بالخلاص والخلود حتى غمرت الجانب المغمور من هذه الإمبراطورية، ولا فحسب بتلك العقيدة التي امتزجت فيها عقيدة «المسيح» العبرية بعقيدة «الكلمة» الرواقية واجتذبت إليها الناحية المثقفة كلا، وإنما هذه الظاهرة تبرز جلية غداة امتدت المسيحية إلى طبقة الجيش فاجترفتها إليها وفيها بمبادئها وعقائدها تفشت حتى المدى الذي حتّم على شفاه الزمن أن تنفرج معلنة منها الأنفاس اعتناق طبقة الجيش المسيحية ديناً!..

إلى الجيش زحف التيار المسيحي وفيه متغلغلاً توغل، فلم يسع الحكم القائم إلاّ للواقع الرضوخ وإلاّ اتخاذ سياسة يستبقي بها ولاء الجيش ويدرأ له بها عليه انقلاباً، فكان الأمر الجوهري الذي حدا بقسطنطين، رغم ما عليه من دين، رعاية المسيحية وأن يصدر، ٣١٢ م، أمراً بعدم التعرّض لحرية المسيحيين، فكان هذا الامتثال للسلطان المسيحي وإعلان هذا التسامح الديني اعترافاً صريحاً بأن المسيحية، كسائر الأديان الشرعية للعصر، ديناً شرعياً!...

ومن ثم، وفي أرجاء الإمبراطورية انتشرت المسيحية ديناً شرعياً، وشمخت للمسيحية في المدن الكبرى للإمبراطورية الرومانية كنائس علت منها الأبراج. فإن القرن الرابع لم يحل إلاّ وقد أصبحت البلاد التي تتكلم الإغريقية، بأسرها، مسيحية ومن هؤلاء كانت هيلانة أم قسطنطين الذي، رغم تأرجحه بين ما كان عليه من دين وبين المسيحية لم يسعه إلاّ الاستجابة لروح العصر والانتصار للمسيحية، فنحن حين نراه يزحف على مزاحمة ملك روما بجيش تفشت فيه المسيحية ويضع عليه شارة الصليب، شعار المسيحية، دون ما اعتناق نفسه للمسيحية، فليس إلاّ لنعلم أن الموجه المسيحية قد علت على هامة الإمبراطور وأنها قد أجبرته على أن يحني أمام مدّها منه الرأس، فنحن لا نراه ينتصر بهذا الجيش، الذي لم يك انتصاره في الحقيقة إلاّ انتصاراً للمسيحية، إلاّ ويعلن، بأمره الصادر سنة ٣١٣، سماحه للمسيحيين القيام بشعائر دينهم دون أن يعارضهم أحد وإلاّ لينشىء تذكاراً لهذا الانتصار كنيسة في القسطنطينة، ولنراه رغم احتفاظه بما عليه من دين، يرأس مجلس أساقفة المسيحية الأعلى ويلقب بالحبر الأعظم، وإن كنا نراه، رغم تسجيله على خوذته مسماراً من الصليب، يصدر نقوده منقوشة عليها صورة الرب الشمس!

بيد أن هذا الموقف المتأرجح لم يدم طويلاً، فما كان انتصار قسطنطين بهذا الجيش الذي أصبحت المسيحية له ديناً وفيه عقيدة إلاّ انتصار المسيحية، ومن ثم أصدر قسطنطين، فرمان ميلان ٣٣٧ م، في مطلع القرن الرابع الميلادي يعلن: إن المسيحية للإمبراطورية الرومانية الشرقية، الدين الرسمي!

أعلنت المسيحية للدولة ديناً رسمياً بعد أن أصبحت مذهب الجيش الروماني الشرقي قاطبة وأضحت المسيحية الدين الرسمي للدولة القائمة، فأمست الإمبراطورية الرومانية الشرقية مسيحية، وبهذه الظاهرة بدأت تسير الأيام غضون هذا القرن، القرن الرابع، تنشرها في كل متجه، حتى إن هذا القرن لم ينقض إلاّ وغدا لا فحسب عالم تلك البلاد التي تتكلم الإغريقية وإنما تلك التي تتكلم اللاتينية وسواها من لغات العصر، بأسرها مسيحية فإن إعلان الإمبراطورية الرومانية الشرقية المسيحية ديناً رسمياً قد امتدّ مدوياً في الإمبراطورية الرومانية الغربية ليحقق الهدف الذي كان إليه قد رمى المسيحيون في العهد النيروني، ومن ثم قام الصرح من بناء المسيحية على أنقاض الكابيتول!..

أجل... على أنقاض الكابيتول قام صرح المسيحية ومكان القصر الإمبراطوري قام القصر البابوي ومكان المخلّص الروماني قام خليفة المخلّص العبري، فقد بنى اللاهوت المسيحي هذا الصرح غداة طوت راحة الزمن في راحتها قسطنطين وليظفر اللاهوت المسيحي بالسلطان

طلع يُطلع العالم على وثيقة يحملها في يده ويجلجل أنها له:

«منحة قسطنطين»

بهذه الوثيقة التي طلع بها على عالمه هذا اللاّهوت تقول إن قسطنطين حين أسس روما الجديدة قد منح «خليفة يسوع» روما القديمة وأقطعه أراضيها وطد للمسيحية، كنظام كهنوتي - أركاناً - فبهذه الوثيقة قام عرش كهنوت مسيحي مكان عرش القياصرة وقامت بابوية تؤكد، بتمثيلها الخلافة ليسوع، أنه قد تمّ لخلفاء يسوع ما قد هدفوا إليه من مُلك يحل محل الإمبراطورية الرومانية!..

على أنقاض الكابيتول قام الفاتيكان، وتلاشى ظل المخلِّص الروماني وانتشر ظلال المخلِّص العبري، وتنفست أرجاء الزمن تعلن أن بقيام المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية قد تمّ تماماً: شروق المسيحية ديناً رسمياً في مغرب العصر الهلليني الروماني، في مغرب العصر أشرق رسمياً هذا الدين الذي عملت على تشييده العوامل الاجتماعية والفكرية والسياسية، ناشراً جناحيه على سائر بقاع الإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية وعلى أرجائها يرفرف «الكلمة» الذي يكوِّن في هذا الدين رأس العقيدة في اللاّهوت المسيحي...

ولكن!... هذا «الكلمة» الذي لئن كانت قد رسخت به المسيحية في النواحي الثقافية للعصر كدين، فإنما كان قد أثار عقب صياغته أشكل المشاكل في النطاق المسيحي بمشكلة دوّت من بعيد في الأرجاء المسيحية أصداؤها لا لمساسها المباشر بالناحية الدينية ولا لمساسها المباشر بالناحية الأخلاقية، وإنما لمسامها المباشر ناحية ما بعد الطبيعة، فإن ألوهية «الابن» تحمل في طياتها ألوهية «اللُّوغوس» أو «الروح القدس» وبذلك إنما تنتشر ألوهية ثلاث وإن تلك ألوهية الأقنومين في واحد مطوية وإن تلك غير مطوية أُلوهية الواحد في ثلاثة! بهذا تطالعنا:

مشكلة التثليث والثالوث المسيحي

انبثقت هذه المشكلة كنتيجة حتمية لتنبّه العقل للحظةٍ فتساءل: ما معنى هذا الثالوث وما المعنى من هذا التثليث، وما الصلة المجرَّدة بين هذه الشخصيات الثلاث: اللّه، اللُّوغوس، المسيح؟!

بيد أن الفكر المسيحي إذ يتساءل هذا التساؤل فإنما هو يلقيه في نطاق دين به من التزعزع قد غدا ضنيناً!... وهو يرسله في عهد كان فيه يوحنا قد أتمّ صياغة «الكلمة» بشراً وتشخيصها في «المسيح»...

من ثم فالتجاء التفكير المسيحي أمام هذا السؤال إلى المعاني العقلية يستمد منها المدد

الذي يمكّنه من أن يغلّف عقيدته الدينية بالمعاني الفلسفية تغليفاً به يستطيع أن يفلسف دينه وبالتالي عقائده ويجعل هذه العقائد للعقل مقبولة، ومن ثم كان حتماً، إزاء صريح النصوص، أن يقوده هذا الالتجاء إلى مواطن التأويل حيث في رحبها استطاع فلسفة العقيدة أو بالأحرى تأويلها تأويلاً به تطالعنا:

المسيحية المفلسفة أو فلسفة المسيحية

إلى أُوريجين (١٨٥ ـ ٢٥٤ م)، من كان لإمام الأفلاطونية الحديثة ومعلّم أفلوطين تلميذاً ضمّته وأفلوطين جدران مدرسة واحدة فيها تعلّم الفلسفة وأدرك المدركات العقلية وشاهد الصراع الجدلي بين التفكير الفلسفي من جانب والعقلية الدينية من جانب آخر حول التفسيرات التي جعلتها الكنيسة مسبراً للإيمان الصحيح، يعود الاتجاه التأويلي في العقيدة المسيحية غداة إلى هذا الاتجاه قادت أسئلة تدافعت من الجانب المثقف:

ما المعنى الصحيح من كلمة: «المسيح» و«ابن اللّه»؟... وما المعنى الصريح من هذه الجملة؛ «وكان الكلمة عند اللّه ـ وكان الكلمة اللّه»؟!..

تجاه توالي هذه الأسئلة وتدافعها كان حتماً أن يخرج العقل الإنساني تحت صبغته المسيحية وفي تمثّله بأُوريجين من نطاق المسيحية النصية إلى نطاق الشرح العقلي!!.. كان حتماً لأوريجين أن يتولى الردّ على هذه الأسئلة رداً يتجنّب الموضوعات التي فصّلها المصدر النصيُّ للعقيدة في نفس الوقت الذي يجتذب إلى المسيحية الدوائر الفكرية للعصر بشباك الإقناع. ومن ثم فمن مدد الفلسفة الهيراقليطسية القائلة بأن العالم سمته التغير وأنه ليس هناك وجود حقيقي وراء هذه الظواهر سوى وجود «الكلمة» أو هذا «العقل العالمي» الذي لا ينقطع عن تدبير العالم، ومن مدد الفلسفة الأفلاطونية القائلة بسبق الصور المعقولة على الأجسام المحسوسة، استمد أُوريجين المدد للتوفيق بين «العقليات» و«النصوص المقدسة» ولا سيما تلك النصوص التي تشير إلى بنوة يسوع للإله وسهل غير عسر كان التوفيق ما دام المدد من الهيراقليطسية والأفلاطونية مستمداً، فقد هبّ أُوريجين فشرح النصوص شرحاً تأويلياً لم يجتذب إليه بالإقناع الجانب المثقف فحسب وإنما بتجنّبه الموضوعات التي فصّلها المصدر النصي للعقيدة وتفاديه الاصطدام مع شيء محدد وتبسيطه المعتقدات وحصره لها في دائرة المسيحية قد آمن بادىء ذي بدء إثارة ثائرة الكنيسة لا سيما وهي تراه قد اقترب من العقائد اقتراباً طبعه التفاني في جعل المسيحية لدى سائر مراتب التفكير مقبولة!... وحقاً لقد خاض أُوريجين في لجّة الفلسفة ومنها اغترف فجعل «للنقل المقدّس» تفسيرين أحدهما صوفي للخاصة والآخر حرفي لسائر الناس، فهو بينما قد ترك للعقل الجماعي النص الحرفي

تناول المصدر النصي للعقيدة واتّجه إلى الناحية المثقفة من المجتمع مؤولاً النصوص تأويلاً أخلاقياً به يطالعنا:

التأويل الأوريجني لكلمة؛ «ابن اللّه» و«كلمة اللّه» و«كان الكلمة اللّه» و«المسيح»

بالمؤثرات الفلسفية الإغريقية تناول أُوريجين العقيدة الدينية ولها في تفادٍ لصريح النصوص أوّل، بيد أن هذا التفادي لم يدم طويلاً، فالناحية الفكرية تجابهه وتطالبه بتفسير صريح لهذه النصوص يقبله العقل إلى جانب القلب، ومن ثم لم يجد أُوريجين بدأً من نقل «النقل المقدس» إلى فسحة المعنويات وتحويله إلى رحاب العقليات، وأمّا أمام صريح النصوص التي صارحته بمعناها فالملجأ كان المجاز!..

أجل... إلى الناحية المُفكرة التفت أُوريجين فأول صريح النصوص تأويلاً رمزياً مستنداً في ذلك إلى البصيرة أو الإلهام، فكان استناده ذلك الاستناد الذي طلع به علينا «بالشرح الإشراقيّ»، وهذا إنما شرح نستطيع أن نستوعبه تماماً إذا أرهفت منّا المسامع إلى أُوريجين وهو يأتينا به محدِّثاً:

إن المصدر النصيّ للعقيدة ينعت في «الإنجيل اليوحني» يسوع؛ بالمسيح، وابن اللّه، وكلمة اللّه، بل إن السطور من هذا المصدر النصي تنتظم مؤكدة بأن الإله نفسه على الأرض قد تجسّد في صورة يسوع... ولكن!.. صُور هذه المعاني في الفكر الإنساني إنما في حقيقتها تخالف صورها في العقل الجماعي، إذ أن المعنى الحقيقي لها غير المتبادر إلى الذهن لدى لفظها!... ولنبدأ بكلمة؛ «ابن اللّه»...

إن الدلالة من كلمة «ابن اللّه» إنما قول مجازي مصدره معنى نفسي لا يدل إلاّ على مقدار قربٍ من يسوع إلى اللّه شديد وقربٍ من اللّه إلى يسوع، أيضاً، شديد حتى الدرجة التي تجعل منزلة يسوع في الوجود تلي مباشرة منزلة اللّه!..

والصنو كلمة؛ «كلمة اللّه»... إن هذه الكلمة إنما كلمة، أيضاً، مجازية التعبير إذ تشتمل على معنى آخر نفسياً هو «اللُّوغوس» أو «الكلمة» أو «العقل» الذي يجعله أفلوطين في هذا العهد ثاني الأقانيم في ثالوثه. ومن ثم فهي إنما كلمة تتجاوز مضيق اللفظ والعبارة إلى رحاب العقل وفسحة المعنى ولا تدل إلاّ على أن يسوع، القريب من اللّه قرباً جعل مكانته في الوجود تلي مباشرة مكانة الإله، إنما هو هذا؛ **«العقل»**.

ومن ثم فيقيناً إن النص اليوحني كان على حق حين قال بأن يسوع هو «الكلمة» إذ ليس يسوع، وهو القريب من اللّه قرباً جعل مكانته في الوجود تلي مباشرة مكانة الإله، إلاّ ذلك «العقل العالمي» الذي تلي مكانته مباشرة مكانة اللّه لصدوره عنه صدوراً ذاتياً!. ثم فأولى إنما

يسوع من أزلية الكلمة مستمدة له أزلية.. والصنو كلمة؛ «وكان الكلمة اللّه».

لا ثمة شك في أن هذه إنما جملة إذا أُخذت بمعناها الحرفي تجعل يسوع، وهو إنما «الكلمة»، هو اللّه ولكن!.. هذه إنما جملة لا تحمل في حقيقتها إلاّ معنى مجازياً آخر وفي الوقت نفسه نفسياً، إذ أن «الكلمة»، لصدوره عن اللّه، قد صدر يحمل في طبيعته، طبيعة الإله ولما كانت طبيعة الإله أزلية فقد اشتملت طبيعة «الكلمة» على أزلية مستمدة هي من أزلية الإله، وهذا في نفس الوقت الذي يجعل «اللُّوغوس» أو «الكلمة» ليس مسبوقاً بالزمن من الإله... ولما كنا قد علمنا أن هذا «الكلمة» هو يسوع، فليس إلاّ لنعلم أن وجود يسوع ليس مسبوقاً بالزمن من وجود الإله وإنما هو أزلي أزلية الإله. أما إن كون البنوة تقتضي التتابع الزمني أي تقدم الأب على وجود الابن فقد انتفى على أساس أن ولادة الابن من الأب ليست ولادة جسدية وإنما ولادة روحية عقلية، لأن اللّه منزّه عن التركيب والحس، ولذلك نستطيع أن نقول إن يسوع، وهو إنما «الكلمة» أزلي أزلية الإله وهذه الأزلية هي التي تجعل القول القائل بأن اللّه في صورة يسوع قد تجسّد على الأرض قولاً هو من القلب والعقل معاً مقبول!

إذن علام الجدل؟!... إن القول بأن «الكلمة» كان اللّه إنما معنى صريح بأن يسوع، وهو إنما «الكلمة»، هو نفس اللّه ـ وأما القول بأن «الكلمة» كان عند اللّه فقول لا يحمل تفرقة بين «الكلمة» واللّه فإنما هو قول يشير إلى أن «الكلمة» هو «العقل» الذي تشتمل عليه الكينونة الإلهية والذي هو منها منبثق وفي هذا الوجود هو منبث ـ والسيد المسيح ليس إلاّ مظهر هذا «العقل» المجرّد الذي تجسّم بالناسوت!.. وظهوره في العالم إنما حادث طبيعي من الحوادث التي يتجلّى بها الإله في الوجود وفي الموجودات!

والصنو كلمة؛ «المسيح»؛ إن كلمة «المسيح» إنما أيضاً كلمة لا يحمل مدلولها إلاّ معنى يعني تلك الرسالة الدينية التي تجلّت في يسوع. فما المعنى من كلمة «المسيح» إلاّ دلالة على أن «المسيح»، والمسيح كما قد تبيّنا هو «الكلمة» أو «العقل»، قد حلّ في يسوع الإنسان!

هذا هو التأويل الأُوريجيني... تأويل كالتأويل يقول «العقل» من الإله والوقوف في المرتبة بعده مباشرة إنما تأويل لم يرَ فيه أُوريجين ما يمس الوحدة الإلهية بمساس التكثُّر أو يخدش الأزلية الإلهية بخدش الحدوث، فتحت هذا التأويل يتجلّى اللّه و«الكلمة» وحدة أزلية ذات أقنومين... فإن في لحظة اللحظة التي يتصوّر فيها الفكر الإنساني وجود اللّه، يتصور الفكر أيضاً وجود «كلمته» معه!.. ومن ثم فليس من ثمة تصادم فكري بين الفلسفة والدين بصدد النص القائل: «وكان الكلمة اللّه».

إذا قبل العقل الإنساني هذا التأويل آمن بالعقيدة القائلة بأن يسوع إنما «المسيح» وأن المسيح إنما هو «العقل العالمي» المنبثق من الإله، وأن العقل العالمي أو المسيح قد حلّ في شخص يسوع الإنسان!

أي مساس بعد ذلك يمس وحدة الإله وفي شخص معين قد حلّ جزء من الإله؟!

يقيناً لا مساس يمس وحدة الإله، فإنه محض حلول الإلهي في الإنساني!... حلول اللاّهوت في الناسوت!.. حلول «المسيح»، الذي هو «العقل العالمي»، في الإنسان يسوع!.. وهذا الحلول الإلهي في الإنساني لا يضير الألوهية بمضار التكثر ولا يعكر صافي طبيعتها ولا لوحدتها الذاتية يمسّ بأي مساس!

ولكن!... هنا يأتي سؤال يجابه المسيحية المفلسفة وهي التي قد بعدت بعداً بيّناً عن النصوص النصيّة الأولى في عقيدتها الإلهية القائلة بالجسمية والمكانية أو بالأحرى القائلة بإله مشخص مكانه السماء وإليه صعد يسوع وعن يمينه جلس؛ ما الإله؟

كلا!. إلى التوراة ونصوص موسى لا تعود المسيحية المفلسفة فتستمد من «العهد القديم» عن هذا السؤال الجواب، كلا، إلى التوراة لا تعود المسيحية المفلسفة فتعود إلى ألوهة كانت قمم الجبال لها مهبطاً وإنما من الفلسفة الصوفية، ومن غُلاة النسك كان أُوريجين، تستوحي الجواب فتعرّف اللّه بأنه؛ الوجود!

وتسترسل المسيحية المفلسفة فتقول: مما لا ثمة شك فيه هو أن أصح تعريف للإله هو تعريفه «بالوجود»، وهذه إنما حقيقة تتضح لنا إذا عاد الفكر منا إلى استعراض الفلسفة ليجد أن الوجود الفلسفي هو الوجود المجرّد وأن هذا الوجود المجرّد يساوي «الأول» الذي لا يشترط في تصوُّر تطبيقه في المادة، ومن هنا نعلم أن هذا الوجود، الوجود العقلي المحض غير المرتبط بالمادة في التصور والتطبيق، هو العلة الأولى لهذا الوجود الماديّ، ومن ثم فإذا كان هذا الوجود العقلي هو الوجود المجرّد فإن الوجود المجرّد يساوي «الأول» و«الأول» ليس إلاّ؛ الإله!... ومن ثم فإن هذا «الأول» هو هذا الوجود الذي تعنيه المسيحية المفلسفة حين تعلن أن اللّه هو؛ **الوجود!**

أجل... إن المسيحية المفلسفة لم تعن بتعريفها الإله بأنه «الوجود» إلاّ ذلك الوجود، غير المحسوس واعية المعاني الفلسفية المنحصرة في أن كلمة «الوجود» نفسها إنما كلمة ينحصر فيها للعالم المحسوس بداية من ذلك العالم غير المحسوس وفيه انتهاء، فإن هذا العالم المحسوس، يبتدىء من ذلك العالم اللاّمحسوس، كما أنه في مسيره إليه متجه وفي نهايته فيه ينتهي، فالحركة الكونية ليست في مداها الحقيقي إلاّ حركة تطوّرية تُظهر من ذلك الوجود

اللاّمحسوس هذا الوجود المحسوس وهي في نفس الآن حركة ارتدادية ترده إلى «الأول»..

ومن ثم فإن هذا العالم المحسوس، هذا العالم المبتدئة حركته من ذاك «الأصل» إنما إلى ذلك «الأصل» في حركته الارتدادية مفتقر افتقاراً لا يفتقر إليه «الأصل»!.. لا يفتقر إليه «الأصل» لا فحسب لأنه «الأول» وإنما لأن الافتقار صفة من صفات النقص ولأن عن الإله إنما ترتد صفات النقص!.. ومن ثم فالافتقار صفة اللاّمجرد والاستغناء صفة المجرّد.. ولكن!. الاستغناء إنما صفة من صفات الكمال ومن ثم فصفة لاحقة للاستغناء إنما الكمال!.. والكمال أو المستغني إذا جاد ومنح، وقد جاد ومنح والوجود إنما نفحة من هذه المنحة وهذا الوجود، كان خيّراً، ومن ثم فالكمال أو المستغني، وهو «الأول» و«الأول» هو الإله، هو الخير، ومن ثم فالإله هو؛ الخير!

على هذه الأسس المنطقية غدا اللّه، في الاعتبار المسيحي المفلسف، لهذه المعاني التي تطلق على الوجود الفلسفي جامعاً، ولكن!... تفسير الصلة بين الإله والوجود بهذا المعنى إنما يجعل الإله مفارقاً لهذا العالم!... فالمعنى إنما ينادي باثنينية بحتة تعلنها نفس هذه النظرة القائلة بأن قيمة هذا العالم المحسوس ليست ذاتية وأنه ليس بذاته هو مكتفياً وليس هو هدف نفسه وأنه في وجوده وتطوره يسير إلى هدف خارج ليكون أكمل وأخير، ومن ثم، وفي مقابلة النقص هناك «كامل»، تأتي ثُنائية تنتفي بها نفياً تاماً الوحدة المطلقة للإله!...

بهذا التأويل الذي أريد به إقامة صرح «الوحدة» تنتفي الوحدة!.. ولهذا السبب امتدت المسيحية المفلسفة تحاول محو هذه الاثنينية عن طريق شرحها العقائد وتحديدها، فهي إذ تجعل اللّه العلّة الأولى والخير المحض وتجعل «المسيح» هو «العقل» فتجعل بذلك الإله أقنوماً أول وتجعل المسيح أقنوماً ثانياً، فليس إلاّ لتتناول كلمة «المسيح» بالشرح والتفسير فتقول: إن معنى «المسيح» إنما؛ «العِلْم».

أو اعتراض؟!.. أنى وقد تبينّا أن «المسيح» هو؛ «الكلمة» و«الكلمة» هو «اللُّوغوس» و«اللُّوغوس» هو «العقل»؟!.. والعقل؟.. أليس العقل هو العلم؟!

إن الكلمة إنما تطلق وفي صورة اللفظ والعبارة يريد منها العقل أمراً آخر غير اللفظ والعبارة هو المعنى النفسي الذي تحمله... ومن هنا نتبيّن أن الصلة بين العقل والعلم موصولة، بل إن الكلمتين إنما في حقيقتهما صورتين لوجه واحد، فالعقل إنما إدراك لما يعقل والعلم إنما تحصيل لما يُعلَم، ومن ثم فالمسيح، وقد تبينّا أن المسيح هو «العقل»، إنما؛ «العلم»! وعن طريق «العلم» ربطت للمسيحية المفلسفة يد بين الإله والوجود برباط «الوحدة»، فقد امتدت هذه اليد تشرح الأقانيم وتحددها وإلى ما قد جاء في «النقل المقدس» من ذكر «الروح القدس»

امتدت مداها تفسّر وتشرح فلا تقول بأن «الروح القدس» ليس إلاّ الحياة المستخرجة من ذات الأب ومن ثم فأقنوم ثالثٍ إلاّ لتؤكد تكوّنه الأقانيم الثلاثة؛ **الله، الكلمة أو اللوغوس، الروح القدس!**

كالأفلوطينية المعاصرة في ثالوثها الفلسفي جاءت الأوريجينية بثالوث مفلسف!... بيد أن مراتب الأقانيم في كليهما تتنافر تنافراً بيّناً وليس هناك من تشابه إلاّ في لفظ التثليث، فإن الأقانيم الأفلوطينية أقانيم فلسفية محضة، فهي أقانيم منتزعة من ذات الإله وعنه قد فصلت، وقط ليستِ الذات منها ذات «الذات»، فالإله لدى الأفلوطينية إنما المحتجب الواحد!... وأما الأقانيم الأوريجينية فأقانيم مفلسفة وهي إن خضبتها الفلسفة فبحت دينية وهي وإن أُوّلت تأويلاً عقلياً فغير منتزعة من ذات الإله وعنه غير منفصلة وهي هي في ذاتها ذات «الذات»، فالإله في هذا التثليث إنما الواحد في ثلاثة، فهو الوجود المجرّد غير المرتبط بالمادة في التصور والتطبيق وهو اللاّهوت الذي حلّ في الناسوت وتجسّد على الأرض بشراً في صورة يسوع، وهو الحياة التي تتمثلٍ في صورة الروح القدس، ومن ثم فلا تفرقة في المرتبة في هذا التثليث الديني المفلسف بين أقنوم وأقنوم، فثلاثة أقانيم إنما الواحد والواحد إنما أقانيم ثلاثة!

ومن ثم فإن الصفات التي تضاف إلى الأقانيم المركبة للتثليث المسيحي تتباين تبايناً بيّناً عن أقانيم التثليث الأفلوطيني وعنه تختلف اختلافاً جوهرياً، فالأفلوطينية تجعل الإله واحداً محتجباً وإلى مستوى البشرية به لا تهبط، وأما المسيحية فتجعل الإله ثلاثة أقانيم وتجعله مرئياً إذ به إلى مستوى البشرية، بيسوع، قد هبطت!

يقيناً إن المسيحية المفلسفة قد هبطت بالإله إلى مستوى البشرية يتجسّد به في صورة يسوع بشراً على الأرض، وبجعلها الإله و«المسيح» واحداً بل وبموته على الأرض انحدرت بالإله من صفات اللاّتغيرّ إلى التغيّر التي تنتفي انتفاءً مطلقاً عن الإله كوجود مجرّد.. ولكن!. كان لهذا التأويل أثره الذي سجل؛ خروج المسيحية من دين نصيّ إلى دين مفلسف، لا ثمة شك في أنه ليس إلاّ استجابة لنداء التفكير اللاّمسيحي وخاصة الإغريقي، كان هذا التأويل الذي جاء به اللاّهوت المسيحي الذي قد نشأ في أحضان مدرسة الإسكندرية وبأفكارها تغذّى فجاء يصوّر ظهور «العقل» وحلوله في شخص يسوع، وفي هذا ما يحمل من المعاني معنى حلول الإلهي في الإنساني... ولكن!.. هذا إنما معنى يظهر يسوع بأنه ليس له من الإنسانية إلا الصورة الظاهرة وأن ما عليه يشتمل شخصه من طبيعة فمحض إلهي!... ومن هنا أودعت في العقلية المسيحية العقيدة القائلة بأن ليسوع شخصية تؤلفها طبيعتان امتزجتا حتى أصبحتا واحدة، فالناسوت باللاّهوت فيه قد امتزج والإلهي

بالإنساني فيه مُزج، ولتستقر هذه العقيدة وتأخذ مجراها المنطقي حتى المدى الذي يطالعنا فيه هذا المنطق بنتيجته الحتمية التي تتلخّص في إعلان القول بأن حقاً شرعياً ليسوع مناداته:

الإنسان الإلهي

عن الأصل من صحيح الدين المسيحي نأت المسيحية المفلسفة وعن الأصل من تكوين المسيحية الأصلية قد بعد التأويل الأوريجيني بعداً قصياً، فقد أتى هذا التأويل بمسيحية تختلف كل الاختلاف عن المسيحية الأولى فتلك إنما المسيحية، كما قد رأينا، قد كوّنتها عوامل شتى وبها أتت تيارات مختلفة، وأما هذه فمسيحية أبرزتها العلوم العقلية في إطار عقلي، ومن ثم فهي مسيحية معاييرها المقاييس الفلسفية وتعابيرها تعابير تهادن الناحية الفلسفية للعصر، ومن ثم فخروج الدين المسيحي، كأثر لهذا التأويل ونتيجة لهذا المنطق، من دينٍ نصيّ إلى دين مؤول أو مفلسف قبلته العقلية المثقفة وبه أخذت وأمام الصورة التي صورتها ليسوع ريشة أوريجين خاشعة انحنت تُسبل الجفون وتعقد الأصابع وتهوي راكعة في محاريب يروح بين جدرانها من همس الشفاه رجع الصدى ينادي هذا المحور الذي استمدت منه المسيحية اسمها؛ الإنسان الإلهي!

ولكن! بينما كانت الناحية المثقفة قد علق منها الوجدان بالصورة الأُوريجينة هبّت الكنيسة ثائرة وباللوم على أُوريجين، نحت تؤاخذه على انحرافه عن النصوص النصيّة واتجاهه هذا الاتجاه التأويلي العقلي بينما غير مبالية وقفت تجاهها المدرسة العقلية المسيحية، حتى القرن الرابع للميلاد، لا تحيد عن الصورة التي صوّرتها الريشة الأُوريجينية طرفاً!.. مبهورة الأنفاس وقفت معجبة الطوية بهذا الشرح الفلسفي لفكرة «المسيح» وعقيدة «الكلمة» ليأتي هذا الإعجاب بأثره وليمتد في غضون نفس القرن إلى الجانب اللاّهوتي نفسه، فقد قام من كنيسة الإسكندرية «ديسقورس» وتعهّد في القلب البشري بذرة «الحب اليسوعي» حتى الإنماء الذي أضحى به يسوع، للإله مساوياً!.. وما لبثت كنيسة الإسكندرية أن تعهدت هذا «الحب» وأحاطته من الحصانة بسياج حتى وقف يسوع في دائرة هذا الحب لا يتجلّى، بكليته، ليسوع احتضاناً حتى بشغفٍ راح باسمه ينبض وحتى به سما هذا الحب إلى درجة الوله وحتى تحت غمرةٍ من هذا الوله استبدل نداء يسوع من الإنسان الإلهي إلى: الإله الإنسان!.

نداء بسببه قام:

مذهب المساواة

نتيجة لهذا الوله المؤلّه الذي مال باللاّهوت المسيحي عن التأويل العقلي لفكرة الألوهية

بأقانيمها الثلاثة إلى الشرح المادي، الذي استحال به يسوع من إنسان إلهي إلى إله إنسان، قام «مذهب المساواة» متمثّلاً بنفس ديسقورس... ولمذهب ديسقورس اتبع أبناء الكنيسة المسيحية في «نيسا» من الشرق الأدنى، كما للفكرة منه عضدت كنيسة الإسكندرية وعلى نشره ساعدت حتى لم يغب القرن الرابع للميلاد إلاّ وقد غدا يسوع في الأرجاء اللاّهوتية مساوياً للإله مساواة لا أثر فيها البتة للناسوت، وليجري التيار من هذا المذهب هادراً مجترفاً إليه للجماعة المسيحية عقلية به أبت إلاّ التشبث، وتحت دفعه أبت إلاّ الانسياق من ثم للسائل المسيحية، بعد استتباب هذا المذهب؛ أيسوع إله؟!.. تجيب المسيحية:

إله إنما يسوع وإله تام!.. فليس يسوع إلاّ الإله وليس الإله إلاّ يسوع!.. ليس أحدهما غير الآخر، فما اللّه إلاّ أقانيم ثلاثة تتمثّل في: **أب، وابن، وروح قدس!..**

إذن فلتكف تلك الأصوات التي كانت قد علت ثائرة في مناقشاتها ومتسائلة ارتفعت تستفسر:

أوَ «العلم» و«الحياة» عين «الوجود»؟...

أو «الابن» و«الروح القدس» نفس الإله أم هما عنه منفصلان؟.. وكيف؟.. كيف تتفق دعوة «الوحدة» في الإله ودعوة «المساواة» وكلاهما إنما عقيدة للأخرى لا تخالف فحسب وإنما لها تناقض والأخذ بواحدة إنما للأخرى نقض؟!..

لكن!... كفّت هذه الأصوات عن أن تكف!.. وهي وإن كانت فإنها عن الارتفاع قد تخافتت عن الاسترسال لم تتهافت فقد ظلّت تنفث اللهب في العقلية المسيحية بأسئلة دفعت العقلية إلى بوادي الحيرة ومتاهات التردد حتى نراها وكأنها قد لمحت هذا التباين وأدركته إدراكاً كان سبباً في اختلاف المسيحية على نفسها بعد شرح العقائد وتأويلها وبعد تحديد الأقانيم..

يغيب السبب في جمر الأسئلة الثاوية تحت رماد التاريخ ولكن ينتشر الخلاف ويندلع اللظى منه عاصفاً قوياً!.

اندلع لظى الخلاف بين اللاّهوت واللاّهوت نتيجة للميل عن مذهب «الوحدة» إلى مذهب «المساواة» وثار في التفكير المسيحي الجدل سعيراً من حول وحدة الأقانيم الخلاف، فقد وجد الفكر المسيحي نفسه في غضون هذه الفترة من الزمن قد قادته هذه المشكلة إلى التفكير حتى لنجده في كنيسة الإسكندرية، نفسها، قد أطرق ومطرقاً يفكر ليستقيم ويسأل:

حقيقة!. كيف تمّ اتحاد اللاّهوت بالناسوت، واللاّهوت إنما قديم والناسوت إنما محدث؟!..

سؤال، في الأرجاء اللاهوتية المسيحية دويّ فانبثقت:

مشكلة «الطبيعة اليسوعية» وتفرق الكلمة المسيحية من حول «الكلمة»

في آفاق الثغر المهمهم باسم الإسكندر انطلق التفكير المسيحي متمثّلاً بـ «أريوس» يلقي هذا السؤال الذي لا يسجّل فحسب إشاحة عن «مذهب المساواة» وإنما استنكار هذا المذهب استنكاراً تاماً، فأريوس قد أرسل القول في الأرجاء المسيحية رناناً يعلن:

إن القول بمساواة يسوع للإله بدعة! وجهيراً استرسل الصوت الاريوسي وعلا يرج أرجاء الكنيسة رجاً يقول:

يقيناً! إن هذا القول إنما بدعة والأخذ بهذه البدعة إنما عقلياً مرفوضٌ!.. مرفوض على أساس منطقٍ يتعقل أن الإنسان، ويسوع ليس إلاّ إنساناً، إنما كائن حادث وُجِد الزمن قبل أن يوجد، فكيف يمكن أن تتفق والمنطق دعوة «الوحدة» في الإله مع جعل يسوع مساوياً للإله؟!...

ولكن!... تجاه هذا القول المنطلق من أرجاء اللاّهوت ليدوي في أرجاء اللاّهوت نافياً عقيدة «المساواة» نفياً يهبط بيسوع من إله إلى إنسان محض هبّت كنيسة الإسكندرية فزعة ووقفت متمثلة بـ «أثاناسيوس»!.. وحقاً كان لها أن تهب، فقد رأت أنه إذا صحّ قول اريوس، فالدين المسيحي قد تصدّع!.. بل وحتماً قد تصدّع لأن عقيدة الفداء أو الخلاص التي يقوم عليها صرح البناء المسيحي إنما بالقول الأريوسي تنهار!.. تنهار لأن هذه العقيدة، عقيدة الفداء أو الخلاص، لا تقوم إلاّ على أساس أن «المسيح» إذا كان حقيقة قد أتى بالخلاص وجاء فادياً فليس ذلك إلاّ لأن في يده الأمر وليس إلاّ لأن ذلك ملكه ومن حقوقه إنما حق!

من ثم فانطلاق سعير تلك المنازعات اللاّهوتية واندلاع لظى ذلك الجدل الفقهي واشتعاله لهباً في صورة ذلك النضال الذي حمي منه الوطيس حتى المدى الذي انساب به إلى خارج الكنيسة انسياباً كاد بسببه البناء المسيحي أن يتصدع لو لم تسارع إلى تلافيه تلك الناحية الأخرى من الجماعة اللاّهوتية وتعقد، لعشرين سنة خلت من حكم قسطنطين ٣٢ م، «المجمع النيقي» لتطلع على الدنيا:

«العقيدة النيقية» وتدعيم عقيدة «المساواة»

لا مراء في أنه طويلاً قبل انعقاد «المجمع النيقي» كان أبناء الكنيسة المسيحية على اختلاف في الكلمة من حول «الكلمة».. وكثيراً ما قاد هذا الاختلاف إلى ابتداع العديد من المذاهب... وكثيراً ما اجتمع الأساقفة ليعلنوا بطلان مذهبٍ من المذاهب الجديدة... وكثيراً ما كانوا يُكرهون مبتدعه على الرجوع عنه وإذا أبى تبع ذلك إخراجه من الوحدة

المسيحية... وكثيراً ما كان يجد صاحب المذهب الجديد أتباعاً يقتنعون بصحة دعوته فلا يرون الرجوع عما عليه، قد وافقوه ويظلون يدينون بما حكم المجمع اللاّهوتي بردّه من الآراء، ومن هنا نشأت العداوات والفتن بين أبناء الكنيسة المسيحية، ولكن، لما ثار الجدل الجدي في أرجاء اللاّهوت المسيحي من حول «المساواة» أسرع اللاّهوت المسيحي وبرئاسة قسطنطين، كحبر أعظم ورئيس مجلس الأساقفة الأعلى، عقد «مجمع نيقيا» لينظر في أمر هذه «الكلمة» التي تفرّقت بها كلمة المسيحية واختلفت إزاءها منها الآراء حتى دفعها الاختلاف في «الطبيعة اليسوعية» إلى المشاحنات، ومن ثم كانت مناضلة «أثاناسيوس» في «المجمع النيقي» من أجل تدعيم عقيدة «**المساواة**»!.

من ثنايا الأجيال يأتينا هدير ذلك الصخب الذي قد هدر، أثناء انعقاد «المجمع النيقي» بأكثر من ثلاثمائة أسقف!... فمنهم من إلى الرأي الأريوسي مال وهبّ يقدّم على صحة هذا الرأي الحجة بأن «المساواة» إنما تعبير به لم يأت من النصوص نص!.

ولكن! اللاّهوت المسيحي أو بالأحرى هذا الجانب من اللاّهوت المتمسّك بمذهب «المساواة» إذ يقف متمثّلاً بأثاناسيوس، فليس إلاّ لينزع بمنطقه الإقناع وليس إلاّ ليستدر في الصدور عاطفة التشبث بعقيدة «المساواة»، فهو يُحاج الجمع اللاّهوتي وعلى المجمع الديني المنعقد يحتج بأن عليه واجباً ينحصر في تدعيم «عقيدة المساواة» ويحتم هذا الواجب أن الأركان من الصرح المسيحي لن تستقيم إلاّ على أسس الاعتقاد بأن «المسيح» هو المخلّص الفادي وأنه كان صورة تجسّدية على الأرض لنفس الإله!..

ومن ثم فإذا كانت «المساواة» تعبيراً به لم يأت من النصوص نصٌ، فإن الأمر دقيق وخطير يستدعي تحديد النصوص!.. يستدعي تثبيت «المساواة» إذا أردنا حفظ هذا الدين الهادف إلى التثبّت والرسوخ في مهب هذه الأديان والمذاهب المنتشرة للعصر!.. فلن يرسخ للبناء المسيحي الأوطاد ولن تُصان منه الأركان إلاّ إذا دُعمت عقيدة «المساواة» بإقرار من هذا المجمع الديني المنعقد إقراراً يؤكد صواب هذه العقيدة على أسس منطقٍ يتخذ دعامته القول: بأنه ليس إلاّ من نفس عنصر الأب إنما عنصر الابن!..

وبحجج «أثاناسيوس» اقتنع المجمع المنعقد فتمادى يعلن تمادي «اريوس» عن الصواب وحيدته عن المعتقد الديني الصحيح وليقفو هذا الإعلان ذلك الإعلان إلى عامة الكنائس في أرجاء الإمبراطورية التي إليها راحت من الإمبراطور الرسائل تترى مسنجلة، بقرار المجمع، أمراً يقول: إن على الكنائس طراً يجب الامتثال لإرادة اللّه التي تتجلّى فيما أجمع عليه المجمع العام من قرار يعلن بأن الشكوك إنما ترتد عن اليقين بأن:

يسوع إنما «المسيح» و«المسيح» إنما «الكلمة».

ومن ثم، ومن نفس الطبيعة الإلهية إنما طبيعة «الكلمة»، فمما عنه يرتد الجدل بأن من نفس الطبيعة الإلهية إنما الطبيعة اليسوعية وبذلك يكون يقيناً:

من نفس عنصر الأب إنما عنصر الابن! وإذا كان من نفس عنصر الأب إنما عنصر الابن فيقيناً أن ليس للمسيح إلاّ طبيعة واحدة هي محض إلهية، وبذلك تكون عقيدة المساواة عقيدة صحيحة ومن ثم فعقيدة شرعية!..

بهذا الإعلان الذي رجعته أصداء كنائس المدن الكبرى، في آسيا الصغرى في أنطاكيا والقدس، وفي شمال إفريقيا وخاصة في الإسكندرية كما في القسطنطينية ليروح من بعد منه الدوي إلى حيث قام الصرح من البناء المسيحي على أنقاض الكابيتول، أصبحت العقيدة الرسمية للدين المسيحي تنحصر في الإيمان بأن؛ يسوع هو «المسيح»، و«المسيح» هو «الكلمة»، وأن يسوع، وهو إنما «الكلمة» و«الكلمة» إنما نفس الإله، هو نفس الإله!..

وبشرعية هذه العقيدة العقد الإيمان عاقداً في النفس المسيحية عقدة لها أحكمت يد اللاّهوت في هذه النفس تعقيداً، فالقلب المسيحي قد أمسى في غير تردد يردّد الإيمان بصحة هذه العقيدة بل وبشرعيتها يُحاج غيره عبْر منطق له جرى قائلاً: إذا كان يسوع هو نفس الإله فمما لا ثمة شك فيه هو أن من طبيعة الإله إنما طبيعة يسوع، وإذا كانت طبيعة يسوع هي نفس طبيعة الإله فحتماً ليس ليسوع إلاّ طبيعة واحدة هي إلهية محضة بها يتحتّم أن يكون يسوع، هو في شخصه، للإله مساوياً!

وهكذا.. هكذا دعّم «المجمع النيقي» عقيدة المساواة تدعيماً استتبّ به، نتيجة لمكانة هذا المجمع الديني وسطوته، «مذهب المساواة»... باستتباب هذا المذهب، في أرجاء العالم المسيحي، بدأت سيادة المسيحية!.. ولا غرو أن تبدأ برسوخ هذا المذهب سيادة المسيحية، فإن بمساواة يسوع للإله مساواة مستمدة هي من تجسد الإله فيه على الأرض كان حتماً أن تتقد في أعماق القلب من هذا العصر وقدة الإيمان بهذا الدين الذي أصبحت فيه كل ما قد توارثه العصر من عقائد حقيقة واقعية، فإنه إذا كان العصر قد ورث عن العصور السالفة عقيدة التجسّد الإلهي على الأرض فإن المحور منها إنما في جبين العصر ومخيلته مجرّد أطياف تطوف في غير وضوح منها الصُوَر وتتلاحق أمام خيال عبثاً يحاول أن يلحق بها وعبثاً يلاحقها وعن اللحوق بها؛ كيلا يرتد فسرعان ما تتلاشى أمام تحديق الخيال!.. وأما!.. أما هذا الدين المتخذ محوراً إلهاً قد تجسّد على الأرض في صورة بشرية فليست الصورة من هذه الشخصية كطيف من أطياف الأساطير طوف بالمخيلة وبها يطوف وعن القديم من

السلف توارثه الخلف الجديد، كلا!.. فليست هي بباهت طيف لأرجاء المخيلة يحتل وإنما صاحبها شخصية تاريخية قد سجّلت أقلام المؤرخين له وجوداً بل والعهد به إنما غير عهيد، فحقيقة قد عاش يسوع على الأرض وحقيقة قد رآه، بعد الصلب المقربون من الأتباع وبعد ذلك غاب عين عين عصر ليأتي إلينا من هؤلاء المقربين القول بأنه قد ارتفع جسداً حياً إلى السماء وأن موته ما كان إلاّ لخلاص البشر من أثقال «الخطيئة العالمية» وأن يقظته ما كانت فحسب ليكفل للناس كفالة إيجابية إمكان الحياة بعد الموت وإنما ليؤكد لهم تأكيداً محسُوساً بأنه قد ضمن، بافتدائه لهم، لهم خلوداً!

أجل!. باستتباب «مذهب المساواة» ورسوخه في أرجاء العالم المسيحي كعقيدة شرعية بدأت الموجة المسيحية ترتفع في اصطفاق لتمتد هادرة لهديرها دوي كان حتماً أن يطغى على من كان قد شاخ على تربة العصر من أديان ومن تيارات مذهبية، كانت الشيخوخة قد بدأت تنالها بالجفاف، إذ ليس إلاّ بهذه العقيدة قد دُعم البناء المسيحي تدعيماً سجله ما قد أجمع عليه «المجمع النيقي» من قرارٍ به انفضّت جموعه من الصيغة الناصة على:

«إننا نؤمن بإله واحد أب ظابط الكل خالق كل الأشياء ما يرى وما لا يرى ورب واحد يسوع المسيح ابن اللّه المولود من الأب الوحيد[1]!...

إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق مساوٍ للأب في الجوهر الذي كان كل شيء في السماء وعلى الأرض والذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل وتجسّد وتأنس وتألم وقام أيضاً في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وسيأتي من هناك ليدين الأحياء والأموات وبالروح القدس!

وأما الذين يقولون إنه كان زمان لم يوجد فيه[2] وإنه لم يكن له وجود قبل أن وُلد وإنه خلق من العدم وإنه من مادة أخرى أو جوهر آخر أو أن ابن اللّه مخلوق أو أنه قابل للتغيير فهم ملعونون من الكنيسة الجامعة الرسولية!».

أجل.. عن هذه الصيغة انفضّ «المجمع النيقي» ولكنه صاغ بذلك قيداً يحمل اسم «القانون النيقي» به لم يطوق فحسب العنق الجماعي وإنما به قد طوّق الفكر الإنساني في كل رقعةٍ عليها يمتد للمسيحية ظلال، فليس إلاّ للحد من امتداد الفكر الإنساني قد استنّ «المجمع النيقي» هذا «القانون» في صورة الحد من مذهب اريوس الذي قال: «إن الأب هو الأصل وإن الابن والروح القدس مخلوقان منه، وهما وإن كان لهما المقام الأول بين الخلائق

---

(١) أي من جوهر اللّه

(٢) أي يوجد فيه ابن اللّه

وطبيعتهما تشبهان طبيعته إلاّ أن الأب وحده هو اللّه وأما الابن والروح القدس فغير مشتركين في طبيعته الإلهية»!..

ومن الحد من امتداد الفكر الإنساني تمكّن هذا «القانون»، فإن «المجمع النيقي» إذ يلعن اريوس ويحكم بتكفيره ويعلن أن لعنة الكنيسة تلحق بكل من يذهب مذهب اريوس ويقول قوله بأن الأب وحده هو اللّه وأن الابن غير مشترك في طبيعته الإلهية، فإنما قد صاغ سلسلة طوقت حلقاتها العنق المسيحي بنير الرضوخ لما قد ابتدعه هو نفسه من بدعةٍ سجّلها هذا «القانون» الذي جاء بهذه العقيدة المتلخصة في:

إن اللّه، اللاّنهائي المطلق، غير مُفترق عن يسوع، الإنسان النهائي النسبي لأن «الإلهي» إنما قد حلّ في «الإنساني» حلولاً به تمّ اتحاد اللاّهوت القديم بالناسوت المحدث عن طريق التجسّد!.

في أفق التفكير المسيحي رنّت هذه الصيغة من «القانون النيقي» نغماً طروباً رجع صداه كان «قانون أثاناسيوس» بطريرك الإسكندرية، فقد قام هذا الذي كان السبب في صياغة «الصيغة النيقية» يتولى شرح هذه الصيغة قائلاً:

«الأب إله والابن إله والروح القدس إله ولكن! ليسوا ثلاثة آلهة بل إله واحد!.. الأب سرمد، والابن سرمد، والروح القدس سرمد ولكن! ليسوا ثلاثة سرمديين بل سرمد واحد!... الأب ظابط الكل، والابن ظابط الكل، والروح القدس ظابط الكل، ولكن!. ليسوا ثلاثة ظابطين بل واحد ظابط الكل!.»

وبهذا الشرح، الذي يحمل إلى الأفهام أن المسيحية تتفق مع جميع الموحدين بأن اللّه ذات واحدة وجوهر واحد وأنها وإن لم تنفرد في هذا العصر بالاعتقاد بأنه ثلاثة أقانيم فليس إلاّ لأنها تعتبر أيضاً أن الأقنومية ليست عين الذاتية، راحت الأرجاء من العصر بالإيجاب تُجاوب وتتجاوب وبالانعطاف إلى هذا الشرح تهتز طرباً منها الأعطاف، وكأنما كل هذه الأرجاء قد خلت من فكر يستطيع أن يعترض على هذا التعبير اعتراضاً يدفعه إلى أن يدفع إلى اللاّهوت بهذا السؤال: كيف يمكن أن تعتبر الأقنومية ليست عين الذاتية والأقنوم إنما هو ذات عن غيره ممتاز؟.. فكيف يمكن أن يكون اللّه ثلاثة أقانيم ولا يكون ثلاث ذوات؟!..

كلا!.. لم يجرؤ فكر عهد ذاك أن يلقي جهراً هذا السؤال بينما في ترنُّم «بالصيغة النيقية» راحت أرجاء العصر بنشوتها طروب يصرفها الطرب عن استيضاح المعنى من وراء هذا التعبير بنغمة سارت على الشفاه الجماعية تتغنى بأن اللّه قد أظهر إظهاراً محسوساً محبته للبشر، فتجسّد في صورة بشرية وأنه ليفتدي البشرية ويرفع عنها أثقال الخطايا مات،

وأنه ليكفل لها كفالة إيجابية الخلود في «ملكوت السماء» بُعث وارتفع إلى السماء!.. فالشفاه الجماعية إنما قد أجمعت على نغمةٍ واحدة راحت في ترديد «القانون أثاناسيوس» تردد:

يقيناً إن الإله قد تجسّد على الأرض تحت صورة يسوع ومن ثم فما الإله ويسوع إلاّ شيء واحد، ما يسوع إلاّ الإله ولدته مريم بصورة الإنسان!. ومن ثم فيقيناً أن ليس للمسيح إلاّ طبيعة واحدة هي محض إلهية!..

بهذه الأصوات الجماعية التي أجمعت على الإيمان بعقيدة «المساواة» دُعمت؛ **«عقيدة التجسُّد»**.

دُعمت عقيدة «التجسُّد» على أسس منطق امتد مداه واستقرّ عند اليقين بطبيعةٍ واحدة ليسوع هي محض إلهية وإن كان «المجمع النيقي» لم يدعِّم هذه العقيدة إلاّ بمدد استمده من التفكير اللاّهوتي لغير المسيحية من مذاهب العصر، ولكن! كان لهذا التدعيم خطير أثره وحاسم نتائجه، فقد كتب فيه تاريخ الديانات نهاية للأديان القديمة عامة وأديان العصر ومذاهبه الفدائية خاصة في نفس الوقت الذي كتب فهي بداية لهذا الدين الذي وإن كانت العقائد فيه غير جديدة فإنما قد رُنقت برونق الجدة، وعليها أُضفي لون من الجاذبية عجيب، فالمحور منه إنما ابن إله جديد ليس هو ككل من له قد سبق من «أبناء الإله» كأبولو مثلاً ومثلاً كديونيزوس. كلا!.. فليس يسوع بباهت طيفٍ من محض أُسطورة وليس هو من خلق المخيلة، فإنما فيه من البشرية الجسد وإلى البشرية بجسده ينتسب، فقد ولدته من بنات البشر عذراء وقع عليها من الإله الأب الاصطفاء ليمكنه من خلالها التجسّد، فولدته في صورة الابن، ومن ثم فهي سيدة عذراء جديدة ليست هي ككل ما قد توارثه العصر من «عذراوات المخيلة» ومن «أمهات أبناء الإله»... كلا!... وإنما، وهي التي قد ولدت الإله الحق، هي الجديرة بأن يتحول إليها من العصر انتباه استغرقته عبادة تلك التي تقف في «إفسس» سيدة عذراء وتلك التي تقف صورة للأم الإلهية وترف عبادتها غامرة شواطىء البحر الأبيض والجزر الإيبية ووادي التيبر والتميز في امتداد من التلال السبعة حتى شواطىء قزوين وضفة البحر الأسود حيث في إطار الفضاء من كل هذه الأرجاء تُقف هي سيدة واحدة للسماء وعليها من الطهر وشاح وبين ذراعيها حورس، الكلمة والأُقنوم الثاني في الثالوث الإسكندري، كطفل إلهي محمول!... كلا!.. ليست مريم كأرتميز! كلا ولا كإيزيس وإنما!. إنما، وهي التي عذراء قد ولدت الإله الحق، هي الأم الإلهية الجديرة وحدها بأن تحتل، كسيدة عذراء، سيادة السماء!..

أجل.. كان حتماً أن تبرز مريم نتيجة لتحول الإله بشراً في صورة يسوع وتأليه يسوع إلهاً، «فالمجمع النيقي» الذي قد أعلن ألوهة إله ثُلاثي الأقانيم، وجعل بذلك يسوع إلها والإله بشراً، إنما كان حتماً أن يُولي مريم، التي لها قد اصطفى الإله فتجسّد فيها «بروحه» تجسداً حملت فيه «بالكلمة» وهي بعد عذراء وكان نتيجته مولد «الكلمة» في صورة يسوع الإنسان، منه الانتباه وأن يُرسل الإعلان بعد الإعلان يعلن صياغته لصيغة جديدة تقول: **إن مريم والدة الإله ووالدة الإله إنما إلهة!**

وإلى مريم تحوّل الانتباه من العصر تحولاً به بدأت في تاريخ الدين المسيحي:

«عقيدة أم الإله»

كنتيجة حتمية «للصيغة النيقية» المؤلّهة مريم عُقدت في القلب المسيحي هذه العقيدة إلى عُقدة انعقد بها في هذا القلب من حول «والدة الإله» الإيمان بل وامتد هذا الإيمان مداه فاجترف ناحية عاطفية من المجتمع المسيحي كوّن تجمعها مذهباً جرى في التيار المسيحي تحت اسم «المريمية» لتطالعنا في هذا المذهب القصة القديمة، التي عرفناها في غير هذا العصر، تحت لون جديد مسجّلة احتفاظ الوعي الزمني بها احتفاظاً لم يمس الجوهر منها بأي مساس وإن استبدل من أصحابها الأسماء!. فالقصة القديمة التي مررنا بها في مصر القديمة وفي لاهوت طِيبة ومحورها كانت عائلة مقدسة يكونها «آمن وخنسو وموت» وفي لاهوت عين شمس «أُوزيريس وحورس وإيزيس»، إنما تطالعنا في هذا الطور من العصر الهلليني الروماني بعائلة مقدسة جديدة يؤلفها؛ الإله الأب الإله الابن يسوع الإلهة الأم مريم!...

ومن ظلمة الماضي بزغت مريم وبدأت، كأثر «للصيغة النيقية» وبدافع من هذا الانتباه، ترتقي مراقي السماء... وتحولت الأعين إلى الفضاء ترسم في إطاره لمريم صورة ألقت فيها عليها من الطهر وشاحاً حاكه من الينبوع العاطفي مدد أبى تحت ضغط من فيض الشعور إلاّ أن يستفيض فيُقرن بصورتها صورة يسوع وليداً فتصوره طفلاً بين ذراعيها محمولاً!.. وبهذا التصوير ازدادت في النفس البشرية على انطباع انطباعاً، ولكن تحت لون من الجدة قشيب، صورة قديمة أخرى هي تلك التي رأيناها في غير المسيحية من قديم الأديان وبالتحديد في مصر القديمة في لاهوت عين شمس كما في كريت ومحورها عقيدة الإله الطفل والطفل الإله أو بالأحرى؛ الإله المجسّد في الطفل!...

ولكن!.. لما كانت هذه الصورة قد ارتسمت في نفس الإطار الذي كانت تقف فيه «إيزيس» سيدة للسماء وفكرة مجسّمة للطهر وعليها منه فضفاض رداء وبين ذراعيها «حورس» محمول فقد بدأت، في غير تغيير للجوهر من الصورة، تتغير من الشخصيات

الأسماء تغيّراً به امتدت يد الزمن تكتب نهاية لإيزيس، تلك التي كانت قد أشرقت في ضحى العصر سيدة واحدة للسماء، ببداية لهذه التي أمست في مغرب العصر تنادي: **مريم أم الإله وسيدة السماء!**

كلا!.. من على كرسي بطريركية القسطنطينية هب، سنة ٤٣٠م. «نسطوريوس» وارتفع به للناحية الفكرية من اللاّهوت صوت مستنكراً تأليه مريم ومناداتها بهذه المناداة التي جاءت نتيجة حتمية لإقرار «المجتمع النيقي» مذهباً كانت قد اعتنقته مدرسة الإسكندرية مذ عهد ديسقورس ونفسه إنما مذهب يرفضه التفكير الصحيح ولا يستقيم والمنطق السليم!. ومجاهراً بالاستنكار راح الصوت من نسطوريوس يعلن:

إن مناداة مريم بأم الإله إنما بدعة يجب لها إلغاء!. يجب لها إلغاء لأن مريم لم تلد إلاّ الإنسان ولأن العنصر الإلهي الذي هو «الكلمة» ليس له في الحقيقة أم!.. ولأن للمسيح طبيعتين متمايزتين: بشرية عند ولادته وإلهية حين نفخ فيه «كلمة اللّه» وحلّت فيه «روحه القدس»، فإن «الكلمة» لم يتحد بجسد يسوع المسيح على طريق الامتزاج وإنما!. كإشراق الشمس في كوة أو على بلورة!. إن اتحاد «الإلهي» «بالإنساني» لم يكن إلاّ كاتحاد الماء بالزيت! ـ يلقى الزيت في الماء ـ ولكن!. كل واحد منهما باقٍ على حاله!..

ومجادلاً علا الصوت النسطوري يؤكد عقيدته قائلاً:

إننا نؤمن بالطبيعة الإلهية في المسيح ولكننا نأبى بل ونستنكر التسوية بينه وبين اللّه في الدرجة والقدم!..

من ثم يبطل بطلاناً تاماً «مذهب المساواة» وتحرّم تحريماً جازماً مناداة مريم، وهي التي لم تلد للإله وإنما ولدت الإنسان، بأم الإله!. فإن من الكفر البيِّن القول بأن يسوع، وليس هو إلاّ «كلمة اللّه» التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول، الإله مساوٍ، كما أن من الكفر الصريح مناداة مريم بأم الإله!

من نفس اللاّهوت وفي أرجاء اللاّهوت ارتفع الصوت اللاّهوتي مستنكراً للاهوت صيغة!. يصمها بالبدعة ويصفها بالكفر!. واللاّهوت إذ يطلق الصوت مستنكراً للاهوت عقيدة فليس إلاّ ليترك هذا الاستنكار واضح الأثر، فقد أثار في داخل البناء اللاّهوتي صخباً سجل هزة سجلت:

الخلاف اللاّهوتي من حول عقيدة المساواة وتأليه مريم

اندلع في داخل البناء اللاّهوتي الخلاف من حول «عقيدة المساواة» كأثر لتأليه مريم.. وارتفعت من هذا الخلاف، الذي أثير في القرن الخامس الميلادي، اللهب نيراناً ألسنتها ألسنة

اللاّهوت التي استرسلت تعلن للعالم أن بين اللاّهوت واللاّهوت قد أسفر، في عهد كانت أحداثه السياسية قد غيّرت معالم الخطوط الجغرافية، الجدل من حول العقائد الأساسية في المسيحية!.

في هذه المرحلة من الاضطراب الوجداني وجدت الكنيسة المسيحية نفسها مضطربة حول **«مذهب المساواة»** و**«عقيدة التجسّد»** بمجادلات معقدة يرسلها لاهوت يجادل من نفس الدين لاهوت لم يحل اتفاقهم جميعاً على الوحدانية في الأقانيم عن اختلافهم في أمر الطبيعة اليسوعية ولم يحد إيمانهم بقدسية المسيح من إرسال الأسئلة التي راحت من جديد تتوالى ومستوضحة تتساءل: هل الأب مساوٍ للابن؟.. وهل الابن ذو طبيعة واحدة أو ذو طبيعتين إلهية وإنسانية؟ وهل هو إله أو إنسان مفضّل على سائر البشر؟!. وهل يصدر «الروح القدس» عن الأب والابن معاً؟. وهل المسيح هو «الكلمة» الابن فقط أو أن «الكلمة» والابن مترادفان؟ أو أن «الكلمة» هو الأب الإله والابن الإله معاً؟!.

وسعيراً، على تفسير المعنى من كلمة الأب والابن والروح القدس وطبيعة يسوع وطبيعة «الكلمة» احتدم بين اللاّهوت واللاّهوت جدل جديد، ما كانت لجذوته قط أن تشتعل لو إلى استعراض نشأة العقيدة عن «الكلمة» في سفر التاريخ كان اللاّهوت قد عاد!. بل ولو أن اللاّهوت كان قد عاد إلى الأصل من نشأة المسيحية وتكوينها لما كان القديم ولا كان الجديد من الخلاف قد استعر!..

ولكن!. في انصراف عن الأصل من منشأ «الكلمة» وفي انصراف عن الأصل من نشأة المسيحية وتكونها إلى دين انصرف اللاهوت، في معقليه، إلى جدله، فالصوت من نسطوريوس يزداد من على كرسي بطريركيته استرسالاً، لا ليرج أرجاء القسطنطينية فحسب وإنما ليرج أرجاء العالم المسيحي قاطبة فالصوت النسطوري ليس إلاّ الصدى من صوت اريوس!...

أجل... كالاستنكار الأريوسي من قبل جاء الاستنكار النسطوري وعلى هدي منطق سليم هبّ يحاج بألا اتفاق هناك بين دعوة «الوحدة» في الإله مع مذهب «المساواة» فكيف يمكن أن يكون الإله واحداً في نفس الوقت الذي يكون هناك آخر له مساوياً؟!..

وعلى أسس هذا المنطق اتخذت المحاجاة النسطورية لحجتها دعامة فتقول:

من ينبوع المنطق ومن تيار اليقين نغترف الدليل ويستقيم لدينا البرهان بأن يسوع ليس للإله مساوياً، فواحد إنما الإله، وتأليه يسوع إنما إقحام الإنسان للإنسان في الألوهية ولصرح الوحدة الإلهية اقتحام!.. بلى ـ إن يسوع من الإله قريب، ولكن!. القرب ليس المساواة!

كالأريوسية أبت هذه الناحية من التفكير اللاّهوتي المسيحي إلاّ لوحدة الإله صوناً ومن ثم استرسلت مندّدة التنديد الصارخ بمذهب «المساواة» ليقيم هذا التنديد، على الأسس الأريوسية، للنسطورية صرحاً انبعث من أرجائه رجع الصدى معلناً:

بعث: «مذهب الوحدة»

لا ثمة شك في أن النسطورية قد خضبت بالفلسفة الإغريقية وبالأفلوطينية في «واحدها» تأثرت، فقد مالت في شرحها للأقانيم عن الناحية الحسية إلى الناحية العقلية والمعنوية وإن تك في نطاق دين هي به من الضياع ضنينة قد التزمت هذا الشرح العقلي في حدود هذا الدين فقالت قوله بالوجود والعلم والحياة... فليس إلاّ بمدد إغريقي قامت تشرح شرحاً عقلياً الوجود والعلم والحياة. فهي إذ تنادي أن اعترافها «بالثلاثة» ليس معناه الاعتراف بالتثليث على النحو الذي قد صاغه «المجتمع النيقي» فلس إلاّ لتقول بأن هذه الأقانيم لا ترجع في الحقيقة إلاّ إلى شيء واحد هو «الوجود»!. وأما «العلم» وأما «الحياة» فأقنومين أو اعتبارين لا يوجدان كثرة حقيقية في الوجود الذي هو «أصل» والذي هو اللّه!

أجل... لقد التزمت النسطورية هذا الشرح العقلي وقالت بالوجود والعلم والحياة على أساس أن هذه إنما أقانيم وليست صفات.. لأنها لو قالت إن هذه صفات فالصفات إنما تجر معها جوهراً آخر غير اللّه.. فهي إذا وصفته بالقدرة وقالت إنه قادر فقد جرت هذه الصفة معها جوهراً آخر وهو المقدور عليه، وإذا وصفته بالسمع وقالت إنه سميع فقد جرت هذه الصفة معها المسموع به... وأما وهي تقول بأنه «موجود» فهذه إنما صفة لا تجر معها جوهراً آخر سواه، وكذلك وهي تقول بأنه **«حي»** فهذه أيضاً لا تجر معها جوهراً غيره، وكذلك وهي تقول إنه **«علم» «حي»** فهذه صفة، تماماً كالصفتين السابقتين، لا تجر معها جوهراً غيره، فهذه صفات ثلاث كل واحدة منها وإن كانت غير الأخرى فأقانيم لواحق لوحدة جوهرية!...

وهكذا نرى أن النسطورية قد نأت عن «المساواة» ولها نفت بقدر ما اقتربت من الناحية التي تتجلى فيها الألوهية صبغتها «الوحدة» وبقدر ما أكدت لهذه «الوحدة» خلدت إليها إخلاداً نفت فيه أن يكون هناك تثليثاً في أصل العالم لتمتد من على كرسي بطريركيتها في القسطنطينية تعلن نفي مذهب «المساواة» وإعلان مذهب «الوحدة»!

يقيناً إن البناء الديني المسيحي يكاد بالنسطورية أن يتصدع!...

أجل.. لقد كاد هذا البناء من قبل أن يتصدع عندما هبّ من على كرسي بطريركيته في الإسكندرية اريوس لو لم يسارع «المجتمع النيقي» فيخرج من داخل هذا البناء اريوس وله

يلعن ويكفّر!.. والآن الآن ونطوريس يُهب من على كرسي بطريركيته في القسطنطينية ينادي نداء ليس هو إلاّ رجع الصدى من صوت اريوس فيعرض بذلك «قانون المجمع النيقي» للانتفاض، فليس إلاّ ليعرض نفسه لغضبة الكنيسة التي سرعان ما تكتلت وعليه انصبت متمثلة بـ «سيريل»!.. فمن على كرسي بطريركية الإسكندرية هب ثائراً «سيريل» تمده العصبية الدينية بمواد الزود عن عقيدة «المساواة» ومن ثم فالتهاب نضاله ضد «الوحدة في الإله» دفاعاً عن «الوحدة في المسيح»!.. وأمدته سلطته الكنائسية بقوة استهل بها سخطه على الفلسفة الإغريقية التي أثارت هذه المواضيع وجاءت بهذه المشاكل، فكان سخطه ذلك السخط الذي تسبب في تلك المأساة التي امتدت بها اليد اللاهوتية المسيحية إلى من قد ولعت بالفلسفة، وفي مدارج الإسكندرية علمت الأفلاطونية الحديثة فسحبتها من عربتها وجرتها إلى الكنيسة جراً حيث سلخ «المؤمنون» لحمها ثم ألقوا به إلى الناس!.. وكأن مأساة «هيباثيا»، هذه المأساة التي جاءت بين تهاوي شمس الفلسفة عن الإسكندرية نحو الغروب، قد أسرعت بهذه الشمس نحو المغيب، فقد انسدلت بعد ذلك ظلمة سحبتها على أرجاء الإسكندرية يد «سيريل» الذي لم يستهل سخطه على الفلسفة الإغريقية إلاّ ليتحول ويرسل حمماً لظياً سعير غضبته على نسطوريوس!..

وعلى نسطوريوس، جزاه استخفافه بقانون «المجتمع النيقي» استخفافاً بسببه انقسم اللاّهوت المسيحي على نفسه إلى فريقين، بدأت لعنة الكنسية الجامعة الرسولية تتصبب وعليه تنصب!.. وكما انعقد «مجمع نيقية» للحد من مذهب اريوس كان حتماً أن تسرع الكنيسة المسيحية وتعقد، للحد من مذهب نسطوريوس، مجمعاً آخر ومن ثم كان انعقاد:

مجمع إفسس ٤٣١ وتثبيت «عقيدة المساواة» وتشريع مناداة مريم؛ «العذراء أم الإله»

في «إفسس»، وإفسس مقر عبادة «السيدة العذراء أرتميز»، انعقد مجمع ديني آخر لأعضائه جمع سيريل يعضده «سيلزلين» بطريرك روما و«جفناليس» بطريرك أورشليم... واستهل «المجمع الإفسسي» انعقاده بالمصادقة على ما جاء به «المجمع النيقي» من قانون متخذاً من هذه المصادقة دعامة دعم بها عقيدة «الوحدة في المسيح» وعلى أساس هذه العقيدة قام فلعن نسطوريوس لقوله بالطبيعة الثنائية في المسيح ورفضه، على أساس نعت مريم بأم الإله، وليختتم هذا المجمع اجتماعه متخذاً عقيدة «الوحدة في المسيح» أساساً لتثبيت «عقيدة المساواة» ولإعلان شرعية مناداة مريم بالسيدة العذراء أم الإله!..

ولانفضاض «المجمع الإفسسي» عن هذه النتائج، في عهد كانت الموجة المسيحية فيه قد علت وتعالت وامتدت تجترف إليها التيارات الدينية القديمة وعليها تطغى، كان خطير الأثر

في التفكير الديني القديم عامة وفي التفكير الديني الجديد خاصة، فأما أثره في التفكير الديني القديم فينحصر في تشريع مناداة مريم بالسيدة العذراء في مقر تحتله سيدة عذراء!.. فلقد حول هذا الإعلان، العنق الإفسسي عن أرتميز إلى مريم تحولاً كان حتماً، تحت ضغط تيار الدين الجديد، أن ترضخ له في سلاسة الجماعات وأن تنسى، شيئاً فشيئاً، تحت بهرة اللون الجديد باهت اللون القديم ما دام إيمانهم بسيدة عذراء قد ظلّ هو الإيمان!. فالاعتقاد المتمكن بسيدة عذراء لم يمس بأي مساس!..

وهكذا بدأت أرتميز في التواري من وراء مريم حتى تلاشت فيها تمام التلاشي وحتى عن جفن الزمن بدأت تغيب وتستحيل فيه إلى ذكرى، فقد احتلت هذا الجفن مريم فقد تجاوبت أرجاء إفسس بما أرسله «المجمع الإفسسي» من قرار زاح به رجع الصدى ينادي «السيدة العذراء» باسمها الجديد: مريم!.

هذا هو خير الأثر الذي تركه «المجمع الإفسسي» في التفكير الديني القديم وكان من جرأته أن حلّت عبادة «السيدة العذراء مريم» في القلب الإفسسي محل عبادة «السيدة العذراء أرتميز» وأما الآخر الذي تركه هذا «المجمع» في التفكير الديني الجديد فكان تثبيت «القانون النيقي» ومن ثم توكيد عقيدة «المساواة» بانفضاض انعقاده برفض نسطوريوس من الجماعة الإكليركية وإلحاق لعنة الكنيسة به ولفظ النسطورية عقيدة ملفوظة!..

أجل... لقد لعن «المجمع الإفسسي» نسطوريوس لرفضه، على أساس قوله بالطبيعة الثنائية للمسيح، التسوية بين المسيح واللّه ونعت مريم بأم الإله، وكما أعلن إلحاد اريوس من قبل أعلن في أرجاء الصرح الديني إلحاد نسطوريوس!

عن الدين المسيحي دفع المجمع الإفسسي بعيداً نسطوريوس فهوى من على كرسي بطريركيته لتزداد عليه انصباب لعنات اللاّهوت، وتقذف بكتبه إلى النار وليلاحقه، حتى أقاصي صعيد مصر حيث إليه كان قد نفي، صوت الكنيسة البيزنطية، كنيسة الشرق الأدنى، تعده بالمسيحية الصحيحة قد كفر وعن الحظيرة الكنائسية قد مرق، وعن الجماعة المسيحية قد خرج، بل وتقرر استحقاقه من أجل إنكاره مذهب المساواة وقوله بأن نعت مريم بأم الإله بدعة، لعنة الإله المسيح!.

ومن سلطتها الرسمية استمدت الكنيسة الجامعة الرسولية القوة فراحت توالي قذف الحمم لترسله يحيط بنسطوريوس وبأريوس، وعلى اتباعهما ينصب بقرار يتلو قرار يقول: بأن من أبى إباء أريوس في الإسكندرية، وأنكر إنكار نسطوريوس في القسطنطينية ولمنهجيهما في التأويل والشرح العقلي نهج، فعلى الكنيسة خروجهما خارج!. وخارج على الكنيسة فإنما

عن المسيحية الصحيحة كل الردة مرتد بالعقيدة الإلهية الصحيحة في المسيحية تام الكفر كافر!...

ولكن عند هذا الحد أيضاً لم تكف الكنيسة بل، والمسيحية قد أصبحت في هذا الطور من العصر ديناً رسمياً للإمبراطورية وقويت منها الشوكة، استجمعت قوتها ورفعت قبضتها!... وارتفعت القبضة اللاّهوتية لا لتهدد بالبطش وإنما لتهوي باطشة!... قوية غدت ومن ثم لم تقف عند الحد من لعن نسطوريوس وإعلان إلحاده وإنما بدأت يد البطش الكنائسي تمتد!.. وقوية امتدت يد البطش الكنائسي إلى أتباع النسطورية تطاردهم وتحاول لهم استئصالاً من الهيئات الكاثوليكية وخاصة في القسطنطينية حيث كان منها المنبت.. مستهلة بذلك صفحة جديدة في سجل الاضطهاد الديني سطورها:

الاضطهاد الديني المسيحي

مذ أعلنت المسيحية ديناً للإمبراطورية رسمياً وارتفعت منها الموجة هادرة وامتدت مجترفة قويت شوكة الكنيسة المسيحية وارتفعت بقبضة البطش يدها!.. انقلب النداء القديم بالتسامح صراخاً يدوي معلناً أن الجديد من الأوضاع يحلل الكنيسة من الاستمساك بالمبدأ القديم القائل بأن المعتقد الديني أمر اختياري!..

أجل، لقد تغيرت الأوضاع وبتغير الأوضاع تغيرت سنة الكنيسة من تسامح تام إلى بطش تام، ففي يدها قد أفرغت يد الزمن السلطة والسلطان كما لامتلاك هذه السلطة وللظفر بهذا السلطان كانت الفطنة اللاّهوتية من قبل قد أعدت لحظة طلعت على الدنيا وفي يدها ذلك الصكّ أو تلك الوثيقة، «منحة قسطنطين»، التي بسببها قام مكان القصر القيصري القصر البابوي والتي بها حلّ على عرش المخلص الروماني خليفة المخلص العبري، ومن ثم طلعت قوة تصلي الناس صولتها وتبدأ في سجل الاضطهاد الديني صفحة سطورها دماء كل جانح عن قيودها وكل رافض للعقيدة التي شرّعها «المجمع النيقي»، وكل من أبى الإيمان بما شرّعه «المجمع الإفسسي» من تشريع...

تجاه هذا الاضطهاد الديني وأمام هذا السلطان اللاهوتي كان حتماً أن تنحني صاغرة الهامة الجماعية وأن يروح منها اللسان يعلن الإيمان بما قد قرره من قبل «مجمع نيقية» وبما قرره من بعد «مجمع إفسس» وليزيد هذه الهامة أمام السلطة اللاّهوتية على انحناء انحناءً انعقاد:

مجمع خلقدونية ٤٥١م. وتدعيم «عقيدة التجسّد»

عقد «مجمع خلقدونية» لا ليدعم «عقيدة التجسّد» فحسب ولا فحسب ليقرّها ويحكم

في النفس المسيحية عقد عقدتها وإنما لأن من مصادر خفية قد سرى في الجماعة المسيحية الهمس بسؤال إليها قد ألقي يتساءل: إذا كان المسيح حقاً إلهاً فكيف قد ناله الردى، وللإله إنما الردى لا يُنال؟.

ليس إلاّ لرد موجة هذا السؤال جزراً عقدت الكنيسة هذا «المجمع» الذي كوّنه اجتماع ثلاثمائة وستون أسقفاً والذي قامت فيه «الملكائية» تؤكد «الصيغة النيقية» توكيداً يقوم على أساس الشرح لعقيدة المساواة شرحاً اضطلعت هي به فاستقامت تقول:

يقيناً إن اللّه مثلث الأقانيم، فهو إنما عبارة عن ثالوث يكونه: الأب والابن والروح القدس وأما كيف؟... فإن الابن مولود من الأب قبل الزمن وغير مخلوق فإنما هو جوهره ونوره، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصار واحداً هو المسيح، فإن «الكلمة» قد اتحد بجسد «المسيح» لا على طريق الإشراق وإنما على طريق الامتزاج كاتحاد النار في الصفيحة المحماة!.. ومن هنا نرى أن مريم قد ولدت الإله والإنسان معاً، وأنهما، الإله والمسيح، شيء واحد وليس أحدهما غير الآخر وعلى ذلك يكون «المسيح» ذا طبيعة واحدة وإله تام!

من ثم فللسائل المسيحية، كيف ينال الصلب الإله؟. يأتي الجواب؛ إن الإله لم ينله الصلب لأن الإله قد اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم التي ولدت الإله والإنسان معاً، ومن ثم فإن ما من المسيح قد صلب فالإنساني فيه وأما الإلهي فيه فقد ارتد عنه الردى!

وإلى هذا الشرح اطمأنت من القلب المسيحي السويداء.. اطمئناناً اتخذه «مجمع خلقدونية» دعامة لتدعيم «عقيدة الجسد»!..

ولكن!. هذا التشريع الذي جاء فأحكم العقدة من «عقيدة التجسّد» والذي قد امتد مداه المنطقي نافياً عن الإله ظاهرة الردى إنما كان تعزيزاً غير مباشر لمذهب آخر من المذاهب التي تعود إلى المسيحية بأسباب نشأتها وإن كانت المسيحية قد عدته عليها مارقاً لرفضه القول بصلب يسوع، ونفيه بهذا الرفض «عقيدة الفداء» وهي التي تمثّل عقدة العقائد في المسيحية... فهناك من طوايا ذلك الزمن البعيد يطلع علينا هذا المذهب الذي جرى في غير ضجة منه التيار حاملاً اسم:

«الديصانية»

بعقيدة عملت في هدوء، وبهدوء تركت على الزمن أثرها.. فهي عقيدة لا تقول بطبيعة إلهية صرفة «للمسيح» إلاّ لتذهب بقدسية «المسيح» مذهباً استنكرت فيه أن يناله، وهو والإله إنما واحد أحد، الموت، لتستمد من مادة هذا المنطق حجتها لتنفي الصلب قائلة:

إن يسوع لم يصلب وأما من قد صلب فليس إلاّ محض طيف به شبيه!.

ولكن.. بينما راح الصوت من هذا المذهب لهباً هادئاً ينفث في وعي الزمن عقيدته هذه، القائلة بأن اليهود لم تصلب يسوع وإنما من قد صلبوا فآخر هو لهم بيسوع قد شبّه، كانت المجامع اللاّهوتية في شغل شاغل بتدعيم «الصيغة النيقية» فالمجامع اللاّهوتية لا تنعقد ولا تنفض إلاّ لتقرير شرعية هذه الصيغة التي زادها في القلب المسيحي رسوخاً على رسوخ انعقاد:

مجمع القسطنطينية ٦٨٠م وتمليك يسوع إرادتين: إلهية وبشرية

لتقرير قرار واحد انعقد «مجمع القسطنطينية» لينفض عنه معلناً:

إن ليسوع إرادتين كل منهما في ذاتها تحتوي على إرادة ذاتية: إرادة إلهية مستمدة هي من طبيعته الإلهية كواحد هو والإله، وإرادة بشرية مستمدة هي من تجسّده على الأرض في صورة بشرية.

وبهذا ملك اللاّهوت يسوع إرادتين، إلهية وبشرية..

وجاوبت الأرجاء اللاّهوتية قرار هذا المجمع بالإيجاب بل ولهذا القرار عزّز اعتناق الكنيسة الغربية «بالصيغة النيقية» وحصرها في حدود الدين الحق، فقد جعلت الكنيسة الغربية الاعتراف «بالصيغة النيقية» شرطاً أساسياً للإيمان الصحيح مما أضحى به «مذهب المساواة» يمثل المعتقد الجوهري لهذا المذهب الذي انسلخ عن الموسوية وأشرق في مغرب العصر الهلليني الروماني ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية!..

أجل... في مغرب العصر الهلليني الروماني أشرقت المسيحية ديناً رسمياً تمكنت بذلك سيطرته على مرافق التفكير قاطبة بيد أن لما كان لاهوته قد انقسم على نفسه بسبب محاولته تفهم معتقداته الجوهرية، فقد جرت من هذا الدين مختلف العقائد التي طالعنا بها:

تيارات المذاهب المسيحية

إلى عدة تيارات تفرّعت من مصب واحد المسيحية فانقسمت بذلك إلى جملة طوائف ومذاهب، بيد أن أقوى هذه التيارات هديراً وأهمها كانت:

الملكائية، أو هذا المذهب الذي به قد مررنا في «مجمع خلقدونية» والذي قد قوي له انتشار في بلاد المغرب وصقلية والأندلس والشام..

والأريوسية، أو هذا المذهب الذي انتشر في أكثر البقاع التي انتشر فيها ذلك المذهب الآخر الذي استنكر استنكاره تأليه يسوع..

والنسطورية، أو هذا المذهب الذي انتشر في أرجاء الشرق القديم فراراً من اضطهاد

الكنيسة ليمتد حتى الهند والصين غامراً العراق وفارس والموصل ومتوغلاً في أنحاء شبه الجزيرة العربية لينتهي فيها هناك حيث كان قد حلّ في البصرى على تخوم الشام بدير من أشهر رهبانه على التاريخ ذكراً، سرجيوس وبحيرا...

ولكن!. لئن كان بعيداً عن مجراه الطبيعي قد جرى التيار النسطوري هادراً بألوهة ماهيتها الوحدة المطلقة نافياً تأليه يسوع ومريم وغير معترف بمريم إلاّ عذراء بتول وبيسوع إلاّ «كلمة اللّه» و«روح اللّه»، فإن في جرأة على أرضه وفي مجراه الطبيعي غامراً تربة العالم المسيحي كان يجري ذلك التيار الآخر الذي أرسله «المجمع النيقي» بعقيدة تعود بفكرتها إلى ديسقورس وحاملاً اسم:

الديسقورسية، أو هذا المذهب الذي عرف باليعقوبية نسبة إلى يعقوب البراذعي الذي جاء في القرن السادس متمماً لديسقورس سابق اتجاه ومؤكداً له، قال قوله بالأقانيم الثلاثة والجوهر الواحد رافضاً إلاّ تأليه «المسيح»، فلدى اليعاقبة قد انحصر المعتقد في أن «الكلمة» قد اتحد «باليسوع» اتحاداً ليس هو، كما تقول النسطورية، «اتحاداً إشراقياً» كإشراق الشمس في كوة أو على بللور!.. كلا ولا هو، كما تقول الملكائية، على ريق «الامتزاج»!.. كلا!.. وإنما هو على طريق «**الظهورية**»!. فالاتحاد إنما قد كان كاتحاد الخمر والماء!. يضاف الماء إلى الخمر فيصيران شيئاً واحداً!.. وليس إلاّ كالمثل قد انقلب «الكلمة» فصار لحماً ودماً وبهذه الصيرورة صار الإله هو المسيح وهو الظاهر لجسده بل هو هو، ومن ثم فيقيناً إن اللّه هو المسيح والمسيح هو اللّه!

وانتشر هذا المذهب، مذهب اليعاقبة، في الأرجاء الواسعة من رقعة العالم المسيحي كما كثر له في مصر والنوبة والحبشة أتباع ليجري هذا المذهب هادراً «بالمساواة» ممثلاً التفكير اللاّهوتي المسيحي الصحيح بانصرافه إلى الناحية الحسية للأقانيم وقوله بالتثليث في أصل الأصل!..

والآن!.. الآن آن لنا أن نتساءل؛ ما هي هذه العقيدة، عقيدة التثليث، التي شرّعها «المجمع النيقي» في الفجر من عصر المسيحية، التي مذ ذاك العصر الحاضر ظلّت تمثل القاعدة الأساسية في صرح الديانة المسيحية ومن حولها تلتف الجماعة المسيحية وبين جانبيها معقود الإيمان بأن الإيمان بها إنما رهين صحيح الإيمان؟!..

سؤال، يلج بنا إلى:

ماهية التثليث المسيحي

لا ثمة شك في أن الإيمان «بالصيغة النيقية» والامتثال «لقانون أثاناسيوس» يمثل رأس

العقيدة في الدين المسيحي، فهو إيمان ينحصر في الاعتقاد بأن اللّه واحد أحد فرد صمد أزلي بلا بداية وأبدي بلا نهاية لا مثيل له في ذاته ولا شريك له في صفاته، ولكن!.. هذه الوحدانية إنما وحدانية مثلثة الأقانيم!.. ومن ثم فهو إيمان ينحصر في الاعتقاد بأن اللّه جوهر مثلث الأقانيم؛ أب وابن وروح قدس ، أقانيم ثلاثة تضمها ذات واحدة والأقنومية فيها إنما غير «**عين الذاتية**»!...

ولكن!.. لنا الآن تام الحرية ومطلقها في أن نسأل؛ كيف يمكن اعتبار الأقنومية غير «عين الذاتية» والأقنوم إنما ذات ممتاز عن غيره، وعن غيره يتميز بصفة أو بصفات؟!.. كيف يمكن أن تكون هناك ثلاثة أقانيم ولا تكون هناك ثلاث ذوات؟!..

وكيف يمكن اعتبار اللّه جوهراً، والتمييز إنما يناقض التطابق وتعدد الأقانيم إنما يناقض الوحدة وينسب التركيب والتجزئة إلى اللّه؟!. وكيف يمكن الاعتقاد بنسبة البنوة إلى اللّه وهذا إنما بالقدسية الإلهية مُخل؟!..

أسئلة تترى كما يستمدها من الينبوع المنطقي التفكير ولا يأتينا عنها الجواب إلاّ ونحن نستعرض دفاعات التفكير المسيحي عن عقيدة «المساواة» ورد الاعتراضات على القول «بالتثليث» التي لا نخرج بها هذا الاستعراض إلاّ مقتنعين بأن بين العملي والنظري تتراوح في التفكير الديني المسيحي عن التثليث عقيدة، ففي الجانب العملي من هذه العقيدة لا يتمثل الإله في واحد، وإنما واحد في آحاد ثلاثة ولكن!.. هذا لا يحمل المعنى كما قد يُفهم على ظاهره من ثلاثة آلهة! كلا ولا أن اللّه ثلاثة أشخاص يسمى الواحد أباً والآخر ابناً والثالث روحاً!. كلا!. فإنما المراد بذلك غير اللفظ الظاهر وغير ظاهر اللفظ!.. بل إن كل من يحمله على ظاهره فهو إنما بحقيقة العقيدة من التثليث المسيحي غير ملم إذ ليست هذه الآحاد الثلاثة ثلاثة آلهة مختلفة أو ثلاثة أجزاء مبضعة أو ثلاثة أشخاص متفرقة أو ثلاثة قوى مركبة أو غير ذلك مما يقتضي التشبيه والتجزؤ والتبعيض!. كلا!. فإنما هي أقانيم!

أجل.. إن الأقنوم كلمة يونانية معناها الوضعي يقرب من كلمة شخص ولكن لها معنى اصطلاحي آخر هو هذا الذي يطلق في التسمية على كل من الأب والابن والروح القدس كوحدة هي في الثالوث الإلهي غير متعطلة، ومن ثم ليست هذه الأقانيم، بصفات أو أسماء!.. فهي أقانيم ثلاثة في إله واحد أو بالأحرى في ذات الإله الواحدة، فإنما الإله إله واحد مثلث الأقانيم وكل أقنوم قد اتخذ مظهراً خاصاً لتعميم غرض إلهي فكان الأب والابن والروح القدس، وليس في هذا التمييز ما يناقض التطابق في حد ذاته!. كلا وليس في هذا التعدد ما يناقض الوحدة وينسب التركيب والتجزئة والتبعيض إلى اللّه!.. كلا!..

فإن العقل في استناد إلى المنطق يقول بأن التطابق لا يظهر ولا يفهم إلاّ مع التمييز!. وهل يقال إن هذا يطابق ذاك إلاّ إذا كان هناك اثنان ـ أو أكثر ـ طابقا بعضهما في فكر أو رأي أو عمل؟. وإذا كان لا يوجد إلاّ شخص واحد أو شيء واحد فلا يقال إن هذا الشخص أو هذا الشيء يطابق ذاته بذاته، فإن المطابقة لا تكون قط إلاّ بين اثنين وأكثر..

وما يقال عن التمييز والتطابق يقال عن الوحدة والتعدد، فالوحدة لا تفهم إلاّ مع التعدد بل ولا يفهم معناها ولا تكون وحدة حقيقية إلاّ إذا كانت تحتوي في ذاتها تعدداً، فلا يقال عن الواحد إنه متحد إلاّ بوجود آخر أو أكثر حتى يقوم الاتحاد ويستقيم له معنى، بل إن الواحد لا يمكن أن يعرف كواحد أو يقال عنه واحداً أو يعد كواحد إلاّ إذا كان واحد آخر أو أكثر ليعدوه ويقولوا عنه إنه واحد، فالتعدد من ثم هو الذي يظهر الواحد وتظهر فيه الوحدة ويستبين به معنى الاتحاد!..

ومن هنا نفهم أن القول بأن اللّه ذات واحدة مثلثة الأقانيم أو بالأحرى إن ذاته الإلهية قائمة بثلاث أقانيم إنما قول لا يقدح الوحدة الذاتية، ولا يخدش الوحدانية الخالصة بخدش الإشراك، إذ ليس هناك تعدد إلاّ باعتبار الأقانيم فاللّه إنما ذات واحدة ولا تعدد في الذات، وإنما التعدد في الأقانيم، فإن اللّه واحد بالنظر إلى ذاته وثلاثة بالنظر إلى أقانيمه وليس في ذلك إشراك لأن هذه الأقانيم ليست ذوات منفصلة عن الذات وليست صفات مغايرة للذات!.. كلا!. وإنما كل أقنوم قد اتخذ مظهراً خاصاً لقصد إلهي غايته تربية الناس على «المحبة» وقيادتهم إلى خلاص نفوسهم، فاللّه إنما من خلال هذه الأقانيم قد أظهر ذاته ويُظهر صفاته مجرّد العلم بها كي يعرفه الناس المعرفة التي تجعلهم يتشبهون به في قداسته وكماله ورحمته ومحبته!.. فما الدين وما التعبُّد إلاّ تشبه العابدين بمعبودهم وما كان الناس ليعرفوا التشبه باللّه لولا ظهور اللّه في الأقانيم!. وإذا كان اللّه قد تجسّد، ردحاً من الزمن، في صورة بشرية فإنه إنما من خلال الروح القدس، سرمداً، يعمل، ولأرواحنا، التي ليست إلاّ منه فيضاً، إلى ذاته يهدي!.. فالتثليث ليس تعليماً عقلياً فقط وإنما هو وسيلة لإعلان اللّه نفسه للناس، فليس إلاّ لأن اللّه مثلث الأقانيم، الأب والابن والروح القدس، جاء الابن يعرف اللّه كمال المعرفة ولذلك قدر، بناءً على معرفته التامة به أن يعلن كماله للناس!.. وكالابن إنما الروح القدس فهو لأنه من جوهر اللّه قدر ويقدر أن يعلن اللّه لأرواح البشر!.. فليس إلاّ بواسطة الأقانيم يقترب اللّه تمام الاقتراب إلى الكائنات المحدودة ولولا هذا الاقتراب لكان اللّه بعيداً عن البشر محجوباً عن الإدراك منفصلاً عن الوجدان!..

ثم إنه إذا كانت الأقانيم وسيلة لإعلان اللّه عن نفسه للناس فإن في الأقانيم أيضاً كانت

الوسيلة إلى إتمام عمل الفداء الذي تحقق بواسطة الأقنوم الثاني أو الابن، فلولا ظهور اللّه في أقنومه الثاني لما كان هناك فداء، فما كان هذا الفداء ليتم لولا تضحية اللّه بنفسه في صورة الابن.. كلا!. إن القول بالابن ليس المراد به ظاهر اللفظ وإنما المراد به هو المعنى وليست نسبة البنوة إلى اللّه!. يقيناً إن نسبة البنوة إلى اللّه مخلة بالقدسية الإلهية ولكن هذا إذا أخذنا اللفظ على ظاهره لدلالته على التوالد الجسدي ولأن التوالد الجسدي يقتضي التتابع الزمني إذ يتقدم الأب على الابن في الوجود وبالتالي لا يكون الابن أزلياً كالأب.. ولكن!. بالابن، كأقنوم، لا يُقصد ظاهر اللفظ لأن ولادة «الإله الابن» من «الإله الأب» لم تكن ولادة جسدية وإنما ولادة روحية، فإن بنوة المسيح للّه ليست عن طريق التوالد الجسدي!.. كلا!. فإن اللّه الأب لم يتخذ صاحبة ولم يلد منها ولداً ولادة مادية بل ابن اللّه هو ابن روحاني وولد عقلي!..

وأي اعتراض يمكن أن يقدم على ذلك وجميع اللغات البشرية قد استعملت كلمة ابن لمعانٍ مختلفة غير معنى التوالد الجسدي المادي؟!. لقد وردت هذه الكلمة بمعنى السُلالة وبمعنى الإشارة إلى المسكن والوطن والموطن وأيضاً بمعنى الإشارة إلى صفة أو نسبة!.. ومن ثم فليست كلمة ابن منحصرة في معنى التوالد الجسدي بل أطلقت على معانٍ كثيرة غير معنى التوالد المادي!. وعلى هذا الأساس تنتفي أن تكون بنوة «الكلمة» لله بنوة مادية أو تقتضي التتابع الزمني لأن ولادته ليست ولادة جسدية وإنما ولادة روحية عقلية ولأن اللّه منزّه عن التركيب والجسم وقائم بذاته وعلة العلل وقيّوم غير مفتقر في وجوده إلى غيره، وعلى ذلك تكون ولادة يسوع غير معلولة بل كانت كصدور النور من النار والشعاع من الشمس والنطق من العقل!.. والنور إنما مستقر في النار، والشعاع إنما مستقر في الشمس، والنطق إنما مستقر في العقل!.. وكل؟!. كل إنما للآخر لا يفارق أبداً فإنما هو له معاصر دائم!..

ومن هنا نتبيّن كيف كانت ولادة «الابن» وبالتالي نفهم ما المعنى من وراء كلمة «ابن اللّه» فالابن، وليس الابن إلاّ «الكلمة» المتحدّ بالإنسان يسوع، هو الأقنوم الثاني الذي قد تجسّد وظهر في العالم وكفّر عن خطايا الناس وشفع في المذنبين ورتّب كل وسائط التبرير والمصالحة بين اللّه والناس وعمّم الخلاص ولولا ظهوره لما كان هناك فداء ولا كان هناك خلاص ولا كان هناك بعد الموت خلود!.. ما كان ليكون كل ذلك لولا ظهور الأُقنوم الثاني في صورة بشرية، فإنما هذا عمل لا يمكن أن يقوم به من هو دون الله فهو وحده الذي يقدر أن يصالح الناس مع ذاته ويرفع عن كاهلهم ثقل «**الخطيئة العالمية**» ليمنحهم نعمة الخلود في «**ملكوت السماء**»!.

و«كالابن» إنما «الروح القدس»، الأُقنوم الثالث، فليس إلاّ لأنه الروح من اللّه والروح إنما النور والشعاع من الذات الإلهية كان ويكون هو وحده القادر على اختراق ظلمة الصدور وإنارة العالم الداخلي بوهج المحبة الإلهية!.. ليس إلاّ لأنه الحرارة المتوهجة من الذات الإلهية هو وحده القادر على تجديد القلوب وتطهيرها وإفادة العقول وهدايتها إلى اليقين من وجود اللّه!.. فليس إلاّ هو وحده الذي ينير العقول ويجذبها إلى اللّه وليس إلاّ هو وحده الذي يطهِّر النفوس التطهير المطلوب للدخول إلى حضرة اللّه والظفر بالعيشة السماوية الطاهرة!..

هذا هو الجانب العملي من عقيدة التثليث ففيها لا يتمثّل الإله في واحد مطلق وإنما واحد في أقانيم ثلاثة، وأما الجانب النظري من عقيدة التثليث فإن الإله لا يتمثّل في ثلاثة آحاد وإنما آحاد ثلاثة في واحد، فاللّه إنما واحد مثلّث الأقانيم ووحدانيته إنما وحدانية مثلثة الأقانيم، فهو الأب وهو الابن وهو الروح القدس، وكل هذه مجتمعة إنما في حقيقتها إله واحد!.. إله واحد يكوِّنه ثالوث فما «الأب» إلاّ «الابن» وما «الابن» إلاّ «الأب» وما «الروح القدس» إلاّ كليهما معاً!.. أقانيم ثلاثة في وحدة واحدة يكوِّنها إله سرمدي **طبيعته ثلاثية** كانت قبل خلق الوجود وعليها لم يزد خلق الوجود شيئاً ولم ينقص شيئاً!. وحتى ولو إلى فناء سار الوجود وفي فناء هوى فلن ينال الفناء هذه الوحدة الأقنومية، كلا ولن يمسّ فناء الوجود هذه الوحدة الذاتية لإله طبيعته أقانيم ثلاثة!.

إذاً!.. لا يسألنّ الفكر: كيف يكون الإله واحداً وذا وحدة ذاتية وفي نفس الوقت ذو وحدة أقنومية وطبيعته طبيعة ثُلاثية الأقانيم؟..

كفى الفكر ضرباً في متاهات الحيرة وكفاه بحثاً في هذه المتاهات عن دليل يُقرِّب إلى الفهم منه فهم هذا التثليث فإن هناك من الأشكال الهندسية شكلاً يُقرِّب إلى الأفهام ماهية هذه الوحدة الذاتية ذات الطبيعة الثلاثية الأقانيم ـ وهذا الشكل هو: المُثلَّث المتساوي الأضلاع.

قط ليس في الأشكال الهندسية شكل لا يقبل الزيادة ولا النقص ولا التبدل من حال إلى حال ولا التناهي في المقدار سوى المثلث المتساوي الأضلاع وهذا يدل على أن ذاته إنما واحدة إنها مجموعة زواياه في نفس الوقت الذي يدل على أن ذاته غير كل واحدة من زواياه وأن كل زاوية منهن غير الأخرى وأن كل زاوية منهن مساوية للأخرى وأن زواياه ليست قدراً زائداً على ذاته، فنحن إذا أخذنا كل زاوية على حدة فهي إنما هذا المثلث الواحد عينه!.. ونحن إذا نظرنا إلى إدراك وجوده من أي من تلك الوجوه فهو في الشكل إنما واحد من حيث ذاته أو من حيث تلك الوجوه!.

وهكذا نرى أن المثلث المتساوي الأضلاع لا يقبل الزيادة ولا النقص في ذاته وكل ما لا يقبل الزيادة ولا النقص في ذاته لا يقبل الزيادة ولا النقص في أجزائه ولا من زواياه أيضاً، فالمثلث المتساوي الأضلاع لا يقبل التبدّل من حالٍ إلى حال ولا يتناهى في المقدار وكل ما لا يتبدّل من حالٍ إلى حال ولا يتناهى في المقدار ولا يقبل الزيادة ولا النقص في زواياه أيضاً!..

من هنا تنجلي لنا غوامض عقيدة التثليث ومن هنا نفهم ماهية الثالوث الإلهي وكيف أن الوحدة الذاتية لا تتعارض والوحدة الأقنومية، إنما من شكل المثلث المتساوي الأضلاع ندرك كيف أن اللّه واحد في ذاته مثلث في أقانيمه بل إن من هذا الشكل الهندسي يأتينا الدليل الذي يمكننا من التعرف على الماهية الإلهية التي تتجلى لنا في ضوء هذا المثلث تجلّياً به نعلم:

إن اللّه إنما ذات واحدة ثلاث زوايا أيضاً، متساوي الأضلاع، وأن ذاته هي مجموع زواياه. وأن ذاته هي غير كل واحدة من زواياه ـ وأن كل زاوية من زواياه مساوية للأخرى ـ وأن ذاته ليست بقدر زائد على زواياه... وأن زواياه ليست بقدر زائد على ذاته ـ وأن كل زاوية من زواياه مع الزاويتين الأخريين إنما مثلث واحد وذات واحدة ـ وأن كل وجه من أوجه زواياه الثلاث إذا أشير إليه بمفرده دون الوجهين الآخرين اللذين للزاويتين الباقيتين، لا ينفصل عنهما ولا يفترق منهما ولا يتميز بمفرده دونهما ـ إنه لا يقبل الزيادة ـ لا يقبل النقص ـ لا يتغيّر ولا يتبدّل من حال إلى حال ولا يتناهى في المقدار فإن وجوده بوجوده!

ومن هنا نستبين المعنى من القول بأقانيم ثلاثة في ذات واحدة وندرك المعنى من وراء النص الذي جرى قائلاً:

«فإن الذي يشهدون في السماء هم ثلاثة: الأب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد».

من رسالة يوحنا الأولى

وهكذا يتضح لنا تمام الوضوح كيف أن هؤلاء الثلاثة ليسوا بآلهة ثلاثة وإنما، كما قد سبق، أقانيم ثلاثة ليست بثلاثة آلهة ولا ثلاث ذوات فإنما الإله واحد وما هذه الأقانيم التي تسمى أباً وابناً وروحاً إلاّ وحدة منه وفيه، فالأب إنما هو الذات والابن هو الحكمة من هذه الذات أو العقل أو العلم والروح القدس ليس هو إلاّ من هذه الذات الحياة!.. ومن ثم فليس الإله بثلاث ذوات وإنما!.. إنما ذات واحدة ـ وعلى هذا نستدل إذا اتخذنا الشمس مثلاً ـ

إن الشمس توصف بثلاث صفات جوهرية غير مستعارة، فنحن نقول قرص الشمس وضوء الشمس وحرارة الشمس وكل صفة من هذه الصفات الثلاث إنما حافظة لخاصتها بلا اختلاط ولا تفريق ولا تبعيض ولا تجزؤ!.. فالقرص والد الضوء والضوء مولود من القرص والحرارة منبثقة من القرص مستقرة في الضوء ولكن!.. كل هذه الصفات الثلاث إنما شمس واحدة وليست شموساً ثلاثة، وإن كان يقال لكل صفة من الصفات الثلاث شمس فنحن نقول عن القرص إن الشمس قد جرت في وسط السماء، وعن الضوء إن الشمس قد دخلت إلى وسط الدار، وعن الحرارة إن الشمس قد لفحت الوجه!..

ومن هنا نستبين كيف أن الأقانيم الثلاثة، وإن تميزوا عن بعض من الجهة الأقنومية، إنما هو جوهر واحد فالأب والابن، أو الكلمة، والروح القدس إنما إله واحد ضمّت ذاته هذه الأقانيم التي ليست قط بصفات أو أسماء لأن من المعلوم أن الصفات التي يتصف بها أي شخص أو الأسماء التي يسمى بها لا يمكن أن تخاطب بعضها بعضاً أو تتكلم عن بعضها كلاماً كما يفهم عن الأقانيم الثلاثة الإلهية. فإنما هذه الأقانيم يرسل أحدها الآخر ويخرج الواحد من عند الآخر ويرجع إليه، فلو كان هؤلاء الأقانيم الثلاثة صفات أو أسماء لما كان يمكن القول بأن إحدى الصفات أرسلت صفة أخرى أو أن أحد الأسماء أرسل اسماً آخر من الأسماء!...

من ثم، أشك، بعد في صحة التثليث وأن اللّه ذات واحدة مثلثة الأقانيم؟!.

يقيناً إن بالسلب يأتي الجواب ليأتينا باليقين بأن ليس إلاّ التثليث يوضح كمالات الإله!. فالتوحيد المطلق دون تثليث الأقانيم إنما يحصر الإله ويجعله منفرداً منعزلاً خالياً من موضوع المحبة، وهذه إنما أخصّ خواص السعادة التامة!. فإنه إذا كان اللّه واحداً مطلقاً فهو لا يقدر أن يحب غير نفسه!. وهذا إنما حب طابعه الأنانية وعن هذا الطابع تعالى اللّه كل التعالي!...

كلا، وليس هذا فحسب وإنما ليس في محبة الواحد النفس لوازم السعادة التامة!. ومن ثم فإن في وجود الأقانيم واتحادها ومحبة أحدها للآخر مما يجعل في الإله مقتضيات السعادة السرمدية!. وليس هذا فحسب وإنما وجود الأقانيم في اللّه الجوهر الواحد يتفق مع العقيدة القائلة بأن «اللّه محبة»، فإن «المحبة»، إنما مجموعة الصفات ومصدر كل عمل، والمحبة لا يمكن تصوّر معناها إلاّ إذا كان هناك تعدد في الأقانيم الإلهية، فالمحبة لا تكون إلاّ بين اثنين؛ محِب ومحَب، فما الحب إلاّ جاذب ومجذوب وقوة جاذبة تصدر عن الواحد إلى الآخر، وليس هناك ما يمثّل هذا البر أكثر من أب وابنه وروح هو الجاذبية المتبادلة!..

من ثم، و«المحبة» هي جوهر الذات الإلهية وبالتالي هي الصلة العاملة بين الأب والابن والروح القدس منذ الأزل، يكون الوجود ليس إلاّ نتيجة لهذه المحبة التي كانت ترغب في إيجاد كائنات ينعمون بسعادة الوجود على صورة وجود المحبة الإلهية التامة السعادة!... وعلى هذه الأسس يكون الاعتقاد بإله مثلّث الأقانيم ليس له تعلقات جديدة لأن علاقة الأقانيم بعضها ببعض إنما منذ الأزل قائمة وليس خلق العالم ذا علاقات حادثة سوى أنه امتداد لحرارة الحب الإلهي الكائن بين الأقانيم الناعمة بسعادة الحب!...

يقيناً ليس في إيجاد الكائنات علاقات وتأثيرات جديدة، فالانتسابات والعلاقات إنما منذ الأزل موجودة في ذات الجوهر الإلهي بين الأقانيم الثلاثة. وهذه الانتسابات والعلاقات القديمة الكائنة بين الأب والابن والروح القدس هي التي قد امتدت حرارتها من الطاقة الأبدية تشعّ روح الحياة وتنفث في النفوس نفس المحبة الإلهية!.. فإن السرمدي الغير محدود الغير متناهٍ قد امدّ عمل محبته المركز في ثالوث أقانيمه فكان، بموجوداته، الوجود!...

وهكذا نرى أن عقيدة التثليث لا تحل فحسب مشكلة الوجود وإنما توفّق بين عقيدة التنزيه وبين عمل اللّه في الكون وصلته بالكائنات!... وعلى صحة هذه العقيدة تأتي بعد الأدلة الأدلة وتتوالى بعد البراهين البراهين المستمدة من صفات ثلاث... فإن جميع الصفات التي تُنسب إلى اللّه لا يستقيم معناها ولا تقوم في العقل للإله بها صورة إلاّ مع تصوُّر تعدد الأقانيم في ذات الإله الواحدة.

ولنأخذ مثلاً: صفة العدل ـ صفة العدل لا تقوم إلاّ بتصور قاضٍ وأمامه متقاضيان، وهكذا فإن العدل صفة لا بدّ لتصوّرها من تصوّر ثلاثة!...

وكصفة العدل تأتي؛ ـ صفة الحب ـ صفة الحب إنما صفة لا يستقيم معناها إلاّ حين يتصورها العقل بين محب ومحبوب، وصفة الحب في اللّه المثلّث الأقانيم كانت عاملاً منذ القِدم بين الإله الأب والإله الابن بروح هو الروح القدس!... وهكذا فإن الحب صفة لا بدّ لتصورها من تصور ثلاثة!..

وكالصفتين السابقتين تأتي؛ ـ صفة السلام ـ إن السلام الذي يبدو على واحد منفرد منعزل ليس بسلام كلا ولا يتصف صاحبها بصفة مسالمة إلاّ إذا عاش مع جماعة واحتفظ معهم بالسلام، فحينئذٍ نعرف بأن صفته السلام، وهكذا يكون معنى السلام الموصوف به اللّه لا يفهم معناه إلاّ مع تعدد الأقانيم الأب فالسلام الإلهي بين الأب والابن والروح القدس هو الذي يجعل صفة السلام قائمة وأنها قط لم تكن في ذات الذات الإلهية أبداً عاطلة بل عاملة!..

هذه هي الماهية من عقيدة التثليث في الدين المسيحي... أجل هذه هي الماهية من عقيدة التثليث التي لا نستعرضها إلاّ ويأتينا من العالم المسيحي السؤال، أشك بعد ذلك في صحة التثليث؟..

سؤال تلقيه إلينا الشفاه اللاّهوتية لنلقي إليها بالسلب الجواب ولكن!.. نحن إذ نتبع في سجلّ التاريخ الديني منشأ هذه العقيدة وتطورها عبْر التيار الزمني حتى المدى الذي رسخت فيه في العقلية اللاّهوتية المسيحية وأصبح الإيمان بها يُفرض في مجامعها على الناس فرضاً... نحن إذا ما استعرضنا هذه العقيدة مقتنعين بأنها بين العملي والنظري يتراوح في التفكير المسيحي عنها التفكير فإن الأدلة التي تقدمها على صحتها والاستدلالات التي تأتي بها على صواب شرعيتها ليس فيها برهان يمكن أن يستخلصه العقل من أي مصدر سوى نصوص تلك المجامع الدينية. فالبرهان الذي تعتمد عليه هذه العقيدة في صحتها إنما نص لاهوتي محض ومحصور فيما ناولته اليد اللاّهوتية للأجيال من كتابٍ لئن كان فيه يسوع هو المحور فإنما يسوعٍ به لم يعلم ولسطوره لم يمل، فهو به لم يأت وعليه لم يتنزّل وباسمه لم يسمع إذ ليس إلاّ بعده بردح من الزمن قد كوّنت منه الأناجيل أيدٍ مختلفة ناولتها للأجيال كتاباً واحداً ما لبثت الأجيال أن حفّته بالتقديس ليتنزّل، منذ ذاك العهد حتى عهدنا هذا، بما يضمّه من أناجيل أربعة ورسائل ثلاث وعشرين أضيفت إلى ما قد سبق من «الأسفار العبرية» التسعة والثلاثين، كتاباً مقدساً واحداً يحمل اسم:

«العهد القديم» و«العهد الجديد»

ولهذا «الكتاب المقدس»، بعهديه، تتناول اليد من جديد ومن جديد تُقلِّب منه الصفحات، بينما يسير الفكر بين سطوره مقارناً المعتقد الديني في «القديم» بالمعتقد الديني في «الجديد» ومستعرضاً الاتجاه الفكري في «القديم» بالاتجاه الفكري في «الجديد» ولكن! لا تطوي اليد منا حتى النهاية من هذا «الكتاب» الصفحات إلا ويوقن الفكر تمام الإيقان بأن «الجديد» من «عهديه» إنما عن «القديم» يختلف تمام الاختلاف، فليس الاختلاف بسطحي اختلاف كلا ولا هو بخفي اختلاف وإنما الاختلاف جوهري وأساسي قلباً وقالباً، فالاختلاف إنما اختلاف في المبادىء وفي الاتجاهات وفي الشرائع، بل إن هذا الاختلاف يطالعنا منذ اللحظة التي تبدأ فيها يدنا تقلّب أول أسفار «العهد القديم» إذ يطلع علينا هذا الاختلاف ظاهراً وجلياً في أساس الصرح الذي يقوم عليه الدين وهو الطبيعة!... فالواحد إنما بالخلق يقول بل وبالخلق الزمني في الزمن يقول، بينما الآخر يقول «بالكلمة» والقول «بالكلمة» إنما قول يتضمّن القول باللاّخلق واللاّزمن!. فإن عمّا جاء في قصة التكوين في

«العهد القديم» من إفراغ الخلق في يد «أهيه» تختلف العقيدة في «العهد الجديد» من إفراغ الوجود في روح «الروح»!... وهذا إنما تناقض تام بين العقيدتين في كلا «العهدين»!..

بل إن عن «العهد القديم» يتحوّل «العهد الجديد» تحولاً أساسياً فلا يقول القول القديم بأن المنشأ كان من الماء في ظلمة ونور وبطريقة «كن فكان»، وإنما يقول بأن «الكلمة» هو المبدأ ويجعل الإيجاد قد جاء عن طريق «المحبة»!.. وهذا إنما تناقض سافر بين العقيدتين في كلا «العهدين»!..

ومن ثم فاليد إذ تقلب الصفحات من «العهدين» فليس إلاّ لتترك التفكير بين «العهدين» حائراً حيرة مرّ بها من قبل نفس التفكير المسيحي واعترضته والأيام به في مجرى الزمن تسير، فقد وقف هذا الفكر حائراً تجاه العقيدتين يرى نفسه أنه بينما يقف بقدسية «الكتاب المقدس» معقود الإيمان، فليس إلاّ ليرى أن «عهداً» يضمُّ ديناً مذ القدم قد استتبّ بعقيدة «كن فكان» و«عهداً» يضم ديناً لم يستتب، حديثاً، إلاّ بعقيدة «الكلمة»!.

ولكن!. التفكير المسيحي إذ يقف تجاه «العقيدتين» حائراً فليس إلاّ ليرى أن هذا «الكتاب»، ككل، بعهديه «القديم والجديد» إنما قد أمسى المادة التي كوّنت صرح الدين المسيحي!. ومن ثم كان حتماً أن يحاول هذا التفكير محو التناقض البيّن بين هذين «العهدين» اللذين يضمهما كتاب واحد غدا يمثّل الصرح من دينه الذي قد شمخ على أنقاض داثر الأديان.. فسجّلت محاولته:

تخضيب المسيحية بالصبغة الأفلاطونية

بـ «أغسطين» (٣٥٤ ـ ٤٣٠)، أوسع آباء الكنيسة نفوذاً تمثّل هذا التفكير وجاءت هذه المحاولة غداة إلى ما في «العهدين» من تناقض أشارت تلك الناحية المخضبة «بالعقليات» والتفكير المنطقي من البقية الباقية من ورثة الفلسفة الإغريقية وفي إلماح أشارت إليه إشارة كانت لها معناها عند أغسطين وهو الذي لم يعتنق المسيحية إلاّ بعد أن أصبحت المناصب الرسمية في الإمبراطورية معقودة للمسيحيين، فقد انتفض أغسطين، بعد تعثّر بين فلسفات العصر المتلاشية وتردُّد بين أديانه ومذاهبه وخاصة المانوية التي كان قد اعتنقها ردحاً من الزمن ديناً، ما لبث أن انسلخ عنه إلى هذا الدين الذي أمسى الدين الرسمي للإمبراطورية، انتفاضة الزوْد عن هذا الدين الذي إلى اعتناقه قد دفعت من الأسباب أسباب.. ومستعرضاً ما يضمه كتاب هذا الدين من «المعتقدات» نشر مقارناً من «العهدين» الصفحات... ولكن!. ليس إلاّ ليجد، مهما قلّب الصفحات ومهما بين المعتقد والمعتقد أسعفه علمه بقديم الأديان بإمكان إزالة التعارض، أن النصوص من كليهما تتعارض تعارضاً صريحاً وبيّناً!...

ولإزالة التعارض بين «العهدين» المتعارضين اضطلع التفكير الأغسطيني لا فحسب لصيانة الدين الرسمي من التصدّع وإنما لإقناع تلك الأقلية المؤلفة الجانب المثقف من بقايا حملة الفلسفة الإغريقية التي كانت ما تزال تقف بعيداً عن هذه الأكثرية التي لم تحد عن طبيعة الجماعات في كل زمان ومكان من الأخذ بالعقائد المفروضة دون ما محص لما قد فُرض عليها من العقائد...

وإلى غايته، في انتصار لعقيدة «التجسّد»، اتخذ أغسطين وسيلة أفلاطون وأفلوطين... إلى أفلاطون ضمّ أفلوطين فضُمّت بذلك «المثُل» إلى «الأقانيم»!. حُوّرت «المثُل الأفلاطونية» إلى صور هي «الأقانيم الأفلوطينة»... ومن الفلسفتين صاغ أُغسطين للمسيحية فلسفة هي لكليهما جامعة إذ تقول:

«إن المثُل ليست بذاتها قائمة وإنما للإله هي أفكار!...»

لا ثمة شك في أن أُغسطين في مرماه هذا لم يرم إلاّ إلى إقناع الناحية المثقفة من بقايا حملة الفلسفة الإغريقية بالمسيحية كدين، بيد أنه بهذا المرمى إنما عن العقيدة الصحيحة للمسيحية قد انحرف انحرافاً ظاهراً بل ومحسوساً بمخالفته تمام المخالفة النصّ اليوحني في نفس الوقت الذي انحرف فيه أيضاً عن العقيدة الصحيحة للفلسفتين الأفلاطونية والأفلوطنية!.. فهو، بُغية انتصار المسيحية كدين بين ورثة الفلسفة، قد وضع الأفلاطونية في القوالب اللاّهوتية وأخضع الفلسفة للدين وجرت يده تسطِّر[1] بالاّ اعتراض هناك على تعارض العقيدتين في كلا «العهدين»!..

وأي اعتراض؟!. حقيقة إن «سفر التكوين» من «العهد القديم» يتحدث عن إيجاد الوجود فيقول إنها عملية قد تمّت عن طريق «الخلق» وإن مظاهر الوجود والحياة قد تدرّجت في الظهور تبعاً للتتابع الزمني، فهو يحدِّد الزمن الذي كانت في غضونه تجري عملية الخلق قائلاً إنها ستة أيام في غضونهن خلق اللّه العالم ولكن!.. هذا القول لا ينبغي أن يُفهم على ظاهره بل على معناه لأن اليوم من أيام «الخلق» غير اليوم الذي نحسبه من تقلّب الليل والنهار، لأنه لم يكن هناك كليلنا ليل، ولا كان هناك كنهارنا نهار.... و«لأنه لم يكن قبل الآن آن».

أغسطين

كلا... لم يكن هناك ليل كما نعرف من ليل ولا كان هناك نهار كما نعرف من

(١) الاعترافات لأغسطين

نهار!.. من ثم، وقد استبنّا ذلك، فلا مناص لنا من تقدير تلك «الأيام» بغير المقدار الذي نُجريه في حساب الأفلاك، ومن ثم لا محل للاعتراض على خلق العالم في زمان هو غير ما نعرف من هذا الزمان الذي لم يكن قط قبل العالم حتى يقال إنه خلق فيه. فإذا خلق من العدم فليس هناك مفاضلة بين زمانين ولا موجب للسؤال عن تفضيل زمان على زمان!..

وأيّ اعتراض؟!.. إن اللّه أزلي والأزلية تستلزم أن يكون الإله لا زمني. كالأزلية إنما الأبدية!.. فأبدية الإله لا يحدّها الزمن. ومن ثم فالزمن لدى الإله، وهو الأزلي الأبدي، إنما بحاضره وأمسه وغده، أبداً الحاضر!.. ومن هنا ندرك أن الزمن لم يسبق وجود الإله وإلاّ لتضمّن القول إن الإله كان في زمن بينما هو يقف، سرمداً، بعيداً عن التيار الزمني الذي بقدرته هو قد أجراه!...

وما الزمن؟ إن الزمن شيء يقاس!.. ولا يقاس إلاّ وهو مارٌ بينما الطيف منه ينقسم إلى ثلاثة ألوان.. فهو ينقسم إلى: ماضٍ ومستقبل وحاضر. وحقيقة ليس بين هذه الألوان إلاّ الحاضر. هو الحاضر فالحاضر إنما حاضر بلون؛ «المشاهدة» ولكن.. ما الحاضر؟!. الحاضر ليس إلاّ رهين لحظة!...

ولكن!. لئن كان الحاضر هو وحده الحاضر فإن الماضي، أيضاً، حاضر في الحاضر!.. حاضر إنما الماضي في الحاضر بلون؛ «الذكرى»... بل والمستقبل، أيضاً، في الحاضر حاضر!.. حاضر إنما المستقبل في الحاضر بلون؛ «التوقُّع».. وكلاهما: الذكرى والتوقع، إنما في الواقع، كالمشاهدة تماماً، حقيقة حاضرة..

من ثم يقيناً يكون الزمن في حقيقته مشتملاً على؛ حاضِر حاضرِ حاضر وحاضر ماضٍ مضى. وحضر حاضرات. فما «المشاهدة» إلاّ حاضر الحاضر وما «الذكرى» إلاّ حاضر ماضٍ مضى وما «التوقع» إلاّ حاضر الآتي[1].

إذاً، كنتيجة حتمية لهذه الاستدلالات المنطقية، يكون الزمن شيئاً موضوعياً، ذهنياً، داخلياً!... يكون الزمن، في مداه الحقيقي، شيئاً داخل العقل الإنساني الذي يتذكر ويتأمل ويتوقع!.. وإذا كان الزمن شأنه هذا الشأن فحتماً بناءً على هذه الاستدلالات المنطقية، يتحتّم استحالة وجود زمن بدون كائن موجود!. وإذا استحال وجود زمن بدون كائن موجود فيقيناً أن الزمن شيء لم يك له وجود قبل الخلق!. وإذا استحال وجود زمن قبل الخلق استحال أن يكون للإله زمن!..

---

(١) الاعترافات لأغسطين

وعلى أسس من هذه الدعامة المنطقية التي جاءت من مدد الأفلاطونية والأفلوطينية استرسل أغسطين يقول:

من ثم وقد استبنّا أن الزمن الذي له نعرف إنما شيء محض تصوري فيقيناً ألاّ تعارض هناك في الواقع بين النصوص التي جاء بها أول أسفار «العهد القديم» وتلك التي جاء بها آخر أناجيل «العهد الجديد»!... قط ليس هناك من تعارض بين العقيدة الفلسفية القائلة بالأزلية والعقيدة الدينية القائلة بالخلق لأنه مما قد تقدم من تعريفنا للزمن ومعرفتنا بأنه شيء تصوري محض ندرك أن:

الخلق خالد في الأزل[1]!.

من مددِ «العقليات» جاء «بالتصورية» في أمر الزمن أُغسطين وأودع «الخلق» في «الأزل» ومن مادتي «العهد القديم» و«العهد الجديد» شاد للمسيحية صرحاً ألقي عليه من الأفلاطونية والأفلوطينية الطلاء وبجانب هذا الصرح وقف في استنادٍ إليه متجهاً إلى البقية الباقية من بقايا حملة الفلسفة الإغريقية يتنادى:

أيّ تعارض إذاً، والخلق إنما في الأزل خالد، بين القول «بالخلق» القائل به «العهد القديم» وبين القول «بالأزلية» القائل به «العهد الجديد»؟!

يقيناً!. كفيلون كان أُغسطين!. إلى رموزٍ حول صريح النصوص والجليّ العبارات بغوامض المعنويات أوَّل، ومن باهت الفلسفات الغاربة أتى بتفسير فلسفي خضّب به ما له كان قد اعتنق من رسمي للدولة القائمة، بل وصنو فيلون كان في هذا المضمار الصنو من دين أغسطين، فقد دفعه دافع من ضغط تفكير أدرك به أن الغلبة لن تتم للدين ما لم يوضع في القوالب العقلية، فليس إلاّ بغية انتصار المسيحية في الدوائر الفكرية وضع أغسطين المسيحية في القوالب العقلية ووضع العقليات في القوالب اللاّهوتية، وليس إلاّ للسبب أخضع الفلسفة للدين إخضاعاً اعترف به في «الاعترافات»، فعلى صفحاتها قد جرت يده تسجّل بألاّ اعتراض على تعارض العقيدتين في كلا «العهدين».. ولكن!. إخضاعه الفلسفة للدين بخلعه الرداء الفلسفي على العقيدة الدينية وتحيّزه إلى العقيدة التي جاء بها الأول من أسفار «العهد القديم» إنما انحراف واضح عن العقيدة المسيحية التي جاءت في الرابع من الأناجيل والتي كانت نُواة «الصيغة النيقية» التي صاغت الجوهر من عقيدة التثليث!.. بيْدَ أن كان حتماً أن تجيء هذه الخطوة فإنما هي الخطوة، التي تجيء دائماً في أعقاب كل محاولة

(١) الاعترافات لأغسطين

تهدف إلى جمع «العقل» إلى «النقل» وإن كان أُغسطين بذلك قد وضع الدين وضعاً كان من جرائه أن طلعت على التاريخ الديني المسيحي عقيدة تقول في آن الآن «بالخلق» و«بالأزلية» عن طريق إخلاد «الخلق» في «الأزل»!.

ولكن.. على أُغسطين، المُمثِّل الحلقة الأولى من سلسلة الانتصار الفلسفي للمسيحية كدينٍ، لم يعترض العصر، كلا، وليس هذا فحسب وإنما العصر قد تغاضى، تغاضي أغسطين نفسه، عن أهم النقاط الواضحة التعارض في كلا «العهدين» والتي لا تقبل بحالٍ فيما بينها أي لون من ألوان التوافق أو التوفيق!.. فإن هناك في «سفر التكوين»، هذا السفر الذي به قد استمسك أُغسطين وبه قد تمسّك حتى رجّح على العقيدة الفلسفية القائلة بالأزلية عقيدة دينية تقول بالخلق، قولاً يصرِّح تمام التصريح بالخلق في الزمن وأن الخلق قد تمّ في ستة أيام.. وهذا إنما تصريح لا فحسب لا يقبل التأويل وإنما ينقضه القول بسرمدية الإله! فإنه إذا كان الإله أزلياً أبدياً وبالتالي سرمدياً ومن ثم لا زمني ـ إذا كان لم يك هناك قبل الخلق زمان ـ فالقول الذي يقول به «سفر التكوين» إنما، على أسس هذا التصريح، قول مرفوض!..

وحتى!.. حتى لو افترض التأويل فقيل بأن الأيام التي يعنيها هذا «السِفْر» تعني عهوداً فالقول أيضاً إنما الرفض الأول مرفوض!... مرفوض هو لأن «سفر التكوين» في تحدثه عن التكوين يقول إن الشمس والقمر والنجوم هذه الأجرام التي تعتبر للزمن مقياساً، قد خُلقت في هذه الأيام الستة بعد خلق الأرض!.. ومن ثم فالقول من هذا «السِفْر» إنما بوضوح يرفض كل ألوان التأويل بأن الزمن شيء لم يك له وجود قبل الخلق لأنه يُصرِّح صراحة قاطعة بأن هناك زمناً، وإن يك غير ما نعلم من زمن، هو على الإله جار وأن الأيام الستة من هذا الزمن هي من أيامه أيام من حيث إنه فيها قد أتمّ عملية الخلق!.. إذن!. إذن وأيام الإله وإن تك غير ما نعهد من أيام فأيام!... وزمن الإله وإن يك غير ما نعلم من زمن فزمن! من ثم إذا كان للإله تبعاً لهذا المنطق، زمن فحتماً يكون الإله خاضعاً لزمن ومن ثم خاضعاً للتغير والخاضع للتغير إنما خاضع للتحول في كل يوم من حال إلى حال!. وهذا إنما قول لا يتنافى فحسب وما للإله من سرمدية وإنما يتعارض تمام التعارض والعقيدة المسيحية التي اتخذت «الكلمة» مبدأ أول لأن اعتبار «الكلمة» مبدأ أول إنما نفي قاطع للقول بعقيدة الخلق من العدم!...

بيد أن إلى هذه الدقائق العقلية لم يلتفت العصر كلا ولا إلى هذه الاستدلالات المنطقية تنبّه وكأنه على أغسطين قد أبى اعتراضاً!.. وأي اعتراض يمكن للعصر أن يعترض به على

أغسطين وهو إنما قد جاء للمسيحية مفلسفاً حتى المدى الذي تراءت فيه الأفلاطونية وكأن المسيحية مرآة فيها قد انعكست؟!..

للسبب، غمر منطق أغسطين العصر... وللسبب جرى تيار الإيمان المسيحي جامعاً بين عقيدتين متعارضتين.. وهكذا في تعارض انحدر عبر القرون بجانب النص اليوحني النص من «سفر التكوين»، وكأن عن إبراز تعارض القولين بين قول يقول بالخلق من العدم وقول آخر للعدم نافٍ قد تراخت العوارض الفكرية!.. بل يقيناً لقد تراخت العوارض الفكرية فهي على المنطق الأغسطيني الذي كان قد جاء لهذا «الكلمة» مدّعماً عن طريق تدعيمه عقيدة «التجسُّد» لم تعترض وكأنها قد تناست تلك اللحظة التي كان خلالها قد امتد المنطق الأغسطيني، وقد تمّ تأليه المسيح، يدعِّم عقيدة «التجسُّد» ويؤيد العقيدة القائلة بأن الإله في صورة المسيح قد هبط الأرض ليفتدي من الخطيئة الإنسان وأنه قد مات ليحيا من جديد حياة يكفل بها له الخلود!...

أجل.. لعقيدة «التجسّد» أيّد أغسطين ولها انتصر لحظة اعترضت تفكيره مشكلة «الخير والشر» التي ما اعترضته إلاّ وإلى الأفلاطونية والأفلوطينية كان المتجه ليأتي منهما أيضاً بالمدد الذي بسببه جاء بنظرة تقول: بأنه لا اعتراض هناك بوجود الشر على وجود اللّه كخير لأن الشر ليس بموجود حتى يُنسب إيجاده إلى اللّه!. كلا، فإن الشر ليس إلاّ عدم الخير ولا بدّ من عدم بعض الخير في المخلوق لأن المخلوق إنما محدود والمحدود لا يمكن، عقلاً، أن يكون خيراً محضاً أو أن يكون كل الخير!...

بيد أنه ما استمدّ اغسطين من «العقليات» هذا المدد إلاّ ليطبقه على «النقليات» وإلاّ ليجعل «الخطيئة العالمية» سبباً في وجود الشر، فالمنطق الأغسطيني قد انحرف منحرفاً لاهوتياً عبره جرى قائلاً:

إن «لآدم» كانت، قبل «الهبوط من الجنة»، حرية الإرادة ولكن!. بعصيانه اللّه وأكله وحواء «الثمرة المحرّمة» قد دبّ في نفسيهما الفساد الذي انحدر منهما، تبعاً لقانون الوراثة، إلى ذريتهما فكان ما نسميه؛ الشرّ!...

بهذه النظرة في تفسيره ظاهرة الشر جاء أغسطين ولكن.. أغسطين إذ يجعل «الخطيئة العالمية» لوجود الشر سبباً فليس إلاّ ليجعل هذه العقيدة حجر الأساس في صرح «عقيدة التجسّد»، إذ ليس إلاّ بسبب هذه «الخطيئة» التي توارثها البشر عن أبويهما قد تجسّد اللّه على الأرض في صورة يسوع لخلاص البشر!.. ومن هناك كان استرسال المنطق الأغسطيني يقول بأنه للسبب لم يسلم من «الخطيئة» أحد!.. فإنه بما أننا كلنا قد ورثنا عن هذا الأب

الخطيئة فإننا، كلنا، قد استحققنا اللّعنة التي لم ترفعها عنّا إلاّ خيرية اللّه ومحبته لنا التي حتمت ظهوره على الأرض وتجسّده بشراً وتضحيته بنفسه ليصالحنا مع نفسه وليفتدينا من هذه الخطيئة ويمنحنا، كنفسه، الخلود!.. وعند هذه النقطة من المنطق اللاّهوتي يهبّ أغسطين يتساءل:

من ثم.. أوشك في أننا كلنا قد وُلدنا خاطئين وأشراراً وأننا قد استحققنا اللّعنة؟... يقيناً إن بالسلب يأتي الجواب، لأنه لولا ذلك لما كان اللّه قد تجسّد على الأرض لخلاصنا ولولا ذلك لما كان الفداء!...

إن اللّعنة تُبرهن على عدالة اللّه وأما الفداء فرحمته، والاثنان معاً يبرهنان على أنه «خيِّر» فلم يك الإله ليهبط الأرض إلاّ بسبب تلك «الخطيئة» التي هبط بسببها «آدم» من «الجنة» والتي بالتالي قد توارثها عنه أبناؤه والتي، أيضاً، قد سبّبت ظاهرة الموت التي تصيب كل إنسان... فما هبط الإله الأرض بصورة الإنسان إلاّ رحمة منه للبشر لتخليص البشرية من الخطيئة ومنح البشر نعمة الخلود!

على هذه الأسس التي كان قد أرساها بولس فأقام عليها صرح الدين المسيحي، قام المنطق الأغسطيني مُدمجاً مشكلة «الخير والشر» في عقيدة «الخطيئة العالمية» ومتخذاً من هذه العقيدة أساساً لتوطيد صرح «عقيدة التجسُّد» محاولاً أن يجعلها للدوائر الفكرية عقيدة مقبولة...

ولكن!.. هنا يُطرق الفكر للحظة يتجه فيها إلى أغسطين ومن خلال الأجيال له يسأل؛ إذا كان اللّه حقيقة قد تجسّد بشراً لخلاص البشر من هذه «الخطيئة» وإذا كان حقاً أنه في صورة يسوع قد تألم ومات فافتداهم منها وبذلك خلّص العالم من الشرّ، فلماذا إذن ما زال الشر موجوداً وبوجوده «الاعترافات» تعترف؟!.

سؤال، يلقيه الفكر من خلال الأجيال إلى أغسطين واليد تقلّب صفحات «الاعترافات» بحثاً عن حلٍّ إيجابي لمشكلة الشر ولكن.. عبثاً!.. فصامتة «الاعترافات» إلاّ عن إعلان اعترافها بأننا كلنا قد ورثنا هذه «الخطيئة» التي كانت سبباً في وجود هذا الشر الذي لن يُخفِّف من وطأته علينا إلاّ، «العماد»!. فإنما «العماد» شعيرة هامة من شعائر الدين لا يجب إغفالها لأن إغفالها يؤدي بالمصير حتماً إلى «الجحيم»!. بل حتى الطفل إذا قضى من غير «تعمّد» فمصيره أيضاً إلى «الجحيم»!. لا!. ليس لنا في ذلك أن نعارض، لا وليس لنا على ذلك أن نعترض لأننا جميعنا قد وُلدنا مثقلين بأثقال الخطيئة ومن ثم أشراراً!..

أجل... صامتة إنما «الاعترافات» عن حلٍّ إيجابي لمشكلة الشر، فنحن مهما أطلنا في

صفحات «الاعترافات» تصفحاً فلن ننتهي إلاّ إلى نتيجة واحدة هي نهاية السلسلة التي جرى عبر حلقاتها المنطق الأغسطيني متخذاً منها مسنداً «للقانون النيقي»، فمن حفيف أوراق «الاعترافات» لا ينساب إلاّ رجع الصدى مؤكداً «مذهب المساواة» ومردِّداً؛ يقيناً، والإله إنما قد هبط الأرض وفي صورة «المسيح» قد تجسّد، ليس للمسيح في ضوء اليقين إلاّ، طبيعة واحدة!..

هذا هو المنطق الأغسطيني الذي لا نستوعبه إلاّ ويتضح لنا بأنه ليس إلاّ في انتصار للدين الرسمي للدولة القائمة جاء أغسطين. وليس إلاّ لنصرة هذا الدين وإيلاجه في الدائرة الفكرية للعصر قد ضمّ أفلاطون إلى أفلوطين فخضّب المسيحية بالأفلاطونية تخضيباً به دخلت الأفلاطونية في المسيحية دخولاً غير مباشر وبهذا الخضاب أيّد «عقيدة التجسّد» وأيد «الكتاب المقدس» بعهديه «القديم» و«الجديد» ليتخذ من هذا التأييد مادة لرأي له به اختتم فلسفته قائلاً:

إن العلم إنما متضمّن في تعاليم «الكتاب المقدس»، فإن هذا «الكتاب المقدس»، الذي تعتبره المسيحية أصلاً ثابتاً في بناء صرحها إنما بعهديه «القديم» و«الجديد» يتضمّن كل ما إليه البشر في حاجة!..

«ليس في الإمكان التسليم برأي لا يؤيده الكتاب المقدس لأن سلطانه أقوى من كل سلطان أمر به العقل البشري»!

أغسطين

بهذا المنطق الذي وضعه، في مطلع القرن الخامس، أوسع آباء الكنيسة نفوذاً وسجله في كتابه الذي وضع به شروحاً للنصوص المقدسة[1] وضع للاّهوت دستوراً لزمه اللاّهوت إزاء كل حركة عقلية من بعد وبه هيمن على سائر ميادين البحث العلمي والعقلي. فإن بهذا الدستور، الذي أخضع سلطان العقل الإنساني لسلطان «الكتاب المقدس» قد أصبح «الكتاب المقدس» كتاباً من الخطأ معصوماً!. ومن ثم فكل رأي لا يتفق و«الكتاب المقدس» فمرفوض وكل عقيدة لا تخضع «للكتاب المقدس» فملفوظة!. فللكهنوت المسيحي إنما قد غدا الحكم معقوداً في نتاج الفكر الإنساني والتحكم في ثمار العقول!...

من الطبيعي كان حتماً أن تمتلك يد الكهنوت المسيحي، بهذه السلطة المستمدة من دستور يقوم على عصمة «الكتاب المقدس» من الخطأ، الحكم والتحكّم في مجرى التيارات

(١) تعليقات على «سفر التكوين» لأغسطين

الفكرية، ومن الطبيعي كان حتماً أن يأتي هذا التحكّم بنتائجه الحتمية التي أصابت الينبوع الفكري بالجفاف... فلم تكن النتائج من التحكم اللاّهوتي في نتاج الفكر الإنساني إلاّ أن تجف «العقليات» أمام مدّ «النقليات» جفافاً لئن إليه كانت قد هيأت للسياسة أحداث، فإن على الإسراع به كانت قوانين المجامع الدينية قد ساعدت.. فمنذ مطلع القرن الخامس للميلاد والدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية إنما هذا الدين!. ومنذ مطلع هذا القرن والكهنوت الوحيد في أرجاء الدنيا التي قد أظلّها الظلال الهلليني الروماني وفي معابده التي كان قد بناها على صفحة الإسكندرية وفي الأكروبول وعلى التلال السبعة، هو الكهنوت المسيحي!.. هذا الكهنوت الذي بدّلت الأيام ضعفه إلى قوة ضاعف من قوتها مرور الأيام من القرن الخامس إلى القرن السادس فالقرن السادس، إنما كان عهد يستانيان!.. فليس إلاّ بانعطاف يستانيان إلى المسيحية وإقفاله المدارس الفلسفية التي كان ما زال بعض منها في عهده قائماً على سفح الأكروبول وصفحة الإسكندرية واضطراره البقية الباقية من حملة العلوم العقلية إلى الفرار من وجه الاضطهاد الديني المسيحي، حيث يمم من يمّم شطر الهضبة الإيرانية، وحيث تناثر في انطواء من تناثر في أرجاء دنيا تلك الدنيا، انتشر غسق جاء به غروب شمس الفكر عن الإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية أو بالأحرى الإمبراطورية المسيحية حتى لم يبق في حواشي الأفق الغارب إلاّ ما قد تركته هذه الشمس من باهت خضاب. وحتى هذا لم يطل من وميضه الأمد طويلاً فقد بدأ في التهافت فالتلاشي أمام مدّ للكهنوت المسيحي جديد محوره «الخلافة المسيحية»... هذه الخلافة التي قامت بقيام عرش خلفاء «المخلِّص العبري» على أنقاض عرش «المخلِّص الروماني»!.. فليس إلاّ بإقفال المدارس الفلسفية بدأت هذه الخلافة التي طلعت تحمل اسم البابوية ترتقي السمت وتُدلي منه ما قد صاغته من أصفاد وقيود تمثَّلت في أهم الأصول اللاّهوتية المتلخصة في:

وجوب الاعتقاد بالقلب ثم بالعقل!.

الرضوخ للسلطة البابوية الممنوحة للزعماء الروحيين أو الآباء المقدسين!

الإيمان «بالكتاب المقدس»، بعهديه «القديم» و«الجديد»، بالوقوف عند النصوص فيه، فإن «الكتاب المقدس» حاوٍ كل ما إليه يحتاج الإنسان في المعاش والمعاد.

«إن اللّه علمنا بالوحي كل ما أراد أن نعلمه!.»

ترتوليان

أُصول، بها امتدّ المدّ المسيحي هادراً جارفاً مكتسحاً وكانت ليد الزمن مداداً به في سجلّ التاريخ الديني سجّلت:

رسوخ المسيحية كدين خلال العصور المظلمة

بين داكن غيوم الأحداث السياسية في آفاق النصف الأول من القرن السادس الميلادي وفي عهدٍ سجّله التاريخ الفكري على نفسه بتاريخ تراخٍ وفتور وفي عالم يمتد عليه، بالبابوية، للدين المسيحي ظلال غابت به في حواشي المغيب أضواء التفكير الحر. كان حتماً أن يتراجع المدُّ العقلي ويستحيل جزراً وأن يحل مكانه لهذا الدين مدٌّ، وأبرز الأدلة التي تقوم برهاناً على هذا الجزر الفلسفي والمدّ الديني المسيحي كان امتداد الظلال المسيحي على مدرسة الإسكندرية الثانية التي خلفت الأفلاطونية الحديثة في المقر الشرقي للتراث الإغريقي منذ منتصف القرن الخامس للميلاد إلى منتصف القرن السابع، قرن الفتح الإسلامي لمصر وغروب العصر الهلليني الروماني تمام الغروب، فليس إلاّ كأثر للمدِّ المسيحي كان أن هوى يحيى النحوي، رئيس هذه المدرسة، إلى المسيحية واعتنقها ديناً ما ضمّه إلى وجدان له كانت فيه قد بُذِرت بذور الفلسفة إلاّ ليذري هذا الدين بهذه البذور ويخنقها، فقد رجح «بالنحوي» الميل إلى هذا الدين ميله إلى الفلسفة وعلى شغفه بأفلاطون رجح شغفه بالمسيح حتى المدى الذي أنزل به مرتبة أستاذه الأول إلى مرتبة أعلنها نداؤه: إن أفلاطون كان يستقي من «الكتب المقدسة»

ولكن.. لئن رجحت «بالنحوي» للعاطفة على العقل ميول وبه إلى المسيحية العاطفة هوت حتى المدى الذي جعل به للدين المسيحي الاعتبار الأول ولرأيه القيمة الأولى فإنه قد حصره الاهتمام في أن يدفع المسيحية بالأفلاطونية وأن يضفي على العقائد الدينية ألوان «العقليات»، ومن ثم كان بذله الجهد في التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية الحديثة عن طريق تقريب أفلاطون من المسيحية[1]، ولكن في إعلاء «للكتاب المقدس» لأن أفلاطون إنسان والإنسان إنما عن الخطأ غير معصوم، وأما «الكتاب المقدس» فوحي، والوحي إنما عن الخطأ معصوم!.

ولأثر يحيى النحوي اقتفى اصطفان الإسكندري، أخر أُستاذ لهذه المدرسة، فقد نهج منهج أستاذه في التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية وتغطية الهوّة الفاصلة التي حفرتها الأفلاطونية الحديثة بين الفلسفة الإغريقية والدين بأن أشاح عن الناحية الفلسفية من الأفلاطونية الحديثة وأقبل على أفلاطون وحده فركز التفلسف في الرياضة وفيما سوى الرياضة من النواحي البعيدة عن الدين، وبذلك أفسح المجال لدين لا فحسب يتلاقى في نطاقه يسوع وأفلاطون وإنما في نطاقه تنحني أمام يسوع الهامة من أفلاطون!.. بل ولتزداد

---

(١) «قدم العالم» ليحيى النحوي

هذه الهامة على انحناء انحناءً باشتداد ظلمة غروب العصر الهلليني الروماني تكاثفاً وانسدال قتمته دمساً حتى بدأت تلف العقل الإنساني دياجير طوته عن نفسه طياتها وأسلمته إلى وهن استسلم به إلى سُباتٍ عميق استوعب ذلك الليل الطويل الذي استطال لأربعة قرون من الزمن غمرت خلالها العالم المسيحي جهالة كان لها أسيراً وعنها سادراً سدوراً في غضونه غمر المدّ المسيحي عالم ذلك العالم فلم يكن إلاّ في غمرة هذا الليل قد غمرت الدين المسيحي دنيا تلك الدنيا ولم يكن إلاّ في طوايا ذلك الليل وطياته كانت قد أستتبت لهذا الدين سيادة مستمدة السلطان من سلطان هذا «الكتاب المقدس» الذي ما بدأ به انحدار هذا الدين على الأجيال ديناً شرعياً إلاّ وإلى محض ذكرى وأطياف ذكريات بدأت تستحيل في جفن الزمن مذاهب العصر الهلليني الروماني وأديانه. فبين ألوان الغسق من غروب هذا العصر، التي تمثّل نفسها لهذا الدين إشراقاً، تنساب نسائم الزمن ويخفق للزمن ريح فيه من رجع الصدى ترديد وحيثما راح فليس إلاّ ليردد بأن:

العصر الذي استهل له في نطاق التفكير الديني تاريخاً بأُلوهة أب سماوي حمل تارة اسم زيوس وتارة اسم جوبيتر ثم سرابيس... قد اختتم له تاريخاً بألوهة أب سماوي ليس الاسم منه إلاّ من أصداء كل هذه الأسماء ترجيع!..

العصر الذي استهل له في تاريخ المعتقدات الدينية تاريخاً بعائلة مقدسة تقف فيها عضواً بارزاً سيدة طهور تحمل اسم إيزيس وتحتل سيادة السماء وفي أرجائها تقف على هلال وبين ذراعيها الأقنوم البارز في الثالوث، حورس الطفل الإلهي الكلمة ونفحة الروح القدس، محمول... إنما قد اختتم له تاريخاً بعائلة مقدسة تقف فيها عضواً بارزاً سيدة طهور تحتل سيادة السماء وفي أرجائها تقف على هلال وبين ذراعيها الأقنوم البارز في الثالوث، الطفل الإلهي والكلمة ونفحة الروح القدس، محمول. ولكن الاسم منها قد استحال من إيزيس إلى مريم تبعاً لاستحالة اسم هذا الأقنوم من حورس إلى يسوع!.

أجل.. إن العصر الذي استهلّ له تاريخاً في نطاق التفكير الديني والرحاب الفلسفي بألوهة إله تربطه والكون «الكلمة»، قد استهلّ له اختتام تاريخ بألوهة أب سماوي فيه من اسمي زيوس وأيوبتر، بل و«ديوش» من قبل، ترديد به قام دين ليست العناصر من حجر الأساس من صرحه إلاّ من مادة القديم... فحجر الأساس إنما ثالوث أقدس يكونه أقانيم ثلاثة تؤلفها وحدة تضم الإله والروح القدس والكلمة الذي غدا صفة ليسوع!..

في مغيب العصر الهلليني الروماني غاب:

«السيد الشهيد» أوزيريس

«الكلمة» و«الروح القدس» حورس بن إيزيس

وابن الإله، من العذراء سميل، ديونيزوس وبانسدال ظلمة «العصور المظلمة» أشرق:

«السيد الشهيد» يسوع

«الكلمة» وروح «الروح القدس» يسوع

ابن الإله، من العذراء مريم، يسوع!..

إلى باهت ذكرى وأطياف ذكريات استحال في جفن الزمن، إلى جانب مثرا وأبولو، أوزيريس وحورس وديونيزوس وفي هذا الجفن غابت إلى نسيان إيزيس. فقد حلّ هذا الدين القائم باسم المسيحية محل هذه الأديان القديمة واحتلّ في العقلية الجديدة مكانة المذاهب الفدائية القديمة في العقلية القديمة وإلى ذلك كان عاملاً إلقاء ثوب الجدة بالشخصيات الجديدة على الشخصيات الباهتة للمعتقدات القديمة واندغام الشعائر القديمة في هذا الدين الذي، وإن لم تكن المبادىء منه جديدة ولا المعتقدات فيه جديدة، كان المحور الجديد منه جديداً. فمن أبرز مظاهر هذا الإدغام أن نرى اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر وهو الذي كان يُحتفل به في الدين الميتهري بمولد «ميتهرا»، تبعاً للاعتقاد القديم بأن هذا اليوم مبدأ الانقلاب الشمسي بدلاً من اليوم الحادي والعشرين في الحساب الفلكي الحديث، قد تحوّل في الكنيسة الغربية إلى الاحتفال بمولد يسوع!..

ومن أبرز مظاهر هذا الإدغام أيضاً أن نرى اليوم السادس من شهر يناير وهو الذي كان يحتفل فيه بعيد أوزيريس، وكان يوافق اليوم الحادي عشر من شهر طوبة في التوقيت المصري القديم ولا يزال متخلفاً حتى اليوم في العادات المصرية الحديثة ويحتفل به باسم «عيد الغطاس» بعد أن اتخذه المذهب الديونيزوسي عيداً للرب ابن العذراء وكان يحتفل به الإغريق والجانب الكبير من آسيا الصغرى، قد تحوّل في الكنيسة الشرقية، التي اعترضت على الكنيسة الغربية لاتخاذها مولد ميتهرا عيداً لمولد يسوع، إلى الاحتفال بمولد يسوع!..

ومن مظاهر هذا الإدغام أيضاً أن نرى اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس، وهو اليوم الذي اتخذه الرومان قبل يسوع تذكاراً لآلام الرب «أتيس» ابن العذراء «نانا»، قد تحوّل إلى تذكار لآلام «المسيح» قبل الصلب!.

في الجديد من الشعائر أُدغم القديم من الشعائر، وفي جديد الطقوس أُدغمت قديم الطقوس، وفي الجديد من الأقانيم والمحدثين من الأشخاص، أُدغم القديم من الأقانيم والقدامى من الأشخاص وبهذا الإدغام تحدّدت في إطار «العصور المظلمة» بوضوحٍ صورة ما زالت حتى الحاضر في آفاق العالم المسيحي مرتسمة تعكسها جدران كنائس اليوم الشرقية

والغربية وأمامها... أمامها، بين الشموع الموقدة والزهر المتضوع، يقف كهنوت محلق الرؤوس مكرّس الحياة للرهبانية يمنح بركة «الثالوث الأقدس» و«بالماء المقدس» يعمّد «المؤمنين» وليسيجهم من الخطايا يناولهم النبيذ والفطير كي يسري فيهم من روح الرب روح بينما يهوي المؤمنون ركعاً تعقد وقدة الحسّ منهم الأصابع ويُسبل الحنين العارم بين الضلوع منهم الجفون ويُطلق الشوق الطامي منهم الخيال إلى أشخاص هذه الصورة التي تقف على قماشها سيدة السماء المسيحية ولقدميها الهلال حامل تهز أغوار القلب حباً بالشوق لاهفاً وحنيناً بالحنان عارماً تتقد جذوته بين الضلوع وجداً إلى من بين ذراعيها محمول... هذا «**الطفل الإلهي**».. «**الكلمة**».. **وصاحب «القلب المقدس»**!...

صورة!.. صورة، يسرّح البصر فيها باصرتيه وإلى أشخاصها يشخص شاخصاً بينما يسبح الفكر متعجباً في ما ليد الزمن من قدرة ومقدرة بهما استطاعت أن تُبدِّل، تحت سجف «العصور المظلمة»، القدامى من الأشخاص، بالمحدثين من الأشخاص وأن تستبدل القديم من الأسماء، بالجديد من الأسماء وأن تجمع كل ما قد سبق من تيارات وتحولها عبر ممرّ الأيام إلى تيار يبدو على أرض الزمن كل الجدة جديداً!.

يقيناً!. ليس إلاّ تحت سجف «العصور المظلمة» كان أن عملت به الزمن بريشتها في الصورة القديمة التي من أصحابها كانت قد بهتت الملامح والسّمات فجددتها بالجديد من الشخصيات، فليس إلاّ في غضون هذا الليل الطويل الذي استوعب من الزمن أربعة قرون، منذ القرن السادس حتى القرن العاشر الميلادي، رسخت المسيحية كدينٍ رسمي وتمكنت في ناحية قوية من القلب البشري منها الأصول وقام، بلاهوتها، لها صرح ما زالت على صفحة الحاضر تقوم منه الأركان وتجعله بين الأديان العالمية يشمخ ديناً عالمياً!..

هذا هو، في سجلّ التاريخ، الدين المسيحي..

دين، به كما هو الآن لم يأت يسوع وإن كان بما يضمه هذا الدين من معتقدات وعقائد كان يسوع نفسه السبب، فليس إلاّ من مادة موافقته على قول بطرس له بأنه هو المسيح وابن اللّه كان قد صاغ هذا الدين من حول شخصية يسوع ليسوع أتباع وأكمل الصياغة للأتباع أتباع أورثوه بدورهم لخلف بهرته صياغة القالب فانصرف عن الجوهر وراح يدين بمعتقدات وعقائد هي من باهت أديان القدامى ومذاهبهم الغاربة بقايا ألوان غافياً عن التفرقة بين العقائد الدينية والمبادىء الروحية والقيم الأخلاقية في المسيحية، وغافلاً عن التفرقة بين العقائد الدينية في المسيحية شيء والقيم الأخلاقية والمبادىء الروحية شيء آخر، فإنما هناك فاصلاً قوياً يفصل بين العقائد الدينية والمبادىء الأخلاقية والتعاليم الاجتماعية والروحية

التي استهلّ يسوع، في مستهل دعوته، ترديدها ترجيعاً عن الرواقية، فإن يسوع الذي قد استهلّ دعوته بالسير في الطريق الذي عبّده الرواقيون ونقلوا العبادة فيه من المظاهر والمراسم إلى الحقائق النفسية إنما قد نقل العبادة نقلهم من عالم الحس إلى عالم الضمير وعلّم تعليمهم بأن «الملكوت السماوي» قائم في الضمير وموجود في كل زمن ومكان ولا يختلف منه القانون في زمن عن زمن ولا في مكان عن مكان بل ونداؤهم نادى بأن، ومناط الخير كله في الضمير ومرجع اليقين كله إلى الضمير، الطهر الكامل في نقاء الضمير!.. ولكن.. يسوع وإن كان ليس إلاّ في اتباع لمبدأ الرواقيين، الذين قد جاءوا مبشّرين بمذهب عالمي قانونه من الرحمة والعدالة مزيج وشريعته الأخوة العالمية ومبدؤه السلام والحب، كان قد استهلّ دعوته ونهج منهجهم ونقل العبادة نقلهم وعلّم تعاليمهم، فإنما قد كان المثل الواقعي للفلسفة الرواقية والروح الذي تركه يسوع لهذا المذهب الذي نشأ باسمه والذي عن هذا المبدأ لم يتحول ويد اللاّهوت تحوله عبر التيار الزمني من مذهب إصلاحي في الموسوية إلى دين.. فالضمير هو الجانب الذي توّجه إليه يسوع في دعوته من جميع مرافقها وكل أطرافها واتجاهاتها بينما كانت شفاهه ترجّع رجْع الصدى الرواقي المدوي بدين عالمي قانونه القانون الأخلاقي في الداخل وشريعته صوت الضمير وتكاليفه تنحصر فيما يمليه هذا الضمير على الفرد من تطبيق مبادىء الإخاء العالمي والسلام والحب!..

ومن ثم فلئن كان الصوت من يسوع انطلق في دائرة الدين بقولٍ كان نواة «العقيدة النيقية» من بعد، فإن هذا الصوت إنما في نفس الوقت كان قد انطلق من ذروة قمم الأخلاق ينادي الإنسان بالارتقاء إليه بينما راح مدوياً في رحاب الروحيات بتعاليم تؤكد قانوناً هو وإن كان ليس إلاّ رجع الصدى الرواقي فإنما يسوع بهذا الصدى قد ضاعف شحذ النفس في الإنسان شحذاً هيأها لتفجير الطاقة الروحية المشتملة عليها كينونته حتى تنطلق شعاعاً يلفح العالم بلهب الحب الطاهر، فإن أجمل ما تعتز به المسيحية وانصعه وأسماه هو هذا المبدأ الذي اتخذته عن الرواقية وبلغت به بدورها شامخ الذرى من قيم الروح وقمم الأخلاق!.

يقيناً إن في الذرى من قمم الأخلاق وقيم الروح تقف المبادىء من هذا الدين الذي لم يكن المحور منه أسطورة حاكتها المخيلة البشرية من نسج القدامى كلا ولا طيف طفا على التاريخ من نبع الخيال، وإنما شخصية تكاثفت الأدلة التاريخية على تقدمة البرهان بأنها عاشت حقيقة على الأرض وعن العين توارت بعد الصلب بعد أن أشعلت ثورة لفح لهيبها العالم الخارجي عن طريق العالم الداخلي الذي غزته بسلاح قد صيغ من مادة «الملكوت السماوي» وروّت فصله من ينابيع المحبة والسماح والسلام، ومن ثم كانت الأخطر من

الثورات الروحية التي عرفتها الحياة البشرية، فهو سلاح لم يهو على الحاقدين وإنما هوى، بالسماح، على الحقد!.. وهو سلاح لم يقتل الأعداء وإنما قتل، بالمحبة، العداء!.. وهو سلاح لم يفرق بين الشعوب وإنما، بالسلام، ضمّ الشعوب وجعلها عائلة واحدة لا مفاضلة فيها بين الشعوب وإنما، بالسلام ضمّ الشعوب وجعلها عائلة واحدة مفاضلة فيها بين فرد وفرد ولا أسبقية فيها لفرد على فرد فالجميع إنما إخوة ومن ثم ففي الحقوق سواسية..

سواسية في الحقوق إنما الجميع في هذه «العائلة» التي لا يبعد الشرير فيها ولا فيها يقرب المحسن، فإنما الشرير في حاجة إلى رعاية المحسن ومساعدته بأن يأخذ بيده وأن يقيله من عثرته بإغداق الخير عليه تشبهاً بخيرية الإله اللاّمحدودة، فهو يرسل نوره على الجميع المحسن منهم والشرير فيهم على سواء!.. ومن ثم فإن المسيحية إذ تربط بهذا المبدأ أواصر العائلة البشرية فإنما هي تأتي بقوة قط لا يمكن أن تُرمى بالضعف أو بالسلبية بل على النقيض فهي إنما قوة تتميز بها التعاليم المسيحية، فإنها بهذا السلاح الذي ترمي به الحقد والعداء إنما كل القوة والمقدرة على استعماله من أصعب الممكنات!. فإن المحبة التي تذيب العداء تتطلب قدرة أكثر من مبادلة العداء بالعداء!. والسلاح الذي يفتت الأحقاد يتطلب مهارة في الاستعمال أكثر من مبادلة الحقد بالحقد!.. والسلام الذي يجمع القلوب أصعب من مبادلة العين بالعين والسن بالسن أو هذا المبدأ الذي نقضه يسوع بهذا السلاح الذي جاء بمادته من عالم الداخل وبه هوى على ما في عالم الخارج من شقاء وإحن ونزاع وحروب لم يكن إلاّ بسبب إشاحة الإنسان عن عالم الداخل، فإنه متى انتظمت الحياة في عالم الداخل انتظمت الحياة في الخارج وأصبحت الأرض مرآة تنعكس عليه بهجة صفاء الملكوت السماوي!.

وهنا.. هنا نستطيع أن نُعلّي الصوت قائلين بأن هناك فاصلاً بتّاراً يفرّق بين العقائد الدينية في المسيحية والمبادىء الأخلاقية والروحية فيها، وليس لذلك من سبب إلاّ لأن المسيحية قد جمعت تيارات العصر الهلليني الروماني من العقائد الدينية والمبادىء الأخلاقية في هذا الدين الذي كان بطرس وبولس ويوحنا بمثابة الأركان من صرحه الذي قام على تربة العصر الهلليني الروماني، فليس إلاّ بتوكيد بطرس ليسوع بأنه هو «المسيح» وابن اللّه وليس إلاّ بإظهار بولس ليسوع تحت شخصية «المسيح» وليس إلاّ بصياغة يوحنا «الكلمة» بشراً وإدغامه «المسيح» في «الكلمة» و«الكلمة» في «المسيح» ومزجه عقيدة «المسيح» العبرية بعقيدة «الكلمة» الإغريقية في شخصية يسوع تحوّل يسوع إلى الصورة التي نراها عليه اليوم كما رسمتها ريشة «المجمع النيقي» وكما أحاطها اللاّهوت المسيحي الصحيح بإطار التأليه!. ولكنها صورة إذا ما وقفنا أمامها لها نتأمل فليس إلا لتعاودنا عن تاريخها الذكريات وليس إلاّ لتعود بنا الذاكرة إلى استعراض تاريخ منشأ فكرة «المسيح» وتاريخ نشأة عقيدة «الكلمة»

وليس إلاّ لنذكر أنه إذا كانت فكرة «المسيح» وانحصارها كعقيدة في شخصية يسوع هي العوامل في انسلاخ المسيحية كمذهب إصلاحي في الموسوية عن الموسوية وتحولها إلى دين، فإن في عقيدة «الكلمة» إلى جانب اعتناق المبادىء الرواقية ينطوي السبب الجوهري في اجتراف المسيحية أديان العصر وفي انتصارها وانتشارها على الأيام حتى اليوم!..

يقيناً!.. لم يك حجر الأساس في بناء الكنيسة، الشرقية والغربية، إلاّ هذا «الكلمة»!.. هذا «الكلمة» الذي من عجيب المفارقات أن يكون، وهو الذي نفسه قد كان السبب في تكوُّن المسيحية، السبب الجوهريَ في انقسام المسيحية على نفسها وتفرّقها فرقاً ومذاهباً غداة لجّ باللاّهوت البحث في طبيعة هذا «الكلمة» ولجّ باللاّهوت هذا البحث إلى لجّة الجدل الذي انقسمت في خضمه الكنيسة المسيحية إلى شيع وأحزاب، وكان من أثر ذلك أن راحت بعض هذه المذاهب التي عدّتها الكنيسة على المسيحية مارقة، كالأريوسية والنسطورية والديصانية، تضرب في آفاقٍ من الأرض بعيدة وتنساب إلى بقعة من بعد بقعة حتى شبه الجزيرة العربية حيث فيها لردح من الزمن غير قصير حلّت من هذه الفِرَق فرقتان حملتا معهما عقائدهما وكتاباً هو ولئن كانت تُكونه ثلاثة وعشرون رسالة وأربعة أناجيل كُتبت بأيدي أتباع ليسوع بعد يسوع، فإن من حوله طوّفت ناحية من الوعي العربي ما لبثت أن احتضنته وما لبثت أن راح من حوله الهمس منها في أرجاء من هذه الصحراء يردِّد بأنه إنجيل من لدن اللّه تنزّل على ابن مريم المصطفاة العذراء؛ عيسى «الكلمة» وروح اللّه!.. وبينما كانت الأرجاء العربية بالسيرة اليسوعية تتهامس مصوّرة من شفاه هذه الفِرَق من المسيحية وبينما إليها المسمع العربي كان مرهفاً يصغي في فجرٍ له طالع، كان غسق العصر الهلليني الروماني يشتد تكاثفاً لتنسدل سجف ذلك الليل الظليم الذي لقرون طوال ظلّت منه السدول غامرة العالم المسيحي بظلمة طبعته بطابع جهالة راح في غمرتها عنها سادراً ولها أسيراً غير متنبّه إلى تاريخ نشأة عقيدة «المسيح» ومنشأ فكرة «الكلمة» والعوامل السياسية والاجتماعية التي كانت المعاول في بناء صرح المسيحية كدين!...

الدين في مصر
والعصور القديمة وعند العبريين

«نحو آفاق أوسع» لأبكار السقاف في أجزائه الأربعة صودر عام ١٩٦٢ لجرأته العقلية والعلمية ، وظلت كتاباتها مطمورة كالكنوز تحت ركام النسيان والتجاهل ، إلا أن شقيقتها الفنانة «ضياء السقاف» ظلت حارسة لهذا الكنز محافظة عليه ، حتى يخرج إلى النور ، كما أرادت له صاحبته ، وكما تمنت أن يكون بستاناً عظيماً يقطف منه العقل الإنساني . وسيذهل العقل العربي عندما يطلع على كتابات هذه السيدة المنسية .

إننا بنشرنا كتابات أبكار السقاف نحاول أن نضع أفكارها كما هي ، حيث حرية الإنسان والبحث عن العقل في عالم متماوج ومتغير ، في عالم تحده أمراض التكفير والقتل المجاني والموت العبثي .

تتألف سلسلة «نحو آفاق أوسع» من أربعة أجزاء هي :

- الدين في مصر والعصور القديمة وعند العبريين
- الدين في الهند والصين وإيران
- الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين
- الدين في شبه الجزيرة العربية